الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة

وزارة التّعليم العالي والبحث العلميّ

جامعة أحمد بن بلّة –1–

وهران

كلّيّة الآداب واللّغات والفنون

قسم اللّغة والأدب العربيّ

أطروحة لنيل شهادة الدّكتوراه في اللّغة

العنـوان

دلالة الظّواهر فوق مقطعيّة في توجيه الخطاب القرآنيّ

إعداد الطّالبة:

– رشيدة بودالية

إشراف الأستاذ:

د. محمّد سعيديّ

أعضـاء لجنة المنـاقشـة:

أ. د. عبد الحليم بن عيسى	عضوا رئيسـا	جامعة وهـران.
د. محمّـد سعيـديّ	مشـرفـا ومقـرّرا	جامعة مستغانم.
أ. د. أحمـد عـزوز	عضوا منـاقشـا	جامعة وهـران.
أ. د. جيـلاليّ بن يشو	عضوا منـاقشـا	جامعة مستغانم.
أ. د. سعـاد بسنـاسيّ	عضوا منـاقشـا	جامعة وهـران.
أ. د. هشـام خـالـديّ	عضوا منـاقشـا	جامعة تلمسان.

السّنة الجامعيّة: 2016م/2017م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

يقول الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – : "**من لم يشكر النّاس؛ لم يشكر الله**."

من أجل ذلك فإنّي أتوجّه بخالص الشّكر والتّقدير لكلّ الأيادي الّتي أحاطت بي؛ كي يخرج هذا البحث في شكله الأخير.

وإنّي لأدعو الله تعالى أن يجزي الجميع خيرا على ما أسدوا من معروف بكلمة، أو فكرة، أو إعارة مصدر أو مرجع، أو مشورة، أو قراءة، أو دعوة صالحة، أو غير ذلك.

وأخصّ أستاذي الفاضل الأستاذ الدّكتور **محمّد سعيديّ**؛ جزاه الله خيرا على الإشراف على هذا البحث منذ كان فكرة حتّى صار في حلّته الأخيرة.

إهـــــداء

إلى روح والدي الطّاهرة **الحاج الزّبير الحلوي بودالية** أسكنه الله فسيح جنانه.

إلى والدتي الغالية **عائشة** آتاها الله موفور الصّحة والعافية، وأبلغها مناها في زيارة البيت الحرام مرّة ثانية.

أهدي عملي هذا وفاء وعرفانا راجية من الله العليّ القدير أن يكتبه أجرا لهما.

رشيـــدة.

مقدّمة

مقــدّمــة:

تعدّ اللّغة ظاهرة اجتماعيّة، وأداة للتّواصل بين البشر، وهي أيضا ظاهرة صوتيّة تتميّز عن بقيّة الرّموز غير اللّغويّة؛ لذا فإنّ دراسة أيّ نصّ أو خطاب دراسة علميّة موضوعيّة تستوجب أن نبدأ بالأصوات؛ لأنّها وحدات تنتج منها الآلاف من الكلمات الّتي تحمل دلالات مختلفة. ومن الحقائق المسلّم بها أنّ الصّوت اللّغويّ هو حياة اللّغة وبقاؤها، وهذه الحقيقة أُعْطِيَ لها حظّها من العناية والاِهتمام والجهد. وأصبحت الدّراسات الصّوتيّة اليوم علماً متعدّد الجوانب، واسع الأبحاث، يقدّم خدماتٍ جليلةً في دراسة اللّغة على المستويين العامّ والوظيفيّ، وذلك لما يمثّله الصّوت اللّغويّ من صورة حيّة للّغة؛ لأنّ اللّغة الّتي لا تُنْطَق هي لغة ميّتة.

وتعدّ الدّراسة الصّوتيّة ممهّدة للدّراسة الصّرفيّة والنّحويّة والمعجميّة والدّلاليّة، فمباحث الصّرف مبنية في أساسها على ما يقرّره علم الأصوات من حقائق ونتائج، كما أنّه لا وجود لعلم الصّرف بدون علم الأصوات، وله دوره الهامّ -أيضا- في الدّراسة النّحويّة؛ من خلال تحديد أنواع الجمل؛ بحيث أنّ نطق بعض الجمل، وما يعتريها من ظواهر صوتيّة يؤدّي إلى تغيّر الدّلالة، ومن هنا كان للصّوت أثر في تحديد نمط الجملة النّحويّ، وتخصيص عناصرها. أمّا بالنّسبة للمستوى الدّلاليّ؛ فإنّه يعدّ الجانب المهمّ في توضيح قيمة الصّوت وظواهره، وتأثيرها في تمثّل الدّلالة وإظهارها. هذا بالإضافة إلى ما يمكن أن تقوم به الظّواهر الصّوتيّة من كشف عن وجهات النّظر الشّخصيّة في عمليّة الاتّصال بين الأفراد، وحالات المتكلّم النّفسيّة كالغضب والسّرور والرّضا والتّهكّم، ويقوم بدور مهمّ في التّعرّف إلى طبقة الفرد الاجتماعيّة والثّقافيّة.

إنّ إدراك العرب المسلمين أنّ سلامة قراءة القرآن الكريم، بالابتعاد عن اللّحن فيه؛ وأمنه من الخطأ في النّطق به خاصّة، هو أيضا سلامة للّغة العربيّة وبقاؤها والحفاظ على صحّتها؛ من هذا المبدأ نشطت الجهود العربيّة لتتبّع الظّواهر اللّغويّة المتنوّعة في القرآن الكريم؛ للكشف عن أسرار هذا الكتاب المعجز سواء في نظمه، أو لفظه، أو صوته، أو معانيه، ونال دراسات عديدة ومتنوّعة حوله؛ ومازال إلى يومنا هذا يستقطب اِهتمام الكثير من الباحثين. وإنّ اِهتمام العرب بالدّراسة الصّوتيّة في القرآن الكريم؛ غايته الحفاظ على تجويده وتلاوته، والوقوف على معانيه، واستنباط أحكامه الشّرعيّة، والأساس في تلقّي القرآن الكريم كان شفاهيّا؛ بل إنّ خاصيّة المشافهة في تلقّيه كانت شرطا اِشترطه العلماء المسلمون؛ حفاظا على سلامته ونقاوته.

ومن ثمّ كان الحفاظ على أداء القرآن الكريم أداءً سليماً من أهمّ واجبات الباحثين؛ فاِستطاع بذلك علماء العربيّة الأوائل أن يقنّنوا نُظُماً للنّطق السّليم، والأداء القويم في القرآن الكريم، وهو دور رائد؛ اعترف به العرب وغيرهم. ولقد كان منهج علماء العرب في اِستقراء البحث الصّوتيّ عن طريق المشافهة، وهو منهج علم القراءات، وعلم التّجويد في تلقّي القرآن الكريم؛ لأنّ ذلك يساعد على تمثّل الدّلالة، كما يظهر ما يحتويه من ظواهر صوتيّة يُتَصَوَّرُ معناها من نطقها؛ خاصّة إذا أدّينا الإلقاء حقّه.

ويعدّ القرآن الكريم أرقى خطاب وُظِّفَ فيه الصّوت اللّغويّ بكلّ مميّزاته؛ فقد تمكّن هذا الصّوت من تحقيق التّصوير الفنيّ المتناسق، وتبيان آيات الإعجاز الأسلوبيّ والبيانيّ، وذلك بهدف التّأثير في المتلقّي؛ ذلك أنّ وقع الخطاب القرآنيّ الّذي يجري على الآذان يتلوّن بتلوّن الأغراض الدّلاليّة الّتي يحملها؛ لهذا جاء الأمر الإلهيّ بضرورة ترتيل القرآن الكريم، ودعت السّنّة النّبويّة بوجوب التّغنّي به وذلك على أحسن وجه. والتّرتيل والتّغنيّ هو قراءة للقرآن قراءة جهريّة فيها تؤدة ورويّة حتّى تستبين الحروف، وتظهر الحركات؛ فيكون ذلك دعوة إلى إمعان الفكر، والوقوف على الأسرار الّتي يحملها الخطاب القرآنيّ.

يمثّل القرآن الكريم منطلقا أساسيّا للدّراسات العربيّة المختلفة، والمتمثّلة في الدّراسات اللّغويّة والبلاغيّة والقرآنيّة، وفي كلّ منها ظهرت بوادر الدّراسات الصّوتيّة بشكل متفاوت، ويعتبر القرآن الكريم مجالا ثريّا لمعرفة مختلف الظّواهر الصّوتيّة الّتي يحملها، ومنها الظّواهر فوق مقطعيّة من نبر وتنغيم ووقف ومفصل، وبمعرفتها يُعْرَفُ الاتّجاه الّذي يأخذه الخطاب القرآنيّ؛ إذ قد تكون هناك وظائف متعدّدة للخطاب الواحد؛ ذلك أنّ كلّ تركيب يصل إلى مستقبل بمفهوم معيّن، ويصل إلى مستقبل آخر بمفهوم آخر، وهو ما نراه في اختلاف المفسّرين في تفسير الآية الواحدة، ومن بين الأسباب المؤدّية إلى هذا الاختلاف هو كيفيّة تلقّي المفسّر للآية، وتفسيره – في أحيان كثيرة – يكون مبنيا على أساس ما سمعه.

إنّ الأسباب الذّاتيّة الّتي دفعتني إلى تناول هذا الموضوع هي رغبتي الشّخصيّة في معرفة ما تؤدّيه الظّواهر فوق مقطعيّة من دلالة؛ خاصّة عندما يتعلّق الأمر بتطبيق هذه الدّراسة على القرآن الكريم. أمّا الأسباب الموضوعيّة فتتمثّل فيما أثبتته الأبحاث من أنّ ظواهر علم الأصوات عند العرب قديما؛ نجدها متناثرة في مؤلّفات متنوّعة الاِختصاصات من نحو ولغة وبلاغة وقراءات وتجويد؛ لذا فإنّه من الضّروريّ الاِستفادة من هذه الأبحاث في تراث الأوائل وتسخيرها.

كما أنّ البحث في اللّغة يحتّم علينا دراستها على أكثر من مستوى لتكون الدّراسة علميّة، والظواهر الصّوتيّة تحمل دلالة في الجملة العربيّة؛ تؤدّي دراستها إلى الجمع بين المستويات اللّغويّة بدءا من الصّوت، ثمّ الصّرف والنّحو وكذا البلاغة؛ اِرتقاءً إلى الدّلالة؛ ممّا يثبت علاقة هذه الفروع بعضها ببعض، ويُمَكِّن من فهم وتحليل اللّغة.

ولقد جاء البحث بهدف الكشف عن القيمة الدّلاليّة للظّواهر الصّوتيّة، وإبراز مكانتها في إعجاز النّصّ القرآنيّ، وقدرتها على الإبلاغ، وذلك من خلال الإشارة إلى دلالة الظّواهر فوق المقطعيّة في الخطاب القرآنيّ. وأثرها الدّلاليّ الواضح في الكلام؛ إذ تعمل على إكساب التّركيب الّذي تقع فيه دلالة معيّنة؛ فقد تحمل العبارة الواحدة عدّة معان، وذلك بناء على الظّواهر الصّوتيّة الّتي تصاحبها. وبعد الموازنة والمراجعة واستشارة الأستاذ المشرف؛ اِستقررت على عنوان تبيّن لي أنّه يعبّر عن مضامين هذا البحث وهو: **دلالة الظّواهر فوق مقطعيّة في توجيه الخطاب القرآنيّ.**

تسعى الظّواهر الصّوتيّة إلى ضبط العلاقة بين ظاهر القول ومضمون القصد، ويؤدّي عدم إتقانها إلى عدم الوضوح، كما أنّ أداءها على أحسن وجه لا يكون إلاّ باِتّباع سنن أهل اللّغة في النّطق والتّعوّد على مجاراتهم، والسّماع للقرّاء والمجوّدين، وعلى هذا الأساس طرحت الإشكاليّة التّالية: هل للظّواهر فوق مقطعيّة دلالة؟ هل لها أثر في توجيه الدّلالة؟ وكيف تؤثّر في دلالة الخطاب القرآنيّ؟

لقد حظيت الظّواهر فوق مقطعيّة بعناية الكثير من الدّارسين، وكان تناولهم لهذه الظّاهرة لما يتبعها من مسائل صوتيّة وصرفيّة ونحويّة ودلاليّة؛ من ذلك كتاب: القضايا التّطريزيّة في القراءات القرآنيّة: دراسة لسانيّة في الصّواتة الإيقاعيّة، لأحمد البايبيّ، وهو كتاب من جزئين تطرّق فيه إلى مساهمة القضايا التّطريزيّة في تأسيس صواتة إيقاعيّة، تسهم بدورها من خلال القول القرآنيّ في الكشف عن الانتظام الإيقاعيّ للّغة العربيّة، واتخذت الدّراسة من القراءات القرآنيّة مَتْنًا لها، واستثمرت الرّباط الوثيق بين القرآن الكريم وقراءاته، ويعتبر هذا الكتاب من أكثر الكتب – الّتي وقعت بين يدي – حديثا عن الظّواهر فوق مقطعيّة.

أمّا بقية الأبحاث الّتي عالجت الموضوع فكانت غالبيّتها عبارة عن مقالات؛ كلّ مقال يتعرّض بالبحث في ظاهرة واحدة ومن زاوية لغويّة معيّنة من ذلك على سبيل المثال لا الحصر: دور التّنغيم في تحديد معنى الجملة العربيّة، لسامي عوض، وعادل عليّ نعامة، والتّنغيم في إطار النّظام النّحويّ، لأحمد أبو اليزيد عليّ الغريب، ونبر الكلمة وقواعده في اللّغة العربيّة، لزاهيد عبد الحميد، هذا بالإضافة إلى البحوث الأكاديميّة الجامعيّة كالماجستير والدّكتوراه منها: دراسة ماجستير لهايل محمّد

طالب بعنوان: التّشكيل التّنغيميّ في المنظومة اللّغويّة العربيّة، سنة 2001م، حمص، جامعة البعث، والّتي قسّمها إلى قسمين نظريّ ومخبريّ. في القسم النّظريّ حدّد مفهوم مصطلح التّنغيم عند العديد من الدّارسين ودوره اللّغويّ، وميّز بين حالتين من التّنغيم:

الأوّل: إبلاغيّ يقوم بإخبارنا أنّ العبارة قد اِكتملت أم لم تكتمل، وهل العبارة سؤال أم جواب أم خبر.

الثّاني: شعوريّ اِنفعاليّ، والّذي يقوم فيه التّنغيم بنقل شحنة محدّدة تعكس ما لدى المتكلّم من حالة شعوريّة اِنفعاليّة لها تأثير على المستمع.

أمّا القسم المخبريّ فقد قسّمه إلى مرحلتين:

الأولى: مرحلة إعداد المادّة الصّوتيّة.

الثّانية: مرحلة تحليل المادّة الصّوتيّة بعد إجراء التّجارب المخبريّة.

ودراسة دكتوراه بعنوان: التّنغيم في اللّغة العربيّة (دراسة وصفيّة وظيفيّة)، للطّالب: عبد الحكيم والي دادة، سنة 2007م، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، تناول فيها الباحث ظاهرة التّنغيم الّتي تساهم في فكّ شفرة النّصّ؛ محاولا الوقوف على الوظائف السّياقيّة والنّحويّة، وبيّن كيف يتقاطع مع ظواهر تشكيليّة أخرى مثل: الإيقاع والنّبر والمدّ والطّول، والّتي اعتمدها القرّاء في فهم النّصّ القرآنيّ.

ولقد اجتهدت في بحثي هذا لتبيان دلالة الظّواهر فوق مقطعيّة من خلال تطبيقها على النّصوص القرآنيّة، ورأيت أن أصفه بمصطلح الخطاب القرآنيّ لما لآياته الكريمات من قيمة تواصليّة بينها وبين القارئ المجيد لها من خلال التّأثير في النّفس لأنّه قد استوعب معناه؛ الّذي يؤدّي به بعد ذلك إلى تطبيق تعاليمه، وهي الغاية المنشودة والمرجوة من هذا التّواصل. ولقد استندت في ذلك على إشارات القدامى من العرب، ودراسات المحدثين.

تهدف هذه الدّراسة إلى تبيان دور الظّواهر فوق مقطعيّة في تحديد الدّلالات في الخطاب القرآنيّ؛ فيتحقّق لنا بذلك أداء قراءته أداءً سليماً صحيحا بعيداً عن الخطأ واللّحن واللّبس، ولا يتسنّى لنا ذلك إلاّ بإعطاء أهمّيّة بالغة لعلم الأصوات في دراسة اللّغة العربيّة الفصحى من كلّ جوانبها؛ دراسة دقيقة غير ناقصة، وتحديد النّظام العامّ الّذي تؤدّى به، وفق الذّوق العربيّ السّليم؛ فيتحقّق للعربيّة وكتابها المنزّل السّلامة والحفظ.

وأكثر ما أهدف إليه هو أن تكون هذه الدّراسة فيها ما يوجّه النّاشئة من المتعلّمين إلى قراءة القرآن قراءة صحيحة دون الوقوع في أخطاء صوتيّة؛ تؤدّي بدورها إلى أخطاء على المستويات اللّغويّة الصّرفيّة والنّحويّة والدّلاليّة؛ خاصّة وأنّ القرآن الكريم في المصحف الشّريف بكتابته العثمانيّة غير مصحوب بعلامات التّرقيم الموجّهة للأداء السّليم، ولا يكفي ما نجده من علامات وقف مشار إلى معانيها في آخر كلّ مصحف، هذا بالإضافة إلى ما يعانيه المتعلّمون من صعوبة في قراءة الكتابة على المصحف؛ لأنّها كتابة تختلف في كثير من رسومها على ما تعوّدوا عليه من كتابة إملائيّة.

ومن خلال ما اطّلعت عليه من نداءات تشير إلى خطورة الموقف؛ أردت أن أضمّ صوتي إلى هذه الآراء داعية معهم إلى ضرورة النّظر في هذه المسألة؛ متوسّمة الخير في علمائنا الأجلّاء لإيجاد حلّ يمكّن الجيل الصّاعد من الاهتمام بكتابه المجيد، والالتفات إليه، والأخذ بتعاليمه، ولن يتسنّى ذلك إلاّ إذا أحبّوه، وفهموه، وهذا لا يحصل إلاّ إذا قرأوه قراءة جيّدة واعية، وأدّوه أداء صحيحا كما دعا الله تعالى إليه، وكما رغّبه الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – في نفوس أصحابه وتابعيه، وكما أراده العلماء الأوائل حينما كرّسوا كلّ فكرهم وجهدهم في دراسته.

لهذا بني الموضوع من مقدّمة، ومدخل، وأربعة فصول، وخاتمة. شملت المقدّمة إحاطة عامّة ومجملة للموضوع. أمّا المدخل فقد جاء تحت عنوان: أهميّة المهارات اللّغويّة في تحسين القراءة القرآنيّة، وتعرّض إلى مفهوم المهارة، وأنواعها، وأهميّة المهارات اللّغويّة؛ خاصّة عندما تتكامل وظائفها في علاقتها بالقراءة القرآنيّة الصّحيحة؛ للرّبط بين هذه المهارات والتّرتيل؛ وإلى مفهوم التّرتيل، والفرق بين القراءة والتّلاوة، والكتابة العثمانيّة في المصاحف وتوضيحها، للوصول في نهاية المدخل إلى أهميّة التّلقّي ومنهجه في تعلّم القرآن الكريم.

عُنْوِنَ الفصل الأوّل بـ: النّظام المقطعيّ ودلالته في الخطاب القرآنيّ، أوردت فيه مصطلحات الفونيم والصّوت والحرف؛ لأنّ معرفة حدّ كلّ مصطلح يوصل الباحث إلى تحديد الفرق بين المصطلحات الثّلاثة: الفونيم والصّوت والحرف، كما تطرّق إلى الفرق بين مصطلحي الفونيم والألفون؛ لما يحدث بينهما من التباس عند بعض الباحثين، وذلك من خلال ما أوردته اللّسانيّات الحديثة من دراسة وآراء في هذا المجال. وأشار الفصل إلى وظيفة الفونيم، وفائدته، ونوعي الفونيم المتمثّل في الفونيم القطعيّ، والفونيم فوق القطعيّ. وتحدّث عن السّمات الفونولوجيّة للأصوات العربيّة، والدّلالة الصّوتيّة.

في هذا الفصل إلى مبحث بعنوان: الكتابة المقطعيّة. أُدْرِجَ ضمنه جملة من العناصر؛ بدأت بتحديد مفهوم المقطع، وتعدّد تعريفاته المصطلحيّة وذلك حسب توجّهات الدّارسين، وفيه أهمّ أشكال المقطع في اللّغة العربيّة؛ وحديث عن نوعيه المنبور، وغير المنبور، وما يتميّز به من خصائص في اللّغة العربيّة والقرآن الكريم؛ لتتبيّن أهميّة المقطع في تحليل النّصّ، بالوقوف على معرفة العناصر المؤدّية إلى هذه الأهميّة؛ والمتمثّلة في الاختيار الصّوتيّ والتّأليف، ودلالة المقطع في الخطاب القرآنيّ، والّذي تبنى على أسس مساعدة للوقوف على هذه الدّلالة، وهي: البنيّة المقطعيّة في القرآن الكريم، وكيفيّة تحقيق التّلاوة لدى المتعلّمين بمراعاة استخدام النّظام المقطعيّ، والكتابة المقطعيّة؛ لتكون خاتمة الفصل تبيان لكيفيّة تجلّي المقطع، وكذا دلالته في الخطاب القرآنيّ.

كان الفصل الثّاني بعنوان: استقامة الأداء القرآنيّ والنّبر، وذلك بالتّطرّق إلى النّبر ومظاهره في اللّغة العربيّة، وتحديد مفهومه، وبما أنّ النّبر يدخل تحت نطاق علم الأصوات التّشكيليّ؛ تمّ إيراد حديث عن دلالته في هذا العلم، ثمّ أنواعه الّتي اخْتُصِرَتْ في ثلاثة أنواع، وهي: نبر الكلمة، ونبر الجملة، والنّبر الانفعاليّ. وفي المباحث الموالية حدّيث عن مظاهر النّبر، ووظيفته الّتي رأى العلماء أنّها تتمثّل في الوظيفة الصّوتيّة، والوظيفة الصّرفيّة، والوظيفة الدّلاليّة، والوظيفة التّعبيريّة، والوظيفة الإيقاعيّة، والوظيفة الجماليّة.

إنّ النّبر ظاهرة اختلف حولها علماء الأصوات اختلافا بائنا لذا أُدْرِجَتْ مباحث تتحدّث عن النّبر بين العلماء القدماء والمحدثين، وذلك من خلال الحديث عن النّبر في الدّراسات العربيّة القديمة، والنّبر في الدّراسات العربيّة الحديثة. وما كلّ ذلك إلاّ تأسيسا للوصول إلى بيان دلالة النّبر وتجلّياته في الخطاب القرآنيّ؛ من خلال عناصر عدّة مندرجة تحت نطاقه، وهي: دور النّبر وأهميّته في تحديد المعنى، وأهميّته في تلاوة القرآن الكريم، واللّغة العربيّة واللّحن وعلاقته بالنّبر، وأسس القراءة السّليمة، وأمن اللّبس؛ بتبيان العلاقة بين النّبر واللّحن والقراءة وأمن اللّبس، وذلك للتّطرّق إلى بؤرة الفصل، وهي إدراج أمثلة توضيحيّة من القرآن الكريم على الأخطاء في النّبر، والنّبر على العامل النّحويّ «ما»، وتجلّيات النّبر في الخطاب القرآنيّ وأثره في المعنى؛ لينتهي الفصل بتبيان الآثار الصّوتيّة والصّرفيّة والنّحويّة والدّلاليّة للنّبر في الخطاب القرآنيّ.

جاء الفصل الثّالث بعنوان: التّنغيم وتجلّيات دلالته في الخطاب القرآنيّ، بدأ بالوقوف على مفهوم التّنغيم، ثمّ تطرّق إلى التّنغيم وملامحه في الدّرس اللّغويّ العربيّ؛ لأنّه هو الآخر ظاهرة أحدثت اختلافا بائنا بين علماء الأصوات المحدثين العرب والغرب في اللّغة العربيّة؛ وفيه حديث عن التّنغيم

في الدّراسات العربيّة القديمة، والتّنغيم في الدّراسات اللّغويّة الحديثة، ووقوف على بعض المصطلحات الّتي تبدو لبعض الباحثين أنّها ذات مفهوم واحد مع التّنغيم؛ وهي: النّغمة، والنّغم، واللّحن، والإيقاع، وبيان ما بينها من فروقات من خلال آراء الدّارسين، وأهمّ المكوّنات الّتي يتألّف منها التّنغيم، وهي: النّغمة، والشّدّة، والنّبر، وسرعة النّطق، والحدّة، والوقف، وحديث عن النّغمات ودلالتها في الخطاب القرآنيّ، من خلال معرفة أنواعها: النّغمة الهابطة، والنّغمة الصّاعدة، والنّغمة المستوية.

ويرى بعض العلماء في علم الأصوات أنّ التّنغيم يؤدّي وظائف حدّدت منها: الوظيفة الصّوتيّة، الوظيفة الانفعاليّة، الوظيفة التّركيبيّة، والوظيفة السّياقيّة، والوظيفة الجماليّة.

عالج الفصل الرّابع المعنون بـ: الجانب التّنغيميّ في قراءة القرآن الكريم تجلّيات التّنغيم في الخطاب القرآنيّ، وذلك بالوقوف على علاقة الإيقاع بالتّنغيم، ودلالته مرتبطا بالتّنغيم، وعلاقة الوقف بالتّنغيم، ودلالته مرتبطا بالتّنغيم في الخطاب القرآنيّ؛ لتكون نهاية الفصل بيان دلالة التّنغيم في الخطاب القرآنيّ من خلال معرفة دلالة تنغيم الجملة في البلاغة العربيّة، وبالتّطرّق إلى تجليّات التّنغيم ودلالته في الجملة الخبريّة وفي الجملة الإنشائيّة في الخطاب القرآنيّ، مركّزا على دلالة تنغيم أسلوب الاستفهام، وتنغيم أسلوب النّداء، وتنغيم أسلوب الأمر، وتنغيم أسلوب النّهي في الخطاب القرآنيّ.

اِقتضت طبيعة الموضوع أن أستعين بالمنهج الوصفيّ؛ الّذي يهدف إلى وصف خصائص الظّواهر فوق مقطعيّة في الخطاب القرآنيّ، كما استعنت بالمنهج الاِستقرائيّ في الكشف عن الدّلالة الّتي تؤدّيها في جملة من آيات القرآن الكريم، وتحليلها وتفسيرها.

تستلزم عمليّة البحث جمع المادّة للاِستناد عليها، وقد تنوّعت مادّة هذا البحث من مصادر ومراجع؛ بدءاً بالكتب اللّغويّة التّراثيّة مثل: كتاب العين للخليل، والكتاب لسيبويه، وكتابيْ: الخصائص، وسرّ صناعة الإعراب لِابن جنيّ، وكتب القراءات والتّجويد مثل: النّشر في القراءات العشر، والتّمهيد في علم التّجويد لِابن الجزريّ، وكتب التّفسير مثل: الكشّاف للزّمخشريّ، ومفاتيح الغيب للرّازيّ، وروح المعاني للآلوسيّ، وكتب الفلاسفة مثل: الشّفاء لِابن سينا، والموسيقى الكبير للفارابيّ.

كما اِستعنت بالدّراسات اللّغويّة الحديثة مثل: الأصوات اللّغويّة لإبراهيم أنيس، واللّغة العربيّة معناها ومبناها، ومناهج البحث في اللّغة لتمّام حسّان، والتّشكيل الصّوتيّ لسلمان العانيّ، والأصوات لكمال محمّد بشر، والقضايا التّطريزيّة في القراءات القرآنيّة لأحمد البايبيّ، والوقف والاِبتداء وصلتهما بالمعنى في القرآن الكريم لعبد الكريم صالح، والدّراسات الصّوتيّة عند علماء التّجويد لغانم قدوريّ

الحمد. والعديد من الكتب الّتي كانت مادّة أَثْرَتْ هذا البحث؛ هذا بالإضافة إلى المقالات والرّسائل الجامعيّة.

جرت العادة أن يشير الباحثون إلى الصّعوبات الّتي تعرّضوا لها أثناء البحث، ومعظم هذه الصّعوبات تصبّ حول قلّة المصادر والمراجع؛ غير أنّ صعوبة الحصول على المراجع لم تعد عائقا كبيرا كما في الماضي إلاّ مع الإصدارات الجدّ الحديثة الّتي يصعب – أحيانا – اقتناؤها، وللأمانة فإنّ مكتبة هذا البحث كانت جدّ ثريّة بمصادر الكتب التّراثيّة، ومراجع الكتب الحديثة.

تتمثّل الصّعوبة الّتي تواجه البحث العلميّ اليوم هي كثرة المصطلحات للمفهوم الواحد؛ وهي إشكاليّة لا زال الباحثون في الوطن العربيّ يعانون منها، ولم يتجاوزوها على رغم إسهامات علمائنا الأجلاّء بضرورة تجاوزها والاهتمام بالبحث فقط؛ ويجد يقف الباحث العربيّ نفسه – أمام ذلك – في حيرة من أمره أيّها يختار!

بالإضافة إلى ذلك اختلاف علماء الأصوات في تقسيم الظّواهر المقطعيّة وفوق المقطعيّة وتصنيفها؛ فمنهم من يرى أنّ المقطع والنّبر والتّنغيم والمفصل ظواهر فوق مقطعيّة، وصاحب هذه الرّؤيا هو عبد القادر عبد الجليل في كتابه: علم اللّسانيّات الحديثة، وهناك من يرى أنّ الظّواهر فوق مقطعيّة هي المقطع والنّبر من ذلك ما وُجِدَ في مقال بعنوان: الفونيمات فوق التّركيبيّة لعطيّة سليمان أحمد، ومنهم من يخرج المقطع من تعداد الظّواهر فوق المقطعيّة؛ بينما هذه الأخيرة تتمثّل في النّبر والتّنغيم وسرعة الكلام، وصاحب هذا الاتّجاه هو منصور بن محمّد الغامديّ في كتابه: الصّوتيّات العربيّة، وهناك من أضاف إلى ظواهر النّبر والتّنغيم والمفصل والطّول ظاهرة الوقف، وهو مبارك حنون في كتابه: في التّنظيم الإيقاعيّ للّغة العربيّة –نموذج الوقف–. ويحدّدها أحمد مختار عمر بـ: النّبر والنّغمة والتّنغيم والمفصل والطّول في كتابه: دراسة الصّوت اللّغويّ، أمّا أحمد البايبيّ فيرى أنّ الظّواهر فوق مقطعيّة – والّتي سمّاها القضايا التّطريزيّة – هي: التّنغيم والنّغم والنّبر والإيقاع والطّول والوقف في كتابه القضايا التّطريزيّة في القراءات القرآنيّة، والرّؤى في هذا كثيرة لا يسع البحث تعدادها كلّها.

أمام كلّ هذه الاختلافات يقف الباحث حائرا في تصنيف هذه المصطلحات وتقسيمها؛ وتجلّى لي أنّ أغلبيّة الباحثين لا يدرجون المقطع ضمن الظّواهر فوق المقطعيّة؛ ولكن لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة النّبر والتّنغيم؛ فهي عناصر ثلاثة تحكمها روابط وشيجة؛ بل إنّ هناك بين المقطع والنّبر والتّنغيم لحاما هو كالتّماهي الّذي يقوم بين المسلّمات اللّغويّة؛ فكلّ حديث عن المقطع منفصلا عن النّبر والتّنغيم، أو كلّ حديث عن النّبر والتّنغيم منفصلا عن المقطع؛ إنّما ينطوي على

الفصل بين المتلاحمات؛ لهذا جعل البحث لكلّ ظاهرة فصلا؛ بدأت بالمقطع، ثمّ إظهار علاقته بظاهرتي النّبر والتّنغيم في بقية فصول البحث، وأُدْرِجَ كلّ ذلك تحت مصطلح الظّواهر فوق مقطعيّة لتبيان أهميّتها في الكشف عن الدّلالة.

لا يسعني في الختام إلاّ أن أتوجّه بجزيل الشّكر إلى الأستاذ المشرف الدّكتور محمّد سعيديّ لما قدّمه لي من مساعدات، وتوجيهات قيّمة مكّنتني من إنجاز هذا البحث منذ خطواته الأولى، وأن أجدّد بالغ شكري إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدّكتور الجيلاليّ بن يشو الّذي لم يبخل عليّ بملاحظاته القيّمة، كلّما عدت إليه لأنّه كان مشرفا على رسالتي للماجستير، وخالص شكري مقدّم أيضا للأساتذة أعضاء اللّجنة على قراءتهم البحث، ومناقشته، وأتقدّم – أيضا – بشكري الخالص إلى جميع أساتذة التّرجمة بجامعة البويرة؛ لأنّهم لم يتوانوا في مساعدتي على ترجمة ما احتجته في البحث.

وشكري موصول إلى أفراد عائلتي الكريمة الّتي وفّرت لي جوّ العمل، وإلى كلّ من لم يبخل عليّ بالنّصائح والتّشجيعات طوال مسيرتي في البحث.

هذا مبلغ جهدي فإن وفّقت فمن الله تعالى الحنّان المنّان، وهي نعمة منّها عليّ؛ فله الحمد الكثير، والشّكر الجزيل، وإن قصّرت؛ فهو منّي وهي سنّة الله في خلقه أن يكون العمل البشريّ في حاجة إلى إتمام وإكمال، ويكفي المرء إذا لم يصب؛ أن يمنّ الله تعالى عليه بالأجر الواحد مقابل ما اجتهد فيه؛ مع العلم أنّ النّفس البشريّة تطمع –دائما– في الحصول على الأجرين معا

الطّالبة: رشيدة بودالية

جامعة أحمد بن بلّة 1 – ولاية وهران –

يوم: الاثنين 13 جوان 2016م الموافق لـ:

08 رمضان 1437هـ.

المدخل: أهميّة المهارات اللّغويّة في تحسين القراءة القرآنيّة

المبحث الأوّل: المهارات اللّغويّة وعلاقتها بالقراءة القرآنيّة الصّحيحة.

المبحث الثّاني: تكامل المهارات اللّغويّة وتوظيفها في قراءة القرآن الكريم.

المبحث الثّالث: مفهوم التّرتيل.

المبحث الرّابع: الفرق بين القراءة والتّلاوة.

المبحث الخامس: مراتب التّلاوة.

المبحث السّادس: الكتابة العثمانيّة في المصاحف وإيضاحها.

المبحث السّابع: أهميّة التّلقّي ومنهجه في تعلّم القرآن الكريم.

المبحث الأوّل: المهارات اللّغويّة وعلاقتها بالقراءة القرآنيّة الصّحيحة

من المتّفق عليه عند علماء اللّسانيّات التّطبيقيّة أنّ المهارات اللّغويّة هي أربعة: القراءة والكتابة والتّحدّث والاستماع. وقبل التّفصيل في هذه المهارات وما لها علاقة بالقراءة القرآنيّة، نتعرّف على مفهوم المهارة من حيث اللّغة ومن حيث الاصطلاح.

1- مفهوم المهارة

أ - التّعريف اللّغويّ للمهارة:

يذهب أهل اللّغة العربيّة إلى أنّ المهارة هي «الحذق في الشّيء، وقد مهرت الشّيء أمهره.»[1] ومنها «الماهر: الحاذق بكلّ عمل، وفي الحديث الشّريف: مَثَلُ الماهر بالقرآن مثل السّفرة. الماهر: الحاذق بالقراءة، والسّفرة: الملائكة.»[2] يشير الحديث النّبويّ الشّريف إشارة جدّ واضحة إلى مهارة القراءة، وأهمّيّتها فهي تعلي من شأن صاحبها؛ لأنّها وسيلة مهمّة من وسائل الإبلاغ والإفهام، والغرض من القراءة ليس الاستمتاع بالقراءة فقط؛ وإنّما الغرض منها تمكّن القارئ من الفهم الصّحيح، وإتقان المقروء وتمثّله[3].

ب - التّعريف الاصطلاحيّ للمهارة:

لا تبتعد المهارة في الاصطلاح كثيرا عمّا جاء في معاجم اللّغة، ومعناها «قدرة الفرد على القيام بأداء أعمال مختلفة قد تكون عقليّة أو انفعاليّة أو حركيّة. وهناك من يرى أنّها أداء الفرد لعمل ما، ويتّسم هذا الأداء بالسّرعة والدّقّة والإتقان والفاعليّة. وينظر إليها آخرون أنّها نشاط يقوم به الفرد يستهدف تحقيق هدف معيّن.»[4] ما يمكن استخلاصه من هذا النّصّ أنّ المهارة هي القدرة أو الأداء أو النّشاط، ومن خلال التّدريب والممارسة تؤدّي المهارة إلى تحقيق هدف ما، ويمكن تنفيذ ذلك بشكل سريع ودقّة وإتقان.

---

[1]- مختار الصّحاح، الإمام محمّد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازيّ، تحقيق: محمود خاطر، إخراج دائرة المعاجم، مكتبة لبنان، بيروت، د ط، 1976م، باب الميم، مادّة: مهر.

[2]- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم بن منظور الأنصاريّ الخزرجيّ المصريّ، من إصدارات وزارة الشّؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، المملكة العربيّة السّعوديّة، د ط، د ت، ج 07، مادّة: مهر.

[3]- ينظر: القراءة السّريعة: كيف تمتلك مهارة القراءة السّريعة مع المحافظة على الاستيعاب الكامل؟ تأليف: بيتر شيفرد، وجريجوري ميتشل، ترجمة: أحمد هوشان، بدون دار الطّبع، بدون بلد، ط1، 1427هـ – 2006م، ص: 09 .

[4]- سيكولوجيّة المهارات، السّيّد محمّد أبو هاشم، مكتبة زهراء الشّرق للنّشر والتّوزيع، القاهرة، د ط، 2002م، ص:15-18.

2- أنـــواع المهارات

أ- مهارة الاستماع:

يعتبر الاستماع مهارة تحليل أساسيّة في تعليم اللّغة وتعلّمها، وأهميّة هذه المهارة قدّمها الله تعالى على وسائل التّعلّم الأخرى في كثير من الآيات القرآنيّة؛ بحيث قال في محكم تنزيله:﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ النّحل: ٧٨، و«السّمع عمليّة يتمّ فيها بثّ الأمواج الصّوتيّة الدّاخلة إلى الأذن الخارجيّة إلى طبلة الأذن؛ حيث تتحوّل إلى اهتزازات ميكانيكيّة في الأذن الوسطى، ثمّ تتحوّل إلى الأذن الدّاخليّة إلى نبضات عصبيّة تنقل إلى الدّماغ. أمّا الاستماع فهو عمليّة تتّسم بوعي المرء وانتباهه للأصوات أو للأنماط الكلاميّة، وتستمرّ من خلال تحديد إشارات سمعيّة معيّنة والتّعرّف عليها، وتنتهي بالاستيعاب بما تمّ الاستماع له.»[1] إذا كان السّمع عمليّة فيزيولوجيّة؛ فإنّ الاستماع عمليّة يحصل بها الاستيعاب والوعي لما سمعه.

إنّ للاستماع أهميّة كبرى؛ فهو عنصر تركّز عليه كلّ مهارات اللّغة من تحدّث وقراءة وكتابة، كما أنّه يساعد على تنمية مواقف أخرى لدى المبتدئين، والمتمثّلة في الإصغاء الجيّد والانتباه إلى ما يستقبلونه من الألفاظ والجمل؛ فتتكوّن لديهم المعاني والأفكار الكامنة وراء الموضوع الّذي يستمعون إليه، وبهذه الطّريقة يتمّ الاستماع بالإنصات والفهم والإدراك مع ملاحظة طريقة الصّوت المؤدّاة، وما يكتنفها من ظواهر صوتيّة؛ لذا رأى المختصّون في هذا المجال أنّه «من الضّروريّ العناية والاهتمام بالمهارات والخبرات الّتي تؤدّي إلى تحسين القدرة على الاستماع من خلال الاختبارات التّحصيليّة، وأن تمنح درجات مناسبة أسوة بالمهارات اللّغويّة الأخرى،»[2] وتوفير كلّ ما يساعد على تطبيقها وتنفيذها في الميدان التّربويّ - خاصّة - من وسائط وأجهزة تسجيل، وغير ذلك من الوسائط التّعليميّة.

---

[1]- تعليم اللّغة العربيّة بواسطة الحاسوب في الصّفوف الأربعة الأولى -الواقع والمأمول- د. خالدة عبد الرّحمن شتات، 2010م، وزارة التّربيّة والتّعليم، الأردن، 2010م، ص: 612 -613.

[2]- ينظر: خطّة مقترحة لتنميّة مهارة الاستماع في اللّغة العربيّة لدى تلاميذ المرحلة الابتدائيّة بدولة قطر، د. السّليطيّ حمزة، مقال منشور على شبكة الأنترنيت على شكل doc

www.moe.edu.qa/arabic/magazines/tarbawya/art2.shtml.

ويحتاج المتعلّم – في هذه الحالة – إلى نصوص متنوّعة ومستمدّة من مواقف الاستماع، وموادّه ووظائفه سواء في المدرسة أو الحياة العمليّة أو حاجاته اليوميّة؛ خاصّة في المرحلة الأولى من التّعليم الأساسيّ، «وهو ما يمكن الاستئناس به في استعمال نصوص الانطلاق وقراءة الاستماع، وتكييفها بمواقف وموادّ أخرى للاستماع، يمكن أن تُحَقَّقَ الأهداف بكيفيّة أحسن إن لاحظنا الحاجة إلى حسن الاستماع، وأثره في التّواصل والتّفاهم وفي تعلّم اللّغة، ونطقها العفويّ والطّبيعيّ، وإذا استعنا بالأجهزة السّمعيّة والبصريّة وغيرها من الوسائل المُعِينَةِ على امتلاك هذه المهارة.»[1] قد نتساءل لماذا نركّز على ضرورة تنميّة مهارة الاستماع؟ ولماذا يسعى التّعليم إلى استخدام الحاسوب في تنميّة هذه المهارة؟

يحتاج المعلّم للحاسوب في تنميّة مهارة الاستماع لدى المتعلّمين في جميع أنواع النّصوص النّثريّة والشّعريّة؛ حتّى يُحْسِنُوا أداءها من جهة؛ لأنّنا نرى رداءة قراءة هذه النّصوص، وعدم التّفريق أثناء القراءة بين ما هو نثريّ وما هو شعريّ؛ لذا من المستحسن أن يستمع إلى هذه الأنواع من النّصوص الكترونيّا، وقد تكون ملقاة من أصحابها، ومع تكرار الاستماع تنمو القدرة على الاستيعاب، وهو ما يوفّره الحاسوب بإتقان أكثر من المعلّم، ولأنّه قد نجد في مدارسنا معلّمين لا يحسنون الإلقاء فكيف لهؤلاء التّمكّن من تعليم المتعلّمين ما يحتاجون من حسن إلقاء وحسن استماع؟ ومن جهة ثانية يعطي المتعلّم كلّ اهتمامه للمتحدّث، ويركّز انتباهه إلى حديثه، ويحاول تفسير أصواته وإماءاته، وهكذا يحقّق الحاسوب وما تتّصل به من أجهزة الكترونيّة الأهداف التّالية في تنميّة مهارة الاستماع[2]:

- تنميّة قدرة المتعلّمين على متابعة الحديث.
- تمييز المعلّمين الأصوات المختلفة.
- تمييزهم بين الأفكار الرّئيسيّة والثّانويّة.
- تنميّة قدرة المتعلّمين على التّحصيل المعرفيّ.
- الرّبط بين الحديث وطريقة عرضه.
- تنميّة القدرة على تخيّل المواقف الّتي تمرّ بهم.
- استخلاص المتعلّمين النّتائج ممّا يستمعون.

---

(1)- ينظر: خطّة مقترحة لتنميّة مهارة الاستماع في اللّغة العربيّة، السّليطيّ حمزة.

(2)- ينظر: المرجع نفسه.

– استخدامهم سياق الحديث لفهم معاني المفردات الجديدة.

– تنميّة بعض الاتّجاهات السّلوكيّة السّليمة كاحترام المتحدّث وإبداء الاهتمام بحديثه والتّفاعل معه.

وهناك طرق عديدة يمكن للحاسوب أن يقوم بها فيطوّر بذلك مهارة الاستماع:

– **التّعرّف على الأصوات:**

إنّ التّمييز بين أصوات ومخارج الحروف مطلب أساسيّ لإتقان نطق اللّفظ الصّحيح والاستيعاب الفعّال، وهناك برامج تتيح للمتعلّم الاستماع إلى مفردات؛ ثمّ يطلب إليه «تحديد الكلمة الّتي يعتقد أنّه سمعها من خلال أسئلة اختبار من متعدّد، كما تتيح له فرصة إعادة الاستماع لمرّات عديدة، وتزويده بالتّغذيّة الرّاجعة من حيث علامته والأخطاء الّتي ارتكبها.»[1] إنّ اتّباع هذا الأسلوب الالكترونيّ في التّعرف على الأصوات، وتمييزها يحدّ من ظاهرة اللّحن في أدائها بين المتعلّمين، وتحديد رسم الحرف بشكل صحيح؛ لذا نستطيع القول أنّ الاستماع الجيّد يؤدّي إلى الكتابة الجيّدة، وهذه الأخيرة مهارة لغويّة تسعى المنظومات التّربويّة إلى تنميّتها مع بقيّة المهارات الأخرى.

– **اللّفظ والظّواهر الصّوتيّة المركّبة:**

هناك برامج حاسوبيّة خاصّة بمختبرات اللّغات تساعد على التّعرّف على الأصوات؛ ثمّ ممارسة اللّفظ والتّركيب، وما يصحبه من طول أو إدغام أو نبر أو تنغيم وغيرها من الظّواهر الصّوتيّة، وذلك عن طريق تمارين خاصّة بالإصغاء والتّكرار باستخدام تقنيّة الكلام الرّقميّ؛ حيث لهذه البرامج القدرة على تحليل الأنماط الصّوتيّة المختلفة، والتّمييز بينها؛ يتمّ الاستماع للّفظ من خلال الميكرفون، ويقوم الحاسوب برسم مخطّط بيانيّ لها، ومقارنتها مع مخطّط بيانيّ مخزّن لهذه العبارة، ويشاهد المتعلّم الفرق بين المخطّطين[2]، وهكذا يتمكّن المتعلّم من التّمييز بين مختلف أنماط الجمل بواسطة التّنغيم، ونحن نعلم أنّ اللّغة العربيّة تحتوي على جمل خالية من أدوات الاستفهام، ومع ذلك تنطق بتنغيم الاستفهام على الرّغم من أنّها تبدو في رسمها خبريّة، والمخطّط الالكترونيّ سيساعد المتعلّم كثيرا في التّفريق بين أنواع الجمل، وتحديده لها بعد نطقها إن كانت خبريّة أو إنشائيّة بواسطة رسم بياناتها على شاشة الحاسوب، وهو بذلك ينمّي لديه مهارة التّحدّث الجيّد، وتجدر بنا الإشارة في هذا المقام أنّ مخابر الأصوات المزوّدة بالوسائل التّكنولوجيّة؛ تكاد تكون منعدمة في كلّيّات اللّغة العربيّة في الجامعات

---

(1)– تعليم اللّغة العربيّة بواسطة الحاسوب، خالدة عبد الرّحمن شتات، ص: 614.

(2)– ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

الجزائريّة قاطبة، ومازال أساتذة الصّوتيّات يدّرسون هذا المقياس نظريّا، بينما تتوفّر هذه المخابر الصّوتيّة في أقسام اللّغات الأجنبيّة في الجزائر، وإنّها بذلك لمفارقة عجيبة، ونحن – الآن – نروم أن تتوفّر هذه المخابر في المدارس!

ب – مهارة التّحدّث:

يعدّ التّحدّث مهارة يكتسبها الفرد منذ السّنين الأولى من حياته، وهو ضرورة إنسانيّة تساعد على التّفاعل، والاتّصال بالجماعة، وهو وسيلة لنقل الفكر والمشاعر، وتحقيق المنافع والتّواصل الحضاريّ، ويراعى في مهارة التّحدّث نطق الحروف من مخارجها الأصليّة، ووضوحها عند المستمع؛ لأنّ الحروف إذا لم تنطق نطقا سليما؛ يكون من المحتمل أن يفهم المعنى على غير وجهه الصّحيح. وبما أنّ الأداء الصّوتيّ يعتبر عنصرا من عناصر التّحدّث؛ فإنّه لا بدّ أن يكون الجهاز الصّوتيّ سليما لتؤدّي المخارج الصّوتيّة عملها، ويكون النّطق بذلك بدون أخطاء لأنّ المتحدّث يعطي الحروف حقّها أثناء التّحدّث، «ومن أهداف مهارة التّحدّث إجادة الأداء اللّغويّ؛ وإتقان الصّياغة والنّطق، ويساعد على أن يتبوّأ المرء مكانة اجتماعيّة لائقة.»[1]

ج – مهارة القراءة:

القراءة ظاهرة حضاريّة وعادة اجتماعيّة، وقد أكّد القرآن الكريم على أهمّيّة القراءة في قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ العلق: ١، وفيها «دعوة للقراءة؛ قراءة كلّ شيء... ونحن العرب أمّة خلقت لتقرأ، وهذه قمّة الحداثة؛ ظهرت إرهاصاتها منذ أربعة عشر قرنا في أعظم متن عرفته البشريّة.»[2] وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ الرحمن: ١ – ٤، دلالة على أنّ الوجود الحقّ يتمثّل في القراءة والتّعلّم ابتداء، وفي هذا تكريم للإنسان. وتعتبر القراءة في عالمنا المعاصر أهمّ وسيلة للتّواصل؛ لأنّها تعدّ الإنسان للحياة المؤثّرة المتجدّدة، وقد سئل فولتير Volter: «من سيقود البشر؟» فأجاب: «الّذين يعرفون كيف يقرؤون وكيف يكتبون.»[3]

---

[1]- المهارات اللّغويّة – مدخل إلى خصائص اللّغة العربيّة وفنونها – د. محمّد صالح الشّنطيّ، دار الأندلس للنّشر والتّوزيع، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط4، 1417هـ – 1996م، ص: 194.

[2]- جماليّة التّلقّي في القرآن الكريم، أدبيّة الإيقاع الإعجازيّ نموذجا، شارف مزاريّ، اتّحاد كتّاب العرب، دمشق، د ط، 2009م، ص: 139.

[3]- ينظر: مقالات في الأدب والمجتمع والحياة، نوافذ وشرفات، د. أحمد زياد محبك، دار الثّريا، حلب، السّنة الخامسة والعشرون، العدد: 1266، الأسبوع الأدبيّ: 08-10-2011م، ص: 10.

يوما بعد يوم تتزايد أهمّيّة القراءة في عالم يشهد التّقدّم التّكنولوجيّ والتّفجّر المعرفيّ، ويكاد يحتلّ فيه الكمبيوتر والشّابكة مكان الصّدارة[1]، وبالرّغم من تعدّد مصادر المعلومات في وسائل الاتّصال الحديثة والوسائل التّكنولوجيّة، «إلاّ أنّ القراءة لم تفقد مكانتها، ولم يتراجع دورها في عمليّة التّعلّم والتّعليم؛ بل ازداد دورها وازدادت أهمّيّتها وتطوّرها، ومع البحوث والدّراسات التّربويّة ازدادت أهداف القراءة ووظائفها؛ إذ أصبح الاستيعاب بمختلف مستوياته هدفا رئيسا من أهداف القراءة، ذلك أنّ استيعاب المقروء يجعل الفرد مندمجا بالنّصّ متفاعلا معه.»[2] ولأنّ نشاط القراءة والإقبال عليه معيار يقاس به رقيّ المجتمعات؛ لأنّه وسيلة المرء لمواكبة التّطوّر، ويرى الفيلسوف الانجليزيّ فرنسيس بيكون Francis Bécan «أنّ القراءة تصنع الإنسان الكامل، وإذا ما بحث الفرد في حياة المتفوّقين في تاريخ البشريّة لوجدناهم قرؤوا في طفولتهم وفي شبابهم؛ فأحسنوا ما قرؤوه فهماً وتمثّلاً؛ ثمّ أضافوا إليه من بنات أفكارهم؛ فحقّقوا الأصالة والإبداع.»[3]

قديما كان الكتاب الورقيّ أهمّ وسيلة من وسائل القراءة؛ يسعى إليه المتعلّم بحبّ وشغف ونفس متلهّفة؛ لكنّ التّطوّر التّكنولوجيّ اليوم أفقد الكتاب الورقيّ مكانته المرموقة بين المتعلّمين؛ وحتّى لا يستمرّ الوضع على ما هو عليه لا بدّ من دفع المتعلّمين إلى القراءة، وتنميّة مهارتها لديهم حتّى يحقّق هذا النّشاط اللّغويّ هدفه، وينادي المختصّون بإلحاح إلى ضرورة العودة «إلى الاهتمام بالقراءة الجهريّة في فصول الدّراسة في دور التّعليم... ذلك أنّ القراءة أمام مدرّس صادق ناجح؛ هي السّبيل الحقيقيّة الّتي تجعل المعلّمين يحقّقون النّجاح مع المتعلّمين.»[4] والقراءة أمام معلّم كفء هي من أنجع الطّرق على الأداء الحسن والصّحيح، هذا بالإضافة إلى ما يقوم به المعلّم من تصويب وتوجيه وإرشاد؛ دون أن نبالغ في القول أنّ القراءة الكثيرة معناه اكتساب ثروة لغويّة طائلة من المفردات والتّراكيب، وتجويد لأسلوب الكتابة، وتثقيف للفرد.

---

(1)- ينظر: مقالات في الأدب والمجتمع والحياة، أحمد زياد محبك، ص: 10.

(2)- ينظر: أساليب تدريس اللّغة العربيّة، بين النّظرية والتّطبيق، د. راتب قاسم عاشور، ود. محمّد فؤاد الحوامدة، دار المسيرة للنّشر والتّوزيع والطّباعة، عمّان، ط2، 2007م، ص: 63.

(3)- اتّجاهات حديثة في تدريس اللّغة العربيّة، د. طه عليّ حسين الدّليميّ، دة. سعاد عبد الكريم الوائليّ، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالميّ، الأردن، ط1، 2009م، ص: ج.

(4)- فنّ الكلام، د. كمال محمّد بشر، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، د ط، 2002م، ص: 65.

د- مهارة الكتابة:

الكتابة رموز تعارف عليها أهل كلّ لغة لترمز على كلامهم وأصواتهم الّتي يتحدّثون بها. وتطوّرها من رسوم في بدايتها إلى رموز كما الحال اليوم متمثّلة في حروف بسيطة ومعبّرة؛ مرّ بمراحل تاريخيّة عديدة؛ ثمّ أضيف لهذه الرّموز الحركات الّتي تمنحها أثناء الأداء نغما ووضوحا في المعنى، وزاد التّطوّر التّكنولوجيّ من تطوير الكتابة باستخدام الأجهزة والآلات الالكترونيّة الحديثة. وتنميّة مهارة الكتابة في اللّغة العربيّة، والتّدرّب على أصول الكتابة، وتصحيح الكتابة، وتصحيح الأخطاء الإملائيّة والنّحويّة، وتنظيم المعارف اللّغويّة[1]؛ لذا يستوجب إعطاء الكتابة الأهميّة البالغة في مجال التّعليم؛ حتّى يتمكّن المتعلّمون من إتقانها ثمّ أدائها؛ لأنّ مهارة الكتابة رسما وخطّا تستلزم تقويّة ربطها بالقراءة والاستماع والتّعبير، ومراعاة ارتباطها بالمهارات النّفسيّة الحركيّة، وقد أثبتت تجارب عديدة جدوى استخدام التّدريب على الكتابة باليد أوّلا، ثمّ استعمال الحاسوب ثانيا لامتلاك هذه المهارة؛ فهي تدفع المتعلّم إلى الكتابة الصّحيحة، وتعطيه الفرصة لتصويب أخطائه بنفسه، وتعزّز عنده حبّ اللّغة لأنّها تعطيه التّقييم الأخير لعمله.

إنّ استخدام الحاسوب والتّكنولوجيا الحديثة يدعّم اكتساب مهارات اللّغة العربيّة بيسر وسهولة وتشويق؛ بل يساعده على تعليم مهارات هامّة جدّا في هذا العصر (عصر التّفجّر المعرفيّ). ويمكّن المتعلّم من اكتساب مهارة معالجة الكلمات العربيّة؛ فالحاسوب في المدرسة يستطيع أن يؤمّن للمتعلّمين التّدريب الكافي لاكتساب مهارة معالجة الكلمات؛ ذلك أنّه يمتاز بالقدرة على تخزين النّصّ واسترجاعه بسرعة، والسّرعة في تصحيح الأخطاء الإملائيّة والنّحويّة دون إعادة طباعته؛ فمن الجدير أن يتوفّر هذا النّشاط لكلّ متعلّم في بلادنا خاصّة في المرحلتين المتوسّط والثّانويّ، وَلِمَ لا حتّى الجامعيّ، وهذه المعالجة الالكترونيّة بواسطة الحاسوب للكلمات العربيّة؛ تمثّل عنصرا فعّالا في ربح الوقت وبذل أقلّ جهد، كما يمكّن من استخدامها صحيحة في التّعبير والكتابة بسرعة أكبر وكلفة أقلّ، فالمتعلّم يرى فورا الكلمات الّتي يكتبها على الشّاشة فيعدّلها ويصحّحها، وقد يغيّر أحجام الخطوط وأشكالها[2].

قد يبدو الأمر صعبا مع المتعلّمين في صفوف الابتدائيّة؛ لأنّهم يحتاجون إلى طريقة جدّ خاصّة في تعلّم فنيّات الكتابة ورسم الحروف بشكل جيّد، واكتساب مهارة الكتابة، وهذا لا يعني الاستغناء

---

[1]- ينظر: طرق تعليم الأطفال القراءة والكتابة، محمّد عطيّة، دار الفكر للنّشر، عمّان، ط2، 1996م، ص: 10.

[2]- ينظر: التّربيّة وثقافة التّكنولوجيا، د. مذكور عليّ أحمد، دار الفكر العربيّ، القاهرة، د ط، 2003م، ص: 350.

عن الحاسوب في هذه المرحلة؛ بل على العكس يمكن الاستفادة من خدماته حتّى يساعد المعلّم في مهمّته، وذلك عن طريق وصل الكمبيوتر –الموضوع على مكتب المعلّم – بشاشة كبيرة تسمح لجميع التّلاميذ رؤية ما يكتب عليها من حروف وكلمات؛ ثمّ يطلب منهم تقليد ما هو مكتوب على الشّاشة على دفاترهم، بهذا نضمن تدريب التّلميذ على تقنيّة مسك القلم، وكيفية استعماله في الكتابة من جهة، وتكون الكتابة على الشّاشة أكثر وضوحا خاصّة لذوي النّظر الضّعيف؛ فإنّ وسيلة الطّباشير أو القلم لا توضّح له رسم الحرف أو الكلمة بشكل جيّد من جهة ثانية، وعلى مساعدة المعلّم في ربح الوقت وقد لا يكون صاحب خطّ جيّد، والإكثار من التّدريبات على الكتابة دون كلل أو ملل من جهة ثالثة. وإذا كان لدى المتعلّم حاسوبا خاصّا في البيت كما هو سائد عند الكثير من العائلات؛ فإنّه يستطيع تكرار المحاولة مرارا وتكرارا وحده بعد أن يكون قد استوعبها في الصّف مع معلّمه دون خوف أو خجل من البطء أو الخطأ، وينصح هنا تدخّل الوالدين لتدريبه أكثر فأكثر.

المبحث الثّاني: تكامل المهارات اللّغويّة وتوظيفها في قراءة القرآن الكريم

يتّفق علماء اللّسانيّات التّطبيقيّة على أنّ مهارات اللّغة الأربعة؛ تلتقي وتتكامل في اكتساب تطوير اللّغة عند النّاطق أو المتعلّم لها، وما التّجزئة إلاّ من باب تسهيل الدّراسة والبحث، فالفرد حين يستخدم أيّا من هذه المهارات؛ فإنّه يوظّف الأخرى بشكل مباشر أو غير مباشر، لأنّ هذه المهارات مرتبطة بالرّسالة اللّغويّة، «ويؤكّد الاتّجاه الوظيفيّ في تعليم اللّغة على تكامل مهاراتها، وإبراز وحدتها، والاستفادة من علاقة مهاراتها وارتباطها، وتوظيف ما اكتسبه المتعلّم على اختلاف المراحل التّعليميّة في تنميّتها؛ وصولا إلى تحقيق الغاية المنشودة من تعليمها، وهي استخدام اللّغة بفاعليّة قراءة وكتابة، تحدّثا واستماعا.»[1] وبما أنّ اللّغة متكاملة وظيفيّا؛ فإنّ مهاراتها تكون متداخلة ومترابطة؛ بحيث تتأثّر فيما بينها تأثّرا متبادلا؛ فلا تَحَدُّثَ دون استماع، ولا قراءة دون استماع أو تحدّث أو كتابة، ولا كتابة دون قراءة أو استماع أو تَحَدُّثٍ.

من الطّبيعيّ أنّ الشّخص السّليم في جهازه السّمعيّ يكون أكثر استعدادا للتّحدّث من ذلك الشّخص الّذي لا يسمع، فالطّفل الّذي لا يسمع؛ طبيعيٌّ ألاّ يتكلّم؛ ذلك أنّ الاستماع ثمّ التّحدّث مهارتان فطريّتان يكتسبهما الطّفل من البيئة اللّغويّة، وهما مهارتان يتحكّم فيهما صاحبهما بإرادته

[1]– تنميّة مهارات القراءة والكتابة: استيراتيجيّات متعدّدة للتّدريس والتّقويم، د. حاتم حسين البصيص، منشورات الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب، دمشق، د ط، 2011م، ص: 19 – 20.

وتفكيره، والعلاقة بين التّحدّث والاستماع واضحة، فمن أراد أن يوصل رسالة للآخر، يجب أن يكون كلامه صحيحا مقبولا بعد أن يكون قد تدبّره عقله وتقبّله فكره؛ ثمّ يعرضه على السّامعين الّذين عليهم الاستماع إلى رسالة المتحدّث إن أرادوا فهم حديثه، والاستماع يتطلّب تركيزا لفهم معاني الأفكار الملقاة، وقد يؤدّي الفهم إلى الانفعال مع الرّسالة الكلاميّة، وردّ فعل يبدو فيه التّأثّر لما استمع إليه.

والعلاقة بين التّحدّث والقراءة أيضا متكاملة؛ «لأنّ القراءة ما هي إلاّ حديث بين القارئ والكاتب، وحديث مع النّفس، وترجمة لمعاني الرّموز الّتي نطلق عليها حروفا أو كتابة؛ فالقارئ إنّما يستمع لصوته -داخليّا أو خارجيّا- وهو يمرّ بناظريه على تلك الرّسوم الّتي ترمز في غايتها إلى الأصوات البشريّة.»[1] وإذا كان فهم الكلام لدى المتلقّي يشترط أن يكون الحديث صحيحا في النّطق والتّركيب؛ فإنّ الفهم الصّحيح لما يقرأ لا يتأتى إلاّ إذا كانت القراءة صحيحة، ولكي تصحّ القراءة لا بدّ أن تكون الكتابة صحيحة، كما أنّ الحديث لا يكون مفهوما إذا لم ينطق صحيحا، «فالكتابة تتكوّن أساسا من حروف وعلامات هي تلك الرّموز الاصطلاحيّة الّتي نستخدمها عن أصواتنا، ومعروف أنّ لأهل كلّ لغة مكتوبة رموزهم الّتي تعارفوا عليها لترمز إلى كلامهم، وأصواتهم الّتي ينطقون بها.»[2]

هذا بالإضافة إلى ما يكسبه المتحدّث لحديثه من طلاوة وسلاسة القول وإجلاء للمعنى، وذلك بتنغيم صوته وتباين نبراته، لهذا يمثّل الكلام أكثر المهارات مرونة وطواعيّة للبشر، هذه المرونة قد تكون موهبة من الله تعالى، وقد تكتسب بالدّربة والمران، فمهارة التّحدّث هي «فطريّة تبدأ مع بداية العمر، وتستمرّ وتتطوّر إلى نهايّته، هذه الخاصيّة تنعدم تماما بالنّسبة لمهارتي القراءة والكتابة اللّتين تحتاجان إلى تعليم وتعلّم وتدريب، وتستحيلان على الإنسان دون ذلك.»[3]

---

(1)- مهارات اللّغة العربيّة، د. عبد الله عليّ مصطفى، دار الميسرة للنّشر والتّوزيع والطّباعة، عمّان، الأردن، ط2، 1427هـ - 2007م، ص: 43.

(2)- المهارات اللّغويّة تستخدم هذه الأجهزة استخداما أساسيّا؛ فللاستماع لدينا الأذن، وللقراءة لدينا البصر، وللكتابة لدينا اليد، وللحديث لدينا اللّسان، وقد نستعين أثناء الحديث بقوى ثانويّة كالإشارة والإيحاء والابتسام وغيرها من الحركات الجسميّة؛ فالكلام في أكثر الأحيان لا يكون من ربط معاني الألفاظ والكلمات ببعضها، وإنّما يشمل كذلك الإيحاءات والّتي تأتي من الإشارات غير المنطوقة. ينظر: الأبعاد النّفسيّة للتّعبير بالوجه في القرآن الكريم، د. السّر أحمد سليمان، دار الطّباعة القصيم، د ط، 2004م، نقلا عن: النّبر في القرآن الكريم، د. سيّد حسن أرباب، دراسات دعويّة، العدد: 17، يناير 2009م. ص: 151.

(3)- مهارات اللّغة العربيّة، عبد الله عليّ مصطفى، ص: 65.

إنّ الهدف من معرفة التّكامل بين المهارات اللّغويّة؛ هو كيفيّة تطبيقها لتعليم الأجيال القرآن الكريم وحفظه؛ دون الوقوع في أخطاء أثناء كتابته، أو قراءته من مصحف، أو استرجاعه حفظا أثناء الصّلاة مثلا، أو إدراك من يقع في الخطأ فيه أثناء الاستماع إليه. لهذا وجبت كتابته كتابة صحيحة مضبوطة؛ حتّى وإن اقتضى الأمر إضافة ما يساعد على تطوير كتابته، وتحسينها بحسب مقتضى الضّرورة الملّحة على ذلك[1]، ولا بدّ من ضبط مهارة القراءة بحسب مفهومها الأصليّ المتمثّل في القراءة القرآنيّة، ولكن يتمّ الأمر بالتّدرّج مع المبتدئين من متعلّمي القرآن الكريم؛ بحيث تبدأ بالقراءة البسيطة المتمثّلة في فكّ رموز الحروف، ومعرفة كيفيّة نطقها مفردة ثمّ مركّبة، ويقدّم كمال بشر في هذا الموقف طريقة لكسب القراءة الجيّدة للنّصوص اللّغويّة؛ وذلك بـ «الاستماع إلى النّماذج الصّحيحة الّتي من شأنها إيصالهم إلى صفوف العارفين باللّغة، وأن يحاولوا دون ملل أو كلل، وقد يصيب المتدرّب مرّة ويخطئ أخرى في هذه القراءة الجهريّة؛ ولكن لا بأس عليه أن يعاود المحاولة.»[2]

وبإمكان الآلات والأجهزة الالكترونيّة كالحاسوب أن تساعد في تسهيل عمليّة القراءة بشكل جيّد؛ إذا تمّ توظيفها مع المتعلّمين المبتدئين خاصّة في قراءة القرآن بشكل مناسب، وعندما تتطوّر القراءة لديهم وتتحسّن؛ يمكن الانتقال إلى ما يعرف في العلوم القرآنيّة بالقراءات لمعرفة قواعدها وكيفيّة أدائها أداء صحيحا؛ حتّى لا يخلّ قارئ القرآن بالقراءة الّتي تواترت عن الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم –[3]؛ إلى أن يصل الأمر بهم إلى تعلّم فنون التّرتيل خضوعا للأمر الإلهيّ بضرورة ترتيل القرآن ترتيلا.

المبحث الثّالث: مفهوم التّرتيل

يمثّل القرآن الكريم رسالة سماويّة لكلّ فرد؛ تبيّن له التّصوّر الإسلاميّ للحياة، والمنهاج الأمثل الضّروريّ اتّباعه للنّجاح في الدّنيا والآخرة، ولا يمكن فهم المراد من الخطاب القرآنيّ إلاّ بالتّواصل اللّغويّ، وأثر ذلك ظاهر في العلوم العديدة الّتي نشأت في ظلال القرآن الكريم، وما تحمله من بيّان وشرح وتفسير وبلاغة مصنّفة في العديد من الكتب الكثيرة كالنّحو والأدب والقصص والبلاغة

(1)- ينظر تفصيل ذلك في هذا الدّراسة عنصر: الكتابة العثمانيّة في المصاحف وإيضاحها، ص: 27.

(2)- فنّ الكلام، ص: 64 بتصرّف.

(3)- لا نقصد هنا علم القراءات بما فيه من صحيحها ومتواترها وشواذّها لأنّ هذا تتكفّل به المدارس القرآنيّة، ومشايخها القائمين عليها، وإنّما أداء القرآن بالقراءة المتعارف عليها في البلد؛ كقراءته برواية ورش عن نافع كما هو عندنا في الجزائر، ومعرفة بعض الظّواهر الصّوتيّة الأوّليّة حتّى لا يخلّ بالقراءة السّليمة.

والأمثال وغيرها، وزاد الله تعالى على عباده المسلمين فضلا بأن اختار اللّغة العربيّة دون سائر اللّغات لتكون لغة القرآن، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ يوسف: ٢؛ فهو عربيّ بإرادة الله الحنّان المنّان، وللقرآن الفضل العظيم في توحيد اللّهجات العربيّة المتعدّدة المنبثقة عن لغة واحدة؛ ذلك أنّ اللّهجة طريقة معيّنة في النّطق، وإخراج الأصوات، وتحديد بعض الدّلالات، ومن أسباب نزول القرآن الكريم باللّغة العربيّة هو كون تميّز هذه اللّغة، وهي «لغة العرب عن غيرها بأنّها لغة موسيقيّة، بحيث تجد التّشكيل اللّغويّ عند أصحاب الفطرة والموهبة متناغما منسجما، وهذا لا يختصّ بالشّعر الّذي يكتسب من أوزانه وقوافيه موسيقيّة بارزة؛ بل تجد هذه الموسيقيّة في النّثر أيضا، بحيث تجد سهولة في التّركيب وانسيابا في التّأليف؛ حتّى تجري العبارة من سمعك مجرى النّسيم في أصيل الرّبيع.»[1] هذا التّناغم والانسجام في تشكيلها؛ يؤدّي إلى التّلذّذ بها عند سماعها، وهو يشبه الموسيقى في تآلف ألحانها وأنغامها.

تمتلك اللّغة العربيّة قوّة الانسجام والتّناسق على جميع مستوياتها اللّغويّة، ولها قدرة عجيبة على التّأثير إذا أدّيَت أداء حسنا، ولها «طاقات غير محدودة لمن يستطيع تفجيرها؛ بحيث يتخيّر كلماتها، ويوازن بين جملها، ويجعل تراكيبها منسجمة، فيؤدّي إلى تفاعل أصواتها مع معانيها، وهذه الميزة تتوفّر للموهوبين من الأدباء والكتّاب؛»[2] الّذين منحهم الله تعالى القدرة على التّأليف الجيّد المتناسق الّذي يبهرنا عندما نقرؤه. «والقرآن الكريم كتاب الله المعجز بفصاحته وبلاغته؛ يبلغ قمّة التّميّز في هذه النّاحية، وهذا ما يفسّر السّبب الّذي أحدثه أسلوب القرآن الكريم حين هزّ المشركين هزّا عنيفا؛ حتّى أنّ رجلا مشركا استمع إلى آيات من القرآن فخرّ ساجدا، وسئل: لماذا سجدت؟ فقال: سجدت لبلاغته؛ بل إنّ ثلاثة من المشركين كانوا يتسلّلون خفية في ظلام اللّيل قاصدين بيت أبي بكر الصّدّيق –رضي الله عنه–، كان إذا أرخى اللّيل سدوله أغلق بابه، وبات يقرأ القرآن قراءة مختلطة بالبكاء، كان هؤلاء يذهبون على غير اتّفاق حول بيت أبي بكر ليستمعوا؛ فيتأثّرون ويبكون؛ حتّى إذا فرغ أبو بكر قاموا فيلتقون ويتلاومون، ومع ذلك ظلّ المشركون على شركهم: فبماذا يفسّر حرصهم على الاستماع للقرآن؟ إنّها حلاوة التّعبير، وجمال أدائه، وأسر عباراته، وعذوبة ترتيله، وتوافق نغمات إيقاعه.»[3] إنّ

[1]- البلاغة الصّوتيّة في القرآن الكريم، د. محمّد إبراهيم شادي، الشّركة الإسلاميّة للإنتاج والتّوزيع والإعلان الرّسالة، مصر، ط1، 1409هـ- 1988م، ص: 07.

[2]- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[3]- البلاغة الصّوتيّة في القرآن الكريم، محمّد إبراهيم شادي، ص: 09 – 10.

معرفة هؤلاء البالغة بأسرار اللّغة العربيّة، وما تحمله من قوّة بيّان وشدّة تأثير بأدائها الجذّاب؛ جعلتهم على يقين أنّ ما يستمعون إليه من قرآن يتلى؛ هو المعجزة البلاغيّة والصّوتيّة الحقّة.

إنّ الأداء القرآنيّ وما يحمله من نغم متوافق، وإيقاع متوازن، ولفظ عذب، وعبارات سلسة، وترتيل أخّاذ هو الّذي أسر قلوب هؤلاء؛ وجعلهم يخلفون عهدهم لبعضهم البعض بألاّ يعودوا للاستماع إليه؛ لكنّ لم يكونوا يوفون بالعهد أمام ما كانوا يسمعون من كلام ربّانيّ هزّ القلوب، وأخذ الألباب، وملك الأحاسيس، وأسر الأرواح؛ إنّه كلام الله تعالى؛ ف«لقد وجد العرب في القرآن ... ما يروّع خيالهم من تصوير بارع، ويسحر وجدانهم من تأثير بالغ، ويأسر نفوسهم بحلاوة فيه، وطلاوة دونها بكثير حلاوة كلامهم وطلاوته، ويأخذ أسماعهم بما يسري في أوصاله من نغم رخيّ، وإيقاع جميل.»[1] ولقد كانوا على يقين أنّه الحقّ؛ لكنّ جاهليّتهم أعمتهم، وصدّتهم عن الإيمان به؛ بل وأكثر من ذلك دفعتهم إلى محاربته، وعملوا بكلّ ما أوتوا من قوّة على منع انتشاره بين القبائل، وأعدّوا لذلك كلّ العدّة والوسائل حتّى لا يخرج عن حدود مكّة المكرّمة، ولكنّ إرادة الله تعالى المطلقة كتبت للقرآن الكريم وللدّين الإسلاميّ الحنيف أن ينتشر في بقاع الأرض، وعهد الله بحفظه إلى أجل هو مريده جلّ شأنه، وعلت قدرته.

تدعو الدّراسات اللّسانيّة إلى ضرورة الاهتمام بالصّوت؛ وذلك من أجل التّعرّف على مدلوله، والعناية بالشّكل من أجل اكتشاف مضمونه، وبات هذا الأمر بديهيّا ومعمولا به بشكل آليّ، وما الفصل والتّجزئة والتّحليل في البحوث اللّسانيّة؛ إلاّ من باب تسهيل الدّراسة على المتعلّمين والباحثين، ولهذا فعلى الدّارسين والباحثين والنّاقدين أن يحلّلوا عنصريْ الصّورة الكلاميّة، وأن يتحدّثوا عن الصّوت الإنسانيّ بالرّبط بينه وبين مغزاه دائما. وقد عمل العلماء المسلمون — قديما وحديثا – في دراستهم للقرآن الكريم على الرّبط بين الصّوت ودلالته، فالقرآن الكريم نزل صوتا مرتّلا بطريقة ثابتة عن ربّ العالمين، وقرأه جبريل –عليه السّلام– على قلب الرّسول –صلى الله عليه وسلّم–، والله –عزّ وجلّ– خلق البشر، ويسّر لهم القدرة على النّطق والكلام، وصنع فيهم بقدرته البديعة، ونعمته الكاملة الجهاز الصّوتيّ الّذي به يتكلّم الإنسان ويستمع؛ فكان التّرتيل الإلهيّ موافقا لهذا الجهاز الإنسانيّ، ولا ريب أنّ هذا الإحكام والإتقان والتّوافق بين التّرتيل وجهاز النّطق الإنسانيّ ما هو إلاّ

[1]– ثلاث قضايا حول الموسيقى في القرآن، د. نعيم اليافيّ، التّراث العربيّ، مجلّة فصليّة تصدر عن اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، العدد: 17، السّنة: 04، محرّم 1405هـ – أكتوبر 1984م، ص: 97.

دليل على قدرة الله تعالى وحكمته وبديع خلقه؛ لهذا كان لا بدّ على الدّارسين أن يعملوا على التّوفيق بين التّرتيل وجهاز النّطق ليصلوا إلى ما يحمله القرآن الكريم من معاني سامية.

يعرّف الجاحظ الصّوت بقوله: «هو آلة اللّفظ، وهو الجوهر الّذي يقوم به التّقطيع، وبه يوجد التّأليف، ولن تكون حركات اللّسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلاّ بظهور الصّوت.»[1] فهو هنا يبيّن لنا الارتباط الوثيق بين الصّوت عندما ينطق، وما يتصوّره الإنسان من معنى عندما يصل مسامعه، وأهميّة ذلك «خصوصا إذا أدّينا الإلقاء حقّه؛ فوفّينا مخارج الحروف وصفاتها، ولا خطأ في النّبر والتّنغيم، وراعينا مواضع الوقف والوصل، ولذا فإنّ القرآن الكريم وهو النّموذج الأسمى يتوقّف على قدر كبير من ملاحظة تلك الميزة فيه المتمثّلة في حسن تلاوته،»[2] وهو ما يفسّر ما جاء في قول الرّسول – صلى الله عليه وسلّم– «**ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن.**»[3] وقد قيل في معناه: إنّه «ليس من العاملين بسنّتنا، الجارين على طريقتنا من لم يحسن صوته به؛ لأنّ التّطريب به أوقع في النّفوس وأدعى للاستماع والإصغاء.»[4]

ويعني التّغنّي بالقرآن التّطريب، وهو تحسين الصّوت بالقراءة، أيّ من آداب تلاوة القرآن الكريم تحسين الصّوت وتزيينه بالقرآن؛ فهو أمر مستحبّ ولو بالألحان العربيّة المعروفة، «فقد كان في الصّحابة والتّابعين من يحكّم القراءة على أحسن وجهها... لفصاحته وعذوبة منطقه وانتظام نبراته، وهو لحن اللّغة نفسها في طبيعتها لا لحن القراءة في الصّناعة، على أنّ من العرب كانوا يقرؤون القرآن، ولا يعفون ألسنتهم ممّا اعتادته من هيئة إنشاد الشّعر.»[5] ولكن بشرط مراعاة آداب الأداء القرآنيّ، وملاحظة الأحكام المنصوص عليها في علم التّجويد، وعدم الإخلال بأيّ حكم من أحكام القراءة القرآنيّة المنصوص عليها في كتب القراءات وكتب التّجويد، وهي بدورها ارتكزت في ضبط قواعدها على ما تواتر عن الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – والصّحابة – رضي الله عنهم –.

---

(1)– البيان والتّبيين، أبو عثمان بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، مطبعة المدنيّ، المؤسّسة السّوريّة، مصر، النّاشر مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط7، 1418هـ – 1998م، ج 01، ص: 79.

(2)– البلاغة الصّوتيّة في القرآن الكريم، محمّد إبراهيم شادي، ص: 10.

(3)– إحياء علوم الدّين، أبو حامد محمّد بن محمّد الغزاليّ، تخريج: زين الدّين أبو الفضل العراقيّ، دار ابن الحزم للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ – 2005م، ص: 328.

(4)– عودة إلى موسيقى القرآن، د. نعيم اليافيّ، مجلّة التّراث العربيّ، مجلّة فصليّة تصدر عن اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، العددان: 25 – 26، السّنة: 07، صفر – جمادى الأولى 1408هـ، أكتوبر– يناير 1986م – 1987م، ص: 63.

(5)– إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، مصطفى صادق الرّافعيّ، النّاشر: دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان، ط9، 1393هـ – 1973م، ص:61.

ويؤيّد هذا المبلغ السّامي في القراءة قول النّبيّ – صلّى الله عليه وسلّم – لأبي موسى الأشعريّ: «**لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود.**»[1] أيّ: أوتيت صوتا حسنا، «وكان عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– قارئا نديّ الصّوت، ويجيد تلاوة القرآن، وقد قال عنه رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–: «**من أحبّ أن يقرأ القرآن غضّا كما أنزل فليقرأه على ابن أمّ عبد.**»[2] يعني ابن مسعود. وهي دعوة صريحة من نبيّنا الكريم –عليه الصّلاة والسّلام– إلى تحسين الأداء أثناء قراءة القرآن الكريم؛ لأنّ ذلك يزيّنه، ويؤدّي إلى توضيح الأصوات، وبيّان المعاني الّتي يحملها، وقد سمع الجاحظ الإمام إبراهيم بن محمّد يقول: «يكفي من حظّ البلاغة أن لا يؤتى السّامع من سوء إفهام النّاطق، ولا يؤتى النّاطق من سوء فهم السّامع.»[3] وهو قول استحسنه أبو عثمان جدّا.

إنّ تشابك هذه العلاقات هو ما يصطلح عليه بالبلاغة الصّوتيّة؛ «ومتى لوحظت صلة بين الجرس والإيقاع وبين حال المتكلّم أو المخاطب؛ فإنّ ذلك يعتبر من البلاغة الصّوتيّة، وأنّ القرآن الكريم ما جاء أسلوبه على ما جاء عليه من انسجام واتّساق وتوازن يشبه الموسيقى؛ إلاّ ليحقّق الغاية من التّأثير واللّفت والجذب لكلّ المستمعين والمخاطبين على اختلاف عقائدهم ومستوياتهم؛»[4] لأنّ من طبيعة النّاس جميعا أن يستهويهم ذلك التّلاحم والتّشابك بين جمال الإيقاع، وسلامة الأداء، وموسيقيّة الصّوت، وحسن التّرتيل في القرآن الكريم.

والتّرتيل في المعاجم العربيّة هو من «الرَّتْل: تنسيق الشّيء، وثغر رِتْلٌ: حسن المتنضّد، ومُرَتَّلٌ: مفلّج، ورَتَلْتُ الكلام تَرْتِيلاً: إذا أمهلت فيه وأحسنت تأليفه، وهو يَتَرَتَّلُ في كلامه ويترسّل: إذا فصل بعضه من بعض.»[5] وقد عُرِّفَ رتّل تعريفا مجازيّا بأنّه «رَتَّلَ القرآن ترتيلا، إذا ترسّل في تلاوته،

[1]–صحيح البخاريّ، الإمام أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاريّ الجعفيّ، ضبطه: د. مصطفى ديب البُغا، دار ابن كثير، دار اليمامة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، دمشق، ط5، 1414هـ – 1993م، ج 04، كتاب: فضائل القرآن، باب: حسن الصّوت بالقراءة للقرآن، ص: 1925.

[2]– الواضح في علوم القرآن، د. مصطفى ديب البغا، محيّ الدّين ديب مستو، دار الكلم الطّيّب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، دار العلوم الإنسانيّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق، ط3، 1418هـ – 1998م، ص: 33 - 34.

[3]– ينظر: البيان والتّبيين، الجاحظ، ج 01، ص: 87.

[4]– البلاغة الصّوتيّة في القرآن الكريم، محمّد إبراهيم شادي، ص: 11 - 12.

[5]– كتاب العين، أبو عبد الرّحمن الخليل بن أحمد الفراهيديّ، تحقيق: د. مهدي المخزوميّ، ود. إبراهيم السّامرائيّ، سلسلة المعاجم والفهارس، د ط، د ت، ج 08، مادّة: رتل.

وأحسن تأليف حروفه، وهو يترسّل في كلامه ويترتّل.»[1] كما يضيف ابن منظور هو الآخر عمّن سبقه قوله: «وكلام رَتَلٌ ورتِلٌ: أي مرتّل حسن على تؤدة... والتّرتيل في القراءة: التّرسّل فيها والتّبيين والتّمكين، أراد في قراءة القرآن.»[2] تتفق المعاجم العربيّة -إذن - في معظمها على أنّ رَتَّلَ الكلام: معناه مَنْ أَحْسَنَ تأليفه، وأبانه وتمهّل فيه، والتّرتيل في القراءة: التّرسّل في القراءة والتّبيين.

وقد توافقت التّعريفات الاصطلاحيّة مع التّعريفات اللّغويّة للتّرتيل من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ٤﴾ المزمل: ٤، أيّ: «بيّنه تبيينا، والتّبيين لا يتمّ بأن يعجل في القرآن، إنّما يتمّ بأن يتبيّن جميع الحروف، ويوفي حقّها من الإشباع.»[3] والأمر بترتيل القرآن الكريم يمكّن من التّأمّل في آي التّنزيل، ومعرفة حقائقها ودقائقها؛ فيستشعر القارئ عظمة الله جلّ جلاله، ويستنير القلب بنور معرفة الله تعالى، وفي آيات الوعد والوعيد يحصل الرّجاء والخوف، «والإسراع في القراءة يدلّ على عدم الوقوف على المعاني؛ لأنّ النّفس تبتهج بذكر الأمور الإلهيّة الرّوحانيّة، ومن ابتهج بشيء أحبّ ذكره، ومن أحبّ شيئا لم يمرّ عليه بسرعة؛»[4] إنّما أخذ منه وقتا، حتّى تشبع منه الرّوح، وتمتلئ منه القلوب، لهذا اعتبر التّرتيل سبيلا إلى كمال المعرفة، وحبّ الشّيء حبّا كبيرا يؤدّي إلى بقائه ودوامه بدليل ما ورد بعد آية التّرتيل من قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ٥﴾ المزمل: ٥، فالثّقيل من شأنه أن يبقى في مكانه ولا يزول، فجعل الثّقيل كناية عن بقاء القرآن على وجه الدّهر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ الحجر: ٩، كما أنّه يعني «ما فيه من الأوامر والنّواهي الّتي هي تكاليف شاقّة ثقيلة على المكلّفين.»[5]

---

[1]- أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزّمخشريّ، تحقيق: محمّد باسل عيون السّود، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ – 1998م، ج 01، مادّة: رتل.

[2]- لسان العرب، ج 13، مادّة: رتل.

[3]- تفسير الفخر الرّازيّ المشتهر بالتّفسير الكبير ومفاتيح الغيب، الإمام محمّد الرّازيّ فخر الدّين ابن العلاّمة ضياء الدّين عمر، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1301هـ – 1981م، ج 30، ص: 173.

[4]- المرجع نفسه، ص: 174.

[5]- الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزّمخشريّ، تحقيق وتعليق ودراسة: الشّيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشّيخ عليّ محمّد معوّض، بمشاركة: د. فتحيّ عبد الرّحمن أحمد حجازيّ، النّاشر: مكتبة العبيكان، الرّياض، ط1، 1417هـ – 1998م، ج 06، ص: 242.

إنّ الله تعالى وضع منهاج التّرتيل في البداية، ثمّ واصل الخطاب القرآنيّ بعد ذكره آية التّرتيل مباشرة ذكر آية القول الثّقيل الّتي تدلّ على الكلام الرّزين ذي الوزن المتين في صحّته وبيانه ونفعه، وأفضل طرق عرضه على الأسماع هو طريقة التّرتيل؛ فيكون له الوقع المطلوب، ويبقى أثره ثابتا، وهو بذلك من الدّلائل الّتي تثبت بقاء القرآن الكريم، وحفظه على مرّ الأزمان والعصور.

إنّ كتاب الله تعالى كتاب أحكمت آياته، وكلّ آية فيه لها دلالتها، فهو بناء محكم يقدّم لنا الإعجاز بما لا نستطيع التّعبير عنه سوى أن نتدبّره وندرك معانيه، وأيّ كتاب إذا قرئ عدّة مرّات فإنّه يصبح مملاّ، لكنّ كتاب الله لا تملّ الألسن من قراءته، ولا الآذان من الاستماع إليه، ولا القلوب من الاستئناس به، ولا العقول من التّدبّر فيه، وقد وصفه من لا ينطق عن الهوى محمّد –صلى الله عليه وسلّم– بأنّه «كتاب الله، فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذّكر الحكيم، وهو الصّراط المستقيم، هو الّذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق عن الرّدّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الّذي لم تنته الجنّ إذ سمعته أن قالوا: إنّا سمعنا قرآنا عجبا، يهدي إلى الرّشد، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم.»[1] بهذا الوصف العظيم من خير الأنام المبعوث هاديا وبشيرا ونذيرا ورحمة من الله للنّاس أجمعين؛ يستوجب على أتباعه أن يقرؤوه مرارا وتكرارا؛ دون أن يبتعدوا أو ينقطعوا عته؛ قراءة فيها تعبّد وتأمّل، وتدبّر وتفكّر بترتيل مستمرّ.

ويؤكّد الرّازيّ ذلك في حديثه عن التّرتيل قائلا: «ورتّلت الكلام ترتيلا؛ إذا تمهّلت فيه، وأحسنت تأليفه، وقوله تعالى: «**ترتيلا**» تأكيد في إيجاب الأمر به، وأنّه ممّا لا بدّ منه للقارئ، واعلم أنّه لمّا أمره بصلاة اللّيل بترتيل القرآن؛ حتّى يتمكّن الخاطر من التّأمّل في حقائق تلك الآيات ودقائقها... فظهر أنّ المقصود من التّرتيل إنّما هو حضور القلب وكمال المعرفة.»[2] ونفهم من هذا أنّ الغاية من التّرتيل هي الفهم والمعرفة ليتدبّر القارئ المعنى ويفهم المراد، أمّا الكيفيّة فإنّها تتحقّق بالصّوت الإنسانيّ أثناء أداء التّرتيل، وهو أيضا: «التّمكّث في القراءة، وفيه التّحقيق، وهو إنّما للإفهام

[1]- كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، العلاّمة علاء الدّين عليّ المتقيّ بن حسام الدّين الهنديّ البرهان فوزيّ، ضبطه وفسّر غريبه: الشّيخ بكري حيانيّ، صحّحه ووضع فهارسه: الشّيخ صفوة السّقا، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط5، 1305هـ- 1985م، ج 01، ص: 375 - 356.

[2]- مفاتيح الغيب، ج 30، ص: 173 – 174.

أو للرّياضة أو للتّدبّر.»[1] وذلك بإتقان القارئ للقرآن الكريم عن طريق «تصحيح إخراج كلّ حرف من مخرجه المختصّ به صحيحا يمتاز عن مقاربه، وتوفية كلّ حرف صفته المعروفة به توفية تخرجه عن مجانسه، يُعمل لسانه وفمه بالرّياضة في ذلك إعمالا يصير ذلك له طبعا وسليقة، فكلّ حرف شارك غيره في مخرج فإنّه لا يمتاز عن مشاركه إلاّ بالصّفات، وكلّ حرف شارك غيره في صفاته لا يمتاز عنه إلاّ بالمخرج.»[2] وهذا لا يتمّ إلاّ بتفكيك الحروف، أيّ بقراءة القرآن حرفا حرفا؛ مع التّركيز على مخارج الحروف وصفاتها.

ولكنّ النّطق السّليم أثناء التّرتيل لا يتوقّف عند أداء الحروف حقّها في المخرج والصّفة فقط، وإنّما يقتضي الأمر إتقانها سليمة صحيحة وهي مركّبة إلى بعضها البعض، وهو ما وضّحه ابن الجزريّ قائلا: «فإذا أَحْكَم القارئ النّطق بكلّ حرف على حدّته، مُوفٍ حقّه؛ فليعمل نفسه بإحكامه حالة التّركيب؛ لأنّه ينشأ عن التّركيب ما لم يكن حالة الإفراد وذلك ظاهر، فكم ممّن يحسن الحروف مفردة، ولا يحسنها مركّبة بحسب ما يجاورها من مجانس ومقارب، وقويّ وضعيف، ومفخّم ومرقّق؛ فيجذب القويّ الضّعيف، ويغلب المفخّم المرقّق؛ فيصعب على اللّسان النّطق بذلك على حقّه إلاّ بالرّياضة الشّديدة حالة التّركيب، فمن أحكم صحّة اللّفظ حالة التّركيب؛ حصل حقيقة التّجويد بالإتقان والتّدريب.»[3] فالأداء لا يكون صحيحا إلاّ بمعرفة توصيل الحروف بعضها ببعض، ممّا يدلّ على أنّ التّرتيل هو عبارة عن نشاط صوتيّ يتشكّل من توالي الأصوات وفق مخارجها وصفاتها في نظام متّسق، ولهذا فإنّ التّرتيل القرآنيّ يمكن أن يعدّ درسا من الدّراسات الصّوتيّة، لما تحمله كتب التّجويد من مصطلحات صوتيّة موجودة في علوم الصّوتيّات الحديثة، وذلك أثناء تطرّقها لموضوع التّرتيل[4]، والّذي يمثّل الصّورة الصّوتيّة الّتي نزل بها القرآن الكريم مرتّلا من جبريل – عليه السّلام –، وأخذه عنه رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – ثمّ نقله إلى أصحابه الّذين نقلوه إلى الدّنيا كلّها جيلا بعد جيل.

يصل بنا الكلام عن التّرتيل إلى نتيجة مفادها أنّ التّرتيل هو: التّأني في القراءة مع تفصيل الكلام عن بعضه البعض، وأن يحترم المرتّل شروط التّجويد والتّقويم، وتحسين الصّوت؛ وعن عليّ بن

[1]- الموضّح في وجوه القراءات وعللها، الإمام أبو عبد الله نصر بن عليّ بن محمّد الشّيرازيّ المعروف بابن أبي مريم، تحقيق: الشّيخ عبد الرّحيم الطّرهونيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 2009م، ص: 110.

[2]- النّشر في القراءات العشر، الحافظ أبو الخير محمّد بن محمّد الدّمشقيّ الشّهير بابن الجزريّ، إشراف وتصحيح ومراجعة: عليّ محمّد الضّباع، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ج 01، ص: 214 - 215.

[3]- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[4]- من هذه المصطلحات الواردة في كتب التّجويد، وتمثّل اليوم مصطلحات صوتيّة: الإظهار – الإخفاء – القلقلة.

أبي طالب -كرّم الله وجهه- قال: «كان نبيّكم حسن الصّوت مادّا له ترجيع.» أراد بالتّرجيع ما ذكرنا من التّرتيل، ولم يرد به ترجيع الصّوت والغناء به؛ لأنّ ذلك منهيّ عنه،»[1] فقد روي أنّ قراءة الرّسول -صلى الله عليه وسلّم- كانت ترتيلا[2]؛ فعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- «سئل: كيف كانت قراءة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-؟ فقال: كانت مدّا، ثمّ قرأ: «بسم الله الرّحمن الرّحيم» يمدّ بـ «بسم الله»، ويمدّ بـ «الرّحمن»، ويمدّ بـ «الرّحيم.»[3] وأن لا تكون القراءة ترجيعا، وإنّما تكون ترتيلا؛ لأنّ التّرجيع ما ابتدعه النّاس في قراءة القرآن من أصوات الغناء؛ كما قال الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم-: «**فإنّه سيجيء بعدي قوم يرجّعون القرآن ترجيع الغناء.**»[4] ولذا على القارئ تحسين الصّوت سليقة بالشّكل الّذي خلقه الله عليه، من غير تكلّف لألحان تخرجه عن طبعه، والنّهيّ عن الغناء بالقرآن الكريم راجع إلى أسباب عدّة منها[5]:

- خروج كثير من الحروف عن مخارجها؛ كالزّيادة في المدّ على حروف المدّ.
- إنشاء المدّ حيث لا مدّ هناك، وزيادة الصّوت بحروف لا تكون فيها تلك الزّيادة.

وبهذا فإنّ أسس التّلاوة المتلقّاة عن النّبيّ – صلى الله عليه وسلّم- تتمثّل في[6]:

- النّطق بالكلمات القرآنيّة نطقا سليما من حيث اللّغة، وتبيين مخارج الحروف وصفاتها، وضبط حركاتها؛ حتّى لا يُخْرِجَها عن معناها مع الوضوح والبيان.
- قراءة الآيات القرآنيّة وفق الأحكام المتلقّاة عن النّبيّ -صلى الله عليه وسلّم- كما نقلت إلينا متواترة، وقد وردت في كتب علوم التّجويد.

---

[1] - الموضّح في وجوه القراءات وعللها، الشّيرازيّ، ص: 110 - 111.

[2]- ينظر: الجامع الكبير سنن التّرمذيّ، الإمام الحافظ أبو عيسى محمّد بن عيسى بن سَوْرَةَ التّرمذيّ، حقّقه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: شعَيْب الأرنؤوط، وجمال عبد اللّطيف، دار الرّسالة العالميّة، دمشق، ط1، 1430هـ – 2009م، ج 05، باب ما جاء كيف كانت قراءة النّبيّ – صلّى الله عليه وسلّم -، ص: 185.

[3]- التّجريد الصّريح لأحاديث الجامع الصّحيح، أحمد بن محمّد عبد اللّطيف الشّرجيّ الزّبيديّ، تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمّد، دار ابن الجزريّ للنّشر والتّوزيع، الدّمام، المملكة السّعوديّة، ط1، 1434هـ، ص: 566.

[4]- التّنوير شرح الجامع الصّغير، العلاّمة محمّد بن إسماعيل الأمير الصّنعانيّ، قدّم له: صالح بن محمّد اللّحيدان، وعبد الله بن محمّد الغنيمان، دراسة وتحقيق: د. محمّد إسحاق محمّد إبراهيم، مكتبة دار السّلام، الرّياض، ط1، 1432هـ – 2011م، المجلّد: 02، ص: 610.

[5]- ينظر: الموضّح في وجوه القراءات وعللها، الشّيرازيّ، ص: 111.

[6]- التّجريد الصّريح، الزّبيديّ، ص: 566 .

- كمال التّدبّر والخشوع عند تلاوة القرآن الكريم؛ فإنّ صفة تلاوة النّبيّ –صلى الله عليه وسلّم– هي التّرتيل والّتي تتضمّن التّفكّر والتّدبّر والخشوع، مصداقا لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ ص: ٢٩
- تحسين الصّوت وتجويده وقراءته بتؤدة واطمئنان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾ الإسراء: ١٠٦. وقد قال النّبيّ –صلى الله عليه وسلّم– لأبي موسى الأشعريّ –رضي الله عنه–: «**يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود.**»[1]
- التّلقي على المشايخ الّذين قرأوا القرآن الكريم على المشايخ أيضا الّذين اتّصل سندهم بالنّبيّ –صلى الله عليه وسلّم–؛ فالتّلقي عن أهل الأداء هو الرّكن الأساسيّ فيه، فتمّت بذلك روايته جيلا عن جيل مشافهة بالكيفيّة نفسها المتلقّاة عن الرّسول – صلى الله عليه وسلّم– وذلك قصد تجنّب التّصحيف؛ مراعيين في ذلك الأوجه الأدائيّة الدّقيقة الّتي لا طريق لها إلاّ المشافهة كالإمالة والاختلاس والرّوم والإشمام؛ فميزان القرآن الكريم ميزان دقيق، ولذلك قالوا: لا يؤخذ القرآن من مصحفيّ، أيّ قرأ القرآن وتلقّاه من المصحف، ولم يتلقّه عن شيخ، ولا يؤخذ العلم من صحفيّ[2]، أيّ الّذي أخذ العلم من الكتب، ولم يقرأه على العلماء[3].

قد يتساءل البعض لِمَ هذا الإصرار من العلماء قديما على ضرورة تلقّي القرآن الكريم مشافهة بدلا من تعلّمه من مصدره وهو المصحف؟ والجواب هو أنّ حفظ القرآن الكريم من المصحف؛ يؤدّي إلى التّصحيف والتّحريف، والّذي مردّه قلّة الأخذ عن العلماء، ذلك أنّ التّصحيف يدخل اللّغة عندما يكون هناك تشابه في صورة الخطّ، وهو ما نبّه إليه العسكريّ قائلا: «شرحت في كتابي هذا؛ الألفاظ المُشْكِلَة الّتي تتشابه في صورة الخطّ؛ فيقع فيها التّصحيف، ويدخلها التّحريف؛ ممّا يَعْرِض

---

(1)- صحيح البخاريّ، البخاريّ ، ج 04، ص: 1925.

(2)- معنى قولهم الصّحفيّ، والتّصحيف؛ فقد قال الخليل: «إنّ الصّحفيّ الّذي يروي الخطأ على قراءة الصّحف بأشباه الحروف، وقال غيره: أضل هذا أنّ قوما كانوا أخذوا العلم من الصّحف من غير أن يَلْقَوا فيه العلماء؛ فكان يقع فيما يروونه التّغيير؛ فيقال عنده: قد صحّفوا، أيّ ردّدوه عن الصّحف، وهم مُصَحَّفُون، والمصدر: التّصحيف.» – شرح ما يقع فيه التّصحيف والتّحريف، أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكريّ، تحقيق: عبد العزيز أحمد، مطبعة: مصطفى البابيّ الحلبيّ وأولاده، مصر، ط1، 1383هـ – 1963م، ص: 13. (كتاب على شكل pdf للقراءة عبر شبكة الانترنيت، غير قابل للتّحميل.)

(3)- ينظر: جمال القرّاء وكمال الإقراء، علم الدّين أبو الحسن بن محمّد السّخاويّ، تحقيق: مروان المعطيّة، ومحسن حرابة، دار المأمون للتّراث، بيروت، ط1، 1997م، ج 02، ص: 54.

في ألفاظ اللّغة والشّعر وفي أسماء الشّعراء وأيّام العرب، وأسماء فرسانها ووقائعها وأماكنها، وما يعرض في علم الأنساب وغيرها من الأشكال؛ فيصحّفها عامّة النّاس، ويَغْلَطُ بعض الخاصّة، ولا يكمل لها من افتنَّ في العلوم، ولقى العلماء والرّواة والمتقدّمين في صناعتهم؛ المتقنين لما حفظوه، وأخذ من أفواه الرّجال، ولم يعوّل على الكتب الصّحفيّة.»[1] ومرجع ذلك كلّه في نظره إلى عدم أخذ العلم من أفواه العلماء، والاكتفاء بالتّعلّم من الكتب، وهو ما يجعل العلم ناقصا، ومليئا بالأخطاء نظرا لما أشار إليه من تَشَكُّلٍ لصورة الألفاظ اللّغويّة على المتعلّمين النّاتج عن تشابه بعض الرّسوم خاصّة مع الخطّ العربيّ.

ويضيف قائلا في هذا الباب: «وقد كان النّاس فيما مضى يَغْلَطُون في اليسير دون الكثير، ويُصَحِّفُونَ في الدّقيق دون الجليل لكثرة العلماء، وعناية المتعلّمين؛ فذهبت العلماء، وقلّت العناية؛ فصاروا يُصَحِّفُونَ أكثر ممّا يصحّحون، ويسقطون أكثر ممّا يضبطون.»[2] ويشرح سبب ذلك إلى أنّ الّذي ينظر إلى ما هو مكتوب، ولا يعود إلى معلّم أو شيخ أو عالم يكون عرضة للوقوع في التّصحيف، وارتكاب الأخطاء الشّنيعة، وروى في هذا الباب روايات تظهر ضرورة أخذ العلم عن العلماء[3]، وليس الكتب، نورد منها الرّواية التّالية؛ قال: «ويروي أعداء حمزة الزّيات؛ أنّه كان يتعلّم القرآن من المصحف؛ فقرأ يوما وأبوه يسمع: ألم، ذلك الكتاب لا زيت فيه، فقال له أبوه: دع المصحف، وتلقّى من أفواه الرّجال. وحكي عن آخر أنّه قرأ من مصحف: ض، والقرآن ذي الذّكر، قال الشّيخ: فلهذا وأشباهه قيل: لا تأخذوا القرآن من مصحفيّ، ولا العلم من صحفيّ.»[4]

هكذا كان السّلف الصّالح على قدر كبير من الاهتمام والعناية بالعلم، يوجّهون أبناءهم الوجهة الصّحيحة لنيل العلم من أصحابه؛ صحيحا مستقيما من غير خطأ أو تحريف، وهو ما لابدّ أن تهتمّ به الأمّة الإسلاميّة اليوم، وتعطي له أولويّة أكبر في دفع المتعلّمين إلى توقير المعلّم، والاستفادة من علمه، وإعطائه مكانته الرّفيعة الّتي وُصِفَ بها، فقد كاد المعلّم يكون رسولا. ولا يكون الاعتماد الكلّيّ على ما تحتويه أوراق الكتب، أو ما تجود به فضاءات التّكنولوجيا المدعّمة بشبكة الأنترنيت؛

---

(1)- شرح ما يقع فيه التّصحيف والتّحريف، ص: 01.

(2)- المرجع نفسه، ص: 05.

(3)- لقد أورد العسكريّ عدّة روايات تبيّن مدى خطورة أخذ العلم من الصّحف، والاستغناء عن أخذها مشافهة عن العلماء تحت باب: ما جاء في قبح التّصحيف لبشاعته، وذمّ المُصْحّفين، والنّهيّ عن الحمل عنهم، وذكر من هُجِيَ بالتّصحيف، من صفحة: 10 حتّى صفحة: 47. - ينظر: المرجع نفسه.

(4)- المرجع نفسه، ص: 12 - 13.

الّتي أصبحت الملجأ الأساسيّ للمتعلّمين أكثر من الاستفادة من أصحاب العلم، والعلماء الأجلاّء، ولا بدّ من جعل هذه الوسائل معينات ثانويّة، والأساس في طلب العلم هو المعلّم بالدّرجة الأولى وقبل كلّ شيء.

المبحث الرّابع: الفرق بين القراءة والتّلاوة

إنّ تداول المصطلحين في مجال أداء القرآن الكريم؛ يوحي لغير المتخصّصين ألاّ فرق بينهما؛ غير أنّه في الحقيقة يوجد تباين بين التّلاوة والقراءة، ذلك أنّ «أصل القراءة جمع الحروف، وأصل التّلاوة اتّباع الحروف.»[1] وأنّ أوّل آية نزلت من القرآن الكريم هي قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ العلق: ١، وفي هذه الآية أمر بالقراءة الّتي هي تفعيل المعرفة والفهم عند الإنسان، وقراءة القرآن توجب علينا اتّباعه؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾ القيامة: ١٧ – ١٨، والتّلاوة خاصّة بالقرآن الكريم مع اتّباع، وليست القراءة كذلك، وللتّلاوة عدّة معان ذكرها أهل التّفسير أحدها: القراءة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩﴾ فاطر: ٢٩، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝٩٢﴾ النّمل: ٩٢، والثّاني: الاتّباع وفيه قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ الشّمس: ٢، والثّالث: العمل، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٢١﴾ البقرة: ١٢١؛ أيّ: يعملون به حقّ عمله قاله مجاهد في تفسيره، والرّابع: الرّواية كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ۝١٠٢﴾ البقرة: ١٠٢،

---

[1]- مجمع البيان في تفسير القرآن، أمين الإسلام أبو عليّ الفضل بن الحسن الطّبرسيّ، دار المرتضى، طباعة، نشر، توزيع، بيروت، ط1، 1427هـ – 2006م، ج 01، ص: 132.

والخامس: الإنزال كما في قوله تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾ القصص: ٣[1].

يميل بعض المفسّرين واللّغويّين إلى المرادفة بين التّلاوة والقراءة، وبعضهم الآخر يلاحظ فرقا بسيطا بينهما؛ وهو أنّ التّلاوة لا تكون إلاّ لكلمتين فصاعدا؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٢٤﴾ البقرة: ١٢٤. فالتّلاوة لها حقّ، وحقّ التّلاوة لا تكون إلاّ بقراءته حقّ التّلاوة، وقد رأى العلماء أنّ حقّ التّلاوة أن يشترك فيها ثلاثة أمور[2]:

أ- حظّ اللّسان بتصحيح الحروف، واللّفظ المنقول إلينا بالتّواتر.

ب-حظّ العقل بتفسير وترجمة المعاني، وتحليلها وعقلها.

ج- حظّ القلب بالاتّعاظ بالمواعظ، والائتمار بالأوامر، والانتهاء عن النّواهي.

فاللّسان يرتّل، والعقل يترجم، والقلب يتّعظ، و«ينبغي أن يشتغل قلبه في معنى ما يلفظ بلسانه؛ فيعرف من كلّ آية معناها، ولا يجاوزها إلى غيرها حتّى يعرف معناها؛ فإذا مرّ به آية رحمة وقف عندها، وفرح بما وعده الله تعالى منها، واستبشر إلى ذلك، وسأل الله برحمته الجنّة، وإن قرأ آية عذاب وقف عندها، وتأمّل معناها، واعترف بالإيمان، فقال: آمنا بالله وحده، وعرف موضع التّخويف، ثمّ سأل الله تعالى أن يعيذه من النّار.»[3] هكذا تكون التّلاوة عن تبصرة فيما يتلوه القارئ من القرآن الكريم؛ دون أنّ تكون القراءة الرّغبة منها إتمام ما يقرأ أو التّكثير من القراءة، وإنّما تصحب بالتّمعّن والتّفكّر والتّدبّر في آي محكم التّنزيل.

إنّ التّلاوة هي طريقة لأداء القرآن أداء صحيحا كما أدّاه خير الأنام؛ «فالمراد بقوله -صلّى الله عليه وسلّم-: **زيّنوا القرآن بأصواتكم**؛ المدّ والتّرتيل والمهارة في قراءة القرآن الكريم، وجودة التّلاوة بجودة الحفظ، فلا يتلعثم ولا يتشكّك، وتكون قراءته سهلة بتيسير الله تعالى كما يسّره على الكرام

[1]- ينظر: معاني القرآن الكريم وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السّريّ الزّجّاج، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبيّ، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408هـ – 1988م، ج 04، ص: 131. ومجمل اللّغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللّغويّ، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط2، 1406هـ، 1986م، مادّة: تلو.

[2]- ينظر: شرح ذلك وبالتّفصيل في كتاب: إحياء علوم الدّين، أبو حامد الغزاليّ، مرجع سابق، ص: 333 وما بعدها.

[3]- البرهان في علوم القرآن، الإمام بدر الدّين محمّد بن عبد الله الزّركشيّ، تحقيق: د. يوسف عبد الرّحمن المرعشليّ، والشّيخ جمال حمديّ الذّهبيّ، والشّيخ إبراهيم عبد الله الكرديّ، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1410هـ – 1990م، ج 02، ص: 83.

البررة.»[1] وحسن الصّوت مطلوب في التّلاوة، قال ابن جرير – رحمه الله –: «والّذي يتحصّل من الأدلّة أنّ حسن الصّوت بالقرآن مطلوب فإن لم يكن حسنا؛ فليحسّنه ما استطاع، ومن جملة تحسينه أن يراعي فيه قوانين النّغم؛ فإنّ حسن الصّوت يزداد حسنا بذلك، وإن خرج عنها أثّر ذلك في حسنه، وغير الحسن ربّما انجبر بمراعاتها ما لم يف تحسين الأداء؛ فإن وجد من يراعيهما معا فلا شكّ في أنّه أرجح من غيره؛ لأنّه بالمطلوب من تحسين الصّوت، ويجتنب الممنوع من حرمة الأداء والله أعلم.»[2] فقول ابن جرير يدلّ على أنّ حسن التّلاوة لا يكون إلاّ بإعمال الإنسان في تحسين صوته، وبذل جهده في الأداء؛ فيراعي القوانين الصّوتيّة في أدائه؛ لأنّه إذا خرج عنها يخلّ بحسن الأداء، ومن لم يراع القوانين الصّوتيّة وقع في الممنوع المؤدّي إلى حكم التّحريم.

يرى العلماء أنّ التّرتيل الحسن للقرآن الكريم وأمر الله – عزّ وجلّ – به في محكم تنزيله مفاده تحقيق الانسجام، والتّأثير على المستمع أو المخاطب بشكل يلفت الانتباه، ويسيطر على العقل، ويأخذ القلب والنّفس. «وليس يخفى أنّ مادّة الصّوت هي مظهر الانفعال النّفسيّ، وأنّ هذا الانفعال بطبيعته إنّما هو سبب في تنويع الصّوت بما يخرجه فيه مدّا أو غنّة أو لينا أو شدّة، وبما يهيّئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النّفس من أصولها؛ ممّا هو بلاغة الصّوت في لغة الموسيقى.»[3] فمع أنّ للّغة بلاغة كبلاغة الصّوت في لغة الموسيقى، إلاّ أنّ في اللّغة ذاتها بلاغة أصوات، لأنّ «تتابع الأصوات على نسب معيّنة بين مخارج الأحرف المختلفة؛ هو بلاغة اللّغة الطّبيعيّة الّتي خلقت في نفس الإنسان.»[4] إنّه الإعجاز القرآنيّ الّذي جمع بين إعجاز البلاغة القرآنيّة، وإعجاز البلاغة الصّوتيّة الضّروريّة في الأداء، ولا يتحقّق هذا الإعجاز الكليّ إلاّ باستحضار القارئ عظمة الله تعالى؛ وهو يتلو كتابه، وكأنّه «يناجي ربّه بحضور قلب، ووعي قراءة؛ فيتجاوب مع القرآن خوفا وطمعا، ورغبة ورهبة، ويزيل الصّوارف الّتي تمنعه من ذلك، وكأنّ كلّ

---

[1]- فتح الباري: شرح صحيح البخاريّ، شهاب الدّين أبو الفضل ابن حجر العسقلانيّ، النّاشر: مكتبة مصطفى البابيّ الحلبيّ، القاهرة، 1378هـ، ج 13، ص: 528.

[2]-المرجع نفسه، ج 08، ص: 690.

[3]- إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، الرّافعيّ، ص: 215.

[4]- المرجع نفسه، ص: 216.

خطاب في القرآن موجّه إليه شخصيّا؛ فيمتثّل أمره، ويجتنب نهيه.»[1] كلّ هذا يجعلنا نؤكّد على ضرورة دراسة الصّوت في القرآن الكريم؛ لأنّه كغيره من المستويات اللّغويّة يمثّل عنصر الإعجاز القرآنيّ، وانتقاء الأصوات اللّغويّة يكون حسب الدّلالات الّتي تحملها مجسّدة بذلك المعاني في أحسن صورة.

المبحث الخامس: مراتب التّلاوة

اهتمّ العلماء المسلمون الأوائل منهم والأواخر في توضيح مفهوم التّلاوة في القرآن الكريم، وتبيان ما لها من منازل، وذلك حتّى يسهّلوا على المتعلّمين – خاصّة المبتدئين – اختيار ما يناسب أصواتهم وأداءهم في قراءة القرآن؛ فالتّعدّد رحمة من الله تعالى على أمّته، وهكذا يتمكّن كلّ مسلم من اختيار الطّريقة المناسبة حتّى يداوم على التّلاوة بها، ويقبل عليها دون ملل، قال ابن الجزريّ: «وأمّا كيف يقرأ القرآن فإنّ كلام الله تعالى يُقْرَأُ **بالتّحقيق وبالتّدوير** الّذي هو التّوسّط بين الحالتين؛ مرتّلا مجوّدا بلحون العرب وأصواتها وتحسين اللّفظ، والصّوت بحسب الاستطاعة، فالتّحقيق وهو نوع من التّرتيل؛ ويقصد به تحقيق الهمزة في التّلاوة.»[2] **والحدر** «مثل: الصّبب، وهو ما انحدر من الأرض، يقال: كأنّما ينحطّ من حَدَرٍ، وحَدَرَ في قراءته وفي أذانه: يَحْدُرُ حَدْراً أيّ أسرع.»[3] الحدر الّذي هو الإسراع والاسترسال في القراءة من غير مكث ولا عجلة وفيه التّسهيل، وهو إنّما يكون للاستكثار من القراءة. ومن لم يمكّنه حسن الأداء بالحدر[4]؛ فلا ينبغي أن يقرأ إلاّ بالتّرتيل؛ لأنّه الأصل الّذي أُمِرَ المسلم بدليل قوله **تَعَالَىٰ**:﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾ المزمل: ٤. وقوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧﴾ الإسراء: ١٠٧ وقوله تعالى:﴿ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾ **القيامة: ١٦**، وأمّا السّبب في الأمر بالتّرتيل دون غيره من طرق التّلاوة حتّى يكون اللّفظ سالما من التّغيير، «وهو المستحبّ في القرآن؛ لأنّ

---

[1]- فنّ التّرتيل وعلومه، الشّيح أحمد بن أحمد بن محمّد عبد الله الطّويل، مجمع الملك فهد لطّباعة المصحف الشّريف، المدينة المنوّرة، بالتّعاون مع: مجمع الملك فيصل للبحوث والدّراسات الإسلاميّة، الرّياض، ط1، 1420هـ – 1999م، ج 01، ص:249.

[2]- شرح المقدّمة الجزريّة، إشراف وزارة الشّؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، المملكة العربيّة السّعوديّة، طبعه مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشّريف، المدينة المنوّرة، 1421هـ – 2001م، ص: 111 .

[3]- الصّحاح: تاج اللّغة وصحاح العربيّة، إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1399هـ – 1979م، ج 02، باب الرّاء، فصل الحاء، مادّة: حدر.

[4]- ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، الرّافعيّ، ص: 59.

المقصود من القراءة التّفكّر، والتّرتيل مُعِينٌ عليه، لذلك نعتت أمّ سلمة – رضي الله عنها – قراءة رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – فإذا هي قراءة مفسّرة حرفا حرفا،»[1] فبها يتوصّل القارئ إلى إحكام التّجويد؛ ويعطي كلّ حرف حظّه من الأداء والتّمام؛ فلا يحرّف في مخرجه، خاصّة أنّ الحروف في مخارجها تتغيّر أثناء تركيب بعضها إلى بعض، وقد يخلّ القارئ بها أثناء الأداء بالحدر بسبب ما يمتاز به من إسراع، وتتبع طريقة الحدر في الأداء القرآنيّ القصد منها تسهيل القراءة، والإكثار في الدّرس، وهو ما يرتضيه العلماء في حال لم يتقن قارئ القرآن الكريم التّجويد.

إنّ التّلاوة مقسّمة إلى ثلاث مراتب، وكلّ مرتبة فيها تأكيد بوجوب المحافظة على سلامة التّلاوة وأحكامها؛ فإذا كان التّرتيل هو القراءة بتؤدة واطمئنان، والحدر هو سرعة القراءة، والتّدوير التّوسّط بينهما[2]؛ فإنّه من الواجب على القارئ مراعاة أحكام التّجويد، فقد روي عن ابن مسعود – رضي الله عنه– أنّه قال: «جوّدوا القرآن بأحسن الأصوات، وأعربوه فإنّه عربيّ، والله يحبّ أن يعرب به.»[3] وفي ذلك دعوة بعدم الإخلال بقواعد القراءة، وتجويدها وتزيينها بالصّوت الحسن، كما يجوز لكلّ قارئ تخيّر القراءة الّتي توافق طبعه، وتخفّ على لسانه.

يضيف بعض العلماء مرتبة رابعة في التّلاوة وهي **التّحقيق**، ومعناه «بلغت يقين الشّيء، والمبالغة في الإتيان به على حقّه من غير زيادة ولا نقصان منه؛ فهو بلوغ حقيقة الشّيء والوقوف على كنهه.»[4] ويمثّل إحدى طرق القراءة بتؤدة وطمأنينة بقصد التّعليم مع تدبّر المعاني وضبط الأحكام، ويرى آخرون أنّ مرتبتي التّحقيق والتّرتيل هي مرتبة واحدة، إلاّ أنّ التّحقيق خاصّ بالتّعليم والتّعلّم، والتّرتيل خاصّ بالتّعبّد من خلال القراءة، وتعتبر أفضل المراتب[5]، فقد ذكرها القرآن الكريم في الآية

---

[1]– إحياء علوم الدّين، أبو حامد الغزاليّ، ص: 328 – 329.

[2]– قال ابن الجزري:

وَيُقْرَأُ الْـقُرْآنُ بِالتَّحْقِـيقِ مَـعَ حَدْرٍ وَتَدْوِيرٍ وَكُلٌّ مُتَّبَعِ

مَعَ حُسْنِ صَوْتٍ بِلُحُونِ الْعَرَبِ مُـرَتَّلاً مُجَوَّدًا بِالْـعَرَبِيّ

– شرح طيبة النّشر في القراءات العشر، أبو القاسم محمّد بن محمّد بن محمّد بن عليّ النّويريّ، تقديم وتحقيق: د. مجديّ محمّد سرور سعد باسلوم، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ – 2003م، ج 01، ص: 245.

[3]– النّشر في القراءات العشر، ابن الجزريّ، ج 01، ص: 210.

[4]– المرجع نفسه، ص: 205.

[5]– ينظر: التّبيان في آداب حملة القرآن، أبو زكريا يحيى بن شرف النّوويّ، حقّقه وعلّق عليه: محمّد الحجّار، دار ابن الحزم للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط4، 1416هـ – 1996م، ص: 238.

الشّريفة: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ ﴾ الفرقان: ٣٢.

المبحث السّادس: الكتابة العثمانيّة في المصاحف وإيضاحها

اتّفق العلماء على أهميّة كتابة القرآن الكريم في المصاحف، واستقرّ قولهم على استحباب تحسين كتابتها، وإيضاحها وتحقيق الخطّ دون مشقّة، «قال العلماء: ويستحبّ نقط المصحف وشكله؛ فإنّه صيانة من اللّحن فيه وتصحيفه، وأمّا كراهة الشّعبيّ والنّخعيّ للنّقط؛ فإنّما كرهاه في ذلك الزّمان خوفا من التّغيير فيه، وقد أُمِنَ ذلك اليوم فلا منع، ولا يمتنع من ذلك لكونه محدَثا؛ فإنّه من المحْدَثَاتِ الحسنة؛ فلم يمنع منه كنظائره مثل تصنيف العلم، وبناء المدارس والرّباطات وغير ذلك.»(1)

يشير القول إلى اقتراح تحسين وضبط المصحف ضبطا يتلاءم مع تطوّرات العصر؛ خاصّة مع تفشي ظاهرة القراءة غير السّليمة للّغة العربيّة، فما بالنا إذا تعلّق الأمر بالقراءة القرآنيّة، والمقترح ليس بدعة سيّئة؛ بل هو بدعة حسنة(2)؛ بدليل أنّ المسلمين الأوائل لم يقفوا في كتابتهم للمصحف على ما تركه الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – من كتابة، وإنّما عملوا على تطويره.

يشهد التّاريخ كيف جُمِعَ القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصّديق – رضي الله عنه – وكُتِبَ، ثمّ في عهد عثمان بن عفّان – رضي الله عنه – الّذي أرسى كتابة القرآن العثمانيّة، «قاصدا بذلك جمع المسلمين على القراءات الثّابتة المعروفة عن النّبيّ _ صلّى الله عليه وسلّم – وإلغاء ما ليس كذلك، وأخذهم بمصحف واحد لا تقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أثبت مع التّنزيل، ومنسوخ تلاوته كُتِبَ مع مثبت رسمه، ومفروض قراءته وحفظه؛ خشية دخول الفساد والشّبهة على من يأتي بعده.»(3) وأحرق النّسخ المخالفة لها، وما شهده المصحف من تنقيط بدءا من أبي الأسود الدّؤليّ إلى أن وصل إلينا كما هو الحال اليوم(4).

---

(1)- ينظر: التّبيان في آداب حملة القرآن، النّوويّ، ص:189 - 190.

(2)- ولا يمنع من ذلك كونه محدثا؛ فكم من محدث حسن؛ كما قيل في إقامة الجماعات في التّراويح إنّها من محدثات عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وأنّها بدعة حسنة؛ وإنّما البدعة المذمومة ما يصادم السّنّة القديمة، ويكاد يفضي إلى تغييرها. - إحياء علوم الدّين ، أبو حامد الغزاليّ، ص: 327.

(3)- البرهان في علوم القرآن، الزّركشيّ، ج 01، ص: 330.

(4)- ظلّ الرّسم العثمانيّ سنّة متّبعة تحرم مخالفته بزيادة حرف أو نقصانه؛ ولكن تحسينا طرأ عليه في العصور التّالية، فقد ابتكر العلماء الحركات من فتحة وكسرة وضمّة، وكانت أوّل أمرها على هيئة نقط؛ ثمّ ابتكروا نقط الإعجام للتّمييز بين الحروف المتماثلة في الشّكل. - الاختلاف بين القراءات، أحمد إسماعيل البيليّ، دار الجيل، بيروت، الدّار السّودانيّة للكتب، الخرطوم، ط1، 1408هـ – 1988م، ص: 70.

وإذا احتاج الأمر اليوم إلى تصحيح يتلاءم مع تطوّرات العصر، وما نراه من ضعف في إدراك القراءة السّليمة للقرآن الكريم؛ فلا بأس من تحسينه، وإدخال تعديلات تخدم القراءة الصّحيحة السّليمة دونما مساس بالأصول الّتي وضعها الأوائل من المسلمين[1]، «من ذلك تحسين أشكال الحروف وحجمها، ودخلت النّقاط على بعض الحروف فميّزتها عن بعضها، ثمّ دخلت علامات الضّبط لأصوات الحروف المختلفة، ثمّ علامات التّجويد وعلامات الوقف والإعراب، وغيرها من التّحسينات الّتي تساعد القارئ على القراءة الصّحيحة لكتاب الله سبحانه وتعالى، ومع اكتفاء المسلمين بهذا القدر من الضّبط؛ إلاّ أنّنا ما زلنا نشهد بعض المقترحات الّتي تسعى لمزيد من الضّبط هادفة بذلك إلى تمكين المسلمين من تحسين قراءتهم لكتاب الله تعالى؛»[2] خاصّة ونحن نعيش يوميّا حالة تدنٍ وضعف في القراءة لدى المتعلّمين.

ويشكو غالبيّة المعلّمين أنّ المتعلّمين لا يستطيعون فكّ رموز كتابة الرّسم العثمانيّ؛ وأنّهم في كثير من الأحيان يضطرّون إلى إعادة كتابة الآيات الكريمات بالرّسم الإملائيّ على السّبورة بدل الاعتماد على كتابة الرّسم العثمانيّ المصوّرة من المصحف الشّريف في الكتاب المدرسيّ؛ لأنّ «ما تتّصف به الكتابة عامّة من قصور من مثل ما لاحظناه في الرّسم العثمانيّ؛ من عدم إثبات رموز بعض الحركات الطّويلة وبعض الصّوامت، أو وجود رموز مكتوبة دون مقابل نطقيّ لها، وفي ما يبدو من تمثيل بعض الأصوات برموز غير رموزها؛ من مثل رسم الفتحة الطّويلة واوا أو ياء، ورسم الهمزة بأحد رموز أصوات المدّ واللّين الثّلاثة وما إلى ذلك، وهذا الجانب بحدّ ذاته واضح يكفي فيه أن نحقّق الرّواية في كيفيّة اللّفظ؛ ثمّ نسلّم بالفرق الموجود بين اللّفظ والرّسم.»[3] لذا وجب التّفكير الجادّ في اتّخاذ قرار اتّجاه هذه الظّاهرة من خلال الجمع بين ما كتب بالرّسم العثمانيّ في المصحف الشّريف، وما يعانيه المتعلّمون من صعوبة في قراءته؛ حتّى نحافظ على القراءة الجيّدة، وحتّى لا ننفّر الأجيال من المداومة على قراءة القرآن الكريم.

إنّ كتابة القرآن الكريم بالرّسم العثمانيّ هي سنّة حميدة يدعو العلماء إلى ضرورة اتّباعها والالتزام بها؛ لدرجة أنّ هناك من جوز تحريم مخالفتها؛ وحجّتهم في ذلك أنّ الرّسم العثمانيّ اصطلاح

---

(1)- ينظر: البديع في علم التّجويد، أحمد إسماعيل البيليّ، منشورات جامعة السّودان المفتوحة، الخرطوم، د ط، 2004م، ص:26.

(2)- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(3)- رسم المصحف: دراسة لغويّة تاريخيّة، د. غانم قدّوريّ الحمد، اللّجنة الوطنيّة للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر هجريّ، الجمهوريّة العراقيّة، ط1، 1403هـ – 1982م، ص: 613.

تلقّته الأمّة بالقبول، وأجمع عليه الصّحابة – رضي الله عنهم–، ثمّ إجماع التّابعين بعد ذلك وتابعي التّابعين، لذا يجب اتّباعه، «وأحسن ما يحتجّ به أن يقال هذا التّأليف لكتاب الله – عزّ وجلّ – مأخوذ من جهة النّبيّ – صلّى الله عليه وسلّم – ولعلّه أخذه من جبريل – عليه السّلام – فالأولى بالقارئ أن يقرأه على التّأليف المنقول المجمع عليه.»[1] ذلك أنّ الرّسم العثمانيّ مدعاة إلى تلقّي القرآن الكريم مشافهة من أفواه المشايخ والقرّاء؛ حتّى يتمّ أداؤه أداء سليما، بالإضافة إلى أنّ هذا الإجراء سند متّصل بالرّسول – صلّى الله عليه وسلّم –، كما أنّ قبول القراءة يكون بموافقتها الرّسم العثمانيّ.

غير أنّه – في مقابل من دعوا إلى عدم الحياد عن الكتابة العثمانيّة –؛ هناك من يجوّز كتابة القرآن الكريم بالرّسم الإملائيّ، ومن هؤلاء الشّوكانيّ الّذي قال: «هذا مجرّد اصطلاح لا يلزم المشي عليه؛ فإنّ هذه النّقوش الكتابيّة أمور اصطلاحيّة لا يشاحح في مثلها إلاّ فيما كان منها على الحرف الّذي كان في أصل الكلمة ونحوه؛ كما هو مقرّر في مباحث الخطّ من علم الصّرف، وعلى كلّ حال فرسم الكلمة وجعل نقشها الكتابيّ على ما يقتضيه اللّفظ بها هو الأولى؛ فما كان في النّطق ألفا كالصّلاة والزّكاة ونحوها؛ كان الأولى في رسمه أن يكون كذلك، وكون أصل هذا الألف واوا أو ياء لا يخفى على من يعرف علم الصّرف، وهذه النّقوش ليست إلاّ لفهم اللّفظ الّذي يدلّ بها عليه كيف هو نطق من ينطق به لا لتفهيم أنّ أصل الكلمة كذا ممّا لا يجري به النّطق؛ فاعرف هذا ولا تشتغل بما يعتبره كثير من أهل العلم في هذه النّقوش، ويلزمون به أنفسهم ويعيبون من خالفه؛ فغنيّ ذلك من المشاححة في الأمور الاصطلاحيّة الّتي لا تلوم أحدا أن يتقيّد بها.»[2]

إنّ هذه الدّعوة مفيدة جدّا في تعليم قراءة القرآن للمتعلّمين المتمدرسين؛ الّذين يصعب عليهم قراءته بالرّسم العثمانيّ؛ فيشوّهونه أيّما تشويه؛ فالأفضل كما يرى الشّوكانيّ أن نراعي كتابته على نحو نطقه؛ إذا أردنا أن تُقْبِلَ الأجيال على قراءته وصونه من الأداء المنحرف؛ الّذي يعتبر لحنا بشعا يرتكبه المتعلّمون والمعلّمون أيضا، وهذا لا يعني البتّة الاستغناء عن المصحف المكتوب بالرّسم العثمانيّ؛ وإنّما الاستعانة بالرّسم الإملائيّ يكون مع المتعلّمين في المؤسّسات التّربويّة في المراحل الأولى من التّعلّم، ولا بأس في أن ينبّه المعلّم أثناء ذلك إلى كتابة الرّسم العثمانيّ المتّبعة في المصاحف؛ لأنّ

[1]– الجامع لشعب الإيمان، الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البهيقيّ، حقّقه وراجع نصوصه وخرّج أحاديثه: د. عبد العليّ عبد الحميد حامد، مكتبة الرّشيد للنّشر والتّوزيع، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط1، 1423هـ – 2003م، ج 04، ص: 08.

[2]– فتح القدير الجامع بين فنّي الرّواية والدّراية من علم التّفسير، الإمام محمّد بن عليّ بن محمّد بن عبد الله الصّنعانيّ، دار النّوادر، الكويت، د ط، 1431هـ – 2010م، ج 01، ص: 294 – 295.

ذلك يجعلهم لا يتفاجأون عندما يعودون إليها، وتتكوّن لهم دراية أوّليّة ومبادئ بسيطة عن الكتابة العثمانيّة، ولا ننسى – في هذا المقام – أولئك الّذين يعتنقون الإسلام من غير العرب، ويندفعون بحكم الحياة الإيمانيّة الجديدة إلى حبّ قراءة القرآن وَلِمَ لا حفظه، فهؤلاء أيضا من المستحسن تعليمهم قراءة القرآن بالرّسم الإملائيّ، والتّدرّج معهم حتّى يتمكّنوا من اللّغة العربيّة، ثمّ الانتقال بهم إلى مراحل متقدّمة نحو تعلّم القراءة القرآنيّة بالرّسم العثمانيّ.

كما لا ننسى أن نشير في هذا المقام أنّ في بلادنا – الجزائر – ولله الحمد؛ قد انتشرت فيها في السّنوات الأخيرة الزّوايا القرآنيّة لتعليم القرآن الكريم وتدارسه وحفظه، ودراسة كلّ ما يتعلّق بعلومه، وذلك في كلّ التّراب الجزائريّ، ويوجد أيضا جامعات متخصّصة في تدريس الشّريعة الإسلاميّة، وما ينطوي تحتها من دراسات قرآنيّة عديدة؛ بالإضافة إلى انتشار دروس لتعليم القرآن الكريم، وتحفيظه في المساجد للنّساء سواء المتعلّمات اللّواتي يرغبن في حفظ القرآن الكريم، وتعلّم قواعد تجويده وترتيله، أو الأمّيات اللّواتي يأملن بشدّة حفظ ولو القسط اليسير منه، لقراءته في صلواتهنّ، وتقوم بمهمّة التّعليم لهؤلاء النّسوة معلّمات يطلق عليهنّ اسم المرشدات، والملاحظ أنّه هناك إقبال كبير من النّساء على المساجد لأجل هذا الغرض؛ ما أردنا استخلاصه بعد الإشارة إلى هذه الأماكن المتخصّصة في تعليم القرآن الكريم؛ هو أنّه لا بدّ من الاستعانة بالرّسم الإملائيّ في بداية مراحل التّعلّم[1]، وبعد هذه المرحلة هناك آفاق رحبة، ومجالات واسعة لتعليم القرآن الكريم: قراءة، وتجويدا، وترتيلا، وأداء بالكيفيّة المتواترة عن السّلف الصّالح، والموافقة للرّسم العثمانيّ.

المبحث السّابع: أهميّة التّلقّي ومنهجه في تعلّم القرآن الكريم

يؤكّد علماء التّجويد والقراءات قديما وحديثا أنّ القراءة القرآنيّة لا بدّ أن تُتَلقّى عن أفواه المشايخ؛ حتّى يكون الأداء سليما، والقراءة صحيحة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ النّمل: ٦؛ ذلك أنّه لوحظ من خلال التّلقّي «أنّ هناك من الكلمات ما لا يضبط إلاّ

[1]– لقد وظّف الدّكتور عماد بن عامر أستاذ بجامعة البليدة؛ مصطلح: «**القراءة التّعليميّة**» لهذه المرحلة من تعلّم قراءة القرآن الكريم، آراه مصطلحا جدّ مناسب، نرجو أن يشاع استعماله في إطار تعلّم مبادئ القراءة القرآنيّة في مراحلها الأولى، وكان ذلك من خلال حصّة إذاعيّة بعنوان: أحكام التّلاوة، تبثّ على قناة القرآن كلّ يوم جمعة من العاشرة إلى الحادية عشر صباحا.

بالمشافهة والسّماع، فلا يُمَيِّزُ أداءَها مخرجٌ ولا صفةٌ؛ بل يميّزها التّلقّي ومعرفة المعنى.»[1] كما أنّ التّلقّي له أهمّيّة كبيرة في قراءة القرآن وتعلّمه؛ ولأنّه لا يكفي تلقّيه من المصحف الشّريف، «ثمّ إنّ الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصّدور لا على حفظ المصاحف والكتب؛ هي أشرف خصّيصة من الله تعالى لهذه الأمة.»[2]

وقد لاحظ العلماء أنّ هناك كلمات قي القرآن الكريم يختلف القرّاء في أدائها نظرا لاتّحاد حروفها لفظا ورسما، وقد يخطئون فيها فيخرجونها عن معانيها المرادة، والسّبب قد يكون عدم مراعاة النّطق السّليم أثناء القراءة القرآنيّة[3]. «ولمّا خصّ الله تعالى بحفظه من شاء من أهله أقام له أئمة ثقات؛ تجرّدوا لتصحيحه وبذلوا أنفسهم في إتقانه، وتلقّوه من النّبيّ – صلّى الله عليه وسلّم – حرفا حرفا؛ لم يهملوا منه حركة ولا سكونا ولا إثباتا ولا حذفا، ولا دخل عليهم شيء منه شكّ ولا وهم، وكان منهم من حفظه كلّه.»[4] وهم بذلك سخّرهم الله تعالى لحفظ القرآن الكريم؛ لأنّه عزّ وجلّ توعّد بحفظه، على خلاف أهل الكتاب الّذين لم يحفظوا كتبهم في صدورهم وقلوبهم، فأضاعوا منها أمورا كثيرا، وتسنّى لمرضى القلوب منهم أن يحرّفوا ما أنزل على أنبيائهم – عليهم السّلام–.

تعدّ دراسة الأصوات المستوى الأوّل من مستويات البحث اللّسانيّ، وتولي الأبحاث اللّسانيّة المعاصرة في مجال الدّراسات الصّوتيّة العربيّة اهتماما كبيرا بكيفيّة الأداء الصّوتيّ، وذلك لما أصاب النّطق العربيّ اليوم من عيوب، و«يمثّل الأداء الصّوتيّ جانبا مهمّا من جوانب اللّغة، وأساسا خطيرا من أسس الكلام؛ فهو فنّ النّطق بالكلام على صورة توضّح ألفاظه، وتكشف القناع عن معانيه، وهو فنّ التّأثير في المستمع لينجذب إلى المؤدّي بكلّ حواسه السّمعيّة والبصريّة والشّعوريّة، ولاشكّ أنّ الأداء السّليم يحفظ للّغة رونقها في الأسماع، ووقعها السّاحر في الطّباع، ويفتح لها القلوب فتعي ما تسمع، ثمّ تتأمّله في أناة وارتياح.»[5] لأنّ الصّوت يمثّل اللّبنة الأولى في بناء اللّغة، ودراستها، وأدائها

---

(1)– زاد المقرئين أثناء تلاوة الكتاب المبين، أبو عبد الرّحمن جمال بن إبراهيم القرش، قدّم له: محمّد بن عبد الحميد أبو روّاش وآخرون، النّاشر دار الضّياء، طنطا، ط2، 1423هـ، ج 01، ص: 176.

(2)– النّشر في القراءات العشر، ابن الجزريّ، ج 01، ص: 06.

(3)– ينظر: زاد المقرئين أثناء تلاوة الكتاب المبين، أبو عبد الرّحمن جمال بن إبراهيم القرش، مرجع سابق، ج 01، ص: 176.

(4)– النّشر في القراءات العشر، ابن الجزريّ، ج 01، ص: 06.

(5)– الأداء الصّوتيّ في اللّغة، رشاد محمّد مسلم، مجلّة جامعة الشّارقة للعلوم الشّرعيّة والإنسانيّة، ربيع الثّاني 1436هـ – يونيو 2005م، المجلّد: 02، العدد: 02، ص: 209.

صحيحة سليمة، كما أنّه الأساس في التّفاهم في عمليّة التّواصل بين المتكلّم والمتلقّي، لهذا كان التّلقّي القرآنيّ يرتكز على الصّوت أيّ المشافهة.

ولقد أكّدت اللّسانيّات أنّ الصّوت اللّغويّ هو حياة اللّغة وبقاؤها، وأدرك علماء اللّسانيّات -قديما وحديثا- هذه الحقيقة؛ فأعطوها حظّها من العناية والاِهتمام والجهد. « وأصبحت الدّراسات الصّوتيّة اليوم علماً متعدّد الجوانب، واسع الأبحاث، يقدّم خدماتٍ جليلةً في دراسة اللّغة على المستويين العامّ والوظيفيّ، وذلك لما يمثّله الصّوت اللّغويّ من صورة حيّة للّغة؛ لأنّ اللّغة الّتي لا تُنْطَقْ لغة ميّتة. إنّ هذه العناية بالجانب الصّوتيّ كان للعرب المسلمين الحظّ الأكبر والرّيادة فيها؛ حين أدركوا أنّ سلامة اللّغة العربيّة مرتبطة بسلامة القرآن الكريم وبقائه.»[1] اِنطلاقاً من هذا المبدأ نشطت الجهود العربيّة لتتبّع الظّواهر اللّغويّة في القرآن الكريم، للكشف عن أسرار هذا الكتاب المعجز سواء في نظمه، أو لفظه، أو صوته، أو معانيه، فالقرآن الكريم كتاب الله المعجز، وهو كتاب أمّة «إذ تستمدّ اللّغة العربيّة أصولها من القرآن،؛ بل تبقى أصولها ثابتة في القرآن، ومن أولويات هذه الأصول: الأصوات لأنّها أصل اللّغات، والقرآن هو المنطلق الأساس للظّاهرة الصّوتيّة؛ لذلك اتّخذه الباحثون أساسا للدّراسة والتّطلّعات، وآياته مضمارا لاستلهام النّتائج؛ وهي حين تمازج بين الأصوات واللّغة، وتقارب بين اللّغة والفكر؛ فإنّما تتّجه بطبيعتها التّفكيريّة لرصد تلك الأبعاد مسخّرة لخدمة القرآن الكريم.»[2]

ونال بذلك دراسات حوله كثيرة ومتنوّعة، ومازال إلى يومنا هذا؛ يستقطب اِهتمام الكثير من الباحثين. إنّ اِهتمام العرب بالدّراسة الصّوتيّة في القرآن الكريم غايته الحفاظ على تجويده وتلاوته، والوقوف على معانيه، وإستنباط أحكامه الشّرعيّة. «وممّا ينبغي تسجيله هو أنّ علم الأصوات يخدم القرآن الكريم؛ لذا يقتضي منّا عناية أشدّ، وتحليلا لدقائقه وأصوله، وتوسّعا في مجالاته لتشمل كلّ العلوم اللّسانيّة، لتظلّ لغتنا العربيّة سليمة من كلّ الشّوائب النّطقيّة، إذ في صحّتها صحّة الأداء القرآنيّ وسلامته.»[3]

إنّ هذا الاهتمام بالصّوت وأدائه السّليم؛ الغاية منه تلقّي القرآن تلقّيا صوتيّا، وجعله الأساس في تلقي القرآن الكريم؛ ولأنّ هذه العمليّة كانت شفاهيّة؛ بل إنّ خاصيّة المشافهة في تلقّيه كانت

---

[1]- أثر التّنغيم في توجيه دلالة القرآن الكريم، الطّالبة: رشيدة بودالية، رسالة ماجستير، إشراف: د. الجيلاليّ بن يشو، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، جوان 2009م، ص: أ – ب.

[2]- أثر الصّوت في توجيه الدّلالة –دراسة أسلوبيّة صوتيّة– د. ساجدة عبد الكريم، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانيّة، المجلّد: 17، العدد: 03، آذار 2010م، ص: 288.

[3]- علم الأصوات اللّغويّة، د. أحمد عزوز، ديوان المطبوعات الجامعيّة، وهران، د ط، د ت، ص: 74.

شرطا اِشترطه العلماء المسلمون؛ حفاظا على سلامته ونقاوته، ومن ثمّ كان الحفاظ على أداء القرآن الكريم أداءً سليماً من أهمّ واجبات الباحثين؛ فاِستطاع بذلك علماء العربيّة الأوائل أن يقنّنوا نُظُماً للنّطق السّليم، والأداء القويم في القرآن الكريم، وهو دور رائد -باِعتراف غير العرب أيضا- قاموا به، لأنّهم أدركوا أنّ الرّسم الإملائيّ أو الكتابة وحدها تعجز عن «تمثيل التّنوّعات الصّوتيّة المصاحبة لأصوات اللّفظ الرّئيسيّة: كالنّبر، والتّنعيم، والتّرقيق، والتّفخيم، والتّنوّعات اللّهجيّة، والإمالة، والإشمام، والرّوم... وغيرها. وقد تبذل الكتابة جهودا مستميتة لسدّ هذا العجز، كاللّجوء إلى علامات التّرقيم المبنيّة للوقف والاستفهام والتّعجّب ونحوها، غير أنّها لا يمكن أن تنجح في ذلك بصورة نهائيّة، ولهذا السّبب لم يكتف القرّاء في قبول القراءة الصّحيحة بالقراءة من المصحف المكتوب؛ بل اشترطوا تلقّي القراءة بالمشافهة؛ لعدم كفاية الرّسم الكتابيّ مهما كان متقنا في نقل الهيئة الصّوتيّة الكاملة للقراءة بظواهرها المتنوّعة المختلفة، مادام ذلك يتعلّق بنصّ القرآن الكريم الّذي ينبغي نقل تلاوته كما وردت وتليت صوتيّا.»[1] وإذا ظنّ البعض أنّ قراءة القرآن الكريم- وحتّى غيره من النّصوص في اللّغة العربيّة- يتحقّق على الصّورة المنطوقة بسهولة لما يقرؤون من مجرّد قراءة الكتابة دون تدخّل جوانب صوتيّة أخرى؛ فإنّهم بذلك مخطئون في تقديراتهم؛ فالأمر ليس سهلا، والمهمّة تكتمل على المستوى الصّوتيّ المنطوق من خلال ما هو متعارف عليه من طرق انتقال النّبر بين المقاطع، واتّصال الكلام بعضه ببعض، أو انفصاله عن بعض، وما تصاحبه من موسيقى وأداء نغميّ.

لقد كان منهج علماء العرب في اِستقراء البحث الصّوتيّ عن طريق المشافهة، وهو منهج علم القراءات، والتّجويد في تلقّي القرآن الكريم؛ لأنّ ذلك يساعد على تمثّل المعنى، كما يظهر ما يحتويه من ظواهر صوتيّة يُتَصَوَّرُ معناها من نطقها؛ خاصّة إذا أدّينا الإلقاء حقّه، ويتوقّف القرآن الكريم على تلك الميزة الصّوتيّة المتمثّلة في حسن التّلاوة، والمجسّدة في الرّواية المتلقّاة عن قول الرّسول —صلى الله عليه وسلّم- «**جَوِّدُوا الْقُرْآنَ وَزَيِّنُوهُ بِأَحْسَنِ الْأَصْوَاتِ،**»[2] وليس المقصود به التّطريب، ولكنّه الاِلتزام بالنّطق الصّحيح، ومراعاة قواعد التّلاوة من مدّ، ووقف، ونبر، وإيقاع، وتنغيم؛ لأنّ ذلك من حسن التّلاوة الّذي يزيّن القرآن الكريم، ويبرز دور هذه الظّواهر الصّوتيّة في أداء معانيه؛ فيشدّ إليه الألباب، ويسحر العقول.

---

[1]- رحلة العلامة من الصّوت إلى الرّمز (3/2)، د. محمّد ربيع، منتديات تخاطب، ملتقى اللّسانيّين واللّغويّين والأدباء والمثقّفين والفلاسفة، اللّسانيّت النّظريّة، اللّسانيّات العامّة، الأربعاء 14 نوفمبر 2012م، 12:45، Ta5atub .com.

[2]- رواه أحمد وابن ماجة، والنّسائيّ، والحاكم. - الإتقان في علوم القرآن، جلال الدّين السّيوطيّ، تحقيق: الشّيخ شعيب الأرنؤوط، تعليق: مصطفى شيخ مصطفى، مؤسّسة الرّسالة ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1469هـ – 2008م، ص: 237.

إنّ حرص الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – على قراءة القرآن الكريم على أصحابه وأداء هذا الأمر شفاهيّا؛ الهدف منه تعلّم أدقّ دقائق الأداء القرآنيّ كالوقف والنّغم والتّنغيم؛ وذلك لحماية النّص القرآنيّ من التّغيير والتّحريف واللّحن، «وهذا ما سجّله أبو اللّيث السّمرقنديّ في سياق حديثه من الحكمة من قراءة الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – على أبيّ بن كعب، وذلك بقوله: وأمّا الحكمة في أمره تعالى بالقراءة على أبيّ فهو أن يتعلّم: أيّ ألفاظه وصيغةَ أدائِه، ومواضع الوقوف، وضبط النّغم؛ فإنّ نغمات القرآن على أسلوب ألّفه الشّرع وقدّره؛ بخلاف ما سواه من النّغم المستعملة في غيره، ولكلّ ضرب من النّغم أثر مخصوص في النّفوس؛ فكانت القراءة ليعلّمه لا ليتعلّم منه.»[1] إنّها طريقة التّلقّي في تعلّم قراءة القرآن الكريم؛ أرادها خير الأنام لأصحابه وأتباعه من بعدهم بشكل شفهيّ، وكان بإمكانه أن يكتب ذلك كوصايا في صحيفة؛ لكنّه رأى أن يلقّنها شفاهيّا عليهم، فكانت أأمن وأفضل طريقة لحفظ الأداء السّليم للقرآن الكريم.

[1]- بستان العارفين، أبو اللّيث نصر بن محمّد بن أحمد إبراهيم السّمرقنديّ، ص: 319، نقلا عن: القضايا التّطريزيّة في القراءات القرآنيّة: دراسة لسانيّة في الصّواتة الإيقاعيّة، د. أحمد البايبيّ، عالم الكتب الحديث للنّشر والتّوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2012م، ص: 178.

الفصل الأوّل: النّظام المقطعيّ ودلالته في الخطاب القرآنيّ.

المبحث الأوّل: مصطلحات الفونيم والصّوت والحرف.

1 – مفهوم الفونيم.

2 – مفهوم الصّوت.

أ – التّعريف اللّغويّ للصّوت.

ب – التّعريف الاصطلاحيّ للصّوت.

3 مفهوم الحرف.

أ – التّعريف اللّغويّ للحرف.

ب – التّعريف الاصطلاحيّ للحرف.

المبحث الثّاني: الفرق بين المصطلحات الثّلاثة (الفونيم – الصّوت – الحرف.)

المبحث الثّالث: بين الفونيم والألفون.

المبحث الرّابع: وظيفة الفونيم.

المبحث الخامس : فائدة الفونيم.

المبحث السّادس: أنواع الفونيم.

1– الفونيم القطعيّ.

2– الفونيم فوق القطعيّ.

المبحث السّابع: السّمات الفونولوجيّة للأصوات العربيّة.

المبحث الثّامن: الدّلالة الصّوتيّة.

المبحث التّاسع: الكتابة المقطعيّة والرّسم العثمانيّ.

– مفهوم المقطع.

أ – التّعريف اللّغويّ للمقطع.

ب – التّعريف الاصطلاحيّ للمقطع.

– الاتّجاه الفونينيكيّ الفيزيائيّ أو الأكوستيكيّ.

– الاتّجاه الفونولوجيّ (الوظيفيّ).

المبحث العاشر: أشكال المقطع في اللّغة العربيّة.

المبحث الحادي عشر: أنواع المقطع.

1 – المقطع المنبور.

2 – المقطع غير المنبور.

المبحث الثّاني عشر: خصائص المقاطع في اللّغة العربيّة والقرآن الكريم.

المبحث الثّالث عشر: أهميّة المقطع في تحليل النّصّ.

1 - الاختيار الصّوتيّ والتّأليف.

2 - دلالة المقطع في الخطاب القرآنيّ.

أ – البنيّة المقطعيّة في القرآن الكريم.

ب – مراعاة استخدام النّظام المقطعيّ في التّلاوة.

أ - ألف المدّ.

ب – حذف حروف وزيادة حروف.

ج – مواضع الوقف والوصل والفصل.

هـ - الهمزة.

3 – الكتابة المقطعيّة.

المبحث الرّابع عشر: تجلّيات المقطع ودلالته في الخطاب القرآنيّ.

المبحث الأوّل: مصطلحات الفونيم والصّوت والحرف

اللّغة نظام معقّد يتكوّن من مجموعة من الأنظمة الفرعيّة المتداخلة، هي: النّظام الصّوتيّ، والنّظام الصّرفيّ، والنّظام التّركيبيّ، ولكلّ نظام وحدات أساسيّة تدخل في تركيبه وفق قواعد خاصّة، وتتكوّن اللّغة من مجموعة من الجمل، وكلّ جملة تتألّف من مجموعة كلمات، وكلّ كلمة تبنى من مجموعة أصوات، والأصوات اللّغويّة هي المادّة الأساسيّة لبنيّة اللّغة، ولقد اهتمّ علماء اللّسانيّات منذ القديم بالمادّة الصّوتيّة، وتمّت دراستها من النّاحيتين: النّاحيّة الفونيتيكيّة، والنّاحيّة الفونولوجيّة، هذا الأخير الّذي يتناول الصّوت اللّغويّ ضمن سياقه التّركيبيّ باعتباره وحدة في النّظام الصّوتيّ؛ تخضع له لغة معيّنة(1).

يختلف الصّوت اللّغويّ من لغة إلى لغة، ومن فرد إلى آخر في اللّغة نفسها؛ بل وحتّى نطق الفرد الواحد يختلف باختلاف المواقف والأغراض؛ لذا كان من غير الممكن أن تكون الوحدة الصّوتيّة The Phone هي نفسها الوحدة الفونولوجيّة؛ إذ إنّ المادّة الصّوتيّة مادّة حيّة متكيّفة، وحيويّة اللّغة مستمدّة من حيويّة أصواتها قبل أن تستمدّ من حيويّة قواعدها الصّرفيّة والنّحويّة؛ فاللّغة عبارة عن بناء يتكوّن من وحدات صوتيّة متفاعلة فيما بينها، لتكوّن كيّان اللّغة المنطوقة؛ «فالمنطوق اللّغويّ أشبه ما يكون بجدول الماء المتدفّق منه؛ بالعقد الّذي تتوالى حبّاته حبّة حبّة، ومع ذلك فالمتكلّم يشعر باستقلال وحدات اللّغة، وتميّز بعضها عن بعض إلى حدّ ما أن تفصل كلّ واحدة منها عن الأخرى، ونظام الكتابة يعكس مثل هذا التّصوّر.»(2) ولهذا وضع علماء الفونولوجيّا مصطلحا جديدا وهو مصطلح الفونيم The Phoneme(3)، أطلق على الوحدة الأساسيّة الّتي تقوم عليها الدّراسات الصّوتيّة التّشكيليّة.

إنّ الكلمات لا تتكوّن من أصوات مفردة أو منعزلة بعضها عن بعض؛ إنّما تتكوّن من أصوات تتنوّع مواقعها، فإذا أخذنا صوت النّون فإنّه صوت عامّ يشمل مجموعة من النّونات، مثل قولنا: «إن شاء – إن ثاب – إن قال»، فكلّ واحدة منها تختلف عن الأخرى في موضع النّطق؛

(1)- ينظر: علم اللّغة بين التّراث والمعاصرة، د. عاطف مدكور، دار الثّقافة للنّشر والتّوزيع، القاهرة، د ط، 1987م، ص: 122- 123.

(2)- مدخل إلى علم اللّغة، د. محمّد حسن عبد العزيز، دار الفكر، بيروت، د ط، 1988م، ص: 78.

(3)- الفونيم مصطلح غربيّ انتقل من اللّغات الأخرى. – ينظر: المصطلح الصّوتيّ في الدّراسات العربيّة، د. عبد العزيز الصّيغ، دار الفكر، بيروت، ط1، 1401هـ – 2000م، ص: 225.

ومع ذلك يطلق عليها اسم واحد هو صوت «النّون»[1]. ما نستخلصه ممّا سبق أنّ كلمة صوت لها معنيان[2]:

1- معنى تجريديّ عامّ يقصد به النّوع أو الصّور الجزئيّة، وذلك مثل: النّون – الرّاء – اللاّم.

2- معنى خاصّ يطلق على الصّوت الجزئيّ؛ مع مراعاة صفاته النّطقيّة والسّمعيّة، وذلك كمثل صوت النّون المختلفة في تراكيب صوتيّة متنوّعة، فهي تختلف باختلاف مواقعها.

إنّ النّون صوت واحد بوصفها ليست ثاءً أو تاءً ذات وظيفة لغويّة؛ بحيث أنّها قادرة على تغيير معاني الكلمات كقولك: «ناب وثاب وتاب»، فالفرق الجليّ بين الكلمات راجع إلى احتواء الكلمة الأولى على نون، والكلمة الثّانية على ثاء، والكلمة الثّالثة على تاء، وكلّ منها عبارة عن صوت واحد لا عدّة أصوات، أمّا صور النّون في الأمثلة المذكورة آنفا لا تصلح لأن تتبادل فيما بينها في الموقع، ولا تؤدّي أيّ تغيّر فيها، ولا تصلح أن تكون ذات قيمة تمييزيّة؛ فهي في الحقيقة صور ترجع إلى أصل واحد، وتسمّى باسم واحد، هو صوت النّون الّذي في حالة ما إذا حلّ محلّ صوت آخر؛ يعمل على تغيير المعنى، أو دلالة الكلمة، وهذا الصّوت هو ما اتّفق علماء اللّسانيّات على تسميّته بالفونيم[3].

1 – مفهوم الفونيم[4]

---

(1)- ينظر: علم اللّغة العامّ، الأصوات، د. كمال محمّد بشر، دار المعارف، مصر، د ط، 1974م، ج 01، ص: 201.

(2)- ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(3)- ينظر: الكلمة – دراسة لغويّة ومعجميّة- د. حلميّ خليل، دار المعرفة الجامعيّة، مصر، ط1، 1998م، ص: 37.

(4)- ظهرت مع ظهور الفونيم نظريّات عديدة واتّجاهات تعمل على تحديده وتبيان جوانبه ونشأته منها: **الاتّجاه النّفسيّ (العقليّ)**: ومؤسّسه **بودوان ديكورتناي Boudouin de Courtenay** الّذي يعدّ الفونيم صورة ذهنيّة للصّوت، يقول: «الفونيم هو المعادل النّفسيّ للصّوت.»، ومن روّاده أيضا اللّسانيّ الأمريكيّ **سابير Sapir** الّذي استعمل مصطلح «صوت مثاليّ» مقابل «الصّوت الموضوعيّ»، قال: «إنّ هذه الأصوات المثاليّة الّتي يكوّنها الإحساس الفطريّ بوجود علاقات مهمّة بين الأصوات الحقيقيّة أكثر واقعيّة وتحقّقا بالنّسبة للمتكلّم العادي من الأصوات الحقيقيّة نفسها.» والفونيم – عنده – يتحقّق في صور متعدّدة أثناء النّطق، أو ما يطلق عليه اسم الألوفونات، أو العائلة الصّوتيّة للفونيم. **الاتّجاه الماديّ (العضويّ)**: يفسّر أصحاب هذا الاتّجاه الفونيم تفسيرا عضويّا يقوم على أساس النّطق والسّمع، يتزعّم هذه النّظرة العالم السّوسريّ **دي سوسير De Saussere** الّذي عالج فكرة الفونيم بالتّمييز بين جانبين من جوانب النّشاط اللّغويّ أثناء الكلام، وهما: الجانب العضويّ والجانب السّمعيّ. **الاتّجاه الوظيفيّ**: قام هذا الاتّجاه ناقدا منهجيّة الاتّجاهات السّابقة؛ مركّزا أصحابه على وظيفة الأصوات اللّغويّة الّتي تحدّد الفونيم من خلال تحديد هذه الوظيفة، من روّاده **تروبتسكوي Trubetszkoy** الّذي يعتبر الفونيم علامة مميّزة لا يمكن تعريفها إلاّ بالرّجوع إلى وظيفتها في تركيب كلّ لغة على حده. وقد عرّفه قائلا: «هو أصغر وحدة تشكيليّة في اللّسان المدروس.» خلاصة ما ذكر أنّه لا يجب النّظر إلى الفونيم من خلال اتّجاه واحد؛ وإنّما من اعتبار كلّ الاتّجاهات مجتمعة حتّى تتحدّد نشأته ومفهومه ووظيفته. ينظر تفصيل كلّ هذا في كتاب: مناهج البحث في اللّغة، د. تمّام حسّان، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، د ط، 2014م، ص: 125 وما بعدها. وعلم الأصوات، د. كمال محمّد بشر، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، د ط، 2000م، ص: 475 وما بعدها. و دراسة الصّوت اللّغويّ، د. أحمد عمر مختار، عالم الكتب، القاهرة، د ط، 1418هـ - 1997م، ص: 169 ومابعدها.

لقد نال علم الأصوات حظّه بين العلوم اللّغويّة، ثمّ تألّق هذا العلم وتشعّب فيما بعد إلى أكثر من فرع؛ فظهر ما أطلق عليه علماء الأصوات مصطلح الفونيم Phoneme، أو علم الفونيم كما يسمّيه بعض اللّسانيّين. ويعتبر الفونيم الوحدة المتميّزة الصّغرى الّتي يمكن أن تجري فيها السّلسلة الكلاميّة؛ وباعتباره أصغر الوحدات الصّوتيّة يمكن العمل عليها في إطار تحليل الكلام للوصول إلى مكوّناته، ومعرفة مصدر النّغم، وسرّ الانسجام الموجود في أصوات السّلسلة الكلاميّة.

ولقد سجّل العلماء تعريفات كثيرة للفونيم وذلك حسب المدارس الصّوتيّة الّتي تناولته، ومن أبرز التّعريفات ما ذهب إليه ماريوباي في قوله: «إنّه العلم الّذي يعالج الخصائص الصّوتيّة الوثيقة الصّلة بلغة معيّنة من وجهة إحساس المتكلّمين، وإذا كان من الممكن أن يشتمل الفونيم على صوت واحد هو: فون Phone أو صوت موضوعيّ؛ فهو في الكثير الأعمّ يشتمل على مجموعة من الألفونات المتشابهة، أو التّنوّعات الصّوتيّة الّتي يتوقّف استعمال كلّ منها أساسا على موقعه في الكلمة: أوّلا، وسطا، آخرا وعلى الأصوات المجاورة له.»[1] هذا التّعريف يضع لنا أسسا للفونيم، فهو يتحدّث عن خصائص الصّوت البشريّ، وتنوّعاته المختلفة، وما يطرأ على هذا الصّوت من تغييرات.

ومن أنسب التّعريفات للفونيم بالنّسبة للعربيّة هو اعتباره «كلّ صوت قادر على إيجاد تغيير دلاليّ.»[2] أو التّعريف الّذي يعتبره «أصغر وحدة صوتيّة عن طريقها يمكن التّفريق بين المعاني.»[3] فالكلمة في أبسط صورها تتكوّن من مجموعة من الفونيمات، هذه الأخيرة الّتي تعتبر وحدات صوتيّة عن طريقها يتمّ التّفريق بين معاني الكلمات.

لقد دار جدل كبير بين علماء اللّسانيّات حول نظريّة الفونيم، وتعدّدت الآراء فيها، فقد كان وضع الفونيم في بداياته «وحدة لغويّة أو بوصفه طائفة من الأصوات محلّ جدال،»[4] ويعود السّبب في ذلك إلى اختلاف وجهات نظر اللّغويّين حول فكرة الفونيم، ممّا أدّى إلى تعدّد الآراء والمناهج الّتي تناولت هذا الموضوع، ولهذا فإنّنا لا نستغرب ما ذهب إليه اللّغويّ الانجليزيّ روبنز Robins عندما قال: «إنّ كمّيّة كبيرة من المداد قد استخدمت في الجدال حول نظريّة الفونيم وداخلها.»[5] وقد

---

(1)- أسس علم اللّغة، ماريوباي، ترجمة: د. أحمد عمر مختار، عالم الكتب، القاهرة، ط8، 1998م، ص: 88.

(2)- دراسة الصّوت اللّغويّ، أحمد عمر مختار، ص: 179.

(3)- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(4)- موجز تاريخ علم اللّغة في الغرب، روبرت روبنز، ترجمة: د. أحمد عوض،عالم المعرفة، الكويت، د ط، نوفمبر1997م، ص: 293.

(5)- General Linguistics ; An Introductory Survey ; Robins R; H; Longman; London; 1967; p: 128.

تعدّدت نظريّات الفونيم ومدارسه؛ فقد اعتبرته بعض المدارس «وجودا نفسيّا أو وجودا فيزيولوجيّا أو وجودا مبهما (مفارقا) أو مجرّد أداة للوصف.»[1]

ومن أهمّ التّعريفات أيضا أنّه الوحدة الصّوتيّة الّتي تغيّر المعنى داخل التّركيب اللّغويّ، وينطوي تحتها كمّ هائل من الصّور الصّوتيّة الّتي يحدّد ملامحها السّياق الصّوتيّ الّذي ترد فيه، فالفونيم –إذن– «وحدة مجرّدة تمثّل أصغر جزء صوتيّ من الكلمة، يمكن تمييزه عن غيره من الأجزاء داخل الكلمة، ويسمّى كلّ صوت فونيما.»[2] يمكن أن نمثّل لذلك من خلال كلمتي: ساد – صاد في اللّغة العربيّة، فهما تختلفان عن بعضهما البعض لاختلاف الفونيم الأوّل في كليهما؛ غير أنّ الّذي ينطق بالانجليزيّة لا يجد فرقا بين الصّوتين (س) و (ص) لو قام بإبدال أحدهما مكان الآخر في كلمة انجليزيّة، والأمر نفسه بالنّسبة للصّوتين (p) و(b) في اللّغة العربيّة؛ فإنّ إبدال أحدهما مكان الآخر لا يؤثّر في المعنى؛ غير أنّهما بالنّسبة للنّاطق بالانجليزيّة فونيمان مختلفان[3].

يرى عمر مختار أنّ نظريّة الفونيم انبثقت من ملاحظة كيفيّات النّطق المختلفة، ووظائف الأصوات المتنوّعة، ومن محاولة وضع ألفبائيّات للّغات المختلفة، ولقد كان همّ هؤلاء وضع الأبجديّات المختلفة[4]، أيّ تحويل الصّوت المنطوق إلى رمز مكتوب، وهذا يعني محاولة تفصيل السّلسلة الكلاميّة إلى أجزاء ومقاطع بوضع مقابل لكلّ منطوق في شكل مكتوب؛ وهكذا يمكن استدعاء ذلك المنطوق عن طريق المكتوب، من هنا جاءت فكرة الفونيم كرمز مكتوب يعبّر عن صوت منطوق، ولكن هذا الفونيم والّذي يُظَنُّ أنّه صوت واحد؛ هو في الحقيقة غير ذلك «فإنّ السّين في كلمة – سلا – تختلف من ناحيّة الصّفة عنها في كلمة – سطا – مثلا، فهي في الثّانية ذات قيمة تفخيميّة ليست في الأولى، ومع ذلك فإنّنا نسمّي كلّ واحدة منها (سينا)، ونرمز لها في الكتابة برمز واحد، كما نرمز

[1]- موجز تاريخ علم اللّغة، روبرت روبنز، ص: 293.

[2]- الصّوتيّات العربيّة، د. منصور بن محمّد الغامديّ، مكتبة التّوبة للنّشر، الرّياض، ط1، 1431هـ – 2001م، ص: 10.

[3]- ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[4]- ينظر: دراسة الصّوت اللّغويّ، ص: 173.

لأصوات النّون المختلفة برمز واحد في الكتابة كذلك،»[1] فهذه الصّور المختلفة لصوت النّون الّتي يعبّر عنها في الكتابة برمز واحد؛ يطلق عليها اسم فونيم وحدة صوتيّة، ومن أمثلته[2]:

- صورة شفهيّة مثل: ينبح.
- صورة شفويّة أسنانيّة مثل: ينفع.
- صورة أسنانيّة مفخّمة مثل: ينظر.
- صورة فيها تكرار مثل: من رأى.
- صورة فيها انحراف مثل: من لام.

فونيمات اللّغة – إذن – ليست أصواتا فيزيائيّة مجرّدة؛ بل هي سمات الأصوات الّتي يحاول المتكلّم أن ينتجها، ويدركها في أثناء التّتابع الصّوتيّ[3].

1 – مفهوم الصّوت

أ – التّعريف اللّغويّ للصّوت:

ترى المعاجم اللّغويّة أنّ الصّوت هو من «صَوَّتَ فلان (بفلان) تصويتاً: أيّ دعاه، وصَاتَ يُصَوِّتُ صَوْتاً فهو صَائِتٌ، بمعنى صائح، وكلّ ضرب من الأغنيّات صَوْتٌ من الأصوات، ورجل صَائِتٌ: حسن الصّوت شديده، ورجل صَيِّتٌ : حسن الصّوت، فلان حسن الصِّيتِ: له صيت وذكر في النّاس حسن.»[4] أمّا من حيث الاشتقاق فإنّ «الصّوت: مصدر صات الشّيءُ، يصُوت صوتا؛ فهو صائت تصويتا، وصوّت تصويتا؛ فهو مصوّت، وهو عامّ غير مختصّ، يقال سمعت صوت

---

[1]- الفونيمات فوق التّركيبيّة، د. عطيّة سليمان أحمد، مجلّة مركز الاستشارات البحثيّة، كليّة الآداب للنّشر، شعبة الخدمات المعلوماتيّة، السّويس، ماي 2009م، ص: 07.

[2]- الأصول: دراسة ابستمولوجيّة للفكر اللّغويّ عند العرب (النّحو- فقه اللّغة - البلاغة)، د. تمّام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، د ط، 1420هـ – 2000م، ص: 111.

[3]- يعتبر الصّوت خارج البناء خاصيّة فيزيائيّة ناتجة عن إحداث تخلخل في ضغط الهواء، تنتقل بشكل موجات من المتلقّي إلى السّامع؛ لكنّه في نطاق التّشكيل الصّوتيّ يصبح وحدة صوتيّة لها خاصيّة لغويّة فـ – ص – خارج البناء وحدة فيزيائيّة، وداخل البناء وحدة صوتيّة وتسمّى الفونيم. - مبادئ اللّسانيّات، د. أحمد محمّد قدور، دار الفكر، دمشق، ط2، 1419هـ – 1999م، ص: 98.

[4]- كتاب العين، الفراهيديّ، ج 07، باب الصّاد والتّاء، مادّة: صوت.

الرّجل، وصوت الحمار، قال تعالى: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ۝١٩﴾ لقمان: ١٩، وقال الشّاعر[1]:

كَأَنَّمَا أَصْوَاتُهَا فِي الْوَادِي   أَصْوَاتُ حِجٍّ مِنْ عُمَانَ غَادِي

وهذا لا يعني أبدا أنّ الصّوت البشريّ يشبه الصّوت الحيوانيّ؛ بل على العكس من ذلك تماما؛ فالصّوت البشريّ يعرف بالتّطوّر والنّموّ والتّنوّع، أمّا الصّوت الحيوانيّ فإنّه غريزيّ وثابت وذو نمط واحد، ويرتبط الصّوت بالشّهرة والصّيت، وكذلك علوّ الكلام وشدّته، «والصّوت الجرس معروف مذكر.»[2] وصات من باب قال، و«الصَّيِّت بتشديد الياء وكسرها، وصَاتَ: شديد الصّوت، والصِّيتُ: للذّكر الجميل الّذي ينتشر في النّاس.»[3] فالصّوت في اللّغة حسب ما ورد في المعاجم العربيّة هو: الدّعوة، والصّياح، والجرْس، والقول، وعلوّ الكلام وشدّته، ومجازا هو الشّهرة والذّيوع. والصّوت الإنسانيّ متطوّر ومتنوّع، وصوت الحيوان غريزيّ وثابت.

ب – التّعريف الاصطلاحيّ للصّوت[4]:

أمّا اصطلاحا فهو عند ابن سينا «هيئة للصّوت عارضة له؛ يتميّز بها عن صوت آخر مثله في الحدّة والثّقل تميّزا في المسموع.»[5] وعند ابن جنيّ «عرض يخرج مع النّفس متّصلا حتّى يعرض له في الحلق والفمّ والشّفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمّى المقطع أينما عرض له حرفا، وتختلف أجراس الحروف بحسب مقاطعها.»[6] من هذين التّعريفين يمكن القول: إنّ القدماء وصفوا الصّوت عموما، والصّوت اللّغويّ خصوصا بأوصاف حدّدت المراد منه، ويمكن أن نخلص من ذلك

---

(1)- سرّ صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جنيّ، تحقيق: د. حسن هنداويّ، دار القلم للطّباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق، ط2، 1413هـ - 1993م، ج 01، ص: 09 - 10.

(2)- لسان العرب، ابن منظور، ج 02 ، مادّة: صوت.

(3)- مختار الصّحاح، الرّازيّ، باب الصّاد، مادّة: صوت.

(4)- في هذا المقام يطرح إشكال الحرف والصّوت وحدّيهما، فالعامّة لا يفرقّون بين حدّ الصّوت والحرف، والصّوت أعمّ من الحرف، وتبدو خصوصيّة الحرف في كونه يكتب ثمّ يلفظ من ناحية، وفي كونه صورة لما ينطق من ناحية ثانية. ينظر: أصوات اللّغة العربيّة، عبد الغفّار هلال، مكتبة وهبة، القاهرة، ط3، 1996م، ص: 71.

(5)- أسباب حدوث الحرف، تحقيق: طه عبد الرّزاق سعد، مكتبة الكلّيّات الأزهريّة، القاهرة، د ط، 1398هـ – 1978م، ص:10.

(6)- سرّ صناعة الإعراب، ج 01، ص: 06.

بأنّ الصّوت عند علماء العربيّة هو أثر سمعيّ يصدر عن أعضاء النّطق غير محدّد بمعنى ذاته أو غيره[1].

يعرّف الصّوت أوكوستيكيّا بأنّه سلسلة من التّتابعات السّريعة لتضاغطات وتخلخلات متتالية في الهواء، ومن حيث الأثر السّمعيّ -الفيزيولوجيّ- فهو الإحساس بالسّمع النّاتج من دخول التّتابعات السّريعة للتّضاغطات والتّخلخلات في الهواء إلى الأذن البشريّة[2]، فالصّوت- إذن- هو الأثر السّمعيّ الّذي يصدر طواعيّة عن تلك الأعضاء الّتي يطلق عليها - جهاز الصّوت- وهذا الانطباع السّمعيّ الّذي يصدر عن الأعضاء هو الّذي يجعلنا نميّز صوتا عن آخر؛ في نحو: الباء، والتّاء، والكاف في (كتب)؛ فأعضاء النّطق تمثّل العنصر الأوّل، والأثر السّمعيّ المتعلّق بالصّوت من حيث انتقال موجاته في الهواء يمثّل العنصر الثّاني، أمّا أذن المستمع الّتي تتلقّى تلك الأصوات؛ فإنّها من النّاحية اللّغويّة تشكّل العنصر الثّالث[3]. وأبرز خاصيّة يعتمدها السّامع لتمييز الأصوات المختلفة هي: العلوّ والدّرجة والنّوعيّة.

2 – مفهوم الحرف

أ – التّعريف اللّغويّ للحرف:

هو الحدّ والطّرف، يقول ابن منظور: «الحرف في الأصل: الطّرف والجانب، وبه سمّي الحرف من حروف الهجاء.»[4] ومن هنا سميّت الحروف حروفا، ذلك أنّ الحرف حدّ منقطع الصّوت، وغايته وغايته وطرفه، كحرف الجبل ونحوه. والحرف من كلّ شيء «طرفه، وشفيره، وحدّه، من الجبل: أعلاه المحدّد... وواحد حروف التّهجي... وعند النّحاة: ما جاء لمعنى ليس باسم ولا بفعل... قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ ١١﴾ الحج: ١١؛ أيّ وجه واحد، وهو أن يعبده على السّراء لا الضّرّاء، أو على شكّ.»[5] نلاحظ عدم وجود فرق في المعنى المعجميّ لكلمة حرف؛ فهي لغة تعني: الحدّ، والطّرف، وشفير الشّيء، وأعلى الجبل الحادّ، وهو صيغة مفرد للجمع حروف، وعند

---

(1)- ينظر: المصطلح الصّوتيّ في الدّراسات العربيّة، عبد العزيز الصّيغ، ص: 21.

(2)- ينظر: فيزياء الصّوت والحركة الموجيّة، د. أمجد عبد الرّزاق، دار الكتب للطّباعة، الموصل، د ط، 1984م، ص: 486.

(3)- ينظر: في البحث الصّوتيّ عند العرب، د. خليل إبراهيم عطيّة، دار الجاحظ للنّشر، بغداد، د ط، 1983م، ص: 85.

(4)- لسان العرب، ج 10، مادّة: حرف.

(5)- القاموس المحيط، العلامة اللّغويّ مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزباديّ، تحقيق: مكتب التّراث في مؤسّسة الرّسالة، إشراف: إشراف: محمّد نعيم العرقسوسيّ، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط8، 1426هـ – 2005م، مادّة: حرف.

النّحويين هو كلمة ليست فعلا ولا اسما، وفي الآية يعني اقتصار عبادة بعض النّاس لله تعالى على وجه واحد هو وجه الخير أو السّرور، وإن حدث لهم العكس ولّوا على أدبارهم.

ب – التّعريف الاصطلاحيّ للحرف:

يجوز أن تكون سميّت الرّموز الكتابيّة للصّوت حروفا لأنّها «جهات للكلم ونواح كحروف الشّيء وجهاته المحدثة به.»[1] وهو ما يوضّحه ابن جنيّ بقوله: «فأمّا الحرف؛ فالقول فيه، وفيما كان من لفظه أنّ «ح، ر، ف» أينما وقعت في الكلام يراد بها حدّ الشّيء وحدّته، من ذلك حرف الشّيء؛ إنّما هو حدّه وناحيّته، وطعام حريف يراد حدّته، ورجل محارَف: أيّ محدود عن الكسب والخير.»[2] فالحروف – إذن – تمثّل أجزاء الكلام، ولمّا جاء مفهومها في اللّغة أنّها حدّ الشّيء وحدّته، أطلقت العرب على أجزاء الكلام مصطلح الحرف؛ لأنّها حدّ منقطع الصّوت[3].

كما أنّنا نجد إشارة إلى دلالة مصطلح الحرف على الصّوت، وهذا ما كان سائدا في الدّرس اللّغويّ القديم؛ وعليه فيمكن القول بأنّ الحرف «رمز كتابيّ للصّوت اللّغويّ، ولفظ يدلّ على الصّوت اللّغويّ أيضا، مثل الرّاء بمعنى صوت الرّاء، وحرف الميم بمعنى صوت الميم وهكذا،»[4] فالحرف غير الصّوت إذ إنّ الأوّل يمثّل عائلة صوتيّة واحدة؛ أمّا الثّاني تنوّع من تنوّعاته، ومظهر من مظاهره الّتي تتجلّى عند الاستعمال، وإذا كانت حروف الهجاء العربيّة بين الحروف الصّحيحة وحروف العلّة عددها واحد وثلاثون حرفا؛ فإنّ أصوات العربيّة أكثر من ذلك[5]. والحرف وحدة تجريديّة مرسومة تشمل صوتا أو أكثر، لا يكون صوتا حين لا ينطق؛ بل يكون صورة مرسومة للصّوت، والصّوت هو ما ينتج عن العمليّة الحركيّة ذات الأثر السّمعيّ (منطوق).

المبحث الثّاني: الفرق بين المصطلحات الثّلاثة (الفونيم– الصّوت– الحرف)

قد يرى البعض أنّ هذه المصطلحات ذات مدلول واحد، وما الأمر سوى تعدّد في الأسماء، ولكنّ الحقيقة تؤكّد وجود اختلاف كبير بينهم، فالفونيم هو وحدة صوتيّة يندرج تحتها كمّ هائل من

---

(1)– سرّ صناعة الإعراب، ابن جنيّ، ج 01، ص: 13.

(2)– المرجع نفسه، ص: 13– 14.

(3)– ينظر: التّفكير اللّسانيّ في الحضارة العربيّة، د. عبد السّلام المسديّ، دار العربيّة للكتاب، تونس، ليبيا، ط2، 1986م، ص:255.

(4)– المصطلح الصّوتيّ في الدّراسات العربيّة، عبد العزيز الصّيغ، ص: 218.

(5)– ينظر: علم اللّغة– مقدّمة للقارئ العربيّ– د. محمود السّعران، دار الفكر العربيّ، القاهرة، ط2، 1994م، ص: 63.

الصّور الصّوتيّة، في حين يعدّ الحرف الصّورة الكتابيّة للفونيم أو العلامة له، يقول رمضان عبد التّواب عن الفونيم: «وفي إمكاننا أن نطلق عليه اسم حرف مقصودا به الرّمز الكتابيّ، ونعمل بذلك التّفريق بين المصطلحين (صوت) و (حرف)؛ فالصّوت ذلك الّذي نسمعه ونحسّه، أمّا الحرف فهو ذلك الرّمز الكتابيّ الّذي يتّخذ وسيلة منظورة للتّعبير عن صوت معيّن، أو مجموعة من الأصوات لا يؤدّي تبادلها في الكلمة إلى اختلاف المعنى.»[1] فالحرف عندما يكتب لا يرمز إلى الصّور الصّوتيّة للفونيم، والمسؤول عن إظهار تلك الصّور ما ينطقه المتكلّم وهو الصّوت؛ فالصّوت أعمّ من الحرف، يقول فندريس: «لسنا في حاجة إلى القول بأنّنا لا نستطيع إحصاء الأصوات المستعملة في لغة ما بعدد الحروف الموجودة في أبجديتها، فكلّ لغة فيها من الأصوات أكثر ممّا في كتابتها من العلامات.»[2] إذن فالفرق الأساس بين الصّوت والحرف هو أنّ الأصوات كثيرة، لكنّ حروف كلّ لغة عدد معيّن ومبيّن وواضح[3]؛ والفونيم غير الصّوت.

والأصوات في العربيّة الفصيحة أكثر من الوحدات الصّوتيّة (الفونيمات)؛ أيّ أنّ الحروف التّسعة والعشرين صوتا الّتي ذكرها سيبويه كلّها وحدات صوتيّة، فإنّها أيضا تمثّل فونيمات «يضاف إليها الحركات القصيرة الثّلاثة (الفتحة والضّمّة والكسرة)، والحركتان الطّويلتان (الواو والياء)؛ تشتركان مع صوت اللّين في الرّمز الكتابيّ؛»[4] فيكون بذلك عدد الفونيمات أربعة وثلاثون فونيما، فالفونيم – إذن – «هو أساس في بناء الكلمة؛ ينجم عن تغيير أَحَدِهِ تغييرَ المعنى، ولذلك فإنّ الأصوات السّتة الّتي أضافها سيبويه وهي الأصوات المستحسنة، وكذلك السّبعة غير المستحسنة ليست وحدات صوتيّة أو فونيمات، وقد سمّاها بالفروع وهي تقابل التّسميّة الأوربيّة ألوفونات.»[5] فالفروع الّتي ذكرها السّتة المستحسنة، والسّبعة غير المستحسنة[6]؛ هي أصوات تصدر حسب لهجة كلّ منطقة،

---

[1]- المدخل إلى علم اللّغة ومناهج البحث اللّغويّ، د. رمضان عبد التّواب، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط2، 1985م، ص: 83.

[2]- اللّغة، جوزيف فندريس، ترجمة: عبد الحميد الدّواخليّ، ومحمّد القصّاص، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، د ط، 1950م، ص: 62.

[3]- وعددها في اللّغة العربيّة تسعة وعشرون حرفا وهو العدد الّذي ذكره سيبويه. ينظر: الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحقيق وشرح: عبد السّلام محمّد هارون، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1403هـ – 1983م، ج 04، ص: 432.

[4]- المصطلح الصّوتيّ في الدّراسات العربيّة، عبد العزيز الصّيغ، ص: 226.

[5]-المرجع نفسه، ص: 225.

[6]- يرى سيبويه أنّ الحروف «تكون خمسة وثلاثين حرفا بحروف الفروع، وأصلها من التّسعة والعشرين، وهي كثيرة يؤخذ بها، وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار؛ وهي: النّون الخفيفة، والهمزة بين بين، والألف الّتي تمال إمالة شديدة، والشّين الّتي كالجيم، والصّاد الّتي كالزّاي، وألف التّفخيم...في قولهم: الصّلاة، والزّكاة، والحياة. وتكون اثنين وأربعين بحروف غير مستحسنة، ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيّته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشّعر؛ وهي: الكاف الّتي بين الجيم والكاف، والجيم الّتي كالكاف و(الجيم) الّتي كالشّين، والضّاد الضّعيفة، والصّاد الّتي كالسّين، والطّاء الّتي كالتّاء، والظّاء الّتي كالثّاء، والباء الّتي كالفاء.» – الكتاب، ج 04، ص: 432.

ولا يجوز أن يقرأ بها القرآن الكريم والشّعر العربيّ، وهي فروع قابلها المحدثون بالألفونات، وعندما تحدّث تمّام حسّان عن الفرق بين الحرف والصّوت قال: «والفرق بين الصّوت وبين الحرف هو الفرق ما بين العمل والنّظر، أو بين المثال والباب، أو بين أحد المفردات والقسم الّذي يقع فيه؛ فالصّوت عمليّة نطقيّة تدخل في تجارب الحواس، وعلى الأخصّ السّمع والبصر يؤدّيه الجهاز النّطقيّ حركة، وتسمعه الأذن، وترى العين بعض حركات الجهاز النّطقيّ حين أدائه، أمّا الحرف فهو عنوان مجموعة من الأصوات يجمعها نسب معيّن؛ فهو فكرة عقليّة لا عمليّة عضليّة، وإذا كان الصّوت ممّا يوجده المتكلّم؛ فإنّ الحرف ممّا يوجده الباحث.»[1]

هكذا يتوضّح الفرق بين الفونيم الّذي هو الوحدة الصّوتيّة الّتي تغيّر المعنى داخل التّركيب اللّغويّ، والصّوت الّذي يمثّل الصّورة السّمعيّة أو النّطقيّة الّتي تحدّد ملامح الفونيم في السّياق الصّوتيّ الّذي ترد فيه، والحرف هو العلامة المكتوبة للصّوت ذات عدد محدّد في أيّة لغة من لغات العالم، وقد استطاع المحدثون التّمييز بين الحرف والصّوت من خلال[2]:

- جعل الصّوت الرّمز الكلاميّ للملفوظ.
- جعل الحرف الرّمز الكلاميّ للمكتوب.

أيّ أنّ الصّوت ألصق بالكلام، والحرف ألصق بالكتابة. وهذه التّفرقة بين الصّوت والحرف جعلت بعض الباحثين المحدثين يعتبرون الحرف مساويا للاصطلاح الغربيّ «فونيم»، والصّوت مساويا للمصطلح «ألفون»[3]؛ لكنّ من خلال تتبّع تعريف كلّ مصطلح فإنّه لا يمكن جعل الحرف يساوي الفونيم، والصّوت يساوي الألفون، فكلّ مصطلح له مفهومه الخاصّ؛ فالحرف هو الصّورة الخطيّة للصّوت، والصّوت هو الصّورة النّطقيّة، أو السّمعيّة للملفوظ، والفونيم هو أصغر وحدة صوتيّة تستطيع أن تميّز كلمة عن أخرى بواسطة التّبديل، والألفون هو أحد أفراد العائلة الفونيميّة، والوجود الفعليّ للفونيمات.

المبحث الثّالث: بين الفونيم والألفون

[1]- اللّغة بين المعياريّة والوصفيّة، د. تمّام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 2000م، ص: 129.

[2]- ينظر: أساسيّات الفكر الصّوتيّ عند البلاغيّين – قراءة في وظيفة التّداخل المعرفيّ – د. مشتاق عبّاس معن، حوليّات الآداب والعلوم الاجتماعيّة، العراق، الحوليّة السّابعة والعشرون، 1437هـ – 2006م، ص: 20.

[3]- ينظر: الفونيمات فوق التّركيبيّة، عطيّة سليمان أحمد، ص: 16.

لقد تصوّر جونز العلاقة بين الفونيم والألفون كالعائلة؛ بحيث اعتبر الفونيم كالأب الّذي له عائلة كثيرة الأفراد، كلّهم يحملون صفات وخصائص الأب؛ ولكن مع وجود تمايز بين أفراد هذه العائلة؛ بحيث يتميّز كلّ فرد من أبناء هذا الأب ببعض الخصائص الّتي تميّزه عن أخيه، وبالعودة إلى هذا الأب فلا وجود فعليّا له؛ حيث هو مجموعة من الخصائص الصّوتيّة الّتي لا يمكن النّطق بها (أيّ التّحقيق الفعليّ لهذا الأب كصوت) إلاّ من خلال أحد أبنائه؛ أيّ من خلال سلسلة كلاميّة في إطار كلمة أو عبارة تحقّق الوجود الفعليّ لهذا الصّوت، ويظهر في هذه الحالة أحد الأبناء وليس الأب، ومن هنا تعدّدت صور الأب «الفونيم» من خلال تعدّد الصّور الّتي يُرَى فيها من خلال السّياقات اللاّنهائيّة الّتي ترد فيها، ويُتكلّم بها، وتمثّل كلّ صورة من هذه الصّور أحد أبناء الفونيم وهو ما يسمّى بـ (الألفون).

هذا التّصوّر الّذي جاء به جونز يقول فيه: «إنّ الفونيم عبارة عن عائلة من الأصوات في لغة معيّنة متشابهة الخصائص، مستعملة بطريقة لا تسمح لأحد أعضائها أن يقع في كلمة في نفس السّيّاق الصّوتيّ الّذي يقع فيه الآخر.»[1] هذا لأنّ كلّ عضو يمثّل فردا مستقلاّ في تلك العائلة الّتي فقدت أباها الفونيم، ثمّ يذكر دانيال جونز سبب اعتبار أحد هذه الأعضاء عضوا رئيسيّا، وأنّ الأعضاء الأخرى تابعة أو تنوّعات له، وذلك راجع إلى[2]:

1- كثرة ورود هذا العضو في الاستعمال اللّغويّ بصورة تفوق بقيّة الأعضاء.

2- كونه العضو الّذي يستعمل وحده منعزلا عن السّياق اللّفظيّ.

3- كونه في الموقع المتوسّط بين بقيّة الأعضاء.

هذا التّصوّر يشير إلى الصّوت المنعزل عن السّياق، وهو أقرب ما يكون إلى الصّوت الفعليّ الّذي يرد في السّياق، ويكون بعيدا إلى حدّ كبير عن تأثيراته الّذي سيوضع فيه، ثمّ يوضع هذا الفونيم أو الصّوت في سياق يحدّد خصائصه الجديدة إلى جانب خصائصه الأصليّة؛ يقول ماريوباي في ذلك: «قابليّة الفونيم للتّحليل والتّجزئة إلى وحدات ألفونيّة؛ حيث تشكّل هذه التّنوّعات الصّوتيّة المتشابهة وحدة الفونيم، وعليها يتوقّف استعمال كلّ منها أساسا على موقعه في الكلمة وعلى الأصوات المجاورة.»[3]

---

(1)- The Phoneme; its nature and use; Daniel Jones; Cambridges Heffer; First published; 1950, P: 10.

(2)- ينظر: المرجع نفسه، ص: 212.

(3)- أسس علم اللّغة، ماريوباي، ص: 88.

وما ذكره ماريوباي من أنّ الفونيم قابل للتّحليل بناءً على موقعه في الكلمة والأصوات المجاورة له؛ ذكره ابن جنيّ من غير أن يستخدم مصطلح الفونيم أو الألفون، ولكن يتجلّى مفهومه في إطار الحديث عن تنوّعات الحركات بناء على الأصوات الّتي تجاورها «باب في كميّة الحركات.» يقول ابن جنيّ: «أمّا ما في أيدي النّاس في ظاهر الأمر فثلاث، وهي: الضّمّة والكسرة والفتحة، ومحصولها على الحقيقة ستّ، وذلك أنّ بين كلّ حركتين حركة، فالّتي بين الفتحة والكسرة هي الفتحة قبل الألف الممالة؛ نحو: فتحة عالم، وكاف كاتب، فهذه حركة بين الفتحة والكسرة، كما أنّ الألف الّتي بعدها بين الألف والياء، والّتي بين الفتحة والضّمّة هي الّتي قبل ألف التّفخيم؛ نحو فتحة لام الصّلاة، والزّكاة، والحياة، وكذلك ألف قام وعاد، والّتي بين الكسرة والضّمّة؛ ككسرة قاف قيل، وسين سير؛ فهذه الكسرة المشمّة ضمّا، ومثلها الضّمّة المشمّة كسرا، وضمّة عين مذعور، وباء ابن بور، فهذه الضّمّة أُشربت كسرا، كما أنّها في قيل وسير كسرة أشربت ضمّا؛ فهما لذلك كالصّوت الواحد؛ لكنّ ليس في كلامهم ضمّة مشربة فتحة، ولا كسرة مشربة فتحة، فاعرف ذلك، ويدلّ على أنّ الحركات معتدّات اعتداد سيبويه بألف الإمالة، وألف التّفخيم حرفين غير الألف المفتوح ما قبلها.»(1) وهذا الكلام يُفْهم منه أنّ ابن جنيّ يرى أنّ الحركات تتغيّر بتغيّر الوسط أو البيئة الصّوتيّة الّتي ترد فيها.

إنّه بالنّظر إلى الأصوات في أيّة لغة من لغات العالم، يحكم عليها بأنّها لا حدود لها في الواقع، فقد يتردّد الصّوت الواحد أكثر من مرّة في كلمة من الكلمات؛ لكن في كلّ مرّة ينطق بصورة خاصّة لا تشبه بقيّة الصّور النّطقيّة، «فالفتحة الأولى في قولنا – بَطَرَ – مثلا غير الفتحة الثّانية من النّاحيّة الصّوتيّة، وغير الفتحة الثّالثة، وثمّة اختلافات فرديّة بين متكلّمي لغة بعينها، مردّها إلى اختلافات عضويّة أو عادات فرديّة .... لكن نتغاضى عن هذه التّنوّعات الفرديّة ... فنسوّي بين الفتحات الثّلاثة الواقعة في كلمة – بَطَرَ – ونرى فيها شيئا واحدا، إنّ هذه الفتحات هي مختلفة من حيث تكوينها؛ متطابقة من حيث الوظيفة اللّغويّة الّتي تؤدّيها.»(2) هذه التّنوّعات هي أفراد العائلة – الّتي أشار إليها جونز– لوحدة صوتيّة واحدة أيّ لنفس الفونيم وهو الأب، أيّ اعتبار الفتحات الثّلاثة ألفونات مختلفة ومتنوّعة صوتيّا؛ لا تأثير لها في تغيير معنى الكلمة حتّى ولو تمّ إبدال واحدة مكان أخرى، وهي لفونيم واحد، وهو الصّوت الصّائت المتمثّل في حركة الفتحة، هذا الفونيم المتمثّل في الفتحة، لو أبدل بفونيم آخر مثل الضّمّة في كلمة متكوّنة من أصوات لغويّة متشابهة أحدثت تغييرا

---

(1)- الخصائص، أبو الفتح عثمان، تحقيق: محمّد عليّ النّجار، المكتبة العلميّة، مصر، د ط، د ت، ج 03، ص: 120-121.
(2)- مقدّمة للقارئ العربيّ، محمود السّعران، ص: 196.

في المعنى؛ مثل: كَرَمٌ – كَرُمَ؛ فتغيير فونيم الفتحة في صوت الرّاء جعل المعنى يتغيّر، فالأولى اسم، والثّانية فعل، والكسرة في العربيّة أيضا فونيم، فنقول: سَفر بمعنى جماعة المسافرين، وسِفر بمعنى الكتاب[1]. وهكذا يتوضّح لنا التّصوّر الّذي وضعه جونز لمعرفة الفرق بين المصطلحين «فونيم» و«ألفون».

المبحث الرّابع: وظيفة الفونيم

يدرس الفونيم في إطار علم الفونولوجيا Phonology أيّ علم وظائف الأصوات، الّذي «يبحث في الأصوات من حيث وظائفها في اللّغة، ومن حيث إخضاع المادّة الصّوتيّة للتّقعيد.»[2] فنتج عنه بذلك ما سمّي بـ علم الفونولوجيا القطعيّة Segmental Phonology ويقوم هذا النّوع من العلم على تحليل الكلام إلى قطع متميّزة، ومن أمثلة ذلك في اللّغة العربيّة الصّوامت (الأصوات السّاكنة)، والحركات (بنوعيها الطّويلة والقصيرة).

لقد سبقت الإشارة إلى أنّ الفونيم هو أصغر وحدة صوتيّة عن طريقها يمكن التّفريق بين المعاني[3]، مثال ذلك صوت (ق – ك) في العربيّة فونيمان؛ لأنّهما يفرّقان بين المعاني نحو: «قال» و «كال»، وعلى هذا الأساس وضع تروتبسكوي بعض القواعد الّتي عليها يقوم الفونيم بوظائف تمييزيّة؛ والّتي يمكن أن يؤدّيها للتّفريق بين كلمة وأخرى، وعنده أنّ الّذي يتحقّق في الكلام ليس الفونيم؛ بل تنوّعاته الصّوتيّة[4]. ومن هذه القواعد المبيّنة لوظيفة الفونيم هي ما يلي:

1- إذا كان الصّوتان من اللّغة نفسها، ويظهران في الإطار الصّوتيّ نفسه، وإذا حلّ أحدهما محلّ الآخر دون أن ينتج اختلافا في المعنى، فهذان الصّوتان صورتان لفونيم واحد ك «الجيم» الّتي لها صور صوتيّة متعدّدة؛ يمكن لإحداهما أن تحلّ محلّ الأخرى دون تغيير في المعنى كنطق الجيم في (جميل) معطّشة قريبة من الشّين عند الشّاميّين، ونطقها في الكلمة نفسها خالية من التّعطيش وقريبة من (g) عند القاهريّين، ونطقها قريبة إلى الوصف الصّوتيّ عند علماء التّجويد في قراءة القرآن الكريم فيما يدعى بالجيم الفصيحة[5].

---

(1)- ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(2)- علم اللّغة العامّ، كمال محمّد بشر، ج 02، ص: 67.

(3)- ينظر: علم الأصوات، د. حسام البهنساويّ، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، القاهرة، ط1، 1425هـ – 2004م، ص: 123.

(4)- ينظر: المرجع نفسه، ص: 101.

(5)- ينظر: المرجع نفسه، ص: 102.

2- إذا كان الصّوتان في الموقع الصّوتيّ نفسه، ولا يمكن لأحدهما أن يحلّ محلّ الآخر دون تعديل معنى الكلمة، أو دون أن تصبح الكلمة غامضة أو غير معروفة، مثل كلمة «باع» حين نبدّل العين بالظّاء؛ فتصبح كلمة غير معروفة[1]، مثال ذلك في العربيّة الأصوات الأولى من الكلمات التّالية: «نام – دام – قام.» فهذه الأصوات الأولى يشير استبدال أحدها بالآخر إلى تغيير في المعنى.

3- إذا كان الصّوتان في اللّغة نفسها متقاربين من النّاحيّة السّمعيّة أو النّطقيّة، ولا يظهران مطلقا في الإطار الصّوتيّ نفسه؛ فإنّهما يعدّان صورتين لفونيم واحد[2]، مثال ذلك فونيم «النّون» في العربيّة إذ تعدّدت صوره في الوقت الّذي لا يمكن أن تقع صورة منه موقع الأخرى.

المبحث الخامس: فائدة الفونيم

1- يعالج العناصر الأساسيّة للتّفاهم أو إحداث تعديل في المعنى المعجميّ[3]، فهو يفسّر بعض مسائل المعجم النّاتجة عن وجود كلمات أو مداخل، أو مترادفة بسبب الاستبدال أو الإبدال.

2- إبدال صوت بصوت ربّما أنتج وحدة معجميّة جديدة أو صيغة مغايرة مثلا: «ثاب – تاب» «الثّاء» فونيم غير فونيم «التّاء»؛ وإذا وضعنا «الثّاء» بدلا من «التّاء» في كلمة «تاب» تغيّرت الكلمة[4]، وتَغَيَّرَ معناها وأصبحت «ثاب»، وإذا استبدلنا ذلك بـ «الخاء» أصبحت «خاب»[5]؛ فحلول أحد الصّوتين محلّ الآخر دليل على أنّهما ينتميان لفونيمين مختلفين.

3- الفونيمات هي العناصر الّتي حين توضع جنبا إلى جنب تشكّل وحدات دلاليّة أكبر هي الكلمة.

---

(1)- ينظر: دراسة الصّوت اللّغويّ، أحمد عمر مختار، ص: 183.

(2)- ينظر: مبادئ اللّسانيّات، أحمد محمّد قدور، ص: 102.

(3)- ينظر: دراسة الصّوت اللّغويّ، أحمد عمر مختار، ص: 235.

(4)- الإبدال أو الاستبدال أو التّبديل أيّ وضع صوت مكان آخر في الرّتبة نفسها من الكلمة نفسها، وملاحظة ما يحدث من تغيّر دلاليّ؛ فإذا تغيّر معنى الكلمة، نقول عنه إنّه ألوفون، وهذا ما أكّده أندري مارتنيه بقوله: «لاستخراج فونيمات لغة معيّنة نعتمد العمليّة المسمّاة التّبديل الّتي تقوم على استبدال جزء صوتيّ في كلمة معيّنة؛ أخذت من اللّغة نفسها بطريقة نحصل من خلالها على كلمة أخرى في تلك اللّغة.»

La description phonologique – avec application au parler Franco-provençal d'Haute ville-Genève ; André Martinet ; Libraire ; Droz ; Paris ; 5éme ; M.J ; Minard ; P : 40.

(5)- ينظر: مناهج البحث في اللّغة، تمّام حسّان، ص: 145.

4- الفونيم مفهوم ذو طبيعة صوتيّة، وتقعيد للتّركيب الصّوتيّ للّغة ممّا يعدّ أهمّ العوامل لاكتساب المتعلّم للّغة نطقا جيّدا[1].

5- يفسّر الكثير من الظّواهر الصّرفيّة ذات المنشأ الصّوتيّ كمسائل الإعلال والوقف والإمالة[2].

6- وظيفة الفونيم التّمييز بين الكلمات، وإعطاؤها قيّما لغويّة مختلفة صرفيّة أو نحويّة أو دلاليّة[3]، نحو: لكَ، لكِ : تمييز صرفيّ نحويّ + تمييز دلاليّ.

إذن فالفونيم —كما ورد في تعريفه سابقا – يمثّل الوحدة الصّوتيّة «الّتي تَكُونُ جزءا من أبسط صيغة لغويّة، أو العنصر الّذي يكون جزءا أساسيّا من الكلمة المفردة.»[4] وتُظْهِرُ اللّغات تنظيما واختيارا للاختلافات الصّوتيّة المتيسّرة؛ حتّى يمكن اختصارها في عدد محدود من الوحدات التّمييزيّة المتكرّرة، وقد وُجِدَ أنّ عدد الوحدات التّمييزيّة «الفونيم» في أيّة لغة عدد صغير إذا ما قورن بالعدد الممكن إنتاجه من النّاحيّة الرّياضيّة، وأنّ فونيمات كلّ اللّغات يمكن تقسيمها على فونيمات أساسيّة، «وهذه تظهر في معظم اللّغات فونيمات خاصّة، وتظهر في عدد معيّن منها.»[5] أيّ أنّ لكلّ لغة نظاما صوتيّا خاصّا بها، ويختلف هذا النّظام من لغة إلى أخرى فاللّغة العربيّة الفصيحة مثلا؛ تخلو من بعض أنواع العلل الموجودة في اللّغة الانكليزيّة، وتتفاوت اللّغات في عدد الفونيمات الّتي تحويها وخير دليل على تفاوت الأنظمة الفونيميّة؛ ما نجده بين اللّغات من تفاوت في أنظمة العلل «بعضها تحوي ثلاث علل كاللّغة العربيّة، وبعضها خمس علل كالانكليزيّة، وفقر الفونيمات لا يعني فقر الأصوات؛ بل العكس هو الصّحيح، فقد ظهر أنّه كلّما قلّت فونيمات لغة كثرت تنوّعاتها الصّوتيّة؛ حتّى تستطيع أن تعوّض نقصها في عدد الوحدات.»[6] إذن كلّ لغة يتمّ تقسيم أصواتها إلى وحدات معيّنة معيّنة ومحدودة؛ رغم أنّ هذه الأصوات في كلّ لغة من لغات العالم لا حدّ لها في واقع الأمر.

---

[1]- ينظر: دراسة الصّوت اللّغويّ، أحمد عمر مختار، ص: 235.

[2]- ينظر: مبادئ اللّسانيّات، أحمد محمّد قدور، ص: 109.

[3]- ينظر: علم اللّغة العامّ، كمال محمّد بشر، ج 01، ص: 158.

[4]- علم الأصوات، حسام البهنساويّ، ص: 135.

[5]- دراسة الصّوت اللّغويّ، أحمد عمر مختار، ص: 228، وعلم الأصوات، حسام البهنساويّ، ص:135.

[6]- دراسة الصّوت اللّغويّ، أحمد عمر مختار، ص: 229.

المبحث السّادس: أنواع الفونيم[1]

يقسّم العلماء الفونيم إلى قسمين؛ هما:

1- الفونيم القطعيّ:

هو عبارة عن الوحدات الصّوتيّة الّتي تكون جزءا من أبسط صيغة لغويّة ذات معنى منعزلة عن السّياق، أو هو – أيضا – ذلك العنصر الّذي يكون جزءا أساسيّا في الكلمة المنفردة كـ «الباء، والتّاء، والألف، والواو.» وهي تكوّن ما يسمّى بجزئيّات الكلام، ولهذا توصف بأنّها فونيمات جزئيّة أو تركيبيّة على اعتبار أنّ الكلام هو سلسلة كلاميّة، أو مجرى مستمرّ خلال زمن معيّن[2]، وبناءً على على هذا يمكن أن يجزّأ.

2- الفونيم فوق القطعيّ:

يعدّ هذا الفونيم ملمحا صوتيّا تتأثّر به وحدات صوتيّة قد تشتمل على أكثر من صامت أو حركة في المنطوق الكلاميّ. ويمثّل القسم الآخر للفونولوجيا، ويدرس في إطار ما يسمّى بـ«علم الفونولوجيا فوق القطعيّة» Suprasegmental Phonology، وهي ظواهر صوتيّة تنبئ عن خواصّ الكلام وتحدّد نوعيّاته، وكيفيّات أدائه، لأنّ «السّلسلة الكلاميّة لأيّة لغة من اللّغات ليست مجرّد فونيمات صوامت وصوائت فقط؛ بل هي مجموعة الأصوات المتناسقة والمنتظمة في تراكيب لغويّة، يحمل كلّ تركيب منها خصائص تعكس الصّورة الذّهنيّة، ويضاف إليها ملامح صوتيّة تلتحم بغيرها، وتعمل على تمييز هذه التّراكيب بعضها عن بعض.»[3]

وإذا أردنا أن نعقد مقارنة بين الفونيمات القطعيّة والفونيمات فوق القطعيّة يمكننا القول: «إنّ الفونيمات الرّئيسيّة عناصر تركيبيّة أيّ عناصر أساسيّة في تركيب الكلمة، ومواقعها محدّدة، يمكن قطعها أو فصل بعضها عن بعض.»[4] في حين تكون الفونيمات الثّانويّة أو الظّواهر فوق المقطعيّة «ليس لها نصيب في تركيب الكلمة أو بنيّتها، إنّها فوق التّركيب أيّ تكسوه كلّه فلا يمكن قطع أو

---

[1]- حاول بعض اللّسانيّين تعريب مصطلح الفونيم؛ فأوجدوا له صيغا منها: الصّوت اللّغويّ – الصّوتم – الصّويتم – المصوّت – الوحدة الصّوتيّة؛ غير أنّ الكثير أبقى على هذا المصطلح على حالة اللّفظ الأجنبيّ «فونيم»؛ فكان الأكثر استعمالا وشيوعا في الدّرس الصّوتيّ. ينظر تفصيل ذلك في معجم: المصطلح الصّوتيّ في الدّراسات العربيّة، عبد العزيز الصّيغ، ص:227.

[2]- ينظر: علم الأصوات، كمال محمّد بشر، ص: 497.

[3]- دور الفونيمات الثّانويّة في أسلوب النّداء، د. جمال دليع العربيّ، مجلّة الجامعة الإسلاميّة للبحوث الإنسانيّة، المجلّد: 22، العدد:01، يناير 2014م، ص: 42.

[4]- علم الأصوات، كمال محمّد بشر، ص: 497.

تمزيق امتدادها.»[1] ويرى محمّد جواد النّوريّ وآخرون أنّ الظّواهر فوق مقطعيّة أكثر بقاءً من العناصر المقطعيّة الّتي قد تتعرّض للزّوال بحكم التّطوّر اللّغويّ التّاريخيّ، أو حتّى عند إصابة بعض الأشخاص بحالات من أمراض الكلام، وأخيرا فإنّ للفونيمات القطعيّة صلة بالتّعبير عن المعنى القواعديّ؛ أكثر من صلتها بالمعنى المعجميّ[2]. يجب الإشارة إلى كثرة المصطلحات الخاصّة بهذين المصطلحين، والّتي وردت في كتب اللّسانيّات، ويمكن التّعرّف عليها من خلال الجدول التّالي:

الفونيم القطعيّ	الفونيم فوق قطعيّ
الفونيمات الأوّليّة أو الرّئيسيّة أو الأساسيّة.	الفونيمات الثّانويّة أو الإضافيّة[3].
الفونيمات التّركيبيّة.	الفونيمات فوق التّركيبيّة[4].
الفونيمات القِطعيّة.	الفونيمات فوق القِطعيّة تنحت بالفوقِطعيّة[5].
الظّواهر الصّوتيّة التّركيبيّة.	الظّواهر الصّوتيّة فوق تركيبيّة[6].
الظّواهر المقطعيّة.	الظّواهر فوق المقطعيّة أو فوقطعيّة[7].

ويقترح البعض تسميّة الفونيمات فوق المقطعيّة البروسوديمات أو الفونيمات البروسوديّة Prosodies أيّ: التّطريز الصّوتيّ [8]، والفونيمات التّطريزيّة، وهناك من يقترح ترجمتها إلى الفونيمات التّحبيريّة نسبة إلى تحبير الكلام وتحسينه[9].

المبحث السّابع: السّمات الفونولوجيّة للأصوات العربيّة

(1)- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(2)- ينظر: علم الأصوات العربيّة، منشورات جامعة القدس المفتوحة، عمّان، ط1، 1996م، ص:164.

(3)- ينظر:أسس علم اللّغة، ماريوباي، ص: 92.

(4)- ينظر: الدّراسات الصّوتيّة عند العلماء العرب، حسام البهنساويّ، ص: 166.

(5)- ينظر: الأصوات اللّغويّة، د. محمّد عليّ الخوليّ، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط9، 1986م، ص: 63.

(6)- ينظر: الظّواهر الصّوتيّة فوق التّركيبيّة في العربيّة، وليد حسن، دراسات العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، عمادة البحث العلميّ، الجامعة الأردنيّة، المجلّد: 36، العدد: 03، 2009م، ص: 655.

(7)- ينظر: قضايا أساسيّة في ظاهرة التّنغيم في اللّغة العربيّة، د. محمّد صالح الضّالع، المجلّة العربيّة للعلوم للإنسانيّة، العدد: 67، ص: 10.

(8)- ينظر: دراسات في علم اللّغة، د. كمال محمّد بشر، النّاشر: دار المعارف، القاهرة، مصر، ط9، 1986م، ص: 24.

(9)- ينظر: الدّلالة الصّوتيّة في اللّغة العربيّة، د. صالح سليم عبد القادر الفاخريّ، النّاشر المكتب العربيّ الحديث، الاسكندريّة، د ط، د ت، ص: 191.

بما أنّ دراسة الأصوات تعدّ المستوى الأوّل من مستويات البحث اللّسانيّ؛ فإنّ الأبحاث اللّسانيّة المعاصرة تولي في مجال الدّراسات الصّوتيّة العربيّة اهتماما كبيرا بكيفيّة الأداء الصّوتيّ، وذلك لما أصاب النّطق العربيّ اليوم من عيوب، و«يمثّل الأداء الصّوتيّ جانبا مهمّا من جوانب اللّغة، وأساسا خطيرا من أسس الكلام؛ فهو فنّ النّطق بالكلام على صورة توضّح ألفاظه، وتكشف القناع عن معانيه، وهو فنّ التّأثير في المستمع لينجذب إلى المؤدّى بكلّ حواسه السّمعيّة والبصريّة والشّعوريّة، ولاشكّ أنّ الأداء السّليم يحفظ للّغة رونقها في الأسماع، ووقعها السّاحر في الطّباع، ويفتح لها القلوب فتعي ما تسمع ثمّ تتأمّله في أناة وارتياح.»[1] فالأداء السّليم للصّوت – إذن - هو إبراز للمعاني والتّدبّر فيها، وهو من جانب آخر حفاظ على جمال اللّغة؛ الجمال الّذي يريح النّفس عند تلقّيها أو سماعها.

يأخذ الصّوت أبعادا دلاليّة وجماليّة تؤثّر في نفسيّة المتلقّي، وتحمّسه على تقبّل الخطاب، خاصّة إذا تعلّق الخطاب بالخطاب القرآنيّ؛ فيتحقّق بذلك قول النّبيّ محمّد - صلّى الله عليه وسلّم-: «**ما أذن الله لشيء ما أذن لنبيّ حسن الصّوت يتغنّى بالقرآن يجهر به.**»[2] وبهذا يأخذ الصّوت وظيفة جماليّة تدخل في سياقات التّلقّي، وجماليّات النّطق والتّأثير اللّسانيّ السّماعيّ. يقول سلمان بن إبراهيم العايد عن الصّوت الإنسانيّ بجمال نطقه، وحسن أدائه: «أجمل مقطوعة موسيقيّة في الكون يصنعها الإنسان، وأعلاها قيمة: هي الصّوت الإنسانيّ، لما هو مهيّأ له من إمكان حمل المعنى والفكر من خلال القيمة الجماليّة، والأذن قد تملّ الموسيقى الميّتة، وتصبح بحاجة مستمرّة إلى التّجديد؛ بخلاف الصّوت الإنسانيّ الّذي فيه من التّجدد والحيويّة ما ليس في غيره من أعمال البشر وآلاتهم؛»[3] لأنّ الكلام في أيّة لغة من اللّغات لا يعتبر «مجرّد تكتّلات صوتيّة؛ بل هو مجموعة من الأصوات المتناسقة، والمنتظمة في تراكيب لغويّة، يحمل كلّ تركيب منها خصائص ودلالات مرتبطة في سيّاقات لغويّة وسيّاقات الحال، وفق تنوّعات صوتيّة منتظمة.»[4] وأنّ اللّغة ليست أصواتا مجرّدة، ولا

---

[1]- الأداء الصّوتيّ في اللّغة، رشاد محمّد مسلم، ص: 209.

[2]- مختصر صحيح مسلم، زكيّ الدّين عبد العظيم المنذريّ، تحقيق: محمّد ناصر الدّين الألبانيّ، دار ابن عنّان، السّعوديّة، ط1، 1411هـ، ص: 556.

[3]- القراءة الجهريّة بين الواقع وما نتطلّع إليه، ندوة: ظاهرة الضّعف اللّغويّ في المرحلة الجامعيّة، الرّياض، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، المجلّد: 03، 1418هـ، ص: 125 - 173.

[4]- علم اللّسانيّات الحديثة، د. عبد القادر عبد الجليل، درا صفاء للنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 1422هـ-2002م، ص:346.

ولا هي مقاطع، أو كلمات تنطق في فراغ؛ بل هي إشارات ورموز لمعان وأفكار، من ثمّ عني علم الدّلالة بهذا الرّمز.

المبحث الثّامن: الدّلالة الصّوتيّة

يعرّفها بعض المحدثين بأنّها «هي الّتي تستمدّ من طبيعة بعض الأصوات.»(1) وهذا يعني أنّ بعض الأصوات يؤدّي دورا في الكلمة، وبعضها الآخر لا يؤدّي أيّ دور(2). كما يقصد بالدّلالة الصّوتيّة هو ذلك الإيحاء الصّوتيّ النّابع من ذات الكلمة أو تركيبها أو المصاحب للجملة في أدائها الدّال على جانب من المعنى أو المؤثّر فيه؛ كدلالة بعض الألفاظ الحاكية للأصوات الطّبيعيّة؛ مثل: ريح صرصر(3)، ومثل: دمدم الّذي يعني العذاب التّام(4)، وهذه الدّلالة مأخوذة من تكرار مقطع صوتيّ محاكٍ لصوت الفعل ليحدث الشّدّة والقوّة والمبالغة والاستمرار، وكالدّلالة الصّوتيّة المطردة الّتي تعتمد تغيّر مواقع الفونيمات، والّتي تعتبر مقابلات استبداليّة بين الألفاظ بحيث إنّ كلّ تغيير في أيّ مقابل استبداليّ(5)؛ ينتج عنه تغيّر في المعنى.

ونجد أنّ القيم الخلافيّة هي من أهمّ مقوّمات التّنظيم الصّوتيّ،(6) ومثال تلك الدّلالة نجدها في مثل الكلمات: «طاب – ناب - شاب – ذاب – ثاب،» ويوضّح أحد الباحثين مفهوم الدّلالة الصّوتيّة بقوله: «تعتمد على تغيير الفونيمات، أيّ استخدام المقابلات الاستبداليّة بين الألفاظ؛ حتّى يحدث تعديل أو تغيير في معاني الألفاظ؛ لأنّ كلّ فونيم مقابل استبداليّ لآخر؛ فتغيّره أو استبداله بغيره لا بدّ أن يعقبه اختلاف في المعنى.»(7) فالدّلالة الصّوتيّة – إذن- هي ما تؤدّيه الأصوات المكوّنة

---

(1)- اللّغة، فندريس، ص: 165 وما بعدها.

(2)- إذا قمنا بتغيير صوت الضّاد في -رفض- بصوت الهاء؛ تصبح-رفه- وهذا التّغيير يعقبه بالضّرورة تغيّر في المعنى، وهذا ما يسمّيه فيرث بالوظيفة الصّغرى أو القاصرة مقابل الوظائف الأخرى النّحويّة والصّرفيّة والمعجميّة.

(3)- اشتقاق الصّرصر من الصّرير، ضوعف اللّفظ إشعارا بمضاعفة المعنى، وريح صرصر: شديد الصّوت. - مجمع البيّان في تفسير القرآن، أمين الإسلام أبو عليّ الفضل بن الحسن الطبرسيّ، دار المرتضى، طباعة، نشر، توزيع، بيروت، ط1، 1427هـ – 2006م، ج 09، ص: 11.

(4)- ينظر: المرجع نفسه، ج 10، ص: 285.

(5)- المقابل الاستبداليّ: هو الحرف الّذي يحلّ محلّ الآخر وبحلوله يتغيّر معنى الكلمة، ينظر: اللّغة العربيّة معناها ومبناها، د. تمّام حسّان، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، المغرب، طبعة: 1994م، ص: 75.

(6)- ينظر: المرجع نفسه، ص: 78.

(7)- الدّلالة اللّغويّة عند العرب، عبد الكريم مجاهد، دار الضّياء، عمّان، الأردن، د ط، د ت، ص: 166.

المكوّنة للكلمة من دور في إظهار المعنى، وذلك في نطاق تأليف مجموع أصوات الكلمة المفردة، سواء أكانت هذه الأصوات صوامت أو حركات. ويسمّي ابن جنيّ هذه الدّلالة بالدّلالة اللّفظيّة، وهي عنده من أقوى الدّلالات[1]، في حين يراها بعض علماء اللسانيّات بأنّها دلالة قاصرة[2].

وقد تكون هذه الدّلالة المطردة بواسطة حرف من حروف الكلمة كما مثّلنا سابقا، وكمثل: «الرّجز» و«الرّجس»؛ فالرّجز هو «العذاب في لغة أهل الحجاز وهو غير الرّجس، لأنّ الرّجس: النّتن، وقال -صلّى الله عليه وسلّم- في الطّاعون: إنّه رجز عذّب الله به بعض الأمم قبلكم.»[3] وقد وقد تكون بواسطة تغيّر الحركات في بنيّة الكلمة؛ مثل: «البِر والبَر والبُر»، ومثل: «الجُنة والجِنّة»[4]، ومثل: «مُرسِل ومُرسَل.»

بما أنّنا بصدد الحديث عن الدّلالة الصّوتيّة؛ فحريّ بنا أن نقف عند الدّلالة الصّوتيّة في القرآن الكريم؛ الّذي أُنْزِل ليكون هداية للبشريّة جمعاء، ينهل منه القاصي والدّاني، وهو معجز من جهة ألفاظه وأساليبه، ويتجلّى هذا الإعجاز في عذوبة لفظه، وجمال أساليبه، ودقّة دلالته، وتجاذب ألفاظه؛ فألفاظه ليس بينها تنافر؛ بل هي مترابطة تشدّ بعضها بعضا. ويتجلّى إعجازه أيضا في حروفه بما لها من صفات وإيحاءات، وتناسق كلماته من خلال وصفها وترتيبها أيضا، وتتابع المعاني الّتي لها وقعها على النّفس عندما نسمعها، كلّ ذلك يمثّل أسرار الإعجاز في القرآن الكريم.

ولا يقتصر الإعجاز القرآنيّ على لفظه ومعناه فحسب؛ بل إنّ الإعجاز يمتدّ ليشمل كلّ صوت فيه حركة أو صامتا، إذ إنّ الأداء الصّوتيّ للنّصّ القرآنيّ يزيد المعنى جمالا، ويكسب اللّفظ نغما يأسر القلوب، ويأخذ الألباب، فيؤثّر في النّفس وتزداد معه رقّة نظرا لأثر الوقع عليها، ولقد اتّسم القرآن الكريم بنظام صوتيّ معجز، اتّسقت فيه حركاته وسكناته، مدّاته وغنّاته، واتّصالاته وسكتاته اتّساقا رائعا يسترعي الأسماع، ويستهوي النّفوس والألباب، ويستولي على الأحاسيس والمشاعر بطريقة عجيبة تفوق كلّ كلام منثور ومنظوم، «على أنّ النّسق القرآنيّ قد جمع بين مزايا الشّعر والنّثر جميعا، فقد أعفى التّعبير من قيود القافيّة الموحّدة، والتّفعيلات التّامّة، فنال بذلك حرّية التّعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامّة، وأخذ في الوقت ذاته من خصائص الشّعر؛ الموسيقى الدّاخليّة والفواصل المتقاربة

---

[1]- ينظر: الخصائص، ابن جنيّ، ج 03، ص: 100.

[2]- ينظر: الدّلالة اللّغويّة عند العرب، عبد الكريم مجاهد، ص: 235.

[3]- مجمع البيّان، الطّبرسيّ، ج 04، ص: 253.

[4]- البِرّ بالكسر: هو الإحسان، والبَرّ بالفتح: هو خلاف البحر، والبُر بالضّمّ: هو القمح، والجُنّة بالضّمّ: هي السّتر، والجَنّة بالفتح: هي البستان الّذي يجنّه الشّجر، والجِنّة بالكسر: هو الجنون الّذي يستر العقل.- المرجع نفسه، ج01، ص: 131.

في الوزن الّتي تُغنى عن التّفاعيل، والتّقفيّة الّتي تُغنى عن القوافي، وضمّ ذلك إلى الخصائص الّتي ذكرنا؛ فنشأ النّثر والنّظم جميعا،»(1) وقيل: «إنّ في القرآن إيقاعا موسيقيّا متعدّد الأنواع ويتناسق مع الجوّ، ويؤدّي وظيفة أساسيّة في البيان.»(2)

ولم يُفْتَنُ القومُ الّذين نزل في أرضهم القرآن الكريم — وهم أصحاب بلاغة وبيان- بالجانب الصّوتيّ للقرآن فقط؛ بل فتنتهم دلالات آياته الّتي تنفذ في الأعماق؛ فتغيّر كوامن النّفس، وتزلزل دواخلها، وقد اصطلح سيّد قطب على ما كان يصيب القوم عندما يسمعون تلاوة القرآن الكريم بـ«سحر القرآن.»(3) سواء آمنوا أم لم يؤمنوا، فلقد سحر القرآن العرب منذ اللّحظة الأولى، «منهم من شرح الله صدره للإسلام، ومنهم من جعل على صدره غشاوة، لقد كان القرآن العامل الحاسم - على الأغلب - في إيمان من آمنوا أوائل أيّام الدّعوة؛ يوم لم يكن لرسول الله - صلّى الله عليه وسلّم- حول ولا طول، ويوم لم يكن للإسلام قوّة ولا منعة.»(4) ويكفي هنا أن نشير إلى قصّتين مشهورتين في التّاريخ الإسلاميّ عن شخصيّتين أبهرهما سماع القرآن الكريم؛ فلم يمنعهما من الاعتراف لما له من سحر يأخذ الألباب.

لقد آمن عمر بن الخطّاب بعد قراءة صدر سورة طه، وقال: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!»(5) أمّا الوليد بن المغيرة عندما سمع شيئا من القرآن الكريم رقّ قلبه، ولكنّ إثارة القوم لكبريائه، واعتزازه بنسبه وماله؛ دفعه إلى التّواني عن الإيمان، لكن اعترف بسحر القرآن(6)؛ فقال: «فماذا أقول فيه، فوالله ما منكم من رجل أعلم منّي بالشّعر، ولا برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبه الّذي يقوله شيئا من هذا، والله إنّ لقوله لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه ليحطّم ما تحته، وإنّه ليعلو وما يعلى.»(7) إنّه القرآن الكريم بما يحمل من أصوات وأنغام ودلالات وإيقاع؛

---

(1)- التّصوير الفنيّ في القرآن، سيّد قطب، دار الشّروق، القاهرة، ط16، 1433هـ – 2002م، ص: 102 - 103.

(2)- المرجع نفسه، ص: 101 - 102.

(3)- المرجع نفسه، ص: 11.

(4)- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(5)- الجامع لأحكام القرآن، والمبيّن لما تضمّنه من السّنّة وآي الفرقان، أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن أبي بكر القرطبيّ، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التّركيّ، مشاركة: محمّد رضوان عرقسوسيّ، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ – 2006م، ج 14، ص: 06.

(6)- ينظر: التّصوير الفنيّ في القرآن، سيّد قطب، ص: 14.

(7)- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرّمانيّ والخطابيّ وعبد القاهر الجرجانيّ، في الدّراسات القرآنيّة والنّقد الأدبيّ، حقّقها وعلّق عليها: محمّد خلف الله أحمد، ود. محمّد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، د ت، ص: 125.

يؤدّي إلى التقاء «قصّة الكفر بقصّة الإيمان في الإقرار بسحره، وتلتقي- على الإقرار- شخصيّتان قويّتان، بينهما من المدى في الاختلاف ما بين عمر بن الخطاب والوليد بن المغيرة؛ فتشرح التّقوى صدر عمر للإسلام، وتصدّ الكبرياء الوليد عن الإذعان، ويذهبان في طريقهما متدابرين، بعد أن يلتقيا في نقطة واحدة: نقطة الإقرار بسحر القرآن.»[1] إنّه تأثير القرآن في النّفوس، وجاذبيّة تفتح القلوب المقفلة الّتي صدأها الكفر، وهيبة تحيي أصحاب الضّمائر الميّتة، **قال تعالى:** ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ الزمر: ٢٢، وعلى الرّغم من تعدّد وجوه التّأثير للقرآن الكريم؛ فإنّ هناك من يرى أنّ تأثيره نابع من كون قارئه لا يكلّ، وسامعه لا يملّ، وإن تكرّرت عليه تلاوته، ذلك أنّ «إعجازه يدرك؛ ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك؛ ولا يمكن وصفها، وكما يدرك طيب النّغم العرض للصّوت، ولا يدرك تحصيله لغير ذوي الفطر السّليمة.»[2]

إنّ هذين الرّجلين على دراية عميقة باللّغة العربيّة وأسرارها وبلاغتها وفصاحتها، ومعروف عنهما في التّاريخ حفظهما لأشعار العرب، وولعهما بالخطب المؤثّرة؛ لكن أمام لغة القرآن الّتي لا تختلف عن لغتهما المعهودة وَقَفَا مشدوهين، وغيرهما كثير ممّن أصيب بهذه الدّهشة والتّأثّر، وهي ميزة الخطاب القرآنيّ عندما يُلْقَى على سامعيه، لما فيه من تصوير فنيّ تشترك كثير من العوامل لإبرازه منها: جرْس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السّيّاق، هذه الصّورة المركّبة من متعدّد تتملّاها العين والأذن والحسّ والخيال والفكر والوجدان[3]، إذن فاللّغة ليست مجرّد رموز صوتيّة، ولا مجرّد مقاطع

---

(1)- التّصوير الفنيّ في القرآن، سيّد قطب، ص: 14.

(2)- مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمّد بن عليّ السّكاكيّ، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، مطبعة دار الرّسالة، بغداد، ط1 1403هـ – 1981م، ص: 83.

(3)- إنّه التّصوير الفنيّ عند سيّد قطب الّذي يعتبره الأداة المفضّلة في أسلوب القرآن الكريم؛ فهو يعبّر بالصّورة الحسيّة المتخيّلة عن عن المعنى الذّهنيّ، والحالة النّفسيّة، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النّموذج البشريّ... فإذا المعنى الذّهنيّ هيئة أو حركة، وإذا الحالة النّفسيّة لوحة أو مشهد، وإذا النّموذج الإنسانيّ شاخص حيّ... وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من الموقف، والمتساوقة من الحوادث، وهذه كلمات تتحرّك بها الألسنة؛ فتنمّ عن الأحاسيس المضمرة إنّها الحياة هنا، وليست حكاية الحياة. – التّصوير الفنيّ في القرآن، ص: 36 - 37.

وكلمات ننطقها؛ بل هي رموز تحمل في طيّاتها المعاني والأفكار المتنوّعة؛ لهذا كان لعلم الدّلالة عناية كبيرة لهذه الإشارات والرّموز الّتي تمثّل اللّغة[1].

وتتمثّل التّنوّعات الصّوتيّة في ظواهر صوتيّة عديدة، مثل: المقطع، والنّبر، والتّنغيم، «وتسمّى أيضا الوحدات الثّانويّة.»[2] وهذا لا يعني أنّها ليست مهمّة؛ بل لها دور في التّأثير على المعنى، ولها دلالتها الصّوتيّة؛ الدّلالة الّتي تسمّى بالدّلالة الصّوتيّة فوق مقطعيّة الّتي تتشكّل من فونيمات ثانويّة لا تكون جزءا من تركيب الكلمة بعكس الفونيمات التّركيبيّة؛ وإنّما تظهر وتلاحظ حين تضمّ كلمة إلى أخرى، أوحين تستعمل الكلمة كجملة وباستعمال خاصّ، ولذا يطلق عليها الفونيمات فوق مقطعيّة، فكما تتحقّق الدّلالة الصّوتيّة في الكلمة المفردة؛ «كذلك تتحقّق من مجموع تأليف كلمات الجملة وطريقة أدائها الصّوتيّ، ومظاهر هذا الأداء، وهذا ما يعرف بالعناصر الصّوتيّة الثّانويّة الّتي تصاحب الكلمة.»[3]

إنّ كلّ ذلك يبيّن أنّ الدّلالة الصّوتيّة تظهر في الأصوات، والفونيمات، والكلمات، والتّراكيب، ونظرا لهذه الأهميّة للدّراسة الصّوتيّة باعتبارها اللّبنة الأولى للدّراسات اللّغويّة، والدّراسة الدّلاليّة باعتبارها أشرف الدّراسات ومنتهاها رأى العديد من العلماء قدماء ومحدثين أنّ الدّلالة الصّوتيّة تمثّل من روائع الإعجاز في القرآن الكريم، إنّ دراسة الظّواهر فوق مقطعيّة، وتحليلها هو وسيلة لاستخلاص المعنى؛ إذ أنّ «تقنيّة التّركيب تهتمّ بسيرورة الكلمة داخل الجملة، ويكشف الصّوت عن السّيرورة الفونيميّة والظّواهر فوق المقطعيّة داخل الكلمة والجملة بالنّظر إلى تلك السّيرورات على أنّها صيغة للمعنى.»[4] فالظّواهر فوق مقطعيّة تكشف بعمق عن دورها في تحديد المعنى، وهو الأمر الّذي تنبّه إليه تمّام حسّان حين قال: «إنّ كلّ دراسة لغويّة – لا في الفصحى فقط بل في كلّ لغة من لغات العالم – لا بدّ أن يكون موضوعها الأوّل والأخير هو المعنى، وكيفيّة ارتباطه بأشكال التّعبير المختلفة؛ فالارتباط بين الشّكل والوظيفة هو اللّغة، وهو العرف، وهو صلة المبنى بالمعنى.»[5] وبذلك تتّضح

---

(1)- تتّضح علاقة علم الدّلالة بالدّرس الصّوتيّ في اِختلاف المعنى من كلمة إلى أخرى لِاختلاف صوتيّ بينها مثل: (أقصى وأقسى) فإنّ تفخيم الصّاد، وترقيق السّين هما أساس التّفريق بين دلالتي الكلمتين. ينظر: في علم الدّلالة، د. محمّد سعد محمّد، مكتبة زهراء الشّرق، مصر، ط1، 2002م، ص: 14 وما بعدها.

(2)- علم اللّسانيّات، د. عبد القدر عبد الجليل، درا صفاء للنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 1422هـ-2002م، ص: 346.

(3)- الدّلالة اللغويّة عند العرب، عبد الكريم مجاهد، ص: 166.

(4)- Modes of meaning; J; R; Firth; Bobbs-Memil Reprint; Series in Language and Linguistics; Léà; 1951 P: 192

(5)- اللّغة العربيّة معناها ومبناها، تمّام حسّان، ص: 09.

نجاعة التّحليل المعتمد على الدّلالة، وإلقاء الضّوء - خاصّة - على الدّلالة القرآنيّة، ممّا يساعد على تقديم تفسير منسّق للتّأويلات الكثيرة الّتي نجدها في الكثير من الآيات القرآنيّة.

ولقد نوّه بعض الباحثين — أيضا — إلى أهميّة الظّواهر فوق المقطعيّة في تحديد المعنى، «وأنّ هذه الإجراءات الصّوتيّة تخدم التّركيب والدّلالة خدمة فعّالة،»[1] وإنّ هذا التّنوّع الصّوتيّ في القرآن الكريم بشتى صوره، وتعدّد أشكاله، جعله يتّسم بنظام صوتيّ معجز؛ له دلالاته الصّوتيّة المسترعية للأسماع، المستهوية للنّفوس، المبهرة للألباب، المستولية على الأحاسيس والمشاعر بطريقة عجيبة تفوق كلّ كلام منثور أو منظوم.

المبحث التّاسع: الكتابة المقطعيّة

- مفهوم المقطع Syllabe

أ- التّعريف اللّغويّ للمقطع:

يرى ابن فارس أنّ «القاف والطّاء والعين أصل صحيح واحد، يدلّ على صرم وإبانة شيء من شيء، يقال: قطعت الشّيء أقطعه قطعا، والقطيعة: الهجران.»[2] وكلمة المقطع من القطع وهو «إبانة بعض أجزاء الشّيء من بعض، قطعه، يقطعه، قَطعا وقطيعة وقطوعا، والقطع: مصدر قطعت الحبل قطعا؛ فانقطع، والمِقْطِع بالكسر: ما يقطع به الشّيء، وقطعه واقتطعه، فانقطع وتقطّع: بتشديد الطّاء للكثرة.»[3] يقال إذن: قطعه قطعا، وقطعه واقتطعه، والقطع وتقطّع، والمقطع: مَفْعَلٌ اسم مكان من قطع، و«المقطع: الموضع الّذي يُقْطَعُ فيه النّهر من المعابر وغيرها، والهجر مقطعه الودّ، ومقطع الرّمل ومنقطعه: حيث ينقطع ولا يكون. وهو حسن التّقطيع: أيّ القدّ. والقَطِعُ: الّذي ينقطع صوته.»[4] وتقطّع كلّ شيء ومنقطعه: آخره حيث ينقطع كمقاطع الرّمال والأودية، ومقاطع القرآن: مواضع الوقوف، ومبادئه: مواضع الابتداء. ومقطّعات الشّيء: طرائقه الّتي يتحلّل إليها

---

[1]- أدوات الوصف والتّفسير اللّسانيّة، عبد العزيز العماريّ، دار النّشر: المغرب، ط1، 2004م.ص: 180.

[2]- معجم مقاييس اللّغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط: عبد السّلام هارون، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، د ط، د ت، ج 05، باب القاف والطّاء وما يثلثهما، مادّة: قطع.

[3]- لسان العرب، ابن منظور، ج 10، مادّة: قطع.

[4]- المحيط في اللّغة، الصّاحب إسماعيل بن عبّاد، تحقيق: الشّيخ محمّد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، د ط، د ت، ج01، مادّة: قطع.

ويتركّب عنها، كمقطّعات الكلام، ومقطّعات الشّعر، ومقاطيعه: ما تحلّل إليه وتركّب عنه من أجزائه الّتي يسميها العروضيّون العرب الأسباب والأوتاد[1].

الملاحظ على معنى القطع لغة وما يتعلّق بها من كلمات ذات الأصول القاف والطّاء والعين: المقطع، أقطع، قاطع، اقتطع، انقطع، ومعانيها جميعا تعني الفصل والاجتياز وموضع القطع وآخر الشّيء، ومادّة (قطع) عند تحليلها إلى حروف ومقاطع فإنّها تعني: «في حروفها القاف «للقوّة والمقاومة والانفجار الصّوتيّ»، والطّاء «للمطاوعة والطّراوة والفلطحة»، والعين «للعيانيّة والوضوح والفعاليّة»، والحرف الأصل هو القاف، وهكذا يبدأ حادث القطع بحسب أصوات حروفها بصدمة قويّة، تحدث صوتا انفجاريّا «للقاف»، ثمّ يطرّي موضع الصّدمة ويلين «للطّاء»؛ ممّا يؤدّي إلى فصل بعض منه بوضوح وعيانيّة «للعين»، وذلك سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المراد.»[2] ومن هذا الحديث نفهم أنّ تحديد علماء الأصوات مصطلح المقطع بالوحدة الصّوتيّة الّتي عندها ينقطع الصّوت؛ يكون لما فيه من وضوح للانفجار الصّوتيّ، فالمقطع بهذا يتناسب مع طبيعة حروفه، وذلك لظهور الصّدمة والانفجار الصّوتيّ.

ب – التّعريف الاصطلاحيّ للمقطع[3]:

المقطع في اصطلاح علماء الأصوات أقرب إلى قول العرب: مقطّعات الكلام أيّ أجزاؤه الّتي يتحلّل إليها، ويتركّب عنها، يقول ابن الدّهان محمّد بن عليّ: «وبين الألفاظ الحروف المقاطع، والمقاطع تنقسم إلى خفيفة وثقيلة، فالخفيف مركّب من صامت ومصوّت؛ لأنّ الصّوت إمّا أن ينطق به في أقصر زمان يكون فيه اتّصال الصّامت إلى الصّامت وإلى السّمع، وهو المقطع المقصور والسّبب الخفيف العروضيّ، مثل: «لن»، وإمّا أن ينطق به في ضعف الزّمان أو أضعافه، يسمّى مقطعا ممدودا

---

(1)- ينظر: ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، أ. الطّاهر أحمد الزّاويّ، دار الفكر، القاهرة، ط3، دت، ج 03، باب القاف، مادّة: قطع.

(2)- خصائص الحروف العربيّة ومعانيها، دراسة، عبّاس حسن، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، د ط، 1998م، ص:241.

(3)- في غير العربيّة إنّ لفظة Syllable بالانجليزيّة، و Syllabe ترتبط بالأصل اللاتينيّ Syllabus الّذي يعود إلى اللّفظ اليونانيّ Sullabe ومنه الفعل Sullambanein ويعني الضّمّ والجمع، كما تستعمل أيضا في معنى الاحتواء والأخذ جملة دون تجزئة، وهذه المعاني تتقارب مع معنى المقطع في العربيّة. – التّفكير اللّسانيّ في الحضارة العربيّة، عبد السّلام المسديّ، ص: 262، الهامش رقم: 74.

والوتد المفروق العروضيّ مثل: باع.»[1] تطرّق ابن الدّهان في تعريفه إلى المقاطع وقسّمها إلى خفيفة وثقيلة، وذكر كلّ نوع منها، ثمّ انتقل في تعريفه إلى زمن النّطق من قصر أو طول النّطق به، وأطلق اسما على كلّ واحد منها.

نعني بالمقطع الأصوات اللّغويّة عندما «ينطقها الإنسان تخرج مجموعات مجموعات، كلّ مجموعة تسمّى مقطعا،»[2] قد يكون هذا المقطع صوتين اِثنين أو أكثر. والمقاطع في تشكّلها تكوّن بناءً مقطعيّا ومعناه -أيّ البناء المقطعيّ- «أن يتكوّن النّصّ من مجموعة من المقاطع، يشكّل كلّ مقطع وحدة؛ لها كيانها الخاصّ، ويرتبط كلّ مقطع بالآخر ارتباطا وثيقا؛ ليكوّن بناءً متكاملا من النّواحي العضويّة والمنطقيّة والنّفسيّة، وبه تتشكّل الصّورة الكلّيّة.»[3] ومن خلال هذه المفاهيم نلاحظ اتّحاد المعنى اللّغويّ بالمعنى الاصطلاحيّ؛ فالمقطع القرآنيّ - مثلا - يتكوّن من مجموعة من الآيات الكريمات يوقف عليها بانتهاء معنى، وتتوالى المقاطع في الآيات الكريمات، وتتّحد لتكوين فكرة عامّة للخطاب القرآنيّ؛ لأنّ كلّ مقطع له معنى جزئيّاً يحمله، وتتابع المقاطع وتواليها الواحدة بعد الأخرى؛ يؤدّي إلى وجود فكرة رئيسيّة واحدة.

ويمثّل المقطع أحد ظواهر الكلام، وتنوّعا للظّواهر فوق مقطعيّة، وهو عبارة عن «تتابع الفونيمات في لغة ما للبنيّة المقطعيّة، ويرى علماء اللّغة والأصوات أنّ ماهيّة المقطع وتعريفه تحدّد في اِتّجاهين، اِتّجاه صوتيّ، أو فونتيكيّ، واتّجاه فونولوجيّ،»[4] ومعناه أنّ تعريف المقطع يتعدّد بتعدّد اِتّجاهاته.

لم يتّفق علماء الأصوات المحدثون على تعريف واحد للمقطع، والسّبب في ذلك راجع إلى اختلاف الرّؤى حول الوظيفة الأكوستيكيّة - الفيزيائيّة، أو الوظيفيّة أو النّطقيّة، ويرجعه البعض إلى «أنّ الكلام الإنسانيّ متداخل الأجزاء؛ بحيث يكتسب الجزء القويّ شيئا من ضعف الجزء الّذي يليه أو يسبقه، ويمكن أن يحدث عكس هذا الشّيء.»[5] ويمكن التّمثيل لذلك في العربيّة باللاّم في الفعل

[1]- تقويم النّظر في الأدلّة واختلاف الفقهاء، الدّهان محمّد بن عليّ، مخطوط، دار الكتب المصريّة، نقلا عن: المدخل إلى علم أصوات العربيّة، د. غانم قدوريّ الحمد، دار عمّار، عمّان، ط1، 1425هـ - 2004م، ص: 188.

[2]- المصطلح الصّوتيّ في الدّراسات العربيّة، عبد العزيز الصّيغ، ص: 274.

[3]- عناصر الإبداع الفنيّ في شعر أحمد مطر، كمال أحمد غنيم، مكتبة مدبوليّ، القاهرة، ط1، 1998م، ص: 227.

[4]- ينظر: الكلمة، حلميّ خليل، ص: 31، و40.

[5]- المقطع الصّوتيّ في العربيّة، د. صباح عطيويّ عبّود، دار الرّضوان للنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 1435هـ - 2014م، ص:15.

«قال» الواقعة بين مصوّتين /ق ـَ /ل ـَ / فبمجرّد نطق المقطع الأوّل ينزلق اللّسان نحو اللاّم؛ وكأنّها نطقت /ق ـَ ل/ وكأنّ لام داخلة فيه، وهي في الحقيقة جزء من المقطع التّالي:/ ل ـَ/(1)، كما أنّ الأجهزة المستخدمة لم تمكّنهم من رسم حدود المقطع، ولهذا السّبب انقسم التّعريف – باختلاف هذه الرّؤى– إلى اتّجاهين، اتّجاه يعرّف المقطع من النّاحيّة الفونيتكيّة، وآخر يعرّفه من النّاحيّة الفونولوجيّة.

- **الاتّجاه الفونيتيكيّ (الفيزيائيّ أو الأكوستيكيّ):**

يعرّف المقطع بأنّه «قمّة إسماع تقع بين حدّين أدنيين من الإسماع.»(2) وقد قام بعض العلماء بتعريف المقطع من النّاحيّة الأكوستيكيّة بشكل مفصّل؛ بالاعتماد في ذلك على نتائج تسجيلات الاسكتروجراف، «ومن النّاحيّة الأكوستيكيّة تظهر نواة المقطع في هيئة معالم Formants، ويكون لهذه النّواة قوّة صوتيّة أشدّ من العناصر المساعدة.»(3) ويورد سلمان العانيّ في تحليله رأي إيزهاوجن في المقطع في اللّغة العربيّة؛ الّذي يرى أنّه من المناسب أن تقسّم الفونيمات المفردة في العربيّة إلى فونيمات مركزيّة، وفونيمات غير مركزيّة، وتشكّل الحركات القصيرة الثّلاثة مع نظائرها الطّويلة نواة المقطع دائما، في حين تمثّل دائما جميع السّواكن والصّوتان الجهوران الياء والواو؛ الفونيمات المساعدة في بنيّة المقطع، ولأنّ هناك فصلا واضحا بين الفونيمات حيث تكون بعضها نواة المقطع، وبعضها الآخر عناصر مساعدة، وأنّه لا حاجة للتّأكيد على خاصيّته المركزيّة الّتي قد لا تعدّ صفة مميّزة للحركات، ووفقا لهذا الفصل بين الحركات والسّواكن؛ فإنّ عدد مقاطع لفظ ما سيطابق عدد الحركات الموجودة فيه(4).

يتابع سلمان العانيّ تحليله للمقطع فيقول: «وقد توجد الفونيمات المساعدة في بداية المقطع أو نهايته، ودائما لا تكون بداية المقطع إلاّ ساكنا مفردا، بينما قد تكون نهايته إحدى العناصر

(1)– ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(2)– نجد هذا التّعريف في الكتابين التّاليين: أصوات اللّغة، عبد الرّحمن أيّوب، مطبعة دار التّأليف، القاهرة، ط1، 1963م، ص:139. – أسس علم اللّغة، ماريوباي، ص: 96.

(3)– التّشكيل الصّوتيّ في اللّغة العربيّة –فونولوجيا العربيّة–، ترجمة: د. ياسر الملاّح، مراجعة: محمّد محمود غالي، النّادي الأدبيّ الثّقافيّ، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط1، 1403هـ – 1983م، ص:131.

(4)– ينظر: المقطع في الوصف اللّغويّ في ذكرى رومان جاكبسون، ايزهاوجن، لاهاي، موتون وشركاه 1956م، نقلا عن: المرجع السّابق، ص: 131.

الثّلاثة: ساكن مفرد أو ساكنان أو لا ساكن مطلقا،»[1] ويمكن تمثيل بنيّة المقطع بالوصف الّذي ورد عند العانيّ بالشّكل التّالي[2]:

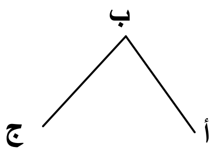

في هذا الرّسم تمثّل النّقطة «ب» دائما نواة المقطع، وتمثّل النّقطتان «أ» أو «ج» بداية المقطع ونهايته على التّوالي، وتوضّح تسجيلات الاسكتروجراف في تحليل الحزمة الضّيّقة الحركات النّغميّة لهذا الرّسم؛ وخاصّة في مقطع منبور ذي درجة صوتيّة عالية[3].

إنّ تعريفات الاتّجاه الفونيتكيّ تركّز على حدود المقطع ودرجة الإسماع، وبأنّ له حدّ أعلى أو قمّة إسماع طبيعيّة. أو هو «قطاع من تيّار الكلام يحوي صوتا مقطعيّا ذا حجم أعظم، محاطّا بقطاعين أضعف منه من النّاحية الصّوتيّة.»[4] أو«هو وحدة صوتيّة تتكوّن من عنصر أو أكثر، يوجد خلالها نبضة صدريّة واحدة[5]، أيّ قمّة إسماع أو بروز.» [6] يقف هذا التّعريف على أساسين: أساسين:

- الأساس النّطقيّ المتمثّل في الخفقة الصّدريّة الّتي يشعر بها الإنسان عند نطق المقطع.
- الأساس السّمعيّ بحيث يبدو المقطع عند النّطق أكثر وضوحا.
- **الاتّجاه الفونولوجيّ (الوظيفيّ):**

---

(1)- التّشكيل الصّوتيّ في اللّغة العربيّة، ص: 132.

(2)- المرجع نفسه، والصّفحة نفسها.

(3)- يرمز الخطّ (أ – ب) الّذي يبدو في صورة الاسكتروجراف أقصر من الخطّ (ب – ج) وأقوى منه إلى زيادة في التّوتّر عند المتكلّم، بينما يرمز الخطّ (ب – ج) إلى نقص هذا التّوتّر، وليس ضروريّا ظهور نواة المقطع أو بروزها في المقاطع الضّعيفة غير المنبورة، ينظر: علم الأصوات، برتيل مالمبرج، تعريب، د. عبد الصّبور شاهين، مكتبة الشّباب، مصر، د ط، د ت، ص: 28.

(4)- دراسة الصّوت اللّغويّ، أحمد عمر مختار، ص: 240.

(5)- يعتبر فترة فاصلة بين عملتين من عمليّات غلق جهاز التّصويت، غلقا جزئيّا أو كلّيّا. ينظر: التّصريف العربيّ من خلال علم الأصوات الحديث، د. الطّيّب البكوش، نشر وتوزيع مؤسّسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ط2، 1887م، ص: 77.

(6)- دراسة الصّوت اللّغويّ، أحمد عمر مختار، ص: 241.

أمّا الاِتّجاه الفونولوجيّ فيعرّف المقطع «من حيث هو وحدة متميّزة في كلّ لغة، تتمثّل في عدد من التّتابعات المختلفة بين الصّوامت والصّوائت، بالإضافة إلى عدد من الملامح مثل: النّبر والتّنغيم.»[1] ينظر هذا الاتّجاه إلى المقطع من حيث بنيّته ومكوّناته وكيفيّات تتابعه، وما تظهر فيه من ملامح صوتيّة مميّزة كالنّبر والتّنغيم، ويتمّ ذلك في كلّ لغة على حدة؛ لأنّ كلّ لغة لها مميّزاتها الخاصّة بها.

ويرى حلميّ خليل أنّ «المقطعيّة وعدمها ليست صفة ملازمة للصّوت، وإنّما هي صفة تنشأ من مجاورته ومقارنته بالأصوات الأخرى في البنيّة اللّغويّة،»[2] إذن لا يمكن وصف الصّوت بأنّه مقطعيّ أو غير مقطعيّ دون وضعه في سيّاق محدّد. كما أنّ الإنسان عندما يتحدّث بلغته يميل في العادّة إلى الضّغط على مقطع خاصّ من كلّ كلمة، ليجعله بارزا أو واضحا في السّمع دون عداه من مقاطع الكلمة[3]، وهذا الضّغط هو الّذي يسمّيه المحدثون اللّغويّون بالنّبر.

يعرّف العالم اللّغويّ هلمسليف المقطع في هذا الاتّجاه بأنّه «سلسلة تعبيريّة تشمل على نبر واحد بالضّبط.»[4] أيّ احتواء سلسلة الأصوات على ضغط واحد بارز هو الّذي يشكّل المقطع عنده، ويعرّفه عبد الصّبور شاهين بأنّه «تأليف صوتيّ بسيط تتكوّن منه واحد أو أكثر كلمات اللّغة، متّفق مع إيقاع التّنفس الطّبيعيّ، ومع نظام اللّغة في صوغ مفرداتها.»[5] ينحو هذا التّعريف إلى التّعميم؛ كما أنّه يمزج بين الجانب الوظيفيّ والجانب النّطقيّ للمقطع.

ويعرّفه إبراهيم أنيس بأنّه «عبارة عن حركة قصيرة أو طويلة مكتنفة بصوت أو أكثر من الأصوات السّاكنة.»[6] والحقيقة أنّ العربيّة يغلب عليها البدء بصوت ساكن؛ ثمّ حركة سواء كانت قصيرة أو طويلة، أمّا توالي أكثر من صوت ساكن فلا يكون إلاّ في حالة الوقف بالسّكون، مثل قولنا: بَحْرْ، أو صوتان ساكنان متطرّفان ومدغمان، مثل: بَرّْ[7]، وتتابع صوتين ساكنين أو أكثر سائد سائد في اللّغات الأجنبيّة.

---

[1]- الكلمة، حلميّ خليل، ص: 41.

[2]- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[3]- ينظر: مباحث في علم اللّغة ومناهج البحث اللّغويّ، دة. نور الهدى لوشن، المكتبة الجامعيّة الأزاريطة، الإسكندريّة، ط1، 2001م، ص: 133.

[4]- علم الأصوات العربيّة، محمّد جواد النّوريّ وآخرون، ص:234.

[5]- القراءات القرآنيّة في ضوء علم اللّغة الحديث، دار القلم، القاهرة، 1996م، ص:25. - علم الأصوات، مالبرج، مرجع سابق، ص: 164.

[6]- موسيقى الشّعر، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ط2، 1952م، ص: 147.

[7]- ويكون ذلك في الوزن الشّعريّ. ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

أمّا رمضان عبد التّواب فيقول: «المقطع كميّة من الأصوات تحتوي على حركة واحدة، ويمكن الابتداء بها والوقف عليها.»[1] بهذه التّعريفات يقسّم الاتّجاه الفونولوجيّ المقطع إلى ثلاثة أقسام:

مطلع: بـــ نواة: ـــــا خاتمة: ع

ويكشف جانبا من خصائصه بأنّه تتابع صوتيّ من الصّوامت والصّوائت، ويتكوّن عادة من حركة تعتبر نواة المقطع، يحيط بها بعض الصّوامت[2]، إذن يتّضح لنا أنّ المقطع هو عبارة عن دفقة هوائيّة له نقطة بداية ونقطة نهاية، وبينهما عنصر يمثّل القمّة في الوضوح السّمعيّ ويشكّل نواة المقطع.

يقول عبد الصّبور شاهين عن المقطع: «هو مزيج من صامت وحركة، يتّفق مع طريقة اللّغة في تأليف بنيّتها، ويعتمد على الإيقاع التّنفّسيّ.»[3] هذا التّعريف فيه شموليّة ووضوح إلى حدّ ما. الملاحظ أنّ الدّراسات الحديثة أكثرت من تعريفات المقطع وحدوده حتّى وصل به الأمر إلى حدّ الغموض، بعد هذا العرض لمجموع التّعريفات الخاصّة بالمقطع يمكن تحديد وجوه الاتّفاق بينها، وتتمثّل في:

1- المقطع تجمّع صوتيّ يتفّق مع إيقاع النّفس.

2- يتضمّن صوتا يعدّ بمثابة القمّة من حيث الوضوح السّمعيّ.

المبحث العاشر: أشكال المقطع في اللّغة العربيّة

تعرف العربيّة أربعة أنواع من المقاطع من حيث الكمّ، على خلاف إبراهيم أنيس الّذي يقرّ بوجود خمسة أنواع من المقاطع، وهناك من أضاف النّوع السّادس؛ وهي[4]:

---

(1)- التّطوّر اللّغويّ: مظاهره وعلله وقوانينه، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط3، 1977م، ص: 74.

(2)- يوضّحه الرّسم التّالي:

وبهذا يشكّل المطلع مع الخاتمة طرفي المقطع، والنّواة مع الخاتمة لبّ المقطع الّذي يشكّل العنصر الأساس في تحديد الخصائص الفونولوجيّة للمقطع؛ فطرفا المقطع (الباء والعين)، أمّا اللّب فهما (حركة الفتحة الطّويلة والعين ـــــاع). ينظر: علم الأصوات العربيّة، محمّد جواد النّوريّ، ص: 234 - 235.

(3)- المنهج الصّوتيّ للبنيّة العربيّة: رؤيّة جديدة في الصّرف العربيّ، د. عبد الصّبور شاهين، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، د ط، 1400هـ – 1980م، ص: 38.

(4)- الرّموز: ص= صوت صامت، ص ص= صامتان، ح = حركة قصيرة، ح ح = حركة طويلة؛ مثل: ألف المدّ، ياء المدّ، واو المدّ.

1 – مقاطع قصيرة:

وهي المقاطع الّتي تتكوّن من صامت وحركة قصيرة، ويرمز إليها بالرّمز «ص ح» حيث ترمز «ص» إلى الصّامت، وترمز «ح» إلى الحركة القصيرة[1]، ويقابله في اللّغة الأجنبيّة « C+V» C= Consonant و V= Vowel، ويمكن التّمثيل لهذا النّوع من المقاطع بمقاطع الفعل كَ/ تَ/ بَ/.

2 – مقاطع متوسّطة مفتوحة:

وهي المقاطع الّتي تتكوّن من صامت وحركة طويلة، ويرمز إليها بالرّمز «ص ح ح»، ويمكن التّمثيل لها بالكلمات: /مَا/ – / فِي/ – / ذُو/.

3 – مقاطع متوسّطة مغلقة:

وهي تلك الّتي تتكوّن من صامت + حركة قصيرة + صامت، ويرمز إليها بالرّمز «ص ح ص»، ويمثّله كلّ من /قد/ – /من/ – /خذ/. يطلق هذا المصطلح على الحركة الّتي يمتدّ فيها إخراج النّفس امتدادا يصير معه مدى النّطق بحركتين بسيطتين أو قصيرتين، وقد يتعدّى ذلك[2].

4 – مقاطع طويلة مفردة الإغلاق:

وتتكوّن من صامت + حركة طويلة + صامت، ويرمز إليه بالرّمز «ص + ح ح + ص» ويمثّله المقطع /ضَالِ/ من «الضَّالِين»، ومثله المقطع / مين/ من «المسلمين» وذلك في الوقف، أيّ في حالة النّطق بها ساكنة.

5 – مقاطع طويلة المزدوجة الإغلاق:

تتألّف من صامت + حركة قصيرة + صامتين، ويرمز له بـ : «ص + ح + ص ص» ومن أمثلة هذا المقطع كلمة / بِنْتْ / عند النّطق بها ساكنة عند الوقف.

6 – مقاطع مديدة:(أو المقاطع البالغة الطّول).

ولا تكون إلاّ وقفا، وتتكوّن من صامت وحركة طويلة وصامت طويل، ويرمز إليه بـ «ص + ح ح + ص + ص» نحو /سَارْ/ – /حَارّ/ على وقف.

---

(1)– ينظر التّفصيل في أشكال المقاطع وأنواعها في كتاب: المقطع الصّوتيّ في العربيّة، صباح عطيويّ عبّود، من ص: 93 حتّى ص: 128.

(2)– ينظر: دروس في علم الأصوات، جان كانتينو، ترجمة: د. صالح القرماديّ، مركز الدّراسات والبحوث الاقتصاديّة والاجتماعيّة، تونس، د ط، 1966م، ص: 145.

المبحث الحادي عشر: أنواع المقطع

ينقسم المقطع من ناحيّة النّبر إلى نوعين هما:

1- المقطع المنبور:

وهو الّذي يأخذ نبرة رئيسيّة في الكلمة أو الجملة، وتجعل هذه النّبرة المقطع أكثر إسماعا من سواه من المقطع غير المنبور وأكثر علوّا.

2- المقطع غير المنبور:

هو المقطع الّذي يأخذ نبرة غير النّبرة الرّئيسيّة، ويكون هذا المقطع أقلّ إسماعا من المقطع المنبور، وفي الكلمة لا يوجد سوى مقطع منبور واحد، وتكون بقيّة المقاطع في الكلمة غير منبورة.

المبحث الثّاني عشر: خصائص المقاطع في اللّغة العربيّة والقرآن الكريم

من الحقائق المؤكّدة أنّ لكلّ لغة نظامها الخاصّ فيما يتعلّق بالتّركيب المقطعيّ للكلمات، ولقد أصبحت دراسة المقطع الصّوتيّ أمرا بالغ الأهميّة، «وإذا كانت الأصوات هي العناصر البسيطة الّتي تتكوّن منها الكلمة العربيّة، فإنّ بين الصّوت المفرد والكلمة المركّبة من عدّة أصوات مرحلة وسيطة هي مرحلة المقطع،»[1] وهكذا يتوضّح لنا أنّ اللّغة لا تتكوّن من الأصوات المفردة، وإنّما تتكوّن من دفعات هوائيّة أكبر من ذلك، يطلق عليها اسم المقاطع الصّوتيّة، وهي تمثّل حقيقة اللّغة المتكوّنة من سلاسل متتابعة من هذه الأصوات أيّ مقاطع صوتيّة متتالية، ومن خلال دراسة قام بها عصام أبو سليم، رأى أنّ المقطع «ص ح» والّذي يتألّف من (صامت + حركة)؛ هو أكثر المقاطع تكرارا في الأنماط المقطعيّة في اللّغة.

وقد أظهر صاحب البحث من خلال إحصائيّات أجراها؛ أنّ المقطع القصير هو من أكثر المقاطع تكرارا في السّور القرآنيّة الطّويلة خاصّة، ويرجع السّبب إلى[2]:

أوّلا: إنّ القرآن الكريم جاء في سوره وآياته ليتوافق مع لغة العرب ولسانهم، ونظام اللّغة العربيّة، وبذلك لا يشعر القارئ بأيّة صعوبة عند تلاوته.

---

[1]- المنهج الصّوتيّ للبنيّة العربيّة، عبد الصّبور شاهين، ص: 28.

[2]- ينظر: الأنماط المقطعيّة في اللّغة العربيّة -دراسة كميّة- عصام أبو سليم، المجلّة العربيّة للعلوم الإنسانيّة، الصّادرة عن مجلس النّشر العلميّ، الكويت، المجلّد 09، العدد 36، يناير 1989م، ص: 194.

ثانيا: إنّ خفّة ورشاقة هذا المقطع وسرعة حركته، وتمتّعه بحريّة الانتقال من مكان لآخر في الكلام العربيّ، واللّفظ القرآنيّ بشكل خاصّ؛ جعله المحرّك الأساسيّ لضبط الإيقاع الصّوتيّ من خلال هذه الحريّة بتكراره على مدار الآيات – في السّور الطّوال خاصّة – وكلماتها جميعها، هذا على الرّغم من كون الآيات تنتقل من نقطة إلى أخرى بحركة سريعة خفيفة، وبالتّالي فإنّ السّمات والخصائص الصّوتيّة هذه أهّلته ليكون المقطع الأساسيّ، والرّابط الصّوتيّ القادر على ضبط الإيقاع الموسيقيّ والصّوتيّ للسّور من بدايتها إلى نهايّتها.

ثالثا: شيوع المقطع القصير عن غيره من المقاطع العربيّة يعود أيضا إلى كونه أسهل نطقا، وأجمل موسيقيّة، وحتّى الشّعراء العرب قديما كانوا يبنون عليه أشعارهم[(1)]؛ «وكثيرا ما يلجأ الشّعراء إلى استعمال مقطع قصير مكان مقطع متوسّط، وقد يدعوهم إلى هذا، أو يلجئهم إليه كلمات اللّغة الّتي لا تسعفهم في كلّ حال، والّتي تقيّد الشّعر بنسجها.»[(2)]

وينتهي كلّ مقطع من هذه المقاطع بحركة فهو مقطع مفتوح، وكلّ مقطع ينتهي بصامت فهو مقطع مغلق؛ فالمقاطع العربيّة إذن إمّا مفتوحة وإمّا مغلقة، وهي ليست متساوية من حيث شيوعها في الكلام، وكثرة استعمالها، فالمقاطع القصيرة من نوع «ص ح» أكثر الأشكال المقطعيّة شيوعا في العربيّة، يليه المقطعان المتوسّطان «ص ح ح»، و«ص ح ص» فهذه الأشكال المقطعيّة الثّلاثة هي الّتي تكوّن الكثرة الغالبة من الكلام العربيّ[(3)]. أمّا المقاطع الطّويلة والمديدة فهي نادرة، قليلة الشّيوع في الكلام، وورودها في العربيّة مقيّد في أغلب الأحيان بحالة الوقف، وبخاصّة المقطعان «ص ح ص ص» و «ص ح ح ص ص»؛ فإنّ العربيّة لا تسمح بهما إلاّ في حالة الوقف فقط، أمّا المقطع الطّويل مفرد الإغلاق «ص ح ح ص» فإنّه يأتي في الكلام[(4)]، وممكن بشروط حدّدها النّحاة.

المبحث الثّالث عشر: أهميّة المقطع في تحليل النّصّ

1- الاختيار الصّوتيّ والتّأليف:

(1)- ينظر: الأصوات اللّغويّة، د. إبراهيم أنيس، مطبعة نهضة مصر، مصر، د ط، د ت، ص: 93.

(2)- ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(3)- موسيقى الشّعر، إبراهيم أنيس، ص: 157.

(4)- ينظر: أثر القوانين الصّوتيّة في بناء الكلمة العربيّة، د. فوزيّ الشّايب، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 1425هـ-2004م، ص: 100.

إنّ المؤلّف المبدع في النّثر أو الشّعر عليه اختيار أصوات نصّه؛ مثلما يفعل الرّسّام عند اختياره لألوان لوحته، «فالأصوات تجري من السّمع مجرى الألوان من البصر،»[1] واختيار الرّسام لتلك الألوان تمتزج فيها أبعاد العمل الفنيّ، فهو يجعل من لوحته ناطقة لما يريد، يختار اللّون الأبيض ليعبّر به عن النّقاء والصّفاء، والأخضر ليعبّر عن الحياة والبقاء، والرّماديّ للتّعبير عن الحزن والكآبة، وهذه الدّلالات لم يتمّ اختيارها اعتباطا، وإنّما استوحاها من المحيط الّذي حوله، وما تعوّدت النّفس البشريّة على الإحساس به[2]، فالأبيض مرتبط غالبا في حياتنا اليوميّة بما هو نقيّ وصاف، والأخضر بالنّبات الّذي يمثّل رمز الحياة والبقاء، والرّماديّ الّذي يشعر الإنسان في غالب الأحوال بالكآبة، ولا يعمل على وضعها عشوائيّا؛ وإنّما يراعي في ذلك قدرة هذه الألوان على جذب الانتباه، وما تحمله من قيم جماليّة ونفسيّة واجتماعيّة، فكذلك النّاثر أو الشّاعر عليه أن يختار الأصوات الّتي «تلفت قوّتها الانتباه، وتستحوذ بملامحها المميّزة على الأذهان، وتناسب مضمون النّصّ وتشحن معانيه، وتصبغه بتآلفها بصبغة جماليّة جذّابة؛ فتحمل بذلك كلّه ما يريد إيصاله على أتمّ حال فارضة سيادتها على المتلقّي.»[3] ويتمّ ذلك باختيار الكلمات الحاملة للأصوات، واختيار العلامات الدّالة على الظّواهر فوق مقطعيّة.

يتمثّل حسن التّأليف في البناء الهندسيّ للكلام (نطقا أو كتابة)، والتّشكيل الّذي يمكّنه من أداء الغرض، وإصابة المقصود، والهندسة والتّشكيل يعنيان «أصول التّأليف، وقواعده المقرّرة الّتي تعمل على التّنسيق بين اللّبنات، والمواءمة بين وحداتها، وتحديد مواقع كلّ منها، ودوره في البناء.»[4] ويتمّ ذلك –في نظر كمال بشر– بسبيلين[5]:

1- أن تكون المفردات صحيحة من النّاحية الصّوتيّة؛ أيّ الإتيان بها صحيحة من حيث المخارج والصّفات، والنّاحية الصّرفيّة؛ أيّ الوجه الصّحيح للمفردة من حيث الأوزان والتّصريف وغيرها

---

(1)- سرّ الفصاحة، أبو محمّد عبد الله بن محمّد بن سنان الخفاجيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1982م، ص: 64.

(2)- ينظر: ألفاظ الألوان ودلالتها عند العرب، إبراهيم محمود خليل، مجلّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، عمادة البحث العلميّ، الجامعة الأردنيّة، المجلّد: 33، العدد: 03، 2006م، ص: 443 .

(3)- التّحليل الصّوتيّ للنّصّ – بعض قصار سور القرآن الكريم أنموذجا –، الطّالب: مهدي عناد أحمد قبّها، أطروحة دكتوراه، إشراف: د. محمّد جواد النّوريّ، جامعة النّجاح الوطنيّة، نابلس، فلسطين، 2011م، ص: 25.

(4)- فنّ الكلام، كمال محمّد بشر، ص: 82.

(5)- ينظر: المرجع نفسه، ص: 82 – 83.

من وجوه القواعد الصّرفيّة، والنّاحيّة المعجميّة؛ أيّ من حيث اختيار المفردات الملائمة للمعنى، وذات الدّلالة الواضحة.

2- مراعاة حسن التّأليف للتّركيب، وتناسق الكلام من خلال مراعاة قواعد التّرابط بين الكلمات والمفردات.

إنّ الاهتمام بهذين الجانبين في التّأليف سواء تعلّق الأمر بما هو مكتوب، أو بما هو منطوق هو ما اعتبره علماء العربيّة القدماء فصاحة في الكلام، والّتي «تعلّمنا كيف ننتقي الألفاظ، ونختار التّراكيب لغاية؛ أن نبيّن أفكارنا تبيينا واضحا وسهلا، خلوا من التّعقيد والالتباس، مع المطابقة لمقتضى الحال.»[1] وهكذا يتمكّن منشئ النّصّ، أو المؤلّف الاستفادة من العناصر الصّوتيّة الموافقة للمقام، وتشكيلها في عبارات وجمل لتصبح تركيبا؛ له سمات صوتيّة قادرة على خلق جوّ موسيقيّ؛ يعبّر به عن المدلول المراد، فينشأ التّطابق في التّأليف بين اللّغة والأصوات.

تحمل النّصوص عوامل مؤثّرة تأثيرا إيجابيّا أو سلبيّا في الأصوات، وبالتّالي مؤثّرة في جودة النّصوص، منها عوامل داخليّة تتمثّل في الملامح التّمييزيّة للأصوات الّتي يتألّف منها النّص: كالجهر والتّفخيم والتّرقيق والاحتكاك والتّكرار... ومنها ما هو خارجيّ يتمثّل في الظّواهر فوق مقطعيّة المستعملة في النّصّ، واختيار الأصوات، والمقاطع الصّوتيّة وتنظيمها[2]، وإنّ الحديث عن إيجابيّة العوامل المؤثّرة وسلبيّتها ينطبق على النّصوص شفاهيّة كانت أو مكتوبة، ومدى تأثيرها أيضا على المتلقّي سلبا أو إيجابا؛ وبالتّالي يمكن أن تتّسم هذه النّصوص بالإبداع، وهو الّذي ينتج «من تشكّل مفردات اللّغة، وانضمام الأصوات بعضها إلى بعض، وبتآلفها يتمثّل الكلام، وتناسق هذا الكلام، وتآلفه من مهمّة تقارب الأصوات أو تباعدها أو في طبيعة تركيبها وتماسها، أو من تداخل مقاطعها وتضّامها.»[3]

أمّا فيما يخصّ القرآن الكريم فإنّ الظّاهرة تدخل في باب الإعجاز، فالتّأليف في كلام الله تعالى فيه من الجودة ما أوقف العرب وهم أصحاب بلاغة وفصاحة في حالة من الحيرة والاندهاش والعجز؛ لما احتواه من اختيار في الأصوات وما تحمله من صفات ومخارج مناسبة في موضعها، ومن انتقاء للألفاظ وما تحمله من دلالة مؤدّية للرّسالة السّماويّة، ومن تركيب وما يحمله من انسجام لتبليغ

(1)- الخواطر الحسان في المعاني والبيّان، جبر ضومط، طبعة التّأليف (الهلال)، مصر، د ط، 1896م، ص: 10.

(2)- ينظر: التّحليل الصّوتيّ للنّصّ، مهدي عناد أحمد قبّها، ص: 28 - 30.

(3)- أثر الصّوت في توجيه الدّلالة، ساجدة عبد الكريم، ص: 288.

الشّرائع والأحكام، ومن موسيقى وما تحمله من تأثير على النّفس البشريّة، وكلّ ذلك سواء عند تلقّيه أو دراسته يُظْهِرُ إعجازا ليدلّ دلالة يقينيّة أنّه وحي من السّماء، وأنّه منزّه على أن يكون كلام بشر.

إنّ نصوص القرآن الكريم ما إن تُسْمَعْ أو تُقْرَأْ، حتّى تستولي على الحواس، بما فيها من روعة في اللّغة، إضافة إلى موسيقاه اللّغويّة النّاتجة عن طبيعة الأصوات التّركيبيّة، والأصوات فوق المقطعيّة، وطبيعة المقاطع الصّوتيّة، والتّنظيم الّذي يحكم هذه الأصوات والمقاطع. ولقد أشار ابن جنيّ إلى ذلك بقوله: «ولأجل ما ذكرنا من اختلاف الأجراس في حروف المعجم باختلاف مقاطعها؛ الّتي هي أسباب تباين أصدائها ما شبّه بعضهم الحلق بالنّاي؛ فإنّ الصّوت يخرج فيه مستطيلا أملس ساذجا، كما يجري الصّوت في الألف غفلا بغير صنعه؛ فإذا وضع الزّامر أنامله خروق النّاي المنسوقة، وراوح بين عمله، اختلفت الأصوات، وسُمِعَ لكلّ خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصّوت في الحلق والفمّ باعتماد على جهات مختلفة؛ كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة.»[1] إنّ عمليّة النّفخ على المزمار تؤدّي إلى صدور أصوات موسيقيّة ذات نغمات متمايزة؛ تنتج عن اختلاف وضع الأصابع على ثقوب النّاي، وكلّ نفخة صادرة قد تكون كبيرة أو صغيرة مهما كانت قوّة النّفس؛ تنتج بحسب حجم الفراغ في النّاي، أيّ بحجم ثقوبه الكبيرة أو الصّغيرة، والأمر نفسه يحصل مع الصّوت الإنسانيّ الّذي تتلوّن نغماته بحسب درجات الصّوت، وشدّته ومدّته وارتفاعه أو انخفاضه.

2- دلالة المقطع في الخطاب القرآنيّ

أ – البنيّة المقطعيّة في القرآن الكريم:

نزل القرآن بلغة العرب ووفق أساليبهم وعلى طريقتهم في التّعبير عن أغراضهم ومقاصدهم، ونزل لقوم برعوا في البيان، فقد جاء يتحدّاهم في فصاحتهم وبلاغتهم؛ فانفرد بخصائص كثيرة جعلته يفوق الأساليب الأخرى سموّا وتفرّدا وفصاحة وبلاغة وبيانا، والتّحليل الصّوتيّ المقطعيّ هو تحدّ آخر أعجز العلماء، ووقف الإنسان أمامه مندهشا، لما فيه من انسجام الخطاب الصّوتيّ والموسيقيّ بين عباراته وحروفه ومقاطعه، وإسهامه في تحقيق الغرضين الدّينيّ والفنيّ فيه.

---

[1]- سرّ صناعة الإعراب، ابن جنيّ، ج 01، ص: 08 - 09 .

ولقد تمكّن علماء التّجويد عندما درسوا الأصوات من خلال اتّباع منهج شامل للمباحث الصّوتيّة من ربط العلاقة بين علم التّجويد بعلم اللّغة وعلم الأصوات، وقد شمل منهجهم أمورا عدّة منها[1]:

- معرفة مخارج الحروف.
- معرفة صفات الحروف.
- معرفة ما يتجدّد لها بسبب التّركيب من الأحكام.
- رياضة اللّسان بذلك وكثرة التّكرار.

النّاظر في الأمور الأربعة السّابقة يدرك أنّ هناك صلة وثيقة بين علم التّجويد وعلم الأصوات الحديث؛ فمن المعروف لدى العامّ والخاصّ أنّ القرآن الكريم نقل مشافهة من السّلف إلى الخلف، أيّ أُخِذَ بالتّلقّي بالدّربة وكثرة التّكرار، وسيظلّ كذلك، والقول أنّه أخذ بالتّلقّي بعد الاستماع الدّقيق لمخارج الحروف، ومعرفة الوقف والابتداء، والإدغام وغير ذلك من أحكام التّلاوة. ونحن نعيش اليوم عصر العلم والتّقدّم والتّطوّر، عصر انشغل فيه النّاس بأمور الدّنيا عن أمور الدّين، فلو طلب إلى أحد النّاس، والمتعلّمين خاصّة، أن يحضر درسا في علم التّجويد؛ ليتسنّى له قراءة القرآن الكريم بطريقة سليمة لرفض؛ واعتذر عن الحضور؛ ليس لأنّه لا يريد أن يقرأ بطريقة سليمة؛ بل لأنّ هذا العلم في نظر الكثيرين يعتبر صعبا، أو أنّه علم ينسى، أو أنّه علم تراثيّ ولّى عليه الزّمن، أو لأيّ سبب من الأسباب غير المقنعة.

يدعو الكثير من الغيورين على الوضع الّذي وصل إليه الفرد المسلم من نفور مرضيّ من القراءة القرآنيّة السّليمة إلى ضرورة تدخّل علماء اللّغة للتّعجيل بالحلول لإنقاذ الموقف، ومعالجة الدّاء الّذي استفحل في جسم الأمّة العربيّة والإسلاميّة، وذلك بوضع أسس لغويّة يمكن أن تبسّط القراءة، وتحسّن التّلاوة بصورة صحيحة، من خلال إمكانيّة تفادي الفرق بين ما تعلّمه الفرد من قواعد الإملاء في المدرسة، وبين ما لم يتعلّمه أو يعرفه عن الرّسم العثمانيّ المكتوب به المصحف الشّريف[2]،

---

[1]- الدّراسات الصّوتيّة عند علماء التّجويد، د. غانم قدّوريّ الحمد، دار عمّار، عمّان، ط1، 1434هـ - 2003م، ص: 57 وما بعدها.

[2]- يرى بعض العلماء أنّ رسم المصاحف اصطلاح واجتهاد من الصّحابة-رضي الله عنهم- لذا لا بدّ من التّيسير على العامّة ولا سيما النّاشئة في قراءة القرآن الكريم، ورفع الحرج عنهم؛ فالرّسم العثمانيّ قد يوقع النّاس في الخلط والالتباس، فتشقّ عليهم القراءة الصّحيحة؛ ففي رسم القرآن أثناء التّعلّم برسم الإملاء الحديث تسهيل عليهم. - ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، محمّد عبد العظيم الزّرقانيّ، المطبعة الفنّيّة، القاهرة، د ط، د ت، ج 01، ص: 177.

بحيث تكون عمليّة وسط بين قواعد الإملاء الحديث والرّسم العثمانيّ بكلّ ما فيه من علامات وإشارات للوقف والوصل والفصل وغير ذلك، لهذا لا بدّ من طريقة جدّ مبسّطة لتحسين عمليّة التّلاوة للقرآن الكريم في عصر امتلأ بالمتناقضات؛ عصر التّقدّم وعصر الماديّة الّتي شغلت عقول المسلمين في شتى أصقاع الأرض، وتحقيق هذا الهدف النّبيل يكون بـ:

ب – مراعاة استخدام النّظام المقطعيّ في التّلاوة:

هناك الكثير من الاختلافات بين الرّسم العثمانيّ –أيّ الخطّ الّذي كتب به القرآن الكريم– وقواعد الإملاء المتداولة؛ ممّا جعل الكثير من المتعلّمين الّذين لم يتعلّموا قواعد التّرتيل – مهما كان نوع درجة علمهم– لا يستطيعون القراءة في كتاب الله العزيز بصورة صحيحة؛ لأنّ الرّسم العثمانيّ فيه اختلافات عن قواعد الإملاء الحديث، ومن هذه الاختلافات:

أ – ألف المدّ:

من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾﴾ فصلت: ٤١ – ٤٢؛ فنلاحظ أنّ كلمة « ٱلۡبَٰطِلُ» قد يخطئ القارئ الّذي لا يعرف الفرق بينها وبين نظيرتها الّتي كتبت بحسب قواعد الإملاء الحديثة، ولكنّ المتمرّس والعارف لقواعد الرّسم العثمانيّ يدرك بأنّ هذه «ألف»، وهي الألف الصّغيرة الّتي وضعت فوق حرف الباء لتكون بذلك «الباطل» وليس «الْبَطَل» مثلا[1]. والامر نفسه ينطبق على كلمة « لَكِتَٰبٌ » فقط تُقرأ كُتُب لمن لا يدرك ألف المدّ الموضوعة بعد التّاء، والّتي تتطلّب مدّ الصّوب لتتبيّن للقارئ والسّامع أنّها صيغة مفرد وليست جمعا.

ب – حذف حروف وزيادة حروف:

هناك الكثير من الكلمات تحذف منها حروف؛ مثال قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ

[1]– المدّ في القراءة لبعض الحروف في القرآن الكريم؛ هو ظاهرة من ظواهر زيادة أحرفها، وكما قيل: إنّ زيادة المبنى تدلّ على زيادة المعنى، ويدلّ المدّ الزّائد على المدّ الأصليّ الطّبيعيّ حين التّلاوة على تفخيم هذه الكلمة وزيادة معناها. – ينظر: إعجاز رسم القرآن وإعجاز التّلاوة، محمّد شملول، تقديم: د. عليّ جمعة محمّد، دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة، القاهرة، ط1، 1427هـ– 2006م، ص: 200. (كتاب على شكل pdf للقراءة عبر شبكة الانترنيت، غير قابل للتّحميل.)

أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾ النّور: ٤ – ٦؛ فنلاحظ أنّ اسم الإشارة « ذَٰلِكَ » قد حذف منه حرف المدّ الألف «ذا» تبعا لقواعد الإملاء الحديث، والقارئ الّذي لا يعرف القاعدة وخاصّة من غير النّاطقين بالعربيّة لا يمكن إلاّ أن يخطئ في قراءة هذه المفردة، ومن أمثلة الحروف الّتي تحذف كلمة «وَأُوْلَٰٓئِكَ»، حيث حذف حرف المدّ «الألف» الّذي بعد اللاّم وغيرها. ومن أمثلة زيادة الحروف؛ زيادة حرف الألف في كلمة «شيء»، فقد وردت في القرآن الكريم « لِشَاْيۡءٍ » بشكلها غير العادي[1]، **قَالَ تَعَالَى:** ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾ الكهف: ٢٣.

لهذا فإنّ تعليم المتعلّمين في المدارس أو النّاطقين بغير العربيّة الكتابة المقطعيّة الصّوتيّة بحسب الوقف، والوصل، والإدغام، والإقلاب، والإظهار وغير ذلك من قواعد التّرتيل السّليم، بات أمرا ضروريّا، ثمّ وضع رمز لكلّ مقطع حسب نوعه؛ ممّا يؤدّي إلى تحقيق أهداف نبيلة أهمّها[2]:

- معرفة النّسيج المقطعيّ للسّور القرآنيّة، والكتابة الصّوتيّة تشبه إلى حدّ كبير ما يعرف في علم العروض بالكتابة العروضيّة؛ إذ نرى أنّ الكتابة المقطعيّة الصّوتيّة لا تختلف عن الكتابة العروضيّة، فالكتابة المقطعيّة الصّوتيّة تتّبع ما يلفظ بشكل سليم.
- مراعاة علامات الوقف والوصل والابتداء في القرآن الكريم، والكتابة العروضيّة والكتابة المقطعيّة أختان لفكرة واحدة وهي الكتابة بحسب اللّفظ.
- إعادة الاعتبار للقراءة القرآنيّة الصّحيحة والسّليمة سواء عند المتعلّمين المبتدئين النّاطقين باللّغة العربيّة أو غير النّاطقين بها.

ج – مواضع الوقف والوصل والفصل:

وهي كثيرة، ومن هذه الرّموز مثلا «صلى – قلى – ج – لا» فالقارئ العادي لا يعرف ماهيّتها وإلام ترمز؛ فتجده يصل في غير موضع الوصل، ويقف في غير موضع الوقف، ويوصل في غير موضع الوصل[1].

---

[1]– زيادة حرف الألف في كلمة « لِشَاْيۡءٍ » تنبيه لأمر عظيم، وهي أنّ مشيئة الله فوق كلّ مشيئة. – ينظر: المرجع نفسه، ص:138.

[2]– ينظر: كيف تجوّد القرآن العظيم، أوضح البيان في أحكام تلاوة القرآن، أ. محمّد محمود عبد الله، النّاشر: مكتبة القدسيّ للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط1، 1417هـ – 1996م، ص: 49.

د – الهمزة:

تكتب في الرّسم العثمانيّ، **قَالَ تَعَالَى:﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ٩﴾** البقرة: ٩؛ بحيث إنّ «ءَامَنُواْ» تساوي في القاعدة الحديثة «آمنوا» همزة مدّ، وعلى أيّة حال – وبرغم الاختلافات – فإنّ القرآن الكريم نقل بالتّواتر؛ أيّ: من شخص إلى آخر نقلا صوتيّا، وما الكتابة هذه إلاّ وعاء يحفظ للقارئ ذاكرته، ولكن لابدّ من العمل على تبسيط هذه العمليّة للمبتدئين ولغير النّاطقين بالعربيّة، أو لغير العارفين بقواعد الرّسم العثمانيّ في هذا العصر المشحون بالماديّات والتّكنولوجيّات والانشغالات الدّنيويّة.

يمكن استخدام النّظام المقطعيّ الصّوتيّ لكلّ مفردة من مفردات القرآن الكريم؛ حيث يساهم ذلك في تحسين عمليّة القراءة والتّلاوة للقرآن الكريم، **قَالَ تَعَالَى:﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ٢﴾** البقرة: ١ – ٢، وذلك من خلال كتابتها كتابة مقطعيّة:

1- أ / لف/ لام/ ميم والكتابة هنا بحسب الصّوت.

2- ذا /ل /كل /ك /تا /ب /لا /ري /ب /في /ـه /هـ /دل /لل /مت /ت /قين /

– لقد أُثْبِتَ صوتيّا الحرف الّذي حذف من اسم الإشارة « ذَٰلِكَ »؛ فأصبح «ذا».

– روعيت عمليّة دمج الحروف والكلمات بعضها ببعض؛ ففي كلمة (ٱلۡكِتَٰبُ) «اللاّم» لام قمريّة دمجت الكلمة فيما سبقتها، ولكن بقيت «اللاّم» كما هي؛ والّذي حذف منها عند اللّفظ والنّطق بها الهمزة في «اَل» فأصبحت بذلك «كل»، فـ«الكاف» في (ذَٰلِكَ)، و«اللاّم» في (ٱلۡكِتَٰبُ) أدمجتا، وعليه فإنّ الهمزة همزة الوصل في (ٱلۡكِتَٰبُ) تحذف في حالة دمج الكلمة بها. والهدف من ذلك:

أوّلا: تحسين تلاوة القرآن الكريم بالنّسبة للمبتدئين والمتعلّمين وغير النّاطقين باللّغة العربيّة، وكذلك غير العارفين بقواعد التّرتيل بمجرّد النّظر إلى كيفيّة تقطيع الكلمة إلى مقاطع صوتيّة، وذلك بحسب قراءة المقرئين المعتمدة بواسطة التّسجيلات.

ثانيا: معرفة النّسيج المقطعيّ والبنيّة الصّوتيّة الّتي بنيت عليها السّور القرآنيّة للوقوف على جماليّات التّشكيل الصّوتيّ للخطاب القرآنيّ.

---

(1)– ينظر: وقوف القرآن وأثرها في التّفسير: دراسة نظريّة مع تطبيق علميّ على الوقف اللاّزم والمتعانق والممنوع، د. مساعد ابن سليمان بن ناصر الطيّار، مجمع مكتبة الملك فهد الوطنيّة للنّشر، المملكة السّعوديّة، د ط، د ت، ص: 249.

إنّ مراعاة نظام المقاطع في القرآن الكريم اصطلح عليه علماء البيان بالتّناسب؛ أيّ: التّناسب بين المعاني وترتيب المقاطع؛ بحيث يؤدّي «ترتيب المقاطع وتوزيعها في نظم الآيات وظيفة جماليّة ودلاليّة في آن واحد؛ إذ يسهم من جهة في جعل الصّورة السّمعيّة لها متناسبة الأجزاء، معتدلة التّركيب، ويسهم من جهة ثانية مع العناصر الدّلاليّة الأخرى في التّعبير عن معاني الآيات، وإيضاح ما يكتنفها من الدّقائق الدّلاليّة، وذلك باختيار ما يناسب المعنى من أنواع تلك المقاطع.»[1] إذن فترتيب المقاطع وتوزيعها هو موافق للمعنى، وهو ما راعاه القرآن الكريم في توظيف المقاطع الصّوتيّة وتنويعها.

3- الكتابة المقطعيّة:

لقد أجمع اللّسانيّون على أنّ المستوى الصّوتيّ «يعدّ الأساس الأوّل أو العنصر الأوّل الّذي يجب أن يسبق غيره من العناصر في عمليّة التّناول.»[2] أيّ التّحليل والتّفسير، وبما أنّ «اللّغة الإنسانيّة أصوات منطوقة تنتجها آلة النّطق لدى الإنسان وتستقبلها أذن السّامع، فيفسّرها عقله في ضوء ما تعارف عليه أفراد جماعته اللّغويّة من دلالتها على المعاني؛»[3] كانت تلك الأصوات «تذهب وتضمحل ويختفي أثرها في الهواء قبل أن يهتدي الإنسان إلى وسائل لتسجيل أصوات اللّغة، فقد مرّت على البشريّة قرون كثيرة قبل اختراع الكتابة...»[4] فالكتابة نظام يحفظ كيان اللّغة، ويحمي أصواتها من التّغيير أو الاندثار، لذا تعتبر أهمّ وسيلة لتسجيل اللّغة، وعلى رغم دقّتها لكنّها تعجز عن تمثيل الأصوات تمثيلا تامّا[5]. ولعلّ هذا يعود إلى أنّ هناك بعض الحروف تكتب ولا تلفظ والعكس، كما أنّ بعض ظواهر النّطق المصاحبة لنطق أصوات الكلام كالنّبر والتّنغيم تعجز الكتابة عن التّعبير عنها.

وبما أنّ الرّسم العثمانيّ الذّي كتب به القرآن الكريم لا مجال البتّة التّغيير فيه؛ لأنّه يمثّل قاعدة غير قابلة للتّبديل وضعها العلماء المسلمون الأوائل؛ فإنّه يجب الالتزام بطريقة الأداء الّتي ورثوها عن المعلّم الأوّل؛ كما أقرأه عليه جبريل –عليه السّلام– لهذا على المسلمين في ماضيهم وحاضرهم

---

(1)- التّناسب البيانيّ في القرآن، دراسة في النّظم المعنويّ والصّوتيّ، د. أحمد أبو زيد، الطّبع: مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، المغرب، د ط، 1992م، ص: 321.

(2)- علم الأصوات العربيّة، محمّد جواد النّوري، ص: 12.

(3)- Phonetics (Penguin Language and Linguistics); J;D Oconnor; Perguin UK; June 1999; P: 257.

(4)- المدخل إلى علم أصوات العربيّة، د. غانم قدوريّ الحمد، دار عمّار، عمّان، ط1، 1425هـ - 2004م، ص: 20.

(5)- ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

ومستقبلهم ضرورة الالتزام التّام بالرّسم العثمانيّ على الرّغم من الاختلاف الموجود بين النّصّ القرآنيّ والكتابة العربيّة الّتي تعوّد النّاس عليها؛ ويبقى المصحف الشّريف ينسخ بها ويطبع مهما اشتكى البعض من صعوبة القراءة فيه، وإنّما هناك سبل للتّعرّف على رسمه باتّباع طريقة التّدرّج في تعلّمها وحفظها[1].

الثّابت للجميع أنّ هناك اختلافات بيّنة بين الكتابة العثمانيّة والكتابة الإملائيّة؛ بحيث يحتوي الرّسم العثمانيّ على علامات للوقف والتّلاوة والتّجويد الصّحيحة؛ والّتي يمكن استغلالها في الكتابة المقطعيّة، كما يمكن أن تسهّل عمليّة فهم الكتابة الواردة في النّصّ القرآنيّ، وتقوم الكتابة المقطعيّة على قواعد التّلاوة والتّجويد؛ الّتي وضعها الفقهاء والعلماء بتفكيك رموز الكتابة بالرّسم العثمانيّ؛ دون أن يشعر القارئ بحذف الحرف، أو إضافته، أو إدغامه، أو قلبه، أو غير ذلك من العلامات الّتي تميّزت بها الكتابة العربيّة للقرآن الكريم؛ والّتي لا تستعمل في أيّ كتابة عربيّة كالشّعر والنّثر. وللوصول إلى الكتابة المقطعيّة المتوافقة مع الكتابة بالرّسم العثمانيّ لا بدّ من مراعاة جملة من القواعد منها[2]:

- الاعتماد على ما ينطق أي على الصّوت، وليس على الكتابة الخطيّة في عمليّة التّقطيع.
- تفكيك الحرف المشدّد إلى حرفين الأوّل ساكن، والثّاني متحرّك، «رَبُّكَ» بعد التّفكيك تصبح: رَ/ بْ / بُ/ كَ.
- تثبيت الحروف الّتي تحذف من الكتابة[3]، وتنطق عند القراءة مثل الألف في اسم الإشارة «هَذَا» تصبح: هَ/ ا/ ذَا/.
- الاهتمام بأَل الشّمسيّة وأَل القمريّة من حيث الإثبات أو الحذف، **قَالَ تَعَالَى:** ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾ العلق: ١٥؛ بحيث تحذف «اَلْ» الشّمسيّة؛ فتصبح: نْ/ نَا/صِ/ يَ/ ةِ.

---

[1]- وهو ما أشار إليه البحث في عنصر تحسين كتابة المصاحف، والّتي تمثّل خطوة مبدئيّة لتسهيل قراءة القرآن الكريم، وحفظه من طرف المتعلّمين المبتدئين وغير العرب أيضا، ثمّ بعد ذلك لا بدّ من تعلّم ما يوافق الرّسم العثمانيّ قراءة وكتابة عندما يتمكّنون من نطق اللّغة العربيّة نطقا سليما صحيحا، والهدف من ذلك كلّه التّرغيب في حبّ اللّغة العربيّة، وتفادي ما يرهبهم منها، ويجعلهم ينفرون من تعلّمها وإتقانها.

[2]- ينظر: أساليب تدريس اللّغة العربيّة بين المهارة والصّعوبة، د. فهد خليل زايد، دار اليازوريّ العلميّة للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، د ط، 2006م، ص: 98.

[3]- تحذف الألف من بعض الكلمات القرآنيّة في الرّسم؛ لتوحي بوحدة الشّيء، أو قرب أجزائه، أو سرعته أو التصاقه، وتوحي بصفة التّمكين والاستمراريّة في الزّمان والمكان، والرّبط والالتصاق، وتوحي كذلك بقلّة الشّأن في بعض الأحيان، وهذه المعاني كلّها يحدّدها السّياق. - ينظر: رسم القرآن وإعجاز التّلاوة، محمّد شملول، ص: 64.

أو كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝٩﴾ الرّعد: ٩؛ تحذف الألف من «اَلْ» القمريّة؛ فتصبح: لْ/كَ/بِي/رُ – لْ/مُ/تْ/عَا/ل.

– تجزئة التّنوين بحيث يتمّ وضع نون ساكنة أثناء وصل القراءة، بينما في الوقف يتمّ وضع ألف، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥﴾ البقرة: ٣٥؛ فكلمة « رَغَدًا» عند الوصل؛ يصبح التّنوين نونا ساكنة / ر/ غ/ د ن/، وعند الوقف تصبح ألفا /ر/غ/داَ / الّذي يساوي المقطع المتوسّط المفتوح = ص ح ح، بينما عند الوصل يصبح الأخير / ر/غ/د ن/، وبذلك يساوي المقطع المتوسّط المغلق = ص ح ص.

– كتابة همزة المدّ في « ءَامَنُوٓاْ» تختلف عن الكتابة الإملائيّة «آمنوا»، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾ المائدة: ١، أيّ باستعمال المدّ فوق الألف والّتي هي همزة بعدها فتحة طويلة، وعليه يصبح الأوّل من الكلمة / أ ا / = ص ح ح مقطعا متوسّطا مفتوحا.

– هناك كلمات لها شكل خاصّ في النّصّ القرآنيّ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦١﴾ النّساء: ١٦١ مثل كلمة: « ٱلرِّبَوٰاْ » يتمّ تحويلها إلى الكتابة العربيّة المتداولة اليوم «اَ رْ رِ بَا»[1].

تعتمد الكتابة المقطعيّة – إذن – على الصّوت أيّ على ما ينطق، وليس على ما يكتب في آيات التّنزيل الحكيم من خلال تتبّع قراءة المجوّدين والمقرئين، وأن يكون للمتعلّم مهارة في السّمع ليتمكّن من تتبّعها بشكل جيّد وصحيح؛ لأنّها قراءات تتميّز بالدّقة أثناء التّلاوة.

[1]– وردت كلمة «الرّبوا» على هذا الشّكل في القرآن الكريم ثماني مرّات زائدة بحرف الواو، ووردت «ربا» مرّة واحدة بالشّكل الإملائيّ المتعارف عليه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ۝٣٩﴾ الرّوم: ٣٩. وقد جاءت كلمة « رِّبٗا » بهذا الشّكل لتلفت النّظر إلى خطورة استخدام الرّبا في معاملات النّاس. ينظر تفصيل مثل هذه الكلمات في كتاب رسم القرآن وإعجاز التّلاوة، محمّد شملول، ص: 151 وما بعدها.

المبحث الرّابع عشر: تجلّيات المقطع ودلالته في الخطاب القرآنيّ

إنّ دراسة المقطع بأشكاله – الّتي تحدّثنا عنها – تكون ذات فائدة في مجال التّعليم أثناء القراءة خاصّة؛ فهي عمليّة جدّ فعّالة في معرفة المعنى الّذي تحمله المقاطع بأنواعها وبالذّات أثناء قراءة القرآن الكريم، لهذا يرى الكثير من علماء اللّسانيّات التّطبيقيّة لو أنّ هذه الطّريقة تؤخذ بعين الاعتبار في تعليم المتعلّمين القراءة القرآنيّة السّليمة، والمؤدّية إلى الوقوف على دلالة الكلمة القرآنيّة من خلال معرفة مقاطعها، وما تحمله من معنى؛ فمن المقطع البسيط – مثلا – «يمكن أن نجد كلمات لغويّة ذات معنى أو ذات وظيفة ومعنى؛ ومن ذلك حروف الجرّ... كلّها ذات وظائف تؤدّيها في الجملة... وهي ذات أهميّة في تكوين الجملة العربيّة، أو في تأليف الكلام العربيّ.»[1] فكلمة مثل: «كَتَبَ» مكوّنة من ثلاثة مقاطع بسيطة: / ص ح / ص ح / ص ح / تعلّم القراءة الأولى؛ لهذا فإنّ المقطع يفيد في عمليّة التّعليم.

ولمّا كانت الكلمات تتكوّن من مقاطع متتابعة، ولكلّ مقطع سماته الصّوتيّة المميّزة؛ فإنّ ترتيب هذه المقاطع في الكلمات وتواليها على نسق معيّن، له أثر كبير في إحداث أنواع من الموسيقى الدّاخليّة المنبعثة من إيقاع المقاطع ونغمها، «واللّغة الّتي تقوم على مبدأ المقاطع الممدودة والمقصورة لغة إيقاعيّة أكثر كالعربيّة... وذلك لأنّ المقاطع الصّوتيّة ذات وزن مختلف يتراوح بين الثّقل والخفّة، فإذا تناسب الثّقل والخفّة؛ اندرج الإيقاع اللّذيذ فيها بيسر؛ لأنّه يجد الظّروف الملائمة لانبعاثه؛ فيضفي على العبارة مزيدا من الحسن.»[2] ويزداد التّعبير قدرة على التّأثير عندما تتناسب نغمات المقاطع، وإيقاعاتها مع الأفكار الّتي تعبّر عنها وتصوّرها، «فالمقاطع المقفلة تستغرق في نطقها زمنا أطول من الزّمن الّذي تستغرقه المقاطع المفتوحة، وتلائم مواقف الحزم والجزم والقوّة؛ أكثر من المقاطع المفتوحة، ولذلك كان استخدام المقاطع المقفلة يناسب لونا من التّعبير لا تؤدّيه المقاطع المفتوحة، وكذلك فإنّ المقاطع المفتوحة تناسب لونا آخر من التّعبير لا يتأتى مع المقاطع المقفلة.»[3] ويستخدم القرآن الكريم المقاطع الصّوتيّة بشكل يلائم المعاني؛ والّذي يمثّل لونا من ألوان الإعجاز القرآنيّ نكتشفه مع هذا التّناسق بين المقاطع ومعانيها.

---

(1)- المنهج الصّوتيّ للبنيّة العربيّة، عبد الصّبور شاهين، ص: 38.

(2)- نظريّة إيقاع الشّعر العربيّ، محمّد العياشيّ، المطبعة العصريّة، تونس، ص: 58، نقلا عن: التّناسب البيانيّ في القرآن، أحمد أبو زيد، ص: 314.

(3)- لغة القرآن الكريم في جزء عمّ، د. محمود أحمد نحله، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط1، 1981م، ص: 357.

نكتشف هذا التّوزيع للمقاطع الصّوتيّة، واستخدامها المتناسق، وترتيبها الّذي ينمّ عن إعجاز إلهيّ من خلال بعض النّصوص القرآنيّة الموضّحة لدلالة المقاطع المكوّنة منها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ۝٤﴾ البقرة: الآية: ٤. قبل أن نتطرّق إلى الكتابة المقطعيّة للآية، نقف على معناها من خلال تفسيرها، «قال ابن عبّاس: أيّ يصدّقون بما جئت به من الله، وما جاء به من قبلك من المرسلين؛ لا يفرّقون بينهم، ولا يجحدون ما جاؤوا به من ربّهم... وهي الصّفة اللاّئقة بالأمّة المسلمة؛ وارثة العقائد السّماويّة، ووارثة النّبوّات منذ فجر البشريّة، والآخرة... سمّيت بذلك لأنّها متأخّرة عن الدّنيا، وقد قيل للدّنيا دنيا لأنّها أدنى من الآخرة، والإيقان هو إتقان العلم بانتفاء الشّكّ والشّبهة عنه... ووصف الله أولئك المتّقين بالإيمان بالوحيّ، واليقين بالبعث والقيامة والجنّة والنّار والحساب والميزان والحشر، وكلّ ما أخبر الله ورسوله عن أمر الآخرة؛ فهم مصدّقون به، ومعتقدون بحصوله يدينون الله بالإيمان به.»[1] إنّ الموضوع الإجماليّ الّذي تحمله الآية الكريمة هو قضيّة الإيمان: الإيمان بما أنزل من قرآن كريم وكتب قبله، وهي وصف لحال المؤمنين الموقنين؛ الّذين لا يداخلهم الشّكّ البتّة في وقوع الآخرة.

الكتابة المقطعيّة للآية الكريمة:

و لْ / لَ/ ذ ي/ ن = ص ح ص / ص ح / ص ح ح/ ص ح.

ي ؤ/ م / ن و/ ن = ص ح ص / ص ح / ص ح ح/ ص ح.

ب / م ا = ص ح / ص ح ح.

أ ن / ز ل = ص ح ص/ ص ح / ص ح.

إ / ل ي / ك = ص ح / ص ح ص / ص ح.

و / م ا = ص ح / ص ح ح.

أ ن / ز / ل = ص ح ص / ص ح / ص ح.

م ن = ص ح ص.

ق ب / ل / ك = ص ح ص/ ص ح / ص ح.

و / ب ل / أ ا /خ / ر / ة = ص ح / ص ح ص/ ص ح ح/ ص ح / ص ح/ ص ح.

[1]- التّفسير المأمون على منهج التّنزيل والصّحيح المسنون، تفسير القرآن الكريم على منهاج الأصلين العظيمين الوحيين: القرآن والسّنّة الصّحيحة على فهم الصّحابة والتّابعين، تفسير منهجيّ فقهيّ شامل معاصر، د. مأمون حمّوش، وزارة الإعلام، دمشق، ط1، 1428هـ – 2007م، ج 01، ص: 108.

هـ م = ص ح ص.

ي و / ق / ن و ن = ص ح ح/ ص ح/ ص ح ح ص.

وعددها في الآية الكريمة:

احتوت الآية على خمسة وثلاثين مقطعا؛ موزّعة بالشّكل التّالي:

1- المقطع القصير = ص ح تسع عشرة مرّة.

2- المقطع المتوسّط المفتوح = ص ح ح ستّ مرّات.

3- المقطع المتوسّط المغلق = ص ح ص تسع مرّات.

4- المقطع الطّويل المفرد الإغلاق = ص ح ح ص مرّة واحدة.

5- المقطع الطّويل المزدوج الإغلاق = ص ح ص ص غير موجود.

6- المقطع المديد = ص ح ص ص غير موجود كذلك.

أوّل ما يلاحظ على التّقطيع هو كثرة عدد المقاطع القصيرة عن غيرها من الأنواع الأخرى، وهو ما تميل إليه اللّغة العربيّة في بنائها، وذلك أنّ المقطع القصير أكثر رشاقة وخفّة، ويبعد الملل والسّأم على المتلقّي أثناء الاستماع للتّلاوة، أمّا بالنّسبة للقارئ؛ فهي تعطيه راحة، وأخذ نفس أثناء القراءة؛ خاصّة مع السّور الطّويلة[1]. أمّا النّوع الرّابع فذكر مرّة واحدة والنّوع الخامس والسّادس لم يذكرا، وهو ما أقرّه إبراهيم أنيس عندما قال: «والنّوع الرّابع والخامس من المقاطع في اللّغة العربيّة محدودة الاستعمال لا نراه إلاّ متطرّفا، وفي بعض حالات الوقف، أمّا الأنواع الثّلاثة الأولى فهي الّتي يتكوّن منها نسج الكلمة العربيّة في الكلام المتّصل، وقد تقع تلك الأنواع الثّلاثة في أوّل الكلمة أو وسطها أو آخرها؛ فليس منها ما يختصّ بموضع ما من الكلمة.»[2] ويمكن التّأكّد من هذه الملاحظة العلميّة من خلال تقطيع عدد من الآيات الكريمات للسّور الطّويلة؛ الّتي تظهر كثرة المقاطع القصيرة عن غيرها من المقاطع، وهذا لا يعني انعدام بقيّة المقاطع؛ ولكنّها واردة بنسب متفاوتة، والقليلة منها هي المقاطع المديدة الّتي لا تناسب طول السّور.

ولقد جاء القرآن الكريم في سوره وآياته ليتوافق مع لغة العرب ولسانهم، إذن فتكرار المقطع القصير هو موافقة لنظام اللّغة العربيّة، وفي الوقت نفسه لا يشعر القارئ بأيّة صعوبة عند تلاوته. هذا

[1]- ينظر: الأنماط المقطعيّة في اللّغة العربيّة، عصام أبو سليم، ص: 194.

[2]- الأصوات اللّغويّة، ص: 94.

بالإضافة إلى أنّ السّور القرآنيّة الطّويلة تتميّز بكونها تحمل العديد من الشّرائع والأحكام والمعاملات[1].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾ الانشقاق: ٦، تحمل الآية القرآنيّة نداء للإنسان بأنّه «سيلقى ما عمل من خير أو شرّ... قال رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم-: قال جبريل: يا محمّد، عش ما شئت فإنّك ميّت، وأحبب ما شئت فإنّك مفارقه، واعمل ما شئت فإنّك ملاقيه... وقال قتادة: إنّ كدحك – يا ابن آدم– لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله؛ فليفعل، ولا قوّة إلاّ بالله.»[2] تؤكّد الآية القرآنيّة أنّ كدح الإنسان في حياته، هو كدح لربّه الكريم الّذي سيلقاه في الآخرة، والكدح هو السّعي الشّديد في الأمر، والدّأب في العمل، «قيل إنّ «إلى» هنا بمعنى اللاّم... والتّقدير: إنّك كادح لنفسك، صائر إلى ربّك؛ فملاقيه.»[3] إذن فعمل المرء في دنياه سيجده أمامه في الآخرة، يوم يحاسب الله تعالى عباده على كلّ صغيرة وكبيرة، والفوز لمن كدح كدحا من أجل فعل الخير، ونيل رضى الله –جلّ وعلا-.

الكتابة المقطعيّة للآية الكريمة:

ي ا / أ يْ / يُ / هـ ا ل = ص ح ح / ص ح ص / ص ح / ص ح ح ص.

إ ن / س ا / ن = ص ح ص / ص ح ح / ص ح.

إ ن / ن / ك = ص ح ص/ ص ح / ص ح.

ك ا / د / ح ن = ص ح ح / ص ح / ص ح ص.

إ / ل ى = ص ح / ص ح ح.

ر ب / ب / ك = ص ح ص / ص ح / ص ح.

ك د / ح ن = ص ح ص / ص ح ص.

ف / م / ل ا / ق ي هـ = ص ح / ص ح / ص ح ح / ص ح ح ص.

---

[1]- ينظر: تفسير التّحرير والتّنوير، الإمام محمّد الطّاهر بن عاشور، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، د ط، 1984، ج 01، ص: 206.

[2]- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشيّ الدّمشقيّ، تحقيق: سامي بن محمّد السّلامة، دار طيبة للنّشر والتّوزيع، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط2، 1420هـ – 1999م، ج 08، ص: 356.

[3]- مجمع البيّان في تفسير القرآن، الطّبرسيّ، ج 10، ص: 234.

عدد المقاطع الّتي تحملها الآية الكريمة أربعة وعشرون مقطعا؛ وعدد المقاطع المقفلة لا تزيد عن تسعة مقاطع، وأغلب المقاطع مفتوحة؛ متراوحة بين القصيرة والطّويلة والمديدة، وعند قراءة الآية نلاحظ أنّ المقاطع الطّويلة هي: «يا – سا –كا – لى - لا – قيه» تستغرق زمنا في النّطق مقارنة بالمقاطع الأخرى القصيرة، وهذا للدّلالة على الزّمن الّذي يستغرقه الإنسان في الكدح والجهد والتّحصيل(1)، ومهما طال هذا الزّمن فإنّ اليوم الّذي يلقى فيه الإنسان ربّه بعد عمر وعمل وكدّ؛ إنّه آت لا محالة؛ ملاق فيه ربّه ومحاسبه على كلّ شيء؛ إن كان خيرا نال الجزاء الحسن، وإن كان شرّا نال العقاب الوخيم، وقد أشار محمّد عبده إلى هذا المعنى قائلا: «يا أيّها الإنسان السّادر في غلوائه، الصّادر في عمله عن أهوائه، الغافل عن مصيره، الجائر عن جادّة الحقّ في مسيره، لا تظنّ أنّك خالد مقيم فيما أنت له جاهد، وأنّك إن آذيت الخلق، وازدريت الحقّ، واغتررت بالحول والقوّة، وسلّمت عنانك للشّهوة؛ ضمنت لنفسك التّمتّع بما تكسب، والبقاء فيما تتعب وتنصب. كلّا إنّك مجدّ في السّير إلى ربّك، وإن كنت لا تشعر بجدّك، أو إن شعرت لهوت عنه. وكلّ خطوة في عمرك؛ فهي في الحقيقة خطوة إلى أَجَلِكَ.»(2)

إنّ توظيف المقاطع المفتوحة والمديدة في الخطاب القرآنيّ له دلالات عديدة؛ بحيث يحمل معنى التّهديد بما ينتظر الإنسان يوم القيامة من حساب، أو التّنبيه عن الغفلة أيّ غفلة الإنسان عن عبادة ربّه، ممّا قد يؤدّي إلى الحسرة والنّدم ساعة لا ينفع النّدم، أو الدّعوة إلى الخير حتّى يعود إلى رشده، ويهتدي إلى الطّريق المسقيم، وفي الآية السّادسة من سورة الانشقاق المذكورة آنفا؛ تعبير من الخطاب القرآنيّ بالمقاطع الصّوتيّة المديدة المفتوحة؛ جمعت كلّ هذه المعاني معبّرة عنها أصدق تعبير؛ ويستدعي هذا النّوع من المقاطع مدّ الصّوت أثناء التّلاوة، «وهذا الامتداد في النّطق يناسب التّعبير عن الامتداد في الزّمن الّذي يستغرقه الإنسان في الكدح، والجدّ في الكسب،، وكأنّ المراد في استخدام المقاطع أن يشارك الإيقاع الصّوتيّ للآية في أداء المعنى، وبعث الإحساس لدى المخاطب؛ بأنّه مهما طال الزّمن، ومهما بذل من مجهود فلا بدّ من لقاء ربّه.»(3) هكذا يعبّر القرآن الكريم في خطابه للإنسان المؤمن وغير المؤمن عن المعاني بما يناسبها من مقاطع صوتيّة لها وقعها المؤثّر لذوي الألباب.

(1)- ينظر: لغة القرآن الكريم في جزء عمّ، محمود أحمد نحله، ص: 359.

(2)- تفسير القرآن الكريم، جزء عمّ، الشّيخ محمّد عبده، الجمعيّة الخيريّة المصريّة، مطبعة مصر، شركة مساهمة مصريّة، ط3، 1341هـ، ص:51.

(3)- التّناسب البيانيّ في القرآن، أحمد أو زيد، ص: 359.

ونلاحظ كذلك وجود مقطعين مقفلين وسط المقاطع المفتوحة وهما:«ك د/ح ن»؛ لترديد الصّدى الصّوتيّ للّفظة «كادح»، ولبيان شدّة المجهود المبذول من طرف الإنسان في دنياه، «واختيار اللّفظ المناسب... حقل يانع في القرآن لا للدّلالة الصّوتيّة فحسب؛ بل لجملة من الدّلالات الإيحائيّة واللّغويّة والهامشيّة، وتلك ميزة القرآن الكريم في تخيّر الألفاظ.»[1] وكلّ ذلك يدرج ضمن الإعجاز القرآنيّ.

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ القارعة: ١ – ٣، يقصد بها السّاعة الّتي تقرع قلوب النّاس بأهوالها، أيّ شيء هذه القارعة؟ وأيّ شيء أعلمك بها؟ «قال الجمهور: القارعة: القيامة نفسها؛ لأنّه تفزع القلوب بهولها... وتقرع الأسماع... وقرئت بالرّفع، فـ «ما» استفهام؛ فيه معنى الاستعظام والتّعجّب.... وقال الزّجاج: هو تحذير، والعرب تحذّر وتغري بالرّفع كالنّصب؛»[2] فالقارعة أمر عظيم وفظيع ومهوّل؛ لا يمكن لخيال المرء إدراكه، ولا يبلغه فكره؛ نظرا لعظمتها الّتي يستحيل معها وصفها. «قال القاسميّ: تأكيد لهولها وفظاعتها؛ ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق على معنى أنّ عِظَمَ شأنها ومدى شدّتها؛ بحيث لا تكاد تناله دراية أحد؛ حتّى يدريك بها.»[3] وإذا ما أردنا ربط هذا المعنى الّذي تحمله الآيات الكريمات؛ بما يتناسب والمقاطع المكوّنة لها؛ نكتبها أوّلا كتابة مقطعيّة؛ وتكون كالتّالي:

ا لْ / قا / ر / ع / ة / = ص ح ص / ص ح ح / ص ح / ص ح / ص ح.

م ل / قا / ر / ع / ة / = ص ح ص / ص ح ح / ص ح / ص ح / ص ح.

و / ما/ أد / را / ك / م ل / قا / ر / ع / ة / = ص ح / ص ح ح / ص ح ص / ص ح ح / ص ح / ص ح ص / ص ح ح / ص ح / ص ح / ص ح.

إنّ عدد المقاطع المكوّنة للآيات؛ هي: عشرون مقطعا؛ أغلبها مفتوحة سواء القصيرة أو الطّويلة، وتعدادها ستة عشر مقطعا، والباقي أربعة مقاطع مقفلة، وهي: **/ ا ل / م ل / أ د / م**

[1]- الصّوت اللّغويّ في القرآن، د. محمّد حسين عليّ الصّغير، دار المؤرّخ العرب، بيروت، ط1، 1429هـ – 2000م، ص:192.

[2]-تفسير البحر المحيط، محمّد بن يوسف الشّهير بأبي حيّان الأندلسيّ، دراسة وتحقيق وتعليق: الشّيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشّيخ عليّ محمّد معوّض، قرظه: د. عبد الحيّ القرماديّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ – 1993م، ج 08، ص: 503.

[3]- تفسير المأمون، مأمون حمّوش، ج 08، ص: 534.

ل/، فإنّ كثرة المقاطع المفتوحة مدعاة إلى التّأمّل في هول هذا اليوم، وتصوّر مدى ما يحمله من فزع وهلع[1]؛ فالمجال مفتوح أمام الإنسان لتخيّل هذا اليوم الموعود؛ إن استطاع فكره وخياله من رسم صورته، ويزيد من هوله، وضرورة الخوف منه والتّحضير له؛ تكرار صوت القاف والعين في الآيات، وجرسهما القويّ على الأسماع لما يمتازان به من الجهر والشّدّة، «فاختيار كلمة تحوي القاف والعين، وهما حرفان قويّان في المخرج والصّفة، وتكرار الكلمة ثلاث مرّات فيه دلالة تضاف إلى المدلول المعنويّ المستفاد من الوظيفة اللّغويّة للكلمة.»[2] وكذا تكرار أداء صوت الرّاء فيه إيحاء إلى معنى الهول.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١﴾ الفلق: ١. يستهل المولى -عزّ وجلّ- الآية الكريمة بأمر نبيّه -صلّى الله عليه وسلّم- «والمراد جميع أمّته، ومعناه قل يا محمّد اعتصم وامتنع بربّ الصّبح، وخالقه ومدبّره ومطلعه متى شاء؛ على ما يرى من الصّلاح فيه «من شرّ ما خلق» من الجنّ والإنس وسائر الحيوانات، وإنّما سمّي الصّبح فلقا لانغلاق عموده بالضّياء من الظّلام.»[3] والعوذ هو «الالتجاء إلى الشّيء، ثمّ يُحْمَل عليه كلّ شيء لصق أو لازمه، قال الخليل: تقول أعوذ بالله — جلّ ثناؤه — أيّ ألجأ إليه تبارك وتعالى.»[4] إنّ الآية الكريمة فيها أمر من الله تعالى للرّسول الكريم -صلّى الله عليه وسلّم- وأمّته أن يلتجئوا إليه تبارك وتعالى؛ خالق الصّبح ومطلعه، وذلك من كلّ شيء خلقه.

الكتابة المقطعيّة للآية الكريمة:

ق ل = ص ح ص.

أ / ع و / ذ = ص ح / ص ح ح / ص ح.

ب / ر ب / ب ل / ف / ل ق = ص ح / ص ح ص / ص ح ص / ص ح / ص ح ص.

---

(1)- ويتوهّم من لديه معرفة قليلة أنّ القرآن قد خالف بذلك الفصاحة في اختيار كلمات احتوت على حروف متكرّرة، وهو غافل عن إدراك أهميّة ذلك في إحداث التّوافق بين الإيقاع والمعنى. — جماليّة الخطاب في النّصّ القرآنيّ: قراءة تحليليّة في مظاهر الرّؤية وآليّات التّكوين، د. لطفيّ فكريّ محمّد الجودى، مؤسّسة المختار للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط1، 1435هـ — 2014م، ص:176.

(2)- ينظر: خصائص الحروف العربيّة ومعانيها: حسن عبّاس، ص: 142.

(3)- مجمع البيّان في تفسير القرآن، الطّبرسيّ، ج 10، ص: 378.

(4)- معجم مقاييس اللّغة، ابن فارس، ج 04، ص: 174.

تبدأ الآية الكريمة بصوت «القاف» الّذي يمتاز بالجهر والشّدّة، وجمعها لهاتين الصّفتين اللّتين تحملهما؛ تدلّ على الدّعوة بطلب الإعاذة، وذلك بصوت قويّ ونبر عال، وعلى العباد أن يمتثلوا للأمر، ويقولوه جهرا[1]، وبيقين أنّ الله تعالى يحفظهم من كلّ شرّ، ويحميهم من كلّ أذى.

ويلي صوت «القاف» صوت «اللّام» السّاكن، وفي سكونها بروز شديد للصّوت، يشعر بسكون النّفس، وراحتها وهدوئها الّذي يتحقّق بعد التّلفّظ بالإعاذة؛ فالنّفس في مناجاة ربّها ودعائها تهدأ، وتشعر بالرّاحة والاطمئنان من وحشة اللّيل وظلمته؛ فهي تحتاج إلى من يهدّئ من روعها، ويرفع عنها العذاب والرّعب، وما تعانيه وتقاسيه من قلق وخوف وألم، وكأنّها قد هيئت واستعدّت لتقبّل أمر الله – جلّ جلاله – وهو الاستعاذة من كلّ ما خلق[2].

إنّ ما قد يشعر به المسلم من خوف؛ يزول بمجرّد التجائه إلى الله؛ لهذا نلاحظ أنّ «قل» المؤلّفة من: /ص ح ص/ أيّ مقطع متوسّط مغلق؛ للدّلالة على ما يشعر به الإنسان من عدم اطمئنان؛ ليأتي السّكون والرّاحة من خلال كلمة «أعوذ» المكوّنة من: /ص ح / ص ح ح / ص ح/، وهي مقاطع متنوّعة قصيرة وطويلة كلّها مفتوحة، وذلك للدّلالة على لحظة الفرج الّتي سيعيشها المرء عندما يستنجد بالله تعالى بقلب منيب، وتأتي بعدها عبارة «بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ»[3] المكوّنة من: /ص ح / ص ح ص / ص ح ص / ص ح / ص ح ص /، و«تعليق العياذ باسم الرّبّ المضاف إلى الفلق المُنْبِئِ عن النّور عقيب الظّلمة، والسّعة بعد الضّيق، والفتق بعد الرّتق عُدّة كريمة؛ بإعاذة العائذ ممّا يعوذ منه، وإلجائه منه وتقويّة لرجائه بتذكير بعض نظائره، ومزيد ترغيب له في الجدّ والاعتناء بقرع باب الالتجاء إليه –عزّ وجلّ–.»[4]

إنّ هذا التّنوّع في المقاطع الصّوتيّة بين المنغلقة والمنفتحة ليس اعتباطا، فالفلق الّذي هو «الصّبح ، واللّيل شُبِّهَ بشيء مغلق ينفلق عن الصّبح، وحقيقة الفلق: الانشقاق عن باطن شيء،

(1)- ينظر: خصائص الحروف العربيّة ومعانيها، حسن عبّاس، ص: 142.

(2)- ينظر: تفسير القرآن، الإمام أبو المظفّر السّمعانيّ، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار الوطن، الرّياض، ط1، 1418هـ – 1997م، ج 06، ص: 307.

(3)- الفلق يؤدّي معنى النّور من الوجهة الذّهنيّة؛ ثمّ يتّسق مع الجوّ العامّ من الوجهة التّصويريّة، وهو مرحلة قبل سطوع النّور؛ تجمع بين النّور والظّلمة، ولها جوّها الغامض المسحور. – التّصوير الفنيّ في القرآن، سيّد قطب، ص: 116.

(4)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، العلامة أبو الفضل السّيّد محمد الآلوسيّ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ط 04، د ت،ج 30، ص: 279 - 280.

واستعير لظهور الصّبح بعد ظلمة اللّيل، وهذا مثل استعارة الإخراج لظهور النّور بعد الظّلام.»[1] وذلك للدّلالة على الحالة النّفسيّة الّتي يكون عليها المسلم، فقد يعيش الخوف ثمّ الأمن، وقد يحسّ بالقلق ثمّ الاطمئنان، وقد يكون في الظّلام فيأتي النّور، فهي حالات نفسيّة يعيشها بين انغلاق وضع وصعوبته؛ فيه خوف وقلق وظلمة، إلى انفتاح وضع وسهولته؛ فيه اطمئنان وأمن ونور. لهذا نلاحظ أنّ المقاطع الصّوتيّة في الآية الكريمة تبدأ بالانغلاق، وتنتهي بالانفتاح.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣﴾ الفجر: ١٣. ومعنى الآية أنّ الّذين طغوا في البلاد وأفسدوا؛ سلّط عليهم الله تعالى عذابا شديدا. «ويقال: صبّ عليه السّوط، وغشاه وقنعه، واستعمل الصّبّ لاقتضائه السّرعة في النّزول على المضروب، قال:

**فَصَبَّ عَلَيْهِمْ مُحْصِرَاتٍ كَأَنَّهَا		شَآبِيبَ لَيْسَتْ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَطْرٍ**

فخصّ السّوط؛ فاستعير للعذاب؛ لأنّه يقتضي من التّكرار والتّرداد ما لا يقتضيه السّيف ولا غيره، وذكر السّوط إشارة إلى أنّ ما أحلّه بهم في الدّنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعدّ لهم في الآخرة كالسّوط إذا قيس إلى سائل ما يعذّب به.»[2] ولنتأمّل المقاطع الّتي تتكوّن منها الآية الكريمة؛ لمعرفة ما إذا كانت تتلاءم مع وصف هذا العذاب العظيم على الظّالمين الطّاغين في الأرض، وذلك من خلال كتابة كتابةً عروضيّة:

ف / ص ب / ب / ع / ل ي / هـ م / ر ب / ب / ك / س و / ط / ع / ذ ا / ب ن = ص ح / ص ح ص/ ص ح / ص ح / ص ح ص / ص ح ص / ص ح ص / ص ح ص / ص ح / ص ح / ص ح ص / ص ح / ص ح / ص ح ح / ص ح ص.

ما يلاحظ على هذه الآية وجود هذه المقاطع المقفلة المتمثّلة في: / ص ب / ل ي / هـ م / ر ب / س و / ب ن / متخلّلة المقاطع المفتوحة؛ للدّلالة على الحزم والصّرامة في العذاب المنصبّ على أعداء الله تعالى؛ بواسطة السّوط دون غيره؛ لأنّ العقوبة به فيها تكرار تتخلّله من فترة إلى أخرى توقّف قد يقصر أو يطول، ولأنّ الضّرب بالسّياط أشدّ أنواع العذاب؛ أيّ مبلغ النّهاية في التّعذيب حتّى الموت[3]؛ لهذا تلاءمت المقاطع المقفلة مع ما يوجد خلالها من مقاطع مفتوحة هذا المعنى الوارد في الآية الكريمة. ويمكن الإشارة هنا إلى ما في صوت الصّاد من فخامة؛ مضاف إليه صوت السّين

---

(1)- تفسير التّحرير والتّنوير، ابن عاشور، ج 30، ص: 626.

(2)- تفسير البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسيّ، ج 08، ص: 465 .

(3)- ينظر: تفسير القرآن، السّمعانيّ، ج 06، ص: 220.

الّذي يؤدّى في هذا الموضع مفخما، وأثناء نطقهما يحدث إطباق للدّلالة على العذاب المطبق على الظّالمين الكافرين الجاحدين. وقال تعالى:﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١﴾ النّازعات: ١.

الكتابة المقطعيّة للآية الكريمة:

و: ص ح مقطع قصير مفتوح.

نا ز: ص ح ح / ص ح / = مقطع متوسّط مفتوح + مقطع قصير مفتوح .

عا ت: ص ح ح / ص ح / = مقطع متوسّط مفتوح + مقطع قصير مفتوح.

غ ر: ص ح + ص = مقطع متوسّط مغلق.

ق ن : ص ح + ص = مقطع متوسّط مغلق.

تنوّعت مقاطع الآية الكريمة بين المفتوح والمغلق ليتناسب مع المعنى المراد، ففي الآية نقل لصورة حسيّة تظهر ما يكابده الكفّار من معاناة أثناء قبض الملائكة لأرواحها؛ جاء في تفسير القرطبيّ قوله: «والنّازعات: الملائكة الّتي تنزع أرواح الكفّار، قال ابن مسعود: هي الملائكة تنزع نفوس بني آدم، يريد أنفس الكفّار ينزعها ملك الموت من أجسادهم؛ من تحت كلّ شعرة، ومن تحت الأظافر وأصول القدمين؛ نزعا كالسّفّود ينزع من الصّوف الرّطب، ثمّ يغرقها، أيّ: يرجعها في أجسادهم، ثمّ يَنْزِعُها، فهذا عمله بالكفّار.»[1] وهذه المعاناة الّتي يعيشها الكفّار من ملك الموت؛ أردفت بكلمة غرقا الّتي بدأت بصوت الغين، والّذي يقول عنه حسن عبّاس: «إنّ صوت الغين يوحي إلى غرغرة الموت والامّحاء؛ فصوته عندما يخرج من فوّهة الحلق؛ إنّما يخرج مخرّبا ممحو الألوان، مجلببا بالسّواد، وهكذا نسمع صوت هذا الحرف مثلما نرى اللّيل المظلم البهيم؛»[2] فالمعاناة معاناة مع الموت الّتي يعيشها الكافر مرارا وتكرارا، لذا اِتُّبِعَ صوت الغين الموحي بالموت بصوت الرّاء الّذي «يتّصف بخاصيّة التّحرّك والتّرجيع والتّكرار.»[3] ذلك أنّ عمليّة نزع الرّوح تتكرّر، ويصفها البيضاويّ

---

[1]- الجامع لأحكام القرآن، ج 22، ص: 37.

[2]- خصائص الحروف العربيّة، ص: 126.

[3]- إنّ حاجة اللّغة العربيّة إلى حرف الرّاء لا تقلّ عن حاجة الجسد للمفاصل؛ فلولا صوت الرّاء لفقدت لغتنا الكثير من مرونتها وحيويتها وقدرتها الحركيّة، ولفقدت بالتّالي الكثير من رشاقتها ومن مقوّمات ذوقها الأدبيّ الرّفيع.فكما أنّ مفاصل الجسد تساعد أعضاءه على التّحرّك بمرونة في كلّ الاتّجاهات، وعلى تكرار الحركة المرّة بعد المرّة، فإنّ حرف الرّاء يتمفصل صوته، وبرشاقة طرف اللّسان في أدائه، قد قدّم للعربيّ الصّور الصّوتيّة المماثلة المرئيّة الّتي فيها ترجيع وتكرار، وتأرجح ذات اليمين وذات الشّمال، وذلك حذوا بمسموع الأصوات على محسوس الأحداث؛ كما قال ابن جنيّ: فليس هناك لأيّ حرف في الدّنيا يستطيع صوته أن يؤدّي بعض الوظائف؛ فهو من المقوّمات الأساسيّة للّغة العربيّة؛ لا بل أحسب أنّ ثمّة لغة يمكن أن تخلو منه. ولعلّ الفرنسيين قد انتبهوا

أنّها إغراق في النّزع[1]، واتُّبِعَ صوت الرّاء بصوت القاف: «وهو شديد يأتي للمفاجأة وللمقاومة، وكلا الوصفين يفضي إلى القساوة والصّلابة والشّدّة.»[2] وعلى رغم ما يفضي إليه من قوّة إلاّ أنّه في آخر اللّفظ يقلّ تأثيره ذلك لأنّه في هذا الموقع يُتَلَفَّظ منخفضا[3].

إنّ الأصوات الثّلاثة المتوالية بخصائصها: الموت والامّحاء، التّكرار والتّرجيع، المفاجأة والمقاومة الّتي تضعف في نهاية المطاف، هي ما أضفته على الآية الكريمة من دلالات، إضافة إلى تنوّعها في مقاطعها الصّوتيّة الّتي بدأت بالانفتاح وانتهت بالانغلاق، فهي حالة مصيريّة حتميّة تنتظر كلّ كافر ومشرك بالله تعالى.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ القصص: ١١، طلبت أمّ موسى من ابنتها أن تتبّع أخبار الرّضيع الّذي وضعته في اليم؛ طمعا في التّعرّف على حاله، خاصّة بعد أن أصبح فؤادها فارغا فزعا من شدّة الخطب الّذي حلّ بها، خاصّة عندما علمت أنّه وقع بين أيدي أهل فرعون[4]. في خطاب أمّ موسى نجد كلمة «قُصِّيهِۖ»؛ فالبوقف عليها وهو ما يقتضيه المعنى لأنّه نهاية كلامها[5]؛ نجدها تتكوّن من مقطعين هما:

قُصْ = / ص ح ص /

صِيهْ = / ص ح ح ص /

الملاحظ على المقطعين أنّهما مقفلان، الأوّل متوسّط، والثّاني طويل؛ بحيث يصوّران قوّة هذه الكملة وصرّامتها؛ فالكلمة صادرة عن أمّ «خافت على ولدها؛ حتّى طرحته في اليمّ رجاء نجاته من الذّبح، هذا مع الوحي إليها أنّ الله يردّه إليها ويجعله رسولا؛ ومع ذلك طاش لبّها، وغلب عليها ما

إلى وظيفة حرف الرّاء في التّرجيع والتّكرار؛ فجعلوا مقطع re الملحق في أوّل الأفعال للعودة والتّكرار. – خصائص الحروف العربيّة، حسن عبّاس، ص: 28 و84.

(1)– ينظر: أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل المعروف بتفسير البيضاويّ، ناصر الدّين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمّد الشّيرازيّ الشّافعيّ، إعداد وتقديم: محمّد عبد الرّحمن المرعشليّ، دار إحياء التّراث العربيّ، مؤسّسة التّاريخ العربيّ للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط1، د ت، ج 05، ص: 282.

(2)– خصائص الحروف العربيّة، حسن عبّاس، ص: 144.

(3)– ينظر: المرجع نفسه، ص: 146.

(4)– ينظر: تفسير البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسيّ، ج 07، ص: 102.

(5)– وُضِعَتْ عليها علامة "صلى"، وهي علامة وقف مثبتة في المصحف الشّريف للدّلالة على الوقف الجائز.

يغلب على البشر عند مفاجأة الخطب العظيم؛»[1] لحظة خوفها على موسى – عليه السّلام – الّذي أخذته الأمواج؛ أمرت أخته بقولها: «قُصِّيهِۖ»، أيّ: «هل تسمعين له ذكرا، أحيّ ابني أم أكلته دواب البحر؟»[2] وفي طول المقطع الثّاني؛ ينتهي معه النّفس؛ ما يصوّر حال أمّ موسى، وخوفها على ابنها؛ لأنّ الظّاهر أنّ هذا القول قد وقع منها بعد أن أصبح فؤادها فارغا[3].

كما أنّه يصوّر ضيق الوقت مع خطورة الأمر وحساسيّته فلا مجال للإطلاق ومدّ الصوت؛ بل الموقف يقتضي الاختصار، وخفض الصّوت، ذلك أنّ «المقاطع المقفلة تستغرق في نطقها زمنا أقلّ من الزّمن الّذي تستغرقه المقاطع المفتوحة، ومن هنا كان استخدام المقاطع المقفلة يناسب لونا من التّعبير؛ لا تؤدّيه المقاطع المفتوحة، والعكس صحيح.»[4] وهذا ما أدّاه المقطعان المقفلان، وفي ختام المقطع الطّويل الحاسم بالهاء؛ ما يصوّر الحالة الّتي كانت عليها أمّ موسى – عليه السّلام –؛ فكأنّه تنفيس لما في صدرها وفؤادها الّذي أصبح فارغا.

والقرآن الكريم الّذي نزل بلغة العرب؛ «قد استخدم المقاطع المقفلة الّتي تنتهي بالسّكون الحيّ الجازم في مقامات الجدّ والصّرامة والحسم، وفي تصوير الانفعالات الحادّة، والحركات العنيفة، وسرعة الأحداث.»[5] ويرى محمّد نحلة أنّ اللّغة العربيّة تميل إلى استخدام المقاطع المقفلة؛ يقول في هذا الصّدد: «اللّغة العربيّة –كغيرها من اللّغات– تتركّب فيها الكلمات من مقاطع، وإن كانت أميل إلى المقاطع المقفلة، ويقلّ فيها توالي المقاطع المفتوحة، وبخاصّة حين تشتمل على صوائت قصيرة.»[6] وقد وقد تنبّه علماء الأصوات أنّ المقاطع المقفلة في القرآن الكريم تدلّ على القوّة والصّرامة وسرعة الزّمن.

يمكن التّمثيل لذلك بما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ۝٣٢﴾ يوسف: ٣٢، أوجدت زوجة العزيز لنفسها عذرا عندما أكبرت النّسوة جمال يوسف – عليه السّلام – لما

(1)– تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسيّ، ج 07، ص: 102.

(2)– تفسير الطّبريّ من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، هذّبه وحقّقه وضبط نصّه وعلّق عليه: د. بشّار عوّاد معروف، وعصام فارس الحرستانيّ، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط1، 1415هـ – 1994م، المجلّد: 18، ص: 147.

(3)– ينظر: روح المعاني، الآلوسيّ، ج 20، ص: 50.

(4)– دراسات قرآنيّة في جزء عمّ، محمود نحلة، ص: 171.

(5)– التّناسب البيانيّ في القرآن، أحمد أبو زيد، ص: 321.

(6)– دراسات قرآنيّة في جزء عمّ، محمود نحلة، ص: 169.

ظهر أمامهنّ؛ لدرجة أنّهنّ وصفنه بالملاك؛ لترفع عنها ما عيّرنها به؛ لكونها كانت شديدة الشّغف به، «فأقرّت بذلك وصرّحت بما وقع منها من المراودة له، ولكن استعفّ وامتنع ممّا أريده طالبا لعصمة نفسه عن ذلك؛ ثمّ توعّدته إن لم يفعل ما تريده كاشفة لجلباب الحياء، هاتكة لسرّ العفاف لئن لن يفعل ما قد أمرته فيما تقدّم ذكره؛ يعتقل في السّجن ويكون من الأذلاء لما يناله من الإهانة.» [1]

أمام هذا الإغراء وظفّت امرأة العزيز كلمتين تدلاّن على الشّدّة والصّلابة؛ وهما قولها: «فَٱسۡتَعۡصَمَ - لَّمۡ يَفۡعَلۡ»، وتقرأ الآية الكريمة بوقف جائز على «فَٱسۡتَعۡصَمَ» أيّ: فَاسْتَعْصَمْ، وتحديد مقاطعها يكون بإثبات المنطوق دون المكتوب:

فَاسْتَعْصَمْ = / فَ سْ / تَ عْ / صَ مْ /

/ ص ح ص / ص ح ص / ص ح ص /

لَمْ يَفْعَلْ = / لَ مْ / يَ فْ / عَ لْ /

/ ص ح ص / ص ح ص / ص ح ص /

أوّل ما يلاحظ على المقاطع الّتي تكوّنت منها الكلمات: «فَاسْتَعْصَمْ –لَمْ يَفْعَلْ»؛ أنّها مقاطع قصيرة ومقفلة؛ «فَاسْتَعْصَمْ» بيّنت من خلالها زوجة العزيز صرامة يوسف – عليه السّلام – وتمنّعه، وهو فعل مزيد بهمزة الوصل والسّين والتّاء، وأصله «عَصَمَ»، ومادّة «العين والصّاد والميم» معناها في معجم مقاييس اللّغة: «أصل واحد يدلّ على إمساك ومنع وملازمة، والمعنى في ذلك كلّه واحد، من ذلك العصمة: أن يعصم الله تعالى عبده من سوء يقع فيه، واعتصم العبد بالله تعالى، إذا امتنع. واستعصم: التجأ. وتقول العرب: أعصمت فلانا، أيّ: هيّأت له شيئا يعتصم بما نالته يده، أيّ يلتجئ ويتمسّك به.»[2] من خلال هذا التّعريف المعجميّ نستخلص دلالتين لكلمة «عَصَمَ» وهما: القوّة والتّقوى، الأولى ظهرت في التّمنّع، والثّانية في توخي عدم الوقوع في السّوء.

وعلى الرّغم من أنّ المفسّرين اختلفوا كثيرا فيما تفيده كلمة استعصم؛ فبعضهم رأى أنّها تفيد الطّلب، أيّ: طلب الاعتصام[3]، لأنّ النّحويّين يرون أنّ همزة الوصل والسّين والتّاء الّتي تسبق الفعل

[1]- فتح القدير، الشّوكانيّ، ج 03، ص: 23.

[2]- ابن فارس، ج 04، مادّة: عصم.

[3]- الاستعصام: التّحفّظ الشّديد؛ كأنّه في عصمة، وهو يجتهد في الاستزادة منها، ونحوه: استمسك واستوسع الفتق، واستجمع الرّأي، واستفحل الخطب. - الكشّاف، الزّمخشريّ، ج 03، ص: 281 .

تفيد الطّلب، أو أنّها تفيد مبالغة في عصم نفسه من الوقوع في الخطيئة[1]، فإنّ اللّفظة الصّادرة عن امرأة العزيز لها جانبان: الأوّل تبرئة ذمّة يوسف – عليه السّلام –، والثّاني: شدّة إصرارها في طلب الرّذيلة، فتوافقت المقاطع المقفلة مع هذه الشّدّة والإصرار من كلاّ الطّرفين، الإصرار على التّمنّع من جهة يوسف – عليه السّلام –، والإصرار على فعل الفاحشة من جهة امرأة العزيز.

نلاحظ في توظيف القرآن الكريم لعبارة «لَّمۡ يَفۡعَلۡ» تصريح بالمراودة وإصرار على الفاحشة؛ غير أنّ الخطاب القرآنيّ في مثل هذه المواقف ينتقي الألفاظ المهذّبة؛ لأنّ قلّة الحياء والجهر بها تتنافى مع أوامر الشّريعة الإسلاميّة، يقول أحمد ياسوف موضّحا ذلك: «ويتّضح طابع التّهذيب والسّموّ في الاكتفاء بظلال كلمة «يَفۡعَلۡ» وكلمة « ءَامُرُهُۥ» بهاتين الكلمتين تمّ التّعبير عن شهوة عارمة، وهذا يتمشّى وطابع الدّين الإسلاميّ الّذي يدعو إلى تهذيب الغرائز وتوجيهها، والحدّ من فاعليّتها، وليس قتلها، وكذلك يكمن هدف القصّة القرآنيّة في الموعظة والاعتبار، ولا حاجة لتصوير يخدم الفنّ لأجل الفنّ.»[2] أمّا ازدياد عنادها وإلحاحها بلفظها: «وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ.» فإنّه ينمّ عن الشّموخ والعظمة، وإظهار الفوقيّة. ولهذا نجد هذا التّناسب الموظّف في القرآن الكريم بين الدّلالات وبين المقاطع المقفلة الّتي تتكوّن منها الكلمات.

نمثّل للمقاطع الصّوتيّة المقفلة ومدى ما تؤدّيه من صرامة وجدّية في الخطاب القرآنيّ؛ معبّرة عن المعنى المناسب للمقام الّذي وردت فيه بقوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ ﴾المدثّر: ١ – ٦، يرى المفسّرون أنّ سورة المدثّر اشتملت على خمسة دروس متكاملة، جلّها تدور حول موضوع واحد، أوّل هذه الدّروس في الآيات الأولى من واحد إلى ستّة، والمتمثّل في الأمر الإلهيّ الصّارم «بتكليف الرّسول محمّد – صلى الله عليه وسلّم- أن يبلّغ رسالة ربّه، وينذر الّذين يكذّبونه، ويكذّبون ببلاغاته عن ربّه، بأنّهم إذا أصرّوا على تكذيبهم؛ فسيعذّبون يوم الدّين في دار العذاب النّار؛ عذابا أبديّا خالدا، وأبان هذا الدّرس للرّسول – صلّى الله عليه وسلّم- بعض التّعليمات الأوّليّة الّتي عليه أن يلتزم بها، ليكون أسوة حسنة لمن يؤمن به ويتّبعه.»[3]

[1]– ينظر: تفسير التّحرير والتّنوير، الطّاهر بن عاشور، ج 12، ص: 264 .

[2]– جماليات المفردة القرآنيّة، دار المكتبيّ، دمشق، ط2، 1419هـ - 1999م، ص: 259.

[3]- معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر، تفسير تدبّريّ للقرآن الكريم بحسب ترتيب النّزول وفق منهج كتاب: "قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله عزّوجلّ"، عبد الرّحمن جبنكة الميدانيّ، دار القلم، دمشق، ط1، 1420هـ – 2000م، المجلّد الأوّل، ص: 81 .

الكتابة المقطعيّة للآيات الكريمات:

المقطع الأوّل: / **ي ا أ ي ي هـ ا ل م د ث ث ر** /

المقطع الثّاني: / **ق م ف أ ن ذ ر** /

المقطع الثّالث: / **و ر ب ب ك** /

المقطع الرّابع: / **ف ك ب ب ر** /

المقطع الخامس: / **و ث ي ا ب ك** /

المقطع السّادس: / **ف ط هـ هـ ر** /

المقطع السّابع: / **و ر ر ج ز ف هـ ج ر** /

المقطع الثّامن: / **و ل ا ت م ن ن ت س ت ك ث ر** /

ي ا = / ص ح ح.

أ ي ي هـ ا = ص ح ص ص ح ح.

ل م د ث ث ر = ص ص ح ص ح ص ص ح ص ح./

ق م = / ص ح ص.

ف أ ن ذ ر = ص ح ص ح ص ص ح ص./

و ر ب ب ك = / ص ح ص ح ص ص ح ص ح./

ف ك ب ب ر = / ص ح ص ح ص ص ح ص./

و ث ي ا ب ك = / ص ح ص ح ص ح ح ص ح ص ح./

ف ط هـ هـ ر = ص ح ص ح ص ص ح ص./

و ر ر ج ز = / ص ح ص ص ح ص ص ح.

ف هـ ج ر = ص ح ص ص ح ص./

و ل ا = / ص ص ح ح.

ت م ن ن = ص ح ص ص ح ص.

ت س ت ك ث ر = ص ح ص ص ح ص ص ح ص./

ما يلاحظ على الآيات الكريمات القصر في العبارة، وأنّ مقاطعها الصّوتيّة تنتهي بمقاطع مقفلة ماعدا ثلاثة منها غير مقفلة، والغاية من ذلك أن تتواءم المقاطع الصّوتيّة المقفلة مع المعنى المراد

إيصاله للقارئ، وهو ما أشار إليه أحمد أبو زيد قائلا: «وجاء ترتيب المقاطع الصّوتيّة في هذا الخطاب مناسبا للمعنى والمقام؛ فهي معظمها مقاطع مقفلة؛ تنتهي بالسّكون الحيّ...فبقي الإيقاع سريعا حادّا يتناسب ونغمة الأمر الجديّ والتّأديب.»(1)

فالموقف بما يكتنفه من صرامة وحدّة في الأوامر؛ يستدعي أن يقوم الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم- بواجبات الرّسالة السّماويّة المكلّف بها، لذا أمر أمرا صارما القيام من نومه؛ ليحذّر القوم من عذاب شديد، معظّما الله تعالى سواء في دعوته، أو في صلاته من خلال التّكبير، ملتزما آدابا يستوجب أن يسلكها في حياته؛ حتّى يقتدي به تابعوه والمؤمنون برسالته، من ذلك الطّهارة سواء أكانت طهارة الثّياب أيّ الطّهارة الماديّة، أو طهارة النّفس أيّ الطّهارة المعنويّة، وهي طهارة تستدعي تطهير النّفس والذّات من كلّ مستقذر من الأفعال، كما أنّه مطالب بأن يهجر كلّ رجز، وقد رأى المفسّرون أنّه يمكن أن يكون كلّ قذر، أو عبادة الأصنام، أو كلّ أمر يجرّ إلى العذاب والعقاب، وهو مأمور بألاّ يعطي العطاء ثمّ يستكثره(2). وكأنّ توظيف المقاطع المقفلة في الآيات المتميّزة بالقصر؛ دعوة إلى السّرعة في التّنفيذ دون مماطلة، بالإضافة إلى الحزم في أداء ما هو مطالب به.

إنّ ما نستخلصه من دراسة المقطع ودلالته في الخطاب القرآنيّ؛ يمكّننا من إدراك هذا التّناسب الصّوتيّ في القرآن الكريم مع ما يحمله من أفكار؛ وأنّ كلّ نوع من المقاطع مفتوحة كانت أو مقفلة، وقصيرة كانت أو طويلة أو مديدة في الطّول؛ لها دورها في التّعبير عمّا يلائم المعاني والدّلالات الواردة في هذا الخطاب الرّبانيّ، ممّا يؤدّي إلى التّأثّر به عند سماعه، ومعرفة سرّ من أسرار إعجازه.

(1)- التّناسب البيانيّ في القرآن، ص: 321 – 322.

(2)- ينظر: أوضح التّفاسير، محمّد محمّد عبد اللّطيف بن الخطيب، المطبعة المصريّة ومكتبتها، ط6، 1383هـ – 1964م، ص: 718.

الفصل الثّاني: استقامة الأداء القرآنيّ والنّبر.

المبحث الأوّل: النّبر ومظاهره في اللّغة العربيّة.

1- مفهوم النّبر.

أ- التّعريف اللّغويّ للنّبر.

ب- التّعريف الاصطلاحيّ للنّبر.

2- النّبر ودلالته في علم الأصوات التّشكيليّ.

3- أنواع النّبر.

أ - نبر الكلمة (أو الصّرفيّ) (أو الصّيغة).

ب - نبر الجملة (أو السّيّاق).

ج - النّبر الانفعاليّ.

4- مظـاهـر النّبـر.

أ - الهمز.

ب - مدّ الحركات.

ج - دلالة صوت المدّ.

هـ - التّضعيف.

5- فوائد النّبر.

6- وظيفة النّبر.

أ - الوظيفة الصّوتيّة.

ب - الوظيفة الصّرفيّة.

ج - الوظيفة الدّلاليّة.

د - الوظيفة التّعبيريّة.

هـ - الوظيفة الإيقاعيّة.

و - الوظيفة الجماليّة.

المبحث الثّاني: النّبر بين العلماء القدماء والمحدثين.

1- النّبر في الدّراسات العربيّة القديمة.

2- النّبر في الدّراسات العربيّة الحديثة.

المبحث الثّالث: دلالة النّبر وتجلّياته في الخطاب القرآنيّ.

1- دور النّبر وأهميّته في تحديد المعنى.

2- أهميّة النّبر في تلاوة القرآن الكريم.

3- اللّغة العربيّة واللّحن وعلاقته بالنّبر.

- علاقة النّبر باللّحن.
- مفهوم اللّحن.

أ - التّعريف اللّغويّ للّحن.

ب - التّعريف الاصطلاحيّ للّحن.

- نوعا اللّحن وصورهما.

1 - اللّحن الخفيّ.

2 - اللّحن الجلّيّ.

- الفرق بين اللّحن الخفيّ واللّحن الجلّيّ.
- حكم اللّحن.

4 - أسس القراءة السّليمة.

- أركان القراءة السّليمة.
- أمن اللّبس.

أ - التّعريف اللّغويّ للّبس.

ب - التّعريف الاصطلاحيّ للّبس.

- مفهوم أمن اللّبس.
- أنواع أمن اللّبس.

1 - أمن اللّبس في القرآن الكريم.

2 - أمن اللّبس في السّنّة النّبويّة.

3 - أمن اللّبس عند الصّحابة.

4 - أمن اللّبس في القراءات القرآنيّة.

- العلاقة بين النّبر واللّحن والقراءة وأمن اللّبس.

المبحث الرّابع: أمثلة من القرآن الكريم على الأخطاء في النّبر.

المبحث الخامس: النّبر على العامل النّحويّ «ما».

المبحث السّادس: تجلّيات النّبر في الخطاب القرآنيّ وأثره في المعنى.

المبحث السّابع: الآثار الصّوتيّة والصّرفيّة والنّحويّة والدّلاليّة للنّبر في الخطاب القرآنيّ.

المبحث الأوّل: النّبر ومظاهره في اللّغة العربيّة

1- مفهوم النّبر Stress

أ - التّعريف اللّغويّ للنّبر:

النّبر: هو الهمز وكلّ شيء رفع شيئا[1]. وعند الزّمخشريّ: «انتبر الجرح إذا تورّم وارتفع مكانه، ونبرات الشّيء رفعته.»[2] ويقول ابن منظور أنّ النّبر: «مصدر نبر ينبر نبرا، همزه، والمنبور المهموز، ويقال: نبر الرّجل نبرة إذا تكلّم بكلمة فيها علوّ.»[3] ونَبَرَ الحرف يَنْبُرُه نَبْرًا: همزه، والنّبرة: الهمزة، والنّبر عند العرب: اِرتفاع الصّوت، ونبرة المغني: رَفْعُ صوته عن خفض[4]، ويذكر أيضا «وانتبر الخطيب، أيّ: ارتفع صوته، والمنبر محلّ مرتفع سمّي كذلك لارتفاعه، ورفع الصّوت عليه؛ كقول الشّاعر:»[5]

إِنِّي لَأَسْمَعُ نَبْرَةً مِنْ قَوْلِهَا فَأَكَادُ أَنْ يُغْشَى عَلَيَّ سُرُورًا.

ومنه نلاحظ أنّ كلمة النّبر تحمل معنى العلوّ والإِرتفاع. ويذهب بعض الباحثين المحدثين إلى القول: «لمّا كان تصوّر القدماء دائما للنّبر على أنّه الضّغط على الحرف؛ وجدنا أنّهم يتتبّعون وجوده على الحروف، ويرصدون آثاره في هيئاتها؛ فإذا الألف مهموزة والواو والياء كذلك، وإذا الهمزة تصبح لقبا من ألقاب الحروف الهجائيّة، وقد كانت مجرّد معنى لغويّ مرادف للضّغط أو النّبر، أيّ مجرّد تعبير عن حالة من حالات نطق الحروف.»[6] بهذا نخلص إلى أنّ الهمزة بعدما كانت تعني الضّغط عند العرب القدماء؛ أصبحت صوتا لحرف من حروف الهجاء، والسّبب راجع إلى كونهم كانوا يرصدون تتبّع النّبر على الحروف؛ فوجدوه يظهر بشكل بارز في الهمزة؛ فاتّخذت بذلك هذا اللّقب.

---

[1]- ينظر: كتاب العين، الفراهيديّ، ج 08، مادّة: نبر.

[2]- أساس البلاغة، الزّمخشريّ، ج 02، مادّة: نبر.

[3]- لسان العرب، مرجع سابق، ج 07، مادّة: نبر.

[4]- ينظر: المرجع نفسه، المادّة نفسها.

[5]- المرجع نفسه، المادّة نفسها.

[6]- علم الأصوات، برتيل مالبرج، ص: 168.

ب – التّعريف الاصطلاحيّ للنّبر:

يعرّف النّبر اصطلاحا بأنّه وضوح نسبيّ لصوت أو مقطع ما؛ يغلب بقيّة أصوات أو مقاطع الكلمة، وهو نشاط ذاتيّ، ينتج عنه نوع من البروز لأحد الأصوات أو المقاطع قياسا لما يحيط به[1]. وهذا يعني أنّ بروز صوت ما؛ يعتمد على شدّة قوّة النّفس، وبالتّالي فإنّ كميّة الشّدّة في المقطع المنبور تكون أكثر منها في المقطع غير المنبور[2]، وهو يكون عادة مصحوبا بإشارة اليد أو الرّأس أو بأجزاء أخرى من الجسم، وهو يقتضي دفعة قويّة من القفص الصّدريّ، وبالنّتيجة دفعة قويّة من الزّفير ممّا يعطي الانطباع الحسيّ بالعلوّ.

تعرّفه معاجم المصطلحات بأنّه «إبراز أحد مقاطع الكلمة عند النّطق،»[3] أيّ أنّ أحد مقاطعها يكون أكثر وضوحا من غيره. وإذا كان الهمز لغة هو «مثل الغمز والضّغط، ومنه الهمز في الكلام لأنّه يضغط،»[4] فإنّنا نلاحظ في هذا التّعريف وجود كلمة «الضّغط»، والدّراسات الحديثة تعني بالضّغط النّبر، وتضع له بالفرنسيّة كلمة Accent، ممّا يدفعنا للقول أنّ الهمز يساوي الضّغط، والضّغط يساوي النّبر. أمّا العلوّ والإرتفاع فهما ظاهرتان صوتيّتان تبرزان عند النّطق؛ لذا يمكن القول أنّ هذين المصطلحين يحملان مفهوم النّبر عند المحدثين.

والنّبر عند اللّسانيّين المحدثين يعني الضّغط على مقطع من مقاطع الكلمة؛ ليصبح بارزا وواضحا في السّمع، وذلك أكثر من غيره من مقاطع الكلمة، وينتج عنه علوّ الصّوت المنبور، وإرتفاعه، ولا يتمّ ذلك إلاّ ببذل جهد عضليّ لأعضاء النّطق، ويصبح الصّوت مرتفعا وعاليا وواضحا في السّمع، نتيجة عوامل كثيرة منها: «الكميّة والضّغط والتّنغيم.»[5] ويعدّ الضّغط الّذي يصاحب عمليّة النّبر عاملا مساعدا من بين مجموعة عوامل أخرى؛ لكنّه يبقى الأقرب لأنّ النّبر في حدّ ذاته

---

[1]- ينظر: دراسة الصّوت اللّغويّ، أحمد عمر مختار، ص: 188. ومناهج البحث في اللّغة، تمّام حسّان، ص:174. ومقدّمة للقارئ العربيّ، محمود السّعران، ص: 206.

[2]- يقسّم بعض اللّغويّين النّبر بناء على درجات القوّة إلى أربع درجات: نبر أوليّ، ونبر ثانويّ، ونبر متوسّط، ونبر ضعيف. – ينظر: دراسة السّمع والكلام، صوتيّات اللّغة من الإنتاج إلى الإدراك، د. سعد مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، د ط، 1420هـ – 2000م، ص: 272 – 276 . – وأسس علم اللّغة، ماريوباي، ص: 93.

[3] – المعجم المفصّل في اللّغة والأدب، د. إميل بديع يعقوب وزميله، دار الملايين، بيروت، ط1، 1987م، المجلّد: 02، مادّة: نبر.

[4] – لسان العرب، اِبن منظور، ج 07، مادّة: همز.

[5]- مناهج البحث في اللّغة، تمّام حسّان، ص: 174.

يعرّف بدرجة الضّغط على الصّوت أكثر ممّا يعرّف بأيّ شيء آخر، أو لأنّ الضّغط في صورتيه: صورة الضّغط وصورة النّغمة يتّسع مجال تطبيقه على النّبر أكثر ممّا يتّسع مجال العوامل الأخرى[1].

عرّف فوناجيّ Fonagy النّبر بأنّه «كيان لسانيّ فوق – مقطعيّ، ذو وظيفة أساسيّة، وهي إظهار المقطع؛ والّذي تتكوّن ماهيّته من أكبر جهد زفيريّ ونطقيّ، هذا الجهد ينعكس على المستوى الأكوستيكيّ بتغيّرات متميّزة في السّلسلة النّغميّة للتّردّد الأساسيّ، وسلسلة الضّغط، وكذلك في الأحزمة الصّوتيّة، وفي تمديد المدّة الزّمنيّة للمقطع المنبور.»[2] إنّ هذا التّعريف تناول النّبر من مستويات عديدة:

على **المستوى اللّسانيّ**: لا نجد كلّ المقاطع متساوية في النّطق؛ حيث تضغط على مقطع من مقاطع الكلمة بشكل يجعله مميّزا عن المقاطع الأخرى.

أمّا على **المستوى الفيزيولوجيّ**: المقطع المنبور يتطلّب جهدا عضليّا ونطقيّا مقارنة مع المقطع غير المنبور.

وعلى **المستوى الأكوستيكيّ**: المقطع المنبور يكون مميّزا من حيث التّردّد الأساسيّ، والضّغط، والمدّة الزّمنيّة، والأحزمة الصّوتيّة.

2- النّبر ودلالته في علم الأصوات التّشكيليّ

تعتبر دلالة النّبر اليوم في علم الأصوات التّشكيليّ من أبرز الدّراسات الصّوتيّة؛ إذ يتناول بالدّرس أصوات اللّغة وهي مشكّلة في نسق بنائيّ يكوّن كلمات منطوقة دالّة، وهي بدورها تكوّن جملا وتراكيب دالّة، وقد تختلف هذه الكلمات والجمل والعبارات في دلالتها وذلك وفق الطّريقة الّتي تنطق أو تؤدّى بها؛ كأن يتمّ نبر مقطع من ذلك التّركيب دون غيره، وهذا النّبر يحدّد الجملة بدلالة خاصّة تختلف باختلاف حدود النّبر؛ «فالحدث اللّغويّ لا يجري على مستوى الأصوات وحدها، ولا في مستوى المعاني منعزلة،؛بل يجري في مستوى اقترانها وتشكّلها، وهذا التّشكّل هو جوهر اللّغة ومادّتها، والنّظر إلى اللّغة بوصفها شكلا أيّ مجرّد إماءة يفقد الدّراسة الصّوتيّة قيمتها؛»[3] بل أكثر من ذلك فإنّ الأمر فيه دعوة إلى إخراج المباحث الصّوتيّة خارج إطار الدّراسات اللّغويّة، وفي ذلك

---

(1)- ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(2)-L'accent en français: accent probaliture ; in L'accent en français contemporain ; Fonagy; Studia Phonetica; Montréal; Paris; 1980 ; P :123 - 133.

(3)- علم الدّلالة التّطبيقيّ في التّراث العربيّ، د. هادي نهر، عالم الكتب الحديث، إربد، جدارا للكتاب العالميّ للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 1429هـ – 2008م، ص: 52.

تجنٍّ على الدّراسات اللّغويّة على المستويات كاملها الصّوتيّة، أو الصّرفيّة، أو النّحويّة، أو الدّلاليّة، ذلك أنّ هذه الجوانب اللّغويّة في الدّراسة تمثّل التّشكيل اللّغويّ الّذي يتوفّر عليه الكلام أو النّصّ.

بمراعاة هذه المستويات اللّغويّة مجتمعة في الدّراسة يعطي نتائج مترابطة ومتكاملة للنّصّ، والصّوت مادّة لا قيمة لها إلاّ إذا وظّفت في الكلمة، زيادة على ما يضيفه المتكلّم من قيم من خلال ما يوظّفه من ألفاظ لها دلالتها الموحية، وهذا ما أشار إليه إبراهيم أنيس عندما تحدّث عن -وحي الأصوات واستيحاء الدّلالات من الألفاظ- بقوله: «وقد أطلقنا عليه الوحيّ لأنّه لطيف لا يدرك إلاّ بعد التّجارب والدّراسة المستفيضة، ولأنّه عمل من أعمال العقل الباطن... وللأدباء بصدد هذا الاستحياء قدرة أخرى فوق ما للمرء العاديّ؛ يستمدّونها من خيالهم وتبنّيهم للألفاظ، وتمدّهم هذه القدرة بظلال من الدّلالات لا تكاد تخطر في ذهن الآخرين.»[1] إنّ إبراهيم أنيس يبيّن كيف تتجلّى قيمة التّشكيل الصّوتيّ في توضيح الدّلالة، وهي قدرة يمتلكها المبدعون؛ يساعدهم فيها خيالهم على إظهارها في نصوصهم، وبالنّظر إلى هذه النّصوص أو الخطابات؛ يتبيّن أنّ النّظام اللّغويّ والاستعمال السّياقيّ في اللّغة العربيّة يستخدم التّشكيل الصّوتيّ في التّمييز بين مختلف المعاني.

يمثّل النّبر ظاهرة من الظّواهر الصّوتيّة الّتي لها قيمتها في التّشكيل الصّوتيّ، كما أنّه يعتبر عنصرا من عناصر تحديد المعنى، ومن البديهيّ أن يقوم بأداء وظيفة نطقيّة تتّصل في المقام الأوّل بالنّظام الصّوتيّ للّغة على مستوى الحدث الكلاميّ، كما يؤدّي النّبر أيضا وظيفة دلاليّة إضافيّة في نطق التّراكيب لأنّ هناك اليوم ما يسمّى بنبر الانفعال «Emotional Stress»[2] كأن يقول أحدهم للآخر: تعال! بلهجة الأمر تارة، أو بلهجة الاستعطاف تارة أخرى، ويرتبط نبر الانفعال بنبر الجملة حيث يعمد المتكلّم نبر كلمة معيّنة في الجملة رغبة منه في تأكيدها، أو التّلميح بدلالة معيّنة يقصدها ويتعيّن على متلقّي الخطاب فهمها.

إنّ كيفيّة إجراء التّركيب نطقا وما يقوم به النّبر من دور دلاليّ تتعدّد من خلاله دلالة سياق صوتيّ عن سياق آخر، ممّا قد ينتج دلالات متعدّدة من خلال طبيعة نطق تركيب ما، والنّبر هو أحد مكوّناته. وإذا كان المطلوب من الكاتب أو المتكلّم تنظيم أصواته بتنظيم ألفاظه الّتي تحوي الأصوات؛ مركّزا على البدايات والنّهايات من الجمل والفقرات إن كان الكلام نثرا، وعلى الأبيات الشّعريّة إن

---

(1)- دلالة الألفاظ، النّاشر مكتبة الأنجلو المصريّة، ط5، 1984م، ص: 85.

(2)- ينظر: معجم المصطلحات اللّسانيّة، د. سامي عيّاد حنّا، وكريم زكيّ حسام الدّين، ونجيب جريس، النّاشر: مكتبة لبنان، بيروت، د ط، 1997م، ص: 105.

كان الكلام شعرا[1]؛ حيث تنتظم الأفكار في هذين القالبين، وذلك لما لهذه المواضع من الأثر البالغ سواء في الخطاب بأنواعه، أو في المتلقّي له، فعليه – أيّ المرسل - أن يعرف الموضع المناسب لإيداع النّبر وغيره من الظّواهر فوق مقطعيّة من خلال ما يدلّ عليها في كلامه، ذلك لأنّ موضعها له الدّور الأكبر في إظهار قيمتها الصّوتيّة والدّلاليّة.

وبذلك يتحقّق التّكامل الصّوتيّ في النّصّ بالأصوات المتميّزة، وحسن تنظيم هذه الأصوات؛ حيث يتشكّل ذلك الجمال الإيقاعيّ المفعم بالدّلالات، «وهذا الجمال الصّوتيّ أو النّظام التّوقيعيّ هو أوّل شيء أحسّته الآذان العربيّة أيّام نزول القرآن، ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام.»[2] ويعتبر كتاب القرآن الكريم أكبر مجال لدراسة الأصوات؛ مبرهنا على عظم اللّغة العربيّة، وما تحمله من معان ومدلولات، ممّا أدّى إلى اعتبار اللّسان العربيّ - في أصواته - إبداعا معجزا في القرآن الكريم، وأصبحت الدّلالة انعكاسا لهذا الإبداع الصّوتيّ؛ الّذي أدهش عباقرة العربيّة حين نزل هذا الكتاب العظيم على قلب رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم-[3].

3- أنواع النّبر:

يمكن تقسيم النّبر إلى ما يأتي:

أ – نبر الكلمة (أو الصّرفيّ) (أو الصّيغة) Word stress :

يكون بالضّغط على مقطع معيّن من مقاطع الكلمة؛ ممّا يظهره ويبرزه عن بقيّة المقاطع المحيطة به، ويرتبط النّبر الصّرفي بالجانب الاشتقاقيّ في اللّغة العربيّة، أو بالميزان الصّرفيّ[4]، ونلاحظ ذلك - مثلا - في صيغة اسم الفاعل، فالنّبر يقع على مستوى الفاء كقولنا: «كاتب – سائل»، أمّا صيغة اسم المفعول فإنّ النّبر يقع على حرف العين كقولنا: «مكتوب – محمود»، وعلم الصّرف العربيّ في مؤلّفاته القديمة أعطى أهمّيّة للنّبر في العربيّة، ونستدلّ على ذلك من خلال النّصّ التّالي «ويجيء في فَاعِل الفِعَال؛ نحو: «قاتلته قتالا»، و«راميته رماء»، وكان الأصل: فيعالا، لأنّ فاعلت على وزن: أفعلت وفعللت، فكان المصدر كـ«الزّلازل، والإكرام»، ولكن «الياء» محذوفة من فيعال؛ استخفافا

[1]- دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ص: 85.

[2]- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمّد عبد العظيم الزّرقانيّ، المطبعة الفنّيّة، القاهرة، د ط، د ت، ج 02، ص: 310.

[3]- ينظر: دلالات الظّاهرة الصّوتيّة في القرآن الكريم، د. خالد قاسم بن دوميّ، جدارا للكتاب العالميّ للنّشر والتّوزيع، عمّان، عالم الكتب الحديث للنّشر والتّوزيع، إربد، ط1، 2006م، ص: 83 .

[4]- ينظر: اللّغة العربيّة معناها ومبناها، تمّام حسّان، ص: 171.

وإن جَاءَ بها جاءٍ فمصيب.»[1] ويرى رمضان عبد التّواب أنّ الأمر طبيعيّ في اللّغة العربيّة الفصيحة معلّلا ذلك قائلا: «من طبيعة العربيّة الفصحى أن تقصّر الحركة الطّويلة في المقطع المفتوح، إذا كان يسبق مقطعا آخر منبورا ذا حركة طويلة؛ فأصل مصدر «فاعل» في العربيّة القديمة هو «فيعال» بنبر المقطع الثّاني، وقد ترتّب على خلوّ المقطع الأوّل من النّبر؛ أن قصرت حركته؛ صار المصدر «فِعال»؛ مثل: «قاتل – قتالا» بدلا من «قيتالا.»[2]

ونبر الكلمة أو الصّيغة ينقسم بحسب الشّدّة، وقوّة النّطق إلى نوعين اثنين هما[3]:

– النّبر الرّئيسيّ: Primary Stress:

هو كلمة تحتوي على مقطع منبور، ويكون النّبر الرّئيسيّ في الكلمة والصّيغ جميعا؛ ولا تخلو منه كلمة واحدة أو صيغة من الصّيغ، وهو الغالب في معظم اللّغات، وقد يسمّى النّبر الأساسيّ.

– النّبر الثّانويّ: Secondary Stress:

ويكون في الكلمة أو التّراكيب الطّويلة، وقد يلتقيان معا–أي النّبر الأساسيّ والنّبر الثّانويّ–، وعليه فالنّبر الأوّليّ يكون على المقطع الأخير من الكلمة، والثّانويّ يكون سابقا عليه.

لقد أطلق بعض العلماء المحدثين على هذين النّوعين من النّبر «درجات النّبر»؛ مشيرين إلى وجود ثلاث درجات للنّبر؛ مستندين إلى مبدأ الوضوح، والبروز، والارتكاز للمقاطع، وهي:

- النّبر الرّئيسيّ: Primary Stress
- النّبر الثّانويّ: Secondary Stress
- النّبر الضّعيف: Weak Stress

---

[1]– المقتضب، أبو العبّاس محمّد بن يزيد المبرّد، تحقيق، د. محمّد عبد الخالق عضيمة، نشر المجلس الأعلى للشّؤون الإسلاميّة، القاهرة، ط1، 1388هـ– 1985م، ج 02 ص: 100.

[2]– التّطوّر اللّغويّ، ص: 128.

[3]– ينظر: المصطلحات اللّغويّة الحديثة في اللّغة العربيّة، د. محمّد رشاد الحمزاويّ، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، ط1، 1987م، مادّة: نبر.

وللتّمييز بين هذه الأنواع الثّلاثة؛ وضعوا فوق كلّ مقطع منبور علامة تميّزه، وهذه العلامات هي: (٨) علامة النّبر الرّئيسيّ. (—) علامة النّبر الثّانويّ. (W) علامة النّبر الضّعيف.[1]، وهناك من يرى أنّ النّبر الضّعيف يبقى بدون علامة أيّ دون رمز[2]، أمّا حسام البهنساويّ فقد اكتفى بدراسة النّوعين الأوّل والثّاني دون النّبر الضّعيف[3]. وهذه التّنوّعات مبنية على أساس[4]:

- زيادة شدّة الصّوت.
- ارتفاع نغمته الإسماعيّة.
- امتداد مدّته الإنتاجيّة.

أمّا المسؤول عن النّبر عند حسام البهنساويّ فهو «عامل الشّدّة[5]؛ المسؤول المباشر عن درجتي النّبر؛ بحيث تكون كميّة الشّدّة في المقطع المنبور أعلى في المقطع غير المنبور، والشّدّة ترتبط باتّساع الذّبذبة الّتي يتوقّف عليها أساسا حكم الأذن على الصّوت بالعلوّ أو الانخفاض، وثمّة عوامل ترتبط بإدراك الأذن للنّبر ودرجاته؛ أثبتتها التّجارب المعمليّة، تتمثّل في عامل الطّول[6]، وهو ذو ارتباط بالمدّة والدّرجة وهي ذات ارتباط بالتّردّد.»[7]

---

[1]- ينظر: الأصوات اللّغويّة، عبد القادر عبد الجليل، ص: 251.

[2]- ينظر: علم الأصوات، كمال محمّد بشر، ص: 514.

[3]- ينظر: الدّراسات اللّغويّة الصّوتيّة عند العلماء العرب والدّرس الصّوتيّ الحديث، ص: 133.

[4]- ينظر: علم الصّرف الصّوتيّ، د. عبد القادر عبد الجليل، أزمنة للنّشر والتّوزيع، الأردن، ط1، 1998م، ص: 119، والأصوات اللّغويّة، إبراهيم أنيس، ص:252.

[5]- هناك من يسمّي شدّة الصّوت بنبر الشّدّة: وهو ضغط نسبيّ يستلزم علوّا عن غيره من المقاطع، ويسمّيه باحثون آخرون النّبر الزّفيريّ، أونبر التّوتّر، وتشترك هذه المسمّيات في الدّلالة على قوّة النّفس، وموضع نبر الشّدّة من الكلمة هو المقطع.

[6]- وهناك من يعتبر عامل الطّول نوعا من نبر الكلمة ويسمّيه نبر الطّول: وهو إطالة زمن النّطق بالصّوت، ويسمّيه آخرون النّبر الزّمني، أو نبر الزّمن، أو نبر المدّة، أو النّبر المدّيّ، أو النّبر الطّوليّ، ويقصد به تطويل الصّوت لا طوله، وذلك للتّفريق بين الطّول الأصليّ للصّوت والطّول المكتسب النّاتج عن نبر الطّول، وبذلك يتّضح الفرق بين مفهومي الخصائص الأصليّة والخصائص الطّارئة للمقطع أو الصّوت، وينقسم إلى قسمين: 1- نبر الطّول في الصّوائت: مثل تطويل الألف في –رائع- أو الواو في – هدوء – تعبيرا عن غرض كلاميّ ما، وهو ما يسمّيه القدماء بـ(الإشباع) و(المدّ) و (المطل). 2- نبر الطّول في الصّوامت: وهو إطالة زمن النّطق بالصّامت كتطويل الحاء في – تحفة- أو الدّال في – مدهش- تعبيرا عن غرض كلاميّ ما. - ينظر: علم وظائف الأصوات اللّغويّة، د. عصام نور الدّين، دار الفكر اللّبنانيّ، بيروت، ط1، 1996م، ص: 111 وما بعدها.

[7]- الدّراسات اللّغويّة الصّوتيّة عند العلماء العرب والدّرس الصّوتيّ الحديث، ص: 133.

ب – نبر الجملة (أو السّياق): Sentence stress

يتقصّد المتكلّم نبر كلمة معيّنة في الجملة رغبة منه في تأكيدها أو التّلميح إلى دلالة معيّنة؛ أيّ أنّ النّاطق يستعمل النّبر على مستوى الكلمة المفردة[1]، – مثل ما يستعمله على مستوى الجمل، أو المجموعات الكلاميّة –، ويرتبط بالأداء والمعنى العامّ المراد إيصاله إلى السّامع، فالجملة العربيّة —مثلا– تتكوّن وفق أغراض ومقاصد المتكلّمين، وتتوزّع بين حالات مختلفة كالتّقرير والنّفيّ، والإِستفهام والتّوكيد، والتّعجب والإنكار[2]، في هذه الحالة يقع النّبر على الكلمة الّتي يزاد في نبرها عن باقي كلمات الجملة، «وذلك لإظهار أهميّتها في كنفها ومضمونها؛ فالزّيادة في نبرها يبرزها، ويلفت النّظر إليها ويميّزها عن غيرها.»[3] وبهذا المعنى يكون النّبر عنصرا من عناصر الكلمة يميّزها عن غيرها، فهو «لا يدخل مباشرة في تركيب البنى اللّغويّة، لكنّه يفضي إلى أغراض المتكلّمين النّطقيّة، قوّة وضعفا، شدّة وليونة، ويقتضي طاقة وجهدا عضليّا.»[4] ويتّضح ذلك من خلال المثال التّالي، فإذا سألك أحدهم[5]:

«هل حضر أخوك أمس،» فالزّيادة في نبر –حضر– معناه الشّك في الحضور، وأنّ حدثا آخر وقع غير الحضور، والزّيادة في نبر –أخوك– معناه الشّك في حضور الأخ، وأنّ شخصا آخر قد حضر، والزّيادة في نبر –أمس– معناه الشّكّ في زمن الحضور، فيظنّ السّائل أنّ الأخ لم يحضر أمس. نلاحظ أنّ الزّيادة في نبر كلمة ما في الجملة هو الّذي يحدّد المعنى الّذي تحمله الجملة، وأيّ مقطع في المجموعة الكلاميّة سواء في أوّلها، أو وسطها، أو آخرها صالح لأن يقع عليه هذا النّوع من النّبر، وبذلك يأخذ النّبر طريقه عبر السّيّاق، بالضّغط على اللّفظ أو الكلمة، والغاية من ذلك هو التّأكيد، ولفت الانتباه إلى موضع النّبر، وبهذا فإنّ «النّبر على مستوى الجملة له وظائف بالغة، إنّه عند تنوّع درجاته يفيد التّأكيد أو المفارقة؛ حيث ينتقل النّبر القويّ من كلمة إلى أخرى قصدا إلى بيان هذا

---

[1]- يقوم النّبر على مستوى الكلمة المفردة بالتّفريق بين المعاني الصّرفيّة للكلمات في اللّغات الّتي تستخدمه فونيما. – ينظر: دراسة الصّوت اللّغويّ، أحمد عمر مختار، ص: 188.

[2]- ينظر: دراسات في اللّسانيّات العربيّة، المشاكلة – التّنغيم– رؤى تحليليّة، د. عبد الحميد السّيّد، دار الحامد للنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 1465هـ- 2004م، ص: 51.

[3]- مباحث في علم اللّغة، نور الهدى لوشن، ص: 134.

[4]- علم الصّرف الصّوتيّ، عبد القادر عبد الجليل، ص: 113.

[5]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 135.

التّأكيد أو الكشف عن هذه المفارقة.»[1] ويوجد النّبر في الكلام المنطوق، ويترجم كتابة بتغيير نوع الخطّ في الكتابة، أو وضع سطر أو تسويد.

يمكن أن نمثّل لنبر السّياق في القرآن الكريم في سورة يوسف؛ قَالَ تَعَالَى:﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ يوسف: ٣٠.

فهذه الآية يمكن قراءتها بدون نبر فتتساوى كلماتها؛ ولكن إذا جُعِلَ النّبر على «ٱمْرَأَتُ» سيكون المعنى أنّ امرأة متزوّجة محصّنة صدرت عنها الفاحشة، «ولم يسمّوها باسمها؛ بل ذكروها بالوصف الّذي ينادي بقبيح فعلها بكونها ذات بعل؛ فصدور الفاحشة من ذات الزّوج أقبح من صدورها ممّن لا زوج لها،»[2] وتفعل فعلتها تلك؛ فيصبح الأمر بذلك شنيعا، كما أنّ كلمة «ٱمْرَأَتُ» تلفت الانتباه عند إشاعة خبرها في المدينة، ويؤدّي إلى تتبّعه، وإغاظة صاحبة هذا الصّنيع[3]، ولو كانت مثلا: مراهقة أو شابّة لكان الأمر أهون، ولأعطي لها بعض العذر، ولكن «ٱمْرَأَتُ» متزوّجة، ولولا ذلك لما جعل الله تعالى عقاب الزّانيّ أو الزّانيّة المتزوّجين رجما حتّى الموت؛ على خلاف غير المتزوّجين المحدد بالجلد.

أو يمكن النّبر على كلمة «ٱلْعَزِيزِ»، أيّ: «أنّ زوجها عزيز مصر، ورئيسها وكبيرها، وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها.»[4] وقد «أضفنها إلى زوجها إرادة الإشاعة للخبر؛ لأنّ النّفس إلى سماع أخبار أُولِي الأخطار أميل، والعزيز: المنيع بقدرته من أن يضام؛ فالعزّة أخصّ من مطلق القدرة.»[5] وهو من طبيعة عناية النّاس بأخبار ذوي المكانة الرّفيعة في المجتمع، وفي هذا إبراز لحرص هذا النّوع من النّساء على الخطاب الفاضح؛ الّذي غرضه فضح الأمر، وإظهار العورات، وإلصاق التّهم، والإشهار بسمعة وزجة رجل مهمّ في حكم مصر. وسيكون المعنى: امرأة العزيز تفعل ذلك؛ وشناعة الأمر في

---

(1)- فنّ الكلام، كمال محمّد بشر، ص: 200.

(2)- بدائع التّفسير: الجامع لتفسير الإمام ابن القيّم الجوزيّة، جمع وتوثيق وتخريج: السّيّد محمّد يسريّ، دار ابن الجوزيّ، الدّمام، ط1، 1414هـ-1993م، ج 02، ص: 470.

(3)- ينظر: روح المعاني، الآلوسي، ج 12، ص: 225.

(4)- بدائع التفسير، ابن القيم الجوزية، ج 02، ص: 470.

(5)- نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، الإمام برهان الدّين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعيّ، دار الكتاب الإسلاميّ، القاهرة، د ط، د ت، ج 10، ص: 70 – 71.

كونها امرأة أحد الأعيان، ومن مقرّبي الملك وحاشيّته، وذي يسر وغنى، «وقيل: إنّ ذلك لقصد المبالغة في لومها.»[1] فلو كانت زوجة فلاح، أو خادم، أو جنديّ، أو امرأة معوّز أو أيّ إنسان عاديّ من طبقة المجتمع الدّنيا؛ لما عملت النّسوة على لوك سيرتها، ونشر فعلتها المخزية بين الجميع؛ ولكن زوجة «ٱلۡعَزِيزِ»!

أو إذا كان النّبر على كلمة «تُرَٰوِدُ» الفعل الّذي جاء في صيغة المضارع في خطاب النّسوة على الرّغم من أنّ الحادث قد سبق[2]، «فقد عبّرن بـ «تُرَٰوِدُ» وهو المضارع الدّال على أنّه صار سجّية لها؛ تخادعه دائما عن نفسه، كما تقول: زيد يعطي ويمنع، ولم يقلن راودت فتاها.»[3] وسيكون المقصود أنّ المعهود عند بني آدم – بل وحتّى عند الحيوان- أن يكون الذّكر هو الطّالب للأنثى؛ أيّ هو الّذي يراود، وهي الّتي تتدلّل وتتمنّع؛ فكيف سمحت امرأة العزيز لنفسها أن تحطّ من قدر كلّ إناث الأرض، وتُحِلَّ لنفسها ما هو محرّم على الإناث؛ فتأتي بفعل مخز؛ «تُرَٰوِدُ» ذكرا عن نفسه، «ومع كون المراودة قد مضت فإنّ «تُرَٰوِدُ» يقصد استحضار الحالة العجيبة، لقصد الإنكار عليها في أنفسهنّ، ولومها على صنيعها.»[4] وهو أمر ما سمع به من قبل!

أو إذا كان النّبر على كلمة «فَتَىٰهَا» «لأنّه كان يخدمها، وقيل لأنّ زوجها وهبه لها؛ فهو مملوكها بزعم النّسوة، وتعبيرهنّ عنه – عليه السّلام – بذلك مضافا إليها لا إلى العزيز؛ لإبانة ما بينهما من التّباين البيّن النّاشئ عن الخادميّة والمخدوميّة، أو المالكيّة والمملوكيّة، وكلّ ذلك لتربيّة المبالغة في اللّوم.»[5] سيكون مكر النّسوة وتغامزهنّ عليها أكثر وطأة؛ فامرأة العزيز لم تجد غير

---

(1)- روح المعاني، الآلوسي، ج 12، ص: 226.

(2)- واستحضار الماضي وجعله حاضرا بالمضارع يكون أشدّ في تأثير الكلام؛ «فالنّسوة أتين بصيغة المستقبل الدّالة على الاستمرار، والوقوع حالا واستقبالا، وأنّ هذا شأنها، ولم يقلن: راودت فتاها، وفَرْقٌ بين قولك: فلان أضاف ضيفا، وفلان يقري الضّيف، ويطعم الطّعام، ويحمل الكلّ؛ فإنّ هذا يدلّ على أنّ هذا شأنه وعادته.» – بدائع التّفسير، ابن القيّم الجوزيّة، ج 02، ص: 471.

(3)- تفسير البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسيّ، ج 06، ص: 266 .

(4)- تفسير التّحرير والتّنوير، ابن عاشور، ج 12، ص: 261.

(5)- روح المعاني، الآلوسيّ، ج 12، ص: 226.

«فَتَىٰهَا»[1]؛ «والفتى الّذي في سنّ الشّباب، ويكنّى به عن المملوك وعن الخادم... وإضافته إلى ضمير امرأة العزيز لأنّه غلام زوجها؛ فهو غلام لها بالتّبع مادامت زوجة لمالكه.»[2] فلو راودت شابّا من الأعيان، أو رجلا من طبقتها؛ لربّما عذرها النّاس، ولكنّ بمراودتها الفتى، وهو عبد عندها يباع ويشترى !فإنّه لن يعذرها أحد على فعلتها.

إذن فالنّبر في مثل هذه الآية الكريمة من القرائن الهامّة الّتي تساعد على فهم المقصود؛ فالقارئ للآية يتعمّد إلى كلمة من هذه الكلمات الّتي أشرنا إليها فيزيد في نبرها، ويميّزها عن غيرها من كلمات الآية. ويسمّى في هذه الحالة نبر السّيّاق أو النّبر الدّلاليّ[3] Accent sémantique – Accent contextuel، وهذا النّوع من النّبر هو الّذي يساعد على معرفة مقاصد المتكلّم. ويرى تمّام حسّان أنّ هذا النّبر إمّا أن يكون تأكيدا، وإمّا أن يكون تقريرا[4]، ويفرّق الدّرس الصّوتيّ الحديث في هذا الباب بين نوعين من النّبر، وهما[5]:

– نبر التّوتر:

إذا تمّ نطق أصوات المقطع المنبور بمزيد من القوّة لتكون أكثر إسماعا ووضوحا من الأخرى[6]، للنّبر في هذا النّوع قيمة صوتيّة، فهو من النّاحية النّطقيّة ذو أثر سمعيّ واضح.

– النّبر الموسيقيّ:

إذا تمّ إبراز بعض أجزاء الجملة بمساعدة النّغمة، ويسمّى أيضا نبر التّنغيم،[7] وهو أقرب إلى موضوع التّنغيم منه إلى موضوع النّبر.

---

(1)- فتاها تقرأ بالإمالة وفيه معنى لا يخفى على اللّبيب، فالتّعبير عنه بالفتى دون الغلام أو المملوك فيه نوع مكر منهنّ؛ لأنّ أصل الفتى في اللّغة الشّاب، فكأنّهنّ يلغزن إلى أنّها قد أعجبها شبابه وطراوته ففتنت به. ينظر: تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسيّ، ج 06، ص:266.

(2)- تفسير التّحرير والتّنوير، ابن عاشور، ج 12، ص: 260.

(3)- ينظر: مناهج البحث في اللّغة، تمّام حسّان، ص: 175.

(4)- ينظر: المرجع نفسه، ص: 177.

(5)- ينظر التّفصيل في نوعي النّبر (التّوتر – والموسيقيّ) في كتاب: علم الأصوات، برتيل مالمبرج، ص: 188 وما بعدها.

(6)- ينظر: المرجع نفسه، ص: 188.

(7)- يرى بعض اللّغويين أنّ النّبر في اللّغة العربيّة من النّوع الموسيقيّ الإيقاعيّ، ويتّضح في النّبر السّيّاقيّ أكثر ممّا يتّضح في نبر النّظام الصّرفيّ، والقصد منه إظهار موسيقى اللّغة. ينظر: اللّغة العربيّة معناها ومبناها، تمّام حسّان، ص: 307.

نستطيع القول أنّ هذين الشّكلين للنّبر مذكوران في تعريف اِبن منظور، عندما جعل النّبر يعني الضّغط على الحرف، ويعني أيضا اِرتفاع الصّوت في الكلام[1]، وهو تعريف يماثل تحديد المحدثين لأشكال النّبر.

ج – النّبر الانفعاليّ:

وهو ضغط على جزء من الكلمة يصاحب انفعالات المتكلّم وتعبيره عن عواطفه، وأبرز مجال لملاحظة هذا النّبر ما ارتبط من الكلام بالعاطفة قصد إبرازها، مثل: إلقاء الخطب الحماسيّة، والقصائد الشّعريّة، ويخضع هذا النّبر للطّبيعة الفرديّة ومقاصدها في التّعبير عن غرض خاصّ؛ وحتّى اللّغات الّتي ينتظم فيها النّبر قد يوضع هذا النّبر على مقطع غير المقطع الّذي يقع عليه النّبر عادة[2].

4- مظـاهـر النّبـر

وللنّبر مظاهر كثيرة في اللّغة العربيّة والقراءات القرآنيّة تتمثّل في:

أ – الهمــز:

يرى عبد القادر عبد الجليل أنّ صوت الهمز يتّسم بخاصيّة النّبر[3]، الهمز في اللّغة هو «الغمز والضّغط، ومنه الهمز في الكلام لأنّه يضغط عليه، وقد همزت الحرف فانهمز.»[4] وأوّل ما نلاحظه على التّعريف اللّغويّ هو ذكر ابن منظور لكلمة الضّغط؛ الّتي ترى الدّراسات الحديثة أنّها تعني النّبر، ومعجم لسان العرب ذكر أيضا كلمة النّبر مفسّرا إياها بقوله: «النّبر بالكلام الهمز، والنّبر مصدر، نبر الحرف ينبره نبرا همزه، ... والنّبر عند العرب: ارتفاع الصّوت، يقال: نبر الرّجل نبرة: إذا تكلّم بكلمة فيها علوّ.»[5] فما نستخلصه من خلال هذه التّعاريف اللّغويّة ومع ما جاء في الدّراسات الصّوتيّة الحديثة أنّ الهمز = الضّغط = النّبر.

(1)– ينظر: لسان العرب، ج 14، مادّة: نبر.

(2)– ينظر: سيكولوجيّة اللّغة، جمعة سيّد يوسف، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد الرّابع، 1990م، ص: 165.

(3)– ينظر: علم الصّرف الصّوتيّ، ص: 91.

(4)– لسان العرب، ابن منظور، ج 07، مادّة: همز.

(5)– المرجع نفسه، ج 14، مادّة: نبر.

ب – مدّ الحركات:

المدّ لغة هو الزّيادة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ١٢﴾ نوح: ١٢، أيّ يزدكم[1]، والمدّ اصطلاحا هو إطالة زمن صوت حرف المدّ إلى أكثر من حركتين عند ملاقاة همز وسكون، وهو ضدّ القصر. والمدّ صورة من صور أداء القرآن وتجويده، وقد عرض علماء القراءات والتّجويد لأنواع المدّ وذكروا أنّه نوعان: طبيعيّ وعرضيّ، فالطّبيعيّ هو الّذي لا تقوم ذات حروف المدّ دونه، وهو ما يعرف عندهم بالقصر، أمّا العرضيّ فهو الّذي يعرف زيادة على المدّ الطّبيعيّ، وجعلوا له أنواعا كثيرة فمنه اللاّزم والعارض للسّكون ومنه المتّصل والمنفصل[2].

ج – دلالة صوت المدّ:

إنّ المستمع إلى قارئ يقرأ القرآن يجد أنّ أحكام المدّ في القراءة بنيت على أساس صوتيّ صحيح، ولو سمعنا قارئا لا يؤدّي المدّ أداء سليما لأدركنا نشازا في الأداء، لأنّ قراءة المدّ مثيرة للانتباه، وتحمل دلالة يعيها السّامع كما يعيها القارئ، من ذلك تفخيم القارئ في المدّ في الكلمات الّتي تدلّ على الرّهبة؛ مثل: «الصّاخة»، «والّتي يقصد بها تربيّة المهابة، وإدخال الرّوعة في ضمير السّامع.»[3] أمّا إذا جاء المدّ في كلمة تدلّ على الرّحمة فإنّك تجد القارئ يرقّق في أداء المدّ[4]، كقراءة قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ١﴾ القدر: ١

د – التّضعيف:

التّضعيف في مفهومه هو شدّ الحرف أو الصّوت، أيّ زيادة مجانس وإدغام الأصل فيه، مثل: «شدّ»، ويطلق عليه علماء التّجويد التّشديد، «وهو خلاف التّخفيف، والشّدّة: خلاف اللّين.»[5] إذن فالتّضعيف هو نطق للصّوت مرّتين، أو إعطاء الصّوت أمدا أطول؛ لأنّ هناك أصوات تنطق

(1)– ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج 21، ص:256 .

(2)– ينظر تفصيل ذلك في كتاب: هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، عبد الفتّاح السّيّد عجميّ المرصفيّ، مكتبة طيبة، المدينة المنوّرة، ط1، د ت، ص: 266 وما بعدها.

(3)– البرهان في علوم القرآن، الزّركشيّ، ج 03، ص 67: .

(4)– ينظر: دراسات لغويّة في القرآن الكريم وقراءاته، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1421هـ – 2001م، ص: 160.

(5)– لسان العرب، ابن منظور، ج 04، مادّة: شدد.

بأمد قصير، ويكون النّبر فيه بإظهار المقطع بأكبر جهد تنفّسيّ ونطقيّ[1]، وهذا الجهد ينعكس على المستوى الأكوستيكيّ بتغيّرات متميّزة في السّلسلة النّغميّة للتّردد الأساسيّ، وسلسلة الضّغط، والمدّة الزّمنيّة.

5- فـوائـد النّبر

يجمع أغلب علماء الأصوات على أنّ الدّراسة العلميّة للأصوات من حيث المخارج والصّفات غير كافية؛ باعتبارها تخضع لقواعد معيّنة في تجاوزها وارتباطاتها ومواقعها؛ وعليه فدراسة التّشكيل الصّوتيّ تقتضي دراسة الظّواهر الّتي لا ترتبط بالأصوات في ذاتها؛ بل بالمجموعة الكلاميّة بصفة عامّة كالنّبر والتّنغيم -أيّ دراسة سلوكها داخل التّركيب- ومن هنا تظهر فوائد النّبر في[2]:

- عند نطق المقطع المنبور؛ نلاحظ عدّة أنشطة في الجهاز الصّوتيّ البشريّ: نشاط عضلات الرّئيتن بشكل مميّز؛ ديناميّة حركات الوترين الصّوتين واتّساع الذّبذبات، تقارب الوترين الصّوتين أكثر في حالة الأصوات المجهورة، وابتعادها أكثر في حالة الأصوات المهموسة.
- إبراز معنى الكلام أو على الأقلّ يساعد في إبرازه، وذلك بأن ينبّه إلى المقطع المنبور.
- إنّ النّبر يعرف من فعل المتكلّم لا من فعل السّامع؛ فالمتكلّم يلفت انتباه المتلقّي.

خلاصة القول: إنّ للنّبر قيما صوتيّة نطقيّة، وأخرى فونولوجيّة وظيفيّة، فهو من النّاحيّة النّطقيّة ذو أثر سمعيّ واضح؛ يميّز مقطعا من آخر أو كلمة من كلمة أخرى، أمّا من النّاحيّة الوظيفيّة فإنّ النّبر يؤدّي إلى التّعرّف على التّتابع المقطعيّ في الكلمات ذات الأصل الواحد عند تنوّع درجات نبرها ومواقعه[3]؛ أمّا على مستوى الجملة فإنّ للنّبر وظائف بالغة في الأهمّيّة؛ إنّه عند تنوّع النّبر ودرجاته يفيد التّأكيد أو عكسه، وذلك من خلال الانتقال من كلمة إلى أخرى.

6- وظيفــة النّبــر

لا ينتهي الأمر عند الدّفاع عن وجود النّبر في الاستعمال اللّغويّ العربيّ، وإنّما تكون أكثر أهمّيّة في قضيّة تقسيم اللّغات إلى لغات نبريّة ولغات غير نبريّة، وعدّ اللّغة العربيّة من القسم الثّاني؛ فهذا يجعل الظّاهرة اللّغويّة تعيش حالة الوجود؛ ولكنّها لا تمارس الوجود والأثر الإيجابيّ في استعمال

---

(1)- ينظر: التّحليل الأكوستيكيّ لنبر الكلمة في اللّغة العربيّة، د. عبد الحميد زاهيد، مجلّة اللّسان العربيّ، المنظّمة العربيّة للتّربيّة والثّقافة، مكتب تنسيق التّعريب، الرّباط، العدد: 46، شعبان 1319هـ – ديسمبر 1998م، ص: 197.

(2)- ينظر: الأصوات اللّغويّة، إبراهيم أنيس، ص: 141.

(3)- ينظر: التّحليل الأكوستيكيّ لنبر الكلمة في اللّغة العربيّة، عبد الحميد زاهيد، ص: 198.

اللّغة ودراستها[1]؛ في حين أنّ النّبر لم يلازم موضعا معيّنا في السّياقات المختلفة، ممّا ينبّئ أنّه نبر تمييزيّ دلاليّ يفرّق بين المعاني؛ بدليل ما للنّبر من وظائف يؤدّيها وهي:

أ – الوظيفة الصّوتيّة:

من المعروف أنّ أداء الكلام لا يجري على طبيعة صوتيّة واحدة؛ بل يتمّ الضّغط على بعض المقاطع أكثر من غيرها؛ ممّا يتبعه نوع من الوضوح السّمعيّ، ولذا فإنّ النّبر يقوم بوظيفة نطقيّة تتّصل في المقام الأوّل بالنّظام الصّوتيّ للّغة؛ بحيث نجد أداء المتكلّم يقسّم الحدث الكلاميّ المنطوق إلى أقسام ترتبط بأهميّة المقاطع الّتي يؤدّيها من ناحية، وبإيقاع تنفّسه الطّبيعيّ من ناحية أخرى[2]. وتتمثّل وظيفة النّبر الصّوتيّة – أيضا – في سرعة الأداء الكلاميّ؛ فقد استقرّ في الدّراسات اللّهجيّة الصّوتيّة أنّ اللّهجات والبيئات اللّغويّة الّتي تميل إلى السّرعة في أداء الكلام؛ تتوسّل بالنّبر من أجل بلوغ هذه السّرعة[3]، ولا بدّ من التّوضيح هنا أنّ سرعة الأداء تمثّل سببا ووظيفة للنّبر في آن واحد.

ب – الوظيفة الصّرفيّة:

انقسم الباحثون إلى فريقين في تصنيف اللّغة العربيّة واعتبارها من اللّغات ذات النّبر الحرّ الّذي يقوم بالوظيفة التّمييزيّة، وفيه تتّضح العلاقة بين النّبر والصّرف[4]، أو اعتبارها من اللّغات ذات النّبر الثّابت؛ بحيث لا يقوم بالوظيفة التّمييزيّة[5]. هذا التّضارب في الآراء يصعّب عمليّة تصنيف اللّغة العربيّة نظرا لما تتميّز به من خصائص نبريّة معقّدة، وعلى الرّغم من ميل الكثير من الدّارسين المحدثين إلى اعتبار اللّغة العربيّة من اللّغات ذات النّبر الثّابت؛ «إلاّ أنّ طبيعتها الاشتقاقيّة تفرض نوعا من العلاقة بين الصّرف والنّبر.»[6]

يعتبر تمّام حسّان من أكثر اللّغويّين المحدثين العرب الّذين تحدّثوا عن العلاقة بين الصّرف والنّبر بحيث يقول: «يكون النّبر على مستوى الصّيغة والكلمة ذا وظيفة صرفيّة؛ هي تقديم القيم الخلافيّة الّتي تفرّق مع الكميّة بين معنى صرفيّ ومعنى صرفيّ آخر، ويمكن بواسطتها مثلا أن نفرّق بين طوائف

(1)- ينظر: دلالات الظّاهرة الصّوتيّة، خالد قاسم، ص: 147.

(2)- ينظر: في علم اللّغة، د. غازي مختار طليمات، مكتبة دار طلاس للنّشر، دمشق، ط3، 2007م، ص: 153.

(3)- ينظر: في اللّهجات العربيّة، د. إبراهيم أنيس، النّاشر: مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، الطّباعة: مطبعة أبناء وهبه حسّان، ط3، نوفمبر 1965م، ص: 115

(4)- ينظر: دراسة السّمع والكلام، سعد مصلوح، ص: 238.

(5)- ينظر: دراسة الصّوت اللّغويّ، عمر أحمد مختار، ص: 357.

(6)- القضايا التّطريزيّة، أحمد البايبيّ، ج 02، ص: 71.

من الصّيغ مثل: فَعِلَ – فَعَّل – فَاعِل – فَعِيل حيث يفرّق بين الكلمات الأربع بالكميّة، وبين الثّلاث الأولى على المقطع الأوّل، وفي الرّابعة على الثّاني.»[1] إذن النّبر الصّرفيّ له وظيفته التّمييزيّة في اللّغة العربيّة، ويفرّق بين معاني الكلمات من خلال ميزانها الصّرفيّ، وهو ما يؤكّده تمّام حسّان قائلا: «والكلمات تركيبات من أنساق صوتيّة لها نظامها النّبريّ الخاصّ المستقلّ عن نظام النّبر في الأنساق الكبرى ... والواقع أنّ النّبر في الكلمات العربيّة من وظيفة الميزان الصّرفيّ لا من وظيفة المثال ... فكلمة «فاعل» نجد أنّ الفاء أوضح أصواتها لوقوع النّبر عليها؛ وباعتبار هذه الصّيغة ميزانا صرفيّا؛ نجد أنّ كلّ ما جاء على مثاله يقع عليه النّبر بنفس الطّريقة مثل: قَاتِل – حَابِس – نَاقِل – رَابِط – عَازِل – شَاغِل – ضَارِب – عَازِم – خَازِن؛ حتّى الأمر من صيغة الفاعل: كجَاهِد – سَافِر؛ تقع في نموذج هذا الوزن فتلقّى النّبر على فاء الكلمة ... ومن هنا لا نكون مبالغين؛ إذا قلنا إنّ النّبر في الكلمات العربيّة موقعيّة تشكيليّة وصرفيّة في نفس الوقت.»[2] فيكون بذلك النّبر واقعا لغويّا تتطلّب دراسته داخل البنيّة اللّغويّة.

ج – الوظيفة الدّلاليّة:

يمثّل الدّور الدّلاليّ الّذي يقوم به النّبر الوظيفة الرّئيسيّة له، وتتّصل هذه الوظيفة بسياق الحال، وتتحدّد وفقا لاختيار المقطع المنبور[3]، وهذا الاختيار محكوم بالأغراض الدّلاليّة الّتي يرغب المتكلّم في توصيلها وإبلاغها للسّامع؛ أيّ: «تمكّن المخاطب من إدراك فحوى الخطاب؛ فيتحقّق بذلك التّفهيم. وينبغي لهذا التّفهيم أن ينتهي إلى السّامع على الصّورة الّتي يتوخاها المتكلّم،»[4] ويكون التّعامل مع النّبر في هذه الوظيفة على أساس عدّه وحدة صوتيّة من وحدات السّياق الدّلاليّ.

د – الوظيفة التّعبيريّة:

يساهم نبر الجملة في إبراز كلمة معيّنة الّتي تشكّل النّواة؛ بحيث تتضمّن إيقاعا بارزا يقترن به نبر العلوّ الموسيقيّ ويتحكّم فيه؛ ممّا يؤكّد أهميّتها عند المتلقّي، وأمثلة القرآن الكريم «تبيّن الكيفيّة الّتي يمكن لنبر الجملة أو لنبر العلوّ الموسيقيّ أن يحدّدا البؤرة أيّ الخبر الجديد والهامّ في الجملة، ويحدّد

---

(1)- اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص: 171.

(2)- مناهج البحث في اللّغة، ص: 175.

(3)- ينظر: المرجع نفسه، ص: 177، والأصوات اللّغويّة، إبراهيم أنيس، ص: 102.

(4)- في التّنظيم الإيقاعيّ للّغة العربيّة: نموذج الوقف، د. مبارك حنون، دار الأمان الرّباط، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1431هـ- 2010م، ص: 58.

مصدر اختلاف تأويل بعض الآيات، ممّا يوضّح جليّا هذه الوظيفة.»[1] لقد مثّل أحمد البايبيّ لهذه الوظيفة بقوله تعالى:﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ هود: ٤٢، ورأى أنّ القراء الشّاذة للآية تكون بمدّ المقطع /نا/ فتصير بؤرة النّواة الّتي تمثّل نبر العلوّ الموسيقيّ، وقد يكون النّبر على المقطع /دى/ وتصبح بذلك كلمة «نادى» هي البارزة، وقد تكون القراءة بالنّبر على المقطع /ح/ فتصبح كلمة « نُوحٌ » هي البارزة[2]، وممّا يستخلص هو أنّ نبر أيّ مقطع من هذه المقاطع المذكورة الغرض منه لفت السّامع إلى الكلمة المراد إبرازها، وذلك بواسطة نبر العلوّ الموسيقيّ، وبالتّالي تتحقّق الوظيفة التّعبيريّة للنّبر.

هـ – الوظيفة الإيقاعيّة:

يرى علماء اللّسانيّات أنّ للنّبر وظيفة إيقاعيّة، ويعتبرون الإيقاع آليّة من آليات الجمال للنّصّ، بحيث تكسبه المتعة الجماليّة؛ فالوحدات المشكّلة للنّبر سواء على مستوى الحرف أو الكلمة؛ تؤدّي إلى شحن العواطف والانفعالات في نفسيّة المتلقّي، ولقد جُعِلَ الإيقاع وسيلة سخّرها الخطاب القرآنيّ بهدف التّأثير، والتّمكين في المتلقّي بقصد الاستجابة والإذعان؛ وقد اعتنى لأجل ذلك باختيار الأصوات الدّقيقة المناسبة، والحدود بين النّبرات حتّى يتشكّل الإيقاع تشكيلا صوتيّا يتناسب مع اللّفظ والمعنى[3]، وقد أشار تمّام حسّان إلى الوظيفة الإيقاعيّة للنّبر قائلا: «لكلّ من النّبر الأوّليّ والنّبر الثّانويّ قواعده الخاصّة به؛ الّتي تنسجم مع وظيفته الإيقاعيّة في حدود الصّيغة أو الكلمة.»[4] ولا تأتي هذه الإيقاعيّة للنّبر وفق وتيرة واحدة؛ بل تتنوّع تشكيلاتها خاصّة في الخطاب القرآنيّ، وذلك لتميّز البنى فيه وتفرّدها عن أيّ خطاب بشريّ.

و – الوظيفة الجماليّة:

يمثّل الكلام أكثر المهارات مرونة وطواعيّة للبشر، وهذه المرونة قد تكون موهبة عند البعض، وقد تكتسب بالدّربة والتّعلّم عند البعض الآخر، وقد يتمكّن المتحدّث من أن يكسب حديثه من الطّلاوة في الصّوت، والحلاوة للمعنى، والسّلاسة في القول؛ وذلك عن طريق تباين نبراته، فيصبح كلامه جليّا، يحلو لدى المتلقّي، ويرغب في الاستماع إليه.

---

[1]- القضايا التّطريزيّة، أحمد البايبيّ، ج 02، ص: 75.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[3]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 76.

[4]- اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص: 172

ويتجلّى النّبر بجماليّاته وتأثيراته في كلّ اللّغات، وينعدم عند أولئك الّذين ليسوا أهل اللّغة، بدليل أنّه عندما نسمع انجليزيّا – مثلا- يتحدّث العربيّة نعرف بكلّ سهولة أنّه غير عربيّ اللّسان[1]، وإن كانت كلماته صحيحة وتراكيبه اللّغويّة سليمة، وسبب هذا الانطباع - غالبا - ما يكون من عدم تمكّنه من إخراج الأصوات من مخارجها الدّقيقة، وأيضا من اختلاف مواقع النّبر عنده بخلاف ما يفعله أصحاب اللّغة الأصليّون، «فنطق اللّغة لا يكون صحيحا إلاّ إذا روعي فيه موضع النّبر.»[2]

المبحث الثّاني: النّبر بين العلماء القدماء والمحدثين

1- النّبر في الدّراسات العربيّة القديمة:

ينفي العديد من الدّارسين وجود النّبر في الدّراسات العربيّة القديمة، وأنّ العلماء أغفلوا قيمته في مؤلّفاتهم، يقول هنري فليش Henry Fleisch : «نبر الكلمة فكرة كانت مجهولة تماما لدى النّحاة العرب؛ بل لم نجد له اسما في سائر مصطلحاتهم، أمّا علم الصّرف فيبدو أنّ فكرة النّبر قد أهملته جزئيّا، وذلك في حالة واحدة فحسب؛ حين تلحق بالاسم المؤنّث ألف التّأنيث الممدودة المنبورة في مقابل الألف المقصورة غير المنبورة، وهذه الحالة تدع رغم ذلك دورا ثانويّا للنّبر.»[3]

الملاحظ على قول فليش نفيه القاطع لوجود ظاهرة النّبر عند العرب القدامى؛ بل وحتّى أنّه يرى عدم وجود أيّ مصطلح يدلّ عليه، إلاّ ما أشار إليه من ألف التّأنيث الممدودة عند علماء الصّرف دون علماء النّحو[4]، كما أنّ عدم ذكر النّحاة العرب للنّبر لا يعني أنّ اللّغة العربيّة خالية منه، فهم لم يصرّحوا به، لكنّ موضوعه وارد في مصنّفاتهم، وواضح في شروحاتهم بدليل ما ذكره ابن منظور قائلا: «النّبر هو الهمز.»[5]

---

(1)- ينظر: الأصوات اللّغويّة، إبراهيم أنيس، ص: 171.

(2)- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(3)- العربيّة الفصحى- دراسة في البناء اللّغويّ-، هنري فليش، تعريب وتحقيق وتقديم: د. عبد الصّبور شاهين، النّاشر: مكتبة الشّباب، مصر، ط1997م، ص: 64.

(4)- يفرّق المستشرقون في دراساتهم بين علماء النّحو وعلماء الصّرف وعلماء القراءات وعلماء التّجويد العرب القدامى؛ في حين أنّ علماءنا قديما كان لهم قسط وافر ودراية عظيمة بعلوم شتّى، ولم يعملوا البتّة على التّفريق بينها؛ لأنّهم اعتبروها كلّها خدمة للّغة العربيّة وبالتّالي خدمة القرآن الكريم.

(5)- لسان العرب، ج 14، مادّة: نبر.

يقول جان كانتينو Jaune Cantineau: «لا يمكن أن نعوّل على النّحاة العرب القدامى فيما يخصّ التّطريز[1]؛ فهم لم يهتمّوا بالمقطع ولا بالتّقطيع المقطعيّ، فإذا كانوا قد اهتمّوا بكمّيّة الحركات والإيقاع الشّعريّ المبنيّ على هذا الكمّ؛ فإنّهم لم يهتمّوا لا بنبر الكلمة ولا بتنغيم الجملة، واقتصرت دراستهم على الوقف.»[2] إنّ كانتينو هو الآخر يرى أنّ الظّواهر فوق مقطعيّة لم توجد عند النّحاة العرب، وما عرفوه هو التّقطيع في المجال الشّعريّ فقط.

إنّ ما ذُكِر يمثّل التقاء مجموعة من اللّسانيّين الغربيّين والعرب على تأكيد نفي الظّاهرة الصّوتيّة المتمثّلة في النّبر عن الدّراسات اللّغويّة القديمة، «والواقع أنّ الدّراسات النّحويّة والصّرفيّة تشهد لأصحابها على إسهامهم في معالجة جوانب من الظّواهر الصّوتيّة فوق مقطعيّة؛ وبخاصّة الوقف وما يدرس فيه من (الإشمام والرّوم)، والطّول وما فيه من (المدّ والإدغام)، والإيقاع وما يحتويه من (تخفيف الهمز والإمالة والتّفخيم والاتّباع)؛ فهذه الظّواهر قتلت بحثا من جوانبها المتعدّدة، ولكن إذا كان قَصْدُ هؤلاء من التّطريز هو نطاقه الأكثر أرثوذكيّة؛ أيّ: النّبر والنّغم والتّنغيم بتعبير أندرسن؛»[3] إنّ هذه الأحكام الّتي أطلقها بعض اللّسانيّين على الدّراسات العربيّة القديمة؛ والّتي تتضمّن التّأكيد انعدام النّبر فيها، وخلوّها منه، هو من ناحية أخرى مدعاة للباحثين العرب إلى ضرورة دراسة تراثنا العربيّ بشكل من الدّقّة والأناة؛ حتّى يتمكّنوا من إيجاد حقائق علميّة تثبت وجود ظاهرة النّبر وغيرها من الظّواهر فوق مقطعيّة عند العرب القدامى؛ وقد تكون ذات مسميّات أخرى، أو لها تحليل وشرح يدلّ عليها.

يقول كارل بروكلمان Carl Breukelman مؤيّدا وجود النّبر في اللّغة العربيّة: «في اللّغة العربيّة القديمة يدخل نوع من النّبر تغلب عليه الموسيقيّة، ويتوقّف على كمّيّته المقطع؛ فإنّه يسير من مؤخّرة الكلمة نحو مقدّمتها؛ حتّى يقابل مقطعا طويلا فيقف عنده فإذا لم يكن في الكلمة مقطع طويل؛ فإنّ النّبر يقع على المقطع الأوّل منها.»[4] لقد عرفت العربيّة النّبر، وعبّرت عنه بمسمّيات

---

(1)- مصطلح يقصد به الظّواهر فوق مقطعيّة.

(2)-Etudes de linguistique arabe; Mémorial Jean Cantineau; Publushed in 1960 in Paris; by Klincksieck; p: 149.

(3)-Theories of Representations; Stephen R Anderson; University of Chicago Press; 1985; p: 213.

نقلا عن: القضايا التّطريزيّة في القراءات القرآنيّة، أحمد البايبيّ، ج 01، ص:146.

(4)- فقه اللّغات السّامية، كارل بروكلمان، ترجمة: د. رمضان عبد التّواب، مطبوعات جامعة الرّياض، د ط، د ت، ص: 45.

«كالهمز، والعلوّ، والرّفع[1]، ومطل الحركات[2]، والإرتكاز[3]، والمدّ[4]، والتّوتر، والتّضعيف، وكلّها تفضي إلى مستوى دلاليّ واحد بوظائف تباينيّة تبعا للسّياق.»[5]

وقد عرف الأوائل النّبر بمعنى الهمز، فصاحب العين يذهب إلى أنّ النّبر (هو الهمز) وكلّ شيء رفع شيئا فقد نبره[6]. والنّبر هنا هو «المكافئ الاصطلاحيّ للهمز عند العرب، وإنّ كليهما يتطلّب نشاطا متّحدا من أعضاء النّطق: الرّئتان، عضلات الصّدر، أقصى الحنك، الشّفتان، اللّسان؛ ممّا يؤدّي إلى تعاظم مساحة السّعة في الذّبذبات الصّوتيّة.»[7] وهو ما ذكره ابن منظور بحيث رأى أنّ النّبر هو الهمز، والمنبور المهموز، وانتبر الخطيب، أيّ ارتفع صوته[8]، ويعلّق عبد الصّبور شاهين على تعريف ابن منظور قائلا: «إنّ صاحب اللّسان سها حين لم يشر إلى العلاقة بين الهمز والضّغط في مادّة ضغط، كما أنّه لم يورد لفظة نبر في مادّتي همز وضغط، ولكن حسبنا كلامه في مادّة نبر عن العلاقة بين الهمز والنّبر،»[9] ليتوصّل عبد الصّبور شاهين بعد تعقيبه على تعريف صاحب اللّسان إلى نتيجة رياّضيّة مفادها: أنّ الهمز = الضّغط= النّبر[10].

وقد نقل الزّركشيّ في باب «معرفة القراءات» عن ابن مجاهد قوله: «إنْ شَكَّ القارئ في حرف هل هو مهموز أو غير مهموز؛ فليترِكْ الهمز.»[11] ويبدو أنّ الهمز هنا مقصود به النّبر، ونَهى عنه الزّركشيّ تطبيقا لأمر الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- بعدم النّبر باسمه.

---

(1)- مصطلحات تدلّ على النّبر. - ينظر: لسان العرب، اِبن منظور، ج 07، مادّة: نبر.

(2)- مطل الحركات مصطلح وظّفه اِبن جنّي في كتابه الخصائص. - ينظر: ج 03، ص: 133.

(3)- وهناك خلاف كبير بين المعاصرين بين مدلوليْ مصطلح stress ومصطلح accent، وهو ما يؤدّي إلى الاختلاف في توظيف مصطلحيْ النّبر والارتكاز. وقد اِستخدم بعض علماء اللّغة المحدثين مصطلح الاِرتّكاز للدّلالة على النّبر؛ قاصدين به درجة قوّة النّفس الّتي ينطق بها صوت أو مقطع منبور. - ينظر: علم اللّغة، محمود السّعران، ص: 157.

(4)- ويعني المدّ ما زيد في المقطع من طول، وشدّته ما زيد فيه من ضغط وارتكاز.

(5)- الأصوات اللّغويّة، د. عبد القادر عبد الجليل، دار الصّفاء للنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 1998م، ص: 329.

(6)- ينظر: العين، الفراهيديّ، ج 08، مادّة: نبر.

(7)- علم الصّرف الصّوتيّ، عبد القادر عبد الجليل، ص: 113.

(8)- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ج 07، مادّة: نبر.

(9)- القراءات القرآنيّة في ضوء علم اللّغة الحديث، عبد الصّبور شاهين، ص: 22.

(10)- ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(11)- البرهان في علوم القرآن، الزّركشيّ، ج 01، ص: 487.

وكما أسلفنا الذّكر فيما رآه مالبرج في اعتقاد العرب القدماء؛ أنّ النّبر في تصوّرهم هو الضّغط على الحرف، متتبّعين وجوده على الحروف، وأثره في هيئاتها؛ فرأوا أنّ النّبر يكون على الهمز سواء كانت على الألف أو الواو أو الياء، وعلى الرّغم من أنّ الهمزة مع التّطوّر أصبحت حرفا من حروف الهجاء؛ فإنّها قديما كانت حالة نطق للحرف، وممّا يتّصل بهذا المفهوم «مطل الحركات»، وهو مصطلح جاء به ابن جنيّ في كتابه في باب تحت عنوان «باب في مطل الحركات»، وهذا النّوع يقارب مصطلح النّبر في نظر العديد من المحدثين الّذين يرون أنّ النّبر طاقة زائدة في النّطق للمقطع المنبور.

وهذا المفهوم عرفه سيبويه قبل ابن جنيّ في باب «الإشباع في الجرّ والرّفع وغير الإشباع والحركة كما هي؛» بحيث يقول: «فأمّا الّذين يشبعون فيمطّطون وعلاقتها واو وياء، وهذا تحكمه لك المشافهة.»[1] ويقارب هذا المعنى ما في كتاب الخصائص الّذي يقول فيه صاحبه: «وإذا فعلت العرب ذلك أنشأت عن الحركة الحرف من جنسها فتنشئ بعد الفتحة الألف، وبعد الكسرة الياء، وبعد الضّمّة الواو، والألف منشأة عن إشباع الفتحة، ومن مطل الفتحة قول الهذليّ:

بَيْنَا تَعَنُّقِهِ الكُمَاةُ وروغِهِ يَوْمًا أُتِيحَ لَهُ جَرِيءُ سَلْفَعُ

أي بين أوقات تعنّقه؛ ثمّ أشبع الفتحة فأنشأ عنها ألفا، وحكى الفرّاء: أكلت لحما شاة، أراد: لحم شاة؛ فمطل الفتحة فأنشأ عنها ألفا، ومن إشباع الكسرة ومطلها ما جاء عنهم من صياريف ومطافيل وجلاعيد، قال أبو النّجم:

حَتَّى تَراعَتْ فِي النِّعَاجِ الخُذَّلِ مِنْهَا الْمَطَافِيل وَ غَيْرَ المطفَلِ

ومن مطل الضّمّة قول الشّاعر:

مَمْكُورَةٌ جـمُّ العِظَـامِ غَطْبُـول كَأَنَّ فِي أَنيَابِهَا القُرُنْفُـولُ»[2]

فبدلا من تقصير ضمّة الفاء «القرنفل» مطل فيها؛ فأصبحت «القرنفول» وهذا المدّ مظهر من مظاهر النّبر.

يَعْتَبِرُ الباحث أحمد البايبيّ ابن جنيّ من أكثر العلماء اللّغويّين الّذين كان لهم وعي كبير بمصطلح النّبر أو النّبرة؛ ممّا يثبت أنّ هذه الظّاهرة الصّوتيّة لم تغب عن علماء النّحو والصّرف، ولا توظيفها على نحو ما هو قائم في الدّراسات الصّوتيّة الحديثة؛ بل إنّه يعتبره من أكثر العلماء القدامى

---

(1)- الكتاب، ، ج 04، ص: 202.

(2)- ابن جنيّ، ج 01، ص: 37 - 38.

تناولا للظّواهر الصّوتيّة بنوعيها المقطعيّة وفوق المقطعيّة، وفهمها فهما علميّا[1]، وبالعودة إلى كتابه الخصائص باب «القول على القصر بين الكلام والقول»؛ يتحدّث عن إكثار الشّعراء من استعمال اصطلاح الكلام للدّلالة على الجمل التّامّة؛ يقول: «وممّا يؤنسك بأنّ الكلام إنّما هو للجمل التّوامّ دون الآحاد أنّ العرب لـمّا أرادت الواحد من ذلك خصّته باسم له لا يقع إلاّ على الواحد، وهو قولهم: كَلِمَة وهي حجازيّة، وكِلْمَة وهي تميميّة، ويزيدك في بيّان ذلك قول كُثَير:

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلاَمَهَا خَرُّوا لِعِزَّةَ رُكَّعًا وَسُجُــودَا

ومعلوم أنّ الكلمة الواحدة لا تشجو ولا تحزن، ولا تتملّك قلب السّامع؛ إنّما ذلك فيما طال من الكلام، وأمتع سامعيه بعذوبة مستمعه، ورقّة حواشيه، وقد أكثر الشّعراء في هذا الموضع حتّى صار الدّال عليه كالدّال على الشّاهد غير المشكوك فيه ألاّ ترى إلى قوله:

وَحَدِيثُهَا كَالْغَيْثِ يَسْمَعُــهُ رَاعِي سِنِينَ تَتَابَعَتْ جَدْبَا
فَأَصَاخَ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ حُبًّا وَيَقُولُ مِنْ فَرَحٍ هَيَا رَبَّا

يعني حنين السّحاب وسجره، وهذا لا يكون عن نبرة واحدة، ولا رزمة مختلسة، إنّما يكون مع صدى فيه والرّجع، وتثني[2] الحنين على صفحات السّمع.»[3]

يقوم الباحث بعمليّة تحليل لكلام ابن جنيّ ليثبت للنّافين ظاهرة النّبر في الدّراسات اللّغويّة العربيّة القديمة أنّها واردة لديهم؛ وعن وعيّ علميّ تنمّ عن عبقريّة لغويّة قائلا: «لقد ذكر ابن جنيّ أنّ الشّعراء قد أكثروا من استعمال الكلام للإحالة على الجمل التّوامّ لا على الكلمة الواحدة، وأنّ حديث الشّاعر الّذي يتغزّل بحبيبته يشجي ويطرب، وهذا لا يتأتى إلاّ عن كلمات لا عن كلمة واحدة، وهذا معلوم عندهم حتّى صار الدّال عليه كمقيم الدّليل على ممّا لا يشكّ فيه من الأمور

[1]-ينظر: الملامح التّطريزيّة في الدّراسات النّحويّة والصّرفيّة القديمة ونظريّة تكامل العلوم، مجلّة آفاق الثّقافة والتّراث، مركز جمعة الماجد للثّقافة والتّراث، السّنة: 21، العدد: 81، جمادى الأولى 1434هـ _ مارس 2012م، ص: 107 وما بعدها.

[2]- ثني: يعني التّلوي والانعطاف، وأصله من ثنيت الشّيء إذا أحنيته وعطفته وطويته. – لسان العرب، ابن منظور، ج 18، مادّة: ثنى.

[3]- الخصائص، ابن جنيّ، ج 01، ص: 27 – 29.

المعلومة بالضّرورة، وهذا الحديث يماثل حنين السّحاب وسجره[1]، يسمعه راع توالت عليه سنين من الجذب وتتابعت؛ فأصاخ السّمع لصوت الرّعد وكلّه رجاء أن يصير السّحاب مطرا.»[2]

والأكثر من ذلك فإنّ ابن جنيّ لم يترك الشّاهد الّذي ذكره مبهما للقارئ؛ ولكنّ عقّب عليه وكان تعقيبه أكثر توضيحا، وهذا دليل على الوعيّ الكبير بظاهرة النّبر في كلام العرب، وذلك بقوله: «وهذا لا يكون عن نبرة واحدة، ولا رزمة مختلسة[3]؛ إنّما يكون مع البدء فيه والرّجع، وتثني حنين على صفحات السّمع.»[4] وقد علّق أحمد عبد التّواب الفيوميّ على ذلك قائلا: «وهذا يعني أنّ الشّجو والطّرب والاستحسان والاستغراب لحديثها؛ لا يكون عن نبرة واحدة أيّ لا يكون عن كلمة واحدة منبورة، ولا رزمة مختلسة؛ أيّ ولا يكون عن مجموعة أصوات أو كلمات مختلسة أيّ ذهب فيها بعض الصّوت، وبقي بعضه نتيجة السّرعة وعدم التّأني في النّطق، وإنّما يكون مع البدء والرّجع، وما يحدثه الحنين من تموّج أو تثن على صفحات السّمع.»[5]

إنّ كلام ابن جنيّ يراه علماء اللّسانيّات يحمل معرفة ودراية بظاهرة النّبر في التّشكيل الصّوتيّ، وما تؤدّيه من معان؛ وما تحدثه من تموّجات وانعطافات يدركها المتلقّي، وما يستخلصه أحمد البابيّ أنّ النّبر عند ابن جنيّ يقابل الاختلاس وأنّ فيه يرفع الصّوت، وهذا يوازي قول صاحب كتاب الأفعال موظّفا مصطلح النّبر: «ونبر الكلام نبرا: همزه، والشّيء: رفعه، ومنه المنبر، وبالرّمح: طعن، والغلام: ترعرع، والحرف: همزه، وقريش لا تنبر أيّ لا تهمز.»[6] ويكون النّبر عند بن جنّيّ بالتّأني، والاختلاس بالسّرعة، وهذا التّأني يبرز الأصوات ويجعل السّلسلة الكلاميّة متموّجة لما يتخلّلها من نبرات، وهذا ما يفهم من قوله: تثني الحنين على صفحات السّمع[7]. لقد عرف ابن جنيّ حقيقة ظاهرة النّبر، وأسماها

---

[1]- إذا حنت النّاقة؛ فطربت إثر ولدها، ومدّت حنينها، وقد يستعمل السّجر في صوت الرّعد.- لسان العرب، ابن منظور، ج 06، مادّة: سجر.

[2]- القضايا التّطريزيّة في القراءات القرآنيّة، أحمد البابيّ، ج 01، ص: 147.

[3]- الرّزمة بالتّحريك: ضرب من حنين النّاقة على ولدها ترأمه، وقيل هو دون الحنين، والحنين أشدّ من الرّزمة. وأرزمت الشّاة على ولدها: حنّت، رزمة الصّبيّ: صوته، ورزمة السّباع: أصواتها، والرّزيم: الزّئير، والرّزمة: الصّوت الشّديد، وأرزم الرّعد: اشتدّ صوته، ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ج 15، مادّة: رزم.

[4]- الخصائص، ج 01، ص: 27 - 29.

[5]- أبحاث في علم أصوات اللّغة العربيّة، ص: 182.

[6]- كتاب الأفعال، الإمام أبو القاسم عليّ بن جعفر السّعديّ اللّغويّ المعروف بابن القطّاع، رتّبه: د. سالم الكرنكويّ، مطبعة جمعيّة دائرة المعارف العثمانيّة بعاصمة الدّولة الآصفيّة، 1364هـ، ط1، ج 03، ص: 240.

[7]- ينظر: القضايا التّطريزيّة في القراءات القرآنيّة، أحمد البابيّ، ج 01، ص: 147 - 148.

النّبرة، وبيّن دورها في اللّغة العربيّة في كتابه الخصائص مؤكّدا على وقعها الصّوتيّ المتميّز في السّمع والحسّ، وأثرها الحسن في النّفس.

للتّأكيد على معرفة القدماء للنّبر دون تسميّته بهذا المصطلح الحديث؛ ما يراه كثير من الباحثين المحدثين أنّ علماء التّفسير؛ وخاصّة منهم الصّحابة الّذين عاصروا نزول الوحيّ كان تفسيرهم قائما على ما سمعوه من قرآن كريم عن الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم–؛ بحيث لم يكن تفسيرهم قائما على القراءة؛ وإنّما على السّمع، وكذلك تفسير من تبعهم من الرّجال التّابعين الّذين أخذوا القرآن سماعا أيّ مشافهة، وليس قراءة من المصحف الشّريف، من ذلك قول «السّمرقنديّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ المطففين: ٣، «وَإِذَا كَالُوهُمْ» يعني: إذا باعوا لغيرهم ينقصون الكيل، «أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ» يعني: ينقصون الميزان، وقال بعضهم: « كَالُوهُمْ» حرفان يعني: «كالوا»، ثمّ قال: «هم»، وكذلك «وزنوا» ثمّ قال: «هم يخسرون»، وذكر عن حمزة الزيّات أنّه قال هكذا، ومعناه: هم إذا كالوا أو وزنوا ينقصون، وكان الكسائيّ يجعلها حرفاً واحداً « كَالُوهُمْ» أيّ: كالوا لهم، وكذلك وزنوا لهم، وقال أبو عبيدة: وهذه هي القراءة؛ لأنّهم كتبوها في المصاحف بغير ألف، ولو كان مقطوعاً لكتبوا كالوا هم بالألف. قال الفرّاء: وسمعت أعرابيّة تقول: إذا صدر النّاس أتينا التّاجر فيكيلنا المدّ والمدّتين إلى الموسم المقبل. قال: وهو من كلام أهل الحجاز ومن جاورهم من قيس.»[1]

ولفظ حرفين في كلام أبي عبيد معناه كلمتين ذلك أنّ لفظ «هم» على هذه القراءة مؤكّد لضمير الفاعل، واللّفظ التّوكيديّ كالزّائد عن بناء الجملة[2]؛ في حين أنّ المفعول هو من تمام بناء الجملة الفعليّة في الفعل المتّعدي لأنّ الكلام يتطلّبه، ومن هنا عدُّوا قراءة « كَالُوهُمْ» في حالة تنغيم

[1]- الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج 22، ص: 131 - 132.

[2]- قوله تعالى: « كَالُوهُمْ» في "هم" وجهان: أحدهما – هو ضمير مفعول متّصل، والتّقدير: كالوا لهم، وقيل: هذا الفعل يتعدّى بنفسه تارة وبالحرف أخرى، والمفعول هنا محذوف، أيّ: كالوهم الطّعام، وعلى هذا لا يُكتب كالوا ووزنوا بالألف. والوجه الثّاني – أنّه ضمير منفصل مؤكّد لضمير الفاعل؛ فعلى هذا يكتبان بالألف. – التّبيان في إعراب القرآن، (يعرض لأهمّ وجوه القراءات، ويعرب جميع آي القرآن)، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبريّ، تحقيق: عليّ محمّد البجاويّ، عيسى البابيّ الحلبيّ وشركاه، مصر، 1396هـ – 1976م، ص: 1276.

«هم» مفعولا كلمة واحدة، وفي حالة تنغيمها توكيدا حرفان؛ أيّ: كلمتان، وكذلك الأمر في «وَّزَنُوهُمۡ»(1).

والنّبر هنا يتمثّل في ضغط النّطق بالضّمير ضغطا يشعر بتميّزه عمّا قبله، ويرتفع به صوته عمّا قبله وبعده في كلّ من القراءتين، وكذلك الأمر في جعل الضّمير «هم» في «هم يخسرون» مبتدأ؛ وهذا الضّمير يعدّ لغويّا كلمة، ويعدّ صوتيّا مقطعا، وأبو عبيدة عبّر عن ذلك التّميّز بالوقف؛ فإن وقف حقيقة فهو سريع جدّا «كسكتات حفص»، وهناك احتمال أن يكون قصد بالوقف التّمييز النّبريّ(2).

ما يمكن أن نستنتجه بعد هذه الآراء هو أنّ لعلماء العربيّة القدامى إشارات إلى النّبر في دراساتهم المتنوّعة؛ حتّى وإن لم تكن هذه الدّراسات مستقلّة؛ كما كان عهد العرب في هذا المجال، ولقد تنوّعت طرق تعبيرهم عن هذه الظّاهرة الصّوتيّة.

2- النّبر في الدّراسات العربيّة الحديثة:

يرى الكثير من علماء الأصوات المحدثين أنّ النّبر من الدّراسات اللّغويّة الحديثة؛ لم ينتبه إليه السّلف، وأنّهم عرفوا النّبر بمعنى الهمز، فنجد سيبويه يصف الهمزة قائلا: «واعلم أنّ الهمزة إنّما فَعَلَ بها هذا من لم يخفّفها؛ لأنّه بَعُدَ مخرجها، ولأنّها نبرة تخرج من الصّدر باجتهاد.»(3) أيّ قوّة اندفاع الصّوت، وبالضّغط عليه ليكون بارزا وواضحا للسّمع، وقال الزّمخشريّ: «نبر فلان نبرة: نطق نطقة

---

(1)-ينظر: مستقبل الثّقافة العربيّة، محمود الطّناحيّ، مرجع سابق، ص: 117 - 119. وترتيل القرآن في ضوء الدّراسات اللّغويّة الحديثة، د. عبد الفتّاح عبد العليم البركاويّ، الجريسيّ JERAISY، للكمبيوتر: الطّباعة والتّصوير، القاهرة، ط1، 1425هـ – 2004م، ص: 190.

(2)-وقد نبّه العلماء على بعض الضّمائر في القرآن الكريم من قبل الاتّصال والانفصال في كتب الوقف والرّسم والتّجويد؛ خشية أن يلتبس أمرها؛ فقد نبّهوا على «يوم هم» أنّ الضّمير المنفصل في موضعين: قَالَ تَعَالَى:﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ غافر: ١٦، وقَالَ تَعَالَى:﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ الذّاريات: ١٣، وأنّه متّصل في غيرها كقوله تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ٨٣﴾ الزّخرف: ٨٣. - ينظر: إيضاح الوقف والابتداء، أبو بكر محمّد بن القاسم الأنباريّ، تحقيق: محيي الدّين رمضان، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة، دمشق، 1390هـ – 1971م، ج 02، ص: 344. والمختصر في أصوات اللّغة العربيّة، دراسة نظريّة وتطبيقيّة، د: محمّد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب، القاهرة، ط5، 1429هـ – 2008م، ص: 177- 178.

(3)- الكتاب، ج 03، ص: 548.

بصوت رفيع.»[1] إنّه دليل واضح على معرفة القدماء لكلمة النّبر، ولمفهومها الّذي يتقاطع مع مفهوم النّبر في الدّراسات الصّوتيّة الحديثة.

يقول الضّالع: «على الرّغم من إحاطة العرب القدماء بالتّحليل اللّغويّ الدّقيق للدّرس النّحويّ العميق للّغة العربيّة ونصوصها؛ لم نعثر –حسب علمي- على ما يدلّ على تناولهم ظاهرتي النّبر والتّنغيم، ومع أنّهم قدّموا لنا في علميْ التّجويد والقراءات ما تناولوه عن الوقف والاستغراق الزّمنيّ، وهما من المظاهر التّطريزيّة **prosodic** أو الفوقطعيّة **supragmental** الّتي تشمل النّبر والتّنغيم إلى جانب هاتين الظّاهرتين؛ فلم يذكروا عنهما شيئا ولو بأوجز عبارة تدلّ على وجودهما في اللّغة العربيّة وإحساس القدماء بهما، وبطبيعة الحال لا تخلو أيّ لغة طبيعيّة من نبر وتنغيم، فهما يتحقّقان في أيّ كلام منطوق في أيّ لغة من اللّغات الحيّة، واللّغة العربيّة كانت قديما — وما زالت حديثا – إحدى اللّغات الحيّة؛ فمن الطّبيعيّ أن يوجد فيها نبر وتنغيم قديما، كما يوجد بها حديثا... ولكن النّبر بطبيعة الحال موجود في اللّغة العربيّة على المستوى الصّوتيّ **phonetic** أيّ في التّحقيق الصّوتيّ غير الوظيفيّ؛ لدرجة أنّ بعض علماء الصّوتيّات الغربيّين يضعون اللّغة العربيّة في قائمة اللّغات ذات الإيقاع النّبريّ **stress-timed language** عند تصنيفهم للّغات العالم من النّاحيّة الإيقاعيّة.»[2]

ينفي هذا الباحث اللّغويّ نفيّا قاطعا معرفة العلماء العرب قديما لغويّين كانوا أو مجوّدين لظاهرة النّبر وكذا التّنغيم، وفي هذا إخلال بجهود العرب، وإجحاف في حقّهم، ولدراستهم العلميّة للّغة العربيّة؛ لأنّه لو تتبّع المحدثون من الباحثين العرب آثار القدامى، وتقصّوه استقصاء متأنّيا لوجدوا في طيّات مصنّفاتهم ما يحيل إلى حقيقة علميّة؛ مفادها معرفة العلماء من العرب الأوائل هذه الظّواهر فوق مقطعيّة، وتطرّقهم إليها في دراستهم للنّصوص الشّعريّة والنّثريّة؛ لكن دون وضع للمصطلح نفسه الّذي وضعه المحدثون، أو مصطلح خاصّ بها.

ويذهب في هذا المذهب عدد من الدّارسين مردّدين عدم معرفة العرب الأوائل لظاهرة النّبر[3]، لدرجة أنّ أحمد كشك يستنتج من خلال هذه الآراء أنّه يوجد إحساس عامّ عند اللّغويّين المعاصرين؛

(1)– أساس البلاغة، ج 02، مادّة: نبر.

(2)– قضايا أساسيّة في ظاهرة التّنغيم في اللّغة العربيّة، محمّد صالح الضّالع، ص: 10.

(3)– نستثني من هؤلاء عبد السّلام المسديّ في كتابه: التّفكير اللّسانيّ في الحضارة العربيّة، ص: 265 – 266. وعبد الكريم مجاهد في بحث له: الدّلالة الصّوتيّة والدّلالة الصّرفيّة عند اِبن جنيّ، مجلّة عالم الفكر، العدد: 26، آذار، 1982م، السّنة الرّابعة، ص: 75 وما بعدها. وأحمد كشك في كتابه: من وظائف الصّوت اللّغويّ، محاولة لفهم صرفيّ ونحويّ ودلاليّ، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط1، 2006م، ص:57. وأحمد البايبيّ في كتابه: القضايا التّطريزيّة في القراءات، ج 01، ص: 145 وما بعدها.

يؤكّد أنّ للنّبر قسمة صرفيّة أو نحويّة في لغتنا العربيّة، ولكن لم يخطر ببال القدامى استخدامهما من هذه النّاحيّة[1]. وأطلق علماء اللّسانيّات المعاصرون هذه الأحكام القطعيّة على العرب الأوائل محتذين حذو رأي كانتينو الّذي ينفي معرفة أو فهم النّحويّين والصّرفيّين القدامى لظاهرتي النّبر والتّنغيم بخاصّة، أو لتوظيفهم لأيّ اصطلاح يحيل عليهما[2].

يعتبر إبراهيم أنيس من الباحثين المحدثين الأوائل الّذين تطرّقوا إلى ظاهرة النّبر، ويراه نشاطا يعتري جميع أعضاء النّطق: نشاط في عضلات الرّئتين، تحرّك الوترين الصّوتيّين، سعة الذّبذبات، ممّا يؤدّي إلى علوّ الصّوت، ووضوحه في السّمع مع الأصوات المجهورة، كما تنشط أعضاء أخرى وهي: أقصى الحنك واللّسان والشّفتان، أمّا عندما يكون الصّوت منخفضا ويقلّ وضوحه؛ فإنّ الصّوت يكون غير منبور، ويعتبر الضّغط هو النّبر[3].

وقد أورد أمثلة عن نبر الكلمات من اللّغة الانكليزيّة، وينفي وجود دليل يهدي إلى موضع النّبر في اللّغة العربيّة كما نطق بها العرب المسلمون الأوائل، وأورد أيضا أمثلة عن مواضع النّبر في اللّغة العربيّة مأخوذة من القرآن الكريم مستندا إلى قراءة القرّاء، واعتبر النّبر خمسة أنواع بالنّظر إلى المقطع ما قبل الأخير، وسمّاها «مواضع النّبر العربيّ كما يلتزمها مجيدو القراءات القرآنيّة في القاهرة.»[4]

تمّام حسّان -هو الآخر- من الباحثين المحدثين الأوائل الّذين تحدّثوا عن النّبر، وقد عرّفه بأنّه «ازدياد وضوح جزء من أجزاء الكلمة في السّمع عن بقيّة ما حوله من أجزائها.»[5] ويرى أنّه من الضّروريّ معرفة البنيّة المقطعيّة أولاً، حتّى يتمكّن الدّارس من شرح نظام النّبر، وقد ركّز في دراسته للنّبر في النّظام الصّرفيّ، وسمّاه نبر الكلمة المفردة، أو نبر الصّيغة المفردة، أو نبر صامت[6]، ثمّ أوضح عبقريّة العرب الأوائل في دراستهم لعلم الصّرف، وكيف أنّهم تمكّنوا من وضع لكلّ كلمة قالبا صرفيّا سمّوه بالميزان الصّرفيّ؛ ممّا يجعل لكلّ مفردة بصيغتها معنى خاصّا بها، ويكون النّبر «على مستوى الصّيغة

(1)- ينظر: من وظائف الصّوت اللّغويّ، أحمد كشك، ص: 57.

(2)- ينظر: . Etudes de Linguistique Arabe; Jaune Cantineau; p: 149

(3)- ينظر: الأصوات اللّغويّة، ص: 98 – 99.

(4)- المرجع نفسه، ص: 101.

(5)- اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص: 170.

(6)- ينظر: المرجع نفسه، ص: 170.

والكلمة ذا وظيفة صرفيّة هي تقديم القيم الخلافيّة الّتي تفرّق مع الكميّة بين معنى صرفيّ ومعنى صرفيّ آخر، ويمكن بواسطتها مثلا أن نفرّق بين طوائف من الصّيغ.»[1]

يرى عمر مختار أنّ هناك مصطلحان انجليزيّان يطلقان على النّبر وهما: Stress، وAccent، ومن بداية حديثه عن النّبر يعترف بصعوبة تعريفه، ويورد مجموعة من التّعريفات الاصطلاحيّة له؛ ليخلص في الأخير أنّها تتّفق على أنّ النّبر يحتاج دائما إلى طاقة زائدة أو جهد عضليّ إضافيّ أثناء النّطق بالمقطع المنبور، وكلّ ما أورده من أمثلة عن وجود النّبر في الكلمة، واختلاف موضعه في الكلمة نفسها؛ المؤدّي إلى اختلاف المعنى كان من اللّغة الانجليزيّة[2].

يسمّي محمود السّعران النّبر الارتكاز، ويرى أنّ الوحدات الصّوتيّة الصّغرى أيّ: الفونيمات المكوّنة للكلمة؛ قد تتطابق بين كلمتين، ولكنّ الّذي يجعل معناهما مختلفا هو موضع الارتكاز في كلّ منهما بحيث يكون مختلفا، وأورد في ذلك أمثلة من اللّغة الانجليزيّة؛ مؤكّدا على أنّ الارتكاز يستعمل استعمالا وظيفيّا للتّفريق بين المعاني، وكانت غايته من ذلك التّأكيد على وجهة نظر أوردها في دراسته قبل التّفصيل في ظاهرة الارتكاز؛ وهي أنّ الدّراسة الصّوتيّة جزء أصيل من دراسة المعنى، وربط أهميّة الارتكاز في التّفريق بين المعاني دون أن يلحق الكلمة تغيير في فونيماتها؛ الاختلاف في التّنغيم، أو تغيير في طول الأصوات الصّامتة، أو كلاهما معا، موضّحا ذلك من خلال كلمة «الله» واختلاف صور نطقها في العاميّة المصريّة[3].

ربط كمال بشر في دراسته الفونولوجيّة للأصوات بين المقطع والنّبر قائلا: «المقطع والنّبر متلازمان في الدّرس والتّحليل، ذلك أنّ المقطع حامل للنّبر، والنّبر أمارة من أمارات تعرّفه، ومن ثمّ كان الكلام عليهما معا.»[4] ويتوضّح ذلك من خلال التّعريف الاصطلاحيّ للنّبر الّذي هو نطق مقطع من مقاطع الكلمة بصورة واضحة وجليّة مقارنة مع بقيّة المقاطع المجاورة، والمقطع المنطوق بصورة أقوى يسمّى مقطعا منبورا، يتطلّب طاقة وجهدا أثناء النّطق به[5]. كما أنّه يعتبر النّبر ملمحا تمييزيّا للكلمة؛ فهو «عنصر يكسب بنيّة الكلمة تكاملها، ويمنحها قواما متميّزا خاصّا بها، الأمر

(1)- المرجع نفسه، ص: 171.

(2)- ينظر: دراسة الصّوت اللّغويّ، ص: 221 - 222.

(3)- ينظر: علم اللّغة: مقدّمة للقارئ العربيّ، ص: 124 - 125.

(4)- علم الأصوات، ص: 503.

(5)- ينظر: المرجع نفسه، ص: 513.

الّذي يجعل الكلمة وحدة متكاملة متّسقة البناء والطّلاء معا.»[1] ويقصد بالبناء بنيّة الكلمة، وبالطّلاء تجويدها وتزيينها، سمّاه التّطريز أيّ أنّ النّبر ظاهرة من الظّواهر الصّوتيّة التّطريزيّة، أو ظاهرة فوق مقطعيّة يتجلّى معناها داخل التّركيب.

يعتبر محمّد الأنطاكيّ النّبر نشاطا فجائيّا ينتاب أعضاء النّطق، وذلك عند تلفّظ مقطع ما من مقاطع الكلمة، ممّا يؤدّي إلى زيادة أحد عناصر المقطع وهي: المدّة، والشّدّة، والحدّة، وأتى بمثال توضيحيّ واحد وهو كلمة «حجاب» المتكوّنة من ثلاثة مقاطع، وبتكرار تلفّظها يمكن للقارئ أن يدرك أنّ المقطع المنبور هو «جا»؛ فهو الأقوى والأطول والأعلى صوتا[2]، ثمّ يعود به الحديث عن النّبر في صفحات أخرى من كتابه مبيّنا قواعد النّبر في اللّغة العربيّة[3]؛ بشكل مقتضب دون تفصيل زائد.

يرى عبد القادر عبد الجليل أنّ النّبر «يدخل في تركيب البنى اللّغويّة، ويفضي إلى أغراض المتكلّمين النّطقيّة قوّة وضعفا، شدّة وليونة، ويقتضي طاقة وجهدا عضليّا.»[4] لقد ربط عبد القدر عبد الجليل بين النّبر وعلم الصّرف، وفي أدائه بيان لأغراض المتكلّمين، كما أنّه من الباحثين المحدثين الّذين يقرّون بوجود النّبر عند علماء العرب القدماء؛ مشيرا في كتابه إلى أبحاث ابن سينا، وابن جنيّ. وفي نظره أنّ العربيّة عرفت النّبر لكن بمسمّيات عديدة منها: الهمز والعلوّ والرّفع ومطل الحركات والارتكاز والمدّ والتّوتّر والتّضعيف والإشباع. وفي هذه الإشارات دلالة على معرفة النّبر حتّى وإن لم يُفْرَد له مبحث خاصّ به؛ كما أنّه يدعو إلى ضرورة دراسة علم الصّرف العربيّ؛ ومنه يمكن إظهار ما تحمله مصنّفات هذا العلم من أهميّة للنّبر.

وأورد نصوصا من المقتضب لأبي العباس المبرّد، ومن الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم الأندلسيّ؛ بيّن من خلال تحليلها أنّ النّبر واقع لغويّ يمثّل جانبا مهمّا في الدّرس الصّرف العربيّ، قائلا: «إنّه من اختصاص الميزان الصّرفيّ... والنّبر في اللّغة العربيّة محكوم عليه بقوانين صوتيّة، وله وظيفة، وإن لم يقيّد برمز؛ فوضوح دخوله في الميدان الصّرفيّ أمر بات في دائرة المعلوم.»[5] في القول

(1)- علم الأصوات، كمال محمّد بشر، ص: 513.

(2)- ينظر: المحيط في أصوات العربيّة ونحوها وصرفها، دار الشّرق العربيّ، بيروت، ط3، د ت، ج 01، ص: 22.

(3)- ينظر: المرجع نفسه، ص: 52 - 53.

(4)- ينظر: علم الصّرف الصّوتيّ، ص: 113.

(5)- المرجع نفسه، ص: 117.

إشارة إلى وظيفة النّبر، وإلى العوامل الصّوتيّة الّتي تصاحبه سمّاها: القوانين الصّوتيّة. كما أنّه يؤكّد على دراسة النّبر بشكل متواز مع دراسة علم الصّرف؛ حتّى تكون الدّراسة علميّة.

المبحث الثّالث: دلالة النّبر وتجليّاته في الخطاب القرآنيّ

1- دور النّبر وأهميّته في تحديد المعنى:

بالرّغم من أنّ الكثير من علماء اللّسانيّات رأوا أنّ النّبر في العربيّة لا يؤثّر غالبا في تحديد معاني الكلمات في الجمل؛ فإنّ له دورا لا يمكن إهماله في ذلك، ولعلّ من أبسط الأمثلة وأوضحها الّتي تبيّن طبيعة النّبر، وأهميّته في تحديد المعاني أنّ التّقطيع العروضيّ لتركيب «مدرّس العربيّة»، وتركيب «مدرسو العربيّة» من قولنا: «جاء مدرسُ العربيّة» و«جاء مدرسو العربيّة» هو تقطيع واحد، وهو:/مُ / دَرِ / سُلْ /عَ / رَ / بِيْ / يَ / ةِ /، ولكنّ النّبر هو الّذي يفرّق بين الجملتين، فإذا قلت لشخص: «جاء مدرّسو العربيّة» دون استعمال النّبر؛ فلن يعلم أنّك تتحدّث عن جمع من المدرّسين؛ بل يظنّك تتحدّث عن مدرّس واحد، وهنا يأتي النّبر ليفرّق بين الجملتين: فإذا أردت الجملة الأولى يجب أن يكون النّبر على المقطع / در / وربّما يضعه البعض على المقطع / ر / أمّا إذا أردت الجملة الثّانية؛ فيجب أن يكون النّبر على المقطع / سُل /، ليدلّ على أنّ أصلها /سُولْ /، ولكن حذفت الواو لمنع توالي السّاكنين على الواو واللاّم، فتلفظ / سُلْ / في الجملة[1].

وما يحقّق ذلك هو العلوّ الّذي يحصل على بعض مقاطع الكلمة بالقياس إلى المقاطع الأخرى، ويكون هذا العلوّ مصحوبا أحيانا بارتفاع في درجة الصّوت، وينتج ذلك من زيادة اندفاع الهواء الخارج من الرّئتين حين يشتدّ تقلّص عضلات القفص الصّدريّ، وهو ما أسماه محمود السّعران الارتكاز، وعرّفه بأنّه «درجة قوّة النّفس الّتي ينطق بها الصّوت أو المقطع.»[2]

أمّا في قراءة القرآن فإنّ المعلّمين يلحّون على تعليم المتعلّمين التّرتيل وأنواع التّلاوة؛ مبيّنين أنّ السّرعة أو عدمها هي العامل الأساسيّ الأوّل في مدى استيعاب المعاني، غير أنّه لا يكفي هذا العامل وحده، وإنّما تتدخّل عوامل أخرى في القراءة وفي تجلية المعنى سواء بالنّسبة للقارئ أو بالنّسبة

---

[1]- ينظر: الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، د. حمدان رضوان أبو عاصي، مجلّة الجامعة الإسلاميّة – سلسلة الدّراسات الإنسانيّة- ، فلسطين، المجلّد 17، العدد: 02، 09، يونيو 2009م: ص: 72.

[2]- علم اللّغة، مقدّمة للقارئ العربيّ، ص: 206.

للمستمع[1]، ولهذا لا بدّ من تشجيع المعلّمين في مختلف أطوار التّعليم على الأخذ بالنّبر عند القراءة القرآنيّة أو غيرها من قراءة النّصوص الإبداعيّة[2]، وبالرّغم من ذلك فإنّ المتصفّح للكتب الّتي تعالج تحسين تلاوة القرآن الكريم، -وعلى رأسها كتب التّجويد- لا يقف على إشارة إلى أهميّة النّبر أو مواضعه، كما أنّ طباعة المصحف الشّريف لم تستخدم أيّ علامة تدلّ على مواضع النّبر في التّلاوة[3].

وربّما ذلك راجع إلى التّقليد فهم يأخذون، ويحتجّون بما جاء عن القدماء من المجوّدين؛ أنّهم لم يتطرّقوا إلى هذه الظّاهرة الصّوتيّة، وهذا لا ينفي النّبر عند المسلمين الأوائل، وإنّما كانوا ينبرون نبرا طبيعيّا سلسا ناتجا عن الفطرة والسّليقة؛ فهم كانوا أهل فصاحة وبلاغة، ولم يحتاجوا إلى وضع النّبر عندما وضعوا علامات الضّبط في المصحف الشّريف؛ غير أنّ الحال تغيّرت -الآن- ويشهد عالمنا المعاصر ازدياد دخول عدد الكثيرين من النّاطقين بغير العربيّة في الإسلام -بحمد الله وفضله-؛ بل إنّ أهل اللّغة العربيّة أنفسهم أصبحت لغتهم غريبة عنهم، نظرا لطغيان اللّهجات المحلّيّة، وتحبيذ التّحدّث باللّغات الأجنبيّة، والتّشدّق بمعرفتها الجيّدة أمام القوم؛ «فلا يغيب عن بالنا ما يعمد إليه بعضهم من استعمال الكلمات الأجنبيّة، وحشوها في كلامهم لمجرّد الادّعاء أو التّظاهر، وهذا السّلوك اللّغويّ غير مقبول؛ إذ هو دليل السّطحيّة، واهتزاز الشّخصيّة.»[4]

---

[1]- لا بدّ من التّنويه أنّ المقصود بالقارئ – هنا – هو القارئ العادي للقرآن الكريم؛ أيّ من عامّة النّاس غير المتخصّصين في علوم القرآن من قراءات وتجويد، ولا يقصد به أولئك القرّاء المشهورين عالميّا بالقراءة؛ فهم أهل تجويد وترتيل وقراءة مبنية على علم ودراية وطول دربة؛ فالقارئ العاديّ هو الّذي يقع في مثل هذه الأخطاء، وتفوته مثل هذه الزّلّات؛ فلا يعطي لها اعتبارا، وخير دليل على ذلك ما نقف عليه من أخطاء لغويّة وصوتيّة وأدائيّة عند المتعلّمين في المدارس، ولا نكون مبالغين إن قلنا: إنّ هذه الأخطاء في القراءة والتّلاوة تجري على لسان المعلّمين في المدارس والجامعات أيضا.

[2]- يرى بعض الباحثين ضرورة اعتماد رمز يشير إلى النّبر أثناء كتابة النّصوص في الكتب التّعليميّة؛ (كوضع خطّ مائل تحت الصّوت الّذي يجب نبره، أو تلوينه بلون مغاير للّون الكتابة.) وهذا حتّى يتسنّى للمعلّمين والمتعلّمين إدراك النّبر، وإعطاءه حقّه من الضّغط بالصّوت أثناء القراءة، وبالتّالي يكون الأمر تمهيدا لاعتماد النّبر أثناء تلاوة القرآن الكريم. - ينظر: أصوات القرآن: كيف نتعلّمها ونعلّمها، يوسف الخليفة أبو بكر، مكتبة الفكر الإسلاميّ، الخرطوم، ط1، 1392هـ – 1973م، ص: 13 وما بعدها.

[3]- ينظر: المرجع نفسه، الصّفحات نفسها.

[4]- فنّ الكلام، كمال محمّد بشر، ص: 118.

ولم تعد اللّغة العربيّة الفصحى تستعمل إلاّ في أوساط معيّنة كدروس اللّغة العربيّة في المؤسّسات التّعليميّة، أو أجهزة الإعلام[1]، وإذا أردنا لها الضّبط الصّحيح والنّطق السّليم؛ فإنّ الأمر أيسر ممّا يُتَوَقَّعُ، فالعصر عصر تكنولوجيّا وإعلام آليّ، والأجهزة المتطوّرة متوفّرة تساعد على الاستماع والنّطق الجيّدين للّغة؛ فليس صعبا على القارئ والمستمع أن يلاحظ مواطن النّبر في غير موضعه، أو حذف نبر عن موضعه؛ الّذي قد يؤدّى إلى تحريف أو تغيير في معاني القرآن الكريم. وتتبّع أخطاء النّبر بالتّركيز على التّلاوة في القرآن الكريم؛ غايته واضحة وبيّنة؛ وهي العمل الجادّ لصون اللّسان من اللّحن أثناء التّلاوة.

2- أهميّة النّبر في تلاوة القرآن الكريم:

يرى بعض الباحثين أنّ النّبر يدخل في ثلاثة أنواع من التّراكيب في القرآن الكريم هي:

أ- التّراكيب المكوّنة من ثلاثة مقاطع، ومن ذلك؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾ الحجر: ٢٩؛ تنبر القاف، وقوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ۝٢٤﴾ القصص: ٢٤؛ تنبر السّين، وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۝١٤﴾ المائدة: ١٤؛ تنبر النّون، وقوله تعالى:﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١﴾ البقرة: ٢٠١؛ تنبر القاف، وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ ۝٤٧﴾ الكهف: ٤٧؛ تنبر التّاء، وقوله تعالى:﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ ۝٢٧﴾ مريم: ٢٧؛ تنبر الهمزة.

ب- التّراكيب المكوّنة من حروف عطف أحاديّة؛ تليها حروف جرّ أحاديّة داخل على ضمائر[2]، مثل: «ولهم - فلهم - ولكم - فلكم - ألكم - فبما»، ويكون النّبر فيها على حرف الجرّ، أيّ على المقطع الثّاني أيضا، وممّا يلحق بذلك ما يكون حرف الجرّ فيها بداية شبه جملة هي خبر مقدّم لمبتدأ بعده، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٢٣﴾ النّور: ٢٣؛ بل إنّ أهميّة إبراز كون حرف الجرّ فيها بداية شبه جملة خبر[3]؛ تجعل نبره مفيد حتّى لو

---

[1]- لقد تفشّت ظاهرة انعدام النّبر، أو حذفه من موضعه عند الكثير من الّذين يتعرّضون للحديث بالعربيّة الفصحى، أو يقرؤونها على النّاس، من ذلك ما نسمعه على أجهزة الإعلام، والجميع يدرك ما مدى تأثير الإعلام على المشاهد أو المستمع.

[2]- ينظر: هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، المرصفيّ، ص: 417.

[3]- ينظر: تفسير القرآن الكريم، ابن أبي الرّبيع عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله القرشيّ الإشبيليّ السّبتيّ، دراسة وتحقيق: دة. صالحة بنت راشد بن غنيم آل غنيم، طبعه وأخرجه: د. عبد العزيز سلطان آل سعود، د. تركيّ بن سهود العتيبيّ، الدّمام، سلسلة الرّسائل الجامعيّة، الرّياض، د ط، 1430هـ، ج 01، ص: 459 .

لم يسبق بعطف، مثل قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ ٥٧﴾ يس: ٥٧، وهذا النّوع كثير في القرآن الكريم.

ج- التّراكيب المكوّنة من الحروف المقطّعة، وهي عديدة منها: (إنّ+ما) (أنّ+ما)، و(كلّ+ما) (بئس+ ما) و(أين+ما)، ولهذا النّوع من التّراكيب قواعد كثيرة من حيث النّبر وعدمه، يمكن الرّجوع إليه في كتب التّلاوة والتّجويد[1].

أمّا بالنّسبة لأمثلة النّبر الّتي تؤثّر في المعنى فمنها: نبر الحرف الثّاني من «يعظكم – يعدكم» فهذا خطأ لا يجوز؛ لأنّه يؤدّي إلى اختلاس حركة الحرف الثّاني وهذا خطأ لأنّ هذه الحركة كاملة، وليست مختلسة، وكما يفعل بعضهم في قراءة قوله تعالى:﴿وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٣٨﴾ الصّافات: ١٣٨؛ والآية تحمل «استفهاما إنكاريًا؛ للدّلالة على عدم فطنة الكفّار للآثار الدّالة على سخط الله على قوم لوط بسبب تكذيبهم لرسولهم.»[2] وقد يسرع القارئ بحركة الفاء ليستفهم كما يظنّ[3]؛ للتّفرقة بينها وبين «أفل» الفعل في قوله تعالى:﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ٧٦﴾ الأنعام: ٧٦في حالة تثنيتها[4]؛ أيّ «أفلا»، ويظنّ أنه يفرّق بينهما وهذا خطأ؛ لأنّ حركة الفاء كاملة وليست مختلسة، وليست من الكلمات الّتي وردت مختلسة، ولكي يستفهم ينبر -أيّ يضغط- على «لا» أو يلقي الكلمة الّتي بعدها – هنا «تَعْقِلُونَ» بطريقة تشعر بالاستفهام.

ينبّه علماء التّجويد والتّلاوة على وجوب تعلّم مقرئ القرآن الكريم أمورا أربعة[5]:

الأوّل: كيفيّة نطق الحركات مثل: الفتحة والضّمة والكسرة.

الثّاني: كيفيّة نطق الحروف من مخارجها الحقيقيّة، وبكامل صفاتها الحقّة والمستحقّة.

---

(1)- ينظر: هداية القاري إلى تجويد الباري، المرصفيّ، ص: 419.

(2)- تفسير التّحرير والتّنوير، ابن عاشور، ج 23، ص: 172، بتصرّف.

(3)- ينظر: إعراب القراءات السّبع وعللها، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه الهمذانيّ النّحويّ الشّافعيّ، حقّقه وقدّم له: د. عبد الرّحمن بن سليمان العثيمين، النّاشر مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط1، 1413هـ – 1992م، ج02، ص: 253. والقراءات القرآنيّة بين العربيّة والأصوات اللّغويّة – منهج لسانيّ معاصر –، د. سمير شريف استيتيّة، عالم الكتب الحديث، إربد، د ط، 2005م، ص: 322.

(4)- والمعنى: «لا أحبّ عبادة الأرباب المتغيّرين عن حال إلى حال؛ المنتقلين من مكان إلى مكان؛ المحتجبين بستر؛ فإنّ ذلك من صفات الأجرام.» – الكشّاف، الزّمخشريّ، ج 02، ص: 365.

(5)- تفسير التّحرير والتّنوير، ابن عاشور، ج 23، ص: 172، بتصرّف.

الثّالث: تعلّم مقادير المدّ الطّبيعيّ ومقادير المنفصل والمتّصل واللاّزم وحركتي الغنّة.

الرّابع: هو تعلّم النّبر وهو ما يسمّيه بعض العلماء الضّغط على الحرف حتّى تكتمل حركته، ويتميّز عمّا قبله وبعده بارتفاع الصّوت، فقد ينطق القارئ الكلمة بتشكيل صحيح ومخارج وصفات سليمة، ثمّ يعطي معنى مخالفا للمراد؛ فمثلا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ الحجر: ٢٩، فإذا قرئت كلمة « فَقَعُوا۟» على وزن كلمة «ذهبوا» مثلا؛ كان معناها من الفقع، وليس ذلك هو المعنى المراد؛ بل المعنى المراد هو «فخرّوا» له ساجدين سجود تحيّة، أو فألقوا له التّحيّة بالسّجود[1]، ولكي يكون ذلك لا بدّ من تمييز حرف «الفاء»، والصّبر على حركة «القاف» دون الإسراع وهذا ما يعرف بـالنّبر في تلاوة القرآن الكريم.

كما ينبّه علماء التّجويد والتّلاوة إلى ضرورة الضّغط على بعض الحروف عند تلاوة القرآن الكريم؛ وهي[2]:

1- الوقف على المشدّد، مثل: كلمة «الحيّ» و «بثّ»، والهدف منه عدم تضييع التّشديد على الحرف[3].

2- عند النّطق بواو مشدّدة قبلها مضموم أو مفتوح؛ مثل: «القوّة» و «قوّامين»، وعند النّطق بياء مشدّدة قبلها مكسور أو مفتوح؛ مثل: «شرقيّا» و «صبيّا»[4].

3- عند الانتقال من حرف مدّ إلى حرف مشدّد؛ مثل: «الحاقّة»[5].

ومن مواضع النّبر في القرآن الكريم أثناء القراءة؛ مثلا أن «يكون في حالة نطق كلمة في آخرها ألف التّثنية، وقد سقطت لالتقاء السّاكنين؛ من ذلك قوله تعالى:﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴿٢٥﴾﴾ يوسف:

---

[1]- ينظر: ينظر تفصيل ذلك في كتب القراءات والتّجويد، مثل: الحجّة في علل القراءات السّبع، أبو عليّ الفارسيّ، وهداية القاري في تجويد كلام الباري، المرصفيّ، والقراءات وأثرها في علوم العربيّة، محمّد سالم محيسن.

[2]- ينظر تفصيل ذلك في كتاب: أبحاث تجويديّة، د. أيمن رشديّ سويد، دار الغوثانيّ للدّراسات القرآنيّة، دمشق، د ط، 1427هـ – 2006م، ص: 31 وما بعدها .

[3]- ينبّه القرّاء على ضرورة الضّغط على الحرف الأخير والحرف الّذي قبله؛ ليشعر السّامع أنّ هذا الحرف الوحيد الّذي وقف عليه بالسّكون بتصادم طرفي عضويْ النّطق، ولو وُصِل لكان مشدّدا بزنة حرفين. – المرجع نفسه، ص: 31.

[4]- المدّ يذهب التّشديد؛ أيّ فلا مدّ هنا؛ لذا وجب الضّغط على الواو والياء؛ ليشعر السّامع أنّه لا مدّ في مثل هذه الكلمات، والضّغط على الحرف يقصّر زمنه؛ فيمنع المدّ. – المرجع نفسه، ص: 32.

[5]- عند الانتقال من حرف مدّ إلى حرف مشدّد بعده، لا بدّ من إبراز الحرف السّاكن وجعله واضحا جليّا. – ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

٢٥، وقوله تعالى:﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ النّمل: ١٥، وكذلك قوله تعالى:﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴿٢٢﴾﴾ الأعراف: ٢٢، فحالة الوصل تسقط ألف التّثنيّة؛ فيشتبه اللّفظ حينئذ بالمفرد.»[1] يمكن تفصيل ذلك لمعرفة كيف يكون النّبر في هذه المواضع من القرآن الكريم؛ عندما يقرأ القارئ كلمة تكون فعلاً -مثلاً - في آخره ألف تثنيّة، أيّ: تدلّ على المثنى، ولكن هذه الألف تسقط في الوصل للتّخلّص من التقاء السّاكنين، كما في وصف الآية مشهد استباق يوسف وامرأة العزيز إلى الباب؛ قال تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴿٢٥﴾﴾ يوسف: ٢٥؛ لمّا يصل القارئ ألف «استبقا»؛ تسقط للتّخلّص من التقاء السّاكنين؛ فيصير النّطق «واستبقَ الباب»؛ فإنْ لم يضغط قد يظنّ السّامع «واستبق الباب»، أيّ أنّ الّذي استبق هو شخص واحد، ولا نستطيع أن نثبت الألف؛ وقد يُسْمَع من بعض المثقّفين عندما يتكلّمون يقولون: «وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ» بمدّ ألف القاف وهذا لا يصحّ؛ ولا بدّ من سقوط الألف للتّخلّص من التقاء السّاكنين[2].

وهذا الأمر لا يختصّ به القرآن الكريم فقط؛ بل في اللّغة العربيّة أيضاً كقولنا: «نقلا الخبر»؛ لذلك ينبّه العلماءُ القرّاءَ أثناء قراءتهم إلى الضّغط على الحرف قبل الألف السّاقطة، يعني هكذا «واستب/قَ / الباب»، فهذه الضّغطة؛ تشعر السّامع أنّ هناك ألفاً قد سقطت.

كذلك في كلام سليمان وداود في قوله تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴿١٥﴾﴾ النّمل: ١٥، إذا التبس بالمفرد فلا بدّ من النّبر لمعرفة أنّ هناك حرف سقط من التّلاوة وقا / لَ /[3]؛ فلا بدّ من النّبر على مقطع اللّام حتّى لا يلتبس بالمفرد، لأنّ ألف المثنى تسقط من الكلمة وصلا؛ فتقرأ: «وقالَ الحمد لله الّذي فضّلنا...»، وفي قصّة آدم - عليه السّلام - وحواء: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴿٢٢﴾﴾ الأعراف: ٢٢، نقول: «ذا /قَ/ الشّجرة»؛ فلولا هذه الضّغطة لتوهّم السّامع أنّ الّذي «ذاقَ الشّجرة» هو آدم – عليه السّلام[4]، هذا الأمر سببه اللّبس؛ أمّا إن

[1]- المرجع نفسه، ص: 33.

[2]- ينظر: هداية القاري في تجويد كلام الباري، المرصفيّ، ص: 271.

[3]- ينظر: شرح المقدّمة الجزريّة يجمع بين التّراث الصّوتيّ العربيّ القديم والدّرس الصّوتيّ الحديث، د. غانم قدّوريّ الحمد، النّاشر: مركز الدّراسات والمعلومات القرآنيّة، معهد الإمام الشّاطبيّ، جدّة، ط1، 1429هـ – 2008م، ص: 508.

[4]- ينظر: روح المعاني، الآلوسيّ، ج 08، ص: 101.

رفع اللّبس بواسطة النّبر فإنّ القارئ والسّامع معا يدركان أنّ الفعل يدلّ على المثنى بالضّغط والوصل دون المدّ.

لا يلتبس الفعل الدّال على التّثنيّة بالمفرد دائما كما في قوله تعالى: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا ١٨٩﴾ الأعراف: ١٨٩، فالدّعاء كان من طرفين هما: آدم وحواء[1]؛ فلا داعي للنّبر في هذا الموضع، فـ«دعوا» مثنى؛ ولكن لو وصلنا نقول: «دعوَ الله ربّهما»، فهنا لا التباس بالمفرد؛ لأنّ المفرد هو: «دعا الله ربّه»، أمّا لما نقول: «دعوا» الواو هنا بيّنت بأنّ هناك مثنى في الكلام، لذلك فلا داعي للنّبر ففي هذه الحالة لا وظيفة له، وإنّما نطق ألف التّثنيّة يكون عاديا.

نلاحظ أنّ النّبر يكون في تلاوة القرآن الكريم عند سقوط ألف التّثنيّة للتّخلّص من التقاء السّاكنين، إذا التبس بالمفرد وذلك في: «وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ»، «وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ »، «ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ»، بخلاف «دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا» فلا وجود للنّبر في هذا المثال، وهو أداء يعطي القراءة رونقها وجمالها، وكذلك معناها السّليم.

3- اللّغة العربيّة واللّحن وعلاقته بالنّبر

النّبر في اللّغة العربيّة -كما عرّفناه سابقا- معناه البروز والظّهور، ومنه المنبر في المساجد ونحوها، وهذا المعنى العامّ ملحوظ في دلالته الاصطلاحيّة، فهو في الدّرس الصّوتيّ يعني نطق مقطع من مقاطع الكلمة بصورة أوضح من بقيّة المقاطع الّتي تجاوره؛ فالمقطع الّذي يُنْطَق بصورة أقوى ممّا يجاوره يسمّى صوتًا أو مقطعًا منبورًا، نلاحظ مثلًا الفرق في قوّة النّطق وضعفه بين المقطع الأوّل والمقطعين الثّاني والثّالث في كلمة «ضَرَبَ»؛ نجد أنّ / ضَ / المقطع الأوّل يُنْطَق بارتكاز أكبر من الحرفيين / رَ / بَ / في الكلمة نفسها، فهو بذلك ملمح صوتيّ من ملامح الكلمة الّتي تميّزها عن غيرها، وتحيلها كلًّا متكاملًا من حيث البناء، ويعدّ ظاهرة فوق مقطعيّة تأكيدًا لقيمته في بنيّة الكلمة، ومن المؤكّد أنّ الكلمة إذا تألّفت من أكثر من مقطع كان أحدها منبورًا، وقد تتلقّى الكلمة الواحدة أكثر من نبرٍ، وإن بدرجات مختلفة قوّةً وضعفًا.

وللنّبر على مستوى الكلام المتّصل وظيفة مهمّة، ترشد إلى معرفة بدايات الكلمات ونهاياتها، فمن المعلوم أنّ الكلمة في سلسة الكلام قد تفقد شيئًا من استقلالها عندما يتّصل هذا الكلام، وهنا

---

[1]- ينظر: درج الدّرر في تفسير القرآن العظيم المنسوب إلى عبد القاهر الجرجانيّ، دراسة وتحقيق: د. طلعت صلاح الفرحان، د. محمّد أديب شكور، دار الفكر ناشرون وموزّعون، عمّان، الأردن، ط1، 1430هـ – 2009م، ج 01، ص: 715.

يبرز النّبر عاملًا من عوامل معرفة الكلمة، وبداياتها ونهاياتها، وبخاصّة في اللّغات ذات النّبر الثّابت الجارية على قوانين مضبوطة.

وقد صنّف الدّارسون اللّغات في عمومها إلى صنفين رئيسيّين، من حيث ثبات النّبر أو حرّيته في الانتقال من مقطع إلى آخر في الكلمة الواحدة، فنعتوا الصّنف الأوّل باللّغات ذوات النّبر الثّابت، واعتبروا اللّغة العربيّة من الصّنف الأوّل، وهم يرون أنّ النّبر في كلماتها ثابت يخضع لقوانين محدّدة، ونعتوا الصّنف الثّاني باللّغات ذوات النّبر الحرّ كاللّغة الإنجليزيّة؛ إذ ليس للنّبر فيها قوانين ثابتة؛ بحيث لا يمكن التّنبّؤ بدرجة النّبر أو موقعه في الكلمة الواحدة؛ إنّها لغة من اللّغات الّتي تتمتّع بما يسمّى تنوّع النّبر، من أمثلة ذلك في اللّغة الانجليزيّة[1]:

Object: بالنّبر على المقطع الأوّل تكون بمعنى شيء أو موضوع أو مفعول.

بالنّبر على المقطع الثّاني تكون بمعنى يعارض أو يمانع.

Present: بالنّبر على المقطع الأوّل تكون بمعنى حاضر أو موجود أو مضارع.

بالنّبر على المقطع الثّاني تكون بمعنى يقدّم.

Import: بالنّبر على المقطع الأوّل تكون بمعنى استيراد (مصدر).

بالنّبر على المقطع الثّاني تكون بمعنى يستورد (فعل).

Record: بالنّبر على المقطع الأوّل تكون بمعنى تسجيل (مصدر).

بالنّبر على المقطع الثّاني تكون بمعنى يسجّل (فعل).

أمّا فيما يتعلّق باللّغة العربيّة فيرى بعض الباحثين أنّها لا تنتمي إلى اللّغات ذات النّبر الحرّ، أيّ أنّ اللّغة العربيّة تصنّف في إطار اللّغات ذات النّبر الثّابت؛ محتجّين في ذلك بعدم قيام النّبر فيها بالوظيفة التّمييزيّة. يقول عمر أحمد مختار: «معظم أمثلة النّبر في اللّغة العربيّة تخضع لقاعدة تثبت مكانه في المقطع المعيّن من الكلمة.»[2]

وهكذا نجد أنّ الباحث يؤكّد أنّه لا علاقة بين النّبر ومعاني الكلمات العربيّة، لكنّ نجد في المقابل من يقول: «تصلح العربيّة والانجليزيّة والرّوسيّة مثالا للّغات الّتي تنتمي إلى مجموعة النّبر الحرّ.»[3] وهذا كلّه يعكس نوعا من التّضارب في الآراء بين علماء اللّسانيّات المحدثين والمعاصرين؛ إذ

---

[1]- ينظر: اللّغة العربيّة معناها ومبناها، تمّام حسّان، ص: 307.

[2]- دراسة الصّوت اللّغويّ، ص: 357.

[3]- دراسة السّمع والكلام، سعد مصلوح، ص: 238.

لا نجد اتّفاقا بين جموع العلماء على أنّ النّبر ثابت أو حرّ في اللّغة العربيّة وذلك عائد إلى نظامها وخصائصها الّتي لا تخلو من التّعقيد[1]، وهو ما يشكّل صعوبة على المتعلّمين النّاشئة سواء من أبناء الأمّة العربيّة النّاطقين بها، أو من أبناء الأمم الأخرى غير النّاطقين بها.

يعتبر بعض الدّارسين المعاصرين أنّ اللّغة العربيّة ليست بدعا من اللّغات في موضوع النّبر[2]؛ «وقد لاحظوا أنّ النّبر يتغيّر موقعه في اللّغة العربيّة باختلاف التّركيب المقطعيّ للكلمة؛ فهي من ذوات النّبر الحرّ عند بعضهم؛»[3] بل إنّ النّبر يفرّق فيها بين معاني المفردات بانتقاله من مكان إلى آخر، وهم يسعون إلى توسيع هذه النّظريّة بتفنيد النّظريّة السّابقة؛ الّتي جعلت اللّغة العربيّة من صنف اللّغات غير النّبريّة، في حين أنّ هؤلاء يرون أنّ النّبر واقع في اللّغة العربيّة، وأنّ تغيّره من موضع لآخر يغيّر المعنى، وبالتّالي هم يحكمون على العربيّة بأنّها لغة نبريّة، مادام النّبر فيها يفرّق بين معاني الكلمات، أيّ أنّ المعنى يتغيّر بتغيّر النّبر، وإذا لم يغيّر النّبر بهذا الانتقال من بناء الكلمة؛ فإنّ انتقاله يؤدّي إلى فساد المعنى، وقد يؤدّي -أحيانا- إلى وجود كلمة لا معنى لها في معاجم اللّغة العربيّة، وعلى هذا الأساس يعمل هؤلاء الباحثون المعاصرون على تفنيد القول بأنّ اللّغة العربيّة لغة غير نبريّة، ويعتبرون هذا الكلام مرفوضا شكلا ومضمونا[4].

---

(1)- والرّأي عندي –كباحثة مبتدئة– أنّه لا بدّ من وضع حدّ لهذا الخلاف الّذي ينفّر الأجيال من تعلّم اللّغة العربيّة وقواعدها اللّغويّة، وذلك بإقامة ملتقيات دوليّة يشارك فيها أبرز علماء اللّسانيّات للخروج بنتائج تخدم اللّغة العربيّة، وتسهّل تعلّمها وإتقانها عند جميع المتعلّمين النّاطقين بها وغير النّاطقين بها؛ الرّاغبين في معرفة ما تحمله هذه اللّغة الجليلة من قواعد وخصائص ونظم.

(2)- ينظر: أثر القوانين الصّوتيّة في بناء الكلمة العربيّة، د. فوزيّ حسن الشّايب، عالم الكتب الحديث للنّشر والتّوزيع، إربد، الأردن، ط1، 1425هـ- 2004م، ص: 167.

(3)- شرح المقدّمة الجزريّة، غانم قدّوريّ الحمد، ص: 671.

(4)- يعتبر د. وليد مقبل السّيّد عليّ الدّيب من جمهوريّة مصر العربيّة من أكثر الباحثين العرب الّذين يرون أنّ اللّغة العربيّة لغة نبريّة؛ ويقرّ بتأثير النّبر فيها، وتأثيره على مستوياتها؛ مفنّدا الرّأي الّذي يرى عكس ذلك من خلال عدّة بحوث منشورة على شبكة الأنترنيت؛ منها: البحث الأوّل: من قضايا النّبر في العربيّة، نشر بتاريخ: 22- 06 – 2009م الموافق لـ: 28 – 06 – 1430هـ، البحث الثّاني: نظريّة قواعد جونز حول نبر الشّعر ومناقشتها، نشر بتاريخ: 18 – 01 – 2011م الموافق لـ: 12 – 02- 1432هـ، (مادّتان مرشّحتان للفوز في مسابقة كاتب الألوكة) الموقع: http://www.alukah.net/literature_language/0/29090/#ixzz3odPjstGK.
ومن خلال: لقاء مع د. وليد مقبل الدّيب حول رسالته للدّكتوراه بعنوان: دور الصّرف والنّحو في توجيه نبر الشّعر، إشراف: د. شعبان صلاح حسين، كلّيّة دار العلوم، جامعة القاهرة، بثّ: قناة التّعليم العالي، مصر، في إطار حصّة بعنوان: رسالة علميّة، يوم: 28 ماي 2012م. وكذلك الشّيخ أيمن رشدي سويد، من خلال كتابه: أبحاث تجويديّة، ومن خلال حصّة تليفزيونيّة بعنوان: التّجويد والنّبر، كانت تبثّ على قناة الرّسالة، جويليّة سنة 2011م.

نورد في هذا الجانب بعض الأمثلة الّتي تغيّر المعنى بانتقال موضع النّبر في الكلمة في اللّغة العربيّة؛ خاصّة في حالة الوقف عليها؛ ومنها ما يلي:

أجدْ: بالنّبر على المقطع الأوّل «همزة القطع» تكون بمعنى الوجود.

بالنّبر على المقطع الثّاني «الجيم» تكون بمعنى الجدّ.

أجلْ: بالنّبر على المقطع الأوّل «همزة القطع» تكون بمعنى نعم.

بالنّبر على المقطع الثّاني «الجيم» تكون بمعنى أعظم.

فقدْ: بالنّبر على المقطع الأوّل «الفاء» تكون فعلا بمعنى الفقدان.

بالنّبر على المقطع الثّاني «القاف» تكون بمعنى الفاء + قد.

فلكْ: بالنّبر على المقطع الأوّل «الفاء» تكون بمعنى اسم في الفضاء.

بالنّبر على المقطع الثّاني «اللاّم» تكون بمعنى الفاء + لام الجرّ + كاف الخطاب.

لهم : بالنّبر على المقطع الأوّل «اللاّم» تكون بمعنى لام الجرّ + الضّمير هم.

بالنّبر على المقطع الثّاني «الهاء» تكون بمعنى لام الابتداء + الضّمير هم.

ورقْ: بالنّبر على المقطع الأوّل «الواو» تكون بمعنى اسم أداة تستعمل للكتابة، أو جزء من الشّجرة.

بالنّبر على المقطع الثّاني «الرّاء» تكون بمعنى الواو + الفعل «رقّ»[1].

نلاحظ أنّ صورة الكلمة واحدة والتّشكيل واحد، وفي مجال القراءات قد تكون أحكام التّجويد واحدة، ولكنّ انتقال النّبر في غير موضعه قد يختلف؛ فينتج عنه أداء غير صحيح ممّا يؤدّي إلى آثار سلبيّة على قدر من الخطورة في جميع مستويات اللّغة: الصّوتيّة والصّرفيّة والنّحويّة والدّلاليّة، وربّما يعتبر من قبيل اللّحن.

– علاقة النّبر باللّحن[2]:

إنّ اللّحن إذا أصاب اللّغة يؤدّي إلى إخلال بالمعنى المراد، ولم تحظ كلّ مظاهر اللّحن الصّرفيّة أو النّحويّة أو التّركيبيّة أو الدّلاليّة عند علماء اللّغة العربيّة قديما وحديثا بقبول منهم؛ بل استنكروا ظاهرة اللّحن وشدّدوا عليها، وحكموا بالخطأ على كلّ ما يخالف الفصحى، وعملوا ما في وسعهم

[1]- ينظر: من قضايا النّبر في العربيّة، وليد مقبل، شبكة الألوكة.

[2]- تكمن أهميّة دراسة اللّحن؛ وما يتعلّق به من مصطلحات في الكشف عن مصدر من مصادر الدّرس الصّوتيّ العربيّ القديم من خلال كتب علماء التّجويد؛ الّتي سجّلت الكثير من المصطلحات الدّالة على وعي عميق بحقيقة التّغييرات الصّوتيّة الّتي اكتشفوها، وارتبطت بطبيعة النّظام اللّسانيّ، وجاء معظمها مطابقا لما توصّل إليه العلم الحديث، والأهميّة الأساسيّة في ذلك كلّه هي إتقان قراءة القرآن الكريم، وصون اللّسان عن الخطأ فيه، وتجنّب الوقوع في اللّحن.

لإصلاح الألسنة الّتي فسدت بسبب الاختلاط وتوسّع الرّقعة الإسلاميّة بعد الفتوحات الإسلاميّة، وكان لعمليّة تحرّي الصّواب والعدول عن الخطأ على ما تنطق به الألسنة، أو تكتبه الأقلام نتاج ثريّ من الكتب والمؤلّفات أطلق عليها كتب اللّحن، أو كتب التّنقيّة اللّغويّة، كما احتوت كتب اللّغة والنّحو والصّرف قديما قضيّة اللّحن في ثناياها؛ معتبرة إيّاها قضيّة مهمّة غايتها صون اللّغة العربيّة وبالتّالي الحفاظ على الكتاب المنزّل القرآن الكريم من الخطأ والزّيغ عند علماء اللّغة العربيّة، ومادمنا بصدد الحديث عن النّبر، وانتقال موضعه في الكلمة، وتأثير ذلك الانتقال على المعنى، فإنّنا نجد أنفسنا أمام سؤال يفرض نفسه علينا وهو: ما علاقة النّبر باللّحن؟ وهل إذا وضع القارئ النّبر في غير موضعه يعتبر ذلك من قبيل اللّحن الّذي تحدّث عنه علماء التّجويد أم لا؟

– مفهوم اللّحن

أ – التّعريف اللّغويّ للّحن:

المتتبّع للّفظة اللّحن في المعاجم العربيّة يجد أنّ فيها معاني عديدة منها بمعنى: خطأ اللّسان بأواخر الكلم، والخطأ في الإعراب، ويقال: فلان لحّان: أيّ كثير الخطأ[1]، ولَحَنَ في القراءة إذا غرّد وطرب فيها، قال الرّسول –صلّى الله عليم وسلّم–: «**اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإيّاكم ولحون أهل الكتابيين وأهل الفسق؛ فإنّه سيجيء بعدي قوم يرجّعون بالقرآن ترجيع الغناء والرّهبانيّة والنّوح لا يجاوز حناجرهم؛ مفتونة قلوبهم.**»[2] ولحن يَلْحَنُ لحْناً ولُحُوناً، ورجل لاَحِنٌ ولَحَّان ولَحَانَة: يخطئ، ...والتَّلْحِينُ: التَّخْطِئَة[3].

ونجد له أيضا معاني أخرى عند العرب من ذلك: لحن الرّجل لحنه، إذا تكلّم بلغته، واللّحن: الفطنة، يقال: رجل لحن أيّ فطن، وقد لحن يلحن: إذا حرّف الكلام عن وجهه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٠﴾ محمد: ٣٠، أيّ ميلهم في كلامهم[4].

واللّحن في لسان العرب: «ترك الصّواب في القراءة والنّشيد ونحو ذلك، ورجل لاحن ولحّان ولحانة ولحنة، وقال ابن الأثير: اللّحن: الميل عن جهة الاستقامة، يقال: لحن فلان في كلامه إذا مال

[1]– ينظر: مختار الصّحاح، الرّازيّ، باب اللاّم، مادّة: لحن.

[2]– المعجم الأوسط، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطّبرانيّ، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمّد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسينيّ، دار الحرمين للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، د ط، 1415هـ – 1995م، ج 07، ص: 183.

[3]– لسان العرب، ابن منظور، ج 17، مادّة: لحن.

[4]– ينظر: التّهميد في علم التّجويد، شمس الدّين أبو الخير ابن الجزريّ، تحقيق: غانم قدّوريّ الحمد، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط1، 1407هـ، ص: 76.

عن صحيح المنطق.»[1] واللّحن في العربيّة هو العدول عن الصّواب، وفي أساس البلاغة «لحن في كلامه إذا مال به عن الإعراب إلى الخطأ.»[2] واللّحن يعني أيضا: عموم اللّغة وغريبها، «ويحملون على ذلك المعنى قول عمر بن الخطّاب -رضي الله عنه-: تعلّموا الفرائض والسّنن واللّحن في القرآن، واللّحن هنا اللّغة لأنّ في تعلّمها معرفة ألفاظها، إدراكا لسرّ الإعجاز والإحاطة بعلوم القرآن، ويأخذون قول عمر كذلك: تعلّموا لحن القرآن أيّ لغة القرآن، ومعلوم أنّ القرآن نزل بأفصح لغات العرب، فأمر عمر النّاس بتعلّم لحن القرآن، إشارة إلى أنّ المقصود باللّحن اللّغة الفصحى.»[3] إذن اللّحن هو الخطأ في الإعراب والكلام، وهو كذلك حسن القراءة والغناء، واللّغة عامّة عند البعض، وعند آخرين خاصّ بغريب اللّغة على رأي تفسير قول عمر بين الخطّاب – رضي الله عنه-؛ فتعلّم لحن القرآن أيّ لغة العرب فيه ومعرفة معانيه.

واللَّحْنُ الخروج عن حدّ الصّواب في إحدى الدّلالات الثّلاثة اللّغويّة واللّفظية والنّحويّة: أمّا **اللّغويّ**: فهو ما كان خاصّا بمدلول الكلمة، وأمّا **اللّفظيّ**: ما كان خاصّا بنطقها، وأمّا **النّحويّ**: فهو ما كان خاصّا بموقع الكلمة[4]. ولقد ورد في اللّسان وكثير من كتب اللّغة عدّة معان للّحن منها:

الغناء وترجيح الصّوت:

إزالة الكلام عن جهته الصّحيحة بالزّيادة والنّقصان في التّرنّم.

الخطأ في اللّغة:

وهو «إمالة الشّيء عن جهته... والخطأ في الكلام.»[5] وقال الزّمخشريّ: «لَحَنَ في كلامه إذا مال عن الإعراب إلى الخطأ.»[6]

التّعريض والإيماء:

يقصد به أن تريد الشّيء؛ فَتُورِي عنه بغيره، من ذلك قول الشّاعر:

وَقَدْ لَحَنْتُ لَكُمْ لِكَيْمَا تَفْهَمُوا ... وَوَحَيْتُ وَحْياً لَيْسَ بِالْمُرْتَابِ[1]

---

(1)- ابن منظور، ج 17، مادّة: لحن.

(2)- الزّمخشريّ، مادّة: لحن.

(3)- اللّحن اللّغويّ وآثاره في الفقه واللّغة، الشّيخ محمّد عبد الله ابن التّمين، دائرة الشّؤون الإسلاميّة والعمل الخيريّ، الإمارات العربيّة المتّحدة، ط1، 1429هـ – 2008م، ص: 18.

(4)- ينظر: اللّحن في العربيّة، تاريخه وأثره، د. يوسف أحمد مطوّع، المطبعة العصريّة، الكويت، د ط، د ت، ص: 128.

(5)- لسان العرب، ابن منظور، ج 17، مادّة: لحن.

(6)- أساس البلاغة، ج 02، مادّة: لحن.

وورد في الأثر أنّ الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- أرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وآخرين من الصّحابة -رضي الله عنهم- إلى بني قريظة في غزوة الخندق؛ ليتبيّنوا ما إذا كانت قريظة تريد أن تنكث عهدها معه، وقال لهم: «**فإن كان فالحنوا لي لحنا أعرفه.**» فلمّا رجع الرّسل ذكروا للرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- لفظتي «عضل والقارة»؛ وهما قبيلتان غدرتا بأصحاب النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- من قبل؛ فعلم النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- من ذلك أنّ قريظة نقضت العهد[2].

إنّ المهمّ في هذه التّعريفات اللّغويّة كلّها هو معنى الخطأ، وأنّه يشمل الخطأ في الإعراب، والإعراب اصطلاحا معناه البيّان النّطقيّ والفصاحة؛ فإنّ عدمه لحن ومخالفة بالإعراب من جهة الصّواب، «والخطأ في البنيّة مخالفة لقواعد علم الصّرف، وما ورد في متن اللّغة وما إلى ذلك ممّا شمله كونه خطأ في العربيّة، مخالفة لوجه الصّواب، ميلا عن صحيح المنطق، ميلا عن الإعراب.»[3] وهو بذلك يمثّل الخطأ والميل والمخالفة.

ب – التّعريف الاصطلاحيّ للّحن:

اللّحن في اصطلاح العلماء لا يفارق المعنى اللّغويّ، فهو الخطأ والميل عن الصّواب، «ويُعْرَفُ اللّحن لكي يُتَجَنَبَ لا ليطبّق كالسّحر يدرك ليترك.»[4] والخطأ في اللّغة أصواتها أو صرفها أو نحوها أو معاني مفرداتها يعتبر لحنا، واللّحن عند علماء التّجويد خلل يطرأ على الألفاظ فيخلّ[5]. وإن حدث ووضع القارئ النّبر في غير موضعه؛ فإنّه بذلك يمسّ جميع مستويات اللّغة؛ بحيث يمسّ الصّوت بانتقال النّبر، ويمسّ الصّرف والمتمثّل في بنيّة الكلمة، ويمسّ النّحو أيّ العلاقات بين الكلمات، ويمسّ أيضا المعنى؛ ممّا يجيز اعتبار وضع النّبر في غير موضعه لحنا من الواجب تجنّبه.

– نوعا اللّحن وصورهما

[1]- التّحديد في الإتقان والتّجويد، أبو عمرو عثمان بن سعيد الدّاني، تحقيق: غانم قدّوريّ الحمد، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة، بيروت، د ط، د ت، ص:134.

[2]- ينظر: الدّراسات الصّوتيّة عند علماء التّجويد، غانم قدّوريّ الحمد، ص: 155.

[3]- أشهر المصطلحات في فنّ الأداء وعلم القراءات، أحمد محمود عبد السّميع الحفيد، منشورات محمّد عليّ بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1422هـ – 2001م، ص: 165.

[4]- زينة الأداء: شرح حلية القراءة في أحكام التّلاوة والتّجويد على رواية حفص، فضيلة الشّيخ سعيد بن أحمد بن عليّ العنتباويّ، شرح: محمود أحمد مرّوخ مصطفى، دار الفرقان للنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 2009م، ص: 231.

[5]- ينظر: المرجع نفسه، والصّفحة نفسها.

لقد قسّم علماء التّجويد اللّحن إلى قسمين مبيّنين أحكامهما حتّى يتجنّب القارئ الوقوع في الخطأ أثناء تلاوته للقرآن الكريم:

1- اللّحن الجلّيّ:

وهو الّذي يخلّ إخلالا ظاهرا يشترك في معرفته علماء القراءة وغيرهم، وقيل: إنّه خطأ يطرأ على الألفاظ فيخلّ بعرف القراءة سواء أخلّ بالمعنى أم لم يخلّ، يلخّص مفهومه في البيت الشّعريّ التّالي[1]:

أمّا الجَلِّيُّ فخَطأٌ فِي الْمَبْنَى خَلَّ بِهِ أَوْ لاَ يَخِلُّ الْمَعْنَى

يوضّح البيت الشّعريّ أنّ اللّحن الجلّيّ هو خطأ في مبنى الكلمات والحروف؛ سواء أخلّ بالمعنى أم لم يخلّ، ومن صوره[2]:

- إبدال حرف بحرف آخر:

كإبدال الظّاء دالا بترك إطباقها واستعلائها، أو إبدالها تاء بإعطائها صفة الهمس؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ ... ﴿٧٥﴾﴾ البقرة: ٧٥ ونحوها؛ فمن اللّحن الجلّيّ أن تلفظ «أفتتمعون»، أو أن تبدّل التّاء طاء فتلفظ «أفططمعون» وهذا حكمه التّحريم.

- إبدال حركة بحركة أخرى:

كإبدال فتح التّاء بضمّها أو كسرها في نحو قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٧﴾﴾ الفاتحة: ٧.

- إبدال حركة بسكون:

كإبدال ضمّ الفاء بالسّكون في نحو قوله تعالى: ﴿كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ الإخلاص: ٤.

- إبدال السّكون بحركة:

كإبدال سكون الدّال بضمّها[3]؛ كما في قوله تعالى:﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾ الإخلاص:٣.

هذه الصّور كلّها تعدّ من اللّحن الجلّيّ، وتعدّ لحنا محرّما، وقد تكون الحركة الّتي غُيِّرَتْ؛ حركة إعراب أو بناء في آخر الكلمة؛ فبدلا أن يقرأ القارئ – مثلا – قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ الفاتحة: ٢، يقول: «الحمدَ لله»، ولقد سمّي هذا اللّحن لحنا جلّيّا لاشتراك الجميع

---

(1)- التّمهيد في علم التّجويد، ابن الجزريّ، ص: 77.

(2)- ينظر: زاد المقرئين أثناء تلاوة الكتاب المبين، أبو عبد الرّحمن جمال بن إبراهيم القرش، ج 01، ص: 113.

(3)- ينظر تفصيل ذلك في كتاب: زينة الأداء، سعيد العنتباويّ، ص: 231 وما بعدها.

في معرفته من علماء القراءة وغير علماء القراءة؛ فهو لحن جليّ واضح بيّن لكلّ من يتقن اللّغة العربيّة.

2- اللّحن الخفيّ:

اللّحن الخفيّ خلل يطرأ على الأصوات بسبب عدم توفيّتها حقّها ومستحقّها من الصّفات أو المخارج، «استعمل مصطلح اللّحن الخفيّ للدّلالة على نوع محدّد من الأخطاء اللّغويّة، وهو المتعلّق بنطق الأصوات، والانحراف الدّقيق عن توفيّة الأصوات صفاتها كاملة في عمليّة النّطق.»[1] قال أبو بكر بن مجاهد البغداديّ – صاحب فكرة تقسيم اللّحن إلى جلّيّ وخفيّ- في معرض حديثه عن نوع من القراءات الشّاذة -: «كذلك ما روي من الآثار في حروف القرآن، منها المعرب السّائر الواضح، ومنها المعرب الواضح غير السّائر، ومنها اللّغة الشّاذّة القليلة، ومنها الضّعيف المعنى في الإعراب غير أنّه قد قرئ به، ومنها ما توهّم فيه فغلط به — فهو لحن غير جائز- عند من لا يبصر العربيّة إلاّ اليسير، ومنها اللّحن الخفيّ الّذي لا يعرفه إلاّ العالم النّحرير؛»[2] لأنّ النّحرير هو الحاذق الماهر[3]؛ المتقن لقراءته، والفطن إلى اللّحن مهما كان؛ فيتجاوزه ببصيرته وحذقه وبراعته في القراءة. وقيل في تعريفه أيضا إنّه: «خطأ يطرأ على اللّفظ فيخلّ بالعرف؛»[4] ويتمثّل مفهومه في البيت الشّعريّ[5]:

أَمَّا الْخَفِيُّ فَخَطَأٌ فِي الْعُرْفِ مِنْ غَيْرِ إِخْلاَلٍ كَتَرْكِ الْوَصْفِ

ويقصد بالعرف ما تعارف عليه أهل صنعة التّجويد من إدغام وإظهار وغيرهما؛ فالإخلال في بيان هذه الأحكام هو اللّحن الخفيّ، ومن صوره إظهار النّون السّاكنة عند أحرف الإدغام، أو ترقيق الرّاء في مواضع تفخيمها، أو ترك صفة أحد الحروف من استعلاء أو استفال، قال أبو الحسن السّعيديّ: «واللّحن الخفيّ لا يعرفه إلاّ المقرئ المتقن الضّابط؛ الّذي قد تلقّن من ألفاظ الأستاذين المؤدّي عنهم؛ المعطّي كلّ حرف حقّه غير زائد فيه ولا ناقص منه، المتجنّب عن الإفراط في الفتحات والضّمّات والكسرات والهمزات، وتشديد المشدّدات، وتخفيف المخفّفات، وتسكين المسكّنات،

---

[1]- اللّحن الخفيّ في الدّرس الصّوتيّ العربيّ، د. غانم قدّوريّ الحمد، المجلّة العلميّة لجامعة تكريت، مج:01، العدد: 01، 1994م، ص: 07.

[2]- السّبعة في القراءات، أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد، تحقيق: شوقيّ ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1972م، ص:49.

[3]- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ج 07، مادّة: نحر.

[4]- هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، المرصفيّ، ص: 48.

[5]- التّمهيد في علم التّجويد، ابن الجزريّ، ص: 77.

وتطنين النّونات، وتفريط المدّات وترعيدها، وتغليظ الرّاءات وتكريرها، وتسمين اللاّمات وتشريبها الغنّة، وتشديد الهمزات وتلكيزها، وقد روي عن حمزة كراهيّة هذه الخصال والنّهي عنها.»[1] كلّ هذه اللّحون تخفى على الإنسان العاديّ، أو المبتدئ في تعلّم قراءة القرآن وتجويده، وإن أراد المرء إدراكها وتفاديها لا بدّ من تلقّيها على يد معلّمي القرآن ومشايخه.

يقسّم العلماء اللّحن الخفيّ إلى قسمين: «أحدهما لا يعرفه إلاّ علماء القراءة: كترك الإخفاء والقلب والإظهار والإدغام والغنّة، وكترقيق المفخّم وعكسه، ومدّ المقصور، وقصر المدود، وكالوقف بالحركات كعوامل، وتشديد المخفّف، وتخفيف المضدّد، وهذا القسم لا شكّ في أنّه ليس بفرض عين يترتّب عليه العقاب الشّديد، إنّما فيه خوف العقاب والتّهديد، والثّاني لا يعرفه إلاّ مهرة القرّاء؛ كتكرير الرّاءات، وتطنين النّونات، وتغليظ اللاّمات، وتشويبها الغنّة، وترعيد الصّوت بالمدود والغنّات، وترقيق الرّاءات في غير محلّ ترقيق، وهذا القسم لا يتصوّر أن يكون فرض عين؛ بل هو مستحبّ يحسن النّطق به حال الأداء.»[2] ويسمّى هذا القسم صناعيّا لأنّه متعلّق بتحقيق النّطق الصّحيح في تلاوة القرآن الكريم، والوصول إلى أقصى غايات الإتقان في تحقيق الصّفات والأحكام[3].

وقصد علماء التّجويد من التّنبيه على اللّحن الخفيّ «تحصيل الفصاحة الّتي هي توأم البلاغة وعديلتها.»[4] وقد حظي اللّحن الخفيّ بعناية علماء التّجويد، وأرادوا من خلاله إصلاح الخلل الّذي يطرأ على الأصوات العربيّة لذلك ضمّنوه كتبهم[5]. ولقد بيّن علماء التّجويد هذه العيوب ووضّحوها وأطلقوا عليها الأحكام والمسمّيات، ووضعوا لها مصطلحات خاصّة ذكروها في كتبهم وأشاروا إليها في تصانيفهم، لما وجدوه فيها من خروج عن سنن القراءات الصّحيحة المتواترة، وشذوذ عن اللّسان العربيّ الفصيح، ومن الأسباب الّتي دفعت علماء التّجويد للتّنبيه إلى ذلك[6]:

---

(1)- الموضّح في التّجويد، عبد الوهاب بن محمّد القرطبيّ، تحقيق: د. غانم قدّوريّ الحمد، معهد المخطوطات العربيّة، الكويت، ط1، 1990م، ص:61.

(2)- هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، المرصفيّ، ص: 48.

(3)- ينظر: تنقيح الوسيط في علم التّجويد، محمّد خالد منصور، دار المناهج للنّشر، عمّان، ط2، 2001م، ص: 100.

(4)- الموضّح في التّجويد، عبد الوهاب بن محمّد القرطبيّ، ص: 66.

(5)- من مصطلحات اللّحن الخفيّ: اللّكز – التّطنين – البتر – التّرعيد – التّمطيط. - ينظر: توضيح شامل لهذه المصطلحات في رسالة: اللّحن الخفيّ عند القرّاء – دراسة صوتيّة-، رافع عبد الغنيّ يحيى، رسالة ماجستير، كلّيّة التّربيّة، جامعة الموصل، 2004م، ص: 68 وما بعدها.

(6)- المرجع نفسه، والصّفحات نفسها.

- حرصهم على إعطاء كلّ حرف حقّه من صفاته الذّاتيّة الموجودة فيه، وتمييزه عن غيره من الحروف الّتي تشترك معه في المخرج نفسه، قال أبو عمرو الدّاني: «اعلموا أنّ كلّ حرف من حروف القرآن يجب أن يمكّن لفظه، ويوفّ حقّه من المنزلة الّتي هو مخصوص بها على ما حدّدناه، ونحدّده ولا يبخس شيئا من ذلك؛ فيتحوّل عن صورته، ويزول عن صيغته.»[1]

- ضيّاع المراد من التّجويد؛ وهو تدبّر كتاب الله، قال ابن الجزريّ: «اعلم أنّ المستفاد بذلك -أيّ من تقويم اللّسان عند قراءة القرآن- حصول التّدبّر لمعاني كتاب الله، والتّفكّر في غوامضه، والتّبحّر في مقاصده، وتحقيق مراده جلّ اسمه من ذلك.»[2]

إنّها العناية بالقراءة السّليمة الصّحيحة للقرآن الكريم، وإصلاح للخلل الّذي قد يطرأ على الأصوات العربيّة وبنيّة كلماتها، وهم بذلك حافظوا على أداء اللّغة العربيّة أداء سليما؛ لا يشوبه الخطأ ولا يعتريه الزّيغ والميل؛ وكلّ ذلك الهدف منه خدمة كتاب الله المجيد.

- **الفرق بين اللّحن الخفيّ واللّحن الجلّيّ**

لقد وضّح القرطبيّ الفرق بينهما من خلال قوله: «إنّ اللّحن على ضربين: لحن جلّيّ ولحن خفيّ، ولكلّ واحد منهما حدّ يخصّه، وحقيقة بها يمتاز عن صاحبه، فاللّحن الجلّيّ هو خلل يطرأ على الألفاظ فيخلّ بالمعنى والعرف، واللّحن الخفيّ هو خلل يطرأ على الألفاظ فيخلّ بالعرف الجالب للرّونق والحسن؛ فهما متّفقان في أنّ كلّ واحد منهما خلل يطرأ عليه فيخلّ؛ إلاّ أنّ الجلّيّ يخلّ بالمعنى والعرف، والخفيّ لا يخلّ بالمعنى، وإنّما يخلّ بالعرف.»[3] أمّا الفرق الثّاني بين اللّحن الخفيّ واللّحن الجلّيّ فقد قيل فيه[4]:

لاَ يَعْرِفُ الْخَفِيَّ سِوَى الْمُجَوّدِ   وَيَعْرِفُ الْجَلِّيَّ كُلُّ واحِدِ

فالفرق يتمثّل -إذن- في أنّ اللّحن الخفيّ لا يستطيع معرفته سوى المجوّد الحاذق الماهر بأحكام التّجويد، والخطأ فيه واقع في خواصّ علم التّجويد، والّتي تخفى على كثير من العوامّ، ولذا سمّي بالخفيّ لخفائه على غير أهل صنعة التّجويد، أمّا اللّحن الجلّيّ فيدركه كلّ واحد سواء أكان من أهل الأداء أم لا؛ فهو لا يحتاج إلى مهارة كبيرة لإدراكه، فتغيّر حرف بآخر - مثلا - خطأ جلّيّ

---

[1]- التّحديد في الإتقان والتّجويد، أبو عمرو الدّاني، ص: 118.

[2]- التّمهيد في علم التّجويد، ابن الجزريّ، ص: 57.

[3]- الموضّح في علم التّجويد، ص: 57.

[4]- هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، المرصفيّ، ص: 48.

واضح للجميع، إذن فاللّحن يمثّل عيبا من العيوب الصّوتيّة الّتي تدخل على الحروف العربيّة فتغيّر صورة نطقها الصّحيح، وهي صورة من صور الانحراف النّطقيّ فيها، وهذه العيوب كرهها العلماء وحذّر منها أصحاب الأداء؛ لدرجة أنّهم رأوا أنّ القارئ للقرآن الكريم إذا لحن حرفا فما هو من القراءة في شيء.

– حكم اللّحن

قال ابن الجزريّ[1]:

اللَّحْنُ قِسْمَان جَلِّيٌّ وَخَفِيٌّ كُلٌّ حَرَامٌ مَعَ خِلاَفٍ فِي الْخَفِيِّ

لقد قرّر الكثير من علماء التّجويد أنّ حكم اللّحن بنوعيه التّحريم، وأنّ أداء القرآن الكريم أداء صحيحا واجب شرعيّ؛ مطالب به المسلم، ومن يقرأ القرآن ويتعتع في قراءته له أجر؛ ولكن – بشرط – في حالة لم تتح له فرصة تعلّم أحكام الأداء للقرآن الكريم، أمّا من أتيحت له فرصة تعلّم الأداء القرآنيّ، واستقامة القرآن على لسانه، والأخذ بأحكام التّجويد؛ فلا بدّ أن يتعلّم حتّى يتمكّن من الأداء الصّحيح دون لحن أو خطأ أو عيب صوتيّ، يقول ابن الجزريّ[2]:

الْأَخْذُ بِالتَّجْوِيدِ حَتْمٌ لاَزِمٌ مَنْ لَمْ يُجَوِّدِ الْقُرْآنَ آثِمٌ
لِأَنَّــهُ بِــهِ الْإِلَــهُ أَنْـزَلْ وَهكَذَا مِنْهُ إِلَيْـنَا وَصَلْ

يفهم من هذا أنّ تعلّم تلاوة القرآن الكريم تلاوة صحيحة، وبقراءة خالية من التّحريف، تلبيّة لنداء الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ٤﴾ المزمل: ٤، أمر واجب، والمقصّر في هذا المطلب آثم، لأنّه لا بدّ من تعظيم تلاوة القرآن الكريم كما يحبّ الله تعالى ورسوله الكريم –صلّى الله عليه وسلّم–، يقول ابن الجزريّ: «ولا شكّ أنّ الأمّة كما هم متعبّدون بفهم معاني القرآن، وإقامة حدوده، متعبّدون بتصحيح ألفاظه، وإقامة حروفه، على الصّفة المتلقّاة من أئمة القراءة المتّصلة بالحضرة النّبويّة الأفصحيّة العربيّة؛ الّتي لا يجوز مخالفتها، ولا العدول عنها إلى غيرها، والنّاس في ذلك بين محسن مأجور، ومسيء آثم، أو معذور، فمن قدر على تصحيح كلام الله تعالى باللّفظ الصّحيح العربيّ

---

[1]– التّمهيد في علم التّجويد، ص: 77.

[2]– منظومة المقدّمة فيما يجب على القارئ أن يعلمه، الإمام محمّد بن محمّد بن محمّد بن عليّ بن يوسف ابن الجزريّ، تحقيق: أيمن رشديّ سويد، دار نور المكتبات للنّشر والتّوزيع، جدّة، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط 4، 1437هـ–2006م، ص: 03 – 04.

الفصيح، وعدل إلى اللّفظ الفاسد؛ فإنّه مقصّر بلا شكّ، وآثم بلا ريب، وغاش بلا مريّة.»[1] إذن فقراءة القرآن الكريم وتلاوته عبادة، والحفاظ على أدائه السّليم بتصحيح الحروف، وسلامة الألفاظ أيضا عبادة يؤجر عليها صاحبها، ومخالفُها يعتبر آثما؛ لأنّه لا يجوز مخالفة القراءة الّتي تواترت عن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، ولا العدول عنها.

ولقد ذكر بعض العلماء «أنّ هذه التّغييرات تحرم جميعها لأنّها وإن كانت لا تخلّ بالمعنى لكنّها تخلّ باللّفظ؛ بفساد رونقه وذهاب حسنه وطلاوته.»[2] نلاحظ أنّ النّصّ يتحدّث عن المزالق الّتي تقع نتيجة لترك حكم من أحكام التّجويد، وهي لا تؤثّر في المعنى، ومع ذلك قالوا إنّها حرام، فماذا لو كان الأمر يخصّ النّبر الّذي يقلب المعنى؟ والدّليل في ذلك ما ورد عن ابن مسعود عندما وجد رجلا يقرأ: «إنّما الصّدقات للفقراء...»، ولم يمدّ المدّ المتّصل؛ فقال له ابن مسعود: «ما هكذا أقرأنيها الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – » وطلب منه أن يعيد القراءة، قال: «وكيف أقرأكها؟» قال: «أقرأنيها» ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ ٦٠﴾ التوبة: ٦٠، ومدّ.»[3]

لقد ذكر السّيوطيّ في مصنّفه تعليق العلماء على هذا الحديث بأنّه: «حديث جليل؛ حجّة ونصّ في هذا الباب؛ رجال إسناده ثقات،»[4] فالمرء عند سماعه هذه الرّواية، يدرك مدى حماسة ابن مسعود – رضي الله عنه – وغيرته على أداء القرآن الكريم، واحتفاظه بالأداء الّذي علّمه الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم- إيّاه؛ مع أنّ قراءة الرّجل لم تؤدّ إلى تغيّر في المعنى، ولم تمسّ بمستويات اللّغة سوى عدم إيتاء المدّ المتّصل حقّه، «ففعله وتركه سواء في عدم التّأثير على دلالة الكلمة ومعناها؛ ولكن لأنّ القراءة سنّة متّبعة يأخذها الآخر عن الأوّل كما قال زيد بن ثابت - رضي الله عنه -، أنكر ابن مسعود – رضي الله عنه – على الرّجل أن يقرأ بغير قراءة النّبيّ – صلّى الله عليه وسلّم – فدلّ ذلك وجوب تعلّم أحكام التّلاوة.»[5] فدلالة هذا بالجزء على الكلّ، وبالتّالي قد تكون المزالق فادحة أثناء القراءة عندما يسبّبها وضع النّبر في غير موضعه.

---

(1)- النّشر في القراءات العشر، ج 01، ص: 210.

(2)- نهاية القول المفيد في علم التّجويد، محمّد مكيّ نصر الجريسيّ، ضبطه وراجعه: طه عبد الرّؤوف سعد، مكتبة الصّفا، القاهرة، ط1، 1420هـ- 1999م، ص: 42.

(3)- الإتقان في علوم القرآن، السّيوطيّ، ص: 205.

(4)- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(5)- هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، المرصفيّ، ص: 48.

ويؤدّي بنا هذا إلى ضرورة معرفة مبادئ القراءة السّليمة الّتي ينتج من ورائها الأداء السّليم للقرآن الكريم، وتفادي الخطأ في النّبر، وما ينتج عنه من إخلال بالمعنى الّذي يمكن أن يقلب المفاهيم المرجوّة من الخطاب القرآنيّ، وخطورة هذا الجانب وإهماله، وعدم إعطائه حقّه من التّعلّم والتّعليم هو منفذ من المنافذ لأعداء الإسلام لكي يغرسوا مفاهيم خاطئة؛ قد تتشبّع بها النّاشئة الّتي لم تتدرّب بالشّكل الجيّد الصّحيح السّليم على الأداء القويم.

4 – أسس القراءة السّليمة

القرآن الكريم إنّما يُتلقّى بالرّواية، وقد روي بالسّند المتسلسل إلى النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– وقد ورد عن ابن الجزريّ أنّ القراءة الصّحيحة المستعملة فيه؛ هي «كلّ قراءة وافقت العربيّة ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانيّة ولو احتمالا، وصحّ سندها، فهي القراءة الصّحيحة الّتي لا يجوز ردّها ولا يحلّ إنكارها؛ بل هي من الأحرف السّبعة الّتي نزل بها القرآن[1]، ووجب على النّاس قبولها، سواء أكانت عن الأئمة السّبعة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختلّ ركن من هذه الأركان الثّلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذّة أو باطلة، سواء أكانت عن السّبعة أم عمّن هو أكبر منهم.»[2]

[1]- قال –صلّى الله عليه وسلّم-: «**إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف؛ فاقرأوا ما تيسّر منه.**»- صحيح البخاريّ، (الجامع الصّحيح)، محمّد بن إسماعيل البخاريّ، مطبعة محمّد صبيح، القاهرة، د ط، د ت، ج 06، ص: 185. ولقد تعدّدت الآراء حول الأحرف السّبعة غير أنّ معظمها يرتكز على غرض التّيسير والتّوسعة لهذه الأمّة؛ إجابة قصد نبيّها أن تقرأ كلّ أمّة بلهجتها وطريقتها في الكلام، وما اعتادت على أدائه، ويرى ابن قتيبة: أنّها لغة سبع متفرّقة في القرآن، والمراد بالحرف هو اللّغة. – ينظر: تأويل مشكل القرآن، شرحه ونشره: السّيّد أحمد صقر، دار التّراث، القاهرة، ط2، 1393هـ – 1973م، ص: 40. ويعني به اللّهجة. وزاد ابن الجزريّ رأيا آخر؛ فقال: «إنّ المراد بالأحرف السّبعة هو الكثرة والمبالغة لا حقيقة العدد سبعة.» – النّشر في القراءات العشر، ج 01، ص: 21. وقد وافقه في هذا الرّأي كثير من المحدثين منهم إبراهيم أنيس الّذي قال: «لأنّ العدد سبعة يعبّر عن الكثرة والتّعدّد في الأساليب العربيّة.» – في اللّهجات العربيّة، ص: 51. أيّ أنّ المراد بالسّبعة هو مجرّد التّعدّد لا حقيقة العدد.

[2]- النّشر في القراءات العشر، ابن الجزريّ، ج 01، ص: 09.

ولذلك كان لقبول صحّة القراءة القرآنيّة ما يلي:

– أركان القراءة القرآنيّة السّليمة[1]

– الرّكن الأوّل: موافقتها لوجه من وجوه العربيّة

أن توافق تلك القراءة وجها من وجوه النّحو العربيّ، فمثلا قوله تعالى: ﴿أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم ﴾ البقرة: ٢٤٠، قرئت «وَصِيَّةً» بالرّفع على أنّها مبتدأ؛ خبره لأزواجهم، وقرئت بالنّصب على أنّها مفعول مطلق؛ أيّ «فليوصوا وصيّةً»[2]، والأمر ليس فيه خروج عن لسان العرب، وتكون قراءة ممّا شاع وذاع؛ تتمتّع بالإسناد الصّحيح، ولها وجه من وجوه العربيّة لا يجوز إنكاره.

– الرّكن الثّاني: موافقتها للرّسم العثمانيّ ولو احتمالا

ويعني بذلك ما يوافق الرّسم؛ إذ موافقة الرّسم ولو تقديرا قد تكون تحقيقا، وهي الموافقة الصّريحة، وقد تكون تقديرا وهي الموافقة احتمالا[3]؛ كقوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ الفاتحة: ٤؛ فقراءة حذف الألف «مَالِكِ» تحتمل اللّفظ تحقيقا، وقراءة إثبات الألف تحتمله تقديرا.

– الرّكن الثّالث: صحّة سندها

فسّر ابن الجزريّ عبارة «صحّة سندها» بقوله: «تعني أن يروي تلك القراءة العدل الضّابط عن مثله كذا حتّى تنتهي، وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشّأن الضّابطين له، غير معدود عندهم من الغلط، أو ممّا شذّ بها بعضهم.»[4] إنّ ما يستخلص من هذا النّصّ هو أنّ القراءة الصّحيحة تتحقّق بصحّة السّند، والمتمثّل في:

---

[1]- قال ابن الجزريّ عن الأركان الثّلاثة:

فَكُلُّ مَا وَافَقَ وَجْهَ نَحْوِ وَكَانَ لِلرَّسْمِ اِحْتِمَالاً يَحْوِي
وَصَحَّ إِسْنَادًا هُوَ الْقُرْآنُ فَـهَذِهِ الـثَّلَاثَـةُ الْأَرْكَـانُ
وَحَيْثُمَا يَخْتَلُّ رُكْنٌ أَثْبِتْ شُذُوذَهُ لَوْ أَنَّهُ فِي السَّبْعَة

– شرح طيبة النّشر في القراءات العشر، النّويريّ، ج 01، ص: 114 وما بعدها.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 115.

[3]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 11.

[4]- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

- صدورها عن راوٍ عدل[1].

- إسنادها إلى رواة آخرين يشترط اتّصافهم جميعا بالعدل.

- إسناد الرّواية إلى صحابيّ سمعها عن الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم -.

وقد ثبت عن زيد بن ثابت -رضي الله عنه- أنّه شهد العَرْضَةَ الأخيرة الّتي بيّن فيها ما نسخ وما بقي، وكتبها لرسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- وقرأها عليه، وكان يُقْرِئُ النّاس بها حتّى مات؛ ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- في جمع القرآن الكريم، وولاّه عثمان بن عفّان -رضي الله عنه- كَتْبَ المصاحف[2]. وهذا دليل قاطع على أنّ القراءة سنّة متّبعة، أيّ ما تواتر عن الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم-.

- أمن اللّبس[3]

أ - التّعريف اللّغويّ للّبس:

اللّبس في اللّغة هو الاختلاط بين الشّيئين الملتبس أحدهما بالآخر؛ ممّا يؤدّي إلى الإشكال في فهم الكلام الملتبس بغيره، أو الكلمة الملتبسة بغيرها، قال ابن منظور: «اللُّبس بالضّمّ: مصدره قولك لبست الثّوب، واللَّبس بالفتح: مصدر قولك لبست عليه الأمر، اختلط... يقال: لبست الأمر على القوم ألبسه؛ إذا شبّهته عليهم، وجعلته مشكلا، واللَّبس: اختلاط الظّلام، وفي الحديث لُبْسَةٌ بالضّمّ: أيّ شبهة ليس بواضح.»[4] فاللّبس عند ابن منظور هو الاختلاط، وجعل الأمر مشكلا على الغير، والشُّبهة.

وهذا المعنى اللّغويّ نفسه نجده عند الفيروزباديّ إذ يقول: «اللُّبس بالضّم: الاختلاط... وفي الحديث «فخفت أن يكون قد التُبِسَ بي.» أيّ: خولط، ومن قولك: في رأيه لبس: أيّ: اختلاط.»[5] نلاحظ أنّ المعاجم العربيّة تتفّق في مفهومها لكلمة لبس، سواء كانت مجرّدة مثل: لبس، أو مزيدة مثل: التبس؛ فإنّها تعني الاختلاط.

---

(1)- يقصد بالعدل الضّابط: الأخذ عن شيخ متقن فطن، لم يتطرّق إليه اللّحن. - ينظر: تيسير الرّحمن في تجويد القرآن، دة. سعاد عبد الحميد، دار التّقوى للطّبع والنّشر والتّوزيع، الاسكندريّة، ط1، 1430هـ - 2009م، ص: 28.

(2)- ينظر: النّشر في القراءات العشر، ابن الجزريّ، ج 01، ص: 07.

(3)- يسمّيه بعض اللّغويّين «وضوح المعنى.» - اللّغة العربية معناها ومبناها، تمّام حسّان، ص: 232.

(4)- لسان العرب، ج 08، مادّة: لبس.

(5)- القاموس المحيط، الفيروزباديّ، مادّة: لبس.

ب – التّعريف الاصطلاحيّ للّبس[1]:

لا يبتعد مفهوم اللّبس اصطلاحا عن مفهومه لغة؛ بل هناك اتّفاق بين المفهومين؛ فاللّبس في الاصطلاح هو حصول إشكال في الكلمة أو الكلام يؤدّي إلى عدم الفهم، أو سوء الفهم، ولذلك فهو ممنوع أبدا[2]؛ لمنافاته القصد من وضع اللّغة، لأنّها وضعت لغرض الإفهام[3]، والّذي يحدّد كون الكلام ملبسا هو المخاطب حين لا يفهم الكلام، أو حين يفهمه فهما خاطئا، ولا شكّ أنّ العالم باللّغة هو الأقدر على تشخيص اللّبس، ومعرفة طرق دفعه، كما فعل أئمة اللّغة العرب قديما.

– مفهوم أمن اللّبس

أمن اللّبس هو الابتعاد عن الكلام الّذي قد يلتبس على المتلقّي؛ لأنّ الغاية القصوى من اللّغة هي التّفاهم، أيّ أنّنا «نتكلّم أو نكتب لبيان أفكارنا وإيصالها إلى فهم السّامع أو القارئ، ولا بدّ لنا في هذا من استعمال الجمل؛ فإنّها صور للفكر خطابا وكتابة؛ ذلك لأنّ الجملة تحتوي على شيئين: ألفاظ منسوقة على ترتيب مخصوص، ومعان تقابل تلك الألفاظ، ودلّ عليها بها.»[4] لقد جُعل النّظام اللّغويّ للإفادة أيّ لتبليغ أغراض المتكلّم للمستمع فهو آلة للتّبليغ وجوهره[5]، ومن شروط الإفادة عدم اللّبس في كلّ عمليّة تواصليّة شفاهيّة أو كتابيّة؛ «فاللّغة تبقى لغة سواء ظهرت كلاما أو كتابة،»[6] ما دامت تؤدّي وظيفتها.

---

(1)- يسمّيه الشّريف الرّضيّ: «الخوف من اللّبس،» ويرى أنّ أمن اللّبس لا يحتاج إلى علامة بخلاف الخوف من اللّبس؛ فإنّه يحتاج إلى علامة تدلّ على رفعه، ويرى أيضا أنّ العلامة تطلّب للملتبس بغيره، وأمّا ما لا يلتبس بغيره فلا حاجة إلى علامة. – ينظر: شرح الرّضيّ لكافية ابن الحاجب، دراسة وتحقيق: د. يحيى بشير مصريّ، طباعة ونشر الإدارة العامّة للثّقافة والنّشر بجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط1، 1417هـ – 1996م، القسم الثّاني، المجلّد: 01، ص: 298 – 300.

(2)- قال السّيوطيّ: «اللّبس محذور.» – الأشباه والنّظائر في النّحو، جلال الدّين، تحقيق: أحمد مختار الشّريف، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة، دمشق، 1407هـ – 1987م، ج 01، ص: 270.

(3)- الإتقان في علوم القرآن، السّيّوطيّ، ص: 113.

(4)- الخواطر الحسان في المعاني والبيان، جبر ضومط، ص: 09.

(5)- ينظر: نظريّة النّحو العربيّ في ضوء مناهج النّظر اللّغويّ الحديث، د. نهاد الموسى، دار البشير، عمّان، الأردن، ط2، 1987م، ص:87.

(6)- اللّغة والمعنى والسّياق، جون لاينز، ترجمة: د. عبّاس صادق الوهاب، مراجعة: د. يوئيل عزيز، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة للطّباعة والنّشر، العراق، ط1، 1987م، ص: 26.

ولقد كان للعلماء العرب القدامى فهم صحيح لهذه الظّاهرة، يقول الجاحظ: «يكفي من حظّ البلاغة ألاّ يؤتى السّامع من سوء إفهام النّاطق... ولا يؤتي النّاطق من سوء فهم السّامع.»[1] وذلك شرط من شروط نجاح العمليّة التّواصليّة، أيّ الابتعاد عن اللّبس أو ما يسمّيه تشومسكي Chomesky «الغموض التّركيبيّ،»[2] لأنّه متى زالت الفائدة أو حدث التباس؛ صار الكلام عبارة عن ألفاظ متراكمة متراصّة لا يؤدّي دوره في الإبلاغ والتّبليغ، وهو ما أشار إليه تمّام حسّان بقوله: «إنّ اللّغة العربيّة – وكلّ لغة أخرى في الوجود – تنظر إلى أمن اللّبس باعتباره غاية لا يمكن التّفريط فيها؛ لأنّ اللّغة الملبسة لا تصلح واسطة للإفهام والفهم، وقد خلقت اللّغات أساسا للإفهام، وإن أعطاها النّشاط الإنسانيّ استعمالات أخرى فنيّة ونفسيّة.»[3] أيّ يمنع على المتكلّم الالتباس في الكلام لأنّ ذلك لا يؤدّي المقصود من الرّسالة اللّغويّة، فالواجب أن يؤدّيها دون أن يدع للّبس مجالا، وحتّى لا يوقع المستمع في سوء الفهم.

تنفر اللّغة العربيّة كغيرها من اللّغات في وقوع متكلّميها في اللّبس؛ لأنّ ذلك يمجّ الأسماع، ويسيء الإفهام، كما يعتبر اللّبس خرقا للقواعد، وعدم احترام للمبادئ المتحكّمة في اللّغة، فكلّما وقع المتكّلم في اللّبس؛ كلّما احتاج السّامع إلى إعادة تشكيل الكلام لما يرغب المتحدّث إبلاغه. وقد انكبّ علماء اللّغة العربيّة قديما على توضيح كلّ ما يمكن تفاديه في قواعد اللّغة: نحوا وصرفا وصوتا وبلاغة حتّى لا يقع متكلّم العربيّة في اللّبس[4]؛ حفاظا على هذه اللّغة الشّريفة من المزالق اللّغويّة، ولنمثّل لذلك بما جاء على لسان ابن يعيش في حال إبدال الألف من الواو والياء في الإعلال: «اعلم أنّ هذا القلب والإعلال له قيود ... أن لا يلزم القلب والإعلال لبس، ألاّ ترى أنّهم قد قالوا في التّثنيّة «قضيا، ورميا، وغزوا، ودعوا»؛ فلم يقلبوهما مع تحرّكهما، وانفتاح ما قبلهما لأنّهم لو قلبوهما ألفين وبعدهما ألف التّثنيّة؛ لوجب أن تحذف إحداهما لالتقاء السّاكنين؛ فيلتبس الاثنان بالواحد،»[5]

---

[1]- البيان والتّبيين، ج 01، ص: 87.

[2]- نظريّة تشومسكيّ اللّغويّة، جون لاينز، ترجمة: د. حلميّ خليل، دار المعرفة الجامعيّة، الاسكندريّة، ط1، 1985م، ص:120.

[3]- اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص: 233.

[4]- ومعناه الإبهام عند فاضل صالح السّامرائيّ. – ينظر: الجملة العربيّة والمعنى، دار ابن حزم للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1431هـ – 2000م، ص: 69.

[5]- شرح المفصّل للزّمخشريّ، موفّق الدّين أبو البقاء يعيش بن عليّ بن يعيش الموصليّ النّحويّ، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ – 2001م، ج 02، ص: 171.

فظاهرة الإعلال خضعت لأمن اللّبس من ناحيّتين، الأولى: أمن اللّبس الصّوتيّ الّذي يفرضه الذّوق السّليم، والأداء الصّحيح، والثّانية: أمن اللّبس الصّرفيّ مراعاة للفرق بين الإفراد والتّثنية.

لا يقتصر أمن اللّبس في العربيّة على الكلمة المفردة أو الجملة؛ وإنّما يمسّ أيضا الحركات «الصّوائت»، ويرى مازن المبارك أنّ التّخلّي عن الحركات يلبس الكثير من الكلمات لباس الإبهام والغموض، بحيث يقول: «إنّ التّخلّي عن الإعراب في لغة تعتمد حركات الإعراب للتّعبير عن المعاني النّحويّة كاللّغة العربيّة؛ هدم لها وإماتة لِمِرَانَتِهَا، وإنّ في ترك حركات الإعراب إلباسا لكثير من الجمل والتّعبيرات لباس الإبهام والغموض.»[1] وهذا الأمر يمثّل مظهرا من مظاهر أمن اللّبس، لأنّ حركة بنيّة الكلمة تمثّل دورا في تحديد الفرق اللّغويّ؛ «فتغيّر حركات أبنيّة الكلم مؤذن باختلاف معانيها.»[2] مثلا: قدَم: بفتح الدّال، قَدَمَ القوم تعني تقدّمهم، وقَدُمَ: بضمّ الدّال، قَدُمَ البناء تعني صار قديما، وقَدِمَ: قَدِمَ المدينة بكسرها، إذا آب وأتى.

كما أنّ حركة الإعراب هي الأخرى تؤدّي إلى الإفهام وإزالة اللّبس؛ لأنّ الإعراب يساعد على معرفة مواقع الكلمات ومعانيها، يقول مازن مبارك: «الحركات في لغة العرب أصوات قصيرة تقع على الحروف للتّفريق بين معاني الكلمات؛ فمنها ما يثبت على الحرف الأخير فيكون حركة بناء، ومنها ما يلحق الآخر، ويتبدّل بتبدّل وظيفة الكلمة النّحويّة في الجملة؛ فيكون إعرابا، وسواء كانت الحركة للبناء أو الإعراب؛ فإنّ هذه التّفرقة بالحركات بين المعاني ضرب رائع من الإيجاز تغنينا فيه الحركة في الكلمة الواحدة عن عدد من الكلمات.»[3] إذن فالحركة في آخر الكلمة سواء كانت حركة إعراب أو حركة بناء؛ تعمل على توضيح المعنى، ورفع اللّبس الّذي يمكن أن يقع فيه المتكلّم، ويمكن توضيح ذلك بمثال بسيط من خلال التّمييز بين «كم» الخبريّة، و«كم» الاستفهاميّة؛ فإذا كان التّمييز بعدها مجرورا كقول القائل: كم رجلٍ أكرمت؛ فإنّها خبريّة، وإن كان التّمييز بعدها منصوبا، نحو: كم رجلاً أكرمت؛ فإنّها تدلّ على أنّها استفهاميّة[4]، إلى غير ذلك من مواطن الإبانة في الإعراب.

(1)- ينظر: نحو وعيّ لغويّ، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، د ط، 1399هـ – 1979م، ص: 106.

(2)- الجملة العربيّة والمعنى، فاضل السّامرّائيّ، ص: 69.

(3)- نحو وعي لغويّ، ص: 95 – 96.

(4)- ينظر: شرح قطر النّدى وبل الصّدى، تصنيف أبي محمّد عبد الله جمال الدّين بن هشام الأنصاريّ، ومعه كتاب سبيل الهدى بتحقيق شرح قطر النّدى، تأليف: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريّة للطّباعة والنّشر، بيروت، ط1، 1414هـ – 1994م، ص: 397.

إنّ أمن اللّبس اتّجاه عامّ في اللّغة العربيّة، فهي «كغيرها من اللّغات لغة التّخاطب والتّفاهم، غايتها القصوى إيصال المعنى؛ لأنّا تهجر التّعميّة واللّبس لأنّهما لَيْسَا من سماتها، ولأنّ اللّغة الملبسة لا تصلح أن تكون وسيلة للتّفاهم والتّخاطب، وأيضا لِيَسْهُلَ على منسوبيها التّواصل فيما بينهما.»[1] وأمن اللّبس من الأغراض المهمّة الّتي راعتها العرب في كلامها، ومراعاته إلى هذا الحدّ من الاهتمام والدّراسة والتّنبيه؛ مفاده الابتعاد عن كلّ كلام قد يلتبس على المتلقّي؛ ممّا يؤدّي إلى عدم بلوغ الرّسالة، أو سوء التّواصل بين المخاطب والمتلقّي، وقد تمّت مراعاة أمن اللّبس في القرآن الكريم، والسّنّة النّبويّة، وعند الصّحابة –رضي الله عنهم –، وفي القراءات القرآنيّة.

– أنواع أمن اللّبس

1– أمن اللّبس في القرآن الكريم:

يراعي القرآن الكريم أمن اللّبس؛ فقد نهى – عزّ وجلّ – عباده المؤمنين عن التّشبّه باليهود في استعمالهم أسلوب التّوريّة في خطاب الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– قَالَ تَعَالَىٰ:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤﴾ البقرة: ١٠٤. «فالظّاهر من لفظ «رَٰعِنَا» أنّه المراعاة، ولكنّ اليهود كانوا يريدونه من الرّعونة، وهي الحمق، وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ٤٦﴾ النّساء: ٤٦. قال ابن عرفة نفطويه: «رَٰعِنَا» من المراعاة، والعرب تقول: راعني: أيّ تعهّدني، وافْهَمْ عنّي وأفهمني، وقال أبو منصور الأزهريّ: كانت هذه الكلمة تجري من اليهود على حدّ السّبّ والهزء، والظّاهر من راعنا: أَرْعِنَا سمعك، وكانوا يذهبون بها إلى الرّعونة، والأرعن: الأحمق.»[2] فعلى الرّغم من أنّ «رَٰعِنَا» تعني النّظر والاهتمام، ولكنّها سبّة في لسان اليهود ولغتهم، فقال: «ٱنظُرۡنَا»، فقال

---

[1]– مواضع اللّبس وتحقيق أمنه في البناء الصّرفيّ والرّسم الإملائيّ، د. مالك يحيا، مجلّة دراسات في اللّغة العربيّة وآدابها، العدد: 11، خريف 1391هـ- 2012م، ص: 177.

[2]– من أسرار اللّغة في الكتاب والسّنّة، معجم لغويّ ثقافيّ، د. محمود محمّد الطّناحي، دار الفتح للدّراسات والنّشر، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط1، 1428هـ – 2008م، ج 01، مادّة: رعو.

المؤمنون بعدها: من سمعتموه يقولها؛ فاضربوا عنقه؛ فانتهت اليهود عن قولها، وأقلع المؤمنون عنها، واستبدلوها بكلمة « ٱنظُرۡنَا» وذلك أمنا للّبس.

2- أمن اللّبس في السّنّة النّبويّة:

تشهد السّيرة النّبويّة الشّريفة الكثير من المواقف الّتي تثبت مراعاة الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- لأمن اللّبس، والدّعوة إليه؛ فقد روي عن أبي الدّرداء -رضي الله عنه- قال: «سمع رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم- رجلا قرأ فلحن، فقال رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم-: «**أرشدوا أخاكم فقد ضلّ.**»[1] وضلّ من الضّلالة، «ضدّ الهداية والإرشاد؛ قَالَ تَعَالَىٰ:﴿**إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧**﴾ النّحل: ٣٧،»[2] فقد جعل الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- الخطأ في القراءة ضلالا، كمن يضلّ الطّريق ويضيّعه، وإنّه بذلك ضيّع المعنى وأفسده، وما أمره لصحابته إلاّ من باب حفظ اللّغة العربيّة، وأمن لبسها وبالتّالي حفظ القرآن الكريم، وهذا دلالة على عظم الأمر؛ خاصّة وأنّ الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم- عبّر عنه بالإرشاد الّذي هو نقيض الإضلال والإغواء.

ومن أمن اللّبس في السّنة الشّريفة؛ أنّ الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم- كان يعلّم أصحابه كيف يعبّرون، أيّ: كيف يختارون الكلمات المناسبة والمعبّرة، ناهيا إيّاهم عن قول كذا أو ذاك، ومستبدلا إيّاه بكلمات أكثر أمنا، وأصحّ تعبيرا، وأدقّ أداء من غيرها، فقد روي عن أبي هريرة – رضي الله عنه- أنّ الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم- قال: «**قال الله: يسبّ بنو آدم الدّهر، وأنا الدّهر، بيدي اللّيل والنّهار.**» وقال: «**لا تُسَمُّوا العنب الكَرْمَ، ولا تقولوا خيبة الدّهر؛ فإنّ الله هو الدّهر.**» وقال: «**ويقولون الكَرْم، إنّما الكَرْم قلب المؤمن.**»[3] فنحن نلاحظ كيف أنّ الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم- يدعو إلى عدم سبّ الدّهر؛ لأنّ الدّهر هو الله تعالى، ولا ينعتوا العنب بالكرم، فالكرم هو قلب المسلم المؤمن، وما ذاك إلاّ حرصا منه إلى عدم الالتباس في الألفاظ،

---

(1)- سلسلة الأحاديث الضّعيفة والموضوعة، محمّد ناصر الدّين الألبانيّ، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سَلْمَان، مكتبة المعارف للنّشر والتّوزيع، صاحبها: سعد بن عبد الرّحمن الرّاشد، الرّياض، ط1، 1430هـ - 2009م، المجلّد: 02، ص: 315.

(2)- لسان العرب، ابن منظور، ج 13، مادّة: ضلل.

(3)- صحيح البخاريّ، الإمام البخاريّ، ج 05، كتاب: الأدب، باب: لا تسبّوا الدّهر، ص: 2286.

الّذي يفسد المعنى، وهو القائل: «**رحم الله امرأ أصلح من لسانه.**»[1] أضف إلى ذلك أنّ في دعوته تأديب لأمّته حتّى يحسنوا اختيار اللّفظة المناسبة، وتوظيفها في مكانها المناسب.

3- أمن اللّبس عند الصّحابة -رضي الله عنهم -:

إذا انتقلنا إلى أمن اللّبس عند الصّحابة؛ وجدنا أنّهم -رضي الله عنهم-؛ ينفرون منه لما له من بشاعة في أذن العرب القدماء، وربّما يعاقبون عليه، وقد روي أنّ أبا بكر الصّديق، وعمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- قالا: «لَبَعْضَ إعرابِ القرآن؛ أعجب إلينا من حفظ حروفه.»[2] وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعريّ -رضي الله عنهما – «أن مُرْ من قِبَلَكَ بتعلّم العربيّة؛ فإنّها تدلّ على صواب الكلام، ومُرْهم برواية الشّعر؛ فإنّها تدلّ على معالي الأخلاق.»[3] ومن التّابعين أيضا من صار على درب الصّحابة – رضي الله عنهم أجمعين – من كان يدعو إلى تعلّم اللّغة العربيّة تعلّما صحيحا حتّى لا يقع في لبس أو لحن، فقد روي عن حمّاد بن عتيق قال: «سألت الحسن فقلت: أرأيت الرّجل يتعلّم العربيّة؛ يطلب بها حُسْنَ المنطق، ويلتمس أن يقيم بها قراءته؟ قال: حسَنٌ؛ فتعلّمها يا أخي؛ فإنّ الرّجل ليقرأ الآية فيعيا بوجهها؛ فيهلك فيها.»[4] لهذا كان لسانهم فصيحا، ولغتهم سليمة، وتعلّمهم تعلّما قويما.

ولم يتوانوا في الامتثال لأمر الله تعالى في الحفاظ على القرآن الكريم كما نزل، دون لبس أو لحن؛ فقد قال عزّ من قائل: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٢٨﴾ الزّمر: ٢٨، والعوج هو النّقص، واللّبس أو الغموض أو عدم الاستقامة في اللّغة أيضا نقص، فمن التبس فيه فقد قرأه على عوج، فعن مجاهد أنّ قوله: «غَيْرَ ذِى عِوَجٍ» أيّ: «غير ذي لبس، ... وغير ذي لحن.»[5] وهناك من الصّحابة من كان يضرب ولده إن وقع في خطأ في نطق اللّغة العربيّة، وهذا دليل على حرصهم الشّديد على تعليم أبنائهم اللّغة العربيّة دون لحن أو لبس أو خطأ، وجعلها تجري على ألسنتهم كأنّها سليقة فيهم[6].

(1)- كتاب إيضاح الوقف والابتداء، ابن الأنباريّ، ص: 22.

(2)- المرجع نفسه، ص: 20.

(3)- المرجع نفسه، ص: 31.

(4)- الحسن: هو الحسن البصريّ – رحمه الله ورضي عنه - المرجع نفسه، ص: 27.

(5)- الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج 18، ص: 272.

(6)- ينظر: إعراب القراءات السّبع وعللها، ابن خالويه، ج 01، ص: 28 .

4- أمن اللّبس في القراءات القرآنيّة:

تعتبر القراءات القرآنيّة من أكثر ما حرص للحفاظ عليها المسلمون الأوائل والأواخر، وأدائها أداء سليما كما تواترت عن الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم-، وأمن لبسها حتّى لا يقع القارئ في لبس في القراءة؛ فيؤدّي إلى تغيّر في معنى آية أو نصّ قرآنيّ، ومن بين ما يؤدّي إلى اللّبس في القراءات القرآنيّة عدم همز ما يجب همزه، من ذلك قراءة قوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ٧٤﴾ مريم: ٧٤ بدون همز «وَرِءۡيًا»؛ «قال ابن عبّاس: الأثاث: المال، والرّئي: المنظر الحسن.»[1] فلو ترك همزه لأشبه «ريّ الشّارب» وهو من الرّواء، «وماء رواء ورِوَيّ: للوارد فيه رِيٌّ.»[2] فالمنظر الحسن الّذي كان عليه الأقوام الكافرون من قبل غير الرّواء. ويرى الزّمخشريّ أنّ رئيا: وهو المنظر والهيئة. وريّا: على قلب الهمزة ياء والإدغام، من الرّيّ الّذي هو النّعمة والتّرفه[3].

ومن بين ما يرى القرّاء فيه لبسا في القراءات عدم إظهار الإدغام؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾ ق: ١٩. قرأها ابن خالويه بإدغام التّاء في السّين وإظهارها، يقول الكسائيّ: «إدغامها أكثر وأظهر، وإظهارها لكنة ولحن.»[4]

- العلاقة بين النّبر واللّحن والقراءة وأمن اللّبس

إنّ ما أشير إليه من لحن في الأداء، أو إخلال لركن من الأركان في القراءة السّلمية، أو التباس في اللّغة؛ قد يؤدّي إلى وقوع القارئ في مزالق نتيجتها فساد المعنى، وإنقاص من أمر التّلاوة المطلوب الأداء بها، وبالتّالي وقوع في اللّحن، وقد يكون ذلك في الألفاظ من جهة اللّغة والإعراب، وقد يكون لعدم إعطاء الحروف ما تستحقّ، وإخراجها من غير مخارجها، أيّ عدم تجويد القراءة، والقراءة بغير تجويد لحن[5]، ومرجع ذلك كلّه إلى الاجتهاد الفرديّ دون الأخذ عن الثّقات، أو الرّجوع إلى العلماء والمشايخ الأجلاء المتخصّصين في هذا الباب، «واعلم أخي القارئ أنّ من يقرأ القرآن باجتهاد دون

---

(1)- من أسرار العربيّة في الكتاب والسّنّة، محمود محمّد الطّناحيّ، ج 01، مادّة: رأى.

(2)- أساس البلاغة، الزّمخشريّ، ج 01، مادّة: روي.

(3)- ينظر: الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزّمخشريّ، اعتنى به وعلّق عليه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 1430هـ – 2009م، ص: 645.

(4)- الحجّة في القراءات السّبع، الحسن بن أحمد بن خالويه، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، د ط، 1990م، ص:117.

(5)- ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السّيوطيّ، ص: 213.

الرّجوع إلى العلماء؛ فيلحن فيه لحنا جليّا أو خفيّا؛ فهو آثم حتّى يتلقّاه من أفواه القرّاء، فإذا تعلّم وأتقن التّلاوة كان مع السّفرة الكرام البررة.»[1] وقد رأى العلماء أنّ صفة التّلاوة منزّلة من عند الله تعالى لقول عليّ -كرّم الله وجهه -: «إنّ رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم- يأمركم أن تقرؤوا كما علّمتم.»[2]

إذا كان اعتبار اللّحن إثما، وصاحبه تُخْشى عليه العقوبة، ولا ينتظر المثوبة[3]، والوقوع في الالتباس ضلال، والقراءة السّيّئة ابتعاد عن السّنّة، وخروج عن القواعد اللّغويّة، فإنّ الأمر إذا تعلّق بالنّبر الفاسد، أو الّذي في غير محلّه سيكون أسوأ؛ فالنّبر الخطأ يوقع في اللّحن، أو يؤدّي إلى التباس المعنى، أو يخلّ بالقراءة «لأنّ حسن الأداء فرض في القراءة، ويجب على القارئ أن يتلو القرآن حقّ تلاوته صيانة للقرآن عن أن يجد التّغيّر واللّحن إليه سبيلا، وذهب بعض العلماء إلى أنّ ذلك واجب على كلّ من قرأ شيئا من القرآن كيفما كان؛ لأنّه لا رخصة في تغيير اللّفظ وتعويجه واتّخاذ اللّحن سبيلا إليه.»[4] وإنّه لا يمكن أن نتصوّر أنّ أحد الصّحابة – مثلا- كان يقع في خطأ نبريّ في أداء القرآن الكريم خاصّة المؤدّي إلى فساد المعنى، ولا ينهاه عنه الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- فلو قرأ أحدهم « أَوَ لَا » في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۝١٠٧﴾ الإسراء: ١٠٧ كأنّها «أولى»؛ فإنّنا نتخيّل أنّه لا يُتْرَكُ دون أن يصحّح له الرّسول -صلّى الله عليه وسلم-[5].

وربّما لو أنّ أحدهم قرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ الإخلاص: ١؛ بالنّبر على «الدّال»، وجعلها تعني «أحدّ» من الحدّة، فهل يُتْرَكُ دون نهيه عن ذلك؟ والأرجح أنّه لا يُظَنُّ أنّ أحد الصّحابة قد يقع في مزلق أدائيّ في القرآن الكريم خاصّة إذا أدّى هذا المزلق إلى التباس في المعنى، وتغيّره تماما وربّما فساده، ولا ينبّهه الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- أو أحد الصّحابة إلى ذلك؛ لأنّ

[1]- الإتقان في نطق بعض ألفاظ القرآن، توفيق إبراهيم ضمرة، المكتبة الوطنيّة للطّبع والنّشر، المملكة الهاشميّة الأردنيّة، د ط، 2006م، ص:05.

[2]- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[3]- ينظر: منظومة المقدّمة فيما يجب على قارئ القرآن أن يعلمه، ابن الجزريّ، ص: 20.

[4]- الموضّح في وجوه القراءات وعللها، الإمام أبو عبد الله نصر بن عليّ بن محمّد الشّيرازيّ المعروف بابن أبي مريم، تحقيق: الشّيخ عبد الرّحيم الطّرهونيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2009م، ص: 111.

[5]- يشهد التّاريخ للعرب الأوائل سليقتهم، فهم يتقنون أداء اللّغة العربيّة أداء دقيقا وكأنّها فطريّة فيهم؛ لهذا لم يكونوا في حاجة إلى تصحيح في الأداء سواء على مستوى النّبرة أو النّغمة، مثلما نحن اليوم بحاجة ماسّة إلى إتقانه، وربّما لهذا السّبب لم يفرد العلماء العرب لمثل هذه الظّواهر بحوثا مستقلّة مثلما فعلوا مع النّحو والصّرف والبلاغة، ولكن هذا لا ينفي عدم وجود الظّاهرتين، وعدم استعمالهما استعمالا جيّدا، وحرصهم عليها أكثر بعد اختلاط العرب بغيرهم من الأقوام غير العربيّة.

فصاحتهم وطباعهم السّليمة تقتضي قدرتهم على أداء القرآن الكريم كما نزل، وكما سمعوه عن نبيّهم الكريم –عليه الصّلاة والسّلام– وهو القائل: «**أحبّوا العرب لثلاث: لأنّي عربيّ، والقرآن عربيّ، وكلام أهل الجنّة عربيّ.**»[1] فالقرآن الكريم نزل بلغتهم.

لنلاحظ كيف تكون فرصة اللّبس متوفّرة في حال كانت القراءة خاطئة بسبب النّبر في غير موضعه، وذلك من خلال المقارنة في النّطق بين جملتي: «اذكر الله.» و «اذكري الله.» بحيث أنّ «الياء تفقد كميّتها؛ فتصبح بمقدار الكسرة في الكلام مثلها في ذلك مثل الياء في عبارة: القاضي الفاضل... ومن هنا تصبح أحوال الأصوات في الجملتين واحدة، ... فلا يعرف السّامع ما إذا كان المتكلّم يخاطب رجلا أو امرأة.»[2] ويكون النّبر –هنا– الوسيلة الصّوتية الوحيدة الّتي تعمل على التّفريق بين الإسنادين؛ وذلك بنبر مقطع الهمزة في الجملة الأولى، ونبر مقطع الكاف في الجملة الثّانية.

لا بدّ أن تتوافر في القراءة كلّ الشّروط مجتمعة[3]، وليس للقارئ الحقّ في وضع شرط وترك آخر لكي تقبل القراءة. وإذا عرضت هذه المقاييس على ما قد يقع فيه القارئ من أخطاء في الأداء عن طريق النّبر الخاطئ أو ما يسمّى بالنّبر السّلبيّ، يتبيّن للدّارس والقارئ مدى بشاعة هذه الأخطاء المؤدّية إلى إمّا تغيّر المعنى، أو إلى فساده تماما؛ لهذا وجب التّصدّي لهذه الظّاهرة، وتوضيحها خاصّة لدى المتعلّمين في المدارس؛ لأنّ الأمر يعتبر من تمام حفظ القرآن الكريم الّذي تعهّد به المولى –عزّ وجلّ– حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ الحجر: ٩. ونقيس على ذلك بمثال يوضّح تعالق هذه الشّروط بعضها ببعض، وأيّ إخلال بواحد منها هو إفساد للمعنى أو خروج عن المعنى المطلوب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨﴾ الأنعام: ٧٨.

---

[1]- الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج 01، ص: 42.

[2]- اللّغة العربيّة معناها ومبناها، تمّام حسّان، ص: 306.

[3]- المقصود بشروط القراءة في هذا البحث: القراءة السّليمة بأركانها الثّلاثة الصّحيحة، الابتعاد عن اللّحن، أمن اللّبس، النّبر المستقيم.

إنّ النّبر المستقيم في كلمة «أَفَلَتْ» يكون على الهمزة، وإذا نبر القارئ على حركة الفاء تصبح «آفلت»؛ فيصبح الكلام بذلك مركّبا من: همزة الاستفهام «آ»، والفعل: «فَلَتَ - يَفْلِتُ»، والفَلْتُ: الزّلل،» [1]«وفلتات اللّسان: زلاّته وهفواته.»[2]، بينما «أَفَلَتْ» في الآية هي: «أَفَلَ – يَأْفِلُ،»[3] من الأفول، «فيقال أفلت الشّمس: غابت، وكلّ شيء غاب؛ فهو آفل.»[4] أيّ: بمعنى الاختفاء، ما نستخلصه أنّ «آفلت» مخالفة في كتابتها للرّسم العثمانيّ؛ فهي في رسمها كلمة واحدة، وليست كلمتين، ولبس في اللّغة، بحيث تغيّر المعنى من الاختفاء إلى الزّلل، وسياق الآية ينفي ذلك، ولحن في صوت الهمزة الّتي أصبحت همزة استفهام، بسبب النّبر الخاطئ على حركة الفاء، وترك النّبر المستقيم على حركة الهمزة، ففسد بذلك المعنى كلّه.

المبحث الرّابع: أمثلة من القرآن الكريم على الأخطاء في النّبر

تفيد دراسات اللّغويّين المعاصرين أنّ النّبر في العربيّة مرتبط ببنيّة الكلمة؛ حيث يرتبط بالمقطع؛ فالكلمة المكوّنة من مقطع منبور؛ فالمقطع الواحد منبور دائما، ولكن قواعد النّبر نحتاجها في الكلمة الّتي تحتوي على مقطعين فأكثر[5]، ويمكن ملاحظة موقع النّبر داخل الكلمة من خلال الضّوابط التّالية[6]:

1- إذا توالت عدّة مقاطع مفتوحة يكون الأوّل فيها منبورا؛ ففي كلمة «كَتَبَ» نجد ثلاثة مقاطع قصيرة مفتوحة أوّلها منبور.

2- إذا ضمّت الكلمة مقطعا طويلا واحدا، يكون النّبر على هذا المقطع الطّويل؛ كما في كلمة «كِتَاب» نجد النّبر على المقطع الثّاني.

---

(1)- لسان العرب، ابن منظور، ج 02، مادّة: فلت.

(2)- القاموس المحيط، الفيروزباديّ، مادّة: فلت.

(3)- معجم مقاييس اللّغة، ابن فارس، كتاب الهمزة، باب الهمزة والفاء وما بعدهما في الثّلاثيّ، ج 01، مادّة: أفل.

(4)- المرجع نفسه، والمادّة نفسها.

(5)- ينظر: العربيّة في علم اللّغة الحديث، د. محمّد محمّد داود، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، د ط، 2001م، ص: 132.

(6)- ينظر: مدخل إلى علم اللّغة -المجالات والاتّجاهات- د. محمود فهميّ حجازيّ، القاهرة، الدّار المصريّة السّعوديّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، د ط، 2006م، ص: 48.

3- إذا ضمّت الكلمة مقطعين طويلين؛ يكون النّبر على أوّلهما كما في كلمة «كاتب»؛ نجد مقطعين طويلين أوّلهما مفتوح، والثّاني مغلق، والنّبر على المقطع الأوّل.

نورد في هذا المقام أمثلة من القرآن الكريم توضّح ضرورة الضّغط على المقطع المناسب أثناء القراءة حتّى تؤدّي إلى المعنى الصّحيح[1]، من ذلك قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝﴾ الزّلزلة: ٥، أوحى من الوحي، «قال الفرّاء: تحدّث أخبارها بوحي من الله وإذنه لها، واللاّم في لها بمعنى «إلى»، وإنّما أوثرت على «إلى» لموافقة الفواصل، والعرب تضع لام الصّفة موضع «إلى»، وقيل «أوحى» يتعدّى بـ«اللاّم» تارة، وبـ«إلى» تارة أخرى.»[2] إذا تحوّل النّبر عن «اللاّم» في «لها»؛ يجعل الكلمتين «أوحى، لها» كلمة واحدة «أوحالها» بمعنى: الوحل «وهي الطّين ترتطم فيه الدّواب.»[3]، وهذا نهاية الفساد في المعنى.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝﴾ البينة: ٨، ورضي من الرّضوان، «رضي الله عنهم بما عملوه من الأعمال الصّالحة، ورضوا عنه بما أعطاهم من الخير والكرامة؛ ذلك الجزاء والرّضا لمن خاف ربّه في الدّنيا وأحبّه وعظّمه، وانتهى عن المعاصي، والتزم أحكام دينه القويم.»[4] إذا تحوّل النّبر عن الرّاء في «وَرَضُواْ»؛ يصبح الفعل مشتقّا من «وَرَضَ»، وليس من «رضي»، وهذا فساد في المعنى، «وورض:يَرِضُ: خرج غائطه رقيقا، والدّجاجة: وضعت بيضها، والتّوريض: تبييت الصّوم، أيّ بالنّيّة، ومنه الحديث: لا صيام لمن لم يورّضه من اللّيل.»[5] نلاحظ مدى الفرق بين المعنيين، وفساد المعنى المقصود في حالة الضّغط على المقطع غير الموافق للسّياق.

---

[1]- أداء النّبر في موضعه يغيّر في المعنى الإجماليّ للجملة، وإذا لم يغيّر في المعنى فهو على أقلّ تقدير يؤذي أذن السّامع، وهناك نبر يختصّ بفصاحة التّلاوة، ولا يترتّب عليه معنى مثل: «ما هم» إذا تحوّل النّبر عن الهاء في «هم» يجعل الكلمتين كلمة واحدة في النّطق. - ينظر: العربيّة في علم اللّغة الحديث، محمّد داود، ص: 132.

[2]- فتح البيّان في مقاصد القرآن، الإمام أبو الطّيّب صدّيق بن حسن بن عليّ الحسين القنوجيّ البخاريّ، قدّم له وراجعه: عبد الله بن إبراهيم الأنصاريّ، المكتبة العصريّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، صيدا، بيروت، د ط، 1412هـ - 1992م، ج 15، ص:343.

[3]- ترتيب القاموس المحيط، الطّاهر أحمد الزّاويّ، ج 04، مادّة: وحل.

[4]- التّفسير المأمون، مأمون حمّوش، ج 08، ص: 518.

[5]- ترتيب القاموس المحيط، الطّاهر أحمد الزّاويّ، ج 04، مادّة: ورض.

ومن أمثلة النّبر في تلاوة القرآن الكريم أيضا قوله تعالى: «فَسَقَىٰ» في قوله تعالى:﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ القصص: ٢٤؛ فلو قرئت بالإيقاع نفسه الّذي تقرأ به «جعلا لهما» تصير كلمة « فَسَقَىٰ» وكأنّها من الفسوق، في حين أنّها من السّقي، «قال ابن إسحاق: أخذ دلوهما موسى، ثمّ تقدّم إلى السّقاء بفضل قوّته، فزاحم القوم على الماء حتّى أخّرهم عنه؛ ثمّ سقى لهما.»[1] فأثناء القراءة يتمّ النّبر على المقطع الثّاني من كلمة «فَسَقَىٰ» حتّى يتحدّد المعنى أثناء سماع الكلمة، ولا تخرج إلى معنى آخر فاسد.

وكذا لو نطق «وَسَعَىٰ» في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ الإسراء: ١٩، وكأنّها من السّعة والاتّساع بالنّبر على المقطع الثّاني؛ في حين أنّها من السّعي الّذي هو السّير كـ «السّعي إلى المسجد، وهو يسعى إلى الغاية، وتسارعوا إليها، ومن المجاز: هو يسعى على عياله: يكسب لهم ويقوم على مصالحهم.»[2] فإنّ النّبر الخاطئ على المقطع الثّاني عند سماعه يؤدّي إلى تغيّر المعنى، وخروجه عن دلالة السّياق الموضوع له، لهذا على القارئ مراعاة ما يجب الضّغط عليه حتى لا يفسد المعنى.

وكذا لو قرئت « فَقَسَتْ» في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ الحديد: ١٦؛ بدون نبر الفاء صار الفعل مشتقّا من «الفقس» لا من «القسوة»، في حين أنّ الآية تشير إلى قسوة القلوب، أيّ: يبست و«صلبت بحيث لا تنفعل للخير والطّاعة.»[3] أمّا الفقس من «الفاء والقاف والسّين: يقولون فقس: مات.»[4] إذن نلاحظ كيف يختلف المعنى لمجرّد أن يغيّر القارئ مكان المقطع المنبور إلى موقع آخر غير ملائم تماما لمعنى الآية الكريمة.

[1]- التّفسير المأمون، مأمون حمّوش، ج 05، ص: 604.

[2]- أساس البلاغة، الزّمخشريّ، ج 01، مادّة: سعى.

[3]- تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسيّ، ج 08، ص: 222.

[4]- معجم مقاييس اللّغة، ابن فارس، ج 04، مادّة: فقس.

ولو قرأ قارئ كلمة «فَهَدَىٰ» في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ الأعلى: ٣؛ بنبر المقطع الأوّل سيخرج المعنى إلى «الفهد»، وليس إلى «الهداية»، والّتي تعني «الهدى: الرّشاد، وهداه أرشده، فهدى واهتدى، وهداه الله الطّريق»[1] الصّحيح المؤدّي إلى الحقّ، وأمّا الْفَهِدُ «النّوم، والتّغافل عمّا يجب تعهّده، وأشبه الفهد في تمدّده ونومه؛ فهو فَهِدٌ.»[2] ولتجنّب مثل هذه المزالق النّبريّة؛ يكون النّبر على المقطع الثّاني، أيّ الصّبر على الحرف الثّاني وحركته.

المبحث الخامس: النّبر على العامل النّحويّ "ما"

لقد قام الباحث سيّد حسن أرباب ببحث قصير عن النّبر في القرآن الكريم؛ مركّزا على العامل اللّغويّ «ما» مبيّنا متى يجب النّبر عليه، ومتى لا يجب ذلك، وإن تجاوز القارئ الضّغط عليه فقط تتغيّر وظيفته النّحويّة كأن يكون اسم موصول؛ ويُصبح اسم شرط بعدم الضّغط عليه؛ غير أنّه لم يشر إلى تغيّر المعنى الإجماليّ للجملة القرآنيّة في حالة إهمال هذه الظّاهرة الصّوتيّة في القراءة القرآنيّة مع العامل «ما»، كما أنّه اكتفى بنماذج قليلة من الآيات القرآنيّة لبيان النّبر فيها، ولكنّ إشارته هذه كانت لفتة جدّ مفيدة لتقصّي الأمثلة المماثلة لما ورد في بحثه، خاصّة وأنّه أشار إلى عدد «ما» في المصحف الشّريف من خلال إحصائها حاسوبيّا، والمتمثّل في ألف وعشر موضعا (1010) في ثمانمائة وثمانيّة وثمانين (888) آية شريفة[3].

من ذلك قراءة «ما» في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾ إبراهيم: ٣٤؛ دون نبر «ما» في « مَا سَأَلْتُمُوهُۚ»؛ فتقترب الكلمة من كلمة «كلّما» الّتي تفيد التّكرار[4]، في حين أنّ «– ما – يجوز أن تكون موصولة والتّقدير: آتاكم من كلّ ذلك ما احتجتم إليه، ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلاّ به.»[5]

---

(1)– القاموس المحيط، الفيروزبادي، مادّة: هدي.

(2)– المرجع نفسه، مادّة: فهد.

(3)– ينظر: النّبر في القرآن الكريم، سيّد حسن أرباب، ص: 171.

(4)– ينظر: مستقبل الثّقافة العربيّة، محمود الطّناحيّ، كتاب الهلال، القاهرة، العدد: 581، 2001م، ص: 117 - 119.

(5)– مفاتيح الغيب، الرّازيّ، ج 19، ص: 132.

وكذلك نطق «ما» في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ الأعراف: ٣٧ دون نبر «ما» في «أَيْنَ مَا كُنتُمْ» يتغيّر المعنى من استفهام موجّه للكافرين عن شركائهم إلى ظرف مكان عامّ، أو اسم شرط وجزاء، وكلاهما غير مناسب، فقوله: «أين ما كنتم: معناه أين الشّركاء الّذين كنتم تدعونهم وتعبدونهم من دون الله، «ولفظة «ما» وقعت موصولة، بمعنى: أين الآلهة الّذين تدّعون.»[1] فهي استفهام واضح.

وكذا قراءة «ما» في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ لقمان: ٢٧ دون نبرها؛ فيجعلها كلمة واحدة أيّ: « أَنَّمَا» كأنّها أداة قصر، وهذا سياق غير وارد في الآية[2]، في حين أنّها كلمتان «أنّ + ما»، ويمكن إدراك ذلك من خلال إعرابها: أنّ: حرف نصب وتوكيد مشبّه بالفعل، ما: اسم موصول مبنيّ على السّكون في محلّ نصب اسم أنّ، «وأنّ واسمها وخبرها بتأويل مصدر في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف تقديره: ثبت، والتّقدير: ولو ثبت كون الأشجار أقلاما.»[3] فلا بدّ من الضّغط على «ما» حتّى يدرك السّامع أنّها اسم موصول، وأنّ حرف التّوكيد، وليست أداة قصر حتّى تُظْهِرَ القراءة قدرة الله – عزّ وجلّ – في كون شجر الأرض كلّه لو صار أقلاما، والبحر وما بعده من بحار لو صار مدادا؛ سوف ينفذ ولن تنفذ كلمات الله تعالى، وذلك من عجائب صنعه جلّ وعلا[4].

قال عزّ من قائل: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ آل عمران: ١٩٤، إنّه دعاء توجّه به المؤمنون إلى الله تعالى، و«الظّاهر أنّهم

[1]- المرجع نفسه، ج 14، ص: 76.

[2]- ينظر: مستقبل الثّقافة العربيّة، محمود الطّناحيّ، ص: 119.

[3]- بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز إعرابا وتفسيرا بإيجاز، إعداد: بهجت عبد الواحد الشّيخليّ، مكتبة دنديس، الأردن، الخليل، ط1، 1422هـ – 2001م، ج 08، ص: 35.

[4]- نزلت الآية عندما قال اليهود للرّسول – صلّى الله عليه وسلّم –: في التّوراة تبيان كلّ شيء، فقال الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم–: هي في علم الله قليل. فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة. – ينظر: فتح القدير، الشّوكانيّ، المجلّد: 04، ص: 243.

سألوا ربّهم أن يعطيهم ما وعدهم على رسله؛ ففسّر هذا الموعود به بالجنّة، قاله ابن عبّاس، وقيل: النّصر على الأعداء، وقيل: الاستغفار.»[1] وقد تقرأ «مَا وَعَدتَّنَا» بتساوي النّبر على «ما»، والنّبر على «وَعَدتَّنَا»؛ فتتحوّل «ما» من اسم موصول بمعنى الّذي، إلى اسم شرط بمعنى «كلّما»، غير أنّ سياق الآية لا يدلّ على معنى الشّرطيّة؛ وإنّما يدلّ على موصول وهو «ما»[2]، وصلته وهي «وَعَدتَّنَا» بدون الضّغط على الصّلة حتّى لا يتغيّر المعنى تماما.

ولو نبرت «ما» في قوله: «وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ» الواردة في الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ٥١﴾ الأعراف: ٥١ نبرا أوّليّا، ولم تنبر «كَانُواْ» صارت ما نافية، غير أنّ «ما تعرب: اسما موصولا مبنيّا في محلّ جرّ بتقدير: لقاء يومهم الّذي.»[3] ويرى الأندلسيّ أنّ «ما» مصدريّة[4]. لهذا لتفادي جعل «ما» نافية؛ لا بدّ من الضّغط عليها أثناء القراءة حتّى يصل المعنى سليما إلى السّامع.

ويتغيّر المعنى تماما إذا لم تنبر «ما» في قوله تعالى: «وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ» من الآية الكريمة: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ١٧﴾ إبراهيم: ١٧، ومعنى قوله: «ويأتيه الموت من كلّ مكان وما هو بميّت.» «أيّ تُعْرَضُ له أسباب الموت من كلّ جهة، وفي كلّ عضو وعرق، ولا يموت لوجوب الخلود في النّار ذات الوقود.»[5] فـ«ما» في الآية نافية؛ فإذا لم تنبر بضغطة صوتيّة واضحة، وجُعِلَ النّبر على ميّت تغيّرت دلالة الآية، ويتوهّم السّامع لها أنّها موصولة بمعنى «الّذي».

المبحث السّادس: تجلّيات النّبر في الخطاب القرآنيّ وأثره في المعنى

---

(1)- تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسيّ، ج 03، ص: 149.

(2)- تعرب «ما» اسما موصولا مبنيّا على السّكون في محلّ نصب مفعول به ثان، «وعدتنا» الجملة الفعليّة صلة الموصول لا محلّ لها من الإعراب، والتّقدير «ربّنا آتنا الّذي وعدتنا». - ينظر: بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز، الشّيخليّ، ج 02، ص:260.

(3)- المرجع نفسه، ج 03، ص: 523.

(4)- و«ما كانوا» معطوفة على «ما نسوا» و«ما» فيهما مصدريّة.- ينظر: تفسير البحر المحيط، ج 04، ص:308.

(5)- درج الدّرر، عبد القاهر الجرجانيّ، ج 02، ص: 160.

لقد مدح الله -عزّ وجلّ- القرآن الكريم قائلا: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٢٨﴾ الزّمر: ٢٨؛ فلا عوج فيه، وهو كتاب منزّه عن النّقص أُنْزِلَ على رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- كاملا مكتملا من كلّ النّواحي؛ لهذا وصف بالإعجاز، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢﴾ الكهف: ١ - ٢، والعوج الميل، و«العين والواو والجيم أصل صحيح يدلّ على ميل في الشّيء.»[1] فقوله تعالى: «وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَا» أيّ: «لم يجعل في القرآن عوجا؛ لا اعوجاج فيه البتّة؛ لا من جهة الألفاظ، ولا من جهة المعاني، أخباره كلّها صدق، وأحكامه عدل، سالم من جميع العيوب في ألفاظه ومعانيه وأخباره وأحكامه؛ لأنّ «عِوَجَا» نكرة في سياق النّفيّ؛ فهي تعمّ نفيّ جميع أنواع العِوَج.»[2] فكتاب الله المنزّل على عبده الكريم لا عيب ولا نقص ولا عوج فيه من كلّ النّواحي، ليؤكّد – جلّ وعلا – ذلك بعد ذكره لكلمة «عِوَجَا»، بكلمة أخرى دون فاصل بينهما «قَيِّمًا»، أيّ القيّم: ومعناه المستقيم، من «الاستقامة، ومعناها اعتدال الشّيء واستواؤه... وفي قوله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ٣﴾ البينة: ٣، أيّ مستقيمة؛ تبيّن الحقّ من الباطل على استواء وبرهان.»[3] فالقرآن لا عوج فيه، ومؤكّد الاستقامة، «وعليه فهو تأكيد في المعنى؛ لأنّه قد يكون الشّيء مستقيما في الظّاهر، وهو لا يخلو من اعوجاج في حقيقة الأمر، ولذا جمع تعالى بين نفيّ العوج وإثبات الاستقامة.»[4] لا ميل فيه ولا زيغ لأنّه ليس كلام بشر: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ النّساء: ٨٢.

[1]- معجم مقاييس اللّغة، ابن فارس، ج 04، باب العين والواو وما يثلثهما، مادّة: عوج.

[2]- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشّيخ العلامة محمّد الأمين بن محمّد المختار الجكنيّ الشّنقيطيّ، إشراف: بكر بن عبد الله بوزيد، دار عالم الفوائد للنّشر والتّوزيع، مجمع الفقه الإسلاميّ، جدّة، د ط، د ت، المجلّد: 04، ص: 06.

[3]- لسان العرب، ابن منظور، ج 15، مادّة: قوم.

[4]- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشّنقيطيّ، المجلّد: 04، ص: 07.

وكان الرّسول - صلّى الله عليه وسلّم- أفصح من تحدّث بالعربيّة، وقراءته محكمة مجوّدة كما دلّت عليها النّصوص والأدلّة[1]، وكما علّمه إيّاها جبريل – عليه السّلام – على الكيفيّة المعروفة[2]، وأمّا الصّحابة – رضوان الله عليهم – فقد كانت فصاحتهم وطباعهم السّليمة؛ تقتضي قدرتهم على الأداء كما سمعوه عن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، قال الرّافعيّ: «وكان الصّحابة والتّابعون -رضي الله عنهم- من يحكّم القراءة على أحسن وجوهها، ويؤدّيها بأفصح مخرج وأسراه، فكأنّما يسمع منه القرآن غضّا طريّا؛ لفصاحته وعذوبة منطقه، وانتظام نبراته، وهو لحن اللّغة نفسها في طبيعتها لا لحن القراءة في الصّناعة،»[3] ومرجع هذا الحظّ من القراءة السّليمة والأداء الصّحيح لأنّهم استمعوا إلى قراءته بشكل مباشر عن الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم -؛ فأدّوا القرآن الكريم أحسن أداء؛ «فكان حسن الأداء سبيلا لحسن الاستماع، وكان حسن الاستماع سبيلا لحسن التّدبّر، وحسن التّدبّر سبيلا لحسن الانتفاع.»[4]

ولو فرضنا وقوع أيّ أحدهم في خطأ أدائيّ؛ فإنّه لن يترك دون أن يُصحّح له، لهذا لا يُتوقّع ارتكابهم الخطأ في القراءة أو في الأداء، وهم يدركون أنّ من ارتكب مثل ذلك؛ ارتكب ذنبا عظيما، لهذا كانت قراءتهم صحيحة السّند، وموافقة للعربيّة، ومطابقة للرّسم العثمانيّ عند من تبعهم بخاصّة[5]، وما خالف ذلك، أيّ لم يصحّ سنده مرفوض مردود عند جمهور العلماء، لأنّ هذه المقاييس – خاصّة صحّة السّند – لم يمار فيه أحد، وربّما يكون هذا دليلا قاطعا، وردّا بيّنا على الّذين قالوا أنّ كتب القراءات والتّجويد وحتّى التّفسير؛ لم تتحدّث عن ظاهرة الأداء الخطأ، وما تعلّق

[1]- عن البراء قال: «سمعت رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – قرأ في العشاء بالتّين والزّيتون، فما سمعت أحدا أحسن صوتا منه.» رواه البخاريّ ومسلم. - البرهان في تجويد القرآن ويليه رسالة في فضائل القرآن، أ. محمّد الصّادق قمحاويّ، المكتبة الثّقافيّة، بيروت، د ط، د ت، ص: 46.

[2]- إنّ رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – كان يعرض القرآن على جبريل في كلّ عامّ مرّة؛ فلمّا كان العامّ الّذي قبض فيه رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم -، عرضه عليه مرّتين، فحضر عبد الله ذلك؛ فعلم ما نسخ من ذلك، وما بدّل. - الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج 01، ص: 94.

[3]- إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 61.

[4]- فنّ التّرتيل وعلومه، عبد الله الطّويل، ج 01، ص: 249.

[5]- عن عليّ بن أبي طالب- كرّم الله وجهه - أنّ عثمان بن عفّان – رضي الله عنه - قال: «ما ترون في المصاحف؟ فإنّ النّاس قد اختلفوا في القراءة؛ حتّى إنّ الرّجل ليقول: إنّ قراءتي خير من قراءتك، وقراءتي أفضل من قراءتك. وهذا شبيه بالكفر؟ قلنا: ما الرّأي عندك يا أمير المؤمنين؟ قال: الرّأي عندي أن يجتمع النّاس على قراءة؛ فإنّكم إذا اختلفتم اليوم، كان من بعدكم أشدّ اختلافا، قلنا: الرّأي رأيك يا أمير المؤمنين.» وكان رأيا سديدا استوصبه المهاجرون والأنصار. - ينظر: تفصيل الرّواية في: الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج 01، ص: 86 - 78.

بنبر كلمات القرآن، وما يجوز فيها وما لا يجوز، لأنّ الظّاهرة لم توجد، وإلاّ كانوا وضعوا كتبا تبيّن كيفيّة النّطق الصّحيح، ذلك أنّ «تمكّن المتكلّمين من إتقان نبر لغتهم عن طريق المشافهة قد صرف العلماء من الوقوف عند هذا الموضوع؛ لكن دارسي الأصوات المحدثين احتاجوا إلى دراسته...رغبة في اكتشاف خصائص اللّغات البشريّة.»[1] والابتعاد عن اللّبس في القراءة.

هكذا يتوضّح السّبب في كونهم لم يقعوا في مثل هذه المزالق النّبريّة؛ فهي ليست وليدة عصر صدر الإسلام، في وقت كانت الأرض موصولة بالسّماء بواسطة الوحيّ من الله تعالى، وهم في تواصل واحتكاك دائم مع الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم- يقرئهم، ويحرص عليهم حتّى يؤدّوا القراءة صحيحة، ويحفّظهم إيّاها، مبيّنا وجوهها، ولم تولد مع الصّحابة والتّابعين لهم بإحسان، وهم أهل سليقة وعربيّة فصيحة، وإنّما ظهرت مع اختلاط الشّعوب، وكثرة الفتوحات؛ فلقد «حرص الخليفة عثمان بن عفّان –رضي الله عنه – على أن يرسل مع كلّ مصحف صحابيّا؛ يعلّم النّاس القرآن بما يوافق مصحفهم، فأتى كلّ صحابيّ أهل إقليمه بما سمعه من رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم –، وقد تمسّك كلّ إقليم بما تلقّوا سماعا من الصّحابيّ الّذي أقرأهم.»[2] بدليل أنّه لما تفشّى اللّحن في الأمّة العربيّة الإسلاميّة؛ انبرى العلماء بكلّ ما أوتوا من جهد وعبقريّة إلى وضع أسس النّحو وقواعده؛ حتّى تحفظ العربيّة ومعها القرآن الكريم من الخطأ واللّحن الّذي طال أفراد المجتمع، وما جَمْعُ عثمان بن عفّان –رضي الله عنه- للقرآن الكريم على مصحف واحد إلاّ دليل آخر على أنّه كلّما وجدت ظاهرة فيها مساس باللّغة العربيّة والقرآن الكريم؛ إلاّ وتضافرت جهود الحكماء والعلماء للحدّ منها والحفاظ على أغلى ما يملكون سليما صحيحا؛ وهما القرآن الكريم ولغته العربيّة الّتي نزل بها[3].

---

[1]- شرح المقدّمة الجزريّة، غانم قدّوريّ الحمد، ص: 671.

[2]- الأصول النّيّرات في القراءات، أة. أماني بنت محمّد عاشور أمّ وليد، قدّم له: الشّيخ أحمد بن خليل شاهين، والشّيخ محمود عمر سكّر، والشّيخ السّالم محمّد محمود الجنكيّ الشّنقيطيّ، مدار الوطن للنّشر، الرّيّاض، ط 03، 1432هـ – 2011م، ص:57.

[3]- عن أنس – رضي الله عنه – قال: «إنّ حذيفة بن اليمان قدم على عثمان؛ وكان يغزي أهل الشّام في فتح أرمينيّة وأذربيجان مع أهل العراق؛ فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين؛ أدرك هذه الأمّة قبل أن يختلفوا في الكتاب؛ اختلاف اليهود والنّصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصّحف ننسخها في المصاحف ثمّ نردّها إليك، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزّبير، وسعيد بن العاصّ، وعبد الرّحمن ابن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرّهط القرشيّين الثّلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن؛ فاكتبوه بلسان قريش، فإنّما نزل بلسانهم، ففعلوا؛ حتّى إذا نسخوا الصّحف في المصاحف... وأرسل إلى كلّ أفق بمصحف ممّا نسخوا... وأمر بما سواه أن يحرق.» – صحيح البخاريّ، البخاريّ، مرجع سابق، ج 04، كتاب: فضائل القرآن، باب: جمع القرآن، ص: 1908.

لقد ازدادت وتفاقمت ظاهرة الخطأ في الأداء، والوقوف على النّبر غير الصّحيح في عصرنا – هذا – بشكل ملفت للانتباه، ومؤلم للقلوب، ومحيّر للعقول؛ ومسّت المتعلّمين والمعلّمين، ولا شكّ في وجود النّبر في اللّغة العربيّة، وفي صور الكلام المختلفة قديما وحديثا، «وإذا كان متعلّم التّجويد لا يجد في الكتب الّتي يدرسها اليوم بيانا شافيا لقواعد النّبر؛ فإنّ ذلك غير مانع له من التّمكّن من القراءة الصّحيحة بما فيها من نبر عن طريق التّلقّي الشّفهيّ من المعلّم المتقن، وسماع القرّاء المجيدين.»[1] لهذا كلّه نحن الآن بحاجة إلى تلك النّهضة الّتي كان يقوم بها الأوائل عندما يتعلّق الأمر بالقرآن الكريم والحفاظ عليه، وباللّغة العربيّة وسلامتها.

إنّ اللّغة العربيّة بالنّسبة للشّعوب العربيّة ذات أهميّة كبيرة؛ فبالإضافة إلى بعدها اللّغويّ والثّقافيّ والاجتماعيّ المتعارف عليه؛ فإنّ لها بعدا دينيّا قويّا جدّا، لأنّها لغة القرآن، «وإذا كان الخوف من انقراض اللّغة العربيّة أمر غير وارد بالنّظر إلى عدد النّاطقين بها؛ فإنّ الخوف من ضعفها وتهميشها يبدو أمرا منطقيّا.»[2] من أجل ذلك على العلماء والباحثين اللّغويّين —خاصّة– أن يتحدّثوا عن ظاهرة النّبر، وأن يضعوا لها قواعد لتنبيه الغافلين عنها، أو الجاهلين لها، أو المتعمّدين لها كالمغرضين من أعداء الدّين، ولا بأس أن نشير في هذا المقام إلى الكلمة البليغة الّتي جاءت على لسان المستشرق الفرنسيّ موريس عندما وصف القرآن الكريم؛ حتّى يتبيّن لنا مدى ضرورة الزّيادة في الاهتمام بالقرآن والحفاظ عليه، وتعليمه للنّاشئة تعلّما سليما مستقيما من كلّ النّواحي الأدائيّة والإعرابيّة والمعنويّة والشّرعيّة؛ لقد قال في القرآن: «إنّه ندوة علميّة للعلماء، ومعجم لغة للّغويّين، ومعلّم نحو لمن أراد تقويم اللّسان، ودائرة معارف للشّرائع والقوانين، وكلّ كتاب سماويّ جاء قبله لا يساوي أدنى سورة في حسن المعاني، وانسجام الألفاظ، ومن أجل ذلك نرى رجال الطّبقة الرّاقية من الأمّة الإسلاميّة؛ يزدادون تمسّكا بهذا الكتاب، واقتباسا لآياته؛ يزيّنون بها كلامهم، ويبنون عليها آراءهم كلّما ازدادوا رفعة في القدر، ونباهة في الفكر.»[3]

وما دامت ظاهرة النّبر في غير محلّه، أو الأداء الخطأ أصبحت متفشّية؛ فمعناه أنّها ممّا لا سند له في مقاييس القراءة الصّحيحة، ولحنا انتشر كالوباء لا بدّ من استئصاله؛ لأنّه يؤثّر بالدّرجة الأولى على أداء القرآن الكريم، ولدينا من القرّاء والمشايخ والعلماء من هم قادرون على اكتشاف هذه

---

(1)– شرح المقدّمة الجزريّة، غانم قدّوريّ الحمد، ص: 671.

(2)– أسباب تدنّي التّحصيل في اللّغة العربيّة، د. محمّد الحنّاش، الثّقافة المغربيّة، الدّار البيضاء، د ط، 2003م، ص: 73.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

(3)– البرهان في تجويد القرآن، محمّد الصّادق قمحاويّ، ص: 42.

الأداءات الخاطئة، وباستطاعتهم التّصدّي لها عن طريق وضع أسس فاصلة بين الصّواب والخطأ، كما فعل القدماء من قبلهم مع النّحو العربيّ، والدّعوة إلى البحث فيها، واستنباط قواعدها بات أمرا ملّحا؛ بل ومستعجلا؛ لأنّ قراءة القرآن الكريم بهذا الأداء غير المستقيم يؤدّي إلى فساد على جميع مستويات اللّغة الّتي لا ترتضيها مقاييس القراءة السّليمة الصّحيحة؛ تمثيلا لقوله تعالى:﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ البقرة: ١٢١. يقول ابن مسعود –رضي الله عنه– : «والّذي نفسي بيده؛ إنّ حقّ تلاوته أن يحلّ حلاله، ويحرّم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرّف الكلم عن مواضعه، ولا يتأوّل منه شيئا على غير تأويله؛»[1] فالتّلاوة – إذن – تتطلّب من القارئ قراءة دون لحن أو تصحيف أو تحريف سواء في الحروف أو الحركات أو السّكتات، بالإضافة إلى مراعاة أحكام التّجويد عند أدائها؛ والّتي يعتبرها العلماء أمرا واجبا[2].

المبحث السّابع: الآثار الصّوتيّة والصّرفيّة والنّحويّة والدّلاليّة للنّبر في الخطاب القرآنيّ

يرى البعض أنّ وضع النّبر في غير موضعه لا خطر فيه، ما دامت للقارئ القدرة على أداء كلمات القرآن الكريم بتشكيلها السّليم؛ فالحرف المضموم – مثلا – يؤدّيه مضموما وكذا المفتوح، أو المكسور، أضف إلى أدائه لأحكام التّجويد أداء صحيحا؛ بحيث يلتزم فيه بكلّ الأحكام الّتي نصّت عليها كتب التّجويد، ورعاها العلماء أثناء التّلاوة، وبيّنوها لقارئي القرآن الكريم، لكن تكمن خطورة الظّاهرة الصّوتيّة للنّبر في القرآن الكريم عند وضع النّبر في غير موضعه في أحد الأمرين[3]:

- إخلال بفصاحة الأداء بحيث تخرج الكلمة خروجا غير مستقيم، وقد يعتبر هذا أثرا سلبيّا هيّنا للنّبر، ولو أنّ الأذن المرهفة الدّقيقة السّمع لفصاحة اللّغة العربيّة تمجّه وتنبذه، ولا تطيق سماعه؛ لأنّ سماعها يشعر المتلقّي بالاعوجاج ممّا يجعله ينفر منها.

(1)– التّفسير المأمون، مأمون حمّوش، ج 01، ص: 384.

(2)– قال ابن الجزري:

وَالْأَخْذُ بِالتَّجْوِيدِ حَتْمٌ لَازِمٌ	مَنْ لَمْ يُجَوِّدِ الْقُرْآنَ آثِمٌ
لِأَنَّـــهُ بِـــهِ الْإِلَـــهُ أَنْزَلَا	وَهَكَذَا مِنْهُ إِلَيْنَا وَصَلَا

– منظومة المقدّمة فيما يجب على قارئ القرآن أن يتعلّمه، ابن الجزريّ، ص: 03.

(3)– ينظر: أصوات القرآن: كيف نتعلّمها ونعلّمها، يوسف الخليفة، ص: 25.

- فساد جميع مستويات اللّغة العربيّة عند وضع النّبر في غير موضعه، وهذا هو الخطر الأكبر، بحيث أنّ الإخلال في أداء الصّوت يتبعه فساد في بنيّة الكلمة، ويأتي بعده فساد في النّحو؛ لينصبّ هذا الفساد على الدّلالة.

تنتشر ظاهرة الأداء النّبريّ الخطأ اليوم بين المتعلّمين النّاطقين بالعربيّة وغير النّاطقين بها، أيّ: الرّاغبين في تعلّمها، فأثناء قراءتهم للقرآن الكريم يخطئون؛ وإن كان منهم من يدرك قواعد اللّغة العربيّة إدراكا صحيحا، ومن أسباب وقوعهم في مثل هذا الخطأ هو عدم تلقّيهم للقرآن مشافهة، ذلك أنّ هناك كلمات لا تضبط إلاّ بالمشافهة والسّماع، والتّلقّي هو الّذي يميّزها ويؤدّي معناها. لهذا يلّح العلماء على ضرورة التّلقّي في تعلّم القرآن الكريم؛ لما له من أهميّة كبيرة، «فلا يكفي تعلّمه من المصاحف دون تلقّيه من الحافظين له؛ لأنّ من الكلمات القرآنيّة ما يختلف القرّاء في أدائه مع اتّحاد حروفه لفظا ورسما؛ تبعا لتفاوتهم في فهم معاني هذه الكلمات وأصولها؛ وما يتوافر لهم من حسن الذّوق، وحساسيّة الأذن، ومراعاة ذلك كلّه عند إلقائها، لدرجة أنّ بعضهم يخطئ في أدائه بما يكاد يخرجها عن معانيها المرادة منها لتساهله، وعدم تحرّيه النّطق السّليم، والّذي لو وفّق إليه وعوّد نفسه عليه؛ لدلّ على حساسيّة أذنه، وحسن ذوقه وفهمه لمعانيها.»[1] وظاهرة النّبر وقواعدها تحتاج إلى قوّة إدراكيّة، وملاحظة دقيقة، وأذن مرهفة السّمع، وممّا يساعد على الوقوف عليها معرف المقاطع.

والقرآن كلّه معرّض لهذه الظّاهرة — أيّ ظاهرة الأداء النّبريّ الخطأ - والعيب ليس في كتاب الله — عزّ وجلّ — وإنّما هو دليل إعجاز؛ فكما أنّ القرآن الكريم معجز في بلاغته، ولغته، وإيقاعه؛ وما احتواه من آيات ودلائل على قدرة الله تعالى؛ فهو أيضا معجز في أدائه؛ لذا لا بدّ أن نعطي كلّ حرف حقّه من الصّفات والمخارج؛ وحتّى الكمّ الزّمنيّ لحركة الحرف حتّى لا يخلّ بالمعنى المقصود للخطاب القرآنيّ. يمكن أن نوضّح ذلك من خلال جملة من الآيات الكريمات الّتي قد يؤدّي النّبر الخطأ فيها إلى إخلال في المعنى؛ ممّا يستوجب الوقوف عنده والتّنبيه لخطورته والعمل على محاربته؛ حتّى لا تتفاقم الظّاهرة أكثر ممّا هي عليه؛ فلقد انتشرت بين المتعلّمين في أطوار التّربيّة خاصّة، والمعروف عند العامّ والخاصّ أنّ الأبناء من الجيل المعاصر —كما أشرنا سابقا- لا يحسنون قراءة خطّ الرّسم العثمانيّ؛ فيقعون في أخطاء أدائيّة؛ تستدعي استنفار الهمم للقضاء عليها.

كما أشرنا سابقا أنّ تشكيل الكلمات يكون صحيحا، وأحكام التّجويد قد تكون صحيحة كذلك، ولكنّ أداء الكلمة يكون غير صحيح؛ فيؤدّي إلى آثار سلبيّة على قدر من الخطورة على

[1]- زاد المقرئين، أبو عبد الرّحمن جمال بن إبراهيم القرش، ج 01، ص: 176.

جميع مستويات اللّغة العربيّة (الصّوتيّة – الصّرفيّة – النّحويّة – الدّلاليّة)[1]، وذلك عندما يوضع النّبر في غير موضعه، أو عندما يستحقّ الموضع نبرا، ولكن يتمّ تجاهله في موضعه السّليم، وفي هذا الإطار سنحاول أن نضرب بعض الأمثلة من القرآن الكريم؛ نبيّن فيها ما يحدث عن طريق وضع النّبر في غير موضعه، والّذي لا يرتضيه الأداء القرآنيّ.

– المثال الأوّل:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾ البقرة: ١٨١. إنّ الخطاب القرآنيّ في هذه الآية عن الّذي غيّر وصيّة الميّت بعد ما سمعها منه قبل موته؛ فإنّما الذّنب على من غيّر وبدّل، ذلك أنّ الله تعالى سميع بالأقوال، عليم بما تخفيه الصّدور من الميل عن الحقّ والعدل.

يتمثّل الأداء الصّوتيّ المستقيم في قوله تعالى: «فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ» بالضّغط على حركة الدّال من «بَدَّلَهُۥ»، ويحدث الالتباس الصّوتيّ بالضّغط على حركة اللاّم من «بَدَّلَهُۥ»، فبعد أن كانت «بَدَّلَهُۥ» من التّبديل؛ أصبحت بدّ + له، وهذا الأداء المنحرف يؤدّي إلى فساد في جميع مستويات اللّغة، والّتي بدأت بفساد المستوى الصّوتيّ، وذلك عندما أخذ القارئ المخطئ حركة النّبر الّتي كانت على الدّال، ووضعها على حركة اللاّم؛ فتمّ بذلك فصل «له» عن «بدّ»، وهذا مخالف لما هو موجود في الرّسم العثمانيّ؛ فهي « بَدَّلَهُۥ»، وليست «بدّ + له».

إنّ موقع النّبر في غير محلّه أدّى إلى التباس على المستوى الصّرفيّ؛ فتغيّر بناء الكلمة؛ حيث إنّ «بدّل» بأدائها المستقيم تكون على وزن «فعّل»، وهو فعل ثلاثيّ مزيد بتضعيف العين أصله «بدل»، و«فعّل» من الأوزان الّتي قد تفيد – في الغالب – معنى الكثرة[2]، أيّ أنّ «بدّل» حملت معنى كثرة التّبديل، أمّا بالأداء غير المستقيم فقد أصبحت «بدّ + له»؛ فجاءت «بدّ» على وزن «فعل»، أيّ أنّها فعل ثلاثيّ مجرّد مضعّف العين واللاّم، على نحو قولنا: شدّ أو مدّ، زائد «له»؛ ممّا أدّى إلى التباس الفعل الثّلاثيّ المزيد بالتّضعيف بالفعل الثّلاثيّ المجرّد المضعّف، والّذي أصله «بدد»، وأصبحت بذلك اللاّم حرف معنى، وهي في الأصل القرآنيّ لهذه الكلمة حرف مبنى أيّ جزء أصليّ

---

[1]- ينظر: من قضايا النّبر في العربيّة، وليد مقبل الدّيب، موقع الألوكة.

[2]- ينظر: الصّرف التّعليميّ والتّطبيق في القرآن الكريم، د. محمود سليمان ياقوت، مكتبة المنار الإسلاميّة طباعة ونشرا وتوزيعا، الكويت، ط1، 1420هـ – 1999م، ص: 81.

في بناء كلمة «بَدَّلَهُۥ». وحروف المبنى لا معنى لها تمثّل جزءا من الكلمة لا تنفصل عنها، وليس لها وظيفة دلاليّة، بينما حروف المعنى هي حروف تنفصل عن الكلمة، ولها معنى تؤدّيه، مثل: حروف العطف، وحروف الجرّ، وحروف الجزم، وحروف النّصب. واللاّم في « بَدَّلَهُۥ» جزء من الفعل، وبالأداء المنحرف انفصلت عنه، فبعد أن كانت حرف مبنى، أصبحت حرف معنى؛ أيّ حرف جرّ، وما بعدها اسم مجرور.

إنّ الالتباس في الأداء الصّوتيّ وما أوقعه من التباس على المستوى الصّرفيّ؛ أدّى أيضا إلى التباس على المستوى النّحويّ؛ بحيث التبس ما محلّه النّصب على المفعوليّة بما محلّبه الجرّ بحرف الجرّ؛ بحيث إنّ «بدّل»: تعرب فعلا ماضيا مبنيّا على الفتح، وفاعله ضمير مستتر، والهاء: ضمير متّصل مبنيّ في محلّ نصب مفعول به، وجملة «بَدَّلَهُۥ» صلة موصول «من» لا محلّ لها من الإعراب[1]؛ فالهاء في «بَدَّلَهُۥ» بمعنى وقع عليه التّبديل، أيّ وقع التّبديل على وصّية الموصي من طرف من استمع إلى وصّيته، ويصبح إعرابها بالأداء الخاطئ؛ «بدّ»: فعل ماض، وفاعله ضمير متّصل، واللاّم: حرف جرّ، الهاء: ضمير متّصل مبني في محلّ جرّ اسم مجرور، وهو أمر أدّى إلى تحوّل اللاّم من حرف مبنى إلى حرف معنى، وإلى التباس الفعل الثّلاثيّ المزيد بالتّضعيف بالفعل الثّلاثيّ المجرّد المضعّف، أيّ «بدل» التبس بـ «بدّ».

وما سبق ذكره من التباس على المستوى الصّوتيّ والصّرفيّ والنّحويّ؛ يؤدّي إلى الالتباس على المستوى الدّلاليّ، ذلك أنّ معنى قوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ﴾ «غيّره من الأوصياء والشّهود، وما إثم الإيصاء أو التّبديل إلاّ على مبدّليه؛ لأنّهم الّذين خالفوا الشّرع.»[2] فلا إثم على الميّت بعدما أدّى الوصّية، وإنّما يقع الإثم على من أبدلها، «والضّمير في «بَدَّلَهُۥ» يرجع إلى الإيصاء؛ لأنّ الوصّية في معنى الإيصاء، وكذلك الضّمير في «سمعه»، وهو كقوله:﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ۝٢٧٥﴾ البقرة: ٢٧٥، أيّ: وعظ، وقوله:﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ۝٨﴾ النّساء: ٨، أيّ: المال، بدليل قوله: «منه» المذكورة في آية النّساء: ٨، «فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ» في هذه الآية دليل على أنّ الدّين إذا أوصى به الميّت؛ خرج به عن ذمّته وصار الوليّ مطلوبا

[1]- ينظر: بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز، الشّيخليّ، ج 01، ص: 388.

[2]- أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل، البيضاويّ، ج 01، ص: 123.

به؛ له الأجر في قضائه، وعليه الوزر في تأخيره، وهذا إنّما يصحّ إذا كان الميّت لم يفرّط في أدائه، وأمّا إذا قدر عليه وتركه؛ ثمّ وصّى به فإنّه يزيله عن ذمّته تفريط الوليّ فيه.»[1]

إذن فالمعنى الصّحيح في الأداء السّليم هو التّبديل في الوصّية؛ وقد «أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله:﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾: وقد وقع أجر الموصى على الله، وبرئ من إثمه، وعن قتادة في قوله: «فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ» يقول للأوصياء: من بدّل وصّية الميّت «بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ»، وأخرج عبد الرّزّاق عن الثّوريّ، قال: بلغنا أنّ الرّجل إذا أوصى لم تغيّر وصّيته حتّى نزلت:﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢﴾ البقرة: ١٨٢؛ فردّه إلى الحق.»[2] غير أنّ أداءها بالنّبر الخاطئ الّذي قد يقع على حركة اللاّم من «بدّل»؛ يؤدّي إلى تغيّر المعنى من «بدّل» إلى بدّ، و«الباء والدّال في المضاعف أصل واحد، وهو التّفرّق، وتباعد ما بين الشّيئين، يقال: فرس أبدّ، وهو البعيد ما بين الرّجلين، وبددت الشّيء: إذا فرّقته، ومن ذلك حديث أمّ سلمة: «يا جارية أبدّيهم تمرة تمرة» أيّ: فرّقيها فيهم تمرة تمرة.»[3] وهكذا أصبح المعنى أنّ من فرّق الوصّية؛ قد ارتكب إثما، وهو فرق شاسع بين المعنيين، وبين الأداءين، وبين الفعلين؛ على الرّغم من أنّ التّشكيل صحيح «بَدَّلَهُ – بَدَّ + لَهُ».

– المثال الثّاني:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾ البقرة: ٢٥٨.

[1]– الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج 03، ص: 115.

[2]– الدّرّ المنثور في التّفسير بالمأثور، جلال الدّين السّيوطيّ، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التّركيّ، بالتّعاون مع د. عبد الله حسن يمامة، مركز هجر للبحوث والدّراسات العربيّة والإسلاميّة، القاهرة، ط1، 1424هـ – 2003م، ج 02، ص: 167.

[3]– معجم مقاييس اللّغة، ابن فارس، ج 01، مادّة: بدّ.

تشتمل الآية الكريمة على مجادلة النّمرود لإبراهيم -عليه السّلام- في توحيد الله وربوبيّته؛ لأنّ الله أعطاه الملك فطغى وتجبّر، وسأل إبراهيم عن ربّه؛ فأجابه -عليه السّلام- بأنّ ربّي الّذي يحيي الخلائق فَتَحْيَا، ويسلبها الحياة فتموت، هو وحده القادر المتفرّد بالإحياء والإماتة، ولكن كُفْرَ النّمرود جعله يصف نفسه بأنّه يحيي ويميت؛ أيّ: يقتل من يريد قتله، ويبقي على من يريد إبقاءه، ثمّ يأتيه إبراهيم – عليه السّلام – بالحجّة الدّامغة بأنّ الله – جلّت قدرته – الّذي يعبده يأتي بالشّمس من المشرق، فهل يستطيع هذا الكافر تغيير هذه السّنّة الإلهيّة في الكون بأن يجعل الشّمس تأتي من المغرب؟[1] فأصيب النّمرود بالحيرة والبهتان لانقطاع حجّته، وهو حال كلّ الظّالمين الّذين لا يهتدون إلى الحقّ والصّواب.

إنّ الأداء النّبريّ المستقيم يكون على حركة الباء من قوله: « رَبِّيَ»، وفي هذه الحالة يتدخّل عامل الشّدّة لكي يجعل من المقطع المنبور أكثر وضوحا في السّمع، وذلك بزيادة شدّة الصّوت، وارتفاع نغمته الإسماعيّة، وامتداد مدّته الإنتاجيّة[2]، أثناء القراءة، أو الأداء التّرتيليّ، أمّا الأداء المنحرف قد يجعل القارئ يضع النّبر على الياء بدلا من الباء، أيّ يحدث انتقال النّبر من الباء إلى الياء؛ فتصبح «ربّ يا الّذي»؛ وبهذا نحكم على من أخطأ في موضع النّبر بهذا الشّكل الشّنيع بأنّه أخلّ بخواصّ التّلاوة الّتي أشار إليها القسطلانيّ، ومنها أن «يأتي بالقراءة مجوّدة الألفاظ، والمتمثّلة في تقويم حروفها، وإعطائها حقّها، وتوفيّتها جانب مستحقّها، من غير إفراط ولا تفريط ولا تكلّف.»[3] وبهذا الأداء النّبريّ غير المستقيم؛ يحدث التباس بين الاسم والحرف، أيّ تلتبس ياء المتكلّم في «رَبِّيَ»، وهي الصّواب في الآية الكريمة بحرف النّداء «يا»، وياء المتكلّم اسم معرّف من الضّمائر المتّصلة، أمّا «يا» المؤدّى فيها النّبر فهي حرف نداء. وما استرعى انتباهي أثناء البحث عن تفسير الآية أنّ حمزة قرأ قوله تعالى: «رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ» بحذف الياء من كلمة «ربّ»، وكأنّ حمزة

[1]- ينظر: فتح القدير، الشّوكانيّ، ج 01، ص: 278 - 279.

[2]- ينظر: علم الصّرف الصّوتيّ، عبد القادر عبد الجليل، مرجع سابق، ص: 252. والدّراسات اللّغويّة الصّوتيّة عند العلماء العرب والدّرس الصّوتيّ الحديث، حسام البهنساويّ، ص: 133.

[3]- لطائف الإشارات لفنون القراءات، الإمام أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن أبي بكر القسطلانيّ، تحقيق: مركز الدّراسات القرآنيّة، نشر: مُجمّع الملك فهد، المملكة العربيّة السّعوديّة، د ط، د ت، المجلّد: 02، ص: 423.

قرأها بهذا الحذف درءا للّبس، واحترازا من أن يقع غيره في الأداء الخاطئ؛ المتمثّل في الضّغط على حرف الياء وليس الباء[1].

ويتمثّل الالتباس النّحويّ لهذا النّبر الفاسد في التباس الخبر بالمنادى، ويمكن إدراك ذلك من خلال الإعراب التّفصيليّ للآية، «وقال إبراهيم: فعل وفاعل، والجملة في محلّ جرّ بالإضافة، ربّي: مبتدأ مرفوع بالضّمة المقدرة قبل ياء المتكلّم منع من ظهورها اشتغال المحلّ بحركة الياء المناسبة، والياء ضمير متّصل مبنيّ على السّكون في محلّ جرّ بالإضافة. الّذي: اسم موصول مبنيّ على السّكون في محلّ رفع خبر مبتدأه محذوف تقديره: هو والجملة الاسميّة «هو الّذي» في محلّ رفع خبر المبتدأ «رَبِّيَ»، وجملة « يُحْيِۦ»: صلة الموصول لا محلّ لها من الإعراب، « وَيُمِيتُ»: عطف على «يُحْيِۦ»، وجملة « رَبِّيَ... » مقول القول: «قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ»[2] إذن ما نستخلصه من إعراب الآية الكريمة أنّ الاسم الموصول «ٱلَّذِى» على الأداء المستقيم هو خبر للمبتدأ «رَبِّيَ»، أمّا بالأداء النّبريّ الفاسد فقد أصبح منادى لحرف النّداء «يا» في حالة الضّغط عليه أثناء القراءة، والّتي تعتبر قراءة أدائيّة خاطئة؛ لأنّ القارئ – في هذه الحالة –كأنّه يقول: «ربّ يا الّذي»، وكأنّ المناداة تمّت بالاسم الموصول، والّذي يمثّل انحرافا آخر في اللّغة العربيّة؛ لأنّه لا يأتي فيها «ال» بعد أداة النّداء إلاّ في مواضع تتمثّل في[3]:

- لفظ الجلالة: يا الله.
- الجمل المحكيّة،؛ فقول: يا النّاجح خالد، وهو مبنيّ على ضمّ مقدّر على آخره مع ظهور حركة الحكاية.
- اسم الجنس المشبّه به مثل: يا الأديب كتابة، يا الخطيب فصاحة.
- ضرورة الشّعر؛ كقول الشّاعر:

فَيَا الْغُلاَمَانِ اللَّذَانِ فَرَّا إِيَّاكُمَا أَنْ تَعْقِبَانَا شَرَّا.

---

[1]- ينظر: أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل، البيضاويّ، ج 01، ص: 155.

[2]- إعراب القرآن وبيانه، أ. محيّ الدّين الدّرويش، دار النّشر للشّؤون الجامعيّة، حمص، سوريا، اليمامة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، دار ابن كثير للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط3، 1412هـ – 1992م، ج 02، ص: 392 – 393. وبلاغة القرآن الكريم في الإعجاز، الشّيخليّ، ج 01، ص: 528.

[3]- ينظر: النّداء في اللّغة والقرآن، د. أحمد محمّد فارس، دار الفكر اللّبنانيّ للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، ط1، 1409هـ – 1989م، ص: 100.

نستنج أنّه لا يجمع بين أداة النّداء و«ال» التّعريف إلاّ في هذه المواطن المذكورة، وأمّا غير ذلك لا يجوز، وبهذا النّطق الخاطئ للنّبر؛ نودي المحلّى بـ«ال» في غير موضعه، وهذا إخلال بقواعد اللّغة العربيّة.

لقد أدّى النّطق النّبريّ غير السّليم إلى فساد المعنى؛ و«لاشكّ أنّ النّطق له مواصفات يتّصف بها؛ حتّى يؤدّي الهدف أداء دقيقا، فأيُّ تغيّر في الصّوت قد يؤدّي إلى تغيّر المعنى،»[1] ففي الآية إخبار من إبراهيم – عليه السّلام – بقوله: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ «بدوام واستمرار، أيّ أنّه يخلق نفسا من مادّة لا حياة لها، فينفخ فيها الرّوح، فتكون بخلق الله نفسا ذات حياة، وهو الّذي يميت الأحياء عند آجالهم، بنزع الرّوح من أجسادهم الّتي كانوا بها أحياء، فما من أحد غير الرّبّ الخالق يستطيع أن يوجد حياة في مادّة غير حيّة، وما من حيّ يستطيع أن يحافظ على حياته بوسيلة ما من الوسائل؛ فيمنع عنها الموت الّذي قضاه الرّبّ على كلّ الكائنات الحيّة.»[2] الأصل في الآية الكريمة أنّ «رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ» جملة خبريّة؛ فيها إخبار عن قدرة الله تعالى المطلقة في الحياة والموت، وبالأداء المنحرف، والمتمثّل في التباس الخبر بالإنشاء؛ وذلك بالضّغط على الياء، فتحوّلت إلى ياء نداء؛ أصبحت الجملة إنشائيّة، وذلك بمناداة الله تعالى الّذي يحيي ويميت، وقد أدّى ذلك إلى التباس على المستوى الدّلاليّ وعلى المستوى البلاغيّ أيضا.

– المثال الثّالث:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٣٥﴾ الأنعام: ٣٥.

يخاطب الله تعالى في هذه الآية رسوله الكريم – صلّى الله عليه وسلّم – الّذي عظم عليه صدود المشركين، وقوّة انصرافهم عن الاستجابة لدعوته؛ داعيا إيّاه إن استطاع أن يتّخذ نفقا في الأرض، أو مصعدا يصعد به إلى السّماء ليأتيهم بعلامة وبرهان على صحّة قوله غير الّذي بين يديه

---

[1]- اللّغة العربيّة أداء ونطقا وإملاء وكتابة، فخريّ محمّد صالح، دار الوفاء للطّباعة والنّشر، القاهرة، ط2، 1994م، ص: 96.

[2]- المعين على تدبّر الكتاب المبين، محمّد بن أحمد مكّيّ، مؤسّسة الرّيّان للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، دار نور المكتبات للنّشر والتّوزيع، ط2، 1431هـ – 2010م، ص: 43.

من قرآن فليفعل، والله تعالى لو شاء لجَمعهم على الهدى الّذي عليه الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – وأتباعه، ووفّقهم للإيمان؛ ولكن لم يشأ ذلك لحكمة يعلمها وحده سبحانه، ويأمر الله تعالى رسوله الكريم ألاّ يكون من الجاهلين الّذين اشتدّ حزنهم على أقوامهم الضّالين[1].

قد يحدث الالتباس الصّوتيّ في قوله: « سُلَّمَا»، فقد يقرأها البعض بالنّبر الخاطئ؛ فتسمع منه أنّه قال: «سُلَّ مَنْ فِي السَّمَاءِ،» في حين أنّ الأداء المستقيم يكون بالضّغط على حركة اللاّم، وليس على حركة الميم، وبوضع النّبر على حركة الميم يفصل اللاّم عن الميم، فيحدث الالتباس على بقيّة المستويات اللّغويّة؛ لأنّ الفساد في الصّوت يؤدّي إلى الفساد في الصّرف والنّحو والدّلالة، ذلك أنّ «معاني التّرتيل المطلوب أداؤه هو مراعاة أغراض الكلام الّذي في ضوئه تتفاوت نبرات الصّوت؛ إذ يمكن إعطاء التّرتيل حقّه من خلال النّبر الحاصل من الضّغط على الأصوات اللّغويّة؛ الّذي ينتقل بالأذهان إلى المعاني المرادة من الكلام، ويكون له دور في التّوازن الصّوتيّ للآذان.»[2] من الالتباس الّذي يحدث صرفيّا نتيجة النّبر الموضوع في غير محلّه على هذه الكلمة؛ هو التباس كلمة بجملة، فالأداء المستقيم والصّحيح السّليم للقراءة هو أنّ «سُلَّمَا» كلمة واحدة مفردة من حيث الصّيغة الصّرفيّة، أصبحت جملة بالأداء غير المستقيم متكوّنة من مفردتين: «سُلَّ + مَنْ».

يتمثّل الأثر النّحويّ للنّبر الخاطئ في «سُلَّمَا» في التباس المعرب بالمبنيّ؛ ذلك أنّ كلمة «سُلَّمَا» معربة، ففي إعرابها تعتبر اسما معطوفا على «نَفَقًا» منصوب وعلامة نصبها الفتحة الظّاهرة[3]، بينما في الأداء النّبريّ غير المستقيم؛ يصبح الكلام المؤدّى بالشّكل الخاطئ؛ مكوّنا من كلمتين وكلاهما مبنيّتان: الفعل الماضي المبنيّ للمجهول «سُلَّ»، من سَلَّ يَسُلُّ سَلاًّ، ونائب فاعله «من» اسم موصول مبنيّ على السّكون، هذا بالإضافة إلى أنّ «سُلَّمَا» كلمة مفردة معطوفة على كلمة مفردة وهي «نَفَقًا»، أمّا بالنّبر الفاسد فتصبح الكلمة المفردة «سُلَّمَا» معطوفة على جملة «سلّ من»، وهذا الأمر اللّغويّ غير جائز نحويّا، وينتج عن ذلك التباس المعرب بالمبنيّ، وعطف جملة على مفرد.

---

(1)- ينظر: تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ج 04، ص: 119.

(2)- التّعبير القرآنيّ والدّلالة النّفسيّة، د. محمّد عبد الله الجيوسيّ، دار الغوثانيّ للدّراسات القرآنيّة، دمشق، ط1، 1426هـ – 2006م، ص: 151 (بتصرّف).

(3)- ينظر: بلاغة القرآن في الإعجاز، الشّيخليّ، ج 03، ص: 259.

يفسّر العلماء قوله تعالى: «سُلَّمًا» بأنّها المصعد أو الدّرج أو السّبب، «قال السّديّ: السّلّم المصعد، وقال قتادة: الدّرج، وقال أبو عبيدة: السّبب والمرقاة، تقول العرب: اتّخذي سلّما لحاجتك، أيّ سببا.»[1] أيّ: «درجا في السّماء فتأتيهم بآية، سبب هذا: أنّ الكفّار كانوا يقترحون الآيات، وودّ النّبيّ – صلّى الله عليه وسلّم- أن يعطيهم الله ما اقترحوا من الآيات طمعا في أن يروا الآيات فيُسْلِموا، وتقديره: إن استطعت ذلك فافعل.»[2] أيّ: إذا استطعت اجعل لنفسك سببا في السّماء، ويرى بعض المفسّرين أنّه مشتقّ من السّلامة؛ كأنّه يُسْلِمُكَ إلى الموضع الّذي تريد[3]. بينما القراءة النّبريّة الخاطئة لكلمة «سُلَّمًا» تجعل السّامع يعتقد أنّها من السَّلِّ؛ أيّ «انتزاعك الشّيء، وإخراجه في رفق، كالاستلال، وسيف سليل: مسلول.»[4] إذن النّبر الخاطئ أحدث فسادا في دلالة الكلمة؛ فمن حقيقتها المتمثّلة في السّلّم أيّ الدّرج، إلى معنى الاستلال الّذي لا علاقة له بسياق الآية الكريمة.

– المثال الرّابع:

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٢٢﴾
الأنعام: ١٢٢.

تحمل الآية الكريمة استفهاما عن الّذي كان ميّتا في الضّلالة حائرا؛ ثمّ أحيا الله قلبه بالإيمان؛ فأصبح يعيش في نور الهداية؛ فهل مثله مثل مَنْ في الجهالة والهوى والضّلالة لا يهتدي إلى الحقّ، ولا مخلّص له ممّا هو فيه؟ كلاهما لا يستويان مثلا، وقد زُيِّنَ للكافرين سوء أعمالهم حتّى يستوجبوا العذاب[5].

(1)- تفسير البحر المحيط، أبو حيان لأندلسيّ، ج 02، ص: 118.
(2)- تفسير القرآن، السّمعانيّ، ج 02، ص: 98.
(3)- ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج 08، ص: 366.
(4)- ترتيب القاموس المحيط، الطّاهر أحمد الزّاويّ، ج 02، مادّة: سلّ.
(5)- أخرج ابن المنذر وابن حاتم وأبو الشّيخ عن زيد بن أسلم في قوله: **﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾** «قال: أُنْزِلَتْ في عمر بن الخطّاب، وأبي جهل بن هشام؛ كانا ميّتين في ضلالتهما؛ فأحيا الله عمر بالإسلام وأعزّه، وأقرّ أبا جهل في ضلالته وموته، وذلك أنّ رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – دعا فقال: «**اللّهمّ أعزّ الإسلام بأبي جهل بن هشام أو بعمر بن الخطّاب.**» – الدّرّ المنثور في التّفسير بالمأثور، السّيوطيّ، ج 06، ص: 193.

يكون الأداء المستقيم بالنّبر على مقطع الميم من قوله تعالى: «كَمَن»، أمّا الأداء غير المستقيم فيكون بالنّبر على مقطع الكاف، فتصبح بذلك كلمة واحدة أيّ «كَمَنَ»، وهي في حقيقة بنيّتها اللّغويّة في الآية الكريمة «الكاف + من». إنّ مثل هذا الأداء الخاطئ في القراءة القرآنيّة؛ راجع إلى انعدام ممارسة القراءة؛ لأنّ هذا العامل إذا ما حصل عند القارئ تصبح القراءة عنده «قراءة صحيحة وكأنّها طبيعة وسليقة فيه، لا تحتاج إلى تكلّف ولا إلى تصنّع، ولا يحصل ذلك إلاّ بالممارسة، وترويض اللّسان، وكثرة القراءة بعد تقويم اللّسان، وصحّة الأداء، فتكون المهارة بالتّلاوة من أكبر ما يعين على فهم كتاب الله تعالى، وتدبّر معانيه، ومن ثمّ العمل به.»[1] إذن فعدم إعطاء القراءة حقّها أدّى إلى هذا الانحراف النّبريّ، وهو ناتج كما أشار عبد الله الطّويل عن قلّة ممارسة القراءة، وعدم تدرّب اللّسان عليها؛ حتّى تصبح قراءة القارئ سليقة، ويتلقّاها السّامع صحيحة؛ لا تنفرها أذنه بل تشدّه إلى الاستماع والانتباه أكثر، خاصّة إذا زواج بين القراءة السّليمة وبين حسن الصّوت المطالب به في أداء القرآن الكريم.

النّبر الخاطئ على حركة الكاف؛ يؤدّي إلى التباس حرف المعنى بحرف المبنى؛ بحيث أنّ الكاف في تركيبها القرآنيّ حرف يفيد التّشبيه زائد الاسم الموصول من، ونستطيع القول: كالّذي، وشرحها الشّوكانيّ بقوله: «وقيل المعنى: كَمَنْ مثله مثل من في الظّلمات.»[2] أمّا القراءة الّتي قد يخطئ فيها القارئ في موضع النّبر؛ تصبح فيها الكاف حرف مبنى، وبالتّالي فإنّ «كَمَن» تصير كلمة واحدة، وليست كلمتين كما هي في الآية. وهذا يؤدّي بدوره إلى التباس الحرف والاسم بالفعل، ومعرفة صواب ذلك يكون بالإعراب؛ فالكاف في الآية تعرب حرف جرّ يفيد التّشبيه، ومن تعرب اسما موصولا مبنيّا في محلّ جرّ اسم مجرور، بينما النّبر الخطأ الّذي صيّر «كَمَن» الحرف والاسم؛ صيّرهما كلمة واحدة؛ تعرب فعلا ماضيا مبنيّا على الفتح.

وهذا الالتباس بين الحرف والاسم وبين الفعل؛ أدّى إلى عدم وجود تشبيه؛ ذلك أنّ الآية القرآنيّة تحمل تشبيها مصاغا صياغة استفهاميّة؛ أيّ هل هناك شبهٌ بين الّذي أصبح يحيى بنور الهداية والإيمان، وبين الكافر الّذي يعيش ظلمات الكفر والعمل السّيّئ؟ بينما أدّت القراءة الخاطئة بنبر الكاف إلى حذف التّشبيه الموجود في الآية. وكلّ ما سبق انجرّ عنه التباس في الدّلالة، ذلك أنّ معنى قوله تعالى في الآية الّتي تحمل المثال الّذي قمنا بتحليله: «أفطاعة هذا الّذي هديناه للحقّ وبصّرناه

[1]- فنّ التّرتيل وعلومه، عبد الله الطّويل، ص: 247.

[2]- فتح القدير، الشّوكانيّ، ج 02، ص: 159.

الرّشاد، كطاعة من مثله مثل من هو في الظّلمات متردّد، لا يعرف المخرج منها؛ في دعاء هذا إلى تحريم ما حرّم الله، وتحليل ما أحلّ، وتحليل هذا ما حرّم الله، وتحريمه ما أحلّ؟»[1] ففي الآية كما يوضّح تفسيرها عمّن كان ضالا فهدي إلى نور الإسلام؛ فهل هو مثل من هو في الظّلمات؟ غير أنّ نبر الكاف سيؤدّي إلى جعل « كَمَن» الحرف والاسم، كلمة واحدة تتمثّل في الفعل «كَمَنَ» والّذي يعني «كمن في المكان كُمُونا: توارى، استخفى في مكمن، واكتمن: اختفى.»[2] الملاحظ أنّ لا معنى للّذي اختفى في الظّلمات، وليس بخارج منها بهذا الأداء المنحرف.

– المثال الخامس:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٢٧﴾

الأنعام: ١٢٧. المقصود بهم القوم المتذكّرين لله تعالى لهم عند ربّهم – جلّ وعلا – يوم القيامة دار السّلامة والأمان من كلّ مكروه وهي الجنّة، وهو سبحانه ناصرهم وحافظهم جزاءً لهم بسبب أعمالهم الصّالحة[3].

إنّ نبر ما لا يستحقّ الضّغط قد يكون عاملا سلبيّا مؤدّيا إلى الالتباس، فمن ذلك كلمة «لَهُمْ» في نحو قوله تعالى: «لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ» فالنّطق الصّحيح المستقيم؛ يكون بعدم الضّغط على حركة اللاّم وحركة الهاء، أمّا الضّغط على الحركتين؛ فيؤدّي إلى الالتباس، هذا بالإضافة إلى شناعة الأداء عندما يصل الأذن المرهفة، ذات الحسّ السّمعيّ المميّز للفصاحة العربيّة، لأنّ المطلوب في التّرتيل هو ضرورة مراعاة دلالات وأغراض الخطاب القرآنيّ من خلال نبرات الصّوت الّتي تتغيّر في سياق الكلام[4]. وهذا يؤدّي إلى الالتباس بين ماهيّة الكلمات، فاللاّم في «لَهُمْ» بالأداء غير المستقيم؛ تجعل اللاّم حرف توكيد، وهي في الأصل حرف جرّ.

---

[1]–جامع البيان، الطّبريّ، المجلّد: 03، ص: 341 – 342.

[2]– المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وزملاؤه، إشراف: د.عبد السّلام هارون، مجمع اللّغة العربيّة، دار إحياء التّراث العربيّ، مصر، د ط، د ت، مادّة: كمن.

[3]– المتذكّرون لله تعالى مذكورون في الآية السّابقة، **قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًاۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾** الأنعام: ١٢٦.

[4]– ينظر: التّعبير القرآنيّ والدّلالة النّفسيّة، الجيوسيّ، ص: 151.

إنّ الالتباس بين لام الجرّ ولام الابتداء الّتي تفيد التّوكيد بسبب النّبر الخاطئ؛ يؤدّي إلى الالتباس في الإعراب، «فاللاّم: حرف جرّ، وهم: ضمير الغائبين مبنيّ على السّكون في محلّ جرّ، والجار والمجرور في محلّ رفع لأنّه متعلّق بخبر مقدّم، دار: مبتدأ مؤخّر مرفوع بالضّمّة. السّلام: مضاف إليه مجرور بالإضافة.»[1] في حين أنّ الأداء الخاطئ يجعلنا نعرب اللاّم حرف ابتداء، وهم: ضمير متّصل في محلّ رفع مبتدأ المسبوق بلام الابتداء، ويلتبس بذلك الخبر بالمبتدأ، فدار: على الأداء غير المستقيم تعرب خبرا، وإعرابها الصّحيح مبتدأ مؤخّرا، بالإضافة إلى الالتباس في التّرتيب الأصليّ للجملة، فالتّرتيب في الآية: تقدّم الخبر الجار والمجرور المتعلّقان بمحذوف الخبر، وتأخّر المبتدأ «وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص للقوم الّذين يذكّرون لا لغيرهم.»[2] أمّا في التّرتيب الثّاني بالأداء غير المستقيم؛ فقد جاء المبتدأ أوّلا ثمّ تلاه الخبر.

إنّ الالتباس على مستوى ما تقدّم بسبب النّبر الخاطئ يؤدّي إلى الالتباس في المعنى، فقوله تعالى: «لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ»؛ أيّ: «لهؤلاء القوم دار السّلام أيّ الجنّة.»[3] «والدّار: مكان الحلول والإقامة، والسّلام: الأمان، ويجوز أن يراد بدار السّلام الجنّة سمّيت دار السّلام لأنّ السّلامة الحقّ فيها؛ لأنّها قرار أمن من كلّ مكروه للنّفس، وقيل: السّلام اسم من أسماء الله تعالى، أيّ دار الله تعظيما لها كما يقال للكعبة: بيت الله.»[4] أمّا الأداء الخاطئ فيقلب المعنى، ويظهر دلالة معاكسة تماما؛ بحيث يصبح هؤلاء القوم هم دار السّلام، وهذا المعنى فاسد لا يحتمله سياق الخطاب القرآنيّ الّذي وردت فيه الآية، وذلك بسبب النّبر المؤدّى في غير محلّه.

– المثال السّادس:

قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾

الأعراف: ١٧٨. أيّ من يوفّقه الله تعالى إلى الإيمان به وطاعته؛ فهو الموفّق، ومن يخذله فهو الخاسر

[1]– بلاغة القرآن الكريم، الشّيخليّ، ج 03، ص: 387.

[2]– تفسير التّحرير والتّنوير، ابن عاشور، ج 08، ص: 63.

[3]– روح المعاني، الآلوسيّ، ج 08، ص: 23.

[4]– تفسير التّحرير والتّنوير، ابن عاشور، ج 08، ص: 63 – 64.

الهالك[1]. ويكون الأداء المستقيم بالنّبر على مقطع الميم من قوله تعالى: «ٱلْمُهْتَدِیۖ»؛ أمّا الأداء النّبريّ غير المستقيم فيكون بنبر مقطع التّاء؛ ولكنّ ذلك يحصل إذا وقف القارئ على كلمة «ٱلْمُهْتَدِیۖ» بالسّكون، وذلك للفصل بين آية الهداية وآية الضّلالة؛ فيسمعها المتلقّي كأنّه نطقها «المهتدّ»، وهناك فرق شاسع بين «المهتد» أثناء الوقف عليها و«المهتدّ»، فـ «المهتد» بالنّبر الصّحيح على مقطع الميم هي اسم فاعل؛ حذفت ياؤه أثناء الوقف على آية الهدى، صيغ من الفعل: اهتدى – يهتدي – المهتدي، أمّا بالأداء النّبريّ الخاطئ قد صارت «المهتدّ»، وهو اسم مفعول من الفعل: اهتدّ، يُهْتَدُّ – المهتدّ؛ فالتبس بذلك اسم الفاعل باسم المفعول.

كذلك التبس الفعل الثّلاثيّ المزيد المعتلّ الآخر أيّ النّاقص «اهتدى» لأنّ أصله «هدى»؛ بالفعل الثّلاثيّ المزيد الصّحيح المضعّف «اهتدّ»، والّذي أصله «هدّ». وهذا كلّه أدّى إلى التباس في الدّلالة، ومعنى الآية: «من يهده الله إلى دينه الحقّ بعد أن سلك طريق هداه؛ فهو المهتدي دون سواه؛ ممّن سلك سبيل هواه، ومن يشركه في ضلاله لغفلته عن هداه؛ فأولئك هم الخاسرون دنياهم وأخراهم.»[2] إذن فالّذي يهديه الله هو طالب الهدى، أمّا على الأداء المنحرف؛ فهو المهتدّ، أيّ أصبح المعنى أنّ من يهد الله فهو الّذي وقع عليه الهدّ؛ على الرّغم من أنّ التّشكيل صحيح، والتّجويد صحيح أيضا إلاّ أنّ الضّغط على حركة التّاء؛ أدّى إلى تشديد الدّال؛ فنتج عنه هذه الآثار السّلبيّة على مستويات اللّغة.

– المثال السّابع:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴿٨٠﴾﴾ التوبة: ٨٠.

الخطاب موجّه إلى الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – فيه أمر من الله تعالى إليه؛ أيّ: استغفر – أيّها

---

[1]– والمثال الّذي سنبيّن خطأ النّبر فيه نجده أيضا في قوله تعالى:﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ﴿٩٧﴾﴾ الإسراء: ٩٧. وفي قوله تعالى:﴿...ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴿١٧﴾﴾ الكهف: ١٧.

[2]– التّفسير الوسيط للقرآن الكريم، تأليف: لجنة من العلماء، بإشراف: مجمع البحوث الإسلاميّة بالأزهر، مطبعة المصحف الشّريف، ط3، 1413هـ – 1992م، ص: 1551.

الرّسول– للمنافقين أو لا تستغفر لهم؛ فلن يغفر الله لهم، مهما كثر استغفارك لهم وتكرّر؛ لأنّهم كفروا بالله ورسوله، والله سبحانه وتعالى لا يوفّق للهدى الخارجين عن طاعته.

قد يكون عدم النّبر على الصّوت الّذي يحتاج إلى نبر عاملا سلبيّا مؤدّيا إلى الالتباس؛ لأنّ الأداء قد يستدعي أحيانا النّبر على حركة الحرف، نمثّل لذلك في قوله تعالى:«ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ»، فقراءة الآية بالأداء السّليم يكون بالفصل بين «أو» و«لا النّاهية»، وذلك بالضّغط على حركة «لا»، أمّا عدم الضّغط على حركة اللاّم؛ فإنّه يلبس « أَوْ لَا» بـ «أولى»، وعلى الرّغم من عدم وجود تشكيل مختلف بينهما، وكذا عدم وجود تجويد مختلف إلاّ أنّ الفارق بينهما هو فارق صوتيّ، وهو عدم الضّغط على حركة المقطع الطّويل «لا» الّذي أدّى إلى الالتباس.

يتجلّى الأثر الصّرفيّ في صيغة «أو – لا» اللّتين تعتبران كلمتين؛ التبست بصيغة واحدة وهي «أولى»؛ لأنّ عدم الضّغط على «لا» جعل الكلمتين «أو – لا» تنطق وكأنّها كلمة «أولى»؛ بينما هي في حقيقة بنيّتها القرآنيّة كلمتان اثنتان وهما «أو – لا»، وهما حرفان. وإنّ التباس الحرفين «أو – لا» في الآية الكريمة بالاسم «أولى» أدّى إلى التباس نحويّ[1]، ذلك أنّ الحرف عند النّحاة هو «ما دلّ على معنى في غيره، ومن ثمّ لم ينفكّ من اسم أو فعل يصحبه إلاّ في مواضع مخصوصة حذف فيها الفعل، واقتصر على الحرف؛ فجرى مجرى النّائب نحو قولهم: نعم، وبلى، وإي.»[2] أمّا الاسم فيعرَّفُ بأنّه «ما دلّ على معنى في نفسه، دلالة مجرّدة عن الاقتران، وله خصائص، منها: جواز الإسناد إليه، ودخول حرف التّعريف، والجرّ، والتّنوين، والإضافة.»[3] لهذا بإمكاننا القول: الأولى بالإحسان المؤمنون؛ معرّفة بال، أو أولى النّاس الفقهاء، مضافة إلى فقهاء وغيرها من الخصائص الّتي تدلّ على اسميّة هذه الكلمة. بالإضافة إلى التباس المبنيّ بالمعرب، فالحروف كلّها مبنيّة، ولا محلّ لها من

---

[1]- كذلك يمسّ الالتباس جميع مستويّات اللّغة في الأداء غير المستقيم لـ«أو – لا» كقوله تعالى:﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ١٠٧﴾ الإسراء: ١٠٧.

[2]- المفضّل في علم العربيّة، أبو القاسم محمود بن عمر الزّمخشريّ، وبذيله المفضّل في شرح أبيات المفصّل، السّيّد محمّد بدر الدّين أبو فراس النّعسانيّ الحلبيّ، دار الجيل للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط2، د ت، ص: 283.

[3]- شرح المفصّل للزّمخشريّ، ابن يعيش، ج 01، ص: 81.

الإعراب[1]؛ بينما الأسماء منها الاسم المعرب، ومنها الاسم المبنيّ[2]، فـ«أو – لا» حرفان مبنيّان لا محلّ لهما من الإعراب؛ في حين أنّ «أولى» اسم، وله محلّ من الإعراب إذا وُضِعَ في جملة.

الالتباس النّحويّ الثّاني الّذي حصل نتيجة النّبر الفاسد هو: التباس النّفيّ بالإثبات، فالكلام في الآية منفيّ بلا، وبالتّالي فإنّ المنافقين المتحدّث عنهم في الآية الكريمة لن يدخلوا الجنّة سواء استغفر لهم الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– أم لم يستغفر لهم، أمّا بالأداء غير المستقيم فإنّ في الكلام إثبات، وسيؤوّل على أنّ الله تعالى يطلب من نبيّه الكريم الاستغفار الأفضل للمنافقين –والعياذ بالله– ثمّ يدخلهم النّار، وهذا أمر مستحيل، وقد يحدث هذا الالتباس الشّنيع بين النّفيّ والإثبات بسبب ما قد يرتكبه المرء من قراءة خاطئة للأداء في القرآن الكريم، والاستماع إلى الأداء هو ما يمكن أن يستند عليه المتلقّي؛ فيؤوّل القراءة الخاطئة، والأداء النّبريّ الخاطئ بالكيفيّة الّتي سمعها.

إنّ قوله تعالى: «ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ» أمر يراد به الخبر كأنّه قيل لن يغفر الله لهم، أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، و«أو: للتّخيير والعطف، ولا ناهيّة، وتستغفر مجزوم بلا، ولهم متعلّقان بالفعل.»[3] و«خروج الأمر والنّهيّ عن معناهما الأصليّ إلى معنى آخر، وهو التّسوية بين الأمرين، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴿٥٧﴾﴾ التّوبة: ٥٧، وكقول كثير عزّة»[4]:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لاَ مَلُومَةَ لَدَيْنَا وَلاَ مَقْلِيةَ إِنْ تَقَلَّتْ

غير أنّ الأداء غير المستقيم أدّى إلى خروج الآية القرآنيّة عن هذا المعنى السّليم الصّائب إلى معنى جديد، والأشنع من هذا أنّه قد يؤدّي إلى فساد في العقيدة نفسها، وهذا الالتباس مرجعه عدم النّبر على الحرف «لا»؛ فكان بذلك عاملا سلبيّا أدّى إلى تغيّر المعنى كلّه للخطاب القرآنيّ في الآية

[1]- ينظر: جامع الدّروس العربيّة موسوعة في ثلاثة أجزاء، الشّيخ مصطفى الغلاييّ، راجعه ونقّحه: د. عبد المنعم خفاجة، منشورات المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، ط1، د ت، ج 01، ص: 08.

[2]- ينظر: شرح الآجُرُّومِيّة، العلامة محمّد صالح العيثمين، مكتبة الرّشد ناشرون، الرّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط1، 1426هـ – 2005م، ص: 45- 46.

[3]- إعراب القرآن وبيانه، محيي الدّين الدّرويش، ج 04، ص: 140.

[4]- الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحويّة هامّة، تصنيف: محمود صافي، دار الرّشيد، دمشق، بيروت، مؤسّسة الإيمان، بيروت، لبنان، ط3، 1416هـ – 1995م، ج 09، ص: 403.

الكريمة؛ الّتي قَصَدَ بها سبحانه وتعالى استحالة أن يغفر للمنافقين؛ مهما طلب لهم رسوله الكريم – صلّى الله عليه وسلّم – المغفرة، ولو استغفر لهم سبعين مرّة[1].

– المثال الثّامن:

قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ طه: ١٠٠ – ١٠١. ومعناه من أعرض عن القرآن الكريم، ولم يصدّق به، ولم يعمل بما فيه؛ فإنّه يأتي يوم القيامة يحمل إثما عظيما. تكون القراءة المستقيمة في قوله تعالى: «وَسَآءَ لَهُمْ » بالضّغط على حركة الهمزة من الفعل «ساء»، والّذي يساعد على الفصل بين الهمزة في نهاية هذا الفعل، واللاّم المبتدئ بها في كلمة «لهم»، وإذا لم يؤدّ هذا الضّغط؛ فإنّه سيحدث التباسا بين «وَسَآءَ لَهُمْ» الواردة بهذا الشّكل في الآية الكريمة، ومع ذلك لا بدّ من القطع أو الفصل بينهما أثناء القراءة «وساء/لهم»، وبين ما يمكن أن يسمعه المستمع من القارئ المرتكب للخطأ الأدائيّ أثناء القراءة على أنّه «وَسَآءَ لَهُمْ» متّصلة القراءة، والّذي يؤثّر بدوره على باقي مستويات اللّغة[2].

إنّ عدم النّبر على حركة الهمزة يؤدّي إلى التباس في النّحو، ويتمثّل في الالتباس بين الفعل «ساء» وهو «ماض لإنشاء الذّمّ مفتوح، والفاعل مستتر وجوبا هو.»[3]، والفعل «ساءل»، ممّا أدّى بدوره إلى التباس حرف المعنى بحرف المبنى؛ فاللاّم تصبح بعدم النّبر على الهمزة حرف مبنى لكلمة «ساءل»، وهي في حقيقتها حرف جرّ، وهم: ضمير متّصل مبنيّ في محلّ جرّ اسم مجرور «متعلّقان بحال من حملا.»[4] والضّمير «هم» الّذي محلّه الجرّ يلتبس بما محلّه النّصب على المفعوليّة؛ لأنّ الإعراب يختلف عندما لا يراعي القارئ للآية الكريمة نبر حركة الهمزة؛ فتأخذ شكل إعراب مختلف، أيّ ساءل: فعل ماض مبنيّ على الفتح، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو، وهم: ضمير متّصل مبنيّ

---

[1] – ينظر: التّبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبريّ، تحقيق: سعد كُرَيِّم الفقيّ، دار اليقين للنّشر والتّوزيع، ط1، 1422هـ – 2001م، ج 02، ص: 425.

[2] – ينظر: من وظائف الصّوت اللّغويّ، أحمد كشك، ص: 120.

[3] – إعراب القرآن الميسّر، د. محمّد الطّيّب الإبراهيم، دار النّفائس للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط1، 1422هـ – 2001م، ص: 319.

[4] – المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

على السّكون في محلّ نصب مفعول به. بالإضافة إلى التباس النّصب على التّمييز بالنّصب على المفعوليّة، ذلك أنّ «حملا: منصوب على التّمييز.»[1] أيّ: تعرب تمييزا منصوبا بالقراءة الأدائيّة السّليمة؛ لكن في حال عدم النّبر على حركة الهمزة تعرب حملا: مفعولا به منصوبا.

إنّ عدم النّبر على حركة الهمزة له أيضا تأثيره على المستوى الدّلاليّ؛ لأنّ «وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا»؛ أيّ أنّه: «يريد بها بئس الحملُ حملوه يوم القيامة، وقرأ داود بن رفيع: «فإنّه يُحَمَّلُ.»[2] بمعنى بئس الوزر حملهم يوم القيامة، «وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: « وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا» قال: ليس هي «وَسَآءَ لَهُمۡ» موصولة،؛ ينبغي أن تقطع؛ فإنّك إن وصلت لم يفهم، وليس بها خفاء؛ ساءهم بها حملا خالدين فيه، «وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا» قال: حمل السّوء، ويورد صاحبه النّار. قال: وإنّما هي: «وَسَآءَ لَهُمۡ» مقطوعة، – وساء – بعدها – لهم.»[3] أمّا عدم النّبر فإنّها تُفْهَمُ على أنّها «وَسَآءَ لَهُمۡ» والّتي تعني «ساءل مساءلة: سأله.»[4] فبعد أن كانت الآية الكريمة تذمّ هؤلاء، وتبيّن مدى حملهم الثّقيل يوم القيامة من الأوزار والسّيّئات؛ أصبحت تسألهم عن الحمل، وما هو هذا الحمل الّذي سئلوا عنه؟ وعلى الرّغم من أنّ التشّكيل صحيح، وكذلك التّجويد إلاّ أنّ عدم النّبر في موضعه الصّحيح؛ هو الّذي أدّى إلى كلّ هذه الآثار السّلبيّة على جميع المستويات اللّغويّة.

– المثال التّاسع:

قَالَ تَعَالَى:﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾ الأحزاب: ٢٥. أوردت الآية الكريمة كيف ردّ الله تعالى أحزاب الكفر عن المدينة المنوّرة؛ خائبين خاسرين مغتاظين، وهكذا لم ينالوا الخير لا في الدّنيا ولا في الآخرة،

---

[1]- معاني القرآن وإعرابه، الزّجّاج أبو إبراهيم بن السّريّ، شرح وتحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبيّ، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408هـ – 1988م، ج 03، ص: 376.

[2]- الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج 14، ص: 134.

[3]- الدّرّ المنثور في التّفسير بالمأثور، السّيوطيّ، ج 10، ص: 238.

[4]- معجم متن اللّغة، موسوعة لغويّة حديثة، العلاّمة الشّيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، د ط، 1378هـ – 1959م، المجلّد: 03، مادّة: سأو.

وكفى الله المؤمنين القتال بما أيّدهم به من الأسباب، وكان الله قويّا، لا يُغَالب، ولا يُقْهَرُ؛ عزيزا في ملكه وسلطانه[1].

إنّ الشّاهد النّبريّ الّذي نركّز عليه في هذه الآية الكريمة هو النّبر على حركة الكاف في قوله: «وَكَفَى»، وإنّه بالنّبر على مقطع الكاف الّذي يمثّل المقطع الأوسط من الكلمة؛ «أدّى إلى نشاط في زيادة حدّة المقطع؛ بحيث يلاحظ أنّه أقوى المقاطع في الكلمة، وأعلاها صوتا.»[2] غير أنّ الأداء المنحرف للنّبر قد يكون بنبر مقطع الواو؛ ممّا يؤدّي إلى التباس على جميع المستويات اللّغويّة.

أوّل ما يلاحظ كالتباس بهذا النّبر الخاطئ هو التباس حرف المبنى بحرف المعنى، فالواو في سياقها القرآنيّ حرف عطف، وحروف العطف تحمل معنى، ومن معاني حرف العطف الواو الجمع بين شيئين، بحيث قيل: «الواو للجمع مطلقا.»[3] ومعناه احتمال حصول الحدثين في زمن واحد[4]. وهو ما يحتمل وروده في الآية الكريمة أنّ حدث ردّ الكافرين خائبين منهزمين، وحدث كفاية المؤمنين عن القتال حصلا في زمن واحد، وبالنّبر السّليم على الواو تعتبر كلمة مستقلّة عمّا بعدها، والواو حرف له استقلاليّته حتّى في الإعراب، فهي حرف عطف مبنيّ لا محلّ له من الإعراب، ويؤدّي معنى، بينما بالنّبر الخاطئ على مقطع الكاف؛ أصبحت الواو جزءا من الكلمة الّتي بعدها؛ فصارت وكأنّها «وَكَفَ»؛ أيّ أنّها صارت حرف مبنى، وليست حرف معنى كما هي في سياقها القرآنيّ نتيجة الأداء النّبريّ الخاطئ.

وقد أدّى ذلك إلى التباس الفعل «كفى» بالفعل «وكف»، أيّ التباس الفعل المعتلّ النّاقص بالفعل المعتلّ المثال، ففي علم الصّرف يعتبر الفعل «كفى» فعلا ثلاثيّا معتلّا؛ يسمّى فعلا ناقصا لأنّ أحد حروفه الأصليّة وهي لام الفعل جاءت حرف علّة، ويعتبر الفعل «وكف» فعلا ثلاثيّا معتلّا؛ يسمّى مثالا أحد حروفه الأصليّة جاءت حرف علّة، وهي فاء الفعل[5]. الفعل «كفى» فعل متعدّ، والأفعال المتعدّية هي الأفعال الّتي تطلب فاعلا ومفعولا به واحدا أو أكثر من مفعول، ويمكن إدراك

---

[1]- ينظر: فتح القدير، الشّوكاني، ج 04، ص: 272.

[2]- المحيط في أصوات العربيّة، محمّد الأنطاكيّ، ج 01، ص: 30.

[3]- شرح الرّضيّ لكافية ابن الحاجب، المجلّد: 01، ص: 1304.

[4]- ينظر: معاني النّحو، د. فاضل صالح السّامرائيّ، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 1420هـ – 2000م، ج 03، ص: 216.

[5]- ينظر: كتاب المفتاح في الصّرف، عبد القاهر الجرجانيّ، حقّقه وقدّم له: د. عليّ توفيق الحمد، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط1، 1407هـ – 1987م، ص: 40.

ذلك من خلال إعراب الشّاهد عندنا في هذه الآية؛ «وكفى: واو عاطفة، كفى ماض مفتوح بفتحة مقدّرة على الألف، الله: فاعل مرفوع، المؤمنين: مفعول به أوّل منصوب بالياء، القتال: مفعول به ثان منصوب.»[1] أيّ: كفى الله من؟ المؤمنين، وكفاهم ماذا؟ القتال.

أمّا الفعل «وكف»؛ فهو في الأصل من الأفعال اللّازمة، وهي الأفعال الّتي تكتفي بفاعلها لتكوين جملة مفيدة ذات معنى، ولا تحتاج إلى مفعول به[2]، وهذا مناقض لما في سياق الآية الكريمة؛ فهي تحتوي تركيبيّا على فعل وفاعل ومفعول به أوّل ومفعول به ثان، وهذا الالتباس بين الفعل المتعدّي والفعل اللّازم بين «كفى – وكف»؛ قد يحصل إذا غيّر القارئ موضع النّبر من مقطع الواو، ونقله إلى مقطع الكاف.

لا يتوقّف الالتباس عند هذا الحدّ؛ بل يطال المعنى أيضا في حالة الأداء الخاطئ، ومعنى الآية على الأداء المستقيم؛ أنّ الله تعالى عفا المؤمنين من «مباشرة القتال بما أنزل الله على المشركين من الرّيح الشّديدة الباردة الّتي أزعجتهم عن أماكنهم، وبما أرسل من الملائكة، وبما قذف في قلوبهم من الرّعب.»[3] وهكذا على رغم قوّة الأحزاب الأعداء، وكثرة عددهم نال منهم الله تعالى بقدرته العظيمة، ولم يدخل المؤمنون المخلصون لله تعالى في نزال معهم، وحقّق لهم الفوز المبين؛ صدق وعده، ونصر عباده. أمّا «وَكَفَ» النّاتجة عن القراءة النّبريّة الخاطئة بمعنى «وَكَفَ الماءُ وغيرُه يَكِفُ وَكْفًا ووَكِيفًا: سال وقطر قليلا قليلا.»[4] وتعالى الله جلّت قدرته علوّا كبيرا عن هذا المعنى البشع؛ الّذي يمكن أن تفسده القراءة الخاطئة بإسناد الفعل إلى الذّات الإلهيّة، وكذلك فسد التّركيب بإحداث تنافر بين الكلمتين «المؤمنين والقتال»، وكأنّ لا علاقة نحويّة تربطهما ببقيّة الكلمات، إذن كما هو ملاحظ المعنى جدّ متباعد بين «كَفَى» في الآية الكريمة، و«وَكَفَ» في حالة النّبر الفاسد.

– المثال العاشر:

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣﴾ الطّور: ٣٣. يقول المشركون أنّ رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- اختلق القرآن من تلقاء نفسه، وهو ليس من عند الله تعالى، وجاء كلامهم بصيغة الاستفهام، فكانت الإجابة: بل هم لا يؤمنون، ولو آمنوا لما قالوا هذا الكلام.

---

(1)- إعراب القرآن الكريم الميسّر، محمّد الطّيّب الإبراهيم، ص: 448.

(2)- ينظر: النّحو التّطبيقيّ من القرآن والسّنّة، أبو عبد الرّحمن جمال بن إبراهيم القِرْش، قدّم له: د. إبراهيم جميل محمّد، ود. فاروق إبراهيم مغربيّ، النّاشر دار الضّياء، طنطا، ط3، 1423هـ – 2003م، ص: 23.

(3)- مجمع البيان في تفسير القرآن، الطّبرسيّ، ، ص: 111.

(4)- المعجم الوسيط، مجمع اللّغة العربيّة، مادّة: وكف.

من خلال هذه الآية سوف نعرف أين يكمن النّبر الصّحيح، وأين يُرْتَكَبُ النّبر الخاطئ المؤدّي إلى الالتباس، فإذا ضغط النّاطق على حركة اللاّم من قوله: «تَقَوَّلَهُۥ»، سيحدث انفصال في الكلمة؛ لتصبح «تقوّ – له» في حين أنّها «تَقَوَّلَهُۥ»، فالضّاغط على صوت اللاّم وحركتها؛ يلبس الأمر على المستمع، ولقد كان المشايخ من معلّمي القرآن ينهون المتعلّمين عن ذلك بقولهم عبارة شهيرة: اضغط هنا، أو لا تضغط هنا، والمقصود بها انبر هذا الصّوت، أو لا تنبر هذا الصّوت، وهم بذلك يوجّهون المتعلّمين إلى الأداء الصّحيح للحروف وحركاتها؛ حتّى وإن لم يشرحوا الأسباب ولم يقدّموا البراهين على أوامرهم المستمرّة؛ إلاّ أنّهم يسعون جاهدين للحفاظ على النّطق السّليم للقرآن الكريم، وهذا النّطق السّليم مؤدٍ آليّا إلى ضبط المعنى المحكم للآيات الكريمات[1]، وهي طبيعة في الإنسان العربيّ؛ يعتمد على الأداء في إفادة المعنى، وتوضيح الغرض، وقد قال ابن جنيّ في هذا المجال: «أهل هذه اللّغة قد يصلون إلى إبانة أغراضهم بما يصحبونه في الكلام فيما تقدّم مثله، أو تأخر بعده وبما تدلّ عليه الحال؛ فإنّ لها في إفادة المعنى تأثيرا كبيرا.»[2] فالأداء الصّوتيّ المتقن من المتكلّم إلى المخاطب من خلال الأداء المستقيم للنّبر وغيره من الظّواهر الصّوتيّة سبيل إلى تجليّة المعنى، وله دور في توضيح الدّلالة في سياقها المناسب.

يتجلّى الأثر الصّرفيّ في الالتباس في تصريف الفعل؛ وبتغيّر تصريفه تتغيّر حقيقته، فهو في حقيقة وضعه القرآنيّ فعل متصرّف في الماضي من «تقوّل – يتقوّل – تقوّلا»؛ ومعناه «ابتدعه كذبا.»[3] غير أنّ الأداء النّبريّ الخاطئ جعله فعلا متصرّفا في الأمر من «تقوّى: بمعنى قَوِيَّ، واقتوى: قوّاه الله، وهو يقوّى: يرمى بذلك، وفرس مقوّ: قويّ.»[4] بالإضافة إلى هذا التّغيير في التّصريف، نجد –أيضا– تغيّرا في البناء بحيث أنّ «تقوّل» هي عبارة عن كلمة واحدة، واللاّم المنتهية بها هي لام بناء، أمّا عندما ينبر صوت اللاّم وحركته تصبح عبارة متكوّنة من كلمتين وهما «تقوّ + له»، فتنقلب اللاّم بذلك حرف معنى، أيّ تصبح حرف جرّ، وليس حرف مبنى.

---

[1]- ينظر: التّعبير القرآنيّ والدّلالة النّفسيّة، الجيوسيّ، ص: 152.

[2]-المنصف: شرح الإمام أبي الفتح عثمان بن جنيّ النّحويّ، لكتاب التّصريف لأبي عثمان المازنيّ النّحويّ البصريّ، بتحقيق لجنة من الأستاذين: إبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين، إدارة إحياء التّراث القديم، وزارة الثّقافة العموميّة، القاهرة، ط1، 1373هـ – 1954م، ج 01، ص:154.

[3]- ترتيب القاموس المحيط، الطّاهر أحمد الزّاوي، ج 03، مادّة: قال.

[4]- القاموس المحيط، الفيروزباديّ، مادّة: قوي.

إنّ التّغيير الّذي طرأ على تصريف الفعل جرّاء النّبر المؤدّى في غير محلّه؛ أثّر أيضا على الجانب النّحويّ للفعل، فالتبس ما محلّه النّصب على المفعوليّة؛ بما محلّه الجرّ بحرف الجرّ؛ فالهاء في «تَقَوَّلَهُۥ» تعرب: ضميرا متّصلا مبنيّا في محلّ نصب مفعول به، وبالأداء النّبريّ غير الصّحيح أصبحت «له»، أيّ أنّ الهاء تعرب: ضميرا متّصلا مبنيّا في محلّ جرّ اسم مجرور، وهذا أدّى إلى التباس في الجانب النّحويّ للآية.

إنّ الضّغط على حركة اللاّم أدّى إلى تأثّر المعنى في الآية؛ فالمقصود من قوله تعالى:«**أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ**»، أيّ: «أم يقول هؤلاء المشركون: إنّ محمّدا تقوّل هذا القرآن من عند نفسه واختلقه؟ «**بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ**» تكذيبا لدعواهم، أيّ إنّما حملهم على ذلك القول كفرهم بالحقّ الّذي جاءهم من عند ربّهم.»[1] أيّ: افتعله وافتراه، يعني القرآن، «والتّقوّل: تكلّف القول، وإنّما يستعمل في الكذب في غالب الأمر، ويقال: قوّلتني ما لم أقل، وأقولتني ما لم أقل، أيّ: ادّعيته عليّ. وتقوّل عليه: أيّ: كذب عليه، واقتال عليه: تحكّم، قال:

وَمَنْزِلَةٌ فِي دَارِ صِدْقٍ وَغِبْطَةٍ وَمَا اقْتَالَ مِنْ حُكْمٍ عَلَيَّ طَبِيبُ

فـ «أم» الأولى للإنكار[2]، والثّانية للإيجاب، أيّ: كما يقولون: «**بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ**» جحدا واستكبارا.»[3] فتكون بذلك تقوّل من خلال شرح المفسّرين هي التكلّف في القول والافتراء والادّعاء الّذي اتُّهِمَ به الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – من طرف المشركين الّذين كذّبوا نزول القرآن الكريم عليه جحودا ونكرانا حتّى لا يؤمنوا به، أمّا القراءة النّبريّة الخاطئة، أيّ بالضّغط على حركة صوت اللاّم يؤدّي إلى معنى مغاير تماما لما ورد في الآية الكريمة، ممّا يؤدّي إلى التباس في المعنى فلا يعلم من الّذي سيُتَقَوّى له؟ عندما تمّ أداؤها على أنّها «تقوّ/ له»، ومعنى تقوّى: القوّة، والّذي لا يتلاءم مع سياق الآية الكريمة.

– المثال الحادي عشر:

[1]- التّفسير المأمون، مأمون حمّوش، ج 07، ص: 159 – 460.

[2]- البيت لكعب بن سعد الغنويّ. - الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج 19، ص: 534 – 535.

[3]- المقصود بـ«أم» الأولى الواردة في الآية السّابقة لهذه الآية والمتمثّلة في قوله تعالى:﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٣٢﴾ الطّور: ٣٢.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ١٧﴾ الطّارق: ١٧. الخطاب القرآنيّ في هذه الآية موجّه إلى الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – بأن لا يستعجل باتّخاذ وسائل انتقام ضدّ الكافرين ويؤجّلهم؛ لأنّ الله تعالى سيحلّ عليهم العذاب والعقوبة.

إنّ الأداء المستقيم يكون بالضّغط على حركة الميم في قوله: «فَمَهِّلِ»، ولكنّ قد يقع قارئ في الخطأ؛ فينبر مقطع «الهاء» ممّا يؤدّي إلى التباس عدم وجود الضّمير ياء المخاطبة بوجوده فيتلقّاها السّامع على أنّها «فمهّلي»؛ في حين أنّ الآية الكريمة بأدائها السّليم لا وجود للياء. ويلتبس الفاعل الضّمير المستتر بالفاعل الظّاهر؛ لأنّه بالنّبر المستقيم على «الميم» يكون إعراب: مهّل: فعل أمر مبنيّ على الفتح، والفاعل ضمير مستتر تقديره أَنْتَ؛ يعود على الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم ــ، وبالنّبر الخاطئ على «الهاء»؛ تنتج الياء المتّصلة بالفعل؛ لتعرب ضميرا متّصلا مبنيّا في محلّ رفع فاعل، وهو ما لا وجود له في تركيب الآية الكريمة، وهذا يؤدّي إلى التباس خطاب المذكّر بخطاب المؤنّث أيّ من قوله: فمهّل أَنْتَ؛ لتصير: فمهّلي أَنْتِ.

– المثال الثّاني عشر:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥﴾ العلق: ١ – ٥. إنّها أوّل ما نزل على الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم– يأمره فيها جبريل – عليه السّلام – بأن يقرأ، أيّ يقرأ القرآن مفتتحا قراءته باسم ربّه الخالق، خالق الإنسان من قطعة دمّ؛ ربّه الكثير الإحسان الواسع الجود، والّذي علّم الخلق بالقلم الّذي يمثّل أداة العلم والكتابة؛ فعلّمه بذلك ما لم يكن يعلم؛ فأخرجه من دائرة الظّلمات والجهل إلى دائرة العلم والنّور.

سوف يتّضح لنا من خلال هذه الآية الكريمة مدى شناعة النّبر الخاطئ الموضوع في غير موضعه؛ فلو قرأ قارئ قوله تعالى: «رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ» بالضّغط على الكاف وحركتها؛ فإنّ ذلك يمثّل التباسا صوتيّا شنيعا؛ بحيث يؤثّر على ترتيب الأصوات وتسلسلها كما ورد في الآية؛ لأنّ الضّغط على صوت الكاف وحركته؛ يجعل صوت الكاف سابقا للكلمة الّتي تليه، وهي «ٱلَّذِى» ويمثّل بدايتها، وملتصقا بها؛ فتسمع كأنّ القارئ قرأ «ربّ كالّذي خلق»، وهو التباس بينها وبين «رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ»؛ ممّا يحدث تغييرا فضيعا على ما تبقّى من المستويات اللّغويّة، وبهذا الفساد لا تتحقّق الغاية المبتغاة من التّرتيل، والمتمثّلة في «جعل النّفس مشدودة إلى سماعه، متأمّلة في معانيه،

فكم هو مهمّ وضروريّ لقارئ القرآن أن يكون ملمّا بطريقة الأداء الصّوتيّ،»[1] والصّواب في هذه الكلمة هو نبر صوت الباء وحركتها، والشّدّ عليها أيضا؛ ليتبيّن للمستمع أنّ صوت الكاف وحركته ضمير لاحق بكلمة «ربّ»، وليس أداة تشبيه سبقت كلمة «ٱلَّذِى».

يتمثّل الأثر الصّرفي النّاتج عن النّبر الفاسد في التباس نوع الكلمة، فالكاف في الآية هي اسم «عبارة عن ضمير متّصل»، والأداء غير السّليم يجعلها حرف تشبيه؛ وبهذا يمثّل النّبر تجسيدا للمعاني الّتي يرغب قارئ القرآن أو غيرها من الخطابات الّتي يريد إيصالها إلى غيره، «فيلجأ إلى تكثيف الصّوت على الكلمة الّتي هي موضع إسقاط الصّوت؛ فيصبح النّبر بذلك نداءً يحمل كلّ معاني الكلام.»[2]

إنّ التباس الكاف الضّمير بالكاف حرف الجرّ؛ أدّى إلى إضافة كلمة «ربّ» إلى كاف الضّمير، أيّ بإضافتها إلى ياء الخطاب المحذوفة؛ ممّا أدّى بدوره إلى التباس الصّفة بالجار والمجرور، في حين أنّ الله تعالى «أضاف ذاته إليه، فقال: «بِٱسۡمِ رَبِّكَ» تارة يضيف ذاته إليه بالرّبوبيّة كما هنا، وتارة يضيفه إلى نفسه بالعبوديّة: «أسرى بعبده»؛ أيّ: إضافة ذاته إلى عبده أحسن من إضافة العبد إليه.... وذكر عقيب «رَبِّكَ» قوله: «ٱلَّذِى خَلَقَ»؛ كأنّ العبد يقول ما الدّليل على أنّك ربّي؟ فيقول: لأنّك كنت بذاتك وصفاتك معدوما، ثمّ صرت موجودا فلا بدّ لذلك في ذاتك وصفاتك من خالق، وهذا الخلق والإيجاد تربيّة فدلّ ذلك على أنّي ربّك وأنت مربوبي.»[3] وعندما نقف على إعرابها بالأداء الصّحيح فإنّ «ربّ» تعرب: مضافا إليه مجرور وهو مضاف، والكاف: ضمير متّصل مبنيّ على الفتح في محلّ جرّ مضاف إليه، الّذي: اسم موصول مبنيّ على السّكون في محلّ جرّ صفة للموصوف «رَبِّكَ»؛ غير أنّه بالضّغط على الكاف يصبح إعرابها: حرف جرّ يفيد التّشبيه، فيلتبس بذلك الاسم بالحرف، وتعرب الّذي: اسم موصول مبنيّ على السّكون في محلّ جرّ اسم مجرور؛ فتلتبس بالأداء الفاسد الصّفة بالاسم المجرور. والنّتيجة أنّ الّذي أدّى إلى فساد المعنى هو وضع النّبر في غير موضعه؛ لذلك لا بدّ من إدراك قواعد هذه الظّاهرة الصّوتيّة وإتقانها.

تحمل الآية أمرا من الله تعالى لرسوله الكريم – صلّى الله عليه وسلّم – وأتباعه بالقراءة باسم الله الّذي خلق، خلق الإنسان، وهي دعوة صريحة من المولى - عزّ وجلّ – إلى طلب العلم، وتثبيت

(1)- التّعبير القرآنيّ والدّلالة النّفسيّة، الجيّوسيّ، ص: 151.

(2)- الأداء النّفسيّ واللّغة العربيّة، عبد الرّءوف أبو السّعود، دار النّمر للطّباعة، القاهرة، د ط، 1985م، ص: 427.

(3)- مفاتيح الغيب، الرّازيّ، ج 32، ص: 14.

فهمه بواسطة القلم من خلال الآيات المواليات لهذه الآية[1]، إنّ معنى «ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ» أيّ: «اقرأ ما أُنزل إليك من القرآن مفتتحا باسم ربّك، وهو أن تذكر التّسميّة في ابتداء كلّ سورة، فمحلّ «الباء» من «بِٱسۡمِ رَبِّكَ» النّصب على الحال. وقيل: الباء بمعنى على، أيّ اقرأ على اسم ربّك.»[2] أيّ «اقرأ القرآن مفتتحا باسمه سبحانه وتعالى.»[3] لهذا على القارئ ألاّ يضغط على حركة حرف الكاف من «رَبِّكَ» خاصّة وأنّ القراءة هنا فيها وصل؛ فلا وقف فيها، ولأنّ الأداء المستقيم يكون بالضّغط على حركة حرف الباء لتكون دلالتها: اقرأ باسم ربّك الخالق؛ فالفرق بيّن بين الأداءين «ربّك الّذي / وربّ كالّذي»، هذه الأخيرة الّتي تعني: اقرأ باسم ربّك الّذي يشبه الرّبّ الخالق، وحاشا لله أن يذكر في القرآن الكريم مثل هذا المعنى الشّنيع؛ لأنّ في ذلك إشراك بالله تعالى.

ليس المقصود أنّ كلّ قارئ للنّبر الخاطئ هو مشرك بالله تعالى، وإنّما المقصود أنّ القراءة فيها شرك؛ لهذا على القارئ أن يراعي كلّ الأحكام المؤدّية إلى المعنى الصّحيح والسّليم للقراءة، والحقيقة أنّ قرّاء القرآن المشاهير منهم وغيرهم، ومشايخ القراءة بما تعلّموه من قراءة قرآنيّة على أصولها السّليمة ليسوا الفئة المقصودة بهذا التنبيه، وإنّما الفئة المقصودة هم الأبناء الّذين يتعلّمون في المدارس من خلال دروس التّربيّة الإسلاميّة أو دروس الشّريعة الإسلاميّة الّتي تنطلق معظمها من آيات قرآنيّة، ويؤمرون بالقراءة في بداية كلّ درس؛ فيلاحظ عليهم ارتكاب مثل هذه الأخطاء في النّبر أيّ على المستوى الصّوتيّ، أمّا على المستوى النّحويّ وخاصّة في ضبط حركات الحروف في وسطها أو في آخرها؛ أيّ الحركات الّتي تبيّن إعرابها؛ فحدّث ولا حرج عن الأخطاء الفضيعة المرتكبة، والأسوأ أنّها قد تُرْتَكَبُ من طرف المعلّمين والأساتذة في جميع أطوار التّربيّة، وما المتعلّم إلاّ مقلّد لمعلّمه، والأمر يزداد تفاقما خاصّة مع خرّيجي الجامعات والمدارس العليا للأساتذة في السّنوات الأخيرة.

---

[1]- عن أنس رضي الله عنه عن النّبيّ – صلّى الله عليه وسلّم- قال: «**قيّدوا العلم بالكتاب.**» وله شاهد عند عبد الله بن عمرو قال: «قلت يا رسول الله! أُقَيِّدُ العلمَ؟ قال: **نعم**. قلت: وما تقييده؟ قال: **الكتاب.**» – المعجم الكبير، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطّبرانيّ، حقّقه وخرّج أحاديثه: حمديّ عبد المجيد السّلفيّ، النّاشر: مكتبة ابن تيميّة، القاهرة، د ط، د ت، ج 01، ص: 246.

[2]- الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج 22، ص: 376.

[3]- أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل، البيضاويّ، ج 05، ص: 325.

الفصل الثّالث: التّنغيم وتجلّيات دلالته في الخطاب القرآنيّ.

المبحث الأوّل: مفهوم التّنغيم.

أ – التّعريف اللّغويّ للتّنغيم.

ب – التّعريف الاصطلاحيّ للتّنغيم.

المبحث الثّاني: التّنغيم وظواهره في الدّرس اللّغويّ العربيّ.

- التّنغيم في الدّراسات العربيّة القديمة.

1- عند علماء اللّغة.

2- عند علماء التّجويد.

3- عند الفلاسفة.

- التّنغيم في الدّراسات اللّغويّة الحديثة.

المبحث الثّالث: الفرق بين التّنغيم والنّغمة واللّحن والإيقاع.

1- بين النّغمة والتّنغيم.

2- النّغم.

3- اللّحن.

4- الإيقاع.

المبحث الرّابع: مكوّنات التّنغيم.

1- النّغميّة.

2- الشّدّة.

3- النّبر.

4- سرعة النّطق (المكوّن الزّمنيّ).

5- الحدّة.

6- الوقف.

المبحث الخامس: النّغمات ودلالتها في الخطاب القرآنيّ.

- أنواع النّغمات.

1- النّغمة الهابطة.

2- النّغمة الصّاعدة.

3- النّغمة المستوية.

- وظائف التّنغيم.

1- وظيفة التّنغيم الصّوتيّة

2- وظيفة التّنغيم الانفعاليّة.

3- وظيفة التّنغيم التّركيبيّة.

4- وظيفة التّنغيم الدّلاليّة.

5- وظيفة التّنغيم الجماليّة.

المبحث الأوّل: مفهوم التّنغيم

أ – التّعريف اللّغويّ للتّنغيم:

مصطلح التّنغيم مصطلح حديث، ولا تخلو لغة منه، وتذكر المعاجم العربيّة القديمة في متونها مادّة –نغم– الّتي يرجع مصطلح التّنغيم إليها. ورد في الصّحاح قوله: «النَّغْم، الكلام الخفيّ، تقول منه: نَغَمَ، يَنْغَمُ، ويَنْغِمُ، نَغْمًا. وسكت فلان فما نَغَمَ بحرف، وما تَنَغَّمَ مثله، وفلان حسن النَّغْمَةِ، إذا كان حسن الصّوت في القراءة.»[1] ويضيف إليه صاحب القاموس المحيط: النَّغْمُ، الكلام الخفيّ[2]. ولم يخرج اِبن منظور عن هذا المعنى؛ فقال: «النّغمة: جَرْسُ الكلمة، وحسن الصّوت في القراءة وغيرها، والنَّغَمُ: الكلام الخفيّ، والنّغمة: الكلام الحسن، ومكث فلان فما نَغَمَ بحرف، وما تَنَغَّمَ بمثله.»[3] نلاحظ أنّ المعاجم العربيّة القديمة تتّفق على معنى واحد لمادّة –نَغَمَ– وهو الكلام الخفيّ، وحسن الصّوت في القراءة، وجَرْسُ الكلمة، ولا تزيد المعاجم العربيّة الحديثة على هذا سوى عبارة النَّغْمَةُ: صوت مُوَقَّعٌ[4].

ب – التّعريف الاصطلاحيّ للتّنغيم:

استخدمت أغلب المعاجم الأجنبيّة مصطلح التّنغيم بمعنى «التّشكيل اللّحنيّ للجملة أو للعبارة،»[5] أمّا معاجم المصطلحات المختصّة المؤلّفة بالعربيّة، فقد وضعت المصطلح مترجّما عن إحدى اللّغتين الإنجليزيّة أو الفرنسيّة، أو بكلتيهما Intonation، ثمّ حدّدت وظيفة المصطلح أكثر من تحديد تعريفه وطبيعته.

---

(1)– الصّحاح في اللّغة والعلوم، إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ، تقديم العلّامة الشّيخ عبد الله العلاليّ، إعداد وتصنيف: نديم مرعشليّ، وأسامة مرعشليّ، دار الحضارة العربيّة، بيروت، المجلّد: 02، مادّة: نغم.

(2)– ينظر: القاموس المحيط، الفيروزباديّ، مادّة: نغم.

(3)– لسان العرب، ج 14، مادّة: نغم.

(4)– ينظر: المعجم الوسيط، مجمع اللّغة العربيّة، مادّة: نغم.

(5)- Longman Dictionary of Contemporary English; Della Summers; Firth Edition; Harlow; Essex; England; Longman; New ed; 1987; P: 587.

يعرّف صاحب المعجم المفصّل التّنغيم بقوله: «نوع من موسيقى الكلام، وبواسطته يتسنّى للدّارس أن يعرف كثيرا من خصائص الكلام كالتّفريق بين الجملة المثبتة والاِستفهاميّة، ولاسيّما إذا لم توجد صيغ نحويّة خاصّة تقوم بهذا التّفريق كتعبير التّعجب والاِستفهام.»[1] يَنْظُرُ هذا التّعريف إلى التّنغيم من النّاحية الوظيفيّة؛ بحيث يفرّق بين الجمل من النّاحية النّحويّة فقط. ويرى رشاد الحمزاويّ أنّ «التّنغيم هو المصطلح الصّوتيّ الدّال على الاِرتفاع (الصّعود)، والاِنخفاض (الهبوط) في درجة الجهر في الكلام.»[2] يحدّد الحمزاويّ في هذا التّعريف أحد مكوّنات التّنغيم الأساسيّة المتمثّلة في درجة الجهر المتراوحة بين الاِرتفاع والاِنخفاض.

الأصل في اللّغة أن تكون منطوقة كما حدّدها ابن جنيّ في تعريفه معبّرة عن أغراض القوم[3]، وما الكتابة -مثل ما أشرنا سابقا- إلاّ صدى ومحاولة لنقل المنطوق وتصويره، لهذا ابتكرت اللّغات من الوسائل ما يجعل المكتوب مقاربا للمنطوق، بأنْ استعانت -أحيانا- بوضع علامات ورموز تساعد على توضيح المراد، وبيان المطلوب من ذلك علامات التّرقيم. والتّنغيم مصطلح لغويّ يعني «ارتفاع الصّوت وانخفاضه أثناء الكلام.»[4] ذلك أنّ الكلام لا يجري على طبيعة صوتيّة واحدة؛ بل يرتفع الصّوت عند بعض مقاطع الكلام أكثر ممّا يرتفع عند غيره؛ وذلك ما يسمّى بالتّنغيم[5]، ولقد نُقل مصطلح «التّنغيم» عن اللّغات الأخرى، وبالرّغم من أنّ الكثير من اللّغويين؛ أجمعوا على هذه التّرجمة إلاّ أنّ هناك ترجمات أخرى له[6]، وهذا يؤدّي إلى تعدّد المصطلحات اللّسانيّة لمفهوم واحد، وقد يشكّل ذلك صعوبة على الباحثين.

لقد ترجمه إبراهيم أنيس بـ«موسيقى الكلام»؛ معتبرا إيّاه أحد سمات الأداء الّذي لابّد من وجوده في أيّة لغة؛ فاِختلاف نغمات الكلام شيء طبيعيّ في اللّغة؛ الّتي لابدّ أن تحتوي على موسيقى الكلام الّتي تتألف منها ألفاظها[7]. ويؤكّد إبراهيم أنيس على أنّ التّغيم ظاهرة لا تخلو منها لغة، وأنّ موسيقى الكلام تتجلّى في تنوّع نغماته. وهذه التّرجمة نجدها -أيضا- عند كمال بشر، بحيث قال:

---

[1]- المعجم المفصّل في علم اللّغة – الألسنيّات- د. محمّد التّونجيّ، أ. راجي الأحمر، مراجعة: د. إميل يعقوب، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1993م، ج 01، مادّة: نغم.

[2]- المصطلحات اللّغويّة الحديثة في اللّغة العربيّة، مادّة: نغم.

[3]- ينظر: الخصائص، ج 01، ص: 33.

[4]- مناهج البحث في اللّغة، تمّام حسّان، ص: 177.

[5]- ينظر: المرجع نفسه، والصّفحة نفسها.

[6]- ينظر: المصطلح الصّوتيّ في الدّراسات العربيّة، عبد العزيز الصّيغ، ص: 263.

[7]- ينظر: الأصوات اللّغويّة، ص: 175.

«التّنغيم موسيقى الكلام؛ فالكلام عند إلقائه تكسوه ألوان موسيقيّة لا تختلف عن الموسيقى، وتظهر موسيقى الكلام في صورة اِرتفاعات واِنخفاضات وتنوّعات صوتيّة.»[1] يربط كمال بشر تعريفه للتّنغيم -كصوت- بينه وبين الموسيقى كفنّ من خلال ما تكسوهما من ألوان وتنوّعات، فكما تتنوّع نغمات الموسيقى لتشكّل قطعة موسيقيّة معيّنة؛ تتنوّع أيضا نغمات الكلام، وتختلف في درجاتها المتمثّلة في الاِنخفاض والاِرتفاع؛ لتنتج كلاما يكسوه نسيج موسيقيّ متكامل المبنى والمعنى، وإذا كان إبراهيم أنيس قد اِعتبر ظاهرة التّنغيم أمرا طبيعيّا في اللّغة؛ فإنّ كمال بشر قد جعلها قمّة الظّواهر الصّوتيّة الّتي تكسو المنطوق، «وتتخلّل عناصره المكوّنة له، وتكسبه تلوينا موسيقيّا معيّنا حسب مبناه ومعناه، وحسب مقاصده التّعبيريّة، وفقا لسيّاق الحال أو المقام.»[2] ذلك لأنّ الكلام تختلف نغماته وفقا لأنماط التّراكيب والمواقف، ممّا يساعد على فهم المعنى المقصود.

من خلال ما تقدّم فالتّنغيم «عبارة عن تتابع النّغمات الموسيقيّة أو الإيقاعات في حدث كلاميّ معيّن.»[3] وذلك الارتفاع والانخفاض في الصّوت أو تتابع تلك النّغمات الموسيقيّة أثناء النّطق؛ إنّما يكون لمقاصد تعبيريّة ومقتضيّات معنويّة وغايات دلاليّة؛ ولذلك قيل إنّ التّنغيم هو «تغيير في الأداء الكلاميّ بارتفاع الصّوت وانخفاضه في أثناء الكلام العادي للدّلالة على المعاني المتنوّعة في الجملة الواحدة.»[4] ويرى محمّد حسين الصّغير أنّ التّنغيم «يعنى عادة بمتابعة صوت المتكلّم في التّغيّرات الطّارئة عليه أصواتيّا؛ بما يلائم توقّعات النّفس الإنسانيّة للتّعبير عن الحالات الشّعوريّة واللاشعوريّة.»[5] معنى ذلك أنّ التّنغيم صفة صوتيّة تلفّ المنطوق كلّه، وألوان موسيقيّة تكسو الكلام الكلام عند إلقائه، وتظهر في صورة ارتفاعات وانخفاضات أو تنويعات صوتيّة؛ إذ إنّ الكلام – مهما – كان نوعه لا يلقى على مستوى واحد مع مراعاة الحالات النّفسيّة الّتي يلقي فيها المخاطِب كلامه؛ بحيث لا يكون على وتيرة واحدة.

(1)- فنّ الكلام، ص: 262.

(2)- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(3)- أسس علم اللّغة، ماريوباي، ص: 93.

(4)- مقالات في اللّغة والأدب، د. تمّام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2006م، ص: 333.

(5)- الصّوت اللّغويّ في القرآن، ص:27.

لذلك لا يعتقد الدّارسون أنّ للكلام مجرى نغميّا معيّنا يمثّل التّنغيم خروجا عليه، وهذا الأخير هو ما يُفهَمُ من تعريف التّنغيم لديهم إذ عرّفه بعضهم بأنّه «خروج الكلام عن مجراه الطّبيعيّ لوظيفة تؤدّى في سياق معيّن؛»[1] فللكلام مجارٍ نغميّة متعدّدة بحسب ما يراد للنّغمة من وظيفة تؤدّيها في السّياق؛ فللإثبات مجراه النّغميّ، وللاستفهام مجراه، وللتّعجّب أيضا مجراه الخاصّ به -كما سيتّضح من خلال هذه الدّراسة- وإنّما الأمر انتقال من مجرى إلى آخر، أو من نغمة إلى أخرى بحسب المعنى والأسلوب، لا أنّ واحدا منها يكون أصلا، والآخر يكون خروجا عن هذا الأصل[2]. وحصيلة ما تقدّم أنّ التّنغيم هو انتقالات صوتيّة بين ارتفاع وانخفاض، وتنوّعات نغميّة تحيط الكلام المنطوق لمقاصد تعبيريّة، ومقتضيات معنويّة، وبسبب كثرة تلك الانتقالات، وتنوّع تلك النّغمات، وتعدّد المعاني وطرق التّعبير؛ صار التّنغيم أوضح من التّرقيم في بيان القصد والدّلالة على المعنى، ومن ثمّ فإنّ التّرقيم في الكتابة يقوم بجانب وظيفة التّنغيم في الكلام.

إنّ قراءة القرآن الكريم تتّخذ أشكالا تنغيميّة متنوّعة، وذلك اِحتراما للأغراض الّتي يهدف إليها؛ «فمن المعلوم أنّ للقرآن أغراضا منها الإعلام والتّنبيه، والوعد والنّهي، ووصف الجنّة والنّار، والرّد على الملحدين والكافرين، وليس طبيعيّا، ولا سديدا أن تُقْرَأَ موضوعات هذه الأغراض كلّها بتنغيم واحد.»[3] ويرى الإمام الزّركشيّ أنّ وجوه الخطاب في القرآن تأتي على نحو من أربعين وجها[4]، فقد قال في كتابه: «كمال التّرتيل تفخيم ألفاظه والإبانة عن حروفه، وألاّ يُدْغَمَ حرفٌ في حرف. وقيل: هذا أقلّه، وأكمله أن يقرأ على منازله، فإنْ كان يقرأ تهديدا لفظ به لفظ المتهدّد، وإن كان يقرأ لفظ تعظيم لفظ به على التّعظيم.»[5] إنّ قوله: «أن يُقْرَأَ عَلَى مَنَازِلِهِ» ما هو إلاّ تعبير عن عن الشّكل التّنغيميّ الّذي تُقْرَأُ به كلّ آية، ويتمثّل في مواءمة التّنغيم للمعنى؛ فالتّهديد غير التّعظيم.

(1)- الدّلالة السّياقيّة عند اللّغويّين، عواطف كنّوش المصطفى، دار السّيّاب، لندن، ط1، 2007م، ص: 64. نقلا عن الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، حمدان رضوان أبو عاصي، ص: 82.

(2)- ينظر: الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، حمدان رضوان أبو عاصي، ص: 82.

(3)- الأسلوب والأداء في القراءات القرآنيّة دراسة صوتيّة تباينيّة، د. خير الدّين السّيب، دار الكلم الطّيّب، دمشق، ط1، 1428هـ - 2007م، ص: 179.

(4)- وجعلها السّيوطيّ ثلاثين وجها. - ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السّيوطيّ، ص: 488.

(5)- البرهان في علوم القرآن، ج 02، ص: 82.

ويرى أنّ القارئ المجيد هو «الّذي تكون تلاوته على معاني الكلام، وشهادة وصف المتكلّم، مثل الوعد بالتّشويق، والوعيد بالتّخويف، والإنذار بالتّشديد؛ فهذا القارئ أحسن النّاس صوتا بالقرآن، وفي مثل هذا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٢١﴾ البقرة: ١٢١»؛[1] تأتي التّلاوة بوجوهها، والقراءة على منازلها، وحسن الصّوت عند قرّاء القرآن عن طريق الأداء التّنغيميّ. وقد عمل الأسلاف من الصّحابة –رضي الله عنهم–، ومن تبعهم من القرّاء المجيدين على تطبيق منزلة الصّوت عند قراءة القرآن الكريم؛ ففي كتاب التّبيان توضيح لآداب قراءة القرآن؛ يقول صاحبه: «ومن الآداب إذا قرأ نحو: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ۝٣٠﴾ التّوبة: ٣٠، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۝٦٤﴾ المائدة: ٦٤، أن يخفض بها صوته.»[2]

ونجد علماء القراءات اِعتنوا بقراءة القرآن الكريم، وحفظه، وتجويده، «وإظهاره بالمظهر اللاّئق، لأنّهم أدركوا أنّ القراءة الوسيلة النّاجحة في فهم القرآن الكريم، وقد نصّ القرآن المجيد نفسه على قراءة القرآن بالصّوت الحسن، لإظهار عظمته، واستذاقة فنّه.»[3] قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ المزمل: ٤، أي أنّ تلاوة القرآن الكريم يصاحبها حسن الصّوت، وذلك يتحقّق بالتّنغيم، وهكذا يحقّق القارئ الهدف من مراعاة القراءة الحسنة، والمتمثّل في إظهار ما يحمله القرآن الكريم من عظمة وجمال، ولا تكون القراءة إلاّ بالتّدبّر والتّفهّم؛ ذلك هو القصد الأعظم، والطّلب الأهمّ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ ص: ٢٩، وقال أيضا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ النّساء: ٨٢، يفسّر السّيوطيّ مسألة الجمع بين القراءة وتدبّر معاني القرآن الكريم بقوله: «أن يشغل قلبه بالتّفكّر في معنى ما يلفظ به؛ فيعرف معنى كلّ آية، ويتأمّل الأوامر والنّواهي، ويعتقد قبول ذلك؛ فإن كان ممّا قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرّ بآية رحمة استبشر

---

[1]– المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[2]– التّبيان في آداب حملة القرآن، النّوويّ، ص: 116.

[3]– ينظر: قضايا قرآنيّة في ضوء الدّراسات اللّغويّة، د. عبد العال سالم مكرم، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط1، 1401هـ-1988م، ص: 05 وما بعدها.

وسأل، أو عذاب أشفق وتعوّذ، أو تنزيه نزّه وعظّم، أو دعاء تضرّع وطلب.»[1] والممعن في طرق التّرتيل، وتعدّد القراءات، والاِختلافات الصّوتيّة والأدائيّة، يجد أنّ القرآن الكريم من حيث أداؤه، وكمال إعجازه، «هدفه اِستيعاب القرآن لتراكيب النّسق البليغ من حيث توفّر الأصوات الثّلاثة الضّروريّة لذلك، هي: صوت النّفس، وصوت العقل، وصوت الحسّ[2]، والصّوت الأخير أبلغهنّ شأنا»[3]، وهذا النّسج الصّوتيّ حامل لنظام موسيقيّ هامّ حيث تتناسق المعاني والنّغمات، والفكرة والجرس أحسن تناسق، ويستفاد من اِستعمال التّنغيم في القرآن الكريم؛ مراعاة المعاني أثناء التّلاوة، لأنّ التّحبير[4]، وهو لون من ألوان التّجويد والتّحسين والتّزيين؛ يجعل التّنغيم وسيلة من وسائله حتّى يقف القارئ والمستمع على فهم دلالة آيات التّنزيل الحكيم.

المبحث الثّاني: التّنغيم وظواهره في الدّرس اللّغويّ العربيّ

– التّنغيم في الدّراسات العربيّة القديمة:

ينكر بعض اللّغويّين المحدثين اِهتمام القدماء بظاهرة التّنغيم؛ حيث تلقّف أغلب دارسي التّنغيم من العرب رأي المستشرق الألمانيّ برجشستراسر Bergerstrasser؛ الّذي نفى وجود هذه الظّاهرة في تراثنا، يقول: «نوجّه نظرنا إلى اللّغة العربيّة خاصّة؛ فنتعجّب كلّ العجب من أنّ النّحويّين والمقرئين القدماء؛ لم يذكروا النّغمة ولا الضّغط أصلا؛ غير أنّ أهل الأداء والتّجويد خاصّة؛ رمزوا إلى ما يشبه النّغمة، ولا يفيدنا ما قالوه شيئا فلا نصّ نستند عليه في إجابة مسألة: كيف كان حال العربيّة الفصيحة في هذا الشّأن؟»[5] ممّا يثير التّساؤل في قول برجشتراسر هو فصله بين المقرئين

---

[1]– الإتقان في علوم القرآن، ص: 225.

[2]– صوت النّفس: وهو الصّوت الموسيقيّ الّذي يكون من تأليف النّغم بالحروف ومخارجها وحركاتها، ومواقع ذلك من تركيب الكلام، وصوت العقل: وهو الصّوت المعنويّ الّذي يكون من لطائف التّركيب في جملة الكلام، وصوت الحسّ: لا يكون إلاّ من دقّة التّصوّر المعنويّ، والإبداع في تلوين الخطاب، ومجاذبة النّفس. ينظر تفصيل ذلك في كتاب: إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، الرّافعيّ، ص: 221.

[3]– المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[4]– كلمة مقتبسة من حديث وارد عن أبي موسى الأشعريّ – رضي الله عنه– عندما علم أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يسمعه عند تلاوة القرآن، فقال: «لو كنت أعلم أنّك تسمعني يا رسول الله لحبرته لك تحبيرا.» – ينظر: تحرير التّحبير في صناعة الشّعر والنّثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصريّ، تقديم وتحقيق: د. حفنيّ محمّد شرف، لجنة إحياء التّراث الإسلاميّ، الجمهوريّة العربيّة المتّحدة (مصر)، د ط، 1963م، الكتاب الثّاني، ص: 55.

[5]– التّطوّر النّحويّ، ص: 72.

القدماء وأهل الأداء والتّجويد من جهة، وبين هؤلاء وبين النّحويّين من جهة ثانية؛ مع أنّ أغلب النّحويّين القدماء خاصّة كانوا أهل أداء[1].

ويستخدم تمّام حسّان أسلوب النّفيّ الجازم ليبيّن عدم وجود ظاهرة التّنغيم في التّراث العربيّ، حيث ذهب إلى أنّ «التّنغيم في اللّغة العربيّة الفصحى غير مسجّل ولا مدروس، ومن ثمّ تخضع دراستنا إيّاه في الوقت الحاضر لضرورة الإعتماد على العادات النّطقيّة في اللّهجات العاميّة.»[2] نستنتج من رأي تمّام حسّان أنّ العرب قديما لم يدرسوا التّنغيم إطلاقا في أبحاثهم اللّغويّة، ولم يسجّلوه في مؤلّفاتهم، وإذا كان لا بدّ من دراسته في الحاضر؛ يتمّ الاعتماد على السّلوكات الصّوتيّة الموجودة في اللّهجات المتداولة.

ونجد رمضان عبد التّواب يقول: «لم يعالج أحد من القدماء شيئا من التّنغيم، ولم يعرفوا كنهه.»[3] إنّه ينفي بذلك نفيّا تامّا معرفة القدامى العرب للتّنغيم. وينفي محمّد الأنطاكيّ -بدوره- إشارة النّحاة في كتبهم إلى قضيّة التّنغيم، بحيث يقول: «إنّ قواعد التّنغيم في العربيّة قديما مجهولة تماما، لأنّ النّحاة لم يشيروا إلى شيء من ذلك في كتبهم.»[4] ويشير عبد العزيز العمّاريّ هو الآخر إلى عدم اهتمام القدماء بظاهرة التّنغيم في دراستهم اللّغويّة قائلا: «ما نلاحظه أنّ التّراث اللّغويّ العربيّ لم يعرها أيّ اهتمام؛ فلا نكاد نعثر إلاّ على إشارات نادرة وخجولة، ونقصد التّنغيم والنّبر، وسنحاول أن نملأ هذه الثّغرات خلال دراسة الأساليب العربيّة.»[5] إضافة إلى نفيه الّذي يُظْهِرُ فيه عدم تطرّق العلماء العرب القدماء إلى ظاهرتي النّبر والتّنغيم؛ فإنّه سيتكفّل بملء هذا الفراغ الّذي أهملوه من خلال دراسته الّتي قام بها على الأساليب العربيّة من خلال كتابه: في أدوات الوصف والتّفسير اللّسانيّة.

لعلّ ما دفع هؤلاء لهذا القول هو عدم تقعيد القدماء لظاهرة التّنغيم، «والحقّ أنّ عدم الوجدان لا يدلّ على عدم الوجود كما يقال، فالملاحظ أنّ التّنغيم عند العرب القدامى كان موضع عناية، مع فرض توافره تطبيقا قرآنيّا في سور متعدّدة، وخطابيّا عند النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-

---

(1)- لقد كان علماء النّحو القدماء أئمة في القراءة على ما نعرف عن أبي عمرو بن العلاء والكسائيّ. - ينظر: فقه اللّغة في الكتب العربيّة، د. عبده الرّاجحيّ، بيروت، دار النّهضة العربيّة، د ط، د ت، ص: 129.

(2)- اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص: 197.

(3)- المدخل إلى علم اللّغة، ص: 106.

(4)- دراسات في فقه اللّغة، ص: 197.

(5)- أدوات الوصف والتّفسير اللّسانيّة، عبد العزيز العماريّ، دار النّشر: المغرب، ط1، 2004م، ص: 180.

والأئمة والصّحابة وفصحاء العرب في جملة الخطب،»[1] وهذا رأي الفريق المقابل الّذي يرى أنّ القدماء أدركوا مسألة التّنغيم؛ إذ توجد إشارات في كتبهم توحي إلى ذلك[2].

1- عند علماء اللّغة:

يعتبر أحمد كشك من الباحثين المحدثين الّذين يرون أنّ اللّغويّين العرب القدامى؛ عرفوا التّنغيم وأشاروا إليه، يقول: «وقدامى العرب وإن لم يربطوا ظاهرة التّنغيم بتفسير قضاياهم اللّغويّة، وهم وإن تاه عنهم تسجيل قواعد لها، فإنّ ذلك لم يمنع من وجود خطرات ذكّيّة لماحة تعطي إحساسا عميقا بأنّ رفض الظّاهرة تماما أمر غير وارد، وإن لم يكن لها حاكم من القواعد.»[3] إنّ عدم تقعيد القدامى لظاهرة التّنغيم عائد إلى أنّهم لم يكونوا يقيّدون الكثير من الصّفات النّطقيّة بالكتابة. ومن إشارات علماء اللّغة العرب إلى التّنغيم، وآثاره في سلسلة الأحداث الكلاميّة؛ ما ورد في تعليقهم على قول الشّاعر جرير بن عطيّة الخطفيّ[4]:

أَقِلّي اللَّوْمَ عَاذل وَالعتَابَا وَقُولي إنْ أَصبتُ لَقَدْ أَصَابَا

يُروى: والعتابن، حيث مدّ الشّاعر الألف للترّنّم والتّنغيم، فقد جاء «المقطع مفتوحا؛ فجعل النّغمة صاعدة للدّلالة على اِستمرار تأثّره من العتاب واللّوم،»[5] وما ذلك إلاّ تنغيم في المفهوم اللّسانيّ الحديث.

وقد خصّص سيبويه في كتابه بابا تحت عنوان –وجوه القوافيّ في الإنشاد– يقول فيه: «أمّا إذا ترنّموا فإنّهم يلحقون الألف، والياء، والواو ما ينوّن، وما لا ينوّن لأنّهم أرادوا مدّ الصّوت.»[6] ويعرض ويعرض سيبويه شواهد تمثّل حالات التّرنّم في إنشاد الشّعر بمدّ الألف، أو الواو، أو الياء وهذه الشّواهد جميعا تعتمد على التّنغيم في هيكله المعبّر عن الحالة النّفسيّة للشّاعر، أو المنشد للشّعر، من هذه الشّواهد قول اِمرئ القيس:

---

[1]- الصّوت اللّغويّ في القرآن الكريم، عليّ حسين الصّغير، ص: 27- 28.

[2]- من الدّارسين المحدثين الّذين رأوا أنّ التّراث القديم قد تناول التّنغيم.- ينظر: مدخل إلى اللّسانيّات، د. رضوان القضماويّ، منشورات جامعة البعث، سوريا، ط1، 1988م، ص: 106. والمدخل إلى علم الأصوات العربيّة، غانم قدّوريّ الحمد، ص: 206. وفي علم اللّغة، غازي طليمات، ص: 155 وما بعدها.

[3]- من وظائف الصّوت اللّغويّ، ص: 52.

[4]- شرح ديوان جرير، تأليف، محمّد إسماعيل عبد الله الصّاويّ، دار الأندلس للطّباعة والنّشر، بيروت، د ط، د ت، ص: 64.

[5]- الدّراسات الصّوتيّة، حسام البهنساويّ، ص: 243.

[6]- ج 04، ص: 204.

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِي بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

مدّ اللاّم (مَنْزِلِي) للتّرنّم.

وقول الأعشى:

هُرَيْرَةَ وَدِّعْهَا وَإِنْ لاَمَ لاَئِمُو غَدَاةَ غَدٍ أَمْ أَنْتَ لِلْبَيْنِ وَاجِمُ

مدّ الميم (لاَئِمُو)[1].

وإنشاد الشّعر بالتّرنّم «يقتضي أن يطيل الشّاعر الحركة القصيرة؛ فتصبح طويلة مفتوحة، ممّا يمكّن الشّاعر من جعل المقطع صاعدا للدّلالة على مواصلة الموقف النّفسيّ الّذي يعايشه الشّاعر.»[2] وهكذا يمكن اِعتبار مصطلح التّرنّم عند سيبويه هو التّنغيم عند المحدثين لما فيه من إطالة للصّوت أثناء الإنشاد للدّلالة على حالة الشّاعر النّفسيّة.

ومن آثار التّنغيم في الكلام للدّلالة على المعاني المختلفة ممّا ورد عن العلماء العرب؛ ما جاء في البيّان والتّبيين: «والصّوت هو آلة اللّفظ، والجوهر الّذي يقوم به التّقطيع، وبه يوجد التّأليف، ولن تكون حركات اللّسان لفظا، ولا كلاما إلاّ بالتّقطيع، وحسن البيان باللّسان مع الّذي يكون من الإشارة من الدّلّ، والشّكل، والتّفتّل.»[3] يبدو أنّ الجاحظ يقصد هنا بالدّلّ، والشّكل، والتّفتّل التّنغيم الصّوتيّ الّذي يصاحب الحركات أثناء الكلام، وإنّ إشارته لدليل قاطع على «أهميّة التّنغيم في السّياقات التّنظيميّة للمتكلّم، وهي -بعد ذلك- اِلتفاتة واضحة إلى الجرْس الصّوتيّ الّذي يرافق الحركة أثناء تأدية الفعل الكلاميّ،»[4] ما يلفت الاِنتباه -أيضا- هو أنّ الجاحظ عرف التّنغيم في دراسته، وقد جعله يرافق الكلام أثناء عمليّة التّواصل.

وأشار المبرّد إلى دور المتكلّم في تحديد معنى الجملة؛ فالجملة الاِستفهاميّة قد تخرج عن معناها، وتحمل معان أخرى كالتّوبيخ والإنكار[5]. ومن رأي المبرّد يمكن أن نستخلص أنّ التّنغيم يوظّف للتّعبير عن المعاني النّحويّة من خلال الإطار الصّوتيّ الّذي نضعها فيه.

[1]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 205 وما بعدها.

[2]- الدّراسات الصّوتيّة، حسام البهنساويّ، ص: 244.

[3]- الجاحظ، ج 01، ص: 79.

[4]- علم اللّسانيّات الحديثة، عبد القادر عبد الجليل، ص: 374.

[5]- ينظر: المقتضب، ج 03، ص: 228.

وروى اِبن جنيّ في كتابه الخصائص قوله: «فليت شعري إذا شاهد أبو عمرو، وابن أبي إسحاق، ويونس، وعيسى بن عمرو، والخليل، وسيبويه، وأبو الحسن، وأبو زيد، وخلف الأحمر، والأصمعيّ، ومن الطّبقة والوقت من علماء البلدين، وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها، وتقصد له من أغراضها، ألا تستفيد بتلك المشاهدة! وذلك الحضور ما لا تؤدّيه الحكايات، ولا تضبطه الرّوايات، فتضطرّ إلى قصود العرب، وغوامض ما في أنفسها؛ حتّى لو حلف حالف منهم على غرض دلّته عليه إشارة لا عبارة؛ لكان عند نفسه، وعند جميع من يحضر حاله صادقا فيه؛ غير متّهم الرّأي والنّحيزة والعقل، فهذا حديث من غاب فلم ينقل إلينا، وكأنّه حاضر معنا مناج لنا.»[1] فما ذكره اِبن جنيّ من حال للمتكلّم، والصّوت المصاحب له أثناء الكلام، لا يخرج عن كون ذلك تنغيما يساعد على فهم المعنى في السّياق؛ أدركه هو وغاب عن سابقيه.

لقد كتب الباحث أحمد البايبيّ من المغرب مقالا أشار فيه إلى معرفة اللّغويّين العرب القدامى لظاهرة التّنغيم، مشيدا إلى جهود ابن جنيّ في مساهمته الذّكيّة إلى وجود هذه الظّاهرة في كتب النّحو خاصّة، يقول في معرض حديثه: «نحاول في هذا المقال الكشف عن التّنغيم عند ابن جنيّ؛ على الرّغم من أنّ الكثيرين من الدّارسين ينفون هذه الظّاهرة التّطريزيّة عن النّحو العربيّ.»[2]

يرى اِبن جنيّ في كتابه المحتسب أنّ طول الصّوت وقصره؛ يفرّق بين المعاني عند فقد القرينة، مدعّما رأيه بقصّة أوردها قائلا: «وعلى ذكر طول الأصوات وقصرها لقوّة المعاني المعبّر بها عنها وضعفها، ما يحكى أنّ رجلا ضرب اِبنا له؛ فقالت له أمّه: لا تضربه؛ ليس هو اِبنك. فرافعها إلى القاضي؛ قال: هذا اِبني عندي، وهذه أمّه تذكر أنّه ليس منّي. فقالت المرأة: ليس الأمر على ما ذكره، وإنّما أخذ يضرب اِبنه فقلت له: لا تضربه، ليس هو اِبنَك؟ ومدّت فتحة النّون جدّا. فقال الرّجل: والله ما كان فيه هذا الطّويل الطّويل.»[3] فمدّ فتحة النّون؛ هو الّذي أخلص كلام المرأة ليكون اِستفهاما توبيخيّا، وخلّصها من تهمة زوجها[4]. وقول الرّجل: «الطّويل، الطّويل» ما هو إلاّ التّنغيم في اِصطلاحنا الحديث؛ لأنّ المرأة غيّرت من نغمتها الصّوتيّة، فتغيّر معها معنى الجملة، وهو الأمر الّذي أدركه الزّوج.

---

[1]- ج 01، ص: 240-241.

[2]- التّنغيم عند ابن جنيّ، أ. أحمد البايبيّ، مجلّة آفاق الثّقافة والتّراث، الإمارات العربيّة المتّحدة، السّنة الحادية عشرة، العدد: 41، صفر 1434هـ - أبريل 2003م، ص: 06..

[3]- ج 02، ص: 208- 209.

[4]- ينظر: الوقف في العربيّة على ضوء اللّسانيّات، عبد البديع النّيربانيّ، ص: 35.

لقد أورد ابن جنيّ في كتابه الخصائص حديثا عن المدّ سمّاه مدّ التّذكّر، وفي موضع آخر همزة التّذكّر، «فعند التّذكّر يرتفع الصّوت ويزيد، وذلك يعني من المتكلّم أنّه في حال استذكار، وأنّ رسالته الكلاميّة لم تنته؛ ومن ثمّ الدّلالة لم تكتمل بعد، ممّا يجعل المستمع في حالة انتظار لبقيّة الكلام. إنّ دلالة التّذكّر الّتي يحيل عليها المدّ والمطل وسيلة ابن جنيّ في الاحتجاج لكثير من القراءات الشّاذة في المحتسب، وهذا يؤكّد عدم استبعاد لحون العرب في القرآن الكريم.»[1] إنّ الأمر فيه تأكيد على وقوف العرب على ظاهرة التّنغيم، وتناولها دون ذكرها بالمصطلح الّذي تعرف به حديثا، ولكنّ ملامحها الدّلاليّة متوفّرة جلّيّة في كلامهم؛ يقول اِبن جنيّ: «والمعنى الجامع بين التّذكّر، والنّدبة قوّة الحاجة إلى إطالة الصّوت في الموضعين.»[2] إنّ المطل ظاهرة صوتيّة دلاليّة خاصّة بالحركات القصيرة والطّويلة، وتمطل الحركات (الألف، الواو، الياء) للدّلالة على النّدبة والتّذكّر، والطّول هو الآخر ظاهرة فوق مقطعيّة لها علاقة وطيدة بتنغيم الصّوت.

ويقول أيضاً: «ويدلُّ على أنّ العرب لمّا أرادت مطلهنّ للنّدبة، وإطالة الصّوت بهنّ في الوقف، وعلمت أنّ السّكون عليهنّ ينتقصهنّ، ولا يفي بهنّ أتبعتهنّ الهاء في الوقف توفيةً لهنّ، وتطاولاً إلى إطالتهنّ، وذلك قولك: وازيداه، واجعفراه، ولا بدّ من الهاء في الوقف، فإنْ وصلت أسقطتها، وقام التّابع غيرها في إطالة الصّوت مقامها، وذلك قولك: وازيدا، واعمرا.»[3] إنّنا نجد في كلام اِبن جنيّ قوله: المطل وإطالة الصّوت والوقف، وكلّها مصطلحات تحمل معنى التّنغيم في الدّرس الصّوتيّ الحديث، هذا زيادة على العلاقة الرّابطة بين هذه المصطلّحات، وما تؤدّيها مجتمعة من دلالة.

وتحدّث اِبن جنيّ عن الدّلالة من المدّ الإنكاريّ؛ حين تحدّث عن هذه المدّة أألف هي أم ماذا؟ يقول: «إنّ أخلق الأحوال بها أن تكون ألفاً من موضعين، أحدهما: أنّ الإنكار مضاهٍ للنّدبة، وذلك أنّه موضع أريد فيه معنى الإنكار والتّعجّب، فمُطِلَ الصّوتُ به، وجُعِلَ ذلك أمارة لتناكره، كما جاءت مدّة النّدبة إظهاراً للتّفجّع، وإيذاناً بتناكر الخطب الفاجع، والحدث الواقع، فكما أنّ مُدّة النّدبة ألف، فكذلك ينبغي أن تكون مدّة الإنكار ألفاً، والآخر أنّ الغرض في الموضعين جميعاً إنّما هو مطل الصّوت، ومدّه، وتراخيه، والإبعاد فيه لمعنى الحادث هناك، وإذا كان الأمر كذلك فالألف أحقُّ به دون أختيها؛ لأنّها أمدّهنّ صوتاً، فأمّا مجيئها تارة واواً، وأخرى ياءً فثانٍ لحالها، وعن ضرورة دعت

---

(1)- التّنغيم عند ابن جنيّ، أحمد البايبيّ، ص: 11.

(2)- الخصائص، ج 03، ص: 129.

(3)- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها. وسرّ صناعة الإعراب، اِبن جنيّ، ج 01، ص: 71 - 72 وما بعدها حيث فصّل القول في هذه النّاحيّة.

إلى ذلك؛ لوقوع الضّمة والكسرة قبلها، ولولا ذلك لما كانت ألفاً أبدا.»[1] لقد ربط اِبن جنيّ بين مطل الصّوت، وبين دلالته على النّدبة إظهاراً للتّفجّع في حروف المدّ. وأظهر أنّ مدّة الإنكار ومدّة النّدبة تحتاجان إلى مدّ الصّوت للدّلالة عليهما.

وأدرك اِبن جنيّ شيئا من التّنغيم في الدّلالة على المعاني، وذكر أنّ الصّفة قد تحذف أحيانا، ويدلّ عليها الحال، فقال: «وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: سير عليه ليل، وهم يريدون: ليل طويل، وكأنّ هذا إنّما حذفت فيه الصّفة لِما دلّ من الحال على موضعها، وذلك أنّك تحسّ في كلام القائل لذلك من التّطويح[2]، والتّطريح[3]، والتّفخيم[4]، والتّعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك، وأنت تحسّ هذا من نفسك إذا تأمّلته، وذلك أنْ تكون في مدح إنسان والثّناء عليه، فتقول: كان والله رجلاً! فتزيد في قوّة اللّفظ بـ (الله) هذه الكلمة، وتتمكّن في تمطيط اللاّم، وإطالة الصّوت بها وعليها؛ أي رجلاً فاضلاً، أو شجاعاً، أو كريما، أو نحو ذلك، وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنساناً؛ إذ تمكّن الصّوت بإنسان وتفخّمه، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنساناً سمحاً أو جواداً أو نحو ذلك، وكذلك إن ذممته ووصفته بالضّيق؛ قلت: سألناه وكان إنساناً! وتزوي وجهك وتقطّبهُ، فيغني ذلك عن قولك: إنساناً لئيماً، أو لَحِزاً، أو مبخلاً، أو نحو ذلك.»[5] لا يعني اِبن جنيّ بكلّ هذه الصّفات إلاّ ما يعنيه المحدثون بالتّنغيم الّذي يؤدّي وظيفة نحويّة ودلاليّة في الجملة.

لقد اِتّضح لإبراهيم خليل أنّ اِبن جنيّ في عباراته (التّطويح، والتّطريح، والتّفخيم، والتّعظيم) يمكن أن يُشار عنده لها إلى مصطلحيْ النّبر والتّنغيم، بما تتفتّق به معاني ألفاظ العبارة من دلالات لغويّة[6]، فقال: «وتشير ألفاظ التّطويح، والتّطريح، والتّفخيم، والتّعظيم من خلال معانيها اللّغويّة إلى رفع الصّوت واِنخفاضه والذّهاب به كلّ مذهب، وهي على هذا إشارة إلى النّبر، وليس النّبر غير عمليّة عضويّة، يقصد فيها اِرتفاع الصّوت المنبور، واِنخفاضه، كما أنّ تمطيط الكلام، وزويّ الوجه وتقطيبه مظهر من المظاهر الّتي تستند عليها ظاهرة التّنغيم.»[7] إنّ اِستخدام اِبن جنيّ مصطلحات التّطويح،

(1)- الخصائص، ج 03، ص: 154.

(2)- التّطويح من طوح به، ذهب هنا وهناك. - لسان العرب، اِبن منظور، ج 03، مادّة: طوح.

(3)- التّطريح، من طرح الشّيء، إذا طوّله ورفعه وأعلاه. - المرجع نفسه، مادّة: طرح.

(4)- التّفخيم إعطاء الصّوت قيمة صوتيّة مفخّمة. - ينظر: مناهج البحث في اللّغة، تمّام حسّان، ص: 111.

(5)- الخصائص، ج 02، ص: 90.

(6)- ينظر: الصّوت اللّغويّ في القرآن الكريم، حسين عليّ الصّغير، ص: 28.

(7)- في البحث الصّوتيّ عند العرب، خليل إبراهيم العطيّة، ص: 67.

والتّطريح، والتّفخيم، والتّعظيم، ومطل الصّوت لا تخرج عن كونها وسائل تنغيميّة؛ تساعد على فهم المعنى في السّياق، أيّ أنّ اِبن جنيّ وظّف الدّلالة اللّفظيّة الّتي تعادل الدّلالة الصّوتيّة في فهمنا المعاصر للدّلالة على المعنى المقصود، وقد اِستخدم اِبن جنيّ هذه المصطلحات غير مرّة في خصائصه[1].

إنّ ذكر اِبن جنيّ لهذه المصطلحات دلالة على تنغيم الجملة، أو طريقة نطقها عائد إلى أنّ كثير من الصّفات النّطقيّة لا يمكن تقييدها بالكتابة، وقد يكون هذا ما دفعه – مع ما عُرِفَ عليه من دقّة الملاحظة – إلى الحديث عن إدراك سياق الحال وأهميّته، وأهميّة رؤيّة وجه العربيّ، وجملة حاله حين يتحدّث[2]، إذن فرواية كلام المتكلّم مجرّدا من ذلك كلّه؛ قد يُذْهِبُ من مقصوده الكثير.

ويذهب عبد الكريم مجاهد في ثنايا حديثه عن الدّلالة الصّوتيّة والصّرفيّة عند اِبن جنيّ إلى أنّه قد أدرك هذا الجانب، وبذلك يُظْهِر فضل اِبن جنيّ بجلاء ووضوح، ويثبت أنّه قد طرق باب هذه الموضوعات الّتي تعتبر من منجزات علم اللّغة الحديث، وبذلك تحفظ له أصالته ومساهمته[3]، ويرى أنّ التّنغيم ظاهرة موجودة في اللّغة، ثمّ جاءت اللّسانيّات الحديثة لتوصّفها، والدّليل على ذلك أنّ الحديث عمّا يسمّى حديثا (بالتّنغيم) الّذي جعل عبد الكريم مجاهد اِبن جنيّ مساهماً فيه موجود عنده، ولاسيّما لدى سيبويه ولدى الفلاسفة.

يتّفق عدد من الباحثين[4]؛ على اعتبار ابن جنيّ من أكثر اللّغويّين العرب تطرّقا لظاهرة التّنغيم (وكذلك النّبر)؛ من خلال ما أورده من شروحات واحتجاجات للقراءات القرآنيّة الشّاذة منها خاصّة، وهم في ذلك يدعون إلى إعادة دراسة تراثه خاصّة كتابيه الخصائص والمحتسب دراسة علميّة منطقيّة بعيدة عن التّعصّب للرّأي؛ حتّى يتسنّى للقارئ معرفة الكنوز اللّغويّة الدّفينة في طيّات مؤلّفاته، وإعطائه حقّه من العبقريّة الفذّة الّتي امتاز بها في عصره؛ على الرّغم من عدم توفّر الوسائل الّتي تتيح للعلماء في ذلك الزّمان إلى الوصول إلى مثل هذه النّتائج العلميّة.

---

(1)- ينظر: ج 01، ص: 370 وما بعدها.

(2)- ينظر: الدّلالة الصّوتيّة والدّلالة الصّرفيّة عند اِبن جنيّ، عبد الكريم مجاهد، ص: 79-80، وفي البحث الصّوتيّ عند العرب، إبراهيم العطيّة، ص: 67 – 68.

(3)- ينظر: الدّلالة الصّوتيّة والدّلالة الصّرفيّة عند اِبن جنيّ، عبد الكريم مجاهد، ص: 79 وما بعدها.

(4)- ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها، والتّنغيم عند ابن جنيّ، أحمد البايبيّ. وفي البحث الصّوتيّ عند العرب، خليل إبراهيم عطيّة.

من المصطلحات الّتي اِستخدمها النّحاة في ثنايا حديثهم عن بعض القضايا النّحويّة، والّتي تندرج في إطار التّنغيم مصطلح مدّ الصّوت في قول اِبن يعيش: «اِعلم أنّ المندوب مدعوّ، ولذلك ذكر مع فصول النّداء لكنّه على سبيل التّفجّع، فأنت تدعوه وإن كنت تعلم أنّه لا يستجيب، كما تدعو المستغاث به وإن كان بحيث لا يسمع كأنّك تعدّه حاضرا، وأكثر ما يقع في كلام النّساء لضعف اِحتمالهنّ وقلّة صبرهنّ، وكما كان مدعوا بحيث لا يسمع؛ أتوا في أوّله بـ«يا»، أو «وا» لمدّ الصّوت، ولما كان يسلك في النّدبة والنّوح مذهب التّطريب زادوا الألف آخرا للتّرنّم.»[1] نلاحظ في نصّ اِبن يعيش اِستخدامه مصطلحات: تطريب، ومدّ الصّوت، والتّرنّم، وكلّها تحمل دلالة التّنغيم في مفهوم اللّسانيّات الحديثة، وحديثه عن التّرنّم سبقه إليه سيبويه، وعن المدّ سبقه إليه ابن جنيّ. ويقول في حرف النّدبة: «وأمّا «وا» فمختصّ به النّدبة لأنّ النّدبة تفجّع وحزن، والمراد رفع الصّوت ومدّه لإسماع جميع الحاضرين.»[2] نستنتج أنّ النّدبة يصحبها رفع الصّوت ومدّه؛ حتّى يكون له أثر على السّامعين، وهي بذلك تنغيم يدلّ على التّفجّع والوجع والألم.

ولا بأس أن نشير في هذا المقام إلى نصّ نقديّ في غاية الأهميّة؛ يظهر فيه صاحبه مدى ضرورة قراءة الشّعر بأداء صوتيّ؛ يبيّن كيفيّة توظيف التّنغيم مع النّصوص الإبداعيّة، والمتمثّل في هذا القول: «ولا آمرك بإجراء أنواع الشّعر كلّه مجرى واحدا، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه؛ بل أرى لك أن تقسّم الألفاظ على رتب المعاني؛ فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مديحك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك، ولا هزلك بمنزلة جدّك، ولا تعريضك مثل تصريحك؛ بل ترتّب كلّا مرتبته، وتوفية حقّه، فتلطّف إذا تغزلت، وتفخّم إذا افتخرت، وتتصرّف للمديح تصرّف مواقعه؛ فإنّ المدح بالشّجاعة والبأس يتميّز عن المدح باللّباقة والظّرف، ووصف الحرب والسّلاح ليس كوصف المجلس والمدام، فلكلّ واحد من الأمرين نَهج هو أمْلك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه.»[3] في النّص دعوة إلى تخصيص لكلّ معنى لفظ خاصّ؛ فيه دعوة إلى التّلطّف عند الغزل، وإلى التّفخيم عند الافتخار، وهو جعل لكلّ نوع نمطا تنغيميّا؛ فقد أثبتت الدّراسات الحديثة أنّ الشّعور اللّيّن الضّعيف يفرض طريقة نطق ليّنة ضعيفة، وأنّ الشّعور القويّ يفرض طريقة نطق قويّة تناسب المقام.

---

[1]- شرح المفصّل للزّمخشريّ، ابن يعيش النّحويّ، ج 02، ص: 13.

[2]- المرجع نفسه، ص: 120.

[3]- الوساطة بين المتنبيّ وخصومه، القاضي عليّ بن عبد العزيز الجرجانيّ، تحقيق وشرح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، عليّ محمّد البجاويّ، طبع: عيسى البابيّ الحلبيّ وشركاه، القاهرة، د ط، د ت، ص: 24.

2- عند علماء التّجويد:

يرى بعض اللّغويّين المحدثين أنّ ظاهرة التّنغيم تجلّت بشكل كبير عند علماء القراءات والتّجويد؛ حتّى يتحقّق حسن القراءة وطرق الأداء، وبلوغ القصد من آيّ القرآن الكريم، وأكثر الباحثين تناولا لظاهرة التّنغيم -وبإسهاب كبير- عند علماء التّجويد هم: غانم قدّوريّ الحمد في كتابه: «الدّراسات الصّوتيّة عند علماء التّجويد»، وعليان بن محمّد الحازميّ في مقال له «التّنغيم في التّراث العربيّ»، وهايل محمّد الطّالب في بحث له منشور على الأنترنيت «إدراك علماء التّجويد للتّنغيم»، وفي كثير من الأحيان ما كان يستند هذان الأخيران في بحوثهما على ما أورده قدّوريّ الحمد في مؤلّفه.

يؤكّد غانم قدّوريّ الحمد في كتابه «أنّ من الأمور الّتي لم يعرفها دارسو الأصوات العربيّة من المحدثين؛ أنّ علماء التّجويد أدركوا ظاهرة التّنغيم وعرفوا أمثلتها، واِستخدم بعضهم كلمة النّغمة؛ بينما اِكتفى آخرون باِستخدام عبارة (رفع الصّوت وخفضه)، وهو معنى التّنغيم عند المحدثين.»[1] ومن أقدم هذه النّصوص المتعلّقة بظاهرة التّنغيم، واِطّلع عليها غانم قدّوريّ الحمد من مصادر علم التّجويد، ما قاله أبو العلاء الهمذانيّ العطّار في كتابه «التّمهيد في معرفة التّجويد»، وهو يتحدّث عن اللّحن الخفيّ: «وأمّا اللّحن الخفيّ فهو الّذي لا يقف على حقيقته إلاّ نحارير القرّاء ومشاهير العلماء، وهو على ضربين: أحدهما لا تعرف كيفيّته ولا تدرك حقيقته إلاّ بالمشافهة، وبالأخذ من أفواه أولي الضّبط والدّراية، وذلك نحو مقادير المدّات، وحدود الممالات، والمَلَطَّفات، والمشبّعات، والمختلسات، والفرق بين النّفيّ، والإثبات، والخبر، والاِستفهام، والإظهار، والإدغام، والحذف، والإتمام، والرّوم، والإشمام إلى ما سوى ذلك من الأسرار الّتي لا تتقيّد بالخطّ، واللّطائف الّتي لا تُؤْخَذ إلاّ من أهل الإتقان والضّبط.؛ على ما ورد عن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- من أمره أصحابه بذلك في قوله: اسْتَقْرِئُوا القرآن من أربعة: عبد الله، ومعاذ، وأبيّ، وسالم مولى أبي حذيفة.»[2] فقد جعل العطّار مصطلح اللّحن الخفيّ، ممّا يُعرف بالمشافهة فقط، كما جعله مميّزاً بين المعاني كالنّفيّ، والإثبات، والخبر، والاستفهام ثمّ قرن اللّحن بالمنطوق، وجعله ممّا لا يتقيّد بالكتابة، وبإمعان النّظر في هذه النّواحي الثّلاثة؛ يجعلنا ندخل هذا النّص في سياق الفهم الدّقيق للتّشكيل التّنغيميّ.

---

[1]- الدّراسات الصّوتيّة عند علماء التّجويد، ص: 478.

[2]- التّمهيد في معرفة التّجويد، تصنيف: أبو العلاء الحسن الهمذانيّ العطّار، تحقيق: د. غانم قدوريّ الحمد، ط1، دار عمّار، عمّان، 1460هـ – 2000م، ص: 237.

وكان السّمرقنديّ[1] تالي العطّار أكثر دقّةً وتفصيلاً في هذه المسألة، ويوجد في كتابه «روح المريد في شرح العقد الفريد في علم التّجويد» كلاماً ينمُّ عن فهمٍ علميٍّ للتّنغيم، وذلك عندما يقول: « قال :السّمرقنديّ في قصيدته (العقد الفريد)[2]:

إِذَا (ما) لِنَفْيٍ فَصَــــوْتُهَا اِرْ		فَعَنْ وَلِلإِسْتِفْهَامِ مَكِّنْ وَعَـدِّلاَ

وَ فيِ غَيْرِهَا اِخْفِضْ وَ الّذِي بِمَـا		شَبِيــهٌ بِمَعْنَــاهُ فَقِسْهُ لِتَفْضُلاَ

كَهَمْزَةِ الْإِسْتِفْهَامِ مَعَ مَنْ وَأَنْ وَإِنْ		وَأَفَعَل تَفْضِيل وَكَيْفَ وَهَلْ وَلَا

قال في الشّرح: «مثال ذلك: «ما قلتُ»، ويرفع الصّوت بـ «ما» ليعلم أنّها نافيّة، وإذا خفض الصّوت؛ يعلم أنّها خبريّة، وإذا جعلها بين بين يُعلم أنّها اِستفهاميّة، وهذه العادة جارية في جميع الكلام وفي جميع الألسن.»[3] وهكذا نلاحظ أنّ السّمرقنديّ جعل خاصّيّة رفع الصّوت وخفضه أيّ (التّنغيم) عادة جارية في جميع الألسن، وهي بذلك لا تخلو أيّة لغة من لغات العالم منها، وهذا ينمُّ عن إدراك دقيق لهذه الخاصّيّة، وجعل أيضاً رفع الصّوت، وخفضه عاملاً في تغيير المعنى؛ إذ إنّ فهم اِرتفاع الصّوت، واِنخفاضه على هذه الشّاكلة لا يقلّ أهميّة ودقّة عن الفهم المعاصر للتّنغيم، وهو ما يطابق تعريف علم الأصوات الحديث للتّنغيم، والمتمثّل في اعتباره اختلاف في درجات الصّوت بين الارتفاع والانخفاض أثناء الكلام، وهو تعريف يكاد يتّفق عليه أغلب الباحثين العرب المحدثين[4].

وقد أدرك السّمرقنديّ وظيفة هذا الِارتفاع والِانخفاض (التّنغيم) في تمييز المعاني، وقدّم مثالاً (أَفعلَ) التّفضيل، يقول: «فينبغي أن يفرّق بالصّوت بين الّذي بمعنى التّفضيل، والّذي ليس بمعنى التّفضيل.»[5] والملاحظ أنّ هذا الكلام غاية في الوضوح والدّقّة – على الرّغم من أنّ السّمرقنديّ لم يستخدم كلمة (النّغمة) لا في قصيدته ولا في شرحها –، ولكنّه تحدّث عن ظاهرة رفع الصّوت

[1]- محمّد بن محمود بن محمّد السّمرقنديّ الأصل، الهمذانيّ المولد، البغداديّ الدّار.

[2]- روح المريد في شرح العقد الفريد في علم التّجويد، السّمرقنديّ، تحقيق: إبراهيم عوّاد إبراهيم، رسالة ماجستير، جامعة صدّام للعلوم الإسلاميّة، بغداد، 1420هـ – 1999م، ص: 139. نقلا عن: المدخل إلى علم أصوات العربيّة، غانم قدّوريّ الحمد، ص: 260.

[3]- المرجع نفسه، والصّفحة نفسها. نقلا عن المرجع نفسه، ص: 260 – 261.

[4]- ينظر: علم اللّغة العامّ، كمال محمّد بشر، ج 02، ص: 163. مناهج البحث في اللّغة، تمّام حسّان، ص: 177. في البحث الصّوتيّ عند العرب، خليل إبراهيم العطيّة، ص: 63.

[5]- شرح العقد الفريد، السّمرقنديّ، ص: 139، نقلا عن: الدّراسات الصّوتيّة عند علماء التّجويد، غانم قدّوريّ الحمد، ص: 479.

وخفضه، وهو ما يدلّ على معرفة التّنغيم عند المجوّدين القدامى، وعلى هذا النّحو يمكن اِعتبار فهمهم للظّاهرة لا يقلّ عن فهم المحدثين من علماء الأصوات.

ويذكر غانم قدّوريّ الحمد أنّ المرعشيّ؛ قد اِستخدم مصطلح النّغمة نقلاً عن النّسفيّ صاحب التّفسير المسمّى «مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل»، وقد دلّ اِستخدامه له على فهم التّنغيم، بحيث قال: «قال صاحب المدارك في قوله تعالى: قال: ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦﴾ يوسف: ٦٦ [1]، بعضهم يسكت على «قَالَ» لأنّ المعنى: قال يعقوب؛ غير أنّ السّكت يفصل بين القول والمقول؛ وذا لا يجوز، فالأَوْلَى أن يفرّق بينهما بالصّوت، فيقصر بقوّة النّغمة اِسم الله تعالى، (فيقصر) معناه[2]: يمنع اِسم الله تعالى عن أن يكون فاعلا لقال بقوّة النّغمة؛ فيعلم أنّه ليس بفاعل لقال.»[3] لقد اِستعمل المرعشيّ في قوله مصطلح النّغمة، وأسبقه بكلمة قوّة، ومعناها الشّدة والّتي اِعتبرتها اللّسانيّات الحديثة إحدى مكوّنات التّنغيم، وهذا يجعلنا نؤكّد أنّ العرب القدامى لهم السّبق في دراسة التّنغيم.

إنَّ من أقدم النّصوص الّتي وُجِدَتْ؛ تندرج في سياق تجويد القرآن الكريم، والّذي يندرج ضمن ما يُسمّى تنغيم الجملة، ذاك النّصّ الموجود في كتاب «الزّينة» لأبي حاتم الرّازيّ، حيث يحلّل لفظة «آمين»؛ إذ يقول: «آمين بالمدّ وأمين بالقصر، وآمين، قال قومٌ من أهل اللّغة: هو مقصور، وإنّما أدخلوا فيه المدّة بدلاً من ياء النّداء كأنّهم أرادوا «يا أمين»، ومنهم من يختار القصر، فيقول: أمين، مقصورا، وأنشد:

تَبَاعَدَ مِنِّي فُطْحُلُ إِذْ سَأَلْتُهُ أَمِينَ فَزَادَ اللهُ مَا بَيْنَنَا بُعْدَا

---

[1]- تمام الآية: ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦﴾ يوسف: ٦٦.

[2]- الكلام الآتي هو تعليق المرعشيّ على كلام النّسفيّ.

[3]- جهد المقل، محمّد بن أبي بكر المرعشيّ الملقّب بساجقليّ زاده، دراسة وتحقيق، د. سالم قدّوريّ الحمد، دار عمّار، عمّان، ط2، 1469هـ - 2008م، ص: 285.

فأمّا الّذين قالوا مطوّلة فكأنّه معنى النّداء «يا أمين» على مخرج من يقول: يا فلان، يا رجل، ثمّ يحذفون الياء؛ فيقولون: أفلان، أزيد، وقد قالوا في الدّعاء: أربّ، يريدون يا ربّ، وحكى بعضهم عن فصحاء العرب: أخبيث، يريدون يا خبيث، وقال آخرون: إنّما مُدّت الألف ليطول بها الصّوت، كما قالوا: «أوه» مقصورة الألف، ثمّ قالوا: «آوه» يريدون تطويل الصّوت بالشّكاية.»[1]

يرى أبو حاتم -إذن- أنّ تطويلَ الصّوت -أي مدّته- يدلُّ على معنى النّداء، وعلى معنى الشّكاية[2]، فربط مدَّ الصّوت بالمعنى، «وهذا أمر لا يمكن إدراكه إلاّ بالكلام المنطوق، ويقصّر الكلام المكتوب عن نقله، وهذا ينقلنا إلى الحديث عن أهميّة المشافهة في نقل التّنغيم، فقد كان للمسلمين في التّلقّي الشّفهيّ مناهج دقيقة، إذ كانوا يرون أنّ النّقل من الأفواه هو النّقل السّليم الّذي ينفي كلّ لَبْسٍ يعتريه،»[3] وابن الجزريّ في تعريفه للمقرئ يقول: «والمقرئ: العالم بها (أيّ القراءات)، رواها مشافهة، فلو حفظ «التّيسير» مثلاً ليس أن يُقْرِئَ بما فيه، إنْ لم يشافهه مَنْ شُوفِه به مسلسلاً؛ لأنّ في القراءات أشياء لا تُحْكَمُ إلاّ بالسّماع والمشافهة.»[4] وليس بمستغربٍ أن يحظى القرآن الكريم بكلّ هذه الحظوة والدّقة في النّقل الشّفويّ؛ فالمشافهة هي المنهج القويم في إحكام التّلقّي الشّفويّ للقرآن الكريم، وواضح من قول اِبن الجزريّ السّابق الذّكر؛ أنّ من أحكام القرآن لا يمكن إحكامها أبداً إلاّ بالتّلقّي الشّفهيّ، فعلامات التّفخيم، والتّرقيق، والمدّ، والقصر، والحذف المثبتة في المصحف المكتوب لا تكفي لتعليمه، أمّا إعطاء الأصوات حقوقها وترتيبها، وردّ كلٍّ منها إلى مخرجه وأصله، والنّطق به على كمال هيئته من غير إسرافٍ، ولا تعسّف، ولا إفراط، ولا تكلّف؛ فلا يمكن أن يتحقّق إلاّ بواسطة تحويل المصحف المكتوب إلى المصحف بالمشافهة؛ بل قد يؤدّي عدم السّماع بالمتعلّم خاصّة إلى التّفريط؛ فيولّد الحروف من الحركات، أو يطنّن النّونات بالمبالغة، أو يطيل الممدود، ممّا يدخل في إطار العيوب والإخلال بالمعنى[5].

---

(1)- كتاب الزّينة في الكلمات الإسلاميّة العربيّة، الشّيخ أبو حاتم أحمد بن حمدان الرّازيّ، عارضه بأصوله وعلّق عليه: حسين بن فيض الله الهمدانيّ، مركز الدّراسات والبحوث اليمنيّ، صنعاء، ط1، 1415هـ – 1994م، ج02، باب آمين، ص: 306.

(2)- يقصد بالشّكاية: الشّكوى.

(3)- الأسلوب والأداء في القراءات القرآنيّة، خير الدّين السّيب، ص: 178.

(4)- منجد المقرئين ومرشد الطّالبين، ويليه: ثلاثة ملاحق لأبي شامة، وابن تيميّة، وابن حجر، تصنيف: الإمام العلاّمة محمّد بن محمّد بن الجزريّ، اعتنى به: عليّ بن محمّد العمران، تحقيق: محمّد حبيب الله الشّنقيطيّ، وأحمد محمّد شاكر، مكتبة القدس بالأزهر، القاهرة، 1350هـ، ص: 49. (كتاب على شكل pdf للقراءة عبر شبكة الانترنيت، غير قابل للتّحميل.)

(5)- ينظر: علم التّجويد- دراسة صوتيّة ميّسرة- د. غانم قدّوريّ الحمد، عمّان، دار عمّار للنّشر والتّوزيع، ط1، 1426هـ – 2005م، ص: 85 وما بعدها.

لقد اِستخدم الدّركزليّ[1] كلمة (نغمات)؛ ليوضّح كيفيّة قراءة القرآن الكريم؛ بحيث قال: «ينبغي أن يُقْرأَ القرآن على سبع نغمات: فما جاء من أسمائه تعالى وصفاته فبالتّعظيم والتّوقير، وما جاء من المفتريّات عليه فبالإخفاء والتّرقيق، وما جاء في ردّها فبالإعلان والتّفخيم، وما جاء من ذكر الجنّة فبالشّوق والطّرب، وما جاء من ذكر النّار والعذاب فبالخوف والرّهب، وما جاء من ذكر الأوامر فبالطّاعة والرّغبة، وما جاء من ذكر المناهي فبالإبانة والرّهبة.»[2] لاشكّ أنّ هذه الأقسام السّبعة الّتي ذكرها الدّركزليّ فيما يجب على القارئ تتبّعه في قراءته للقرآن؛ يتّضح فيها إمكانيّة تنويع النّغمة عند النّطق بكلّ نوع، واستخدم مصطلح (نغمات)؛ مبرزا من خلاله كيف تكون القراءة السّليمة للقرآن، بإعطاء كلّ حالة من الحالات السّبع الّتي ذكرها، كيفيّة الأداء التّنغيميّ لها؛ حتّى يتسنّى للقارئ والمستمع معا الوقوف على دلالة كلّ خطاب قرآنيّ موجّه إلى تابعيه والعاملين به إلى يوم الدّين، تغمرهم تلك النّغمات بالخشوع، وتسري في نفوسهم سريان الرّوح في الجسد، ويمثّل كلّ ذلك جانبا من جوانب الإعجاز الصّوتيّ في تلاوة القرآن الكريم[3].

لقد ورد في كتب التّجويد مصطلح التّحزين، والّذي يعني في اللّغة «الحزن: نقيض الفرح، وهو بخلاف السّرور، وفلان يقرأ بالتّحزين إذا رقّ صوته.»[4] ففي معرض التّعريف به عند علماء التّجويد ورد مصطلح النّغمة، «في عرف علماء التّجويد هو ترك القارئ طباعه وعادته في الدّرس؛ إذا تلا فيلين الصّوت، ويخفض النّغمة؛ كأنّه ذو خشوع وخضوع، ويجري ذلك مجرى الرّياء، لا يؤخذ به ولا يقرأ على الشّيوخ إلا بغيره.»[5] أيّ أنّ القارئ بتلاوته على وجه آخر كأنّه حزين؛ يكاد يبكي من خشوع وخضوع، وإنّما نهيَ عنه لما فيه من خوف الرّياء.

---

(1)- حسن بن إسماعيل بن عبد الله الموصليّ.

(2)- خلاصة العجالة في بيان مراد الرّسالة في علم التّجويد، حسن بن إسماعيل الدّركزليّ الجبّار الموصليّ -دراسة وتحقيق- رسالة دكتوراه تقدّم بها الطّالب: خلف حسين صالح الجبّوريّ، إشراف: د. غانم قدّوريّ الحمد، جامعة تكريت، 1423هـ – 2002م، ص: 445 .

(3)- ويتحقّق بذلك قول الله تعالى:﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ الإسراء: ٨٨.

(4)- لسان العرب، ابن منظور، ج 13، مادّة: حزن.

(5)- الموضّح في التّجويد، عبد الوهاب بن محمّد القرطبيّ، ص: 213.

لقد أبدى علماء التّجويد ملاحظات في موضوع التّنغيم في غاية من التّدقيق والتّوضيح؛ تمثّل إشارات قيّمة تتعلّق بكيفيّة أداء القراءة، والتّغني بالقرآن على نحو لا يخرج عن الطّريقة الّتي أُمِرَ القارئ بها؛ تتمثّل خاصّة في تحسين الصّوت. وقد أشار محمّد حسن حسن جبل في ترجمته لمحمّد بن عيسى بن إبراهيم بن رزين أبو عبد الله التّميميّ الأصبهانيّ إمام في القراءات كبير مشهور إلى كتاب له بعنوان (في قراءة القرآن على طريق المخاطبة) مبيّنا أنّ فيه « أنّ القراءة أو الإلقاء على طريق المخاطبة يعني أداء الكلام الاستفهاميّ بطريقة تشعر السّامع بالاستفهام، والإنكاريّ بطريقة تشعره بالإنكار... وهكذا التّعجّب والتّحبير والنّدم والتّلهف والزّجر والإنذار والتّبشير ... وقال الإمام ثعلب يصف محمّد بن أحمد الطُّوال النّحويّ: فهذا الالتفات إلى الإلقاء وإلى القراءة بطريقة المخاطبة في القرن الثّالث يعني أنّ تنغيم الأداء كان معروفا لعلماء العرب من حيث هو مجال علميّ في ذلك القرن الثّالث على الأقلّ، ولكنّ الخالفين أهملوه فأضاعوه.»[1] ممّا يدلّ دلالة قاطعة أنّ مدلول التّنغيم قد أدركه العلماء الأوائل بمفهومه دون تسمّيته بمصطلحه الحديث.

3- التّنغيم عند الفلاسفة:

لقد أدرك فلاسفة العرب القدامى الدّور الّذي يؤدّيه التّنغيم في الكلام، وجاء حديثهم عن ذلك في سياقات متعدّدة، فالفارابيّ – مثلاً- اِستطاع بحسّه المرهف، وإدراكه لدقائق علم الموسيقى، بما فيها موسيقى الكلام؛ أن يقدّم فهماً لهذا المصطلح لا يقلّ دقّة عن الفهم الحديث، «ففي معرض حديثه عن الأشياء الّتي من شأنها أن يكون بها الإقناع في الخطاب،»[2] يقول: «ومنها أن تكون كيفيّة القول والصّوت والنّغمة الخارجة مع القول؛ يخيّل الأمر الّذي فيه القول، مثل أن يخبر الإنسان عن نفسه بمصائب نالته، ويجعل صوته صوت خاشع، وأن يخاطب إنسانا فيتوعّده، فيجعل صوته صوت مستطيل غضبان.»[3] يشير الفارابيّ في كلامه إلى إمكانيّة إدراك الحالة الّتي يكون عليها الإنسان من خلال جعل صوته يتناسب مع اِنفعالاته، فهو يخفضه إذا أراد أن يظهر لنا ما ناله من مصائب، ويطيله في حالة الوعيد أو الغضب، وعَرْضُ الفارابيّ لوظائف التّنغيم؛ يدلّ على إدراك دقيق لهذا الجانب، فقد جعله ممّا يكسب الإنسان اِنفعالات النّفس مثل الرّضا، والسّخط، والنّقمة، والقساوة، والخوف، والحزن، والأسف، وما شابه ذلك.

[1]- المختصر في أصوات اللّغة العربيّة دراسة نظريّة وتطبيقيّة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط5، 2006م، ص: 177. (بتصرّف.)

[2]- دور التّنغيم في تحديد معنى الجملة العربيّة، د. سامي عوض، وأ. عادل عليّ نعامة، مجلّة جامعة تشرين للدّراسات والبحوث العلميّة، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانيّة، المجلّد: 28، العدد: 01، 2006م، ص: 91.

[3]- في الخطابة، تحقيق، د. محمّد سليم سالم، الهيئة المصريّة للكتاب، مصر، د ط، 1976م، ص: 38.

وقد ربط بين الاِنفعال ونوع النّغمة، إذ قال: «ومن فصول النّغم الفصول الّتي تصير دالّة على اِنفعالات النّفس، والاِنفعالات عوارض النّفس، مثل: الرّحمة، والقساوة، والحزن، والخوف، والطّرب، والغضب، واللّذة، والأذى وأشباه هذه، فإنّ الإنسان له عند كلّ واحد من هذه الاِنفعالات نغمة تدلّ بواحد منها على عارض من عوارض نفسه، وهذه إذا استُعْمِلَتْ خيّلت إلى السّامع تلك الأشياء الّتي هي دالّة عليها.»[1] نجد الفارابيّ يربط التّنغيم باِنفعالات النّفس الإنسانيّة المتعدّدة، وكلّ اِنفعال له نغمته الخاصّة، ويمكن للسّامع إدراك ذلك.

ثمّ أتى اِبن سينا وصاغ قولا لا يخرج عن مفهوم المعاصرين للتّنغيم في أدقّ الدّراسات، وذلك عندما قال: «وأمّا القول فإنّه يحتاج تارة إلى أن يرفع به الصّوت، وتارة إلى أن يُخفض به الصّوت، وتارة إلى أن يخلط فيه هذه الأمور؛»[2] فهذا التّعريف مماثل لتعريف المحدثين للتّنغيم؛ المتمثّل في رفع الصّوت وخفضه. وقد تحدّث -أيضا- عن قضيّة الزّينة في الكلام، فبيّن أنّ الكلام «يزدوج تركيبه من الحروف، وممّا يقترن به من نغمة ونبرة.»[3] يتبيّن لنا من هذا القول أنّ ما يزيّن الكلام، ويجعل له وقعا موسيقيّا هو اِقتران الصّوت بالنّغم والنّبر.

لقد أشرنا في البحث إلى مكوّنات التّنغيم ومنها النّبر، وهو أمر أشار إليه الفلاسفة العرب القدماء باعتبار النّبرات من أحوال النّغم، وهيئات نغميّة، يقول ابن سينا في هذا الإطار: «ومن أحوال النّغم: النّبرات، وهي هيئات في النّغم مدّيّة غير حرفيّة؛ يبتدئ بها تارة، وتخلّل الكلام تارة، وتعقب النّهاية تارة، وربّما تكثر في الكلام، وربّما تَقْلُل، ويكون فيها إشارات نحو الأغراض، وربّما كانت مطابقة للإشباع، ولتعريف القطع، وإمهال السّامع ليتصوّر، ولتفخيم الكلام، وربّما أعطيت هذه النّبرات بالحدّة والثّقل هيئات تصير بها دالّة على أحوال أخرى من أحوال القائل: إنّه متحيّر أو غضبان، أو تصير به مستدرجة للمقول معه بتهديد أو تضرّع أو غير ذلك، وربّما صارت المعاني مختلفة باختلافها، مثل أنّ النّبرة قد تجعل الخبر استفهاما، والاستفهام تعجّبا وغير ذلك.»[4] يشمل نصّ ابن سينا كلاما مباشرا عن التّنغيم؛ مماثلا لما جاء من الدّراسات الصّوتيّة الحديثة، إشارته في أوّل الأمر أنّ

[1]- الموسيقى الكبير، الفيلسوف أبو نصر محمّد بن محمّد بن طرحان الفارابيّ، تحقيق: غطّاس عبد الملك خشبة، القاهرة، دار الكتاب العربيّ للطّباعة والنّشر، د ط، د ت، ص: 1171.

[2]- الخطابة، الفنّ الثّامن، الشّفاء، أبو عليّ الحسن بن عبد الله، تصدير ومراجعة، د. إبراهيم مذكور، تحقيق: محمّد سليم سالم، المطبعة الأميريّة، القاهرة، د ط، 1954م، ص: 10.

[3]- المرجع نفسه، ص: 67.

[4]- المرجع نفسه، ص: 198.

أحوال النّغم المتمثّلة في النّبرات؛ هي صورة للتّنغيم بشكل غير حرفيّ، أيّ صوتيّ غير مكتوب، قد تكون في بداية السّلسلة الكلاميّة، أو تتخلّلها، أو تأتي في نهايتها؛ بل أكثر من ذلك يمكن أن توجد في الكلام بكثرة أو بقلّة؛ وذلك لأجل تحقيق أغراض؛ منها: الإشباع، القطع، التّفخيم، إعطاء مهلة للسّامع حتّى يتسنّى له الفهم ومعرفة الدّلالة من الكلام، وممّا يزيد من تأكيدنا على معرفة ابن سينا للتّنغيم، والإشارة إليه إشارة واضحة، هو أنّه رأى النّبرات الّتي هي أحوال النّغمات امتيازها بالحدّة والثّقل الّتي تدلّنا على حالة المتكلّم من كونه متحيّرا أو غضبان، أو أنّ كلامه فيه تهديد أو تضرّع أو غير ذلك؛ بل أكثر من ذلك فإنّها تبيّن نوع الأسلوب الّذي يكون عليه الكلام، أهو استفهام أم تعجّب أم غيره من الأساليب.

وفي السّياق ذاته يقول ابن رشد: «إلاّ أنّ العرب يستعملون النّبرات بالنّغم عند المقاطع الممدودة، كانت في أواسط الأقاويل أو في أواخرها، وأمّا المقاطع المقصورة فلا يستعملون فيها النّبرات والنّغم إذا كانت في أوساط الأقاويل، وأمّا إذا كانت في أواخر الأقاويل فإنّهم يجعلون المقطع المقصور ممدودا...»[1] يشير ابن رشد – هو الآخر– إلى أنّ النّبر عامل من عوامل التّنغيم؛ تستعمله العرب عند المقطع الممدود؛ سواء كان في وسط الكلام أم آخره، أمّا المقطع القصير فلا تستعمل فيه العرب النّبر المصاحب للتّنغيم، وفي آخر الكلام يجعلون المقطع القصير طويلا[2].

وابن سينا في رسالته يوضّح اِزدواج الحدث الكلاميّ من النّاحية الصّوتيّة، إذ هو متكوّن من نفس التّموّج منضافا إليها حال التّموّج، وهذه هي الّتي تخصّ تنبير الأجزاء، وصنع أجراسها بالنّغم المخصوص، يقول: «أمّا نفس التّموّج فإنّه يفعل الصّوت، أمّا حال التّموّج في نفسه من جهة اِتّصال أجزائه، وتماسها، أو بسطها، ونحتها فيفعل الحدّة والثّقل، أمّا الحدّة فيفعلها الأوّلان، وأمّا الثّقل فيفعله

[1]– تلخيص الخطابة، أبو الوليد محمّد بن أحمد بن محمّد بن رشد، ص: 100، نقلا عن: القضايا التّطريزيّة في القراءات القرآنيّة، أحمد البايبيّ، ج 02، ص: 298.

[2]– ومعاجم الصّوت الحديثة أشارت في شرحها لطول الصّوت وعرّفته بأنّه «الوقت الّذي يستمرّ فيه الصّوت بعد نطقه، وهو سمة فونيميّة في بعض اللّغات وغير فونيميّة في بعضها، وقد يكون فونيما في صوائت اللّغة وغير فونيميّ في صوامتها، كما هو الحال في اللّغة العربيّة؛ حيث إنّ التّطويل يحوّل الصّائت من فونيم إلى آخر؛ كما هو الحال في الكسرة والكسرة الطّويلة والفتحة الطّويلة والضّمّة والضّمّة الطّويلة، ومن العوامل الّتي تؤثّر في طول الصّوت موقعه في الكلام، إذ يميل الصّوت الواقع في آخر الكلام إلى الطّول، كما يميل الصّائت المنبور إلى الطّول أكثر من الصّائت غير المنبور.» – معجم علم الأصوات، د. محمّد عليّ الخوليّ، مطابع الفرزدق التّجاريّة، بيروت، ط1، 1406هـ – 1986م، ص: 110.

الثّانيان.»[1] يقصد اِبن سينا بالحدّة والثّقل درجة الصّوت، وهي خاصيّة من خصائص التّنغيم؛ موضّحا كيفيّة حدوث الثّقل بواسطة النّفس المتموّج، وما يصدر عنه من صوت، أمّا الحدّة فتنتج عن حال التّموّج في النّفس المتّصل، والحدّة والثّقل في الصّوت هما أيضا عاملان من عوامل حدوث التّنغيم.

وفي معرض حديثه عن أحوال النّغم؛ وهي النّبرات، وأنّها في النّغم مديّة، يقول: «واِعلم أنّ اِختلاف النّغم عند محاكاة المحاكي؛ إنّما يكون من وجوه ثلاثة: الحدّة، والثّقل، والنّبرات.»[2] ذكر اِبن سينا في هذا القول العوامل الأساسيّة المكوّنة للتّنغيم المتمثّلة في النّبر الّذي يعرف بقوّة الضّغط، والحدّة والثّقل اللّذان يعرفان بالدّرجة، واِختلاف نبر الصّوت مع درجته يشكّلان نوع النّغمة عند المتكلّم. وأدرك دلالة الألفاظ ونغمتها، ودلالة ذلك على الاِنفعال عندما جعل الصّنف المستعمل في النّغم مثل تثقيلها، وتحديدها، وتوسيطها، وإجهارها، والمخافتة بها مناسبة مع الاِنفعال والأخلاق؛ فإنّ الغضب تنبعث منه نغمة بحال، والخوف تنبعث منه نغمة بحال أخرى، واِنفعال ثالث تنبعث منه نغمة بحال ثالثة[3].

تصدر عن المتكلّم أنواع من النّغمات تختلف باِختلاف الحالة النّفسيّة والاِنفعاليّة الّتي يكون عليها؛ فتؤدّى كلّ حالة بنغمة معيّنة؛ تدلّ على معنى معيّن. هذا الفهم من قبل الفلاسفة لأثر اِرتفاع الصّوت واِنخفاضه، أو لربط نغم الصّوت بما يناسب المعنى، هو إدراك دقيق لمفهوم التّنغيم يوازي فهمنا الحالي له، وينمّ عن إدراك واع لهذا الجانب.

أمّا وظائف التّنغيم عند إخوان الصّفا فلا تختلف كثيراً عمّا بينّه الفارابيّ، فالأنغام والألحان منها ما يرقّق القلوب، ومنها ما يشجّع في الحروب، ومنها ما يشفي من الأمراض، «وكانوا يستعملون عند الدّعاء والتّسبيح ألحاناً من الموسيقى، وتسمّى (المحزن)، وهي الّتي ترقّق القلوب إذا سمعت، وتبكي العيون، وتكسب النّفوس النّدامة على سالف الذّنوب.»[4] كما أدرك إخوان الصّفا أثر تنغيم القرآن الكريم، وتجويده في نفوس المسلمين، حيث تتشوّق النّفوس إلى عالم الأرواح ونعيم الجنّان، وفي هذا يقولون: «كما يقرأ غزاة المسلمين عند النّفير آيات من القرآن الكريم؛ أُنْزِلَتْ في هذا المعنى لترقيق

---

[1]- أسباب حدوث الحروف، الشّيخ الرّئيس أبو عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا، تحقيق: محمّد حسّان الطّيّان، ويحي مير العلم، تقديم ومراجعة: د. شاكر الفحّام، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة، دمشق، ط1، 1403هـ - 1983م، ص: 59.

[2]- الخطابة، ابن سينا، ص: 197 – 198.

[3]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 198.

[4]- رسائل إخوان الصّفا وخلان الوفا، الدّار الإسلاميّة، بيروت، د ط، 1305هـ - 1987م، المجلّد:01، ص: 187- 188.

القلوب، وتشوّق النّفوس إلى عالم الأرواح ونعيم الجنان،»[1] مثل قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ التّوبة:١١١، وذلك لما للقرآن الكريم من سحر خاصّ؛ يؤثّر في النّفوس من خلال نغمه وأدائه. ونستخلص من كلّ ما سبق ذكره أنّ علماء اللّغة العرب، وعلماء التّجويد، والفلاسفة قديما؛ عرفوا ظاهرة التّنغيم وأثرها في المتلقّي، وما تؤدّيه من معنى في السّياق.

– التّنغيم في الدّراسات العربيّة الحديثة:

التّنغيم ظاهرة صوتيّة موجودة في اللّغة، عملت اللّسانيّات الحديثة على توصيفها، وقد شغلت هذه الظّاهرة حيّزا درسيّا مستقلاّ، وأفردت لها أبحاث خاصّة بها. يعدّ إبراهيم أنيس أوّل من أدخل مصطلح التّنعيم في الدّراسات اللّغويّة الحديثة، وسمّاه «موسيقى الكلام»؛ حيث ذكر «أنّ الإنسان حين ينطق بلغته لا يتّبع درجة صوتيّة واحدة في النّطق بجميع الأصوات؛ فالأصوات الّتي يتكوّن منها المقطع الواحد، تختلف في درجة الصّوت[2]. وكذلك الكلمات، قد تختلف فيها، ويمكن أن نسمّي نظام توالي درجات الصّوت بالنّغمة الموسيقيّة.»[3] يتحدّث إبراهيم أنيس –فيما ذكره– عن تنويع الأداء على مستوى الكلمة، ويعني به درجات الصّوت في الكلمة الواحدة، وتنوّع درجة الصّوت في المقاطع المتتابعة في الكلام هو الّذي ينوّع النّظام النّغميّ، أيّ يجعل النّغمات أنواعا مختلفة. ويرى أنّ اِختلاف نغمات الكلام شيء طبيعيّ في اللّغة الّتي لا بدّ أن تحتوي على «موسيقى النّغمات» تتألّف منه ألفاظها؛ فيكون التّنغيم –بذلك– هو أحد سمات الأداء الّذي لا بدّ من وجوده في أيّة لغة.

(1)– المرجع نفسه، ص: 188.

(2)– الدّرجة Hauteur، وتعني التّغيّر في نسبة ذبذبة الوترين الصّوتيين المحدثة لنغمة موسيقيّة معيّنة. – ينظر: المصطلحات اللّغويّة، رشاد الحمزاويّ، ص: 62.

(3)– الأصوات اللّغويّة، ص: 176.

وتعتبر دراسة تمّام حسّان للتّنغيم من المحاولات الأولى الّتي توجّهت نحو دراسة هذه الظّاهرة في العربيّة، ويرى أنّ التّنغيم هو «ارتفاع الصّوت، وانخفاضه أثناء الكلام؛»[1] «فهو الإطار الصّوتيّ الّذي تُقال به الجملة في السّياق،»[2] يعرّف تمّام حسّان التّنغيم على مستويين: مستوى نطقيّ: ويتجلّى في اِرتفاع الصّوت واِنخفاضه عند المتكلّم، ومستوى وظيفيّ: أيّ ما يؤدّيه تنغيم الجملة في السّياق.

ويجعل التّنغيم في كتابه «اللّغة العربيّة معناها ومبناها» من القرائن اللّفظيّة في السّياق، منطلقا من «أنّ الجمل العربيّة تقع في صيّغ وموازين تنغيميّة هي هياكل من الأنساق النّغميّة ذات أشكال محدّدة؛ فالهيكل التّنغيميّ الّذي تأتي به الجملة الاستفهاميّة، وجملة العرض غير الهيكل التّنغيميّ لجملة الإثبات، وهنّ يختلفن من حيث التّنغيم عن الجملة المؤكّدة.»[3] يوضّح لنا -في هذا القول- أنّ الجملة في العربيّة أشكال منها: الاِستفهاميّة والمثبتة والمؤكّدة، وكلّ نوع منها له هيكله التّنغيميّ الّذي يختلف عن الآخر.

ويقول في موضع آخر: «إنّ الكلام لا يجري على طبيعة صوتيّة واحدة؛ بل يرتفع الصّوت عند مقاطع الكلام أكثر ممّا يرتفع عند غيره، وذلك ما يعرف باِسم التّنغيم.»[4] يُفْهَمُ من كلامه أنّ كلّ كلمة، أو جملة يُنْطَقُ بها لابدّ أن تشتمل على درجات مختلفة من درجات الصّوت؛ ما بين عالية، ومنخفضة، ومستوية، ومنحدرة؛ تتناسق وتتناغم لتؤدّي الكلمة أو الجملة؛ فاِختلاف درجة الصّوت في الكلمة، وتباينها من مقطع إلى مقطع آخر قاعدة عامّة تخضع لها جميع اللّغات؛ إذ إنّه من المستحيل أن نجد لغة تستعمل نغمة واحدة في الكلمة، أوفي الجملة، وتجعلها سائدة، وقد أشار علماء الأصوات إلى أنواع النّغمات بين هابطة إلى أسفل، وصاعدة إلى أعلى، وثابتة مستوية.

كما اِلتفت تمّام حسّان إلى علاقة التّنغيم بالبنى التّركيبيّة، والبنى الدّلاليّة؛ أيّ: علاقة التّنغيم بتشكّل الدّلالة في السّياق، وأشار إلى أنّ وظيفة التّنغيم النّحويّة تشمل «تحديد الإثبات، والنّفي في جملة لم تستعمل فيها أداة الاِستفهام، فقد تقول لمن يكلّمك ولا تراه: أنت محمّد، مقرّرا ذلك أو مستفهما عنه، وتختلف طريقة رفع الصّوت، وخفضه في الإثبات عنها في الاِستفهام، ولكن كلّ شيء -فيما عدا التّنغيم- يبقى في المثال على ما هو عليه؛ ترتيب الكلمات في الجملة، والبناء في الكلمة

[1]- مناهج البحث في اللّغة، ص: 177.

[2]- اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص: 226.

[3]- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[4]- البيّان في روائع القرآن، د. تمّام حسّان، عالم الكتب للنّشر للطّباعة والتّوزيع، القاهرة، ط2، 1420هـ - 2000م، ج 01، ص: 178.

الأولى، والإعراب على الثّانية، وحركة الإعراب، وحركة البناء، والنّبر الثّانويّ على الهمزة، والأوليّ على الحاء، كلّ ذلك يبقى لا يصلح أساسا للتّفريق بين الإثبات والاِستفهام، ولكنّ التّنغيم هو ناحيّة الخلاف الوحيدة بينهما.»[1] يتبيّن لنا من كلامه أنّ القواعد النّحويّة مثل البناء والإعراب، والظّاهرة الصّوتيّة المتمثّلة في النّبر غير قادرين على تحديد نوع الجملة الخالية من أداة اِستفهام، أهي إثبات أم اِستفهام؟ في حين أنّ التّنغيم هو الوسيلة الأهمّ الّتي تساعد على تحديد نوع الجملة، وذلك برفع الصّوت إذا أراد المتكلّم أن يستفهم، وخفضه إذا أراد أن يثبت.

ومن الوظائف الدّلاليّة النّحويّة الّتي تحدّث عنها تمّام حسّان؛ والّتي ترتبط اِرتباطا وثيقا بالتّنغيم: الوظيفة التّأثريّة، يقول: «وللنّغمة دلالة وظيفيّة على معاني الجمل تتضّح في صلاحيّة الجمل التّأثريّة المختصرة، نحو: لا! نعم! يا سلام! الله! لِأَنْ تُقَالَ بنغمات متعدّدة، ويتغيّر معناها النّحويّ والدّلاليّ مع كلّ نغمة بين الاِستفهام، والتّوكيد، والإثبات لمعان مثل: الحزن، والفرح، والشّكّ، والتّأنيب، والاِعتراض، والتّحقير، وهلمّ جرا؛ حيث تكون النّغمة هي العنصر الوحيد الّذي تسبّب عنه تباين هذه المعاني؛ لأنّ هذه الجملة لم تتعرّض لتغيّر في بنيتها؛ لم يُضَفْ إليها، أو يُسْتَخْرَجْ منها شيء، ولم يتغيّر فيها إلاّ التّنغيم، وما قد يصاحبه في تغيّرات الملامح، وأعضاء الجسم ممّا يعتبر من القرائن الحاليّة.»[2] نستخلص من ذلك أنّ التّنغيم يفيد في معرفة أنواع المباني التّركيبيّة، ودلالتها من اِستفهاميّة وتقريريّة وتعجبيّة، وما تحمله من مقاصد مثل: الفرح والحزن والاِزدراء والسّخريّة والاِستهزاء، وهذه التّراكيب لا تختلف في بنائها رغم اِختلاف دلالتها ومقاصدها، وإنّما يتغيّر فيها التّنغيم، وما يمكن أن يصحبه من قرائن حالية.

ويفرّق أحمد مختار في كتابه بين النّغمة، والتّنغيم[3]؛ بحيث يرى أنّ التّنغيم هو الّذي يغيّر الجملة من خبر إلى اِستفهام إلى توكيد إلى اِنفعال إلى تعجّب في شكل الكلمات المكوّنة، ويميّز بين صنفين من اللّغات: اللّغات النّغميّة، واللّغات غير النّغميّة[4]، وذلك من خلال ما تؤدّيه درجة الصّوت من دور في تميّز المعنى الأساسيّ للكلمة أو الجملة.

---

(1)- مناهج البحث في اللّغة، ص: 198.

(2)- اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص: 228.

(3)- ينظر: دراسة الصّوت اللّغويّ، ص: 110.

(4)- ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

وقد أجرى في كتابه «اللّغة واختلاف الجنسين» مقارنة بين جنس المذكّر والمؤنّث في حسن الصّوت، ورأى أنّ البنات يتفوّقن على الأولاد في اِستخدام الخصائص الصّوتيّة فوق التّركيبيّة كالتّنغيم والنّغمة والنّبر، قال في ذلك: «وقد أجريت دراسة على الأطفال في الصّفوف الثّالث والرّابع والخامس؛ طُلِبَ منهم أن يحكوا قصّة، وتبيّن أنّ البنات كنّ أفضل في اِستخدام الملامح التّنغيميّة من الأولاد الّذين وصلوا في إلقائهم إلى حدّ الرّتابة والإملال.»[1] لقد لاحظ في اِختباراته أنّ المرأة تستخدم التّنغيم، وتنوّع في نطقه أكثر من الرّجل خصوصا التّنغيمات المنخفضة، «وهي نماذج تحبّ المرأة أن تستعملها كثيرا.»[2] وهذا لا يعني أنّها منعدمة عند الرّجال، وإنّما تتواجد عندهم بنسبة أقلّ من النّساء[3].

ويرى عبد السّلام المسديّ -هو الآخر- أنّ التّنغيم في العربيّة له وظائف نحويّة؛ لأنّه يفرّق بين أسلوب وآخر من أساليب التّركيب[4]. وتعدّ دراسة سلمان العانيّ «التّشكيل الصّوتيّ في اللّغة العربيّة» من أهمّ الدّراسات الّتي تناولت التّشكيل الصّوتيّ في العربيّة[5]، وتأتي هذه الأهمّيّة من اِعتماد الباحث في الوصول إلى النّتائج الأساسيّة في دراسته على وسائل البحث الأكوستيكيّ والفيزيولوجيّ. كما تعرّض لمسألتي الوقف Pause، ودرجة الصّوت Hauteur وعلاقتهما بالتّنغيم؛ فعلى صعيد الوقف؛ رأى سلمان العانيّ أنّ سلاسل الأصوات في اللّغة العربيّة نوعان من الوقف:

- نهائيّ: Final ويرمز له بـ |↑| عندما يكون التّنغيم صاعدا، وآخر يرمز له |↓| عندما يكون التّنغيم هابطا.
- غير نهائيّ: ويرمز له بـ |→|[6].

---

[1]- أحمد عمر مختار، ص: 147.

[2]- المرجع نفسه، ص: 132.

[3]- نجد في القرآن الكريم - أيضا - الخطاب النّسائيّ على ألسنة النّساء يمثّل كلّ أنماط الأنثى: الأمّ والزّوجة وغير المتزوّجة والحاكمة، وكلّ أنماط الخطاب كالابتهال والنّجوى والمكر والقوّة والعقل والرّزانة والعفّة والشّرف والخضوع والشّهوة، وما تحمله من ظواهر صوتيّة سواء كانت مقطعيّة أو فوق مقطعيّة، وما أجراه الله تعالى على لسان المرأة في الخطاب القرآنيّ. - ينظر: القيم الصّوتيّة في الخطاب النّسائيّ في القرآن الكريم، عويض بن محمود العطويّ، مجلّة جامعة الملك سعود، المجلّد: 20، العدد: 02، سنة: 1429هـ – 2008م، ص: 187 - 188.

[4]- ينظر: التّفكير اللّسانيّ في الحضارة العربيّة، ص: 226.

[5]- ينظر: فونولوجيا العربيّة، ص: 27 وما بعدها.

[6]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 140.

ويحدّد كيفيّة إدراك الوقف قائلا: «يسهل إدراك الوقف الأخير؛ لأنّه يدلّ على نهاية التّعبير، وهو عامّة يشخّص بعدّة صفات نهائيّة للنّمط المنغّم، ويحدّد هذه الصّفات نوع التّعبير، فمثلا يظهر الوقف الأخير للجملة الخبريّة Phrase déclarative في تسجيلات الحزمة الضّيّقة على شكل اِنزلاق متّجه إلى الأسفل.»[1] بيّن العانيّ أنّ الوقف النّهائيّ يسهل تحديده لأنّه يدلّ على نهاية الكلام، ويظهر في الجملة الخبريّة –مثلا– بتنغيم منخفض.

يميّز سعد مصلوح في دراسته لظاهرة التّنغيم بين مجموعتين أساسيّتين من اللّغات؛ اللّغات النّغميّة Tone Languages، واللّغات التّنغيميّة Intonation Languages، وتتميّز «مجموعة اللّغات النّغميّة باِتّباعها نظاما من النّغمات، يستخدم على مستوى الكلمة؛ بحيث يختلف المعنى المعجميّ للكلمة نفسها باِختلاف النّغمات الّتي تُنْطق بها.»[2] ويعطي مثالا على ذلك من اللّغة الصّينيّة[3]، وأمّا اللّغات التّنغيميّة فهي الّتي يعمل فيها التّنغيم على مستوى الجملة، وليس على مستوى الكلمة، ثمّ يتحدّث عن وظيفتين للتّنغيم؛ الأولى نحويّة Grammatical Function؛ «إذ تستقلّ وحدها بالتّمييز بين التّركيبين التّقريريّ والاِستفهاميّ دون إضافة أيّ أدوات، أو أسماء تفيد الاِستفهام.»[4]

ويشير سعد مصلوح إلى التّراكيب الخالية من أدوات الاِستفهام، وإمكانيّة اِعتبارها تقريرا أو اِستفهاما يعود إلى التّنغيم، وبذلك تصبح له (أيّ التّنغيم) وظيفة نحويّة. ثمّ يضيف فيقول: «وكثيرا ما يقوم التّنغيم في هذه اللّغات لا بتمييز التّقرير من الاِستفهام فحسب؛ بل بتحديد المراد من السّؤال، فأنت إذا قلت لصديقك : تزوّج زيد بفتاة جميلة، فردّ عليك متسائلا: من؟ اِختلف المراد من سؤاله باِختلاف النّغمة الّتي ينطق بها السّؤال، فإن نطقه بنغمة صاعدة كان مراده السّؤال عن الفاعل، وإن كان نطقه بنغمة هابطة كان مراده مزيدا من المعلومات عن العروس،»[5] أيّ أنّ التّنغيم هو الّذي يحدّد المعنى في الجمل الاِستفهاميّة المحذوفة الأداة.

---

(1)– ينظر: المرجع نفسه، ص: 141 وما بعدها.

(2)– دراسة السّمع والكلام، ص: 258.

(3)– هذا ما تحدّث عنه أحمد مختار –قبله– في دراسته. – ينظر: أسس علم اللّغة، ص: 94.

(4)– دراسة السّمع والكلام، سعد مصلوح، ص: 259.

(5)– المرجع نفسه، ص: 260.

والوظيفة الثّانية الّتي يقوم بها التّنغيم -حسب ما يرى مصلوح- هي الوظيفة الإنفعاليّة Emotional Lunction، وربطها بالوظيفة النّحويّة، يقول: «وقديما صنّف أسلافنا الإستفهام إلى إنكاريّ، وتوبيخيّ، وتقريريّ، وغير ذلك من أنواع الإستفهام[1]، والّذي لاشكّ فيه أنّ التّنغيم يقوم بدور هامّ في التّمييز بين هذه الأنواع جميعا؛ إذ إنّ الأنماط والتّنوّعات التّنغيميّة تختلف باختلافها على نحو دالّ.»[2] نستخلص من كلامه أنّ التّنغيم يتنوّع، وتتنوّع معه الوظائف الإنفعاليّة، وهو بذلك يقوم بدور تمييزيّ لأنماط الكلام.

أمّا رضوان القضماويّ فيعرّف التّنغيم قائلا: «هو متابعات مطردة لمقاطع متعدّدة في الكلمة، تتميّز بألوان صوتيّة تنتج عن الإختلاف في تناسب تردّد ذبذبات جرس الصّوت الأساسيّ Frequence، وقوّة الصّوت Tembre، وكثافته Intensive، وطوله.»[3] وهي الخواص الّتي تتكوّن منها الصّيغة الصّوتيّة للكلام، وفيها يتشكّل التّنغيم. وانطلاقا من هذه المكوّنات للتّنغيم يحدّد القضماويّ خمسة نماذج له في العربيّة[4]:

- **التّموّج التّنغيميّ الأوّل**: هو الّذي نصادفه في الجمل التّقريريّة، ويتألّف من مقاطع ذات تردّد مستوٍ تنتهي بمقطع هابط.
- **التّموّج التّنغيميّ الثّاني**: ونصادفه في جمل استفهاميّة تحتوي على أداة استفهام، ويتألّف من مقاطع ذات تردّد مستوٍ، وفي الكلمة مركز السّؤال، يصبح تردّد المقطع المنبور صاعدا؛ يليه مقطع هابط.
- **التّموّج التّنغيميّ الثّالث**: ونصادفه في سؤال لا يحتوي على أداة استفهام، ويتألّف من صعود في المقطع المنبور يسبقه انخفاض.
- **التّموج التّنغيميّ الرّابع**: ونصادفه عند الإستدراك، أو الإعتراض، ويتألّف من تردّد المقطع الهابط - الصّاعد.
- **التّموج التّنغيميّ الخامس**: ونصادفه عند التّعجب، ويتألّف من مقطع منبور صاعد-هابط.

---

[1]- هذه التفاتة من الباحث إلى وجود إشارات للتّنغيم في تراثنا العربيّ.

[2]- دراسة السّمع والكلام، ص: 260.

[3]- مدخل إلى اللّسانيّات، ص: 105.

[4]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 107.

تمثّل هذه التّموّجات التّنغيميّة أنواع النّغمات، ونجدها خمسة أنواع عند القضماويّ، بينما قد تزيد أو تنقص عند غيره من الباحثين اللّغويّين، فهي –مثلا– ستة أنواع عند تمّام حسّان[1]، ونوعان فقط عند كمال بشر[2]: نغمة هابطة، ونغمة صاعدة.

لقد تعرّضت أكثر الدّراسات الصّوتيّة الحديثة إلى التّنغيم، والكثير منها آثر عرض تجارب أخرى سابقة كاِعتماد دراسة تمّام حسان أو عمر مختار أو سعد مصلوح دون إضافة جديد، وهو ما نجده عند –مثلا– غازي طليمات[3]؛ ففي حديثه عن التّنغيم أورد ما جاء من آراء وأقوال عند تمّام حسّان.

إنّ التّنغيم ظاهرة صوتيّة تعتمد على الأداء والمشافهة، ولكنّ تحديد طبيعة النّغمة المرادة مرتبط بطبيعة السّياق، وأصواته، ومقاطعه، أمّا الرّسم العربيّ فلم يف بإظهار التّنغيم، وما جاء في الرّسم العربيّ من بعض علامات التّرقيم: مثل علامة الاستفهام، وعلامة التّعجّب لا يتجاوز أن يكون مجرّد محاولة كما يشير إلى ذلك تمّام حسّان بقوله: «لقد حاولت الكتابة أن تستعيض عن التّنغيم بالتّرقيم، ولكنّها لن تعوّض النّبر بوسيلة أخرى... لهذا كانت دراسة الكلام المنطوق المسموع مقدّمة لا بدّ منها لدراسة الأنظمة (القواعد) اللّغويّة، أو بعابرة أخرى لدراسة اللّغة نفسها.»[4] وبهذا فإنّ وضع التّنغيم في سياقه لا بدّ أن يمثّل ملمحا مميّزا، وهذا على العكس ممّا يراه أحمد مختار عندما قال: «ومعظم أمثلة التّنغيم في العربيّة (ولهجاتها) من النّوع غير التّمييزيّ الّذي يعكس إمّا خاصيّة لهجيّة، أو عادة نطقيّة للأفراد، ولذا فإنّ تقعيده أمر يكاد يكون مستحيلا.»[5] إنّ الحكم على التّنغيم بأنّه غير مميّز؛ قول يحتاج إلى إعادة نظر بالبحث والدّراسة الموضوعيّة له؛ فالموسيقى الّتي يصبغ بها الأداء الكلاميّ في كثير من السّياقات ليست مقصودة بذاتها ولذاتها؛ بل تظهر عند إثارتها وإزالة كمونها، وذلك بتوظيفها في مكانها المناسب[6]، ولهذا لا بدّ من وقفة دقيقة مع التّنغيم حتّى نظهر أنّه مبيّن للمعنى في في السّياقات، ومميّز لأنواع التّراكيب والجمل، ومحدّد لنمطها.

---

[1]- ينظر: مناهج البحث في اللّغة، ص: 198 وما بعدها.

[2]- ينظر: علم الأصوات، ص: 535.

[3]- ينظر: في علم اللّغة، ص: 145 وما بعدها.

[4]- اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص: 47.

[5]- دراسة الصّوت اللّغويّ، ص: 366.

[6]- ينظر: القضايا التّطريزيّة في القراءات القرآنيّة، أحمد البايبيّ، ج 01، ص: 171 وما بعدها.

وهناك من النّاقدين العرب المحدثين من أشار إلى ظاهرة التّنغيم وخاصّة في القرآن الكريم قائلا: «إنّ البنيّة العميقة في الموسيقى القرآنيّة لا تكمن في التّأليف بين حروف اللّفظ المفرد وتناغمه وحسب؛ بل تتمثّل البنيّة الدّاخليّة العميقة للنّصّ القرآنيّ في موسيقى لغته، فالنّصّ القرآنيّ نغم.»(1)

وهناك من أعداء الإسلام من المستشرقين لم يفتهم التّطرّق إلى الحديث عن التّنغيم؛ مشيرين إلى وجوده في القرآن الكريم؛ بحيث نجد بياركرابون دوكابرونا Pierre Cropon de Carprona يصف السّور القرآنيّة من حيث بنيّتها الموسيقيّة بأنّها «نظام إيقاعيّ خاصّ؛ حيث رأى أنّ بعض السّور خاصّة المكيّة تقوم على التّرنيم، وأنّ بعضها يقوم على مؤلّفات موسيقيّة غير معهودة.»(2)

ما نستخلصه من هذا العرض أنّ التّنغيم ظاهرة صوتيّة عرفها العلماء القدماء بمفهومها، وأسهب العلماء المحدثون في شرحها، وأكثر تطبيقاتهم كانت على اللّهجات العربيّة، وما يمسّها من تغيّر في المعنى بسبب تغيّر تنغيم الجملة، وتناولها حتّى النّقاد في كتاباتهم، وتطرّق إليها المستشرقون في حديثهم عن القرآن الكريم، وهي الآن تحتاج إلى دراسة أكثر عمقا؛ وربطها بمستويات اللّغة، واستخدام الآلات الالكترونيّة لتحديد نمطها، ومن ثمّة ما تؤديه من دلالة في الخطاب القرآنيّ وغيره من الخطابات اللّغويّة. ويرى ابن الجزريّ في حديثه عن التّلاوة الشّريفة؛ مادحا أهل القرآن بأنّ «تلاوة المعنى أشرف من مجرّد تلاوة اللّفظ، وأهلها هم أهل القرآن الّذين لهم الثّناء في الدّنيا والآخرة؛ فإنّهم أهل تلاوة ومتابعة حقّا.»(3)

---

(1)- النّصّ القرآنيّ وآفاق الكتابة، عليّ أحمد سعيد "أدونيس"، دار الآداب، بيروت، د ط، 1993م، ص: 24.

(2)- Le Coran Aux Sources de la parole Oraculaire; Pierre Cropon de Carprona Paris ; نقلا عن: بلاغة القرآن بين الفنّ والتّاريخ، فتحيّ أحمد عامر، دار المعارف، الإسكندرية، د ط، 1980م، ص:389.

(3)- الجمع الصّوتيّ الأوّل للقرآن الكريم أو المصحف المرتّل بواعثه ومخطّطاته، لبيب السّعيد، دار الكتاب العربيّ للطّباعة والنّشر، القاهرة، د ط، د ت، ص: 350.

المبحث الثّالث: الفرق بين التّنغيم والنّغمة واللّحن والإيقاع

ترتبط بالتّنغيم مصطلحات قد استخدمت في أوّل الأمر في المجال الموسيقيّ والغناء؛ ثمّ انتقلت إلى المجال اللّغوي؛ من هذه المصطلحات: النّغمة، والنّغم، واللّحن، والإيقاع.

1- بين التّنغيم والنّغمة:

يرى علماء النّفس الموسيقيّ «أنّ هناك ميلا غريزيّا لدى الإنسان إلى الكلام ذي الجرس الموسيقيّ الجميل.»[1] ولذلك يتّخذه الإنسان وسيلة للتّأثير على الآخرين؛ كما أنّ توظيف التّنغيم في العمليّة التّواصليّة له أهميّة في تحديد الدّلالات المرجوّة من كلّ تركيب، ومراعاة التّنغيم في صور الأداء وأنماط الكلام تتنوّع من شخص إلى آخر، ومن جماعة لغويّة إلى أخرى؛ وحتّى المتكلّم الواحد لا يسير على وتيرة واحدة في نطق مقاطع كلامه[2]؛ أيّ: أنّ هناك اِرتفاع واِنخفاض في درجة النّطق بالأصوات. ويمكّننا التّنغيم من التّعبير عن كلّ مشاعرنا وحالاتنا الذّهنيّة، وأن نغيّر الجملة من خبر إلى اِستفهام إلى توكيد إلى اِنفعال إلى تعجّب[3]، وذلك دون تغيير في شكل الكلمات المكوّنة للجملة مع تغيير فقط في التّنغيم.

أمّا النّغمة فمصطلح وجد عند الفارابيّ في قوله: «ومنها أن تكون كيفيّة القول والصّوت والنّغمة الخارجة مع القول.»[4] وهو يعني أنّ الكيفيّة الّتي يكون عليها الصّوت تتحدّد بالنّغمة الخارجة معه، وهو بذلك إشارة إلى نوع النّغمة المصاحبة للقول والصّوت. وقد عرّفها أحمد عمر مختار بقوله: «النّغمة لحن الكلام إذا كان سمة في الكلمة؛»[5] بحيث تقوم درجات الصّوت بدورها على مستوى الكلمة لذلك تسمّى «نغمات الكلمة». والنّغمة يتّصف بها مقطع من المقاطع؛ فيوصف بذلك المقطع كذا من الكلمة بأنّه ينطق بنغمة صاعدة أو هابطة أو مستوية[6].

---

(1)- موسيقى الشّعر، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ط4، 1976م، ص: 11.

(2)- ينظر: تفصيل هذا التّنوّع والاِختلاف في الأداء بين الأشخاص في كتاب: اللّغة واِختلاف الجنسين، أحمد عمر مختار، ص: 85 وبعدها.

(3)- ينظر: مدخل إلى اللّسانيّات، رضوان القضماويّ، ص: 106 وبعدها.

(4)- في الخطابة، ص: 38.

(5)- دراسة الصّوت اللّغويّ، ص: 196.

(6)- تمثّل النّغمة الصّاعدة أو الهابطة أو المستوية أنواع النّغمات. - ينظر تفصيل ذلك في كتاب: مناهج البحث في اللّغة، تمّام حسّان، ص: 200.

ما نستنتجه أنّ كلاًّ من النّغمة والتّنغيم هو توالي لدرجات صوتيّة مختلفة أثناء الكلام؛ غير أنّ ما يفرّق بينهما أنّ النّغمة اِرتفاع الصّوت واِنخفاضه على مستوى الكلمة المفردة، مثل: بلى- نعم-لا؛ أمّا التّنغيم فيوظّف على مستوى العبارة أو الجملة. وإذا كانت النّغمة في بعض اللّغات كالصّينيّة – مثلا– تقوم بوظيفة تمييزيّة مثلها مثل الفونيم؛ فتفرّق بين معاني الكلمات[1]؛ فتسمّى بذلك لغات نغميّة، فإنّ التّنغيم ظاهرة صوتيّة تتميّز بها كلّ اللّغات.

2- النّغــم:

اِستعمل الفارابيّ مصطلح النّغم ليستدلّ به على التّنغيم، فقال: «والنّغم الأصوات المختلفة في الحدّة والثّقل الّتي تتخيّل أنّها ممتدّة،»[2] ولذلك فإنّ التّنغيم والنّغم «مفهومان متقاربان جرسا وصوتا، وقد جمعهما بعض اللّغويّين في مجال واحد،»[3] واِعْتُبِرَ بذلك كلُّ من التّنغيم والنّغم «مصطلحين متماثلين في الدّلالة على المنحنى اللّحنيّ في سلسلة أحداث الكلام.»[4] يستنتج من ذلك أنّ التّنغيم أو النّغم لا يصاحب الفونيم أو المقطع؛ بل يستند إلى تركيب أكبر، مثل الكلمة أو العبارة أو الجملة.

3- اللّحــن[5]:

يقصد باللّحن «مجموع النّغمات الّتي في المجموعة الكلاميّة؛ أيّ التّرتيب الأفقيّ للنّغمات الّتي يشتمل الميزان عليها مع نظرة خاصّة إلى النّغمة المنبورة الأخيرة في هذا التّرتيب.»[6] يعتبر اللّحن بذلك مجموع النّغمات المتتابعة في الكلام؛ بينما النّغمة: تنغيم لمقطع واحد في عموم الكلام. وقد عرّفه الفارابيّ بأنّه «جماعة نَغم يمكن أن تقترن بها الحروف الّتي تركّب منها ألفاظ دالّة على معان، وهذه هي الأصوات الإنسانيّة الّتي تستعمل في الدّلالة على المعاني المعقولة، وبها تقع المخاطبات.»[7] نلاحظ أنّ الفارابيّ يجعل اللّحن مقترنا بالحروف؛ ثمّ الألفاظ المركّبة من الحروف؛

[1]- فكلمة "فان" تُؤدّي ست معان لا علاقة بينها في اللّغة الصّينيّة؛ هي: نوع – يحرق – شجاع – واجب – يقسم – مسحوق، وليس هناك فرق سوى النّغمة الموسيقيّة في كلّ حالة. ينظر: أسس علم اللّغة، أحمد عمر مختار، ص:94.

[2]- الموسيقى الكبير، الفارابيّ، ص: 109.

[3]- التّنغيم: صوت ودلالة، دة. سعاد بسناسيّ، مجلّة القلم، جامعة وهران، الجزائر، العدد: 03، مارس 2006م، ص: 36.

[4]- الأصوات اللّغويّة، عبد القادر عبد الجليل، ص: 256.

[5]- اللّحن عند محمود السّعران هو التّنغيم، بحيث يقول: «ولكلّ لغة عاداتها التّنغيميّة أو لحونها.» – علم اللّغة، مقدّمة للقارئ العربيّ، ص: 160.

[6]- مناهج البحث في اللّغة، تمّام حسّان، ص: 200.

[7]- الموسيقى الكبير، ص: 47.

فتصبح بذلك اللّفظة حاملة لمعنى ولحن، ويتجلّى ذلك كلّه في كلام الإنسان أثناء الخطاب. وهو عند اِبن منظور: «جَرْسُ الكلام، وحسن الصّوت في القراءة وغيرها،»[1] إنّ اللّحن ظاهرة تصاحب الكلام، وصوت حسن يتجلّى في القراءة.

4- الإيقـــاع:

تتوضّح العلاقة بين مصطلح الإيقاع والموسيقى من خلال ما جاء به ابن منظور كتعريف له؛ بحيث اعتبره كلمة جاءت من إيقاع اللّحن والغناء، وذلك بأن توقّع الألحان وتبيّنها، والخليل نفسه سمّى كتابا في هذا الجانب «كتاب الإيقاع»[2]. والإيقاع في الأصل اللّغويّ يعني الوقع على الشّيء، فيصيب جزءا منه، ويترك بقية الأجزاء، وهذا ملحوظ في توقيع المطر، وتوقيع الرّمي، وإيقاع الألحان. وهذا المعنى نلاحظه في الإيقاع الموسيقيّ للآلات، والإيقاع الموسيقيّ للألفاظ، إذ إنّ الموسيقى تعتمد على تحريك بعض الأوتار دون غيرها؛ لإصدار نغمة معيّنة، والإيقاع في الألفاظ يعتمد -أيضاً- على بعض الأوتار الصّوتيّة لإصدار نغمة معيّنة؛ موظّفاً اختلاف مخارج الحروف لتنويع التّنغيم الصّوتيّ؛ فكأنّ الجهاز الصّوتيّ للإنسان أشبه بالآلات الموسيقيّة الّتي تصدر نغمات متباينة في شدّتها وضعفها، وسرعتها وبطئها، وجهرها وهمسها، وغير ذلك من الصّفات الصّوتيّة الّتي تحدّث عنها علماء اللّغة والتّجويد[3]. وللإيقاع مستويان يعتمد عليهما: مستوى خارجيّ ويمثّل الجانب الصّوتيّ؛ الّذي يتولّد من تناسق الحروف في مخارجها، وصفاتها، وحركاتها، وأوزان الكلمات، والفواصل القرآنيّة، وأنواع البديع، والتّوازن بين الجمل والعبارات. مستوى داخليّ ويمثّل حركة موقّعة أو منتظمة في بناء السّورة القرآنيّة كلّها، تحكم نسيجها، وتميّز معالمها، وصفاتها عن بقيّة السّور الأخرى[4]. كلّ ذلك ينشئ تنغيما له نمطه الخاصّ في كلّ آية كريمة يؤدّى به لتحقيق المعنى المقصود.

[1]- لسان العرب، ج 17، مادّة: لحن..

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ج 10، مادّة: وقع.

[3]- ينظر: جماليّة الخطاب في النّصّ القرآنيّ: قراءة تحليليّة في مظاهر الرّؤية وآليّات التّكوين، د. لطفيّ فكريّ محمّد الجودى، مؤسّسة المختار للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط1، 1435هـ – 2014م، ص: 174.

[4]- ينظر تفصيل ذلك في كتاب: التّصوير الفنيّ في القرآن، سيّد قطب، ص: 103. وكتاب: إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، الرّافعيّ، ص: 243. وكتاب: جماليّة الخطاب في النّصّ القرآنيّ، لطفيّ الجودى، ، ص: 173 – 174.

المبحث الرّابع: مكوّنات التّنغيم

تتشكّل كلّ عبارة -من بدء إلى وقف- صوتيّا على أنّها وحدة كلّيّة بغض النّظر عن طولها أو قصرها، وهذا الشّكل الصّوتيّ يسمّى -تنغيما-، ويعني تلك التّغيّرات الّتي تطرأ على الصّوت في أثناء الكلام بين علوّ وإنخفاض؛ فيطبعه بهذا الطّابع أو ذاك؛ وينتج هذا العلوّ والإنخفاض عن تغيّر حركيّة النّغمة من دون أن تنقطع أو تتوقّف[1]. وليس تغيّر النّغمة في الكلام المنطوق العامل الوحيد في تشكّل التّنغيم؛ إذ لا بدّ من الإشارة أنّه يوجد معايير وضوابط يمكن أن يقيّد بها «لذا فإنّ إيجاد قواعد عامّة توضّح التّنغيم، وأهميّة ما يسمّى بدرجة الصّوت، وتتابعها إنّما هو على سبيل المقاربة؛ فالتّنغيم مجموعة معقّدة من الأداء الصّوتيّ بما يحمل من نبرات، وفواصل صوتيّة، وتتابع مطرد للسّكنات والحركات الّتي يحدث بها الكلام وتتميّز دلالاته.»[2] إذ تسهم في تشكّله عوامل أخرى، ومن هذه العوامل الّتي تمثّل مكوّنات التّنغيم ما يلي:

1- النّغميّة: Mélodie

وهي العنصر الموسيقيّ، ومعناها «جرس الصّوت الأساسيّ، أيّ اِنخفاضه وإرتفاعه،»[3] وهي بذلك المكوّن الأساسيّ الأهمّ في التّنغيم لإعتمادها على درجة الصّوت (الإرتفاع والإنخفاض). يمكن للنّغميّة أن تؤدّي وظائف عدّة كالوقف، وأن تكون أداة تقسيم سيرورة الكلام، إذ يمكن أن تعيّن الحدّ الفاصل بين عبارتين بواسطة القطع في الرّسم التّنغيميّ[4]، أيّ الإنتقال من اِرتفاع النّغمة إلى اِنخفاضها، ومن اِنخفاض النّغمة إلى اِرتفاعها، ومن نهاية عالية إلى بداية منخفضة وما شابه ذلك. وتعتبر النّغميّة أهمّ وسيلة من بين مكوّنات التّنغيم للتّعبير عن النّمط الإبلاغيّ type Communicatif في الجملة[5]؛ فهي تقوم بالتّمييز بين النّمط الخبريّ فيه والإنشائيّ اِستفهاما

[1]- ينظر: علم الأصوات اللّغويّة، د. مناف مهديّ محمّد، عالم الكتب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط1، 1419هـ - 1998م، ص: 134 وما بعدها.

[2]- التّنغيم في التّراث العربيّ، د. عليان بن محمّد الحازميّ، مجلّة جامعة أمّ القرى، مكّة المكرّمة، العدد: 12، 1995م، ص:284.

[3]- علم الأصوات، كمال محمّد بشر، ص: 233.

[4]- ينظر تفصيل ذلك في: التّشكيل التّنغيميّ في المنظومة اللّغويّة العربيّة، إعداد الطّالب: طالب محمّد هايل، إشراف، د. رضوان القضماويّ، رسالة ماجستير، جامعة البعث، حمص، 2001م، ص: 07 وما بعدها.

[5]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 08.

كان أو تأكيدا. وتمثّل النّغميّة بذلك درجة الصّوت أو جرسه؛ لها وظيفتها الهامّة في اِنتقال النّغمة أثناء الكلام، وهي أيضا وسيلة من وسائل الإبلاغ.

2- الشّدّة: Intensity

تشكّل الشّدّة إيقاع النّغمة، أو قوّة الصّوت، وتتّسم بأهمّية فائقة في تحليل الكلام؛ بحيث تضمن وضوح إرسال الكلام وصحّة اِستقباله، أيّ تساهم في تحقيق وظيفة التّواصل اللّغويّ. وتساعد على علوّ الصّوت ووضوحه، وتمثّل المكوّن الأساسيّ للنّبر؛ بحيث تحدّد مكوّنات السّلسلة الصّوتيّة من صوامت وصوائت ومقاطع[1]، وهي أيضا المكوّن الأساسيّ في نغمة الكلام. يمكن التّمثيل للشّدّة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ النّازعات: ٣٤ - ٤١ الّتي تصوّر مشهد الطّامة الكبرى، فكانت النّغمة حادّة فيه قوّة وعنف وبروز.

يمكن لذبذبات الأصوات اللّغويّة أن تتمايز بسعتها Amplitude وشدّتها Intensity وحدّتها Tembre وأن تختلف في طبيعة نغماتها[2]، ويرتبط الإحساس بعلوّ الصّوت (هو عامل ذاتيّ) بسعة الذّبذبة (وهي عامل موضوعيّ)، وتتناسب سعة الصّوت أيضا مع شدّته، وتشكّل الشّدّة والسّعة معا إيقاع النّغمة[3]؛ أيّ قوّة الصّوت، فمميّزات الصّوت اللّغويّ إذن هي: الشّدّة والسّعة والحدّة والنّغمة.

3- النّبـــر:

يعتبر النّبر من العناصر الصّوتيّة الأساسيّة الّتي تبرز قيمة التّنغيم؛ لأنّ الأصوات مع النّبر تزداد وضوحا وعلوّا وامتدادا؛ ومن المعلوم أنّ الكلام الّذي ننطقه على مستوى الكلمة أو على مستوى الكلمات المؤلّفة ضمن الجمل؛ لا يسير على وتيرة واحدة من حيث القوّة والضّعف في النّطق، وذلك بحسب الموقع الّذي تقع فيه الأصوات أو الكلمات ضمن الكلام[4]، ويحدث هذا بسبب الضّغط على مقطع معيّن أو كلمة معيّنة؛ ممّا يستدعيه السّياق ومتطلّبات الموقف الكلاميّ؛ ليلفت انتباه

---

(1)- ينظر: مدخل إلى الصّوتيّات، عبد الفتّاح إبراهيم، دار الجنوب للنّشر، تونس، د ط، د ت، ص: 40 وما بعدها.

(2)- ينظر: مدخل إلى اللّسانيات، رضوان القضماويّ، ص: 105.

(3)- ينظر: التّشكيل الصّوتيّ في اللّغة العربيّة، سلمان حسن العانيّ، ص: 141.

(4)- ينظر: علم اللّغة العامّ، كمال محمّد بشر، ج01، ص: 21.

السّامع إلى ما يريد المتكلّم توصيله من مقاصد بواسطة الأشكال الصوتيّة والتنغيميّة [1]؛ فالضّغط على مقطع من مقاطع الكلمة، أو النّبر هو الّذي يشكّل التّنغيم، ومن غير الممكن أن ننطق جملة على وفق مستوى تنغيميّ معيّن من دون أن تظهر تميّزات صوتيّة علوّا أو قوّة، أو وضوحا في كلمات أو مقاطع أكثر من غيرها، «ولا ريب أنّ للنّبر وظيفة نطقيّة تتّصل بنظام أداء الكلام؛ أيّ بتوقيعات المتكلّم الّذي يقسّم الحدث المنطوق إلى أقسام بحسب أهميّة المقاطع الّتي تؤدّيها من ناحيّة، وبإيقاع تنفّسه من ناحيّة أخرى.»[2] ولا تحدث التّنوعات الصّوتيّة التّنغيميّة دون أن يتخلّلها ضغط ومدّ، وطول أو قصر ممّا يجعل الكلام منسجما.

4- سرعة النّطق: **Tempo**: (المكوّن الزّمنيّ)

ويعني سرعة نطق هذا الجزء أو ذاك نسبة إلى بقيّة أجزاء الكلام، وهي سمة فرديّة للنّاطق أو القارئ، يتحدّد من خلالها أسلوب النّطق في حالة وظرف محدّدين[3]، ويمكن وصف هذه السّرعة بأنّها بطيئة أو سريعة أو متوسّطة عند اِرتباطها بحالة من الحالات النّفسيّة المعيّنة[4]، كالرّضا، أو الغضب، أو التّرحيب، أو التّوبيخ، وغيرها من الأمور الّتي تعتبر ذات قيمة دلاليّة، لذلك كلّه يعتبر المكوّن الزّمنيّ عنصرا مهمّا في الأداء؛ بحيث يؤثّر على فهم المسموع، والإحساس باِنفعالات المتكلّم المصاحبة للنّصّ. يمكن التّمثيل لهذه الظّاهرة الصّوتيّة بقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ٨٤﴾ يوسف: ٨٤. يقول الزّمخشريّ في تفسير هذه الآية: «وأعرض عنهم كراهة لما جاءوا به، وأضاف الأسف، وهو أشدّ الحزن والحسرة إلى نفسه، وعندما أصابه ما أصابه قال: يا أسفي، فإن قيل: كيف تأسّف على يوسف دون أخيه ودون الثّالث، والرّزء الأحدث أشدّ على النّفس وأظهر أثرا؟ قلت: هو دليل على تمادي أسفه على يوسف، وأنّه لم يقع فائت عنده موقعه، وأنّ الرّزء فيه مع تقادم عهده كان عنده غضّا طريّا.»[5]

---

[1]- ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[2]- علم الأصوات، برتيل مالبرج، ص: 198.

[3]- يرى إبراهيم أنيس أنّ «لطول الصّوت أهميّة خاصّة في النّطق باللّغة نطقا صحيحا، فالإسراع بنطق الصّوت أو الإبطاء به؛ يترك في لهجة المتكلّم أثرا أجنبيّا عن اللّغة؛ ينفر منه أبناؤها، ويرى أنّ اِنسجام الكلام في نغماته يتطلّب طول بعض الأصوات، وقصر البعض الآخر.» - الأصوات اللّغويّة، ص: 154 وما بعدها.

[4]- ينظر: أصوات اللّغة، عبد الرّحمن أيّوب، ص: 148 وما بعدها.

[5]- الكشّاف، ج 02، ص: 469.

إنّ تفسير الزّمخشريّ يكشف المدّة الزّمنيّة الطّويلة لحزن يعقوب –عليه السّلام– على اِبنه يوسف –عليه السّلام– من خلال قوله: تمادي أسفه، ومع تقادم عهده. ويعتبر الأندلسيّ أنّ مصيبة يعقوب في يوسف كانت قاعدة مصيباته، وما ترتّب عليها من أسف على يوسف حتى اِبيّضت عيناه، ويرى أنّ علّتيْ الاِبيضاض هما: الحزن والبكاء المتوالي[1]. نستنتج أنّ بياض العين لم يكن بعد المصيبة مباشرة، وإنّما نتج بعد زمن طويل، وبكاء مستمرّ، أمّا قوله تعالى: «فَهُوَ كَظِيمٌ» فتعني المبالغة في الكظم، وهو«الظّاهر اللاّئق بحال يعقوب، أيّ شديد الكظم،»[2] فالملاحظ من مدّ في الكلمات: وَتَوَلَّىٰ - وَقَالَ - يَٰٓأَسَفَىٰ - عَيۡنَاهُ - كَظِيمٌ للدّلالة على الحالة النّفسيّة الأليمة الّتي اِستمرّت مع سيّدنا يعقوب زمنا طويلا؛ لذلك تُقْرَأُ بشكل بطيء غير سريع.

ويجتمع طول الزّمن مع طول الحالة النّفسيّة لمترقّب الحدث، وما يكابده من طول الحزن وألم الفراق انتظارا للفرج؛ كما حدث مع نبيّ الله يعقوب –عليه السّلام– منتظرا البشرى بعودة الابن الغائب سنين طويلة، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ ٩٦﴾ يوسف: ٩٦، وممّا زاد في استطالة الوقت؛ توظيف «أنْ بعد لما، وذلك لمناسبة حالة الانتظار والتّرقّب الّتي يمرّ بها النّبيّ يعقوب، فقد كان شديد اللّهفة على رؤية ولده، ومن المعلوم أنّ الشّخص في مثل هذه الحال؛ تستطيل كلّ لحظة تمرّ به، ففصل بين لما ومجيء البشير، وباعد بينهما؛ إشارة إلى الشّعور باستطالة الوقت وطول الانتظار.»[3] لقد أفادت «أن» تحديدا زمنيّا[4]؛ ناسب حالة البشرى الّتي يحملها قميص يوسف، وما يَتْبَعُهُ من حدث مفاجئ –رجوع البصر–، لهذا فالقراءة يجب أن تكون بطيئة فيها مدّ لأصوات المدود الموجودة في الآية؛ حتّى يعيش القارئ والمستمع حالة التّرقّب، وما بعده من أحداث مفاجئة كما عاشها سيّدنا يعقوب –عليه السّلام–.

---

(1)– ينظر: تفسير البحر المحيط، ج 05، ص:333.

(2)– المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(3)– التّعبير القرآنيّ، د. فاضل صاح السّامرّائيّ، دار عمّار، عمّان، ط4، 1427هـ – 2006م، ص: 106.

(4)– يرى أبو حيّان الأندلسيّ أنّ «أَنْ» في مثل هذه المواضع تكون زائدة زيادة مطردة. ينظر: تفسير البحر المحيط، مرجع سابق، ج 05، ص: 345. وقال الرّافعيّ: «تصوير الفصل الّذي بين قيام البشير بقميص يوسف، وبين مجيئه لبعد بين يوسف وأبيه –عليهما السّلام –، وأنّ ذلك كأنّه كان منتظرا بقلق واضطراب تؤكّدهما، وتصف الطّرب لمقدمه واستقراره؛ غنّة هذه النّون في الكلمة الفاصلة؛ وهي: أن في قوله: أَنْ جاء.» – إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 263.

5- الحدّة: Tembre

هي مكوّن من مكوّنات التّنغيم؛ مهمّته التّعبير عن الجانب الشّعوريّ الإنفعاليّ فيه[1]، وترتبط الحدّة بهذا الجانب مع جميع تلوينات الكلام كالغضب، والاِحتكار، والحزن، والفرح وما شابه ذلك؛ لنلاحظ كيف تحتدّ أصوات النّادمين يوم الحساب العسير، ويتحسّرون على ما ارتكبوا في الدّنيا من معاص؛ بحيث تصدر نغمات كلامهم متقطّعة متهدّجة من الحزن والخوف، ومن الغضب أيضا لأنّهم أطاعوا غيرهم الّذين ضلّلوهم عن الطّريق، وتركوا طريق الحقّ والنّور[2]، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾﴾ الأحزاب: ٦٧ - ٦٨. ولا تكتسب الحدّة قدرتها التّعبيريّة القصوى إلاّ في الكلام المنطوق، بفضل تشكّلها التّنغيميّ فيه[3]، إذ إنّ تغيّر النّغمة يمكن أن يكسب العبارة محتوى دلاليّا آخر تماما؛ فعبارة «شكرا لك» يمكن أن تأخذ دلالة الشّكر، أو دلالة مناقضة لذلك تماما، وهي دلالة السّخريّة وفقا لشكلها التّنغيميّ.

لا تنطق أصوات اللّغة كلّها على درجة واحدة من الحدّة أثناء الكلام، وإنّما تكون حسب موقف النّاطق؛ فيتطلّب منه -أحيانا- أن يعبّر عن اِنفعالاته بصوت قويّ، ونغمة قويّة ليؤثّر في المتلقّي، وليحقّق لفت الاِنتباه إليه[4]. نستنتج من ذلك أنّ لحدّة الصّوت جانبا تواصليّا بين المرسل والمرسل إليه، وتعمل الحدّة على تحديد نوع النّغمة سواء في مستوى الكلمة أو في مستوى الجملة[5]، كقولنا: هذا كتابك؟ بصيغة الاستفهام، فيها نزول في الحدّة، ثمّ صعود، أمّا قولنا: أهذا كتابك؟ فيها صعود في الحدّة.

---

(1)- ينظر: مدخل إلى اللّسانيّات، رضوان القضماويّ، ص: 105.

(2)- ينظر: جامع البيان، الطّبريّ، ج 06، ص: 203.

(3)- ينظر: التّشكيل التّنغيميّ، طالب هايل، ص: 17.

(4)- ينظر: التّنغيم: صوت ودلالة، سعاد بسناسيّ، ص: 37.

(5)- ينظر: الأسلوب والأداء في القراءات القرآنيّة، خير الدّين سيب، ص: 160.

6- الوقف: Pause

يرتبط الوقف بالتّنغيم لأنّه يعدّ عنصرا صوتيّا يؤدّي ما تؤدّيه النّغمة في الكلام، ويلاحظ ذلك من خلال معرفة أشكال التّنغيم في الوقف، وهي[1]:

الشّكل الأوّل: نغمة هابطة، وذلك عندما يكون الوقف على تمام المعنى.

الشّكل الثّاني: نغمة متوسّطة، وذلك عندما يكون الوقف قبل تمام المعنى.

الشّكل الثّالث: نغمة صاعدة، وذلك عندما يكون الوقف نهائيّا.

نستخلص من ذلك أنّ أشكال الوقف تماثل درجات النّغمة، وذلك يؤكّد لنا أنّ كلاّ من التّنغيم والوقف عنصران صوتيّان يفضيان إلى دلالة واحدة، ويؤدّيان الوظيفة نفسها في الكلام. ويمكن أن نمثّل لذلك بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠﴾ القيامة: ٧ - ١٠؛ فالوقف على البصر، والقمر أوّلا، والقمر ثانيا وقف على معنى لم يتمّ[2]، فتظلّ نغمة الكلام مسطّحة دون صعود أو هبوط. أمّا الوقف عند المفرّ فالنّغمة فيه هابطة[3]؛ لأنّه وقف عند تمام معنى الِاستفهام، وقد مثّل لذلك إبراهيم أنيس ببيت لحافظ إبراهيم[4]:

قَدْ جَاءَ يَوْمُهُمْ هُنَا، وَأَمَامَهُمْ بَعْدَ النُّشُورِ هُنَاكَ يَوْمٌ ثَانِي.

قال: «فالوقف على آخر الشّطر الأوّل بالقدر الّذي تتطلّبه موسيقى الشّعر أمر ضروريّ، وهو ليس ذلك الوقف الّذي يهبط عنده الصّوت، وإنّما هو وقف يصعد معه الصّوت ليشعر السّامع بأنّ للكلام بقيّة، وعلى هذا يكون من العيب في الإنشاد أن نصل كلمة -أمامهم- بالشّطر الثّاني.»[5]

إنّ اِرتباط الوقف بالمعنى يندرج ضمن العلاقة بين التّنغيم والجملة، ومعرفة أنواع الوقف هو الّذي يحدّد نمط الجملة، ومن ثمّ تنغيمها ومعناها.

---

(1)- ينظر: التّشكيل الصّوتيّ في اللّغة العربيّة، سلمان العانيّ، ص: 140.

(2)- ينظر: الوقف في العربيّة على ضوء اللّسانيّات، عبد البديع النّيربانيّ، دار الغوثانيّ للدّراسات القرآنيّة، دمشق، ط1، 1428هـ - 2008م، ص: 35.

(3)- ينظر: اللّغة العربيّة مبناها ومعناها، تمّام حسّان، ص: 230.

(4)- ديوان حافظ إبراهيم، تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزّين، وإبراهيم الأبياريّ، دار الكتب المصريّة، مصر، ط2، 1939م، ج01، ص: 47.

(5)- موسيقى الشّعر، ص: 173 - 174.

المبحث الخامس: النّغمات ودلالتها في الخطاب القرآنيّ

نغمة الصّوت هي إحدى صفاته، وكثيرا ما تكون عاملا مهمّا في أداء المعنى، وتتوقّف النّغمة على عدد ذبذبات الأوتار الصّوتيّة في الثّانية، وهذا العدد يعتمد على درجة توتّر الأوتار الصّوتيّة، وللنّغمة مستويات، وكلّ نوع منها يؤدّي دلالة ومعنى معيّنا. تساعد كلّ نغمة على معرفة نوع الجملة إن كانت اِستفهاميّة أو تقريريّة أو للتّعجب أو للاِزدراء والسّخرية، وكلّ ذلك يتّضح من خلال كيفيّة قراءة الجملة، ذلك أنّ دلالة النّغمات تظهر في الجمل المنطوقة. نمثّل لذلك ببيت للشّاعر الفرزدق[1]:

كَمْ خَالَةٍ لَكَ يَا جَرِيرُ وَ عَمَّةٍ فَدْعَاءَ قَدْ حَلَبَتْ عَلَيَّ عِشَارِي[2]

يمكن قراءة البيت بنغمة الاِستفهام، كما يمكن قراءته بنغمة الإخبار، ذلك أنّ «كم» تكون اِستفهاميّة، وتكون خبريّة[3]. يقول سيبويه: «اِعلم أنّ ناسا من العرب يُعْمِلُونها فيما بعدها في الخبر، كما يُعْمِلُونها في الاِستفهام؛ فينصبون بها كأنّها اِسم منوّن،»[4] وهذا يعني أنّه إذا قرأنا «خالةٍ» بعد «كم» بالجرّ[5]؛ فإنّ البيت يحمل نغمة الإخبار، والدّليل «أنّ العرب تقول: كم رجلٍ أفضل منك؛ تجعله خبرا.»[6] أمّا إذا قرأنا كلمة «خالةً» بالنّصب[7]؛ فإنّ البيت يُقْرَأُ بنغمة الاِستفهام. قال ابن هشام: «كم عمّة لك ياجرير... بالخفض على قياس تمييز الخبريّة، أو على تقديرها استفهاميّة استفهام تهكّم، أيّ: أخبرني بعدد عمّاتك وخالاتك اللاّتي كنّ يخدمنني فقد نسيته؛ وعليها فـ«كم» مبتدأ؛ خبره «قد حلبت...»[8] إنّ الفرق بين دلالة الاِستفهام والخبر؛ تتّضح في النّغمة المرتفعة في الاِستفهام والمستوية في الإخبار.

ويرى سلمان العانيّ أنّ الفرق الرّئيسيّ بين هاتين الأداتين يوجد في المعنى الّذي هو الفرق بين الاِستفهام للعلم بما يجهله المتكلّم، ويعلمه السّامع أو المخاطب، والإخبار الّذي يعلمه المتكلّم علم اليقين، ويجهله السّامع أو المخاطب، ويوجد كذلك في المبنى، وهذا ماثل في الحركة الإعرابيّة، وفي

---

[1]- ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه وقدّم له: عليّ فاعور، دار الكتب العلميّة، بيروت، د ط، د ت، ص: 312.

[2]- الفدعاء: الّتي اِعوجّت مفاصلها. حلبت عليّ عشاري: أيّ أنّها كانت راعية لماشيته. - ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[3]- ينظر: شرح قطر النّدى وبل الصّدى، اِبن هشام، ص: 397.

[4]- الكتاب، ج 02، ص: 161.

[5]- ينظر: شرح قطر النّدى وبل الصّدى، اِبن هشام، ص: 397 وما بعدها.

[6]- الكتاب، سيبويه، ج 02، ص: 161.

[7]- ينظر: شرح قطر النّدى وبل الصّدى، اِبن هشام، ص: 397.

[8]- مغني اللّبيب، ج 01، ص: 202.

النّغمة الصّوتيّة الّتي هي في الإخبار نغمة صوتيّة مستوية، بينما هي ذات نغمة صوتيّة صاعدة في الاِستفهام.[1] يفهم من رأي سلمان العانيّ أنّ نغمات الصّوت تزيل اللّبس عن معنى الجملة، وبها يُدرك الفرق بين المعاني، ويأتي هذا أيضا بطرق الأداء أثناء النّطق.

إنّ تغيير نغمة الصّوت في كلّ مرّة، «يفهم من كلّ نوع منها معنى معيّنا بحسب علوّ الصّوت وانخفاضه، ولكلّ حالة نغمة معيّنة، وأداء يختلف عن غيره،»[2] فمثلا نجد قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ النّجم: ٥٩ - ٦١. ويتّضح -لنا- ذلك من خلال تفسير الآيات، فقوله تعالى: «أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ» قيل: من القرآن، ويحتمل أن يقال هذا إشارة إلى حديث ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧﴾ النّجم: ٥٧؛ فإنّهم يتعجّبون من حشر الأجساد، وجمع العظام الفساد[3]. «وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ»؛ أيّ تضحكون من هذا الحديث؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ۝٤٧﴾ الزّخرف: ٤٧ في حقّ موسى -عليه السّلام- وكان الكفّار أيضا يضحكون من حديث النّبيّ -صلى الله عليه وسلّم- ومن القرآن الكريم، وقد يكون إنكارا على مطلق الضّحك مع سماع حديث القيامة؛ أيّ: أتضحكون وقد سمعتم أنّ القيامة قريب، فكان حقّا لكم أن تبكوا منه، وتتركوا الضّحك وتأتوا بضدّه[4].

«وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ»؛ أيّ: غافلون، وذكر بِاسم الفاعل لأنّ الغفلة دائمة، وأمّا الضّحك والعجب فهما أمران يتجدّدان ويعدمان[5]. نلاحظ أنّ الآيات جاءت جملا اِستفهاميّة ليس الغرض منها الإجابة بنعم أو لا، وإنّما هي تنبيه للكافرين عمّا بدر منهم من سلوكات؛ لذا تُقْرَأُ بنغمة منخفضة، بينما قوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۝٦٢﴾ النّجم: ٦٢؛ فإنّها جملة أمريّة تحمل معنى الاِلتفات؛ أيّ: كأنّه يأمر المؤمنين بالسّجود شكرا على الهداية، وأن يشتغلوا بالعبادة[6]، وهو أمر صارم بألاّ يعبدوا غير الله تعالى، والسّجود يناسب العبادة؛ ولهذا تُؤَدّى الآية بنغمة فوق عالية.

---

[1]- ينظر: التّشكيل الصّوتيّ في اللّغة العربيّة، ص: 141 وما بعدها.

[2]- علم الأصوات، كمال محمّد بشر، ص: 599.

[3]- ينظر: مفاتيح الغيب، الرّازيّ، ج 15، ص: 431 .

[4]- ينظر: تفسير التّحرير والتّنوير، اِبن عاشور، ج 27، ص: 160.

[5]- ينظر: تفسير القرآن العظيم، اِبن كثير، ج 04، ص: 261.

[6]- ينظر : الكشّاف، الزّمخشريّ، ج 04، ص: 430.

وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ آل عمران: ١٤، فيه تعبير عن المشتهيات الّتي أتى على ذكرها مجموعة على سبيل الإجمال؛ ثمّ أخذ في تفسيرها شهوة شهوة بدءا بالأهمّ فالأهمّ، بدأ بالنّساء لأنّهنّ حبائل الشّيطان، ثمّ البنين لأنّهم ثمرات النّساء وفروع عنهنّ، وقُدّموا على الأموال لأنّ حبّ الإنسان ولده أكثر من حبّه لماله، ثمّ الأموال من ذهب وفضّة وخيل مسوّمة والأنعام والحرث، ليختم الآيات بالإشارة إلى الأشياء السّابقة أنّها أمور دنيويّة حقيرة فانية، ولله المرجع إشارة إلى نعيم الآخرة الّذي لا يفنى[1]؛ فإنّ الأداء النّغميّ تكون نغمته مستوية لأنّ مقاطعها الصّوتيّة جاءت متّحدة الدّرجات في اِنخفاضها[2]، فيكون أداؤها بنغمة عادية من غير اِنفعال، ويستمرّ الكلام على أداء واحد من بدايته إلى نهايته.

– أنواع النّغمات

تمتلك اللّغات الإنسانيّة –بوجه عامّ– أنواعا من النّغمات؛ تستخدمها في كلامها المنطوق، وهي دائما في «تغيّر من أداء إلى آخر، ومن موقف إلى آخر، وللنّغمات مدى من حيث الاِرتفاع، والاِنخفاض تحسّه الأذن المدرّبة؛ فتحصل بذلك على تنغيم مرتفع أو منخفض أو مستو.»[3] وأنواع النّغمات عديدة إذا ما دُرِسَتْ في إطار شكل النّغمة صعوداً أو هبوطاً أو اِستواءً، والمدى الفاصل بين أعلى النّغمات وأدناها، وما ينجم عنها من لحن، وما يحصل عنها من ميزان[4]، وجعلها تمّام حسّان بذلك ستة أنواع[5]، ولكن سنحاول في هذا البحث أن نقتصر على أهمّ الأنواع، وهي:

1– ينظر: تفسير البحر المحيط، الأندلسيّ، ج 04، ص: 414 – 415.

2– ينظر: علم الأصوات، كمال محمّد بشر، ص: 530.

3– المرجع نفسه، ص: 553.

4– ينظر: في علم اللّغة، غازي مختار طليمات، ص: 155.

5– ينظر تفصيل أنواع النّغمات السّتّة في كتاب: مناهج البحث في اللّغة، ص: 198 وما بعدها.

1- النّغمة الهابطة[1]:

سمّيت كذلك لاِتّصافها بالهبوط في نهايتها على الرّغم ممّا قد تضمّه من تلوينات جزئيّة داخليّة[2]؛ بحيث تكون مع «درجة عالية في مقطع أو أكثر تليها درجة أكثر اِنخفاضا، وقد تتألّف من نغمة متوسّطة الدّرجة تليها نغمة منخفضة، كما قد تتركّب من نغمة عالية الدّرجة تليها نغمة متوسّطة.»[3] إنّ ما يتخلّل الدّرجة الهابطة من درجات متنوّعة، يعتبره كمال بشر تلوينات جزئيّة داخليّة تصاحب كلّ نوع من أنواع النّغمات[4]؛ فتظهر بذلك النّغمات الصّاعدة والهابطة معا في منطوق واحد.

تتجلّى النّغمة الهابطة في الجمل التّقريريّة[5]؛ المتمثّلة في الإثبات والنّفي والشّرط والدّعاء، وهي وهي جمل تامّة ذات معنى كامل غير معلّق؛ كالإثبات في قوله تعالى:﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ القدر:١، الوقوف بنغمة هابطة على كلمة «ٱلۡقَدۡرِ» لأنّ الجملة مثبتة. وفي قوله تعالى:﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾الضّحى: ٣؛ الوقف يكون على كلمة «قَلَىٰ» لأنّ الجملة منفيّة.

وفي قوله تعالى:﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ ٢٨٤﴾ البقرة: ٢٨٤؛ الوقف يكون على كلمة «ٱللَّهُ» بنغمة هابطة؛ لأنّه في سياق جملة جواب الشّرط. وفي قوله تعالى:﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ٢٨﴾ نوح: ٢٨؛ الوقف متعدّد يكون على الكلمات «لِي - وَلِوَٰلِدَيَّ - مُؤۡمِنٗا - وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ - تَبَارَۢا»؛ لأنّ الآيات تحمل دعاء؛ فكلّ وقفة تنتهي بنغمة هابطة. وفي قوله تعالى:﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ٢٩﴾الفتح: ٢٩. جملة تقريريّة تامّة المعنى، تنتهي بنغمة هابطة.

---

[1]- يرمز للنّغمة الهابطة بالخطّ المائل ناحية اليسار (\)، ويوضع فوق المقطع ذي النّغمة الهابطة. ينظر: نفسه، ص: 105.

[2]- ينظر: علم الأصوات، كمال محمّد بشر، ص: 534.

[3]- الدّراسات الصّوتيّة، حسام البهنساويّ، ص: 165.

[4]- ينظر: علم الأصوات، ص: 534.

[5]- ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

كما نجدها -أيضا- في الجمل الإستفهاميّة الّتي تحمل أداة اِستفهام، كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١﴾ النّبأ: ١، وقوله تعالى:﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣﴾ النّازعات: ٤٢ - ٤٣؛ وتكون النّغمات الهابطة على « يَتَسَآءَلُونَ - مُرۡسَىٰهَا - ذِكۡرَىٰهَآ»؛ فالآيات تحمل معنى الاستفهام أكثر من طلب الإخبار؛ فيكون بذلك الوقف بنغمة هابطة.كقوله تعالى أيضا: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ٣٧﴾ آل عمران: ٣٧. وهي من الجمل الاِستفهاميّة الّتي تحتاج إلى جواب؛ بدليل تمام الآية الكريمة:﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٣٧﴾ آل عمران: ٣٧. وتنتهي الجمل الطّلبيّة -أيضا- بنغمة هابطة، «وهي الجمل الّتي تحتوي على فعل أمر.»[1] من ذلك قوله تعالى: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾ المدثّر: ٢.

2- النّغمة الصّاعدة[2]:

سميّت كذلك لصعود في نهايتها؛ بالرّغم من تنوّع أمثلتها الجزئيّة الدّاخليّة، فهي نغمة «تتطلّب وجود درجة منخفضة مع مقطع أو أكثر، تليها درجة أكثر علوّا، وقد تتألّف من نغمة منخفضة تليها نغمة متوسّطة، وقد تتألّف من نغمة متوسّطة تليها نغمة عالية.»[3] إنّ هذا التّنويع في النّغمات، والتّلوين الموسيقيّ «يعطي الكلام روحا، ويكسبه معنى، ويدلّ على الحالة النّفسيّة للمتكلّم،»[4] وهو بذلك عامل مهمّ في توضيح المعنى، وتمييز أنماط الكلام.

تتمثّل النّغمة الصّاعدة في الاستفهام المصدّر بإحدى الأداتين «هل والهمزة»؛ فالاستفهام بـ«هل» متعدّد المعاني والدّلالات[5]؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾ الإنسان: ١؛ أتت بمعنى التّقرير والإثبات، وبمعنى «ما» كما في قوله تعالى:﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ ٢١٠﴾ البقرة: ٢١٠، وبمعنى «قد» في قوله

[1]- شرح قطر النّدى وبل الصّدى، اِبن هشام الأنصاريّ، ص: 42.

[2]- يرمز للنّغمة الصّاعدة بالخطّ المائل ناحية اليمين (/)، ويوضع فوق المقطع ذي النّغمة الصّاعدة. - ينظر: أصوات اللّغة، عبد الرّحمن أيّوب، ص: 155 وما بعدها.

[3]- علم الأصوات، حسام البهنساويّ، ص: 165.

[4]- ينظر: الاستفهام في البلاغة العربيّة – دراسة في البنيّة والدّلالة- د. عبد الرّحيم محمّد الهبيل، مجلّة البحوث والدّراسات التّربويّة الفلسطينيّة، العدد: 19، يونيو 2012م، ص: 20 وما بعدها.

[5]- علم الأصوات، كمال محمّد بشر، ص: 534.

تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾﴾ النّازعات: ١٥، وبمعنى «ألّا» كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾﴾ الكهف: ١٠٣، وبمعنى الأمر في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ المائدة: ٩١، وبمعنى السّؤال في قوله تعالى: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ ق: ٣٠، وبمعنى التّمنّي في قوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾ الفجر: ٥، وبمعنى أدعوك في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ النّازعات: ١٨؛ فالوقوف على آخر كلّ آية من هذه الآيات يكون بنغمة صاعدة قويّة مترصّدة الإجابة.

مثلما تنوّعت النّغمة الصّاعدة في دلالاتها مع الأداة «هل»؛ كذلك تتنوّع مع الاستفهام بالهمزة[1]، فتكون بمعنى الإثبات[2]؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ الشّرح: ١، وبمعنى الإنكار التّوبيخيّ في قوله تعالى: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ الصّافات: ٨٦، وبمعنى التّوبيخ في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ الأنبياء: ٦٢، وبمعنى التّهكّم في قوله تعالى: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴿٨٧﴾﴾ هود: ٨٧، وبمعنى التّعجّب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴿٤٥﴾﴾ الفرقان: ٤٥، وبمعنى الأمر في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ﴿٢٠﴾﴾ آل عمران: ٢٠، وبمعنى الاستبطاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴿١٦﴾﴾ الحديد: ١٦، وبمعنى الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴿٩﴾﴾ الزّمر: ٩؛ فالوقوف على نهايات الآيات يظلّ متصاعدا في سياق نغميّ ينتظر الإجابات؛ «ليظلّ المعنى مفتوحا وقابلا لممارسة فعل التّلقّي، وما يحمله من شحنات دلاليّة وسياقيّة.»[3]

---

[1]- ينظر: مغني اللّبيب، ابن هشام، ج 01، ص: 21 - 28.

[2]- ينظر: شواهد التّوضيح والتّصحيح لمشكلات الجامع الصّحيح، جمال الدّين بن مالك الأندلسيّ، تحقيق: د. طه محسن، مكتبة ابن تيميّة، بغداد، د ب، ط2، 1413هـ، ص: 146.

[3]- جماليّات الخروج والانقطاع، د. كمال أبو ديب، مجلّة دراسات لسانيّة وسيميائيّة، الدّار البيضاء، العدد: 22، 1999م، ص: 68.

نلاحظ أنّ النّغمة الصّاعدة -هي الأخرى- تشتمل على تلوينات موسيقيّة داخليّة؛ تنتهي في آخرها بنغمة صاعدة، وكذلك من أمثلتها الجمل الإستفهاميّة الّتي تستوجب الإجابة بلا أو نعم، أو بلى؛ بحيث تفيد التّثبيت والتّقرير[1]؛ كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ الأعراف: ٤٤. وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي ٢٦٠﴾ البقرة: ٢٦٠. وعن النّعمان بن بشير -رضي الله عنه- أنّ أباه أتى به رسول الله -صلى الله عليه وسلّم- فقال: «**إنّي نَحَلْتُ اِبني هذا غلاما كان لي**، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلّم- : **أَكُلَّ ولدك نحلته مثل هذا؟** فقال: **لا**، فقال رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- **اِتّقوا الله وإعدلوا في أولادكم**.»[2] متّفق عليه.

كما تظهر في الجمل المعلّقة الّتي تتمثّل في الكلام غير التّام لِارتباطه بما بعده، وتتجلّى خاصّة في الجزء الأوّل من الجمل الشّرطيّة[3]، ويفصل بين الجزء الأوّل، أيّ جملة الشّرط، والجزء الثّاني، أيّ جملة جواب الشّرط بتوقّف ذي نغمة صاعدة، يستدلّ عليه في الكتابة بوضع الفاصلة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ النّحل: ١٨، وقوله جلّ وعلا: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢﴾ البقرة: ٢٧٢.

3- النّغمة المستوية (العادية):

هي تلك النّغمة الّتي تقع بين بين؛ أيّ بين النّغمة الهابطة والنّغمة الصّاعدة لأنّ المعنى لم يتمّ بعد، وهي عبارة عن عدد المقاطع الصّوتيّة الّتي تكون درجاتها متّحدة، سواء أكانت منخفضة أم عالية أم متوسّطة، وهذه «النّغمة لا تملك مقوّمات الأداء التّصاعديّ الموجود في سياق الاستفهام، كما أنّها لا تملك الحسّ التّقريريّ الّذي تسمح به الجمل التّقريريّة؛ لكنّها تتأرجح بين السّياقين إلى أن يتمّ تغليب أحدهما، وإنهاء هذا التّأرجح السّياقيّ.»[4] يمكن التّمثيل لهذا التّأرجح السّياقيّ بقوله

(1)- ينظر: شواهد التّوضيح والتّصحيح لمشكلات الجامع الصّحيح، ابن مالك الأندلسيّ، ص: 146.

(2)- نحلت: أعطيت.- رياض الصّالحين من كلام سيّد المرسلين، الإمام أبو زكريا يحي بن شرف النّوويّ، علّق عليه: رضوان محمّد رضوان، طبعة تحت إشراف لجنة من العلماء، د ط، د ت، ص: 617 – 619.

(3)- ينظر: علم الأصوات، كمال محمّد بشر، ص: 537.

(4)- جماليّات الإيقاع في اللّغة العربيّة، د. أسامة عبد العزيز جاب الله، جامعة كفر الشّيخ، مقال منشور على شبكة الأنترنيت: يوم: 01 – 11 – 2010م، على السّاعة: 02:00 صباحا.

www.moe.edu.qa/arabic/magazines/tarbawya/art2.shtml.

تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ الزّلزلة: ١ – ٥، يكون الوقف على فاصلة جواب الشّرط بنغمة مسطّحة؛ لأنّ المعنى لم يتمّ، ولم يستقرّ الجواب بالوقوف أيضا على كلمة «زِلْزَالَهَا»، ثمّ كلمة «أَثْقَالَهَا»، أمّا الوقوف على كلمة «لَهَا»؛ فهو وقوف على نغمة هابطة لأنّها استفهام بغير هل والهمزة؛ بل استفهام بالأداة «ما».

وقد تأتي النّغمة الهابطة على ثلاث صور هي: نغمة مستوية منخفضة (سفلى)، نغمة مستوية متوسّطة، نغمة مستوية مرتفعة (عليا)[1]؛ تقع النّغمة المستوية «بعد سلسلة من الأصوات المتعاقبة؛ الّتي تنطق في نفس واحد على نحو ما تنطق آيات السّورة عند الوصل أيّ متابعة التّلاوة،»[2] من ذلك قوله تعالى:﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢﴾ الإنسان: ٢. إنّ قوله: «إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ» جملة تقريريّة أولى، وقوله: «نَّبْتَلِيهِ» جملة تقريرية ثانية، وقوله: «فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا» جملة تقريريّة ثالثة؛ فيقرأ هذا القول القرآنيّ كلّه بانسجام صوتيّ واحد، وله وقع موسيقيّ واحد، وتكون بذلك نغمته هابطة مستوية.

خلاصة القول فيما يخصّ النّغمات أنّها ثلاثة أنواع بين صاعدة وهابطة ومستوية[3]؛ ويتخلّل كلّ نوع في داخله تنوّع في النّغمات؛ لتقف عند تمام المعنى على نوع واحد من هذه الثّلاثة؛ وذلك حسب أغراض المتكلّم، أيّ: أنّ المتكلّم أو القارئ هو الّذي لديه القدرة على التّنويع في النّغمات داخل التّركيب؛ ثمّ الوقوف عل نغمة معيّنة؛ مراعيا في كلّ ذلك ما يحمله الخطاب.

---

[1]– يرمز للنّغمة المستوية بخطّ أفقيّ (–) ويوضع أعلى السّطر أو أسفله أو وسطه؛ بحسب كون النّغمة مرتفعة أو منخفضة أو متوسّطة. – ينظر: أصوات اللّغة، عبد الرّحمن أيّوب، مرجع سابق، ص: 105.

[2]– ظواهر قرآنيّة في ضوء الدّراسات اللّغويّة بين القدماء والمحدثين، د. البدراويّ زهران، دار المعارف للنّشر، القاهرة، ط2، 1993م، ص: 44.

[3]– الصّاعدة: تتمثّل في الأمر، والتّرغيب، والتعجّب، والاستفهام، والإثارة، والتّضرّع، والإهانة، والنّهيّ. والمستوية: تتمثّل في التّقرير، والخبريّة، والتّذكير، والنّصح والإرشاد، والنّداء، والانتباه. والهابطة: تتمثّل في التّمنّي، والتّهكّم، والأسف، والحزن. – ينظر التّفصيل في كتاب: مناهج البحث، تمّام حسّان، ص: 199 – 203، وعلم الأصوات، محمّد كمال بشر، ص: 537، ومبادئ اللّسانيّات، أحمد قدور، ص: 180.

وظائف التّنغيم

يرى علماء الأصوات أنّ التّنغيم من العوامل الّتي تحقّق التّواصل بين الأفراد، وأنّ بعض المعاني لا تنقل إلاّ بواسطته حتّى يتمكّن المتكلّم من إفهام السّامع، لأجل تحقيق هذا التّواصل والإفهام؛ يُحْكَمُ على التّنغيم بأنّه يحقّق وظائف عديدة سواء أثناء أداء الكلام أو القراءة القرآنيّة أو إلقاء الخطب.

1- وظيفة التّنغيم الصّوتيّة[1]:

إنّ وظيفة التّنغيم الصّوتيّة تتجسّد فيما لَهُ من سمة صوتيّة موسيقيّة؛ «تشبه التّرجيع اللّحنيّ، فمن المعلوم أنّ التّنغيم يقوم على التّنويعات الموسيقيّة، ولا يبعد هنا من الأثر الموسيقيّ لهذه التّنويعات ممّا يملك على السّامع أسباب التّواصل والارتياح. والتّنغيم بهذا الدّور الصّوتيّ يؤدّي وظيفة هامّة تتمثّل في انسجام الأصوات؛ حيث تكتمل فيه النّغمات، وتتآزر مؤدّية المعاني والمقاصد.»[2] وما يحصل في الكلام من تغيّر في عمليّة الصّعود والانخفاض؛ هو الّذي ينشئ الوظيفة الصّوتيّة أيّ هو التّغيّر في ذبذبة الوترين الصّوتيين؛ «نتيجة هذا الارتفاع والانخفاض في الصّوت حيث تحدث هذه الحركات الموسيقيّة نغمة موسيقيّة، وعليه فالتّنغيم يدلّ على العنصر الموسيقيّ في الكلام.»[3] وقد عمل الأسلاف من الصّحابة -رضي الله عنهم-، ومن تبعهم من القرّاء المجيدين على تطبيق منزلة الصّوت عند قراءة القرآن الكريم؛ ففي كتاب التّبيان توضيح لآداب قراءة القرآن؛ يقول صاحبه: «ومن الآداب إذا قرأ نحو: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ٣٠﴾ التّوبة: ٣٠، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ٦٤﴾ المائدة: ٦٤، أن يخفض بها صوته.»[4]

---

[1]- هناك من يطلق عليها مصطلح الوظيفة الأدائيّة، وتعني: الوظيفة الّتي بها يتمّ نطق الجملة في اللّغة حسب الأداء فيها، وحسب ما يقتضيه العرف عند أهلها من حيث الالتزام بطرق أدائها؛ لأنّه لو لم يلتزم بها يصبح نطقه وكلامه غير واضحين وغريبين عند أهلها. - ينظر: الإعراب سمة العربيّة الفصحى، دراسة تتناول وظيفته، وتقويما لمنابع بيانه، وعلاقته بالأداء، د. محمّد إبراهيم البنّا، دار الإصلاح للطّبع والنّشر والتّوزيع، مصر، د ط، د ت، ص: 65.

[2]- التّنغيم في التّراث العربيّ، عليان بن محمّد الحازميّ، ص: 283.

[3]- التّنغيم في إطار النّظام النّحويّ، د. أحمد أبو اليزيد عليّ الغريب، مجلّة جامعة أمّ القرى للبحوث العلميّة المحكّمة، العدد: 14، السّنة: 10، 1417هـ – 1996م، ص: 287.

[4]- التّبيان في آداب حملة القرآن، النّوويّ، ص: 116.

2- وظيفة التّنغيم الانفعاليّة[1]:

يرتبط تمييز معظم معاني التّنغيم في اللّغات حسب الحالة النّفسيّة للمتكلّم، فالإنسان «لا يتكلّم ليصوغ أفكارا فحسب؛ بل يتكلّم أيضا ليؤثّر في أمثاله وليعبّر عن حساسيّته؛»[2] فاللّغة ليست مجرّد كلمات تكتب، أو عبارات تؤدّي وظائف لكي تساعد الإنسان على التّواصل مع الآخرين؛ بل إنّها تعكس ما بداخله، كذلك لا يمكن فهم مدلول أيّة لغة -غالبا- إن لم يكن المتلقّي على دراية بعاداتها النطقيّة وطرقها التّعبيريّة، «ومن ثمّ لا ينبغي أن ندخل في اعتبارنا فقط الصّورة الّتي تصاغ عليها الأفكار؛ بل أيضا العلاقات الّتي توجد بين هذه الأفكار وبين حساسيّة المتكلّم، وبعبارة أخرى يجب أن نميّز في كلّ لغة بين ما يمدّنا به تحليل التّصوّرات، وبين ما يضيف إليه المتكلّم من عنده كبيان العنصر المنطقيّ والعنصر الانفعاليّ.»[3] إذن يقصد بالوظيفة الانفعاليّة التّعبير عن الأحاسيس والانفعالات الّتي تختلج نفسيّة المتكلّم؛ وما ينتابه من مشاعر، والأمر -هنا- له علاقة بالمتكلّم وحالته النّفسيّة، لذلك تتباين نغماته وتتفاوت، «فقد تكون النّغمة نغمة تفاؤل؛ فيسمّيها بعضهم النّغمة الوجدانيّة، وقد تكون نغمة تشكّك أو ضجر أو يأس أو استسلام أو غير ذلك ممّا له علاقة بسيكولوجيّة المتكلّم.»[4]

يمكن أن نمثّل للوظيفة الانفعاليّة للتّنغيم بقوله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ البقرة: ٢٤٦.

---

[1]- يصطلح عليها عند بعض العلماء بالوظيفة الشّخصيّة: والمقصود بها أنّ التّنغيم يسهم في إيضاح الحالة النّفسيّة للمتكلّم؛ فكلام الإنسان ونطقه يختلف وهو في حالة الغضب عنه في حالة الفرح، ومثال ذلك؛ «تحيّة السّلام عليكم؛ لها تنغيم يختلف عن التّنغيم في حالة الغضب.» أو عندما يكون المتكلّم متهكّما أو مسرورا؛ كما يظهر هذا الفونيم الخلفيّة الاجتماعيّة الّتي ينتمي إليها الشّخص المتكلّم. - ينظر: مدخل إلى علم اللّغة، محمود فهميّ حجازيّ، ص: 82.

[2]- اللّغة، فندريس، ص: 182.

[3]- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[4]- منهج التّحليل اللّغويّ في النّقد الأدبيّ، د. سمير استيتيّة، مجلّة التّراث العربيّ، دمشق، العدد: 15، يناير 1985م، ص:154.

يظهر التّنغيم جليّا في هذه الآية بمستوياته الثّلاثة؛ الّتي تبدأ بجملة استفهاميّة غرضها التّقرير «أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ»، وهذه الجملة تخبر رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- عن طبيعة بني إسرائيل مع أنبيائهم، وتظهر له نقضهم الطّبيعيّ للعهود؛ فجاء التّنغيم ذا نغمة متوسّطة؛ لأنّ الحديث موجّه إلى النّبيّ محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- ولا حاجة إلى استخدام نغمة عالية، وبعد هذه الجملة الاستفهاميّة جاءت جملة جديدة طلبيّة «ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ»، وهذه الجملة قيلت على لسان «مجموعة من بني إسرائيل -من ذوي الرّأي والمكانة فيهم- إلى نبيّهم في ذلك الزّمان؛ يطلبون إليه أن يختار لهم ملكا يقودهم إلى المعركة مع أعداء دينهم؛ الّذين سلبوا ملكهم وأموالهم، ومعها مخلّفات أنبيائهم من آل موسى وهارون.»[1] وفي هذا السّياق جاء التّنغيم عالي النّغمة؛ لينقل لنا ما كان عليه بنو إسرائيل من إصرار على القتال؛ فناسب المقام المقال، وتجلّت النّغمة العالية في هذه الجملة.

وبعد هذا الطّلب الّذي يظهر فيه إصرار بين إسرئيل على أن يُكْتَب عليهم القتال؛ يواصل الخطاب القرآنيّ قوله بجملة استفهاميّة؛ تبيّن علم نبيّ الله بطبيعة قومه ونفسيّتهم المريضة المتقلّبة «قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟»، وهذا السّؤال معلومة إجابته لدى نبيّ بني إسرائيل، لخبرته الشّديدة بطبيعة قومه، ولكنّه أراد «أن يستوثق من صحّة عزيمتهم على القتال؛»[2] وكأنّ السّؤال غرضه الاستهزاء منهم، «فأدخل «هَلْ» مستفهما عمّا هو متوقّع عنده ومظنون، وأراد بالاستفهام التّقرير، وثبت أنّ المتوقّع كائن له، وأنّه صائب في توقّعه؛»[3] فاستخدم لأجل ذلك نغمة متوسّطة، ولكنّ الردّ جاء قويّا من بني إسرائيل؛ فقد رفضوا سؤال نبيّهم واستنكروا «عليه هذا القول، وارتفعت حماستهم إلى الذّروة وهم يقولون له،»[4] «وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا»؛ أيّ: لماذا لا نقاتل، وقد فعل بنا العدوّ ما فعل؛ أخرجنا من بلادنا، وقتل أبناءنا، فما الّذي سنخسره؟ والّذي «بلغ منه العدوّ هذا المبلغ

[1]- في ظلال القرآن، سيّد قطب، ج 01، ص: 262.

[2]- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[3]- مفاتيح الغيب، الرّازي، ج 06، ص: 185.

[4]- في ظلال القرآن، سيّد قطب، ج 01، ص: 262.

فالظّاهر من أمره الاجتهاد في قمع عدوّه ومقاتلته.»[1] وهذا الشّوق لقتال العدوّ وعدم التّأخّر فيه؛ يناسبه استخدام نغمة عالية، لتظهر لنا الحالة النّفسيّة الّتي كانوا عليها، ورغبتهم الشّديدة للقتال. وحينما حانت اللّحظة الّتي طلبوها؛ جاء الأمر من الله تعالى بقتال العدوّ، ولكن نفوسهم توانت، وتراجعت عزيمتهم، وانطفأت شعلة حماستهم «فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ»، واستخدمت هنا نغمة منخفضة؛ لتظهر لنا حالة الضّعف النّفسيّ لهؤلاء القوم.

لقد طلبوا القتال وأصرّوا عليه، وعندما جاء الأمر تولى معظمهم وتقاعس؛ فناسب المقام استخدام نغمة منخفضة، ثمّ ختمت الآية بنغمة متوسّطة لتؤكّد لنا علم الله المسبق بخفايا النّفوس البشريّة، واطّلاعه جلّ في علاه عليها؛ فقال: «وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ».

لقد تجلّى التّنغيم في هذه الآية في أسمى صوره؛ فانتقل من متوسّط إلى عال إلى متوسّط إلى عال مرّة أخرى، ثمّ منخفض وأخيرا متوسّط وهذه المستويات جميعها جاءت تتناسب مع الموقف وكلام كلّ فريق :كلام بني إسرائيل، وكلام نبيّ الله. ولقد جعلنا التّنغيم في هذه الآية نعيش ما حدث واقعا كأنّه يحدث الآن أمام أعيننا؛ فأظهر لنا الحالة النّفسيّة بكلّ ما يعتمل فيها، ويختلج في حناياها من حالات إصرار وضعف وهروب.

لا يمكن فصل قراءة القرآن الكريم عن التّنغيم؛ لأنّه ينقل لنا الآيات الكريمات مليئة بالحياة على حدّ تعبير سيّد قطب[2]، كما يساعد على إبراز معانيها، وقد جاء استخدام التّنغيم بمستوياته المختلفة في سور الكتاب المجيد؛ بحيث تجتمع هذه المستويات داخل الآية الواحدة، وبهذا ينقل لنا التّنغيم الحالة النّفسيّة للمتكلّم؛ تلك الحالة الّتي تظهر من خلال مستويات التّنغيم المختلفة، فعند اضطراب النّفس أو انكسارها أو تسليمها لما هو أكبر منها؛ نجد النّغمة المنخفضة تعبّر عن الإذلال والخضوع، وعند سرد أحكام الله وأوامره أو الاستهزاء والسّخريّة من أفعال المشركين والمنافقين؛ تظهر النّغمة المتوسّطة، تعبّر عن ذلك خير تعبير دون حاجة إلى ارتفاع الصّوت أو انخفاضه؛ في حين نجد النّغمة العالية تتجلّى في أسمى صورها عند ردع الكافرين والمنافقين وتهديدهم، وذلك لإظهار قدرة الله وسلطته المطلقة على عباده، وكذلك نجدها عند إصرار النّفس البشريّة على القيام بعمل قد يعدّ شاقّا عليها، ولكنّها تريد تنفيذه، وهكذا تناسب كلّ مقام مستوى معيّنا من مستويات التّنغيم المتنوّعة.

---

(1)- مفاتيح الغيب، الرّازيّ، ج 06، ص: 185.

(2)- ينظر: المرجع نفسه، ص: 11.

3- وظيفة التّنغيم التّركيبيّة[1]:

تتمثّل وظيفة التّنغيم التّركيبيّة في تصنيف الجمل إلى أنماطها المختلفة من تقريريّة واستفهاميّة وتعجبيّة وأمريّة؛ لأنّه من المعلوم أنّ لكلّ جملة نمط خاصّ من التّنغيم تنتهي به[2]. وهذا يستدعي أداء كلّ جملة بتنغيم خاصّ يناسبها؛ وفي حالة الإخلال به يعتبر ذلك لحنا في الكلام، «وهذا النّمط يجب اتّباعه ومراعاته في النّطق بكلّ جملة من هذه الجمل، وإلاّ عدّ المتكلّم لاحنا، وكان شأنه شأن من رفع المفعول ونصب الفاعل.»[3] تقوم الوظيفة التّركيبيّة بالتّفريق بين أنماط الجمل، والتّفريق بين وظائفها النّحويّة؛ فالجمل التّقريريّة تنغيمها هابط، والجمل الاستفهامية تنتهي بتغيم صاعد خاصّة إذا طلبت إجابة، والجمل الإخباريّة المكتملة المعنى تؤدّى بتنغيم مستو، وقد تتشابه الجمل الاستفهاميّة والجمل التّعجبيّة في الكتابة، مثل قول أحدهم: ما أجمل الرّبيع؟ مستفهما، أو ما أجمل الرّبيع! متعجّبا فإنّ المميّز بينها هو أداء كلّ جملة بأداء أو تنغيم خاصّ بها.

يوظّف التّنغيم في قراءة القرآن الكريم، وعدم أداء كلّ جملة قرآنيّة أداء صحيحا بتنغيمها المناسب؛ يؤدّي إلى الإخلال بالفهم المطلوب، ويدخل في إطار اللّحن، الّذي أكّد على ضرورة تجنبّه الكثير من علماء القراءات قديما وحديثا، وقد تحدّث الهمذانيّ عن اللّحن في تجويد القرآن الكريم، واعتبره من الأمور الّتي لا تُدْرَكُ إلاّ مشافهة بالأخذ من أفواه أهل العلم والدّراية، «يعني من لم يقرأ القرآن، ويتعلّم من ألفاظهم، ويجالس أهل العلم نقلا وسماعا وفهما.»[4] والخطاب القرآنيّ يحمل أنواعا من الجمل، وأنماطا من التّراكيب لا يمكن ضبطها وإدراكها إلاّ مشافهة؛ حتّى يتمكّن القارئ تجنّب اللّحن وتحقيق كمال التّرتيل[5].

---

(1)- يسمّيها بعض العلماء الوظيفة القواعديّة: بحيث يسهم التّنغيم في تعيين حدود المركّبات النّحويّة كالجملة والتّركيب، كما أنّه يعيّن طبيعة البنيّة القواعديّة للجملة؛ من حيث كونها استفهاما أو تقريرا أو أمرا وفي ذلك يقول تمّام حسّان: «وربّما كان له وظيفة نحويّة هي تحديد الإثبات والنّفي في جملة؛ لم تستعمل فيها أداة الاستفهام فقد تقول لمن يكلّمك و لا تراه: أنت محمّد، مقرّرا ذلك أو مستفهما عنه.» - مناهج البحث في اللّغة، ص: 164.

(2)- ينظر: علم الأصوات، كمال محمّد بشر، ص: 543 - 544.

(3)- أبحاث في علم أصوات اللّغة العربيّة، أحمد عبد التّواب الفيوميّ، ص: 187.

(4)- التّمهيد في معرفة التّجويد، أبو العلاء الحسن بن أحمد العطّار، تحقيق: د. غانم قدّوريّ الحمد، دار عمّار، عمّان، ط1، 1420هـ - 2000م، ص: 247.

(5)- ينظر: القضايا التّطريزيّة في القراءات القرآنيّة، أحمد البايبيّ، ج 01، ص: 275.

4- وظيفة التّنغيم الدّلاليّة السّياقيّة:

يتمّ بها معرفة المعاني المختلفة والدّلالات الخفيّة؛ حيث إنّ للتّنغيم أثره في بيانها، وفي توضيح مقاصد الكلام، وفي ذلك يقول تمّام حسّان: «وللنّغمة دلالة وظيفيّة على معاني الجمل تتّضح في صلاحيّة الجمل التّأثريّة المختصرة؛ نحو: لا، ونعم، ويا سلام، والله؛ لأن تقال بنغمات متعدّدة، ويتغيّر معناها النّحويّ والدّلاليّ مع كلّ نغمة بين الاستفهام، والتّوكيد، والإثبات لمعان كمثل: الحزن، والفرح، والشّكّ، والتّأنيب، والاعتراض، والتّحقير، وهلمّ جرّا؛ حيث تكون النّغمة هي العنصر الوحيد الّذي تسبّب عن تباين هذه المعاني.»[1] واختلاف النّغمات يكون وفقا لاختلاف المواقف الاجتماعيّة، ووجهات النّظر الشّخصيّة من رضا وقبول وزجر وتهكّم وغضب وتعجّب ودهشة ودعاء؛ فيقوم التّنغيم بأداء هذه المعاني، وتُفْهَمُ من خلال السّياق، والظّروف، والمناسبات الّتي يلقى فيها الكلام[2].

يقصد بهذه الوظيفة دور التّنغيم الفاصل في التّفريق بين الدّلالات الكلاميّة الواحدة، ولقد لاحظ أسلافنا أنّ الأسلوب الواحد يخرج إلى معان عديدة ودلالات مختلفة، ولا شكّ أنّ التّنغيم هو العامل الأبرز في هذا التّنوّع الدّلاليّ؛ مع ما يرافقه من ظواهر فوق مقطعيّة أخرى، أيّ ما سمّاه القدماء القرائن الحاليّة.

وبتغيّر دلالة الأساليب المتشابهة في بنيتها يتغيّر التّنغيم «حيث تكون النّغمة هي العنصر الوحيد الّذي تسبّب عنه تباين هذه المعاني لأنّ هذه الجمل لم تتعرّض لتغيّر في بنيّتها، ولم يضف إليها أو يستخرج منها شيء، ولم يتغيّر فيها إلاّ التّنغيم، وما قد يصاحبه من تعبيرات الملامح وأعضاء الجسم ممّا يعتبر من القرائن الحاليّة.»[3] وهكذا يقوم التّنغيم بخاصّة، والأداء بعامّة على توضيح الدّلالات والمقاصد، ورفع اللّبس.

5- وظيفة التّنغيم الجماليّة:

في هذه الوظيفة يُسْتَخْدَمُ التّنغيم لإضفاء جمال على الجملة؛ بحيث يجذب المتلقّي لتلقّيها بشغف، وهي وظيفة هامّة لأنّ جذب المتلقّي يجعل النّصّ يقطع نصف الطّريق إلى قلبه وعقله، ثمّ تأتي الدّلالات السّياقيّة لتكمّل الشّوط؛ فتستقرّ المفاهيم والمشاعر في عقل المتلقّي ونفسه؛ لتخلق

---

[1]- اللّغة العربيّة مبناها ومعناها، ص: 228.
[2]- ينظر: علم الأصوات، كمال محمّد بشر، ص: 539 - 540.
[3]- اللّغة العربيّة معناها ومبناها، تمّام حسّان، ص: 228.

حالة من التّجاوب الرّوحيّ والعقلانيّ مع المطروح[1]. والوظيفة الجماليّة للتّنغيم لها الدّور الأكبر في جذب المتلقّي نتيجة التّناغم الحاصل بين الألفاظ واتّفاقها وتضادها، قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾ البروج: ١ – ٧.

إنّ السّجع على اختلاف أنواعه منح الآيات رنينا موسيقيّا مسترسلا؛ يجعل الأذن تأنس إليه وتألفه، وأكسبت الألفاظ المنتقاة ثوبا جماليّا ساحرا؛ يدفع إلى اكتشاف المعاني وراء هذا السّياق الموسيقيّ[2]؛ فنجد أنّ الله العزيز قد أقسم بالسّماء ذات الكواكب المنزّلة في منازلها، كما أقسم بيوم القيامة ويوم الجمعة «الشّاهد»، ويوم عرفة «مشهود» أنّ أصحاب الشّقّ العظيم قد لعنوا أشدّ اللّعن، والمعنى أنّ قريشا الكافرة قد لعنت؛ لأنّها عذّبت محمّدا –صلّى الله عليه وسلّم– وأصحابه، كما لعن ذو نوّاس اليهوديّ ملك حمير؛ الّذي أحرق نصارى نجران في أخاديد حفرها لهم[3].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾الطّارق: ١ – ٤. لقد أضفت الموازنة على السّياق جمالا؛ انبعث من الموسيقى الواقعة بفضل الألفاظ المتوازنة: «ٱلطَّارِقُ – ٱلثَّاقِبُ – حَافِظٌ»، وهذا التّرجيع الموسيقيّ الجميل يدفع إلى التّأمّل[4]؛ فنجد أنّ الله تعالى يقسم في هذه السّورة –أيضا– بالسّماء وبالنّجم الّذي يطلع ليلا؛ فيثقب بنوره الظّلام؛ بأنّه وضع على كلّ حافظا لأنفسنا ورقيبا على ما نفعل. «يلقي النّصّ إيحاءه الرّهيب حيث تحسّ النّفس أنّها ليست أبدا في خلوة؛ فهناك الحافظ الرّقيب عليها حين تنفرد من كلّ رقيب، وتتخفّى من كلّ عين، وتأمن من كلّ طارق، هناك الحافظ الّذي يشقّ كلّ غطاء وينفذ إلى كلّ مستور.»[5]

---

[1]- ينظر: أثر التّنغيم في توجيه الأغراض البلاغيّة لعلم المعاني، د. مزاحم مطر حسين، مجلّة القادسيّة في الآداب والعلوم التّربويّة، العددان: 03 – 04، المجلّد: 06، 2007م، ص: 41.

[2]- ينظر: البلاغة العربيّة في ضوء منهج متكامل، محمّد بركات حمديّ أبو عليّ، دار البشير، عمّان، ط1، 1412هـ – 1996م، ص: 59.

[3]- ينظر: فتح القدير، الشّوكانيّ، ج 05، ص: 548 - 549.

[4]- ينظر: جماليّات المفردة القرآنيّة، أحمد ياسوف، ص: 34.

[5]- في ظلال القرآن، سيّد قطب، ج 06، ص: 3878.

قال عزّ وجلّ: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥﴾ الفجر: ١ – ٥. ينبعث في الآيات التّناغم الموسيقيّ المتناسق دون خلل، «يتضمّن ألوانا شتى من الجولات والإيقاعات والظّلال؛ ألوانا متنوّعة تؤلّف من تفرّقها وتناسقها لحنا واحدا متعدّد النّغمات، موحّد الإيقاع في بعض مشاهدها؛ ففي بعضها جمال هادئ رقيق نديّ السّمات والإيقاعات؛ كهذا المطلع النّديّ بمشاهده الكونيّة الرّقيقة، وبظلّ العبادة والصّلاة في ثناياها المشاهد: « وَٱلۡفَجۡرِ - وَلَيَالٍ عَشۡرٖ - وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ - وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ» وفي بعض مشاهدها شدّ وقصف؛ سواء مناظرها أو موسيقاها في المشهد العنيف المخيف.»[1] وفي هذا التّناغم جمال يجذب السّامع، وهو ناتج عن هذا التّرتيب التّصاعديّ في عدد الكلمات: فمن كلمة إلى كلمتين إلى ثلاث كلمات ثمّ أكثر، وذلك لمعرفة لماذا أقسم ربّ العزّة بكلّ هذه المسمّيات، ولا يأتي جواب القسم مباشرة وذلك زيادة في التّشويق والرّهبة، وإنّما يأتي ذكر ما فعل الله تعالى بعاد قوم هود الّذين كانت لهم قوّة عظيمة على الأرض وبنيان عظيم؛ فصبّ عليهم العذاب لطغيانهم وفسادهم، وكأنّما الإتيان بقصّة عاد وثمود وفرعون تغني عن جواب القسم؛ الّذي بات معروفا بحكم المقارنة دون أن يذكر[2]. تركّبت الآيات من أربع ظواهر تمثّلت في الإيقاع، واللّحن، والسّجع، وعدد الكلمات التّصاعديّ؛ لتظهر جماليّة التّنغيم في أداء الآيات الكريمات، ويظهر وقعها النّديّ على النّفس المؤمنة؛ المتشبّعة باليقين؛ فتنطرب شوقا لمشاهد التّرغيب، وتخشع خوفا لمشاهد التّرهيب، وما بين الرّغبة والرّهبة تعيش أجواء الأداء بمختلف اللّحون.

بالرّغم من أنّ هذه الوظائف مختلفة[3]؛ فإنّه لا يمكن الفصل بينها؛ فهي متلازمة ومتكاملة، وذلك لما للتّنغيم من أثر في تحديد معنى الكلام، ويجب التّأكيد أوّلا على أنّ التّنغيم يعدّ من أكثر طرق الأداء اتّساعا، وأنّه يقتصر على التّراكيب المسموعة دون المقروءة، وأنّ له أثرا كبيرا في نفوس السّامعين ويدفعهم إلى متابعة المتكلّمين، وحسن الإصغاء إليهم، وإزالة اللّبس عن معنى الجملة، وإدراك الفرق بين المعاني المتعدّدة، وفهم المراد. ولا يتأتى ذلك إلاّ بإتّباع سنن أهل اللّغة في النّطق، والتّعوّد على مجاراة الفصحاء؛ فالمتكلّم قد يهدف بحديثه وتتابع نغمات كلامه العتاب، أو الحثّ، أو

---

(1)- وذلك في الآيات التّاليات:﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣﴾ الفجر: ٢١ – ٢٣. – المرجع نفسه، ص: 3902.

(2)- ينظر: تتمّة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشّنقيطيّ، ج 09، ص: 209.

(3)- أيّ الوظيفة: الصّوتيّة والتّركيبيّة والانفعاليّة والدّلاليّة والجماليّة.

لفت النّظر، أو التّذمّر إلى غير ذلك من المعاني الّتي لا يمكن إدراكها إلاّ بمعرفة التّنغيم. وقد يؤدّي الانحراف عن النّطق المتعارف عليه عند أصحاب اللّغة غالبا إلى اختلاف المعاني وتباين المقاصد، بالإضافة إلى عدم وضوح المعنى، فمعرفة طرق الأداء والنّطق الصّحيح، لا يقلّ في أهميّته عن معرفة علم النّحو لذلك.

الفصل الرّابع: الجانب التّنغيميّ في قراءة القرآن الكريم.

المبحث الأوّل: التّنغيم ودلالته في الخطاب القرآنيّ.

المبحث الثّاني: علاقة الإيقاع بالتّنغيم.

1 - مفهوم الإيقاع.

أ - التّعريف اللّغويّ للإيقاع.

ب - التّعريف الاصطلاحيّ للإيقاع.

2 - دلالة الإيقاع وارتباطه بالتّنغيم.

المبحث الثّالث: علاقة الوقف بالتّنغيم.

1 - مفهوم الوقف.

أ - التّعريف اللّغويّ للوقف.

ب - التّعريف الاصطلاحيّ للوقف.

2 - أحكام الوقف.

3 - علامات الوقف المثبتة في المصحف الشّريف.

4 - أهمّيّة الوقف في القرآن وأنواعه.

5 - أقسام الوقف.

6 - دلالة الوقف وارتباطه بالتّنغيم في الخطاب القرآنيّ.

المبحث الرّابع: دلالة تنغيم الجملة في البلاغة العربيّة.

1 - تجلّيات التّنغيم ودلالته في الجملة الخبريّة في الخطاب القرآنيّ.

2- تجليّات التّنغيم ودلالته في الجملة الإنشائيّة في الخطاب القرآنيّ.

أ - دلالة تنغيم أسلوب الاستفهام في الخطاب القرآنيّ.

ب - دلالة تنغيم أسلوب النّداء في الخطاب القرآنيّ.

ج - دلالة تنغيم أسلوب الأمر في الخطاب القرآنيّ.

د - دلالة تنغيم أسلوب النّهيّ في الخطاب القرآنيّ.

المبحث الأوّل: التّنغيم ودلالته في الخطاب القرآنيّ

لقد وضّح العلماء أنّ التّلاوة لها ثلاث طرق تؤدّى بها؛ تتمثّل في التّرتيل والتّدوير والحدر وهي من العلوم الشّرعيّة الّتي تتناول الحروف في مخارجها وصفاتها، هذه العلوم القديمة الّتي وضع أصولها وقواعدها الأوائل من علماء العرب المسلمين، وأسالوا فيها الحبر الكثير، وأمعنوا فيما الفكر العميق، والّتي ثبتت عبر العصور؛ فلم تتغيّر، وهي العلوم الّتي تقوم بصيانة اللّسان من الخطأ، والزّلل في لفظ القرآن الكريم، ولعلّ القرآن من هذه الجهة هو الحافظ الوحيد الّذي حفظ اللّغة العربيّة، وطريقة نطق حروفها[1]، ومن يستمع إلى القرآن الكريم مرتّلا يستطيع أن يتمثّل أحكام النّطق، ومواقع النّبر في اللّغة العربيّة، وطرق الأداء للتّنغيم، وما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أنّ التّلاوة علم أصوليّ له جذوره الضّاربة في القدم عند علماء القراءات والتّجويد، والمسلمون يجتهدون في الحفاظ على تأديّته بقواعده الّتي لم تتغيّر؛ أمّا التّنغيم «فأمر آخر مختلف؛ إنّه فنّ المقرئ الخاصّ، وكيفيّة أدائه للقرآن الكريم، وهو مظهر من مظاهر الإبداع، أو محاولة من المرتّل لإظهار براعته؛ علاوة على تعميق أثر النّصّ الّذي يقرؤه في نفوس سامعيه، وبهذه الدّلالة للتّنغيم يكون أقرب إلى الموسيقى منه إلى التّلاوة.»[2]

إذن فالتّنغيم أداؤه أمر شخصيّ؛ يعود إلى المقرئ ذاته وكيفيّة أدائه للقراءة، ولا شكّ أنّ في القرآن الكريم «نوعاً من الموسيقى الخفية تلفظ ولا تشرح؛ لكن كيف ندرك هذه الموسيقى، وهذا الإيقاع؟ وهذا التّساؤل يلحق به تساؤل آخر مكمّل له هو: كيف نتلقّى القرآن الكريم؟ فالدّراسات النّفسيّة والجماليّة لعمليّة التّلقّي؛ تثبت أنّ تركيب الأثر الفنيّ لا يكون تامّاً ولا كاملاً إلاّ إذا التقت في رحابه، وتداخلت طاقتان: الطّاقة الكامنة في النّصّ، والطّاقة المنبثقة عن التّلقّي.»[3] وهذا ما يسعى المقرئ إلى تحقيقه بتوظيفه لأصول التّلاوة وأحكامها، واستعمال التّنغيم أثناء قراءته خاصّة إذا كان هناك من يستمع إليه، وبالتّالي يحقّق أمر الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– عندما قال: «**ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن**.» ومعنى (يتغنّى): «يترنّم ويتنغّم، ويملأ دماغه، ويتمالكه الإحساس به، ويشعشع في قلبه ودماغه، ويستشعر معانيه استشعارا قويّا؛ فهذا طريقه التّجاوب معه، وشدّة الإحساس به؛ على

(1)- ينظر: هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، المرصفيّ، ص: 50.

(2)- عودة إلى موسيقى القرآن، نعيم اليافيّ، ص: 67.

(3)- المرجع نفسه، ص: 69.

نحو يخالط ويمازج صوته القلب والعقل والرّوح والوجدان.»[1] ويكون التّأثير بهذه الطّريقة مزدوجا؛ أيّ يتأثّر المقرئ بما يقرأ، ويؤثّر على من يستمع إليه.

لقد وجب على الإنسان المسلم الاستماع إلى القرآن الكريم؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الأعراف: ٢٠٤؛ فالإنسان المسلم مهيّأ مسبقا للاستماع إلى قراءة القرآن؛ خاصّة إذا كان يصدر عن صوت كلّه جمال، وعذوبة في الأداء والتّعبير، ولقد كان الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- نفسه يحبّ سماع أداء القرآن من غيره، وقد طلب يوما من ابن مسعود؛ فقرأه عليه وهو يستمع، وخشع -صلّى الله عليه وسلّم- لسماع القرآن بصوت ابن مسعود؛ حتّى ذرفت عيناه، وقد استمع ليلة لقراءة أبي موسى الأشعريّ، فلمّا أخبره بذلك، قال: «إنيّ لو علمت أنّك تستمع لقراءتي؛ لحسّنت صوتي بالقرآن، ورتّلته.»[2] وهذا يدلّ أنّه كان يهذّ في قراءته مع حسن الصّوت الّذي جبل عليه، ولو علم أنّه يسمعه لمدّ في قراءته لأنّ ذلك زيادة في حسن الصّوت بالقراءة[3]، وفي رواية قيل أنّه قال: «لو كنت أعلم أنّك تسمعه، لحبّرته لك تحبيرا،»[4] أيّ: حسّنته وزيّنته بصوتي تزيينا حزينا، لهذا كلّه فالقارئ مطالب لاستمالة السّامع أن يهتمّ بكلّ حرف من كلام الله تعالى، ويشبعه بالتّنغيم المعبّر ليمنحه المعنى والدّلالة المناسبة، وفي هذا السّياق روي أنّ الخليفة عمر بن الخطّاب -رضي اللّه عنه- أنّه كان يقول لأبي موسى: «ذكّرنا ربّنا؛ فيقرأ أبو موسى ويتلاحن، فبكى عمر الفاروق، وقال: من استطاع أن يتغنّى بالقرآن غناء أبي موسى؛ فليفعل.»[5] إنّه لا بدّ من تحسين الصّوت أثناء قراءة القرآن، وتزيينه تطبيقا للأمر النّبويّ «**حسّنوا القرآن بأصواتكم، فإنّ الصّوت الحسن يزيد القرآن حسنا.**»[6]

---

(1)- علم الأصوات اللّغويّة (ظواهر علم الأصوات في القرآن الكريم)، الفصل الصّوتيّ – اللّفظة المركزيّة – الاستفهام الخبريّ – الخبر الاستفهاميّ – ظاهرة استحضار الصّورة، د. أحمد عبد التّواب الفيوميّ، المكتبة الأزهريّة للتّراث، الجزيرة للنّشر والتّوزيع، مصر، د ط، 2009م، ص: 81..

(2)- الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج 01، ص: 23.

(3)- ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(4)- موسوعة البيّان لقرّاء القرآن، عبد العزيز الشّبراويّ، مطابع الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، د ط، 1994م، ص: 11.

(5)- المرجع نفسه، ص: 13.

(6)- الإتقان في علوم القرآن، السّيوطيّ، ص: 227.

لقد أكّدت الشّريعة الإسلاميّة انطلاقا من الآيات الكريمات والأحاديث الشّريفة إلى استحباب قراءة القرآن الكريم بالصّوت الحسن؛ لإظهار عظمته واستذاقة فنّه، والتّغني بلحون العرب الّذي يدعونا إليه الرّسول الكريم -صلّى الله عليه وسلّم- في قوله: «**اقرأوا القرآن بألحان العرب وأصواتها، وإيّاكم ولحون أهل الفسق وأهل الكبائر فإنّه سيجيء من بعدي أقوام يرجّعون القرآن ترجيع الغناء والنّوح.**»[1]

فالتّغني المستحسن هو الّذي يجيء على لحون العرب[2]، بمراعاة إخراج الحروف من مخارجها، والمدّ في موضعه بحسب أحكام التّجويد، وتحسينها بالصّوت الجميل؛ مراعين في ذلك ما تعلّموه من مقامات، وهو علم يمكن دراسته عن طريق الاستماع إلى القرّاء المتقنين والمنشدين المتخصّصين، فتكون وسيلة التّعليم بواسطة الصّوت البشريّ، وتعدّ أنسب الطّرق وآمنها؛ فجهاز الصّوتيّ الّذي خلقه الله تعالى هو أفضل الآلات الموسيقيّة تكاملا في الأبعاد الفيزيائيّة والصّوتيّة، ومن المصطلحات التّي تدخل في نطاق التّنغيم ومكوّناته، وما هو متداول في مدارس تعليم القراءة القرآنيّة ولها علاقة بالمقامات ما يلي[3]:

المقام الصّوتيّ: هو الطّابع الموسيقيّ الّذي يمتاز به نغم مسمّى؛ له أبعاده ودرجات سلّمه الموسيقي المتعارف عليه.

المقام الموسيقيّ: يعني درجات ارتفاع الصّوت أو انخفاضه بشكل منسّق متدرّج منتظم، فإذا ما تمّ القفز عن درجة ما فإنّه يصبح صوتا نشازا.

[1]- المرجع نفسه، ص: 233.

[2]- لا بدّ من الإشارة إلى موضوع التّغنّي بالقرآن، هذا الجانب الّذي أسيئ فهمه لدى كثير من القارئين، فالتّرنّم بالقرآن والتّحزين المبكي مطلوب لقوله -صلّى الله عليه وسلّم-: «**إنّ هذا القرآن نزل بحزن وكآبة، فإذا قرأتموه فابكوا؛ فإن لم تبكوا فتباكوا.**» وهناك أحاديث كثيرة وردت في هذا الشّأن؛ يتّضح منها الواجب عدم الخروج عمّا ألفته العرب في لغتهم، وعمّا قرّره علماء التّجويد بتقصير الممدود، ومدّ المقصور، والمبالغة في الغنّات، ولوك الحروف...وطريقة التّغنّي أو القراءة بالألحان تختلف من أمّة إلى أمّة، ومن شخص إلى آخر، ونجد في بعض الشّعوب العربيّة أقواما اتّخذوا من التّغنّي بالقرآن ملهاة لجذب النّاس إلى السّماع؛ ولو أدّى ذلك إلى خروج التّلاوة عن قواعدها المقرّرة لها، ولعلّ الوقت حان لكي يختار أئمة القراءات طريقة أداء نموذجيّة معبّرة لترتيل القرآن، ويمكن أن تدوّن تدوينا دقيقا لضبط حدود الحركات النّغميّة والإيقاعات صعودا وهبوطا. - أصوات القرآن، يوسف الخليفة أبو بكر، ص: 23.

[3]- ينظر تفصيل هذه المصطلحات في كتاب: القراءات القرآنيّة والأحاديث الشّريفة، عليّ حسين البوّاب، دار الفرقان للتّوزيع والنّشر، عمّان، الأردن، د ط، 1983م، ص: 28.

النّشاز: هو الصّوت الّذي لا تقبله ولا تستسيغه الأذن المستمعة؛ نتيجة الأداء غير المتناسق في خروجه عن المقام، أو عند تحوّله من طبقة صوتيّة إلى أخرى بعيدا عن النّسق العلميّ الّذي تقبله الأذن.

القرار: انخفاض في عدد اهتزاز النّبرات الصّوتيّة في أداء الطّبقات الصّوتيّة.

الجواب: وهو ارتفاع الطّبقة الصّوتيّة «الّتي تقابل القرار» النّاتج عن ازدياد نسبيّ في عدد اهتزاز النّبرات الصّوتيّة، وقد يعطي التّعبير الصّوتيّ بهذه الكيفيّة في القراءة القرآنيّة إيحاء بعدم اكتمال الحدث أو القصص أو الموضوع وربّما تساؤلا معيّنا.

قد روي عن أنس بن مالك أنّ «الاستعانة بالألحان وقانونها لتحسّن الصّوت بالقرآن لا بأس به بشروط أربعة:»[1]

1- أن لا يطغى ذلك على صحّة الأداء، ولا على سلامة أحكام التّجويد.
2- أن لا يتعارض التّلحين والتّنغيم مع وقار القرآن وجلاله، ومع التّأدّب والخشوع.
3- أن يميل عند القراءة إلى التّحزين؛ فإنّه اللّحن المناسب لمقام كتاب الله تعالى.
4- أن يأخذ من الألحان، ويستعين بها على قدر حاجته إلى تحسين صوته في التّدرّب على القراءة.

من خلال ما عرفناه من كيفيّة أداء للقراءة القرآنيّة وفق المقامات، وما طالبت به الشّريعة الإسلاميّة من أحكام أثناء التّرتيل؛ فإنّ أسلوب القارئ الحاذق عليه أن يتميّز أداؤه في اعتماد التّنغيم وفق هذه المقامات، ووفق التّحوّلات النّغميّة، وذلك بالتّعبير عن الحنين والحزن[2]، ومنح قراءته جملة من المشاعر والأحاسيس؛ لأنّ ذلك ما ينقله للمستمع بواسطة صوته، والقارئ المجيد لأحكام التّجويد والملتزم بها؛ بالإضافة إلى ما أعطاه الله تعالى من موهبة في جمال الصّوت وحسن الأداء؛ عليه أن يتعلّم كلّ ما يدخل في نطاق عمل القارئ نفسه حتّى يصقل موهبته، ويكتسب المهارات، وذلك من خلال الوقوف على قواعد اللّغة العربيّة وتعلّم أصولها، ومن خلال أيضا معرفة قواعد المقامات وضروبها، ومن خلال العمل على تهذيب الصّوت وفي مقدّمته الاستخدام الأمثل للتّنفس والتّحكّم

---

(1)- تحفة نجباء العصر، زين الدّين أبي زكريا بن محمّد الأنصاريّ الشّافعيّ، جامعة بغداد، بغداد، ط2، 1994م، ص:21-24.

(2)- يقول العلاّمة عليّ بن محمّد السّيد الشّريف الجرجانيّ في تعريفه للتّرتيل هو: «رعاية مخارج الحروف وحفظ الوقوف، وقيل: هو خفض الصّوت والتّحزين بالقراءة.» – معجم التّعريفات، قاموس لمصطلحات وتعريفات علم الفقه، واللّغة، والفلسفة، والمنطق، والتّصوّف، والنّحو، والصّرف، والعروض، والبلاغة، تحقيق: محمّد صدّيق المنشاويّ، دار الفضيلة للنّشر والتّوزيع والتّصدير، القاهرة، د ط، د ت، ص: 50.

فيه قدر المستطاع؛ لأنّ قراءة القرآن لها خصوصيّتها؛ فبعض الجمل القرآنيّة تتطلّب كميّة كبيرة من الطّاقة التّنفسية للوصول إلى الأداء الصّحيح من دون انقطاع[1]، ولأنّ أهميّة أداء الجملة وتعبيراتها؛ يُفْتَرَضُ فيه اكتمال المعنى مع تواصل الصّوت الأدائيّ المناسب.

لقد عرفت السّاحة العربيّة الإسلاميّة ماضيا وحاضرا مقرئين مجيدين؛ لهم أصوات توحي بمعرفة عميقة بعلم الأصوات ودلالاتها الّتي تؤثّر في المستمع، وتأخذه إلى عالم المعرفة بأسرار الكون، وتمكّنوا من المحافظة على جماليّات القراءة من خلال التّنوّع والتّلوين الأدائيّ، وغايتهم الوصول إلى شدّ المستمع طيلة مدّة القراءة إلى كلام الله تعالى؛ حتّى لا يشرد عن الاستماع؛ بل يسهم صوتهم الجميل عندهم في الوصول بالمستمع أثناء قراءة القرآن إلى حالة الخشوع؛ مؤثّرين فيه؛ مذكّرين إيّاه بجلال الله تعالى وعظمته، وينقله هذا الصّوت المعبّر إلى طريق الخير والفضيلة، ويعدّ ذلك من أبرز خصال القارئ الجيّد.

إنّ منح كلّ آية قرآنيّة الأداء المناسب لها بمراعاة جماليّات القراءة وحلاوتها؛ تحتاج إلى صوت متدفّق وعنيف وشديد؛ بحيث يتلوّن الصّوت ويتغيّر مع كلّ آية، فقد يكون رقيقا مع الآيات الّتي تحتاج إلى الرّقّة والسّماحة في الأداء، وقد يكون شديدا مع المشاهد الّتي تتطلّب أداء تنغيميّا عنيفا، ففي سورة الفجر -مثلا- وما تحمله من مشاهد؛ تتنوّع فيها ألوان الصّوت وفق الإيقاعات، وما تحمله الآيات من صور وظلالها المعبّرة عن تناسق جماليّ، وما يهتف به القلب البشريّ في الدّعوة إلى الإيمان والتّقوى واليقظة والتّدبّر[2]، جاء مستهلها أداء تنغيميّا رقيقا: ﴿وَٱلْفَجْرِ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤﴾ الفجر: ١ - ٤، فإنّ قراءتها تكون قراءة هادئة مسترسلة وفق سلّم نغميّ متوسّط واحد دون الحاجة إلى ارتفاع شديد أو انخفاض قد يخلّ بالمعنى؛ لأنّها جمل قصيرة تأتي بإيقاع متوال؛ فيه تقرير مبنيّ على سرعة فيها بطء، ولكن عندما ينتقل القارئ إلى ما يليها من الآيات: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ٢٣ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ٢٦﴾ الفجر: ٢١ - ٢٦؛ تتحوّل

[1]- ينظر: الأصوات اللّغويّة رؤية عضويّة ونطقيّة وفيزيائيّة، د. سمير شريف إستيتيّة، دار وائل للنّشر، عمّان، ط1، 2003م، ص: 291.

[2]- ينظر: في ظلال القرآن، سيّد قطب، مرجع سابق، ج 06، ص: 3901.

القراءة من السّلاسة والبطء النّغميّ إلى القوّة والشّدّة النّغميّة؛ وفق ما يتطلّبه مضمون الصّور والمشاهد المختلفة الّتي تحمل في معانيها شدّا وقصفا بحسب إيحاءات الآيات الكريمات[1]، لهذا يكون أداؤها التّنغيميّ عاليا.

ويشهد ختام السّورة تحوّلا آخر في الأداء؛ بحيث يمنحها طابعا تنغيميّا فيه وقار؛ لأنّه يعبّر عن الطّمأنينة ورضا النّفس ومصيرها الحتميّ في الانتقال من عالم الفناء إلى عالم البقاء من خلال الآيات: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾ الفجر: ٢٧ - ٢٨، «أيّ المؤمنة السّاكنة، المطمئنّة إلى وعد ربّها.»[2] ثمّ ينخفض الصّوت بشكل نسبيّ في الآيتين الأخيرتين: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ الفجر: ٢٩ - ٣٠؛ وهنا يستعين القارئ -حتّى يدخل معه المستمع في هذا الجوّ- بصوت الوقار فيه وزن إيقاعيّ مسترسل، وفي ذلك دلالة على العطاء الإلهيّ الكبير، ودعوة النّفس المؤمنة إلى الرّاحة والطّمأنينة؛ لأنّ خاتمتها طيّبة.

ونجد علماء القراءات اِعتنوا بقراءة القرآن الكريم، وحفظه، وتجويده، «وإظهاره بالمظهر اللاّئق، لأنّهم أدركوا أنّ القراءة الوسيلة النّاجحة في فهم القرآن الكريم، وقد نصّ القرآن المجيد نفسه على قراءة القرآن بالصّوت الحسن، لإظهار عظمته، واستذاقة فنّه.»[3] قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾ المزمل: ٤، أي أنّ تلاوة القرآن الكريم يصاحبها حسن الصّوت، وذلك يتحقّق بالتّنغيم، وهكذا يحقّق القارئ الهدف من مراعاة القراءة الحسنة، والمتمثّل في إظهار ما يحمله القرآن الكريم من عظمة وجمال، ولا تكون القراءة إلاّ بالتّدبّر والتّفهّم؛ ذلك هو القصد الأهمّ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ ص: ٢٩، وقال أيضا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ النّساء: ٨٢.

[1]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 3902.

[2]- تفسير القرآن، السّمعانيّ، ج 06، ص: 223.

[3]- قضايا قرآنيّة في ضوء الدّراسات اللّغويّة، د. عبد العال سالم مكرم، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط1، 1401هـ- 1988م، ص: 05 وما بعدها.

يفسّر السّيوطيّ مسألة الجمع بين القراءة وتدبّر معاني القرآن الكريم بقوله: «أن يشغل قلبه بالتّفكّر في معنى ما يلفظ به؛ فيعرف معنى كلّ آية، ويتأمّل الأوامر والنّواهي، ويعتقد قبول ذلك؛ فإن كان ممّا قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوّذ، أو تنزيه نزّه وعظّم، أو دعاء تضرّع وطلب.»(1) والممعن في طرق التّرتيل، وتعدّد القراءات، والاِختلافات الصّوتيّة والأدائيّة، وتوظيف التّنغيم؛ يجد أنّ القرآن الكريم من حيث أداؤه، وكمال إعجازه، «هدفه اِستيعاب القرآن لتراكيب النّسق البليغ من حيث توفّر الأصوات الثّلاثة الضّروريّة لذلك، هي: صوت النّفس، وصوت العقل، وصوت الحسّ(2)، والصّوت الأخير أبلغهنّ شأنا»(3)، وهذا النّسج الصّوتيّ حامل لنظام موسيقيّ هامّ حيث تتناسق المعاني والنّغمات، والفكرة والجرس أحسن تناسق، ويستفاد من اِستعمال التّنغيم في القرآن الكريم؛ مراعاة المعاني أثناء التّلاوة، لأنّ التّحبير(4)، وهو لون من ألوان التّجويد والتّحسين والتّزيين؛ يجعل التّنغيم وسيلة من وسائله حتّى يقف القارئ والمستمع على فهم دلالة آيات التّنزيل الحكيم.

يمكن أن نلتمس قدرة القارئ المجيد فيما يتعلّق بتأثيره الفعّال على المستمع بواسطة استعماله للتّنغيم الصّوتيّ، والإيقاع الموسيقيّ، والتّلوين الأدائيّ في ترتيل سورة التّكوير، وما يلاحظ على السّورة ذلك «الافتتاح بـ« إِذَا؛ افتتاح مشوّق؛ لأنّ « إِذَا» ظرف يستدعي متعلّقا، ولأنّه أيضا شرط يؤذن بذكر جواب بعده؛ فإذا سمعه السّامع ترقّب ما سيأتي بعده، فعندما يسمعه يتمكّن من نفسه كمال تمكّن، وخاصّة بالإطناب بتكرير كلمة « إِذَا»، اثنتي عشرة مرّة... وهذا الإطناب اقتضاه قصد التّهويل.»(5) تحمل بداية السّورة –هي الأخرى– مشاهد حزينة ومؤثّرة؛ تهزّ المشاعر وتحرّك الوجدان:

---

(1)- الإتقان في علوم القرآن، ص: 225.

(2)- صوت النّفس: وهو الصّوت الموسيقيّ الّذي يكون من تأليف النّغم بالحروف ومخارجها وحركاتها، ومواقع ذلك من تركيب الكلام، وصوت العقل: وهو الصّوت المعنويّ الّذي يكون من لطائف التّركيب في جملة الكلام، وصوت الحسّ: لا يكون إلاّ من دقّة التّصوّر المعنويّ، والإبداع في تلوين الخطاب، ومجاذبة النّفس. ينظر تفصيل ذلك في كتاب: إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، الرّافعيّ، ص: 221.

(3)- المرجع نفسه، ص: 221.

(4)- كلمة مقتبسة من حديث وارد عن أبي موسى الأشعريّ – رضي الله عنه– عندما علم أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يسمعه عند تلاوة القرآن الكريم، فقال: «لو كنت أعلم أنّك تسمعني يا رسول الله لحبرته لك تحبيرا.» – ينظر: تحرير التّحبير في صناعة الشّعر والنّثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصريّ، تقديم وتحقيق: د. حفنيّ محمّد شرف، لجنة إحياء التّراث الإسلاميّ، الجمهوريّة العربيّة المتّحدة (مصر)، د ط، 1963م، الكتاب الثّاني، ص: 55.

(5)- تفسير التّحرير والتّنوير، ابن عاشور، ج 30، ص: 141.

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧﴾ التّكوير: ١ – ٧، يكون الأداء النّغميّ بوتيرة واحدة، كلّ آية لها إيقاع يشدّ النّبض؛ ويعصر القلب بتأثير التّكرار المتواجد في الآيات، وما فيه من إطناب، ومفاده التّهويل، إلى أن يصل إلى الأداء الّذي يحمل تساؤلا في الآيتين المواليتين:﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩﴾التّكوير: ٨ – ٩، ولقد خصّ الله تعالى«سؤال الموءودة بالذّكر دون غيره ممّا يسأل عنه المجرمون يوم الحساب...لأنّه كان من أفظع الاعتداء على إزهاق الأرواح من أجسادها؛ اعتداء الآباء على نفوس أطفالهم بالوأد؛ فإنّ الله جعل في الفطرة حرص الآباء على استحياء أبنائهم، وجعل الأبوين سبب إيجاد الأبناء؛ فالوأد أفظع أعمال أهل الشّرك، وسؤال الموءودة سؤال تعريضيّ مراد منه تهديد وائدها ورعبه بالعذاب.»[1] يتغيّر التّنغيم -هنا- من التّمهيد إلى الختام فيه رهبة تسلب المستمع بأدائه لتلك الصّورة الرّهيبة؛ الّتي تمثّل أبشع جرائم القتل المتعمّد مع سبق الإصرار والتّرصّد الّتي هي من صلب القاتل نفسه، «فإذا استطاع المقرئ أن ينقل الآيتين لتكونا تمهيدا لخاتمة كلّ آية، وينتزع من خلالها من المستمعين أعظم كلمات الإعجاب المعهودة وأبهاها؛ فكلمة «الله» لفظ الجلالة، فيها وصف تلقائيّ معهود؛ يستعيض به المستمع عن كلّ كلمات الإعجاب والثّناء على القراءة القرآنيّة، وحسن أداء القارئ.»[2] وبهذه القدرة الأدائيّة الّتي يتلاحم فيها التّرتيل الشّرعيّ، والقراءة السّليمة، والجانب التّنغيميّ يتمكّن المقرئ من التّأثير على مستمعيه، وشدّهم إلى مواصلة الاستماع دون كلل أو ملل.

لنستخلص أنّ القارئ البارع هو الّذي يظهر براعته التّنغيميّة في قدرته على التّحوّل من آية إلى أخرى؛ مراعيا ما تحمله كلّ آية من صور أو مشاهد أو مواعظ، ويتجلّى ذلك في التّنوّع النّغميّ الّذي يتماشى مع وتيرة الإيقاع، ومع التّقطيع والتّعبيرات الّتي تختلف بين الشّدّة واللّين والرّقّة والعنف، ولأنّ القارئ في ترتيله للسّور القرآنيّة الكريمة بواسطة التّحوّلات التّنغيميّة يعتني في ذلك «بالمعنى المشهديّ أوّلا؛ ثمّ بجماليّات التّعبير الصّوتيّ ثانيا، وهاتان المهمّتان الأساسيّتان «المعنى والجمال» هما غاية المقرئ؛ يوظّف كلّ وسائله وطاقاته الممكنة لتحقيقها، والقرّاء المجيدون لطرائق التّجويد القرآنيّ يتحمّلون المسؤوليّة الأخلاقيّة والدّينيّة في التّعبير عن دلالات القرآن الكريم وغاياته.»[3] إنّه الخطاب

[1]-المرجع نفسه، ص: 144.

[2]- موسوعة البيان لقرّاء القرآن، عبد العزيز الشّبراويّ، ص: 16.

[3]- المرجع نفسه، ص: 18.

القرآنيّ الّذي يحتاج من المقرئ أداء يقرّب به المعنى، وهي مسؤوليّة ثقيلة، صاحبها يحتاج إلى تدريب الصّوت وتحسينه؛ مراعيا كلّ علم يساعده على تزيين الصّوت، وتجميل الأداء.

إنّ التّنعيم -كما جاء في تعريفات العديد من اللّسانيّين- هو تغييرات تنتاب صوت المتكلّم من صعود إلى هبوط، ومن هبوط إلى صعود لبيان مشاعر الفرح أو النّفيّ أو الغضب أو الإثبات أو التّهكّم أو الاستهزاء أو الاستغراب[1]. «والتّنعيم في الكلام يقوم مقام التّرقيم في الكتابة غير أنّ التّنغيم أوضح من التّرقيم في الدّلالة على المعنى الوظيفيّ للجملة.»[2] والنّغمات في نظام التّنغيم الصّوتيّ نغمة هابطة ونغمة صاعدة ونغمة مستوية؛ يكون وقوعها على المقطع الّذي يحتوي على النّبر[3]. وأمّا ضرورة التّنغيم في النّصّ القرآنيّ؛ فلأنّه يكاد يخلو من علامات التّرقيم الدّالة على المعاني؛ إلاّ ما تؤدّيه علامات التّجويد الّتي هي بمثابة النّقطة أو الفاصلة، ولذلك إنّ الحاجة ماسّة لإبراز دور التّنغيم في القرآن الكريم في كثير من تراكيبه لتّوضيح الدّلالة الدّقيقة، «من ذلك قوله تعالى:﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ٧٥﴾ يوسف:٧٤ - ٧٥، فلا شكّ في أنّ تنغيم جملة «قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ» بنغمة الاستفهام، وجملة «مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ» بنغمة التّقرير سيقرّب معنى الآيات إلى الأذهان، ويكشف عن مضمونها.»[4]

يتفرّد القرآن الكريم بقراءة خاصّة غير موجودة في أيّ نصّ آخر، وقد وضع علماء التّجويد أحكاما تحافظ على إخراج أصواته إخراجا محكما، وترتيل آياته ترتيلا كما نزلت من عند الله سبحانه وتعالى على نبيّه محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، وكانت عناية علماء المسلمين بعامّة، وعلماء التّجويد بخاصّة فائقة في نقل النّصّ القرآنيّ كما نزل، وقد نقلوه لنا على مرّ العصور جيلا بعد جيل محافظا على أصواته وطرق تعابيره؛ فكان لذلك ترتيل القرآن الكريم، وكمال ترتيله تفخيم ألفاظه والإبانة عن حروفه والإفصاح لجميعه بالتّدبّر[5].

(1)- ينظر: في البحث الصّوتيّ عند العرب، خليل إبراهيم العطيّة، ص: 63.

(2)- اللّغة العربيّة معناها ومبناها، تمّام حسّان، ص: 229.

(3)- مناهج البحث في اللّغة، تمّام حسّان، ص: 136.

(4)- علم الدّلالة، هادي نهر، ص: 13.

(5)- ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزّركشيّ، ج 01، ص: 422 وما بعدها.

وممّا يدخل في باب التّرتيل؛ أن يتمثّل القارئ الآيات الّتي يتلوها بنبرات صوته؛ فيُظهر مواضع الاستفهام أو التّعجّب أو التّقرير أو غير ذلك من الأساليب الخبريّة والإنشائيّة؛ خاصّة أنّ المصاحف الشّريفة مكتوبة من غير علامات التّرقيم المعروفة في الدّرس الإملائيّ؛ فإنّ الأمر يحتاج إلى توضيحها وتوفيّتها حقّها صوتيّا، والدّليل على ذلك ما أشار إليه الزّركشيّ أنّ وجوه الخطاب في القرآن تأتي على نحو من أربعين وجها[1].

ويرى أنّ القارئ المجيد هو «الّذي تكون تلاوته على معاني الكلام، وشهادة وصف المتكلّم، مثل الوعد بالتّشويق، والوعيد بالتّخويف، والإنذار بالتّشديد؛ فهذا القارئ أحسن النّاس صوتا بالقرآن، وفي مثل هذا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ البقرة: ١٢١؛»[2] وهكذا تأتي التّلاوة بوجوهها، والقراءة على منازلها، وحسن الصّوت عند قرّاء القرآن عن طريق الأداء التّنغيميّ. وبهذا يُحْكَمُ على التّنغيم بأنّه يحقّق وظائف عديدة سواء أثناء أداء الكلام أو القراءة القرآنيّة أو إلقاء الخطب.

وفي هذا إلزام للحفاظ على ظاهرة التّنغيم، فقراءة القرآن الكريم كما قال القرطبيّ: «هي أصوات القرّاء ونغماتهم.»[3] ولذلك فإنّ علم التّجويد لا يهتمّ فقط بالحفاظ على إخراج الأصوات من مخارجها، وإنّما يتعدّى ذلك إلى طريقة إخراج الجمل الّتي تكوّن الآيات الكريمات؛ فيجب على قارئ القرآن الاهتمام بتحسين صوته عند تلاوته لآياته، «ومن جملة تحسينه أن يراعى فيه قوانين النّغم؛»[4] تلك القوانين الّتي ينظّمها التّنغيم الّذي يعدّ في ميدان الدّرس الصّوتيّ العربيّ من أهمّ الظّواهر فوق المقطعيّة، ويعني طرق النّطق المتعدّدة للجملة الواحدة الّتي تصاحب أداءها.

---

[1]- ينظر ذلك في ص: 199 من هذه الدّراسة.

[2]- البرهان في علوم القرآن، الزّركشيّ، ج 02، ص: 82.

[3]- الجامع لأحكام القرآن، ج 01، ص: 09.

[4]- لطائف الإشارات، القسطلانيّ، ج 01، ص: 217.

المبحث الثّاني: عـلاقــة الإيقــاع بالتّنغيـــم

1 – مفهوم الإيقاع Rhythm

أ – التّعريف اللّغويّ للإيقاع:

الإيقاع لغة يقال: «وقع الشّيء موقعه، وموقَعة الطّائر بفتح القاف: الموضع الّذي يقع عليه، ووقيعة البازيّ: الموضع الّذي يألفه فيقع عليه. والوقْع بالتّسكين: المكان من الجبل، ووقع الشّيء وقوعا: سقط، وأوقعه غيره.»[1] والوقع: سرعة الانطلاق والذّهاب، والوَقْعَة بالحرب: صدمة بعد صدمة[2]. «والوقع: وقعة الضّرب بالشّيء، وسرعة الانطلاق والذّهاب. ووقائع العرب: أيّام حروبها، والواقعة: النّازلة الشّديدة، وموقعة الطّائر: موضع يقع عليه.»[3] والإيقاع في المعاجم العربيّة مصدر مشتقّ من «أوقع يعني: بيّن وأوضح، ويستعمل التّوقيع مصدرا للفعل وقّع ألحق واغتاب ولام وأصاب، كما تستعمل الوقع والوقوع مصدرين للفعل وقع: بمعنى سقط ونزل وضرب.»[4] لقد جاء في لسان العرب: «الإيقاع من إيقاع اللّحن والغناء، وهو أن يوقّع الألحان ويبيّنها، وسمّى الخليل كتابا في ذلك المعنى كتاب الإيقاع.»[5] وفي كتاب الإفصاح في فقه اللّغة أنّ الإيقاع حركات متساوية الأدوار وعودات متوالية، وقيل هو إيقاع ألحان الغناء، وهو أن يوقّع الألحان ويبيّنها[6]. أمّا في كتاب المرام في في معاني الكلام « فالإيقاع مصدر أوقع النّقر على الطّبلة باتّفاق الأصوات والألحان.»[7] وجاء أيضا أيضا في قاموس المحيط «الإيقاع إيقاع ألحان الغناء: وهو أن يوقّع الألحان ويبيّنها.»[8] نلاحظ أنّ هناك شبه اتّفاق بين المعاجم العربيّة في تبيان معنى الإيقاع، والمتمثّل في البيان، والتّوضيح، وإحداث اللّحن والغناء، وتبيان اللّحون، أمّا التّوقيع: فمنه الإصابة والسّقوط والضّرب والنّزول واللّوم.

ب – التّعريف الاصطلاحيّ للإيقاع:

---

(1)– الصّحاح في اللّغة والعلوم، الجوهريّ، ج 02، مادّة: وقع.

(2)– القاموس المحيط، الفيروزباديّ، مادّة: وقع.

(3)– ترتيب القاموس المحيط، الطّاهر أحمد الزّاويّ، ج 04، مادّة: وقع.

(4)– البنيّة الإيقاعيّة في شعر البحتريّ، عمر خليفة بن إدريس، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط1، 2003م، ص: 67.

(5)– ابن منظور، ج 10، مادّة: وقع.

(6)– ينظر: الإفصاح في فقه اللّغة، حسن يوسف موسى، وعبد الفتّاح الصّعيديّ، دار الفكر العربيّ، مصر، ط2، د ت، ج 02، 02، ص: 1003.

(7)– القاموس الكامل، مؤنس رشاد الدّين، دار الرّاتب الجامعيّة، لبنان، ط1، 2000م، ص: 150.

(8)– الفيروزباديّ، مادّة: وقع.

لقد امتثل في اعتقادنا أنّ الإيقاع مرتبط بالشّعر دون النّثر؛ فهو يعدّ «من القضايا الصّوتيّة الّتي كانت محور دراسات تناولت –في أغلب الأحيان– الخطاب الشّعريّ، بينما ظلّت قليلة؛ بل نادرة في النّثر لخصوصيّته؛ إذ اعتبر دوما ميدانا للتّوصيل والإبلاغ.»[1] وإنّ دراسته لن تتوغّل فيما له علاقة بالشّعر فقط؛ وإنّما سيكون اهتمامها الأكبر بعلاقته بالتنغيم في الخطاب القرآنيّ. الإيقاع في الاصطلاح هو «اتّفاق الأصوات وتوقيعها في الغناء، أو إيقاع ألحان الغناء.»[2] وهو عند عبد الخالق الخالق العفّ «تنظيم لأصوات اللّغة في أزمنة محدّدة، وتوظيف لقيم هذه الأصوات وخصائصها النّوعيّة.»[3] ويعرَّفُ أيضا بأنّه «تواتر الحركة النّغميّة، وتكرار الوقوع المطرد للنّبرة في الإلقاء، وتدفّق الكلام المنظوم والمنثور عن طريق تآلف مختصر العناصر الموسيقيّة؛ يزيده تساوق الحروف الموسيقيّة والصّفيريّة وحروف العلّة بنسق رتيب، ويقع في النّثر عن طريق السّجع، وتوازن التّراكيب وتنوّع الحركات، والتّنويع المنتظم للجمل الطّويلة.»[4] الملاحظ أنّ المعنى اللّغويّ والمعنى الاصطلاحيّ يتّحدان يتّحدان في معنى الإيقاع إنّه إيقاع اللّحن والغناء بأن تقع في النّفوس. كما أنّه يمثّل تتابع الحركات وما تحمله من نغمات، وتكرار النّبرات أثناء الإلقاء، زائد هذا التّجانس في موسيقيّة الحروف، وما يحدثه من توازن في التّراكيب وانتظامها.

لقد تناول علماؤنا القدماء جوهر الإيقاع «من خلال المادّة الّتي تجسّد الحركة الإيقاعيّة؛ فكان المصطلح عندهم ألصق بمفهوم الإيقاع الموسيقيّ؛ لأنّ التّوالي الزّمنيّ هو الجوهر الموسيقيّ، ومن هنا ركّزت أغلب الدّراسات على ارتباطه بالزّمن، وأهملت الحركة، ولم يلحظه الدّارسون إلاّ من خلال الموسيقى والوزن الشّعريّ؛ مع أنّ أوضح مظاهره في العمارة والزّخرف الإسلاميّين، كما كان الأساس الّذي قامت عليه علوم البلاغة والفنّ اللّغويّ.»[5] ومن هنا وضع ابن سينا تعريفا للإيقاع «أنّه تقدير لزمن النّقرات؛ فإن اتّفق أن كانت النّقرات منغّمة كان الإيقاع لحنا، وإذا اتّفق أن كانت النّقرات محدثة

---

(1)- علم الأصوات اللّغويّة، أحمد عزوز، ص: 67.

(2)- إعجاز القرآن، عبد العزيز أمير، جامعة النّجاح الوطنيّة، نابلس، ط1، 2007م، ص: 98.

(3)- التّشكيل الجماليّ في الشّعر الفلسطينيّ المعاصر، عبد الخالق العفّ، مطبوعات وزارة الثّقافة، غزّة، ط1، 2000م، ص:241.

(4)- المعجم المفصّل في علم اللّغة، محمّد التّونجيّ، ج 01، مادّة: وقع.

(5)- الأسس الجماليّة في النّقد العربيّ، د. عزّ الدّين إسماعيل، دار الفكر العربيّ، مصر، د ط، 1955م، ص: 115.

للحروف المنتظم منها الكلام؛ كان الإيقاع شعريّا.»[1] لقد عدّ ابن سينا النّقرة أساس تشكّل الإيقاع، وهي صوت يصدر إمّا عن آلة موسيقيّة أو عن جهاز النّطق؛ فإذا صدر عن آلة موسيقيّة وفق أزمنة متساوية كان لحنا، وأمّا إذا صدر عن جهاز النّطق؛ فلا ينتج إلاّ أصواتا صامتة، والزّمن الّذي بين الصّوامت تشغله الصّوائت.

ويُعَرِّفُ تمّام حسّان الإيقاع بأنّه «حركة النّغم الصّادر عن تأليف الكلام المنثور والمنظوم، والنّاتج عن تجاوز أصوات الحروف في اللّفظة الواحدة، وعن نسق تزاوج الكلمات فيما بينها، وعن اِنتظام ذلك كلّه.»[2] يفهم من هذا أنّ الإيقاع يوجد في الكلام نثرا كان أو شعرا. ويقف تمّام حسّان الموقف نفسه عند كلامه عن الإيقاع؛ الّذي يرى أنّه مصطلح اِرتبط في مفهومنا بالشّعر الموزون،[3] فيقال: «إيقاع الشّعر؛» غير أنّه يرتبط أيضا بصور التّعبير الأخرى، مثل: الموسيقى والغناء والنّثر، وللتّفريق بين إيقاع الشّعر[4]، وإيقاع النّثر –في نظر تمّام حسّان دائما– فإنّه أعطى كلاًّ منهما مصطلحا خاصّاً به، فنقول في الأوّل: وزن الشّعر، ونقول في الثّاني: توازن[5]. ولقد ربط دراسة الإيقاع في النّثر بالمقطع، فقال: «إنّ المدخل إلى دراسة الإيقاع لا يكون إلاّ من خلال معرفة المقاطع العربيّة المختلفة، وما يتّصل بذلك من قواعد النّثر في الكلام.»[6]

كما ربطه بنبر السّياق لذلك طَالَبَ منشئ النّصّ «أن يمنح نصّه من رشاقة الإيقاع ما لا يستطيعه المتكلّم العادي؛ حتّى إذا قرأت هذا النّصّ المنثور؛ أحسست له خفّة على اللّسان، وراحة في الأذن، وقبولا في النّفس؛ يقترب بك بما تجده من ذلك بوزن الشّعر.»[7] نستنتج من ذلك أنّ ربط

---

(1)- جوامع علم الموسيقى، الشّيخ الرّئيس أبو عليّ الحسين بن عبد الله، تحقيق: زكريا يوسف، نشرة وزارة التّربيّة، القاهرة، ط1، 1956م، المجلّد: 06، ص: 81.

(2)- ا المعجم المفصّل في اللّغة والأدب، إميل بديع يعقوب، المجلّد: 01، مادّة: وقع.

(3)- ينظر: الإيقاع في الشّعر العربيّ، محمود المسعديّ، مؤسّسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، د ط، 1986م، ص: 05 وما بعدها.

(4)- ينظر:

Structure du langage poétique ; Jean Cohen ; Paris ; Flammarion « Nouvelle Bibliothèque scientifique » ; 1966 ; P : 42.

(5)- ينظر: البيان في روائع القرآن، ج 01، ص: 175.

(6)- المرجع نفسه، ص: 176.

(7)- المرجع نفسه، ص: 184.

تمّام حسّان للإيقاع بالمقطع، وربطه بنبر السّياق هو دعوة منه إلى تأليف نصوص نثريّة راقية[1]. فهو يريد أن يرقى بمستوى التّأليف في النّثر إلى مستوى الشّعر؛ لما للشّعر من وقع على النّفس، ويكون ذلك بالإيقاع الّذي يميّز الكلام العادي عن التّأليف؛ بل له القدرة على التّمييز بين نصّ ونصّ، وبالتّالي يمكن أن نصف النّصّ الموقّع أنّه «ذو أسلوب موسيقيّ موقّع أو رشيق، دون أن يلجأ منشئه إلى المحسّنات اللّفظيّة،»[2] فمن غير المحتّم أن نعتبر صور البديع من سجع وجناس؛ هي الأساس في إنشاء نصّ موقّع رشيق له تأثيره على القارئ. وبما أنّ الإيقاع هو إحساس بالتّكرار المنتظم Redundancy، والمتشابه، والمتعاقب، والمتقارب[3]؛ فإنّ ذلك التّقارب والاِنتظام يوجد في إيقاع إيقاع الأسلوب القرآنيّ، «وذلك لتقارب المقاطع بين نبر ونبر، أو اِنتظام أو اِختلاف بعضها عن بعض ممّا يحدث حسنا في إيقاعها.»[4]

لقد تمّ التّوسع في مفهوم الإيقاع بعد أن احتكّ العرب بالثّقافة الغربيّة،؛ الّتي استمدّت الكلمة من اللّغة اليونانيّة، وهذه الأخيرة بدورها استعملت الإيقاع الّذي «يعني الجريان أو التّدفّق، والمقصود به عامّة هو التّواتر المتتابع بين حالتي الصّوت والصّمت، أو النّور والظّلام، أو الحركة والسّكون، أو القوّة والضّعف، أو الضّغط واللّين، أو القصر والطّول، أو الإسراع والإبطاء، أو التّوتّر والاسترخاء، وهو يمثّل العلاقة بين الجزء والجزء، وبين الجزء وكلّ الأجزاء الأخرى للأثر الفنّيّ أو الأدبيّ، ويكون ذلك في قالب متحرّك متزن في الأسلوب الأدبيّ أو في الشّكل الفنّيّ، ويستطيع الفنان الأديب أن يعتمد على الإيقاع باعتماده طريقة من ثلاث: التّكرار أو التّعاقب أو التّرابط.»[5] وذلك من خلال الانسجام الحاصل بين الوقع في السّمع من قبل الكلمة، واللّذان يتقطعان في إحداث الأثر في النّفس والإحساس بحركة الجمال الّتي يحدثها الإيقاع.

---

[1]- للإيقاع سبعة قوانين هي: النّظام – التّغيّر – التّساوي – التّوازي – التّوازن – التّلازم – التّآزر. - ينظر: نظريّة التّصوير الفنيّ عند سيّد قطب، د. صلاح عبد الفتّاح الخالديّ، شركة الشّهاب، الجزائر، د ط، 1982م، ص: 92.

[2]- ينظر: البيان في روائع القرآن، تمّام حسّان، ج 01، ص: 184.

[3]- ينظر: أصوات اللّغة، عبد الرّحمن أيّوب، ص: 153.

[4]- البيان في روائع القرآن، تمّام حسّان، ج 01، ص: 185.

[5]- معجم المصطلحات العربيّة في اللّغة والأدب، مجديّ وهبة، وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1984م، ص:71. ص:71.

ويعرّف محمّد مندور الإيقاع بقوله: «أمّا الإيقاع فهو عبارة عن رجوع ظاهرة صوتيّة ما على مسافات زمنيّة متساوية أو متجاوبة،»[1] في حين أنّ الإيقاع عند كمال أبو ديب هو مرتبط «بحيويّة داخليّة أعمق هي النّبر الّذي يوضع على نوى معيّنة من البيت.»[2] نستخلص من ذلك كلّه أنّ الإيقاع يكتسي أهميّة بالغة في تأثيره على المتلقّي؛ لأنّه يراعي الحالة النّفسيّة للسّامع، وليس المتكلّم فقط، ومن خلاله يدرك صوت الكلمات وما فيها من دلالة وإحساس وشعور، ويخضع الإيقاع لتجربة الكاتب أثناء صياغته لخطابه، فقد يكون هادئا مطمئنّا موحيا بالسّلامة أو الحزن أو الكآبة، وقد يكون متعثّرا حادّا يوحي باضطراب النّفس، ذلك أنّ الإيقاع الدّاخليّ الّذي هو «جرس اللّفظة ووقعها على السّمع النّاشئ من تأليف أصوات حروفها وحركاتها وسكناتها، ومدى توافقه مع دلالة اللّفظة، هو والحقّ الموسيقيّ الّذي يحدثه عند النّطق بها؛ يعتبر من أهمّ المنبّهات المثيرة للانفعالات الخاصّة المناسبة.»[3] هكذا هو الإيقاع في علاقته بين الصّوت والصّورة، وفي تأثيره على المتكلّم والسّامع؛ عبارة عن نظام له جماليّته المميّزة في كلّ فنّ من الفنون.

2 – دلالة الإيقاع وارتباطه بالتّنغيم في الخطاب القرآنيّ[4]

إنّ أيّة لغة لا تخلو من ثلاثة عناصر وهي: المقاطع، والنّبر، والتّنغيم، وأنّ دراسة الإيقاع الصّوتيّ لا بدّ أن تقوم على هذه العناصر الثّلاثة، وعند قراءة القرآن الكريم قراءة سليمة يمكن إدراك تميّزه بأسلوب الإيقاع الّذي ينبعث من نغم؛ يبهر الألباب، ويسترق الأسماع، ويستولي على الأحاسيس والمشاعر؛ مجسّدا بذلك النّسق القرآنيّ، والمتمثّل في جمعه بين خصائص الشّعر والنّثر، يقول سيّد قطب: «النّسق القرآنيّ قد جمع بين مزايا الشّعر والنّثر جميعا، فقد أعفى التّعبير من قيود القافيّة الموحّدة والتّفعيلات التّامّة، فنال بذلك حريّة التّعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامّة، وأخذ في

(1)- في الميزان الجديد، د.محمّد مندور، مكتبة النّهضة، القاهرة، ط2، د ت، ص: 187.

(2)- في البنيّة الإيقاعيّة للشّعر العربيّ، نحو بديل جذريّ لعروض الخليل، ومقدّمة في علم الإيقاع المقارن، د.كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1974م، ص: 230 -231.

(3)- علم الأصوات اللّغويّة، أحمد عزوز، ص: 67 – 68.

(4)- يرى سيّد قطب أنّ اللّغة العربيّة لغة موسيقيّة شاعرة، ولأنّ القرآن إعجاز بيانيّ كامل، ويتمثّل فيه الأسلوب الفنيّ المعجز؛ فلا بدّ من أن يوجد فيه الإيقاع الموسيقيّ المعجز. ولا ضرر من نسبة الجرس والإيقاع أو الموسيقى إلى أسلوب القرآن، وأن نلحظ وجودها فيه، وأن نبيّنها للنّاس كافة؛ لأنّ القرآن الكريم يسير على سنن العربيّة وأساليبها في التّعبير. إنّ الموسيقى تكمن في أسلوب القرآن، وإنّ الإيقاع فيه يتألّف من عدّة عناصر: مخارج الحروف، تناسق الإيقاعات بين الكلمات، اِتّجاهات المدّ في الكلمات، اِتّجاهات المدّ في نهاية الفاصلة في الآيات، ومن حرف الفاصلة ذاته. – في ظلال القرآن، سيّد قطب، ج 04، ص: 2038.

الوقت ذاته من خصائص الشّعر، الموسيقى الدّاخليّة والفواصل المتقاربة في الوزن؛ الّتي تُغْنِي عن التّفاعيل، والتّقفيّة الّتي تغني عن القوافيّ، وضمّ ذلك إلى الخصائص الّتي ذكرنا فجمع النّثر والنّظم جميعا.»[1] كلّ ذلك يحدث ما يسمّى بالتّناسق والانسجام الصّوتيّ الّذي وُجِدَ في النّصّ القرآنيّ بشكل جليّ وآخاذ أكثر من غيره من النّصوص الوضعيّة؛ فحين نسمع القرآن الكريم يُتْلَى من قارئ مجيد للتّلاوة والقراءة؛ نشعر أنّه وحدة موسيقيّة متوازنة؛ ممّا يبعث الطّرب عندما تسمعه الآذان، وترتاح له النّفوس، ومن يسمع القرآن «إنّما يسمع ضربا خالصا من الموسيقى اللّغويّة في انسجامه، واطّراد نسقه واتّزانه على أجزاء النّفس مقطعا مقطعا، ونبرة نبرة.»[2]

هذا التّناسق في الأداء هو نتيجة ما يصحب الألفاظ من صفات الحروف وجرسها والحركات بشكل منتظم، فأوزان الكلمات، وأجراس الحروف هو الّذي أحدث صدمة نفسيّة للعرب عندما سمعوه أوّل مرّة[3]، ووقفوا حائرين أمام وصفه، «فلمّا قرئ عليهم القرآن رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، ألحانا لغويّة رائعة، كأنّما لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة؛ قراءتها هي توقيعها... حتّى إنّ من عارضه كمسيلمة جنح في خرافاته إلى حسبه نظما موسيقيّا أو بابا منه، وطوى عمّا وراء ذلك من التّصرّف في اللّغة، ومحاسنها ودقائق التّركيب البيّانيّ؛ كأنّه فطن إلى الصّدمة الأولى للنّفس العربيّة؛ إنّما هي في أوزان الكلمات، وأجراس الحروف دون ما عداها... وموسيقى الحرف والكلمة والجملة.»[4] فعلى الرّغم من أنّ إعجاز القرآن الكريم يشمل ذلك الكلّ المركّب من الشّكل والمضمون؛ إلاّ أنّ الحالة الأولى من الانبهار الّتي سلبت عقول النّاس، وأثارت حيرتهم هو ذلك الجرس والتّوقيع والنّغمات المكوّنة للخاصيّة الموسيقيّة الّتي يتميّز بها كلام الله تعالى عن غيره من كلام البشر.

والنّغم القرآنيّ ناتج عن الجمل المتناسقة والفواصل المتساوية في إيقاع موسيقيّ متّزن؛ يكون له سحرا وبيانا، ويمكن تمثيل تساوق الإيقاع مع التّنغيم في القرآن الكريم من خلال الدّعاء الصّاعد عن سيّدنا زكريا –عليه السّلام– ممتلئا رهبة؛ ليفصح عن عواطف عميقة شديدة التّأثير؛ «بل إنّ زكريا في دعائه ليحرّك القلوب المتحجّرة بتعبيره الصّادق عن حزنه، وأساه خوفا من انقطاع عقبه، وهو قائم

---

[1]– التّصوير الفنيّ في القرآن، سيّد قطب، ص: 103.

[2]– تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرّافعيّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، د ط، د ت، ج 02، ص: 255.

[3]– على حدّ تعبير الرّافعيّ. – ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 243.

[4]– المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

يصلّي في المحراب ينادي اسم ربّه خفّيا، ويكرّر اسم ربّه بكرة وعشيّا، ويقول في لوعة الإنسان المحروم، وفي إيمان صادق صاف.»[1]

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦﴾ مريم: ٤ – ٦. لقد ظهر الإيقاع في دعاء زكريا –عليه السّلام– بنداء خفيّ مناجيا ربّه؛ يشعرك تنغيمه للنّداء أنّه كان في خلوة؛ وألحان تضرّعه تتصاعد خفية إلى السّماء؛ على عكس لو أنّ التضرّع لله –عزّ وجلّ– كان صادرا عن جماعة من النّاس منهم الرّجال والنّساء؛ الكبار والصّغار يشتركون بأصوات رخيمة أنغامها بين الصّعود والهبوط؛ ترجو مغفرة الله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾ آل عمران: ١٩١ – ١٩٤، الملاحظ على الآيات تكرار كلمة –ربّنا– فيها لين للقلوب، وفي التّكرار كما يرى الخطابيّ تعظيم للأمور[2]، فتعظيما لله جلّت قدرته في كلّ شيء؛ تمّ تكرار لفظة –ربّنا– في الآيات[3]. وأمّا ما كان من أمر الوقوف على الرّاء السّاكنة هو مساعد على زيادة التّرخيم والتّرنّم[4].

---

[1]– الإيقاع في القصّة القرآنيّة، إبراهيم جنداوي، مجلّة الموقف العربيّ، دمشق، العدد: 379، 2002م، ص: 186.

[2]– ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الرّمانيّ والخطابيّ وعبد القاهر الجرجانيّ، ص: 35.

[3]– يرى الزّمخشريّ في التّكرار وخاصّة في القرآن الكريم فائدة جليلة، تتمثّل «فائدته أن يجدّدوا عند استماع كلّ نبأ منها اتّعاظا وتنبيها، وأنّ كلاّ من تلك الأنباء مستحقّ لاعتبار يختصّ به، وأن ينبهوا كي لا يغلبه السّرور والغفلة.» – الكشّاف، ج 04، ص: 435.

[4]– ينظر: علم اللّغة، مقدّمة للقارئ العربيّ، محمود السّعران، ص: 171.

يعتبر الإيقاع من الظّواهر الصّوتيّة الّتي تؤثّر في السّامع من خلال نغمه، وهيئة أدائه، فهو يمثّل «تواتر الحركة النّغميّة من حيث تآلف مختلف العناصر الموسيقيّة، أو تنافرها ومن حيث درجة ذلك التّآلف، ومؤثّراته الإيحائيّة غنى أو فقرا، اِتساعا أو ضيقا، تنوّعا أو رتابة.»[1] ممّا يؤكّد أنّ في اللّغة عناصر صوتيّة تقوم مباشرة بتمييز معاني الجمل، «والإيقاع وسيلة صوتيّة تبيّن وقوع التّنغيم في نهاية الجملة، أيّ نهاية المعنى الّذي تقدّمه الجملة.»[2] فهو بذلك مكوّن من مكوّنات التّنغيم، له دوره في تحديد المعنى. ويتّصل الإيقاع بجانب الإحساس والعاطفة، وله أثر عجيب على النّفوس، وهو ما عبّر عنه الجاحظ بتأثير الأصوات، إذ يقول: «وأمر الصّوت عجيب، وتصرّفه في الوجوه عجب؛ فمن ذلك أنّ منه ما يقتل كصوت الصّاعقة، ومنه ما يسرّ النّفوس حتّى يفرط عليها السّرور حتّى ترقص، وحتّى ربّما رمى الرّجل بنفسه من حالق، وذلك مثل الأغاني المطربة؛ لأنّ في ذلك ما يزيل العقل حتّى يغشى على أصحابه، كنحو هذه الأصوات الشّجيّة، والقراءات الملحنة. وقد بكى ماسرجويه من قراءة أبي الخوخ فقيل له: كيف بكيت من كتاب الله ولا تصدّق به؟ قال: إنّما أبكاني الشّجا.»[3]

لقد أدرك الجاحظ تأثير الصّوت على المتلقّي من خلال الإيقاع[4]؛ الّذي ينقل حالة المتكلّم النّفسيّة إلى السّامع، ولكي يصل قارئ القرآن إلى هذه الدّرجة من التّأثير في المتلقّي؛ عليه اِلتزام بعض الشّروط أثناء التّلاوة، «وهي أن يقرأ بصوت، كلماته متّصلة الأجزاء، وتراكيبه مقطّعة ليس فيها تداخل؛»[5] فيكون بذلك قد أدّى الطّريقة اللاّزمة بقراءة القرآن؛ مطبّقا قوله تعالى: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾ المزمل: ٤.

---

[1]- ستّ محاضرات في الصّوت والمعنى، رومان جاكبسون، ترجمة: حسن ناظم، وعليّ حاكم صالح، المركز الثّقافيّ للنّشر، بيروت، ط1، 1994م، ص: 91.

[2]- المرجع نفسه، ص: 91 – 92.

[3]- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق: فوزيّ عطويّ، مكتبة النّوريّ، ط1، د ت، ج 04، ص: 91.

[4]- لا يخفى علينا أنّ مادّة الصّوت هي مظهر الاِنفعال النّفسيّ، وأنّ الاِنفعال بطبيعته إنّما هو سبب في تنويع الصّوت، بما يخرجه فيه مدّا أو غنّة أولينا أو شدّة، وبما يهيّئ له من الحركات المختلفة في اِضطرابه وتتابعه؛ ثمّ هو يجعل الصّوت إلى الإيجاز والاِجتماع، أو الإطناب والبسط بمقدار ما يكسبه من الحدوة والاِرتفاع والاِهتزاز وبعد المدى؛ ممّا هو بلاغة الصّوت في لغة الموسيقى. – ينظر تفصيل ذلك في كتاب: إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، الرّافعيّ، ص: 215 – 216.

[5]- كلام الله، الجانب الشّفاهيّ من الظّاهرة القرآنيّة، د. محمّد كريم الكوّاز، دار السّاقي، بيروت، ط1، 2002م، ص: 132.

ولقد تحدّث تمّام حسّان عن الإيقاع، واعتبره من القيم الصّوتيّة الّتي تصلح أن تكون مجالا للفنّ والجمال[1]، وأنّه يكفي أن ننصت إلى صوت قارئ مجيد يرتّل القرآن الكريم؛ فقال: «وسترى عندئذ أنّ ما في القرآن من جمال التّوازن، قد يجاوز أحيانا جمال الوزن،[2] وأُنظر كذلك إلى الكثير من أساليب التّرتيل، وسوف ترى لها جاذبيّة خاصّة تجتذب إليها اِنتباهك، وتمنح أذنك المتعة، ونفسك من الاِرتياح ما لا تجده في الشّعر والغناء.»[3] لقد ارتبط الإيقاع في عاداتنا العقليّة بالشّعر في حين أنّه يرتبط أيضا بصور التّعبير الأخرى مثل: النّثر[4]، وما في القرآن الكريم من جمال التّوازن هو الإيقاع الّذي له تأثيره الخاصّ على نفوس السّامعين.

لقد اِستخدم القرآن الكريم الإيقاع المناسب لأجواء كلّ سورة من سوره؛ فهناك آيات كريمات تمتاز بالإيقاع السّريع، وأخرى تمتاز بإيقاع بطيء وحزين، وهذا التّنويع في الإيقاع الّذي هو تنويع في موسيقاه، وبالتّالي تنويع في الحركة النّغميّة يتناسب مع معاني الآيات ومضامينها[5]، وإذا جمع القارئ هذا التّنوع في الإيقاع، وحسن الصّوت كان أفضل؛ بحيث أنّ الجمع بينهما في قراءة القرآن الكريم وترتيله؛ يحدث نغما موسيقيّا له أثره «في رقّة القلب، وإجراء الدّموع، وإثارة الخشية، وإقبال النّفوس إلى اِستماعه.»[6] ولكن بشرط «ألاّ يخلّ القارئ بشيء من الحروف عن مخرجه، وشرط عدم الخروج عن حدّ القراءة بالتّمطيط الّذي يشوّش النّظم.»[7] وهكذا يؤدّي الإيقاع دوره في اِنبعاث الدّلالة، واِنطلاق المعاني «من خلال وقع النّغمة على الأذن، واِئتلاف المقاطع واِنسجام البناء؛»[8] فيتمّ بذلك بذلك التّجاوب بين كلّ هذه العناصر الصّوتيّة، ودلالتها المعنويّة في القرآن الكريم.

---

(1)- إنّ المتحدّث عندما ينطق؛ فكأنّه يوقّع على بعض أوتاره الصّوتيّة؛ بحيث تنبعث من الفمّ نغمة خاصّة هي الإيقاع الموسيقيّ، والجهاز الصّوتيّ أشبه بمجموعة من الآلات الموسيقيّة؛ يخرج منها الكلام نغمات مختلفة، ودرجات متباينة من الشّدّة والضّعف، والسّعة والبطء؛ الّتي شرحها علماء الأصوات وعلماء التّجويد والقراءات. - نظريّة التّصوير الفنيّ عند سيّد قطب، صلاح عبد الفتّاح الخالديّ، ص: 93.

(2)- يقصد بالوزن الشّعر.

(3)- البيان في روائع القرآن، ج 01، ص: 187.

(4)- ومثل: الموسيقى والغناء.

(5)- ينظر: الصّوت اللّغويّ في القرآن الكريم، حسين عليّ الصغيّر، ص: 176 وما بعدها.

(6)- لطائف الإشارات، القسطلانيّ، ج 01، ص: 250.

(7)- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

8- مقدّمة في اللّسانيّات، د. عاطف فضل، دار الرّازيّ للطّباعة والنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 1426هـ- 2005م، ص:137. ص:137.

نجد مثلا: الإيقاع الّذي يطلق في جوّ الدّعاء والضّراعة والخشوع والإنابة، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ إبراهيم: ٣٨، أو في قوله تبارك وتعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ البقرة: ٢٨٦؛ إيقاعا بطيئا متموّجا رخيّا، وفي رقّة هذه الآيات، وسلاسة إيقاعها يتبدّد الظّلام عن النّفوس، وتنزل الأنوار في القلوب[1]، في حين نجد الإيقاع في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ ٤٣﴾ هود: ٤٢ – ٤٣؛ مختلف عن الآيات السّابقة، فهو طويل وعميق يشترك في رسم الهول: الجوّ، والطّوفان، والرّعب، وساعدت المدّات المتوالية في تقويّته وشدّته[2]؛ حتّى تبعث في نفس السّامع الرّعب من المشهد الرّهيب.

إنّ تأثير الإيقاع القرآنيّ في نفوس سامعيه من خلال حركة النّغم الصّادرة على ألسنة القارئين؛ له صنيعه في القلوب وتأثيره في النّفوس، فإذا قرع السّمع خلص له القلب من اللّذة والحلاوة[3]، وفي ذلك قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ٢٣﴾ الزّمر: ٢٣ ، وذلك ما يعتبره السّيوطي وجها من وجوه الإعجاز القرآنيّ[4]، كما كما أنّ الحركة المنتظمة الّتي يوفّرها الإيقاع في القرآن الكريم ناتجة عن الانسجام والتّوافق النّغميّ

---

(1)- ينظر: لغة القرآن الكريم، عبد الجليل عبد الرّحيم، ص: 09.

(2)- لقد ربط ابن الجزريّ بين المدّ والمعنى، وقال: «وأمّا السّبب المعنويّ للمدّ؛ فهو قصد المبالغة في النّفيّ، وهو سبب قويّ مقصود عند العرب، وإنْ كان أضعف من السّبب اللّفظيّ عند القرّاء؛ ومنه مدّ التّعظيم في نحو «لا إله إلاّ الله، لا إله إلاّ هو، لا إله إلاّ أنت»، كما أكّد استخدام العرب له في الدّعاء والاستغاثة وعند المبالغة في النّفيّ.» – النّشر في القراءات العشر، ابن الجزريّ، ج01، ص: 313 وما بعدها.

(3)- ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السّيوطيّ، ص: 225.

(4)- ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

فيه[1]؛ فهو بذلك ظاهرة عجيبة اِمتاز بها القرآن، «وتتمثّل في اِتّساق القرآن، واِئتلاف حركاته وسكناته، ومدّاته وغنّاته، واِتّصالاته وسكناته، وذلك ما يسترعي الأسماع، ويستهوي النّفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أيّ كلام آخر من منظوم أو منثور،»[2] والتّراكيب القرآنيّة بكلّ ما تحمله من قوانين تراكيب الجملة تتراوح بين القوّة والدّقّة[3]، «إذا هي اِشتدت فأمواج البحار المتلاطمة، وإذا هي رقّت فأنفاس الحياة الآخرة،»[4] وهو ما يدركه السّامع من خلال وقع النّغمة على الأذن، فيعرف الدّلالة المنبعثة عن آي القرآن الحكيم.

إذا اِستمعنا إلى قوله -جلّ وعلا-: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾﴾آل عمران: ٢٦؛ فإنّنا نحسّ الإستئناس والتّقرب والسّلوى والعزاء؛ لما تحمله الآيات من خضوع العبد لربّه وتذلّله وطلب المغفرة؛ لأنّ الظّواهر الصّوتيّة الّتي اِتّسم بها القرآن الكريم من إيقاع ونغم؛ تعمل على تشكيل المعنى، وذلك لما يملكه من قدرة على النّفاذ إلى القلوب، ومردّ ذلك إلى أنّ الإنسان يميل فطريّا للإيقاع؛ فترتاح له نفسه، وتتجاوب مع ما تسمعه منغّما[5]؛ إنّه سرّ أسرار القرآن يكمن في ذاته، وفي أثره على الأسماع، وتأثيره في القلوب، فتنفعل النّفس كلّما قرئ القرآن، يقول الخطابيّ: «في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه النّاس فلا يكاد يعرفه إلاّ الشّاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النّفوس؛ فإنّك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السّمع خلص له القلب من اللّذة والحلاوة في حال ومن الرّوعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر

---

(1)- يرى الرّافعيّ أنّ العرب حين سمعت القرآن الكريم؛ أوّل ما لفتها إليه جرس حروف كلماته وإيقاعها، فرأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله ألحانا لغويّة رائعة، كأنّها لِإئتلافها وتناسبها قطعة واحدة؛ قراءتها هي توقيعها. - إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، الرّافعيّ، ص: 214 وما بعدها.

(2)- التّعبير الفنيّ في القرآن، د. بكريّ شيخ أمين، دار الشّروق، القاهرة، ط4، 1980م، ص: 185.

(3)- تختلف التّراكيب القرآنيّة عن تراكيب الجملة العربيّة؛ بما اِشتملت عليه من إعجاز في البيان وبديع الإحكام والدّقة. - ينظر: الظّاهرة القرآنيّة، مالك بن نبيّ، ترجمة: د. عبد الصّبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط4، 1407هـ - 1987م، ص: 32 وما بعدها.

(4)- لغة القرآن، عبد الجليل عبد الرّحيم، ص: 09.

(5)- للظّواهر الصّوتيّة المذكورة أثر في إيصال المعنى إلى القلب وتقريره فيه، وذلك ما جعل المكذّبين بالقرآن الكريم من كفّار قريش يتناصحون بألاّ يستمعوا إليه، وأن يلغوا فيه لعلّهم يغلبون. قَالَ تَعَالَى:﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ فصلت: ٢٦. - ينظر: التّصوير الفنّي للقرآن، سيّد قطب، ص: 37.

به النّفوس، وتنشرح له الصّدور حتّى إذا أخذت حظّها منه، عادت مرتاعة قد عرّاها الوجيب والقلق، وتغشّاها الخوف والفرق؛ تقشعر منه الجلود، وتفزع له القلوب، يحول بين النّفس وبين مضمراتها وعقائدها الرّاسخة فيها.»[1]

يؤكّد سيّد قطب أنّ الإيقاع حقيقة تدرك من ترتيل وتدبّر القرآن الكريم، فيقول: «حيثما تلا الإنسان القرآن؛ أحسّ بذلك الإيقاع في سياقه؛ يبرز بروزا واضحا في السّور والفواصل السّريعة، ومواضع التّصوير والتّشخيص بصفة عامّة.»[2] وقد مثّل لذلك بسورة النّجم حيث يظهر الإيقاع فيها جليّا من خلال تساوي الآيات في الطّول والقصر، وتساوي الفواصل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ٢٢﴾النّجم: ١ — ٢.

يُلاحظ أنّ الإيقاع الموسيقيّ متوسّط الزّمن تبعا لتوسّط الجملة الموسيقيّة في الطّول منها في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ فلو أنّه قيل: «أفرأيتم اللاّت والعزى ومناة الثّالثة» لاختل التّوازن، وتأثّر الإيقاع، وكذلك في قوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾ فلو قال: «ألكم الذّكر وله الأنثى تلك قسمة ضيزي»؛ لاختل الإيقاع المستقيم بكلمة «إِذًا».[3]

ويقول سيّد قطب أنّه: «لا تحسب أنّ كلمة «ٱلۡأُخۡرَىٰٓ - إِذًا» تجرّدتا لتعديل النّغم، وليس من وراء ذلك ما يسري إلى المعنى المتعقّل فائدة؛ بل هما ضروريّتان في السّياق لنكت معنويّة خاصّة، وتلك ميزة فنيّة أخرى أن تأتي اللّفظة لتؤدّي السّياق، وتؤدّي تناسبا في الإيقاع دون أن يطغى هذا على

---

[1]- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم للرّمّانيّ والخطّابيّ وعبد القاهر الجرجانيّ، ص: 70.

[2]- المرجع نفسه، ص: 103.

[3]- ينظر: التّصوير الفنيّ في القرآن، سيّد قطب، ص: 104.

ذاك، وهذه السّورة في عمومها يسري التّنغيم فيها كما يسري في إيقاع فواصلها،»[1] والقصد من ذلك ضمان سلامة التّنغيم، ودقّة إيقاعه إلى جانب المعنى المقصود الّذي يؤدّيه في التّعبير القرآنيّ، وفي وجود كلمة «ٱلۡأُخۡرَىٰٓ»، وعدم حذفها من الآية؛ يرى الزّمخشريّ أنّ النّعت بها «أيّ: ٱلۡأُخۡرَىٰٓ» المقصود به الذّم، بمعنى ذمّ المتأخرة الوضيعة المقدار كما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ ٣٨﴾ الأعراف: ٣٨؛ أيّ: وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرافهم، ويجوز أن تكون الأوليّة والتّقدّم عندهم للاّت والعزّى[2].

ويدعّم سيّد قطب رأيه في مراعاة إيقاع السّورة للمعنى المقصود –في السّورة نفسها– في قوله –جلّ جلاله–: ﴿أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ٢٤ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ٢٥﴾النّجم: ٢٤ – ٢٥؛ فيها تقديم لكلمة «ٱلۡأٓخِرَةُ» على كلمة «وَٱلۡأُولَىٰ»، وهو تقديم يحمل عطاءين: المعنى المتعقّل، والإيقاع. يقول: «ولا ننسى أن نلحظ هنا تقديم «ٱلۡأٓخِرَةُ» على «وَٱلۡأُولَىٰ» لمراعاة قافيّة السّورة وإيقاعها؛ إلى جانب النّكتة المعنويّة المقصودة بتنغيم «ٱلۡأٓخِرَةُ» على «وَٱلۡأُولَىٰ»؛ كما هي طبيعة الأسلوب القرآنيّ في الجمع بين أداء المعنى، وتنغيم الإيقاع دون إخلال بهذا على حساب هذا،»[3] وفي هذا يرى الطّاهر بن عاشور: «أنّما قدّمت الآخرة للاِهتمام بها، والتّنبيه إلى أنّها الّتي يجب أن يكون اِعتناء المؤمنين بها؛ لأنّ الخطاب في هذه الآية للنّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– والمسلمين مع ما في التّقديم من الرّعاية للفاصلة.»[4] وبهذا تتجلّى العلاقة بين الظّاهرة الصّوتيّة للسّور القرآنيّة المتمثّلة في التّنغيم جرسا وإيقاعات، وبين ما تحمله من معاني الهدى ومقاصد الشّريعة.

ويمكن بقليل من التّدبّر في القرآن الكريم ملاحظة أنّ إيقاع النّصّ القرآنيّ يساوق المعنى، ومَثَّلَ لذلك نعيم اليافيّ بسورة الزّلزلة، قال جلّ شأنه: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ الزّلزلة: ١ – ٨. تبدأ السّورة الكريمة بحركة عنيفة قويّة، تتحدّث عن يوم القيامة

[1]– المرجع نفسه، ص: 104 – 105.

[2]– ينظر: الكشّاف، الزّمخشريّ، ج 04، ص: 30.

[3]– ينظر: في ظلال القرآن، سيّد قطب، ج 06، ص: 3409.

[4]– تفسير التّحرير والتّنوير، ابن عاشور، ج 27، ص: 116.

«حيث ترجف الأرض وتتزلزل، وتنفض ما في جوفها، وهو مشهد مروّع يقف أمامه الإنسان دهشا ضائعا مذعورا لا يكاد يلتقط أنفاسه، خائفا يترقّب؛ في لمحة سريعة يُعْرَضُ مشهد القيّامة من البعث إلى الحساب؛»[1] فإيقاع النّصّ يساوق هذا المعنى «ويحمله؛ فهو مثله لاهث سريع يرجف كالأرض وكالإنسان فرقا واِضطرابا، كلّ ما فيه متحرّك بارز، والسّورة هزّة عنيفة للقلوب الغافلة؛ هزّة يشترك فيها الموضوع، والمشهد، والإيقاع،»[2] وبهذا يأخذ الإيقاع وتنغيم الآيات مجراهما، فتهتزّ القلوب والنّفوس؛ فتؤثّر فيها وتوحي إلى صعوبة الحدث، وتعبّر عن الموقف الّذي يبعث الرّعب.

وتحدّث نعيم اليافيّ -في المقال نفسه- على ما اِشتملت عليه سورة النّازعات من تنوّع في الإيقاع؛ فنتج عنه تنوّع في المعنى، وقسّمها إلى ستّة أقسام وفقا لطبيعة الإيقاع، وفي رأيه كلّ قسم يحمل معنى موافقا للإيقاع الّذي جاء عليه، وهذه الأقسام هي:

القسم الأوّل من (01-05): والّتي اِبتدأت بالقَسَمِ بمخلوقات ذات صفات عظيمة: ﴿**وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥**﴾، هذا القسم «المراد منه تحقيق ما بعده من الخبر، وفي هذا القسم تهويل المقسم به، وجوا ب القسم محذوف، أيّ لتبعثنّ بكفّار مكّة.»[3]

القسم الثّاني من (06-14): والّذي يبدأ بـ «جملة جواب القسم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤**﴾ تهويلا ليوم البعث، وفي طيّه تحقيق وقوعه؛ فحصل إيجاز في الكلام؛ جامع بين الإنذار بوقوعه، والتّحذير ممّا يجري فيه؛»[4] فطابع الإيقاع في القسمين واحد؛ يتمثّل في الإيقاع السّريع الواجف.

---

[1]- عودة إلى موسيقى القرآن، نعيم اليافيّ، ص: 63.

[2]- المرجع نفسه، ص: 63.

[3]- تفسير الجلالين مذيّل بكتاب أسباب النّزول للسّيّوطيّ، الإمامان: العلاّمة جلال الدّين محمّد بن أحمد المحلّى، وجلال الدّين عبد الرّحمن بن أبي بكر السّيوطيّ، تعليق: الشّيخ خالد الحمصيّ الجوجا، مكتبة الملاّح للطّبع والنّشر، دمشق، د ط، 1389هـ - 1969م، ص: 782.

[4]- تفسير التّحرير والتّنوير، ابن عاشور، ج 30، ص 66.

القسم الثّالث من (15–26): يتغيّر الإيقاع بحيث يهدأ وينساب وتمتدّ العبارة، وتطول الجملة، «لأنّ المجال مجال عرض قصصيّ،»[1] فكان ذلك مسلاة لرسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– وتبشيراً بهلاك من يكذّبه، ونجاته هو من أذاهم[2]. يبدأ بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦﴾.

القسم الرّابع من (27 – 33): يتحوّل الإيقاع إلى القوّة؛ بحيث ينتقل من سرد التّاريخ والعظة إلى تأمّل الكون المفتوح ومشاهده الهائلة، «وهذا الاِنتقال من الاِعتبار بأمثالهم من الأمم الّذي فيه تخويف، وتهديد على تكذيب الكافرين إلى الاِستفهام التّقريريّ، أيّ الإقرار بأنّ خلق السّماء أعظم من خلقهم؛»[3] قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣﴾، وهو الّذي أدّى إلى قوّة الإيقاع.

القسم الخامس: (34–41): تعود النّغمة إلى الحدّة والقوّة والعنف؛ لأنّ فيها وصف لمشهد الطّامة الكبرى. قال جلّ شأنه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۝٣٦ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾.

---

[1]– المرجع نفسه، ص: 64.

[2]– ينظر: تفسير البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسيّ، ج 08، ص: 413 وما بعدها.

[3]– ينظر: تفسير التّحرير والتّنوير، ابن عاشور، ج 30، ص: 83.

القسم السّادس: (**42–46**): يأتي الإيقاع سريعا؛ يصوّر هول السّاعة وفخامتها[1]، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

لقد اِشتملت سورة النّازعات –بهذا التّقسيم– على أنغام متنوّعة تنوّع معانيها، وهو الأمر الّذي حرص نعيم اليافيّ، وقبله سيّد قطب على إظهاره[2]، وملاحظة العلاقة القائمة بين الظّواهر الصّوتيّة للسّورة –نغما وإيقاعا– والجوّ العامّ الّذي يلفّها، والمعاني الّتي جاء الخطاب القرآنيّ مصوّرا لها؛ إنّه الجمال الصّوتيّ للقرآن الكريم الّذي نتج عن هذا التّآلف العجيب؛ ليست الغاية منه الوصف والتّصوير فحسب؛ بل مراعاة النّغم أيضا؛ والّذي يأتي من طبيعة الحروف، «وهذا النّغم ليس غاية في ذاته وإنّما هو وسيلة للإيحاء، وللألفاظ قيمة ذاتيّة إذ تقدّم المتعة الحسيّة الّتي يجدها المتلقّي مستمعا أو قارئا؛ فتنشأ من تتابع أجراس حروفها، ومن توالي الأصوات الّتي تتآلف منها في النّطق، وفي الوقوع في الأسماع، كما أنّ التّلاؤم يكون في الكلمة بائتلاف الحروف والأصوات وحلاوة الجرس، ويكون في الكلام بتناسق النّظم وتناسب الفقرات وحسن الإيقاع.»[3] إنّ هذا العرض الموسيقيّ والإيقاعيّ والنّغميّ للآيات له أثره؛ فهو يدعو إلى تذوّق موسيقى حروفه وتناسقها، والحلاوة الّتي تتخلّل كلماته، ووقعها على الأذن في تنوّع نسقها، واختلافها من سورة إلى سورة، وما تبثّه موسيقاه من مشاعر الارتياح أو الانقباض، وما تحدثه من تفاعل.

إنّ الأشكال التّنغيميّة تؤدّي إلى تأسيس إيقاع قرآنيّ متنوّع بتنوّع هذه الأشكال، ويمكن أن نمثّل لذلك فيما يحدث من الإيقاع في آيات الدّعاء، يقول صبحيّ الصّالح: «الدّعاء – بطبيعته – ضرب من النّشيد الصّاعد إلى الله، ولا يحلو وقعه في نفس الضّارع المبتهل إلاّ أن تكون ألفاظه منتقاة، أمّا القرآن نفسه فلم ينطق على لسان النّبيّين والصّدّيقين والصّالحين إلاّ بأحلى الدّعاء نغما، وأروعه سحر بيان.»[4] والدّعاء والتّضرّع والابتهال لله تعالى في القرآن الكريم كثير يرجو المسلمون –من خلاله – من ربّ العزّة؛ المغفرة وحسن الخاتمة وقوّة الإيمان وإنشاد الجنّة والتّعوّذ من النّار؛ ممتلئة

---

(1)– ينظر: عودة إلى موسيقى القرآن، نعيم اليافيّ، ص 65 وما بعدها.

(2)– ينظر: المرجع نفسه، ص: 62 وما بعدها. والتّصوير الفنيّ في القرآن، سيّد قطب، ص: 142 وما بعدها.

(3)– قضايا النّقد الأدبيّ، د. بدويّ طبانة، دار المريخ، الرّياض، د ط، 1988م، ص: 157.

(4)– مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1988م، ص: 337.

نفوسهم بالخوف أو الطّمع، والرّغبة أو الرّهبة؛ فيرفع هذا الدّعاء في تنغيم يتراوح بين الانخفاض والعلوّ، **قال تعالى:** ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ ١٩٥﴾آل عمران: ١٩١ – ١٩٥.

تحمل الآيات الكريمات في بداياتها تنغيما منخفضا؛ لكنّ تنتقل إلى العلوّ نظرا لامتداد الدّعاء وطوله ليعود في نهايتها إلى الانخفاض؛ حاملة ذلك التّزاوج العجيب بين الإيقاع والتّنغيم؛ وهو الأمر الّذي تنبّه إليه سيّد قطب قائلا: «تنطلق ألسنتهم بذلك الدّعاء الطّويل، الخاشع الواجف الرّاجف المنيب ذي النّغم العذب، والإيقاع المناسب، والحرارة البادية في المقاطع والأنغام؛ فهذا المدّ يمنح الدّعاء رنّة رخيّة، وعذوبة صوتيّة؛ تناسب جوّ الدّعاء والتّوجّه والابتهال... وهناك ظاهرة فنيّة أخرى، إنّ عرض هذا المشهد: مشهد التّفكّر والتّدبّر في خلق السّماوات والأرض، واختلاف اللّيل والنّهار؛ يناسبه دعاء خاشع مرتّل طويل النّغم، عميق النّبرات؛ فيطول بذلك عرض المشهد وإيحاءاته ومؤثراته على الأعصاب والأسماع والخيال؛ فيؤثّر في الوجدان بما فيه من خشوع وتنغيم وتوجّه وارتجاف، وهنا طال المشهد بعباراته، وطال بنغماته؛ ممّا يؤدّي غرضا أصيلا من أغراض التّعبير القرآنيّ، ويحقّق سمة فنيّة من سماته.»[1]

وهذه الآيات الكريمات نموذج من النّماذج الّتي تبرز التّزاوج الواضح بين التّنغيم والإيقاع في القرآن الكريم كلّه، «في كلّ سورة منه وآية، وفي كلّ مقطع منه وفقرة، وفي كلّ مشهد منه وقصّة، وفي كلّ مطلع منه وختام، يمتاز بأسلوب إيقاعيّ غنيّ بالموسيقى، مملوءا نغما؛ حتّى لا يكون من الخطأ الشّديد في هذا الباب أن تفاضل فيه بين سورة وأخرى، أو توازن بين مقطع ومقطع.»[2] هكذا هو الإيقاع القرآنيّ وما يحمله من نغمات؛ يتجلّى واضحاً لكلّ من قرأ القرآن الكريم قراءة سليمة فيها ترو

(1)- في ظلال القرآن، ج 04، ص: 546 وما بعدها.

(2)- مباحث في علوم القرآن، صبحيّ الصّالح، ص: 334.

وصبر وأناة، وأطلق العنان للفكر ليتأمّل ويتدبّر، وأصفى روحه لتستلهم منه العبر، وأرهف السّمع لنغماته، وبذلك يصل القرآن الكريم إلى مقصده ألاّ وهو التّأثير المباشر، والعمل المحكم بتعاليمه.

إنّ الالتقاء بين الخطاب القرآنيّ والمتلقّي هو الّذي يكسب النّصّ روحا وحياة، «فللنّصّ حياة تعجّ بالحركة والامتداد؛ بما يحمله من كلمات تعبيريّة وصور فنيّة، وقيم موسيقيّة، وتركيبات بلاغيّة، أمّا عالم المتلقّي فله حياة وخبرات جماليّة وثقافيّة؛ تتّصف هي الأخرى بالحركة والتّقابل والامتداد، ومن خلال عمليّة الإدراك تتصالح الحياتان، وتلتقي الطّاقتان: الطّاقة الكامنة في النّصّ، والطّاقة المنبثقة عن القارئ؛»[1] فتحقّق الطّاقتان أهدافا دينيّة، وأخرى جماليّة، تتوافق مع الفطرة الإنسانيّة، وتتلاءم مع العقل والوجدان.

وتكتمل عمليّة تلقّي الخطاب القرآنيّ؛ وإدراكه إدراكا كاملا وصحيحا؛ عندما «يتداخل العالمان ويتناغمان، فالقرآن يملك قِيَمَهُ الرّوحيّة والفنيّة الخاصّة به، وهذه القيم لا تحضر إليه أو تفرض عليه، والمتلقّي الّذي يكابد قراءته وتدبّره، ويعيش عالمه، ويحلّله لا يجلب معه قيماً يتخيّلها، أو لا يفترض في النّصّ الّذي بين يديه قيماً غير موجودة، إنّه يكشف القيم الكامنة فيه، وفي حالة القرآن تبدو العلاقة بين النّصّ وقارئه أقوى لأنّ الأمر يتعلّق بالإيمان؛ بتلك الحالة النّفسيّة الّتي اشترط بعضهم وجودها لإدراك ما في الكتاب من جمال ومن أداء ومن إعجاز.»[2] إذن تظلّ موسيقى القرآن الكريم بإيقاعها وتنغيمها هي موسيقى النّفس المعبّرة عن حالاتها المختلفة؛ فقد تحمل صوت الفرح والحزن، أو الأمل واليأس، أو الغضب والسّعادة، وتصوّر الأحاسيس، وما تكتنفها من المشاعر والانفعالات لبلوغ الغاية المنشودة تعبيراً وتأثيراً، «هي الموسيقى في القرآن تأخذ مجراها، وتفعل فعلها؛ تهزّ القلوب والنّفوس والأرض والسّماء، تصوّر، توحي، تؤثّر، تميّز، تحكم... وعلينا أن نتذكّر أنّ هذا الكتاب قد نزل على قلب محمّد – صلّى الله عليه وسلّم– بلسان عربيّ، بيانه غناء، وآياته حكم وأمثال، ولغته موسيقى وإيقاع، وترتيل قرآنه عبادة، وهتاف نبيّه المنسوب إليه يملأ الآفاق: «**ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن.**»[3] بهذه الموسيقى يتحقّق التّأثير والتّجاوب مع القرآن الكريم، فالقارئ له يساعده إيقاعه على حفظه وتذكّره، والمستمع له يهزّ نفسه؛ فينفعل مع ما يحتويه.

---

(1)– جماليّات الإيقاع في اللّغة العربيّة، أسامة عبد العزيز جاب الله.

(2)– المرجع نفسه.

(3)– عودة إلى موسيقى القرآن، نعيم اليافيّ، ص: 63.

المبحث الثّالث: علاقة الوقف بالتّنغيم[1]

1 – مفهوم الوقف

أ – التّعريف اللّغويّ للوقف:

الوقف في اللّغة معناه الحبس، يقال: وقف الأرض أو الدّار على المساكين وقفا؛ أيّ: حبسها، ويقال: وقف القارئ على الكلمة وقوفا؛ أيّ: سكت، كما يقال: كلّمته فوقف؛ أيّ: سكت، ومنها أيضا الوقف والسّكون، يقال: وقف وقوفا؛ أيّ: قام من جلوس، وسكن بعد المشي، كما يطلق على المعاينة؛ فيقال: وقف على الشّيء؛ أيّ: عاينه، أمّا وقّفه توفيقا (تشديد القاف)؛ فمعناه علّمه مواضع الوقف[2]. ومنه نلاحظ أنّ كلمة وقف في اللّغة تحمل عدّة معان هي: الحبس، السّكون، السّكوت، علم مواضع الوقف، المعاينة.

ب – التّعريف الاصطلاحيّ للوقف:

الوقف في القراءة: هو قطع النّطق عند آخر الكلمة، ويكون ذلك القطع زمنا يتنفّس فيه عادة بنيّة اِستئناف القراءة لا بنيّة الإعراض[3]. والوقف في علم النّحو البناء على السّكون، قال سيبويه في باب مجاري أواخر الكلم من العربيّة: «وهي تجري على ثمانيّة مجار: على النّصب والجرّ والرّفع والجزم، والفتح والضمّ والكسر والوقف.»[4] والوقف في علم الأصوات هو اِنقطاع الصّوت سمعيّا، وتَوَقُّفُ آليّة النّطق فيزيولوجيّا[5]. نلاحظ أنّ تعريف الوقف اِصطلاحا في العلوم الثّلاثة متشابه في المعنى، فقطعُ النّطق، والسّكون واِنقطاع الصّوت وتوقّفه كلّها متقاربة في الدّلالة. يسمّيه عبد القادر عبد

---

[1]- قد يختلط مفهوم مصطلح الوقف مع مفهوم مصطلحيْ السّكت والقطع، وتبدو عند غير المتمكّنين من علم التّجويد، والعارفين به أنّها ذات معنى واحد؛ لكنّ العلماء يفرّقون بين دلالة كلّ مصطلح، فالسّكت: هو قطع الصّوت زمنا أقلّ من زمن الوقف من غير تنفّس، أمّا القطع: فهو الانصراف عن القراءة والانتهاء منها، وكذا الانشغال عنها بأمر خارج؛ لا علاقة له بها يعتبر قطعا، أمّا الوقف: فيجوز في أواسط الآيات، وهو على أواخرها أتمّ في الغالب، ولا يجب التّعوّذ بعد الوقف، وإن طال زمنه، إذا لم يشتغل بأمر أجنبيّ عن القراءة. – ينظر: الوقف والاِبتداء وصلتهما بالمعنى في القرآن الكريم، د. عبد الكريم إبراهيم عوض صالح، دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة، القاهرة، ط1، 1427هـ- 2006م، ص: 20.

[2]- ينظر: لسان العرب، اِبن منظور، ج 11، مادّة: وقف. والقاموس المحيط، الفيروزباديّ، مادّة: وقف.

[3]- ينظر: الوقف والاِبتداء وصلتهما بالمعنى في القرآن الكريم، عبد الكريم إبراهيم عوض صالح، ص: 20.

[4]- الكتاب، ج 01، ص: 13.

[5]- ينظر: التّشكيل التّنغيميّ، الطّالب هايل، ص: 15.

الجليل الفصل، وهو نوع من السّكون يفصل بين مجموعة صوتيّة وأخرى[1]، والفاصل فونيم له تأثيره في المعنى.

2 – أحكام الوقف[2]

- لا يجوز الوقف بين الفعل والفاعل.
- لا يجوز الوقف بين المضاف والمضاف إليه.
- لا يجوز الوقف بين الجار والمجرور.
- لا يجوز الوقف بين الموصول وصلته.
- لا يجوز الوقف بين النّعت والمنعوت.
- لا يجوز الوقف بين اسم الإشارة وبدله أو عطف بيّانه.
- لا يجوز الوقف على أداة الاستثناء.
- المنوّن يوقف عليه بحذف تنوينه بعد الضّمّة والكسرة، وإبداله ألفا بعد الفتحة.
- المنقوص تثبت ياؤه إن كان منصوبا، وتحذف إن كان مرفوعا أو مجرورا.
- تاء التّأنيث في الأسماء تبدّل هاء إن كان قبلها حركة أو مدّا.
- تضاف هاء السّكت في ثلاثة مواضع[3]:

1- بعد الفعل المعتلّ المحذوف الآخر: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ البقرة: ٢٥٩، ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ الأنعام: ٩٠.

2- بعد ما الاستفهاميّة المجرورة، مثل: لمه – فيمه.

3- بعد المبنيّ على حركة بناء دائما: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ القارعة: ١٠، ﴿مَالِيَهْ﴾ الحاقة: ٢٨، ﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾ الحاقة: ٢٩.

---

(1)- ينظر: علم اللّسانيّات الحديثة، ص: 379 وما بعدها.

(2)- ينظر: أحكام التّلاوة والتّجويد الميسّرة، د. عماد عليّ جمعة، دار النّفائس للنّشر والتّوزيع، الأردن، ط1، 1425هـ – 2004م، ص: 31.

(3)- البيان في أحكام تجويد القرآن، حسام الدّين سليم الكيلانيّ، النّاشر: وزارة الإعلام، سوريا، د ط، 1999م، ص: 43.

3 – علامات الوقف المثبتة في المصحف الشّريف

يوضع على المصحف الشّريف علامات وقف مثبتة؛ يستعين بها القارئ لمعرفة متى يتوقّف توقّفا تامّا أو توقّفا جائزا أو توقّفا ممنوعا؛ ولو أنّ القراءة القرآنيّة بوقوفها وابتداءاتها، وظواهرها الصّوتيّة المختلفة يستحسن أن تؤخذ شفاها عن مشايخ ومعلّمي القرآن الكريم، وما هذه العلامات المرسومة على المصاحف الشّريفة إلاّ زيادة للتّوكيد عليها، ومساعدة للقرّاء حتّى لا تغيب عنهم أثناء ترتيل القرآن الكريم من المصحف الشّريف مباشرة، وتتمثّل هذه العلامات في[1]:

– م: علامة الوقف اللاّزم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ الأنعام: ٣٦.

– لا: علامة الوقف الممنوع. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ النّحل: ٣٢.

– ج: علامة الوقف الجائز جوازا مستوى الطّرفين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ الكهف: ١٣.

– صلى: علامة الوقف الجائز مع كون الوصل أولى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ الأنعام: ١٧.

– قلى: علامة الوقف الجائز مع كون الوقف أولى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ الكهف: ٢٢.

– ∴ ∴ : علامة تعانق الوقف بحيث إذا وقف على أحد الموضعين لا يصح الوقف على الآخر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ البقرة: ٢.

---

[1]– القرآن الكريم، مصحف المدينة المنوّرة، طباعة خادم الحرمين الشّريفين، الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشّريف، المملكة العربيّة السّعوديّة، علامات الوقف، الصّفحات الأخيرة. – والبيان في أحكام تجويد القرآن، حسام الدّين سليم الكيلانيّ، ص: 42.

4 – أهميّة الوقف في القرآن وأنواعه

يكون الوقف في القرآن الكريم في رؤوس الآيّات الكريمات أو أوسطها، ولا يأتي في وسط الكلمة، وما يؤكّد أهميّة هذا العلم ما ألّف فيه علماء العربيّة من كتب كثيرة[1]؛ بحيث تناولوه بالبحث والتّفصيل، وهو يتّفق مع ما اِصطلح عليه عندهم بـ «الوقف والاِبتداء»؛ لأنّهم رأوا أنّ الوقف مرتبط بالمعنى اِرتباطا وثيقا، «فجعلوه حليّة التّلاوة، وزينة القارئ، وبلاغ التّالي، وفهما للمستمع، وفخرا للعالم، وبه يُعْرَفُ بين المعنيين المختلفين والنّقيضين المتباينين، والحكمين المتغايرين؛»[2] فألحّوا على ضرورة الاِلتزام به؛ لأنّه الفيصل بين المعاني المتخالفة.

ولقد تواتر عن سلف هذه الأمّة وخلفها؛ تعلّم الوقف والاِبتداء والاِعتناء به أشدّ العناية،؛ إذ من دونه لا يُفْهَمُ القرآن الفهم الصّحيح، فقد روي عن عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما– أنّه قال: «لقد عشنا برهة من دهرنا، وإنّ أحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السّورة على محمّد –صلّى الله عليه وسلّم– فنتعلّم حلالها وحرامها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها؛ كما تتعلّمون أنتم القرآن اليوم، ولقد رأينا اليوم رجالا؛ يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان؛ فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته؛ ما يدري ما آمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، فينثره نثر الدّقل.»[3] إنّها دعوة إلى قراءة القرآن الكريم مصحوبة بالفهم للمعنى الّذي تحمله كلّ آية، والتّدبّر في كلّ خطاب منه أو قول؛ لأنّ الأهميّة ليست بكثرة القراءة؛ وإنّما هي بنيل العبرة منها، فعن ابن مسعود –رضي الله عنه– قال: «لا تنثروه نثر الدّقل[4]، ولا تَهُذُّوهُ هَذَّ الشّعر[5]؛ قفوا عند عجائبه، وحرّكوا به القلوب، ولا يكون همّ أحدكم آخر السّورة.»[6] ويكفينا في ذلك أن نشير إلى قراءة أسوتنا الحسنة رسولنا الكريم –عليه الصّلاة والسّلام–؛ فقد كان تأثّره بالمعنى يجعله يردّد الآية، أو الجزء مرّات ومرّات؛ يغوص في بحر القرآن العميق، وقد يستغرق ترداده للآية أو الجزء اللّيل كلّه؛ يعيش مع كتاب الله تعالى[7]، ولهذا لا

---

(1)– من الكتب المؤلّفة في الوقف والاِبتداء؛ كتاب إيضاح الوقف والاِبتداء، أبو بكر بن الأنباريّ (ت: 328هـ). علل الوقوف، محمّد بن طيفور السّجاونديّ (ت: 560هـ). – ينظر: بقيّة القائمة في كتاب الوقف في العربيّة، عبد البديع النّيربانيّ، ص: 23.

(2)– لطائف الإشارات، القسطلانيّ، ج 01، ص: 249.

(3)– قال الحاكم: صحيح ووافقه الذّهبيّ. – التّبيان في آداب حملة القرآن، النّوويّ، ص: 113.

(4)– الدّقل: رديء التّمر ويابسه. – ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السّيوطيّ، ص: 224.

(5)– هذّ القراءة هذّا أسرع فيها. – ينظر: أصوات القرآن، يوسف الخليفة أبو بكر، ص: 32.

(6)– لطائف الإشارات، القسطلانيّ، ج 01، ص: 249.

(7)– ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السّيوطيّ، ص: 224 – 225. وأصوات القرآن، يوسف الخليفة أبو بكر، ص: 20.

بدّ أن نتأسّى به في قراءته، وفي تدبّره لمعاني القرآن الكريم، فهو أسوتنا الحسنة، نرغب في اتّباع سنّته، حتّى نكون منه، ولا يكون بالغ همّنا كثرة القراءة؛ وإنّما أخذ العبرة منه، والعمل به في حياتنا.

ما نستخلصه من هذا الأثر هو أنّ الصّحابة -رضي الله عنهم أجمعين- كانوا يتعلّمون الوقف والاِبتداء؛ كما كانوا يتعلّمون القرآن الكريم لما له من أهمّيّة في معرفة معاني الذّكر الحكيم، ومقاصد الشّريعة. ويمكن أن نؤكّد هذه الأهمّيّة في معرفة الوقف والاِبتداء ما روي عن عليّ بن أبي طالب - كرّم الله وجهه- في قوله تعالى: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ المزمل: ٤، قال: «تجويد الحروف ومعرفة الوقوف.»[1] وهكذا اِشترط العلماء ضرورة تعلّم الوقف والاِبتداء؛ إذ من دونه لا يفهم القرآن الفهم الصّحيح، ولا يمكن اِستنباط الأحكام والمقاصد على وجه معتبر[2].

5 – أقسام الوقف

لقد قسّم العلماء الوقف إلى أربعة أقسام، وهي[3]:

1- الوقف التّام:

هو الّذي يحسن الوقوف عليه والاِبتداء بما بعده، ويكون ما بعده غير متعلّق بما قبله، أيّ هو «الوقف على ما تمّ معناه، ولم يتعلّق بما بعده لفظا ومعنى،»[4] وأكثر ما يكون عند رؤوس الآيات واِنتهاء القصص، يتجلّى ذلك مثلا في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ۝٢٤ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ ۝٢٥﴾ البقرة: ٢٤ – ٢٥؛ الوقف عند «لِلْكَـٰفِرِينَ» للفصل بين آية العذاب، وآية الرّحمة.

---

[1]- ينظر: التّمهيد في علم التّجويد، اِبن الجزريّ، ص: 61.

[2]- لعلم الوقف صلة قويّة بعلم الفقه لأنّه قد يختلف العلماء في الوقف تبعا للاِختلاف في الحكم الفقهيّ.

[3]- لقد اِختلف العلماء في أقسام الوقف، وصنعوا فيه كتبا؛ ذكروا فيها الأصول والفروع، وما آثروه عن أئمة العربيّة في كلّ عصر ومصر. - ينظر: التّمهيد في علم التّجويد، اِبن الجزريّ، ص: 177 وما بعدها.

[4]- المراد **بالتّعلّق اللّفظيّ**: التّعلّق من جهة الإعراب؛ كأن يكون معطوفا أو صفة أو نحو ذلك. **والتّعلّق المعنويّ**: أن يتعلّق المتأخّر بالمتقدّم من حيث المعنى لا الإعراب كالإخبار عن حال المؤمنين أو حال الكافرين أو تمام القصّة، من ذلك قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ البقرة: ٥ وقف تامّ، فهو نهاية الكلام عن المؤمنين، وما بعده منفصل عنه لفظا ومعنى؛ يتمثّل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۝٦﴾ البقرة: ٦؛ فلا يوجد أيّ رابط لفظيّ أو معنويّ بينهما. - ينظر: الوقف والاِبتداء وصلتهما بالمعنى، عبد الكريم عوض، ص: 145.

2- الوقف الكافي:

هو الوقف على كلمة لم يتعلّق ما بعدها بها، ولا بما قبلها من حيث اللّفظ، وتعلّق بها أو بما قبلها من حيث المعنى؛ فهو منقطع لفظا متّصل معنى[1]، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾آل عمران: ٥٩؛ الوقف على قوله: «كَمَثَلِ ءَادَمَۖ» وقف كافٍ؛ لأنّ قوله تعالى: «خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ» جملة مفسّرة للمثل لا محلّ لها من الإعراب؛كأنّه قيل: ما المثل؟ فقال: « خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ»[2]. ويرى الأشمونيّ أنّ «خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ» لا يجوز أن تكون وصفا لآدم؛ لأنّ آدم معرفة، والمعرفة لا توصف بالنّكرة، ولا يجوز أن تكون حالا؛ لأنّ «خَلَقَهُۥ» فعل ماض، والفعل الماضي لا يكون حالا[3]. وبهذا يتّضح أنّ جملة «خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ» لا تعلّق لها بما قبلها تعلّقا لفظيّا؛ فهي لا تصف ما قبلها، ولا تبيّن صاحب الحال، ولكنّها متعلّقة تعلّقا معنويّا بحيث تظهر كأنّها جواب على سؤال.

3- الوقف الحسن:

هو الّذي يحسن الوقف عليه لأنّه كلام مفيد حسن، ولا يحسن الِابتداء بما بعده، لتعلّقه به لفظا ومعنى، أيّ: هو الّذي لا يحتاج إلى ما بعده لأنّه مفهوم دونه، ويحتاج ما بعده إليه لجريانه في اللّفظ عليه[4]، والمقصود به «أنّ الجملة الموقوف عليها تامّة في ذاتها، مفيدة بنفسها، والجملة الثّانية الواقعة بعدها غير مفيدة بنفسها، ولا تتمّ إلاّ بالجملة الأولى لوجود التّعلّق اللّفظيّ؛ بل وسياق الموضوع.»[5] من ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ الفاتحة: ٢؛ الوقوف على قوله «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ» وقف حسن[6]؛ لأنّها جملة مفيدة بنفسها؛ إلاّ أنّ الِابتداء بما بعد الوقف

---

(1)- ينظر: النّشر في القراءات العشر، اِبن الجزريّ، ج 01، ص: 228.

(2)- ينظر: تفسير البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسيّ، ج 02، ص: 478.

(3)- ينظر: منار الهدى في بيان الوقف والِابتدا، أحمد بن محمّد بن عبد الكريم الأشمونيّ، ومعه المقصد لتلخيص متن في المرشد في الوقف والابتداء، الشّيخ أبو يحي زكريا الأنصاريّ، شركة ومطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ وأولاده، مصر، ط2، 1393هـ – 1073م، ص: 79.

(4)- ينظر: لطائف الإشارات، القسطلانيّ، ج 01، ص: 252.

(5)- الوقف والِابتداء وصلتهما بالمعنى، عبد الكريم عوض، ص: 208.

(6)- ينظر: التّمهيد في علم التّجويد، اِبن الجزريّ، ص: 186- 187.

لا يحسن؛ لأنّه لا يتمّ إلاّ بالجملة الأولى لوجود الرّابط اللّفظيّ، وهو كون «رَبِّ» صفة، والموصوف «لِلَّهِ»[1]؛ فلا يمكن الفصل بين الصّفة والموصوف.

4- الوقف القبيح:

هو الّذي لا يجوز تعمّد الوقف عليه إذا غيّر المعنى أو أنقصه، كقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾الماعون: ٤؛ فيجب أن يحذر منه القارئ أثناء تلاوته للقرآن؛ لما في ذلك من فساد المعنى. ومنه كذلك الوقف على قوله تعالى: «تَمْشِى»، والاِبتداء بقوله: «عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ» في قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥﴾ القصص: ٢٥؛ فمن يتكلّف الوقف على قوله: «فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى»؛ ثمّ اِستأنف القراءة بقوله: «عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا» أيّ: قالت على اِستحياء من موسى، ويتعلّق الجار والمجرور وهو قوله: «عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ» بمحذوف حال متقدّمة من فاعل «قَالَتْ »، والتّقدير: قالت مستحيية[2]؛ إنّه يفهم من ذلك أنّها وصِفت بالحياء عندما جاءت إلى موسى –عليه السّلام– قائلة: «إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا».

وبيّن الأشمونيّ أنّ جملة «تَمْشِى» حال من فاعل «فَجَآءَتْهُ»، وقوله :«عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ» متعلّق بمحذوف؛ هو حال من الضّمير في « تَمْشِى»، والتّقدير: جاءته ماشية كائنة على اِستحياء، وهذا يفيد أنّها كانت على اِستحياء حالتيْ المشي والمجيء معا لا عند المجيء فقط، وتنكير «ٱسْتِحْيَآءٍ» للتّفخيم[3]. وبهذا نستنتج أنّ الوقف على «تَمْشِى» غير جائز لأنّه أنقص المعنى،

---

[1]- ينظر: علل النّحو، أبو الحسن محمّد بن عبد الله الورّاق، تحقيق: محمود محمّد محمود نصّار، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1422هـ – 2002م، ص: 522 وما بعدها.

[2]- ينظر: المكتفي في الوقف والاِبتداء في كتاب الله عزّ وجلّ، الإمام أبو عمرو عثمان بن سعيد الدّانيّ، تحقيق، د. يوسف عبد الرّحمن المرعشليّ، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط2، 1407هـ – 1987م، ص: 436.

[3]- ينظر: منار الهدى، عبد الكريم الأشمونيّ، ص: 290.

وذلك بأنْ اِقتصر حياؤها أثناء حديثها إلى موسى -عليه السّلام-؛ في حين أنّها اِمرأة ذات حياء شديد في حديثها ومجيئها ومشيها، وفي حياتها كلّها، أيّ خصلة أخلاقيّة تتميّز بها، ولم تصطنعها فقط وهي تتحدّث إلى كليم الله موسى —عليه السّلام-.

6 – دلالة الوقف وارتباطه بالتّنغيم في الخطاب القرآنيّ

يرتبط الوقف بالتّنغيم، وما يسبّبه تغيّر الوقف من اِختلاف في المعنى، ينتج عنه تغيّر تنغيم الجملة وفقا لذلك، ولقد حرص قرّاء القرآن وعلماء التّجويد على إظهار مدى ضرورة الوقف في القراءة حتّى يحصل الفهم، ويدرك المعنى، ويظهر الإعجاز، «فالقراءات المختلفة هي التّنغيم، وهذه جوانب مشرقة في تراثنا لأنّ حسن الأداء، ووضوح المعاني من أهمّ ما سعى إليه علماء العربيّة.»[1] والقصد من تعلّم حسن الأداء المرتبط بالتّنغيم؛ هو العمل بأقوال الرّسول —صلّى الله عليه وسلّم- بتحسين الأداء لنصل إلى درجة الخشوع والتّأمّل في الآيات عند سماعها؛ بأداء يريح القلب ويطرب الأذن، ويسعد السّامع، فالهدف بالتّالي هو حُسن الأداء وليس فنّ الغناء.

وتأتي أهميّة الوقف في أداء العبارة القرآنيّة من كونه «يوضّح كيف وأين يجب أن ينتهي القارئ لآيّ القرآن الكريم، بما يتّفق مع وجوه التّفسير، واستقامة المعنى، وصحّة اللّغة، وما تقتضيه علومها من نحو وصرف ولغة؛ حتّى يتمّ القارئ الغرض كلّه من قراءته، فلا يخرج على وجه مناسب من التّفسير والمعنى، وبهذا يتحقّق الغرض الّذي من أجله يُقْرَأُ القرآن، وهو الفهم والإدراك، فإذا اِستطاع القارئ أن يفعل ذلك، وتمكّن من مراعاته في وقفه عند نهاية العبارة؛ فإنّه لاشكّ سوف يبدأ العبارة على النّحو الّذي توفّر له في وقفه؛ فهو لا يبدأ من حيث يتمّ به المعنى من جهة، وبما لا يباين اللّغة وعلومها من جهة أخرى، وهو ما حرصت عليه العرب في أداء عباراتها، واهتمّت له في كلامها شعره ونثره.»[2] ما نستخلصه من حديث ابن الأنباريّ هو ربطه للوقف بقضايا كثيرة منها: علاقة الوقف بالمعنى وبالفهم في تفسير القرآن الكريم.

وفي كتاب النّشر بحث مفصّل عن الوقف، ولم يغفل فيه صاحبه عن تبيان دوره في تغيير المعاني والدّلالات؛ يقول: «لما لم يمكن القارئ السّورة أو القصّة في نفس واحد؛ وجب اِختيار وقف للتّنفس والاِستراحة، وتحتّم ذلك أن لا يكون ممّا يخلّ بالمعنى، ولا يخلّ بالفهم؛ إذ يحصل الإعجاز

[1]- الأسلوب والأداء في القراءات القرآنيّة، خير الدّين سيب، ص: 249.

[2]- إيضاح الوقف والاِبتداء، اِبن الأنباريّ، ج 01، ص: 06.

ويحصل القصد.»[1] لقد حضّ اِبن الجزريّ الأئمة على ضرورة تعلّم الوقف، ومعرفته، وربطه بالمعنى، وإذا ما وقف القارئ على مالا يجوز الوقف عليه اِختلّ المعنى، كما نجده ربط الوقف الصّحيح بالإعجاز، والإخلال بالوقف معناه تحريف المعنى عن مواضعه. وإنّ إدراك هؤلاء العلماء لِارتباط الوقف بالمعنى؛ يندرج ضمن العلاقة بين التّنغيم والجملة، وقد تحدّث اِبن الجزريّ عن أنواع الوقف الّتي تحدّد نمط الجملة، ومن ثمّ معناها وتنغيمها، وتؤدّي هذه المعرفة بأنواع الوقف إلى تحديد دلالة العبارة في القرآن الكريم، وعلاقته بتنغيم الجملة.

إنّ الِاعتماد على دلالة تنغيم الجملة، وارتباطه بالوقف يغيّر معنى العبارة؛ فينقلها من معنى إلى معنى آخر، ويمكن الِاستدلال على ذلك من خلال ما أدركه اِبن الجزريّ من أثر لتنغيم الجملة عندما اِختلف الوقف في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ البقرة: ٢٨٦.

الوقف الأوّل: على قوله «وَٱرْحَمْنَآۚ»؛ يكون الكلام هنا تحديديّا، أيّ: اِرحمنا أنت دون غيرك؛ ثمّ يأتي منادى بعده بلا أداة نداء[2]، في قوله: «مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ»، وإدراك اِبن الجزريّ لهذا الّذي تسبّب الوقف به عائد إلى إدراكه الصّوت التّنغيميّ؛ إذ لا دليل على النّداء غيره، والخطاب هنا من المؤمن إلى ربّه بواسطة الجملة النّداء، وهي جملة إنشائيّة «مَوْلَىٰنَا» الّتي تحتاج إلى نمط تنغيميّ مستو[3].

الوقف الثّاني: على قوله «وَٱرْحَمْنَآۚ»؛ جملة أمريّة معطوفة على جملة سابقة لها، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا﴾، ثمّ الِابتداء بقوله: «أَنتَ مَوْلَىٰنَا» كلام خبريّ[4]، أيّ: التّنغيم هنا بنغمة إخبار؛ فلم تعد بذلك جملة إنشاء كما في الوقف الأوّل.

[1]- اِبن الجزريّ، ج 01، ص: 224 - 225.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 231.

[3]- ينظر: علم الأصوات، كمال محمّد بشر، ص: 100.

[4]- ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

لقد اِختلف المعنى بسبب تغيير الوقف، وبالتّالي تغيّر تنغيم الجملة وفقا لذلك، وقد تمكّن العلماء قديما كاِبن الجزريّ[1]، وقبله اِبن الأنباريّ[2] من فهم أثر الوقف على معاني الجمل وتنغيمها، ويعتبر علماء اللّسانيّات المحدثون الوقف كالتّنغيم؛ ظاهرة صوتيّة تساعد على فهم الجمل ودلالتها، لذا كانت له هذه الأهميّة الكبيرة في القرآن الكريم؛ فبه يتمّ التّفريق بين المعاني، ممّا دفع العلماء إلى الأمر بضرورة تعلّمه، قال أبو حاتم السّجستانيّ: «من لم يعرف الوقف؛ لم يعرف القرآن.»[3] وتتجلّى قيمة الوقف –في هذا القول– في فهم المعنى وتحسين التّلاوة.

وقال اِبن الأنباريّ: «ومن تمام معرفة الوقف إعراب القرآن، ومعانيه وغربيه؛ معرفة الوقف والاِبتداء فيه.»[4] إنّها إشارة إلى أنّ الوقف يمكّن من الوقوف على ظواهر لغويّة في القرآن الكريم؛ منها: الإعراب الّذي يساعد على فهم الآيات، وكذلك معرفة الغريب منه. وورد في كتاب «الإتقان في علوم القرآن»؛ قول عبد الرّحمن النّكزاويّ عن الوقف: «باب الوقف عظيم القدر؛ جليل الخطر لأنّه لا يتأتى لأحد معرفة القرآن، ولا اِستنباط الأدلّة الشّرعيّة منه إلاّ بمعرفة الفواصل.»[5] للوقف عنده جانبان: جانب عظيم، ويتجلّى في كونه الوسيلة الأهمّ في معرفة معاني القرآن المساعدة على اِستخلاص الأحكام الشّرعيّة منه، وجانب خطير، وذلك عند إهماله؛ ممّا يؤدّي إلى الخروج عن المعاني الصّحيحة، ويمكن أن تُسْتَنْبَطَ منها أحكام تحيد كلّيّة عن مقاصد الشّريعة.

وقال اِبن الجزريّ عن أهميّة تعلّم الوقف: «وصحّ؛ بل تواتر عندنا تعلّمه والاِعتناء به من السّلف الصّالح[6]، وكان أئمتنا يوقفوننا عند كلّ حرف، ويشيرون إلينا فيه بالأصابع؛ سنّة أخذوها كذلك عن شيوخهم الأوّلين.»[7] إذن فتعلّم القرآن وما فيه من وقوف أُخِذَ شفاها عن الصّحابة أوّلا؛ ثمّ من تبعهم من أئمة المسلمين، كما أنّ هذه الأقوال الواردة عن العلماء تدلّ على أهميّة تعلّم

(1)- ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها وما بعدها.

(2)- ينظر: إيضاح الوقف والاِبتداء، ج 01، ص: 116 وما بعدها.

(3)- لطائف الإشارات، القسطلانيّ، ج 01، ص: 249.

(4)- إيضاح الوقف والاِبتداء، ج 01، ص: 108.

(5)- الزّركشيّ، ج 01، ص: 259.

(6)- من هؤلاء جعفر بن يزيد بن القعقاق (ت130هـ)، ونافع بن أبي نعيم (ت169هـ)، وأبو عمرو بن العلاء (ت 154هـ). – – ينظر: النّشر في القراءات العشر، ج 01، ص: 225.

(7)- المرجع نفسه، ص: 226.

الوقف؛ بل قد جعلوا تعلّمه في المرتبة الأولى قبل تعلّم الكثير من العلوم الشّرعيّة والعربيّة الّتي وجدت في القرآن الكريم.

من أمثلة ذلك اِختلاف القرّاء في موقع الوقف في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ البقرة: ٢، وذلك بالوقف على «رَيۡبَ» أو « فِيهِ». يكون الوقف على قوله «لَا رَيۡبَ» باِعتبار أنّ «هُدٗى» مبتدأ، و«فِيهِ» خبره[1]. نلاحظ أنّ قوله تعالى بهذا الوقف يتكوّن من جملتين: الأولى «ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ» والجملة الثّانية: «فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ». قال الزّمخشريّ: «والوقف على «فِيهِ» المشهور، وعن نافع وعاصم أنّهما وقفا على «لَا رَيۡبَ»، ولا بدّ للواقف من أن ينوي خبرا، ونظيره قوله: «لاَ ضَيْرَ»، وقول العرب: «لاَ بَأْسَ»، وهي كثير في لسان العرب أهل الحجاز، والتّقدير: لا ريب فيه، فيه هدى للمتّقين.»[2] بهذا الوقف على «لَا رَيۡبَ» يعني رفع الشّكّ عن الكتاب، وأنّه حقّ من الله تبارك وتعالى، وفيه هدى للّذين آمنوا؛ أمّا إذا كان الوقف على «فِيهِ»يكون الكتاب كلّه هدى.

وقال الرّازيّ: «واِعلم أنّ القراءة الأولى أَوْلَى؛ لأنّ على القراءة الأولى يكون الكتاب نفسه هدى، وفي الثّانية لا يكون الكتاب نفسه هدى؛ بل يكون فيه هدى، والأُولَى أَوْلى لما تكرّر في القرآن من أنّ القرآن نور وهدى –والله أعلم–.»[3] إنّ الوقوف على قوله «فِيهِ» معناه وصف القرآن الكريم كلّه بأنّه هدى، وهذا أبلغ من الوقف على «رَيۡبَ» الّذي تجعل القرآن فيه الهدى. ويرى اِبن كثير أنّ اِعتبار الكتاب هدى تكرّر مجيئه في القرآن الكريم[4]؛ من ذلك قوله تعالى:﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾السّجدة: ٢، بهذا الوقف المختلف يختلف تفسير الآية الكريمة بين المفسّرين، وبالتّالي يختلف معه الأداء الصّوتيّ أو التّنغيم؛ الّذي تؤدّى به حسب كلّ وقف.

---

[1]- ينظر: تفسير التّحرير والتّنوير، اِبن عاشور، ج 01، ص: 218.

[2]- الكشّاف، ج 01، ص: 35.

[3]- مفاتيح الغيب، ج 01، ص: 261.

[4]- ينظر: تفسير القرآن العظيم، اِبن كثير، ج 01، ص: 142.

ونظيره قوله تعالى:﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ الأعراف: ١٨٤، يكون الوقف على قوله: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟» باعتبار أنّ ما بعده يبدأ بنفيّ[1]، والمعنى أنّ الله تعالى يدعو المشركين إلى التّفكّر والتّدبّر في أمر الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– وذلك عندما نسبوه إلى الجنون؛ فقال سبحانه: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟»، وهي آية مسبوقة بهمزة إنكار لعدم تفكّرهم في شأنه –صلّى الله عليه وسلّم– فيها توبيخ لأنّهم كذّبوا صاحبهم[2]. تحمل همزة الِاستفهام معنى الإنكار والتّعجّب والتّوبيخ؛ حيث لم يتفكّروا ولم يتدبّروا في اِنتفاء ما وصفوا به الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– من الجنّة؛ فإنّه منتف عنه لا محالة.

ويرى صاحب البرهان أنّ قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ» تقرير يقارنه توبيخ للكفّار؛ فالوقف على قوله: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟»؛ ثمّ اِبتدأ القول بنفيّ ما ذكروه فقال: «مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ»؛ أيّ: ليس بصاحبهم شيء ممّا يدّعونه من الجنون؛ فيكون هذا ردًّا لقولهم ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾الحجر: ٦، ويكون الكلام قد تمّ عند قوله: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ»، بهذا الوقف تُقْرَأُ الآية الكريمة بتنغيم الجملة الخبريّة لا بتنغيم الِاستفهام، وتصبح الجملة كلّها جملة تقريريّة لا اِستفهاميّة، يقرّر فيها –عزّ وجلّ– أنّ طول مكث صاحبهم بينهم؛ يجعلهم يدركون أنّه ليس بمجنون، «وهم يعرفون عنه أسمى ألوان الإدراك السّليم، والتّفكير المستقيم.»[3] أمّا القرطبيّ فيرى أنّ الِابتداء بقوله تعالى: «مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ»؛ راجع إلى كون هذا الكلام منفصل في المعنى عمّا قبله، وكما أنّ الكلام اِنقطع معنى؛ اِنقطع لفظا؛ إذ إنّ ما في قوله تعالى: «مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ»[4]:

– إمّا أن تكون «مَا» اِستفهاميّة في محلّ رفع مبتدأ، والخبر «بِصَاحِبِهِم»؛ أيّ: أيّ شيء اِستقرّ بصاحبهم من الجنون؟

---

[1]– ينظر: إيضاح الوقف والابتداء، ابن الأنباريّ، ج 02، ص: 671.

[2]– ينظر: منار الهدى، عبد الكريم الأشمونيّ، ص: 154.

[3]– روح المعاني، الآلوسيّ، ج 09، ص: 128.

[4]– ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج 07، ص: 330.

- وإمّا أن تكون نافيّة؛ أيّ: ليس بصاحبهم جنون.

في هذه الحالة تحتمل الآية الكريمة قراءتين: قراءة بتنغيم الاِستفهام؛ إذا أُعتبرت «مَا» اِستفهاميّة، وقراءة بتنغيم النّفيّ إذا أُعتبرت ما نافيّة. وختمت الآية الكريمة بقوله: «إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ»؛ فيها تقرير لمضمون ما قبلها، وتكذيب للمشركين فيما يزعمون، وفيها إظهار لحقيقة الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- المتمثّلة في الإنذار المبالغ فيه[1]، ويمكن أن نحدّد أنواع النّغمات الّتي تحملها هذه الجمل القرآنيّة من خلال ما حدّده المفسّرون من وقف وما يتبعه من معنى[2]:

- الوقف الأوّل على الجملة الأولى: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا» بنغمة اِستفهاميّة، والّتي تحمل معنى التّوبيخ والتّقريع؛ تنتهي بنغمة صاعدة؛ لأنّ حالة التّوبيخ لا تحتاج إلى النّغم الهادئ المستوي.
- الوقف الثّاني على الجملة الثّانية: «مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ» بنغمة النّفيّ؛ فهو ليس كما يصفون، وفيه معنى التّأكيد على أنّهم يدركون أنّ الجنون منتف عنه، وكلمة «بِصَاحِبِهِم» دليل قاطع يفنّد وصفهم الشّنيع؛ لهذا فإنّ الآية تنتهي بنغمة هابطة، وفي هبوط النّغمة إطاحة وتشنيع وصفهم لمن بعث إليهم هاديا ونذيرا بهذا الوصف المؤذي لشخصه -صلّى الله عليه وسلّم-.
- الوقف الثّالث على الجملة الثّالثة: «إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ» بنغمة الإخبار؛ فهي تقرير لما سبق ذكره؛ يوقف عليها بنغمة هابطة فقد تمّ الكلام وانتهى.

ويرى الرّازيّ في تفسيره أنّ قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ» تقرير يقارنه توبيخ للكفار، والوقف على قوله: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا»؛ ثمّ اِبتدأ بنفيّ ما ذكروه، فقال: «مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ»؛ أيّ: ليس بصاحبهم شيء ممّا يدّعونه من الجنون؛ فيكون بذلك الكلام قد تمّ عند قوله: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا».

وهذه الآية جاءت ردّا على قول الكافرين: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ الحجر: ٦، وبهذا يكون الوقف في التّرتيل العزيز -على المستوى الصّوتيّ- قرينة

[1]- ينظر: روح المعاني، الآلوسيّ، ج 09، ص: 128.
[2]- ينظر: مفاتيح الغيب، ج 08، ص: 321.

صوتيّة يترتّب عليه أداء الجمل بتنغيم يساعد على تحديد المدلول المراد من الخطاب الإلهيّ، ومعرفة المعاني الّتي يحتويها، فيكشف بذلك عن «معاني الآيات القرآنيّة، ويؤمن الِاحتراز من الوقوع في المشكلات،»[1] واِختلافه من موضع إلى آخر -باِختلاف القراءات- يؤدّي إلى تباين الدّلالة في الآية الواحدة.

يبرز التّنغيم دورا في توضيح أهميّة الوقف والابتداء، وبيان أقسامه، وأثر تنغيم الوقف والابتداء هو إبراز دلالات القرآن الكريم، وذلك من خلال إبراز أغراض ومعاني كلٍّ من الخبر والإنشاء، وكذلك الحوار؛ تلك الخاصيّة الّتي تعتمد على التّنغيم اعتماداً كبيرًا في بيان أطراف الحوار، وبيان أغراضه ومضامينه الكثيرة. ويؤدّي تعلّق الوقف بالتّنغيم إلى اِستنباط كنه الخطاب القرآنيّ، ومعرفة القارئ متى يرفع صوته، ومتى يخفضه أثناء تلاوته للقرآن الكريم، ونمثّل لهذه الأنواع من خلال ما نجده في سورة «الكافرون»، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾الكافرون: ١ - ٦. يتمثّل سبب نزول السّورة في أنّ كفار قريش طلبوا من الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- التّخلّي عن دعوته، وأن يجعلوه ملكا عليهم، ولما لم يقبل ذلك؛ طلبوا منه أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدون إلهه سنة، فأنزل الله تعالى هذه السّورة تبريّا منهم، وإخبارا لا شكّ فيه أنّ ذلك ما يكون، ولن يكون[2].

لقد رأى الأخفش أنّ الوقف التّمام آخر السّورة؛ لأنّ الله تعالى أمر الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- أن يقول ذلك كلّه[3]، بهذا تُقْرَأُ السّورة كلّها بتنغيم الأمر، وورد في المحيط أنّ قوله تعالى: «قُلۡ» دليل على أنّه مأمور بذلك من عند الله تعالى[4]، أيّ: أنّ الوقف يكون بعد قوله: «قُلۡ»، وهي جملة أمريّة؛ تنتهي بنغمة هابطة؛ ثمّ تليها جملة النّداء، وهي: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ » والّتي تمثّل خطابا للكافرين في ناديهم، ومناداتهم بالكافرين دليل على أنّ الكلام موجّه لناس مخصوصين،

[1]- البرهان في علوم القرآن، الزّركشيّ، ج 01، ص: 342.

[2]- ينظر: تفسير الجلالين، السّيوطيّ، ص: 812.

[3]- ينظر: معاني القرآن، ج 04، ص:523.

[4]- ينظر: تفسير البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسيّ، ج 08، ص: 601.

وهم الّذين قالوا له تلك المقالة[1]، ويرى علماء الأصوات أنّ نهاية النّداء يكون بنغمة مستويّة بين الارتفاع والانخفاض.

ويلي النّداء نفيّ في قوله: «لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ »؛ المراد به ما كنت عابدا قطّ فيما سلف ما عبدتم، «وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ »؛ أيّ: لا يعبد ما يعبدون لا حالا ولا مستقبلا[2]. بعد هذا النّفيّ المكرّر في الجمل القرآنيّة السّابقة، والّذي غرضه التّأكيد المحض على إخلاص الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- في عبادته لله -عزّ وجلّ- وابتعاده عن الشّرك[3]، والّذي ينتهي في كلّ وقفة بنغمة هابطة؛ تليه جملة خبريّة وهي قوله: « لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ »؛ أيّ: لكم شرككم ولي توحيدي، وهذا غاية التّبرؤ فيها تحقيق للنّفيّ السّابق؛ ثمّ رجوع إلى خطابهم[4]، ويوقف على الجملة الخبريّة -هنا- بنغمة مستويّة للدّلالة على الوقف التّامّ للجملة وللمعنى.

بتعدّد الوقف في هذه السّورة؛ تتعدّد نغماتها عند قراءتها، وتكشف دلالاتها بحيث أنّها تبدأ بنغمة الأمر: «قُلۡ» الخطاب التّالي لكفّار قريش؛ ثمّ نغمة النّداء: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ »؛ مناداتهم ونعتهم بالكفر، وتليها نغمة النّفيّ: «لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ »، وكان نفيّا مكرّرا لتبرئة الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- من الشّرك، وتنتهي السّورة بنغمة الإخبار: « لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ »؛ الّتي تحمل معنى التّأكيد على توحيده لربّ العالمين، وعند كلّ وقفة هناك نغمة مناسبة على قارئ السّورة مراعاتها حتّى تتوضّح الدّلالات.

يرتبط الوقف بالتّنغيم أثناء التّلاوة، وهما بذلك مشتركان في الأثر الكبير في إيضاح المعاني؛ ذلك أنّهما يمثّلان الباب الّذي نستطيع من خلاله أنْ نتلوَ القرآن تلاوة تفسيريّة، ومن خلالهما -أيضا- نوضّح معان كالتّرغيب والحثّ والتّهديد والوعيد، والتّوبيخ والحسرة وكثير من هذه الدّلالات الّتي لا يمكن أنْ تظهر إلا بالتّنغيم المتمثّل لهذه المعاني؛ وصولًا إلى تدبّرها، والتّأثر بها، والعمل بما فيها

[1]- ينظر: الكشّاف، الزّمخشريّ، ج 04، ص: 813 - 814.

[2]- ينظر: تفسير البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسيّ، ج 08، ص: 608.

[3]- ينظر: تفسير القرآن العظيم، اِبن كثير، ج 04، ص: 562.

[4]- ينظر: معاني القرآن، الأخفش، ج 04، ص: 526.

من أوامر ونواهٍ؛ ليكون القرآن الكريم دستورًا لنا بحقّ، من ذلك الوقف الّذي اِختلف فيه العلماء في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾البقرة: ٢٨٥؛ فعن نافع أنّه وقف عند قوله: «مِن رَّبِّهِۦ»، والاِبتداء بقوله: «وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ»، أمّا الأخفش فرأى أنّ الوقف عند قوله: «وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ» الّتي سبقت بواو العطف، والّتي توجب أن يكون التّالي داخلا فيما دخل الأوّل[1]. ويكون الوقف عليها بنغمة متوسّطة للدّلالة على عدم تمام الكلام[2]؛ فهي إخبار أنّ النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– حقّ له أن يؤمن، وكذلك المؤمنون المعطوفة على الرّسول –صلّى الله عليه وسلم–[3]؛ ثمّ جاءت بعدها «كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ»؛ الّتي لا يمكن اِعتبارها جملة مؤكّدة لأنّ «كُلٌّ» لم يتّصل بها ضمير؛ ففي التّوكيد المعنويّ لا بدّ من إضافة ضمير يطابق المؤكّد[4]؛ أيّ: لم يقل كلّهم، وبذلك ليست توكيدا.

وبهذا تقرأ الآية الكريمة عند كلّ وقف بتنغيم الجملة الخبريّة: «ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ»؛ الّتي تبدأ بنغمة عادية، وقبل الاِنتهاء من قراءتها بزمن يسير؛ تأخذ هذه النّغمة في الاِرتفاع لتصل إلى مستوى النّغمة العالية، وهذا للدّلالة على عدم اِنتهاء الكلام، وتُقْرَأُ الجملة الّتي تليها بتنغيم الجملة التّقريريّة: «كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ» بنغمة هابطة لتمام المعنى فيها. أمّا إذا كان الوقف عند «رَّبِّهِۦ»، والاِبتداء بقوله: «وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ» تبعا لقراءة نافع، فإنّها تقرأ بتنغيم الجملة المؤكّدة.

يتعلّق الوقف بأنواعه بالتّنغيم، ولكلّ نوع من أنواع الوقف أثر في المعنى، وكلّ نوع تصحبه نغمة معيّنة؛ من ذلك قوله تعالى:﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩﴾ آل عمران: ٢٩؛ يكون الوقف

[1]- ينظر: معاني القرآن، ج 01، ص: 158.

[2]- ينظر: دراسات في اللّسانيّات العربيّة، عبد الحميد السّيّد، ص: 62.

[3]- ينظر: تفسير القرآن العظيم، اِبن كثير، ج 01، ص: 343.

[4]- ينظر: شرح اِبن عقيل على ألفيّة اِبن مالك في النّحو والصّرف، إبراهيم قيلانيّ، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط1، 1423هـ – 2008م، ص: 268 وما بعدها.

على لفظ الجلالة في قوله: «يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ» وقفا تاما[1]؛ وذلك لأنّه منفصل عمّا بعده لفظا ومعنى، في هذه الآية يخبر الله تعالى عباده أنّه يعلم السّرائر والضّمائر والظّواهر، وأنّه لا يخفى عليه منهم خافية؛ بل علمه محيط بهم سائر الأحوال والأزمان، وكلّ ما يضمره العبد ويخفيه، أو يظهره فهو معلوم لله سبحانه. وقدّم سبحانه الإسرار على الإعلان؛ إمّا لأنّ أيّ شيء يعلن إلاّ وكان مضمرا في القلب أوّلا؛ فكان علمه بالحالة الأولى متقدّما على الحالة الثّانية، وإمّا للمبالغة في بيان شمول علمه المحيط بجميع الأشياء[2]. يكون بذلك الكلام قد تمّ من خلال ما وجّهه الله تعالى من مقال؛ بيّن فيه قدرته العظيمة على علمه المطلق بما كان سراّ أو علنا، وبتمام الكلام تمّ المعنى.

ثمّ قال تعالى: «وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ»، وهي جملة مستأنفة جاءت على سبيل التّأكيد؛ إذ إنّه إذا كان لا يخفى عليه شيء في السّماوات والأرض، فكيف يخفى عليه ما هو أخصّ من ذلك؟ وهي ليست جملة معطوفة على جواب الشّرط، وهو قوله: «يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ»؛ لأنّ علمه بما في السّماوات والأرض غير متوقّف على شرط؛ فهو يعلم ما في السّماوات والأرض على الإطلاق[3]. بهذا يكون الكلام بعد قوله: « يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ» منقطعا لفظا ومعنى؛ فبعد جملة الشّرط يستأنف سبحانه الكلام بالتّأكيد على إحاطته بكلّ شيء؛ فهو ذو العلم المطلق بما في السّماوات والأرض، وبالتّالي لا يخفى عليه شيء قطّ؛ فلا يخفى عليه السّرّكم والعلن، ثمّ ختمت الآية الكريمة بما يدلّ على إثبات صفة القدرة بعد إثبات صفة العلم فقال: «وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ»؛ أيّ: أنّه مع علمه الواسع المحيط ذو قدرة نافذة على كلّ شيء، وهذا لون من ألوان التّهديد والتّحذير، ودعوة منه إلى خشيته، واتّقاء التّعرض للنّقمة الّتي يساندها العلم والقدرة[4].

من خلال –ما سبق ذكره– يمكننا الوقوف على أنواع النّغمات الّتي تحملها الآية الكريمة، ويتسنّى لنا ذلك بواسطة تجزئتها:

---

[1]- ينظر: المكتفي، الدّاني، ص: 199.

[2]- ينظر: روح المعاني، الآلوسيّ، ج 03، ص: 356.

[3]- ينظر: مفاتيح الغيب، الرّازيّ، ج 04، ص: 226.

[4]- ينظر: في ظلال القرآن، سيّد قطب، ج 01، ص: 386.

- بدأت الآية بجملة أمريّة، وهي قوله :«قُلْ» لهم يا محمّد ما هو آت من خطاب[1]، وجملة الأمر تنتهي بنغمة هابطة.
- تلتها جملة شرطيّة، وهي قوله: «إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ»؛ فالجزء الأوّل منها وهو جملة الشّرط في قوله: «إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ»؛ يتوقّف عليه بنغمة صاعدة للدّلالة على عدم اِنتهاء الكلام[2]؛ بينما يوقف في نهاية الجزء الثّاني وهو جملة جواب الشّرط في قوله: «يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ» بنغمة هابطة دلالة على اِنتهائه لفظا ومعنى.
- ثمّ تلتها جملتان خبريّتان[3]، تنتهي كلّ منهما بنغمة هابطة.

تشتمل الآية الكريمة إذن على تلوينات موسيقيّة داخليّة؛ لتنتهي في الأخير بنغمة هابطة تحمل دلالة الإخبار والتّأكيد على علم الله المطلق وقدرته العظيمة.

كما نجد الوقف التّام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣﴾النّحل: ١٠٣؛ بحيث يكون الوقف على قوله: «بَشَرٞۗ»[4] وبمعرفة معنى الآية يمكن التّأكيد على وجه تمامه. يخبر الله تعالى في هذه الآية عن أولئك المنكرين لنبوّة محمّد –صلّى الله عليه وسلّم– وقولهم كذبا واِفتراء أنّ محمّدا –صلّى الله عليه وسلّم– يعلّمه بشر الّذي يتلوه من القرآن، وهم يشيرون إلى رجل أعجميّ من أهل الكتاب[5]. لقد بدأت الآية الكريمة بقوله: «وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ» وهي جملة مؤكّدة؛ تتضمّن وعيدا لمن يطعن في القرآن الكريم، وجاء الفعل «نَعۡلَمُ» بصيغة المضارع للتّعبير عن المستقبل؛ يحمل إشارة من اللّه تبارك وتعالى أنّه محيط بهم، ويعلم ما قالوا وما سيقولون من كلام منكر عن النّبيّ الكريم وكتاب الله العزيز؛ فيكون الكلام بقوله: «إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ» قد تمّ[6].

(1)- ينظر: تفسير الجلالين، السّيوطيّ، ص: 81.
(2)- ينظر: علم الأصوات، كمال محمّد بشر، ص: 537.
(3)- ينظر: الكشّاف، الزّمخشريّ، ج 01، ص: 380.
(4)- ينظر: منار الهدى، عبد الكريم الأشمونيّ، ص:219 .
(5)- ينظر: مفاتيح الغيب، الرّازيّ، ج 14، ص: 236.
(6)- ينظر: الكشّاف، الزّمخشريّ، ج 02، ص: 635.

إنّ الآية تحمل إخبارا من الله أنّ له العلم المطلق بما يتقوّله المنكرون لكتابه ونبوّة رسوله، وهكذا يكون الكلام قد تمّ معناه. ثمّ ساق الله –جلّ شأنه– كلاما جديدا يجيب به عن نبيّه الكريم ردّا على اِفترائهم الكاذب؛ فقال: «لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ»؛ أيّ: لسان الرّجل الّذي يميلون أعجميّ غير بيّن، وهذا القرآن عربيّ في غاية الفصاحة، فكيف يمكن لمن لسانه أعجميّ أن يعلّم النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– هذا الكتاب العربيّ المبين؟ ومن أين للأعجميّ أن يتذوّق بلاغة هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه؟[1] إذا أمعنا النّظر في قوله تعالى: «لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ»؛ نجد أنّ الكلام منقطع معنى بما قبله؛ بحيث تعتبر هذه الآية كلاما جديدا ردّا على ما قاله المشركون، أمّا الاِنقطاع اللّفظيّ؛ فيقول عنه الزّمخشريّ: «فإن قلت: الجملة الّتي هي قوله: «لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ» ما محلّها من الإعراب؟ قلت: لا محلّ لها؛ لأنّها مستأنفة جواب لقولهم؛»[2] إذن فالجملة ليس لها وظيفة إعرابيّة، وبالتّالي يمكن الحكم عليها أنّها منقطعة لفظا ومعنى عمّا قبلها؛ فكان بذلك الوقف على قوله: « إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ» وقفا تامّا، وبما أنّها جملة خبريّة يكون التّنغيم في نهايتها هابطا دلالة على اِنتهاء الكلام.

والوقف الكافي –هو الآخر– مقيّد بالمعنى، فقد قيل في تعريفه: إنّه لفظ منقطع لفظا بما بعده؛ لكنّه متّصل معنى بما قبله؛ من ذلك قوله تبارك وتعالى:﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ البقرة: ٢١٤؛ فالوقف على قوله: «مِن قَبۡلِكُم» وقف كاف للفصل بين الاِستفهام والإخبار؛ لأنّ قوله: «وَلَمَّا يَأۡتِكُم» عطف على «أَمۡ حَسِبۡتُمۡ»؛ تقديره: أحسبتم ولما يأتكم، وجملة «مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ» جملة مستأنفة لا محلّ لها من الإعراب[3]. يوضّح سبحانه وتعالى في الآية ما نال المؤمنين الصّادقين من المحن والشّدائد حتّى يتأسّى بهم المسلمون، وكان ذلك على سبيل المثل كأنّه قيل: ما مثل الّذين خلوا ومضوا وما حالهم؟

---

(1)– ينظر: صفوة التّفاسير، محمّد عليّ الصّابونيّ، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، د ط، 1421–2001م، ج 02، ص: 132.

(2)– الكشّاف، ج 02، ص: 635.

(3)– ينظر: تفسير البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسيّ، ج 02، ص: 140.

فكان الجواب: «مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ»[1]. بهذا يتّضح أنّ جملة «مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ»؛ مرتبطة بما قبلها معنى لا لفظا؛ فيكون الوقف على «مِن قَبۡلِكُم» كافيا.

إذا كان الوقف التّام يستلزم الوقوف عنده بنغمة هابطة للدّلالة على اِنتهاء الكلام معنى ولفظا؛ فإنّ الوقف الكافي يستلزم الوقوف عنده بنغمة متوسّطة للدّلالة على عدم اِنقطاع المعنى، قال الإمام السّخاويّ: «لا يتعيّن الوقف على الكلمة الّتي يعتبر الوقف عليها كافيا؛ بل يجوز وصلها بما بعدها باِعتبار تمام الكلام،»[2] وذلك لوجود هذا التّعلّق في المعنى العامّ وسياق الموضوع.

ومن الوقف الكافي -أيضا- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ يوسف: ٢٤؛ فالوقف على قوله: «وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ» وقف كاف، وذاك للفصل بين الخبرين، وبهذا يتخلّص القارئ من شيء لا يليق بنبيّ معصوم أن يهمّ باِمرأة، وينفصل عن الحكم الّذي قبله: « وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ» ويصير قوله: «وَهَمَّ بِهَا» مستأنفا؛ إذ الهمّ من النّبيّ يوسف -عليه السّلام- منفيّ لوجود رؤية البرهان[3]؛ فالهمّ الأوّل غير الهمّ الثّاني[4]. يخبرنا المولى تعالى في هذه الآية الكريمة عن موقف اِمرأة العزيز من يوسف -عليه السّلام- بعدما غلّقت الأبواب، وتوسّلت إليه بكلّ وسائل الإغراء، وحاولت إيقاعه في شراكها، فقال سبحانه مبيّنا همّها أوّلا: «وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ»؛ أيّ: عزمت اِمرأة العزيز عزما لا يلويها عنه صارف للظّفر بما تريد[5]، أمّا قوله: «وَهَمَّ بِهَا»؛ أيّ: اِمتنع -عليه السّلام- لوجود البرهان عنده، وهو حرصه على الطّاعة واِستمساكه بآداب

---

[1]- ينظر: تفسير التّحرير والتّنوير، اِبن عاشور، ج 02، ص: 317.

[2]- جمال القرّاء وكمال الإقراء، السّخاويّ، ج 02، ص: 563.

[3]- ينظر: تفسير اِبن جزيّ، محمّد بن أحمد بن جزيّ الكلبيّ، أشرف عليه: لجنة تحقيق التّراث في دار الكتاب العربيّ، بيروت، دط، 1403هـ - 1983م، ص: 312 وما بعدها.

[4]- هذا ما يسمّى في علم البلاغة المشاكلة، وهي الاِتّفاق في اللّفظ مع الاِختلاف في المعنى. - ينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السّيّد أحمد الهاشميّ، ضبطه، د. يوسف الصّميليّ، المكتبة العصريّة، بيروت، د ط، 1422هـ- 2002م، ص:309.

[5]- ينظر: قصص الأنبياء، الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير، نشره: مكتبة الشّركة الجزائريّة، الجزائر، د ط، 1401هـ - 1981م، ص: 229.

آبائه، وبأخلاقهم الطّاهرة؛ فهو منزّه عن الهمّ[1]، والدّليل قوله تعالى: «كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ».

نستنتج أنّه لا علاقة بين الجملتين من حيث اللّفظ؛ لذا يوقف عند قوله تعالى: «وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ» وقفا كافيا، أمّا من حيث المعنى فهما متّصلان ذلك أنّ الآية الكريمة تحمل خبرين: الأوّل هو همّ اِمرأة العزيز على الإيقاع بيوسف –عليه السّلام–، والثّاني: إخبار عن موقفه؛ فهو قد عصمه الله تعالى من الهمّ بالمعصيّة بما أراه من البرهان، وتقرأ الآية بتنغيم غير منته؛ بحيث يبقى الكلام مستمرّا ليؤدّى بنغمة متوسّطة للدّلالة على عدم اِنتهاء المعنى.

ونجده كذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ٣٢﴾ النّحل: ٣٢، يكون الوقف على قوله: «طَيِّبِينَ» وقف حسن؛ والاِبتداء بقوله: «يَقُولُونَ» لا يجوز؛ لأنّها حال من المفعول به الضّمير المتّصل بالفعل «تَتَوَفَّىٰهُمُ» تتبعها حال ثانية، وهي الجملة الفعليّة «يَقُولُونَ»، والمعنى طيّبين قائلين[2]، إنّ الوقف على قوله: «طَيِّبِينَ» جائز، ولا يوجد في قراءة الجملة القرآنيّة «ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ»، أيّ: إخلال بالمعنى، ويمكن الوقوف عليها بنغمة هابطة للدّلالة على اِنتهاء الكلام والمعنى، أمّا الاِبتداء بما بعده؛ فيخلّ بالمعنى لأنّه مرتبط بما قبله لفظا؛ بحيث لا يجوز الفصل بين الحال وصاحبها، والوقف على قوله: «عَلَيۡكُمُ» حسن؛ لأنّه كلام مفيد ولكن الاِبتداء بما بعده لا يجوز؛ لأنّ قوله: « ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ» مفعول « يَقُولُونَ»[3]؛ إذن فهناك رابط لفظيّ بين الكلمة الموقوف عليها والّتي بعدها؛ لذا ينبغي على القارئ مراعاة هذا الرّابط حتّى لا يفسد المعنى.

ورابع أنواع الوقف هو الوقف القبيح؛ إذ أنّه يغيّر المعنى تماما وينقصه، وبما أنّ الوقف عنصر صوتيّ يؤدّيّ ما تؤدّيه النّغمة؛ فإنّ وقف القارئ على ما لا يجب الوقف عليه، سيفهم منه دلالات تفسد معاني الآيات، وتحيد عن الأحكام الشّرعيّة الصّحيحة. لقد روي عن الرّسول –صلّى الله عليه

(1)– ينظر: تفسير البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسيّ، ج 05، ص: 324.

(2)– ينظر: منار الهدى، عبد الكريم الأشمونيّ، ص: 214.

(3)– ينظر: تفسير البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسيّ، ج 05، ص: 488.

وسلّم- أنّه سمع خطّيبا يقول: «من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى.»[1] بحيث وقف عند «ومن يعصهما»؛ فجمع بين حاليْ من أطاع الله ورسوله، ومن عصى؛ فغضب -صلّى الله عليه وسلّم- وقال: «**بئس خطيب القوم أنت.**»[2] أيّ: أنّ الرّسول -صلّى الله عليه وسلم- أنكر على الخطيب وقوفه عند «ومن يعصهما»؛ لأنّه وقف قبيح أفسد المعنى.

وممّا يحيل المعنى في الوقف القبيح في كتاب الله العزيز قوله -عزّ وجلّ-: ﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ النّساء: ١١؛ فإنّ المعنى يفسد بهذا الوقف؛ فيصبح أنّ البنت مشتركة في النّصف مع أبويه؛ في حين أنّ المعنى: النّصف للبنت دون الأبوين اللّذين لكلّ واحد منهما السّدس[3]، ويعتدل المعنى بعد تمام قراءة الآية دون وقف على كلمة النّصف[4]. ويشير ابن الجزريّ في مصنّفه إلى جملة من الآيات الكريمات يوقف عليها وقفا قبيحا؛ فتؤدّي إلى ما لا يليق[5].

وسنرى كيف أنّ تنغيمها -مقترنا بهذا النّوع من الوقف- يفسد المعنى تمّاما؛ ويخرجه عن دائرة المعنى السّليم اللاّئق، من ذلك -والعياذ بالله تعالى- الوقف على ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ البقرة: ٢٦، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ﴾ المائدة: ٥١، ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ﴾ النّحل: ٣٨؛ فبهذه الوقوف القبيحة تقرأ الآيات بنغمة النّفيّ؛ فتنفي عن الله -عزّ وجلّ- الحياة، والهداية، والبعث، وفي قوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ﴾ البقرة: ٢٥٨، وبهذا الوقف غير الجائز-إطلاقا - يفهم أنّ الله – جلّ شأنه – مشترك في البهتان مع الّذي كفر، ومثله من يقف على قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ﴾ النّحل: ٦٠؛ فيجعل الله -المنزّه عن كلّ عيب ونقص- مشتركا في السّوء مع الّذين لا يؤمنون؛ «فيجب أن يُحْذَر منه، ولا يجوز تعمّد الوقف عليه؛ إذ إنّه

---

(1)- ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزّركشيّ، ج 01، ص: 343.

(2)- المرجع نفسه، ص: 343.

(3)- ينظر: صفوة التّفاسير، الصّابونيّ، ج 01، ص: 240-241.

(4)- تمام الآية: ﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴿١١﴾﴾ النّساء: ١١.

(5)- ينظر: النّشر في القراءات العشر، ج 01، ص: 227 وما بعدها.

يغيّر المعنى وينقصه.»[1] ومنه نلاحظ أنّها أداءات وقراءات بالوقف القبيح عليها؛ تؤدّي نغمتها إلى فساد المعنى تماما وخروجه عن الصّواب[2]، ولا بدّ من الإشارة في الأخير أنّ الوقف لم تكن غايته اِستراحة القارئ؛ كي يستعيد نفسه للاِستمرار في التّلاوة فحسب؛ بل إنّه يعطي الآيات القرآنيّة الملاءمة الضّروريّة بين المعنى والصّوت المعبّر عنه، ويظهر معانيها، وبالتّالي تحديد ما تحمله من أحكام.

المبحث الرّابع: دلالة تنغيم الجملة في الخطاب القرآنيّ

لقد ميّز علماء البلاغة بين نوعين من الجمل: الجملة الخبريّة، والجملة الإنشائيّة؛ واضعين لهما مفاهيم ومحدّدات تمكّن الدّارس من التّمييز بينهما[3]، كما بيّنوا المواضع الّتي تخرج فيها الأساليب الإنشائيّة والأساليب الخبريّة إلى أغراض بلاغيّة كثيرة؛ لكنّهم لم يرجعوا ذلك إلى الظّواهر الصّوتيّة كالظّواهر فوق مقطعيّة مثل: النّبر والتّنغيم، ومثل هذا الأمر أشار إليه الكثير من الباحثين المحدثين بأنّ علماء البلاغة من العرب الأوائل؛ لم يعملوا على الرّبط بين الجملة الإنشائيّة أو الجملة الخبريّة عند خروجهما إلى أغراض بلاغيّة، وبين الأداء الصّوتيّ لهما؛ الأمر الّذي قد يؤدّي إلى تعبير الجملة الخبريّة عن الإنشاء، والجملة الإنشائيّة عن الخبر[4].

يعتمد التّنوّع التّنغيميّ على الموقف أو السّياق؛ «فيكون مستوياً إذا كانت الجملة خبريّة، ويكون صاعداً في الاستفهام والأمر، ويكون هابطاً في النّدبة والتّفجّع.»[5] ولقد امتلأت آيات القرآن الكريم بأنواع عديدة من الأساليب؛ تتراوح بين الأساليب الخبريّة والأساليب الإنشائيّة لأهداف

---

[1]- التّمهيد في علم التّجويد، اِبن الجزريّ، ص: 187.

[2]- إنّ مثل هذه القراءات غير الصّحيحة للقرآن الكريم؛ تعدّ ثغرات يتسلّل منها أعداء الإسلام لتصويب الشّكّ في كلّ جانب من جوانب حياتنا الدّينيّة والعلميّة والثّقافيّة؛ حتّى يغرسوا بذور الجحود والشّكّ في إيماننا. – ينظر: الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاويّ، دار الشّهاب، الجزائر، د ط، 1987م، ص: 14 – 15.

[3]- الجملة الخبريّة هي الّتي تحتمل التّصديق والتّكذيب في ذاتها بغضّ النّظر عن قائلها؛ فكلّ كلام يصحّ أن يوصف بالصّدق أو بالكذب فهو خبر، والجملة الإنشائيّة كلام لا يحتمل الصّدق والكذب؛ وهو على قسمين: الإنشاء الطّلبيّ؛ وهو ما يستدعي مطلوبا كالأمر والنّهي والاستفهام، والإنشاء غير الطّلبيّ؛ وهو ما لا يستدعي مطلوبا كصيغ العقود وألفاظ القسم والرّجاء. – ينظر التّفصيل في كتاب: المقتضب، المبرّد، ج 02، ص: 93، وشرح الرّضيّ على الكافية، شريف الرّضيّ، ج 01، ص: 124، والأصول، ابن السّراج، ج 01، ص: 115.

[4]- ينظر: الجملة العربيّة تأليفها وأقسامها، د. فاضل صالح السّامرّائيّ، دار الفكر ناشرون وموزّعون، عمّان، الأردن، ط2، 1427هـ – 2007م، ص: 180.

[5]- في نحو اللّغة وتراكيبها، خليل عمايرة، عالم المعرفة، جدّة، ط1، 1984م، ص: 173.

سامية، وأغراض قيّمة، والمقصود هو الاتّجاه الّذي يأخذه الخطاب القرآنيّ، «وما يؤدّيه من وظائف؛ فقد تكون هناك وظائف متعدّدة ومزدوجة للخطاب الواحد، والتّركيبات الدّلاليّة تفرض اختلافات في الفعل التّواصليّ؛ بمعنى أنّ كلّ تركيب يصل إلى مستقبل بمفهوم معيّن، ويصل إلى مستقبل آخر بمفهوم آخر.»[1] ومن المؤكّد أنّ رسالة الخطاب القرآنيّ قد تحقّق وظائف متفاوتة بين مستقبل وآخر[2]؛ لهذا فالأثر الّذي تتركه يختلف من إنسان لآخر؛ غير أنّ الحكم لا يكون على هذا الاختلاف في الأثر؛ بل على مقدار انتشار أثر ما بين المتلقّين للرّسالة نفسها.

تعدّ ظاهرة التّنغيم «الجانب الشّكليّ المهمّ لبيان دلالة التّراكيب؛ اعتماداً على التّغيّرات الحاصلة في المنحى النّغميّ مع بقاء شكل التّركيب ثابتاً.»[3] فالتّنغيم نظام مركّب من تنوّع نغميّ؛ يعتمد على العلوّ والانخفاض في أثناء الكلام، وهذا التّنوع يصحبه اهتزاز في الوترين الصّوتيّين؛ فتتولّد من ذلك نغمة صوتيّة، وتتفاوت درجة النّغمة الصّوتيّة بين علوّ وهبوط على طبيعة هذا الاهتزاز، «ويقوم بإعطاء الكلام نغمات معيّنة تنتج من اختلاف درجة الصّوت، وذلك عند اجتماع هذه النّغمات ضمن مجموعة من الكلمات على صعيد التّركيب؛»[4] وهذا التنوّع في النّغمات القائم على أساس درجة الصّوت يعدّ جزءاً أساسيّاً من دلالة التّراكيب، وبه يتمّ تغيّر دلالة الجملة من خبريّة إلى استفهاميّة أو تعجبيّة، وما قد تحمله من تأكيد أو نهي أو دعاء، أو إنكار أو توبيخ، وما قد تتميّز به من انفعالات من شكّ أو يقين أو حزن أو فرح أو رجاء أو تذمّر.

1 – تجليّات التّنغيم ودلالته في الجملة الخبريّة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ يونس: ١٣. يخبر الله تعالى عن فعله بالأمم السّابقة؛ الّتي أُهْلِكَتْ بسبب تكذيبها لرسل الله من قبلكم –أيّها المشركون بربّهم– لـمّا أشركوا، ولقد

---

[1]- ينظر: الصّوت اللّغويّ في القرآن الكريم، حسين عليّ الصّغير، ص: 163.

[2]- بدليل اختلاف التّفاسير، وتباين أحكام العلماء حول الآية القرآنيّة الواحدة؛ فقد نجد آية واحدة لها عدّة تفسيرات، وذلك راجع إلى أثر الخطاب القرآنيّ عند كلّ عالم أو مفسّر تبعا لكيفيّة القراءة، أو التّلقّي، «وهذا ما يحدث حين قراءة القرآن الكريم؛ فالمتعة النّاجمة عن القراءة قد تفوق متعة الوصول إلى المعنى الكامن في التّراكيب، ويبدو أنّه مهما اجتهد العلماء في الوصول إلى المعنى المكنون، ربّما لن يدركوه كلّه، وربّما ظلّت المعاني تتوالد مع استمرار متابعة القراءة.» – التّنغيم ودلالات التّراكيب، نوزاد حسن أحمد، ص: 194. نقلا عن: بنيّة التّشكيل الصّوتيّ لأسلوب الاستفهام في القرآن الكريم، تارا فائز سعيد، ص: 72.

[3]- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[4]- ينظر: مبادئ اللّسانيّات، أحمد قدور، ص: 119.

جاءتهم رسلهم من عند الله بالمعجزات المرئيّة للعيان، والحجج الّتي تبيّن صدق من جاء بها؛ فلم تكن هذه الأمم الّتي أهلكت تصدّق الرّسل؛ فاستحقّت الهلاك، ومثل ذلك الهلاك يجزي الله به كلّ مجرم متجاوز لحدوده سبحانه وتعالى[1]؛ فعلى الرّغم من أنّ الآية فيها إخبار إلاّ أنّها تحمل تهديدا بالهلاك، وهو ما بيّنه البقاعيّ مفسّرا الآية بقوله: «ولما كان محطّ نظرهم الدّنيا؛ كان هذا صريحا في الإمهال للظّالمين والإحسان إلى المجرمين؛ اتّبعه بقوله تعالى مهدّدا لهم؛ رادعا عمّا هم فيه من إتّباع الزّينة مؤكّدا؛ لأنّهم ينكرون أنّ هلاكهم لأجل ظلمهم.»[2] فالآية -إذن- لا تقرأ بتنغيم مستو أو منخفض لكونها خبريّة؛ وإنّما تؤدّى بتنعيم مرتفع للدّلالة على ما تحمله من تهديد ووعيد من الله تعالى على الّذين كفروا؛ على رغم ما آتاهم من دليل على قدرته المطلقة في إهلاكهم كما أهلك أمما قبلهم، ومفاد ذلك ردع الظّالمين والمجرمين عن ظلمهم وإجرامهم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦﴾ يونس: ٢٦. يخبرنا -عزّ وجلّ- عن المؤمنين الّذين أحسنوا في عبادتهم لله فأطاعوه فيما أمر ونهى؛ أنّ لهم الجنّة وزيادة عليها، والمغفرةُ والرّضوان، ولا يغشى وجوههم غبار ولا ذلّة؛ هؤلاء المتّصفون بهذه الصّفات هم أصحاب الجنّة ماكثون فيها أبدًا. يقول الزّركشيّ: «الحسنى: المثوبة الحسنة، وما يزيد على المثوبة، وهي التّفضّل عليهم بالنّظر إلى وجه الله تعالى، ولا تغشى وجوههم غبرة فيها سواد، ولا أثر هوان وكسوف بَالٍ، والمعنى: لا يرهقهم ما يرهق أهل النّار إذكارا بما ينقذهم منه برحمته.»[3] وبهذا المعنى تقرأ الآية في أغلبها بتنغيم منخفض هادئ؛ لإظهار الغرض منها؛ والمتمثّل في تحريك همّة المسلمين إلى ما يجب العمل به بهدف تحصيل المثوبة الحسنة؛ الّتي لا تدرك إلاّ بشدّ الهمّة إلى فعل الخير، وطاعته فيما أمر وفيما نهى، والعمل بشريعته الحكيمة. فالملاحظ على الأسلوب الخبريّ في الآية الكريمة حفز الهمّة وتحريك النّفوس لفعل الإحسان، وفاعل الإحسان سيجزى بالإحسان وزيادة أكبر؛ فيها تكرّم من الله تعالى على فعل الإيمان[4].

[1]- ينظر: جامع البيان، الطّبريّ، ج 04، ص: 193.
[2]- نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، ج 09، ص: 85.
[3]- الكشّاف، ج 03، ص: 130 - 131.
[4]- ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج 10، ص: 485.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا٧٦﴾ النّساء: ٧٦. في الآية يخبرنا الله تعالى عن الّذين صدَقُوا في إيمانهم اعتقادًا وعملا؛ يجاهدون في سبيل نصرة الحقّ وأهله، والّذين كفروا يقاتلون في سبيل البغي والفساد في الأرض؛ فقاتلوا أيّها المؤمنون أهل الكفر والشّرك الّذين يتولّون الشّيطان، ويطيعون أمره؛ إنّ تدبير الشّيطان لأوليائه كان ضعيفًا[1]. هذه الآية الحاملة للإخبار تؤدّى بتنغيم منخفض الغرض تحريك الهمّة نحو الجهاد في سبيل الله، وتوسّع الإخبار إلى الحديث عن الفريق الثّاني الّذي يقاتل في سبيل الطّاغوت مبيّنا ضعفهم. أمّا إخباره عن الفريق الأوّل فإنّه «مقوّ عزم المؤمنين به من أصحاب رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- ومحرّضهم على أعدائه وأعداء دينه من أهل الشّرك به: « فَقَٰتِلُوٓاْ» أيّها المؤمنون «أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِ» يعني بذلك: يتولّونه ويطيعون أمره؛ في خلاف طاعة الله، والتّكذيب به، وينصرونه، وما كاد به للمؤمنين؛ من تحزيبه أولياء من الكفّار بالله على رسوله وأوليائه أهل الإيمان به؛ فلا تهابوا أولياء الشّيطان؛ فإنّما هم حزبه وأنصاره، وحزب الشّيطان أهل وهن وضعف.»[2]

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا٦٩﴾ النّساء: ٦٩. يخبرنا الله تعالى في هذه الآية أنّ من يستجب لأوامر الله تعالى، وهدي رسوله محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- فأولئك الّذين عَظُمَ شأنهم وقدرهم؛ فكانوا في صحبة مَنْ أنعم الله تعالى عليهم بالجنّة من الأنبياء والصّديقين الّذين كمُل تصديقهم بما جاءت به الرّسل؛ اعتقادًا وقولا وعملا والشّهداء في سبيل الله وصالح المؤمنين، وحَسُنَ هؤلاء رفقاء في الجنّة. يرى الزّركشيّ أنّ الآية تضمّنت تعجّبا؛ بحيث قال: «فيه معنى التّعجّب؛ كأنّه قيل: وما أحسن أولئك رفيقا ولاستقلاله بمعنى التّعجّب... يقول المتعجّب: حسن الوجه وجهك! ... والرّفيق: كالصّديق.»[3] فعلى الرّغم من أنّ الآية إخبار إلاّ أنّها

(1)- تفسير القرآن العزيز، أبو عبد الله محمّد بن عبد الله ابن أبي زمنين، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، ومحمّد بن مصطفى الكنز، النّاشر: الفاروق الحديث للطّباعة والنّشر، القاهرة، ط1، 1423هـ- 2002م، المجلّد: 01، ص: 387.

(2)- جامع البيان، الطّبريّ، ج 02، ص: 505 – 506.

(3)- الكشّاف، ج 02، ص: 104.

تقرأ بتنغيم أسلوب التّعجّب؛ الغرض منه تحضيض المؤمنين على طاعة الله تعالى، واتّباع سنّة رسوله الكريم -صلّى الله عليه وسلّم- حتّى ينالوا حظّا كبيرة، ومجلسا رفيعا في الجنّة مع الرّسل والصّدّيقين.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ القصص: ٢٤. تخبرنا الآية عمّا قدّمه موسى -عليه السّلام- من مساعدة للمرأتين اللّتين كانتا تذودان لسقي غنمهما؛ فسقى لهما ماشيتهما، ثمّ تولّى إلى ظلّ شجرة؛ فاستظلّ بها، وقال: ربّ إنّي مفتقر إلى ما تسوقه إليّ مِن أيّ خير كان كالطّعام، وكان قد اشتدّ به الجوع[1].

إنّ الجملة القرآنيّة «إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ» على رغم ما تحمله من خبر؛ إلاّ أنّ المفسّرين رأوا أنّها تحمل سؤالا «ولما كان حاله في عظيم صبره حال من لا يطلب؛ أكّد سؤاله إعلاما بشديد تشوّقه لما سأل فيه، وزيادة التّضرّع والرّقة، وأكّد الافتقار بالإلصاق باللاّم دون «إلى»، إلى أيّ شيء. ولما كان الرّزق الآتي إلى الإنسان سببا عن القضاء الآتي عن العليّ الكبير؛ عبّر بالماضي تعميما لحالة الافتقار.... عن ابن عبّاس -رضي الله عنه- أنّه كان قد بلغ من الضّرّ أن اخضرّ بطنه من أكل البقل، وضعف حتّى لصق بطنه بظهره.»[2] بعد هذا التّفسير يتوضّح لنا أنّ الجملة لا تقرأ بتنغيم الجملة الخبريّة، وإنّما تؤدّى بتنغيم السّؤال الّذي يحمل التّضرّع إلى الخالق المنّان، ويكون تنغيمها منخفضا هادئا، وبتزمينٍ بطيء؛ يُظهر حالة الضّعف والاستعطاف والدّعاء.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥﴾ مريم: ٥. الآية فيها إخبار عن ضعف النّبيّ زكريا -عليه السّلام-، وقد عرف عنه أنّه لم يكن من قبل محرومًا من إجابة الدّعاء[3]، وبعد هذا الضّعف هو يخشى أقاربه، وعصبته من بعد موته؛ أن لا يقوموا بدين الله حقّ القيام، وأن لا يدعوا العباد إلى التّوحيد، وكانت زوجته عاقرًا لا تلد؛ وهو يرغب في أن يرزقه الله تعالى مِن عنده ولدًا وارثًا ومُعِينًا. «أمّا قوله «وَإِنِّي خِفۡتُ» فهو إن خرج على لفظ الماضي؛ لكنّه يفيد أنّه في المستقبل أيضا، كذلك يقول الرّجل: قد خفت أن يكون كذا... لا يريد أنّه قد زال الخوف عنه، وهكذا قوله «وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا» أيّ أنّها عاقر في الحال، وذلك أنّ العاقر لا تحول ولودا في العادة؛ ففي الإخبار عنه بلفظ الماضي أقوى، وإلى هذا

[1]- ينظر: مفاتيح الغيب، الرّازيّ، ج 24، ص: 237.

[2]- نظم الدّرر، البقاعيّ، ج 14، ص: 266 - 267.

[3]- ينظر: فتح القدير، الشّوكانيّ، ج 03، ص: 322.

يرجع الأمر في قوله «وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى»؛ لأنّه قصد به الإخبار، وعن تقادم الخوف؛ ثمّ استغنى بدلالة الحال، وما يوجب مسألة الوارث، وإظهار الحاجة عن الإخبار بوجود الخوف في الحال، وأيضا فقد يوضع الماضي مكان المستقبل وبالعكس.»[1] والنّبيّ زكريا –عليه السّلام– لا يريد أن يقرّر أمرا يخبر به الله تعالى؛ فالأمر لا يخفى عليه؛ فهو سبحانه العليم الحكيم بكلّ شيء، ومقصوده –عليه السّلام– إنّما هو إظهار ضعفه وخوفه ملتمسًا من ربّه مخرجًا من الأمرين: الضّعف، والخوف[2]. وهذا المخرج المأمول ينشئه قصده الّذي حوّل المعنى الخبريّ الظّاهر إلى المعنى الإنشائيّ الدّعائيّ العميق[3]؛ فالله يعرف كلّ شيء، وزكريا –عليه السّلام– مدرك لذلك، وهذا ما يمنع إيراد المعنى الأصليّ؛ أيّ: إيراد الإخبار التّقريريّ من النّبيّ لربّه، وبهذا الامتناع يتحوّل الخبر إنشاءً، وتقرأ الآية قراءة فيها دعاء، والدّعاء فيه خوف، ورجاء الاستجابة.

2 – تجلّيات التّنغيم ودلالته في الجملة الإنشائيّة في الخطاب القرآنيّ

أ – دلالة تنغيم أسلوب الاستفهام في الخطاب القرآنيّ[4]:

لقد كان للنّحو والبلاغة دور في ضبط النّصّ القرآنيّ أداءً وفهماً، وكان علماء اللّغة يحرصون على الكشف عن العلل الكامنة وراء النّظم القرآنيّ، وبخاصّة عندما يتّخذ القرآن الكريم من الموسيقى الصّوتيّة أداة من أدوات التّأثير وبلوغ المقصد[5]؛ بحيث يتوقّف فهم المعنى في حالات كثيرة على الطّريقة الصّوتيّة؛ أيّ على التّنغيم أو التّلوين الموسيقيّ الّذي يؤدّي دورا في التّفريق بين الجمل الخبريّة والإنشائيّة، فقد تكون الجملة خبريّة في المعنى، وهي تحتوي على أداة اِستفهام في اللّفظ، وقد تكون اِستفهاميّة دون أن تحوي أداة اِستفهام.

---

[1]– مفاتيح الغيب، الرّازيّ، ج 21، ص: 175.

[2]– ينظر: تفسير البحر المحيط،، أبو حيّان الأندلسيّ، ج 06، ص: 165.

[3]– ينظر: بدائع الفوائد، الإمام أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر بن أيّوب ابن القيّم الجوزيّة، تحقيق: عليّ بن محمّد العمران، دار عالم الفوائد للنّشر والتّوزيع، جدّة، د ط، د ت، ج 02، ص: 17 وما بعدها.

[4]– الاستفهام في اللّغة هو: طلب الفهم، وفي الاصطلاح هو: أسلوب يطلب به العلم بشيء مجهول، كقولك: هل لديك نقود؟ فتجيب السّائل بالنّفي أو الإيجاب. وأدوات الاستفهام قسمان: حرفا الاستفهام، وأسماء الاستفهام. – ينظر تفصيل ذلك في: شرح شذور الذّهب في معرفة كلام العرب، الإمام جمال الدّين أبو محمّد عبد الله بن يوسف المعروف بابن هشام النّحويّ، اعتنى به: محمّد أبو الفضل عاشور، دار إحياء التّراث العربيّ للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ – 2001م، ص: 162. وشرح المفصّل للزّمخشريّ، ابن يعيش النّحويّ، ج 05، ص: 99.

[5]– ينظر: دراسات في القرآن، د. أحمد خليل، دار المعارف، مصر، د ط، 1992م، ص: 68.

إنّ دراسة التّنغيم من أهمّ جوانب الدّراسة الصّوتيّة خصوصاً واللّغويّة عموماً؛ بل من أكثرها خطورة بسبب تعدّد النّغمات في البنيات اللّغويّة، فالتّنغيم كما أشير إليه في هذا البحث هو «تغييرات موسيقيّة تتناوب الصّوت من صعود إلى هبوط، أو من انخفاض إلى ارتفاع؛ تحصل في الكلام والأحاديث لغاية وهدف، وذلك حسب المشاعر والأحاسيس الّتي تنتابنا من رضى وغضب ويأس وأمل وتأثّر ولا مبالاة، وإعجاب واستفهام وشكّ ويقين، ونفيّ أو إثبات؛ فنستعين بهذا التّغيير النّغميّ الّذي يقوم بدور كبير في التّفريق بين الجمل؛ فنغمة الاستفهام تختلف عن نغمة الإخبار، ونغمة النّفيّ تختلف عن نغمة الإثبات، فالتّنغيم حَكَمٌ في دلالات التّراكيب والجمل؛ إذْ يغيّر الجملة من تركيب إلى آخر ومن باب إلى باب وبذلك يتميّز عن النّبر؛ حيث يعمل التّنغيم على مستوى الجملة، وليس على مستوى الكلمة؛ في حين يكون النّبر على الكلمة وحدها، ويدلّ على حدوده، وهكذا فإنّ المتتبّع لكلام النّاس؛ يلحظ التّنغيم ظاهراً في كلامهم؛ فحديث التّواصل بينهم وخطابهم بعضهم بعضاً؛ يكون التّنغيم فيه أوسع من الكلام المكتوب.»[1] وفي قراءة القرآن الكريم يكون للتّنغيم أهميّة عظيمة في دراسة الأساليب[2]، وذلك حسب اِختلاف قراءة القرّاء، من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ١٢٣﴾ الأعراف: ١٢٣، لقد أنكر فرعون على السّحرة عندما أظهروا إيمانهم؛ موبّخا إيّاهم على ما فعلوه، ولقد أفاد المقام «التّوبيخ والتّقريع، والاستفهام للإنكار بمعنى لا ينبغي ذلك، ويؤيّد ذلك قراءة حمزة والكسائيّ وأبي بكر بن عاصم، وعن يعقوب «ءَاَمَنتُم» بهمزتين محقّقتين، وتحقيق الأولى وتسهيل الثّانية بين بين ممّا قرئ أيضا.»[3] فكانت القراءة فيها على وجهين[4]:

- وجه الخبر فيه: أنّه يخبرهم بإيمانهم على وجه التّقريع لهم بإيمانهم، والإنكار له عليهم.
- ووجه الاِستفهام: على وجه التّقرير يوبّخهم به، وينكره عليهم.

---

[1]- منهج التّحليل اللّغويّ في النّقد الأدبيّ، سمير استيتيّة، ص: 154.

[2]- ينظر: التّوجيه البلاغيّ للقراءات القرآنيّة، د. أحمد سعد محمّد، مكتبة الآداب للنّشر، القاهرة، ط1، 1418هـ- 1998م، ص: 210 وما بعدها.

[3]- روح المعاني، الآلوسيّ، ج 09، ص: 27.

[4]- الحجّة في القراءات السّبع، اِبن خالويه، ص: 161.

تتّضح فائدة التّنغيم -هنا- في معرفة نوع الجملة من خلال قراءتها؛ بحيث تتمّ قراءة الجمل الخبريّة بنغمة منخفضة نسبيّا في بدايتها؛ ثمّ ترتفع النّغمة في منتصفها، وتنحدر بعدها إلى أقلّ اِنخفاضا في نهايتها، وبهذا الأداء لقوله تعالى: «**قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**»؛ تكون الجملة خبريّة. أمّا إذا قرئت الآية بمستوى منخفض؛ ثمّ توالى اِرتفاع النّغمة وصعودها حتّى ينتهي بِارتفاع واضح في نهاية الكلمة؛ فإنّ الجملة تعتبر اِستفهاميّة.

وتبرز أهميّة التّنغيم في التّأويل النّحويّ بوجه خاصّ في أمثلة ما اِختلف فيه اللّغويّون حول حذف همزة الاِستفهام، وبقاء معنى الاِستفهام مفهوما، وذلك عن طريق التّنغيم؛ مثل هذا موجود في الشّعر العربيّ، من ذلك قول عمر بن أبي ربيعة[1]:

ثُمَّ قَالُوا: تُحِبُّهَا؟ قُلْتُ بَهْرًا عَدَدَ الرَّمْلِ وَالْحَصَى وَالتُّرَابِ

هناك اِختلاف بين أئمة العربيّة في قول الشّاعر «تُحِبُّهَا»؛ فقد جاء في كتاب مغني اللّبيب على تقدير الاِستفهام والتّقدير: أتحبّها؟[2] بينما أنكر المبرّد حذف همزة الاِستفهام بلا دليل على الحذف؛ فأنكر أنّ بيت عمر بن أبي ربيعة اِستفهاما؛ بل هو إخبار والمعنى: أنت تحبّها[3]. يستخلص من اِختلاف علماء اللّغة القدماء حول أداة الاِستفهام بإنكار البعض حذف الهمزة بلا دليل، وجعل بيت عمر بن أبي ربيعة على الإخبار، وجعل البعض الآخر البيت اِستفهاما تأكيد على وجود ظاهرة التّنغيم عند العرب القدامى، والاِعتماد عليها في تأويل البيت، وثمّة أمثلة كثيرة لتراكيب تخلو من أداة الاِستفهام، ولكنّها في الحقيقة تستعمل كتراكيب اِستفهاميّة، ويدركها السّامع بوضوح وذلك بالتّنغيم. يقول الحضرميّ اِبن عامر الأسديّ ردّا على من عيّره بفرحه لموت أخيه وميراثه إيّاه[4]:

أَفْرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الْكِرَمَ وَأَنْ أُورَثَ ذَوداً شَصَائِصَا نُبْلاَ

---

[1]- شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق: محمّد محيّ الدّين عبد الحميد، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1384هـ _ 1965م، ص: 431.

[2]- ينظر: مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدّين ابن هشام الأنصاريّ، حقّقه وعلّق عليه: د. مازن مبارك، ومحمّد عليّ حمد الله، راجعه: سعيد الأفغانيّ، دار الفكر، بيروت، ط5، 1979م، ج 02، ص: 172.

[3]- ينظر: الكامل في اللّغة والأدب، أبو العباس محمّد بن يزيد المبرّد، تحقيق، د. زكيّ مبارك، مطبعة الحلبيّ وشركاه، مصر، د ط، 1356هـ - 1987م، ج 02، ص: 610.

[4]- شرح أبيات مغني اللّبيب، عبد القادر البغداديّ، تحقيق: عبد العزيز رباح، مطبعة بولاق، مصر، د ط، 1983م، ج 01، ص: 37.

يمكن أن تكون جملة «أَفْرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الْكَرَمَ» اِستفهاميّة، وليس فيها أداة اِستفهام، والتّقدير: أَأَفْرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الْكَرَم؟[1] وإنّ ما يدلّ على أنّها جملة اِستفهاميّة هو نطقها بطريقة تناسب النّمط التّنغيميّ الاِستفهاميّ. ومن هذا القبيل ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾ التّحريم: ١، فهي اِستفهاميّة، ويرى الآلوسيّ أنّ الاستفهام ليس على الحقيقة؛ بل هو على المعاتبة على تحريم الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- ما أحلّ الله تعالى؛ بغية مرضاة زوجاته[2]، ولكن الآية الكريمة خالية من أداة الاِستفهام، والتّقدير: «أتبتغي مرضاة أزواجك؟» تعويلا على أنّ معنى التّركيب يوحي إلى الاِستفهام، وقد حذف حرف الاِستفهام[3]. وعوّض في الآية بالتّنغيم المرتبط بالمعنى؛ فتقرأ الآية بنغمة الاِستفهام.

تظهر أهميّة التّنغيم ودلالته النّحويّة من اِختلاف القرّاء واللّغويّين في همزة الاِستفهام؛ أيّ: في جواز حذف همزة الاِستفهام في الكلام، فيصبح -أيّ الكلام- بلفظ الإخبار، ويدلّ على معنى الاِستفهام؛ كقوله -عزّ وجلّ-: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ البقرة: ١٢٤، وذلك عندما أعلم الله تعالى إبراهيم -عليه السّلام- أنّ في ذريّته أنبياء؛ فأراد أن يعلم هل يكون ذلك في كلّهم أو في بعضهم؟ وهل يصلح جميعهم لهذا الأمر؟ والتّقدير: «أو من ذريتي؟»[4] فالآية الكريمة تُقْرَأُ بتنغيم الاِستفهام بدليل ما ورد من جواب منه سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، إنّها «إجابة إلى ملتمسه، وتنبيه على أنّه قد يكون من ذريّته ظلمة، وأنّهم لا ينالون الإمامة لأنّها أمانة من الله تعالى وعهد، والظّالم لا يصلح لها، وإنّما ينالها البررة الأتقياء منهم.»[5] ويكون التّنغيم -بذلك- من العناصر الّتي «تَسِمُ بعض الأقوال الاِستفهاميّة المخصوصة، والّتي لا تصدّر بأدوات اِستفهام.»[6] فتعوّض بالتّنغيم الّذي يكسوها بنمط الاستفهام.

---

[1]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 37.

[2]- ينظر: روح المعاني، الآلوسيّ، ج 28، ص: 147.

[3]- ينظر: شواهد التّوضيح والتّصحيح لمشكلات الجامع الصّحيح، ابن مالك الأندلسيّ، ص:147.

[4]- ينظر: كتاب معاني القرآن، أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط، تحقيق: دة. هدى محمود قراعة، النّاشر: مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط1، 1411هـ – 1990م، ج 01، ص: 154.

[5]- أنوار التّنزيل، البيضاويّ، ج 01، ص: 104.

[6]- تعدّد المعنى في القرآن، دة. ألفة يوسف، دار السّحر للنّشر، تونس، ط1، 2003م، ص: 164.

وتجلّى ذلك -أيضا- في تفسير قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ الأنعام: ٧٦ – ٧٧، إنّه لا يصحّ للأنبياء المعصومين عن الخطأ؛ أن يتوجّهوا بعبادتهم لغير الله تعالى؛ خاصّة وأنّ الأمر هنا يخصّ سيّدنا إبراهيم -عليه السّلام- الّذي قال عنه -جلّ وعلا-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ إبراهيم: ٣٥، وقال كذلك: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ الصّافات: ٨٤؛ لهذا فإنّه غير جائز أن يكون قد رأى في الكوكب أو القمر ربّا يعبد، «وكيف يصحّ أن يتوهّم هذا على من عصمه الله، وآتاه رشده من قبلُ، وأراه ملكوته ليكون من الموقنين، ولا يجوز أن يوصف بالخلوّ عن المعرفة؛ بل عرف الرّبّ أوّل النّظر.»[1] لهذا يرى الكثير من المفسّرين أنّ الآية الكريمة جملة استفهاميّة؛ وليست جملة خبريّة مثبتة، وقيل: «هو معنى الاستفهام والتّوبيخ؛ منكرا لفعلهم، والمعنى: أهذا ربّي؟ أو: مثل هذا يكون ربّا؟ فحذف الهمزة. وفي التّنزيل:﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ الأنبياء: ٣٤، أيّ: أفهم الخالدون؟ وقال الشّاعر عمر بن أبي ربيعة»[2]:

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنْ كُنْتُ دَارِيًا بِسَبْعٍ رَمَيْنَ الْجَمْرَ أَمْ بِثَمَانِ

أيّ: أبسبع رمين الجمر؟ جملة استفهاميّة تُقْرَأُ بنغمة مرتفعة.

وقد أشار الرّازيّ إلى إمكان أن يكون «المراد الِاستفهام على سبيل الإنكار؛ إلاّ أنّه أسقط حرف الِاستفهام لدّلالة الكلام عليه،»[3] والتّقدير: «أهذا ربي؟»، فهذا التّفسير هو «سعي من الرّازيّ إلى تبرئة إبراهيم من إمكان الكفر، غير أنّه تفسير ما كان ليكون ممكنا لولا الأسّ اللّغويّ الّذي ذكرناه،»[4] أيّ: لولا التّنغيم لما تمكّن الرّازيّ من قراءة الآية على الِاستفهام؛ فيرفع بذلك إمكان الكفر على سيّدنا إبراهيم -عليه السّلام- لأنّه من الاستحالة بمكان أن يكون خليل الله تعالى فكّر في اتّخاذ مخلوق ربّا له.

(1)- الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج 08، ص: 439.

(2)- المرجع نفسه، ص: 440.

(3)- مفاتيح الغيب، ج 07، ص: 40.

(4)- تعدّد المعنى في القرآن، ألفة يوسف، ص: 165.

يُفسَّر بوسيلة التّنغيم دائما قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ البقرة: ٨٨، على أنّه اِستفهام في قوله: « قُلُوبُنَا غُلْفُۢ؟»؛ يردفه جواب إلهيّ بقوله: «بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ»، ويتّضح ذلك من خلال معرفة معنى الآية الكريمة؛ فقوله: «وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ»، «قال ابن عبّاس: مملوءة علما؛ لا تحتاج إلى محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- ولا غيره، وقيل بل المعنى: قلوبنا أوعيّة للعلم؛ فما بالها لا تفهم قول محمّد.»[1] ويعتبره اِبن عاشور كلاما يقوله الكفّار للنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- حين يدعوهم للإسلام؛ قصدوا به التّهكّم وقطع طمعه في إسلامهم، ثمّ يلاقيهم الرّدّ من الله تعالى بقوله: «بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ» أيّ: ليس عدم إيمانهم لقصور في الفهم، ولكن لأنّهم كفروا فلعنهم الله تعالى، وأبعدهم عن الخير وأسبابه[2]. والأمر نفسه ورد عند الرّازيّ الّذي رأى إلى إمكان أنّهم ذكروا القول: «قُلُوبُنَا غُلْفُۢ» على سبيل الاِستفهام الّذي يعني الإنكار[3]. بهذا تجوز قراءة قوله: «قُلُوبُنَا غُلْفُۢ» بنغمة الاِستفهام الّذي يحمل معنى الإنكار، أو معنى الاِلتفات، وما بعدها تُقْرَأُ بنغمة الإخبار.

نأخذ مثالا آخر يظهر دائما أهميّة التّنغيم بعد حذف أداة الاِستفهام؛ مع وجود ما يدلّ عليها كالنّطق، وقد يكون في هذه الحالة الحذف أبلغ من الذّكر، ويتمثّل في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ الشّعراء: ٢٢ على تقدير الاِستفهام[4]، أيّ: «أو تلك نعمة؟». ومعناها «أفتمنّ عليّ بتربيّتك إيّاي، ولم تكن تلك المنّة منك لولا أنّك استعبدت بني إسرائيل، وأوغلت في ذبح أولادهم، وترك نسائهم؟»[5] لقد أوضح الأخفش أنّ الآية الكريمة اِستفهام، بقوله: «هذا استفهام، كأنّه قال: أو تلك نعمة تمنّها؟ ثمّ فسّر فقال: أن عبّدت بني إسرائيل. وجعله بدلا من النّعمة؛»[6] فإنّ الآية الكريمة مكتوبة؛ تجعلنا نعتقد أنّها جملة خبريّة مثبتة،

---

[1]- التّفسير المأمون، مأمون حمّوش، ج 01، ص: 330.
[2]- ينظر: تفسير التّحرير والتّنوير، ج 02، ص: 599 - 600.
[3]- ينظر: مفاتيح الغيب، ج 07، ص: 192.
[4]- ينظر: مغني اللّبيب، اِبن هشام الأنصاريّ، ج 01، ص: 20.
[5]- بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز، الشّيخليّ، المجلّد: 07، ص: 196.
[6]- ينظر: كتاب معاني القرآن، الأخفش الأوسط، ج 02، ص: 461.

ولكنّها إنشائيّة اِستفهاميّة؛ فتقرأ بنغمة صوتيّة مفيدة للاِستفهام، ذلك أنّ الاِستفهام مفهوم من سيّاق الجملة القرآنيّة.

إنّ حذف أداة الاِستفهام ظاهرة من الظّواهر اللّغويّة في تراثنا العربيّ؛ بحيث نجدها في كتاب الله تعالى، وفي سنّة رسوله -صلّى الله عليه وسلّم-[1]، وفي منثور العرب وشعرهم، وهذا الحذف لا يكون إلاّ بدليل، قال اِبن السّراج: «واِعلم أنّ جميع ما يحذف؛ فإنّهم لا يحذفون شيئا إلاّ وفيما أبقوا على دليل على ما ألقوا.»[2] وهذه الظّاهرة تؤدّى بنغمة صوتيّة -خاصّة- في اللّغة المنطوقة[3]؛ فيصبح بذلك التّنغيم وسيلة في نقل المعنى الّذي تعجز عن نقله اللّغة المكتوبة، لهذا ذهبت طائفة من العلماء إلى جواز حذف الأداة إذا أمن اللّبس، ولكنّ هذا الحذف مرهون بالسّيّاق وقرائن الأحوال؛ فمتى دلّ في النّصّ دليل على أنّ السّياق سياق اِستفهام -مثلا- ولم يكن في الكلام أداة خاصّة به؛ اعْتُمِدَ على الأداء والتّنغيم للدّلالة على المحذوف.

يقول الزّجاج: «وحذف الهمزة في الكلام حسن جائز إذا كان هناك ما يدلّ عليه.»[4] من هذا القبيل قراءة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ البقرة: ٦. يرى الأخفش أنّ الآية الكريمة تحمل اِستفهاما؛ يقول شارحا رأيه: «فإنّما دخله حرف الاستفهام، وليس باستفهام لذكره السّواء؛ لأنّه إذا قال في الاستفهام: (أزيد عندك أم عمرو؟) وهو يسأل أيّهما عندك؛ فهما مستويان عليه؛ ليس واحد منهما أحقّ بالاستفهام من الآخر؛ فلمّا جاءت التّسوية في قوله: «ءَأَنذَرۡتَهُمۡ» شبّه بذلك الاستفهام إذ أشبه في التّسوية،»[5] وأنّ الإنذار أو عدم الإنذار سواء في الاِستفهام؛ فهما متساويان، وليس أحدهما أحقّ بالاِستفهام من

[1]- كقول الرّسول -صلى الله عليه وسلم- «**أتاني آت من ربي؛ فأخبرني أنّه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة. قلت: وإن سرق، وإن زنى؟ قال: وإن سرق وإن زنى.**» التّقدير: أو إن سرق وإن زنى؟ - صحيح البخاريّ، الإمام البخاريّ، ج 02، باب الجنائز، ص: 89 - 90.

[2]- الأصول في النّحو، أبو بكر محمّد بن سهل بن السّراج النّحويّ البغداديّ، تحقيق: الحسين الفتليّ، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط1، 1405هـ- 1985م، ج 02، ص: 264.

[3]- ينظر: مقدّمة في اللّسانيّات، عاطف فضل، ص: 255.

[4]- إعراب القرآن المنسوب للزّجاج، تحقيق ودراسة: إبراهيم الأبياريّ، دار الكتاب المصريّ، القاهرة، دار الكتاب اللّبنانيّ، بيروت، بيروت، ط4، 1420هـ- 1990م، ج 01، ص: 301.

[5]- كتاب معاني القرآن، ج 01، ص: 21.

الآخر، ومثل ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ ٦﴾ المنافقون: ٦.

ويرى اِبن عاشور أنّ للعرب في (سواء) اِستعمالان؛ أحدهما يؤتى به على أصل وضعه من الدّلالة على معنى التّساوي في وصف بين متعدّد؛ فيقع معه (سواء)؛ نحو قول بثينة[1]:

سَوَاءٌ عَلَيْنَا يَا جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرٍ إِذَا مِتَّ بَأْسَاءُ الحَيَاةِ وَلِينُهَا

وثانيها أن يقع مع همزة التّسوية، وما هي إلاّ همزة اِستفهام كثر وقوعها بعد كلمة (سواء)، ومعها أم العاطفة كقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٦﴾ المنافقون: ٦؛ فمن خلال رأي الأخفش، وتفسير ابن عاشور يمكننا القول أنّ قوله تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ» اِستفهام محذوف الأداة؛ يعتمد على التّنغيم لأدائه، والتّقدير: «أسواء عليهم؟»

وهكذا تكون قرينة التّنغيم –في كثير من الأحيان– أعظم أثرا من القرينة اللّفظيّة؛ أيّ: الأداة الصّوتيّة المساعدة في الوصول إلى دلالة الخطاب القرآنيّ، وما تحمله آياته الكريمات من معان، لأنّه يعتبر «وسيلة صوتيّة تسعى للاستغناء عن الأدوات واللّواحق الّتي تثقل البنى الصّرفيّة لتحديد الدّلالة؛ بل إنّه عنصر من العناصر الإبلاغيّة في دراسة النّماذج الأدبيّة الرّفيعة في اللّغات الحيّة.»[2] من هنا تتجلى أهميّة التّنغيم وإسهامه في إنتاج الدّلالة، وتوصيلها إلى المخاطب مباشرة من دون أن يتطلّب ذلك منه إعادة الفكر والتّأمّل في الكلام؛ بل يطبع الكلام بطابع معيّن يفهمه السّامع مباشرة؛ إذ يقوم التّنغيم «بوظيفة تحديد الوحدات المعنويّة الكبيرة في الخطاب، وذلك بربط المقاطع التّركيبيّة للجملة أو الجمل المتتالية فيما بينها، والحقيقة أنّ التّنغيم يميّز الجملة ونوعها، ويحدّد طريقة التّواصل القائم بين المتكلّم والمخاطب، وهو بذلك يميّز في الجملة الواحدة، ودون أيّ تغيير في مكوّناتها الفونيميّة والمرجعيّة بين الصّيغة الإخباريّة مثلا، والصّيغة الاستفهاميّة أو التّعجبيّة أو الأمريّة أو الانفعاليّة.»[3] وذلك ناتج عن التّغيّرات الصّوتيّة الّتي يفرضها السّياق، ويستدعيها الموقف.

---

(1)- ينظر: تفسير التّحرير والتّنوير، ج 01، ص: 250.

(2)- التّنغيم اللّغويّ في القرآن الكريم، العزاويّ، ص: 143، نقلا عن: منهج التّحليل اللّغويّ في النّقد الأدبيّ، سمير استيتيّة، ص: 154.

(3)- علم الأصوات، كمال محمّد بشر، ص: 100.

تنتقل التّراكيب من خلال التّنغيم بين عدّة أساليب من دون أن يطرأ أيّ تغيير على بنيّة الجملة ومن دون إضافة أو حذف؛ فعبر التّنغيم يمكن أن تكون الجملة خبريّة محضة، أو استفهاميّة أو تعجبيّة، وتظهر دلالات الجمل عند النّطق بها، وعندما تكون مكتوبة تحلّ علامات التّرقيم محلّ التّنغيم لبيان دلالة الجملة، وتعتبر هذه العلامات غير كافية للتّعبير عن الكثير من االمعاني، لا سيما عندما يخرج أسلوب الاستفهام إلى معنى لا يتعلّق بطلب الفهم، وإنّما يكون إنكارا أو توبيخا مثلا؛ فيقوم التّنغيم عند النّطق بتحديد دلالة الجملة، وتكثر هذه الأساليب وتتنوّع في القرآن الكريم، والأمر الّذي يعين على تحديد دلالاتها؛ السّياق الّذي ترد فيه[1].

نجد ذلك في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ٢١﴾ إبراهيم: ٢١، جملة صدرت عن الّذين استكبروا، وهي استفهام غير حقيقيّ مستعمل للتّوبيخ، «وهذا الجواب جار على معنى الاستفهام التّوبيخيّ العتابيّ؛ إذ لم يجيبوهم (أيّ لم يجيبوا الضّعفاء) بأنّا لا نملك لكم غناء، ولكن ابتدأوا بالاعتذار عمّا صدر منهم في الدّنيا، علما بأنّ الضّعفاء عالمون بأنّهم لا يملكون لهم غناء من العذاب.»[2] وبهذا خرج الاستفهام إلى دلالات يفصح عنها سياق حال المتكلّمين، وهم المستكبرون من القوم الّذين أغرّوا بالضّعفاء من القوم في الدّنيا حتّى يتّبعوهم، ولا يتّبعوا المرسلين، وتمثّل التّنغيم في هذا التّركيب في نمط التّنغيم الخبريّ، فتقرأ الآية الكريمة بنمط تنغيميّ مستو، وليس بتنغيم مرتفع؛ لأنّ سياق المقام يقتضي ذلك، وقد خرجت «الهمزة وأم» عن الاستفهام لمجرّد التّسوية؛ فصيّرتا الجملة خبريّة، وسواء: «اسم بمعنى الاستواء مرفوع على الخبريّة للفعل المذكور بعده لأنّه مجرّد من النّسبة والزّمان؛ فحكمه حكم المصدر جزاء للجملة المذكورة بعده لتضمّنها معنى الشّرط، والجزع حزن يصرف عمّا يراد فهو حزن شديد، وهو عدم احتمال الشّدّة؛ فهو نقيض الصّبر، وإنّما أسندوا كلاّ من الجزع والصّبر واستوائهما إلى ضمير المتكلّم المنتظم للمخاطبين أيضا؛ مبالغة في النّهيّ عن التّوبيخ بإعلامهم أنّهم شركاء لهم فيما ابتلوا به وتسليّة لهم.»[3] وهكذا يحمل الاستفهام في هذه الآية دلالة الإخبار؛ لذا يتوجّب قراءتها قراءة الجملة الخبريّة بتنغيم مستو، ولا تقرأ قراءة استفهاميّة حتّى لا ينتظر كلاّ من المستمع والقارئ إجابة عنها.

---

(1)- ينظر: معاني النّحو، فاضل صالح السّامرائيّ، ج 04، ص: 606 – 610.

(2)- تفسير التّحرير والتّنوير، ابن عاشور، ج 13، ص: 216.

(3)- روح المعاني، الآلوسيّ، ج 13، ص: 207.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥﴾ الصّافات: ٩٥، القول لسيّدنا إبراهيم – عليه السّلام– عندما آتاه قومه يسألونه عن تحطيمه لأصنامهم؛ فقال لهم منكرا «أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ» أيّ: «الّذي تنحتونه من الأصنام؛ فما موصولة حُذِفَ عائدها، وهو الظّاهر المتبادر، وجُوِزَ كونها مصدريّة، أيّ: أتعبدون نحتكم، وتوبيخهم على عبادة النّحت مع أنّهم يعبدون الأصنام، وهي ليست نفس النّحت للإشارة إلى أنّهم في الحقيقة؛ إنّما عبدوا النّحت لأنّ الأصنام قبله حجارة، ولم يكونوا يعبدونها، وإنّما عبدوها بعد أن نحتوها؛ ففي الحقيقة ما عبدوا إلاّ نحتهم.»[1] فأفاد الاستفهام الإنكار التّوبيخيّ؛ ويبدأ التّنغيم صاعدا في هذه الآية الكريمة، وينتهي هابطا لأنّ الاستفهام خرج إلى معنى مجازيّ هو الإنكار التّوبيخيّ. وتعرب الهمزة: همزة إنكار وتوبيخ بلفظ استفهام، وما: اسم موصول في محلّ نصب مفعول به، بمعنى: أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها؟ والتّقدير: ما تنحتونه بأديكم وأدواتكم، وإذا اعتبرت «ما» مصدريّة؛ فإنّها وما بعدها تؤوّل مصدرا في محلّ نصب مفعول تعبدون[2]. أيّ: أتعبدون نحتَكم؟ إذن فالآية بذلك خرجت عن الاستفهام الحقيقيّ إلى توبيخ وإنكار؛ فتقرأ بذلك في نهايتها بتنغيم يفيد الإخبار.

قال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ الحجرات: ١٢، إنّه «تمثيل لما يناله المغتاب، وإسناد الفعل إلى أحد للتّعميم، وتعليق المحبّة بما هو غاية الكراهة، وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان، وجعل المأكول أخا وميّتا، وتعقيب ذلك بقوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.»[3] بحيث أفاد الاستفهام التّنفير[4]؛ وقد استعمل القرآن الكريم في ذلك صياغة لغويّة؛ جسّدت صورة سلوك بشريّ ترفضه الإرادة الإلهيّة، وهو «تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفشحه، وفيه مبالغات شتّى: منها الاستفهام الّذي معناه التّقرير، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبّة، ومنها أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتّى جعل الإنسان أخا، ومنها أن لم يقتصر على لحم الأخ حتّى جعل ميّتا.»[5] وهذا لأجل أن ينفّر المسلمين من الغيبة ويحذّرهم منها؛ لهذا تقرأ الآية بتنغيم فيه دعوة إلى النّفور؛ بدليل ما ورد بعده من كراهيّة

---

[1]– المرجع نفسه، ج 23، ص: 124.

[2]– ينظر: بلاغة القرآن الكريم، الشّيخليّ، المجلّد: 08، ص: 435.

[3]– أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل، البيضاويّ، ج 05، ص: 136.

[4]– ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[5]– الكشّاف، الزّمخشريّ، ج 06، ص: 380.

أكل لحم الأخ، وميّتا فوق ذلك، وهذا الاستفهام غير حقيقيّ لا يراد منه طلب الجواب، وإنّما يراد به وجوب كراهيّة فعل الاغتياب؛ لأنّه لا يحسن بالمسلم فعله، وضرورة الابتعاد عن هذا السّلوك المشين في الحياة، والتّوبة منه، والله قابل توبة التّائبين المتطهّرين من الذّنب؛ غافر الذّنوب، رحيم بعباده التّائبين النّائبين إليه.

وقوله تعالى: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ ٨٧﴾ هود: ٨٧، قالوا ذلك استهزاء بشعيب، «قال قتادة: قالوه على وجه الاستهزاء والسّخريّة، وقيل: هو تعريض أرادوا به السّبّ... وقيل: تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا؛ لمّا رأوا من كثرة صلاته وعبادته.»[1] فلقد خرجت الآية الكريمة من الاستفهام إلى معنى التّهكّم، «فالمكذّبون الملحدون قد تمالؤوا في كلّ أمّة على إنكار الصّلاة والاستهزاء بفاعلها؛ فلمّا كانت الصّلاة أخصّ أعمال شعيب؛ المخالفة لمعتادهم جعلوها المشيرة عليه بما بلّغه إليهم من أمور لمعتادهم قصدا للتّهكّم به، والسّخريّة عليه تكذيبا له فيما جاءهم به، فإسناد الأمر إلى الصّلوات غير حقيقيّ؛ إذ قد علم كلّ العقلاء أنّ الأفعال لا تأمر، والمعنى أنّ صلاته تأمره بأنّهم يتركون؛ أيّ: تأمره بأن يحملهم على ترك ما يعبد آباؤهم؛ إذ معنى كونه مأمورا بعمل غيره؛ أنّه مأمور بالسّعي في ذلك بأن يأمرهم بأشياء.»[2] وهكذا فإنّ الآية الكريمة تبدأ بتنغيم صاعد لتصدّرها بالاستفهام، وتنتهي بتنغيم هابط لخروج الاستفهام إلى دلالة التّهكّم، ووقع الاستفهام على عمل تعبّديّ هو الصّلاة.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾ البقرة: ٢٨، «فإنّه أخرج مخرج التّعجّب.»[3] فقد جاء في إعراب كيف أنّها: اسم استفهام تفيد التّعجّب[4]، ويرى البيضاويّ أنّ الآية استخبار فيه إنكار، «وتعجيب لكفرهم بإنكار الحال الّتي يقع عليها على الطّريق البرهانيّ.»[5] وتصدّر الآية بكيف الدّالة الدّالة على الحال الّتي تستلزم وجود إنكار الكفر؛ كان أبلغ وأقوى في إنكار الكفر من لو أنّها تصدّرت بهمزة الاستفهام، أيّ: «أتكفرون؟» وكان ذلك أوفق لما بعده من الحال، «والخطاب مع

---

(1)- الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج 11، ص: 194 - 195.

(2)- تفسير التّحرير والتّنوير، ابن عاشور، ج 12، ص: 141.

(3)- مغني اللّبيب، ابن هشام الأنصاريّ، ج 01، ص: 271.

(4)- ينظر: بلاغة القرآن في الإعجاز، الشّيخليّ، ج 01، ص: 59.

(5)- أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل، ج 01، ص: 65.

الّذين كفروا لما وصفهم بالكفر، وسوء المقال وخبث الفعال، خاطبهم على طريقة الالتفات.»[1] وهكذا فإنّ الآية الكريمة تقرأ بتنغيم التّعجّب وليس بتنغيم الاستفهام، لما تحمله من خطاب دالّ على حالهم في الكفر الموجود فيهم؛ كأنّه متأصّل في قلوبهم؛ فالله تعالى لا ينتظر منهم جوابا؛ وإنّما يبيّن شدّة كفرهم متعجّبا لحالهم على رغم ما أبداه -جلّ وعلا- لهم من قدرة عظيمة في إحيائهم بعد موتهم، أيّ: «هؤلاء ممّن يجب أن يتعجّب منهم حين كفروا، وقد ثبتت عليهم الحجّة.»[2]

ما يمكن قوله في هذا المقام: إنّ للاستفهام معان وأغراض كثيرة؛ لا يمكن الإحاطة بها جميعا، وإنّ أداة الاستفهام لا تدلّ دائما على المعنى الأصليّ لها، وإنّما يُكْتَشَفُ معناها من السّياق، وبذلك فإنّه على قارئ القرآن الكريم أن يظهر في تلاوته أغراض الاستفهام، ويكون تنغيمها حسب مضمون السّياق.

ب – دلالة تنغيم أسلوب النّداء في الخطاب القرآنيّ[3]:

تستعمل أداة النّداء «يا» لكلّ منادى قريبا كان أو بعيدا أو متوسّطا، وينادى بها اسم الله تعالى فلا ينادى بغيرها، ويكون للتّنغيم في كثير من الأحيان أثر أبلغ من توظيف الأداة؛ لأنّ أداة النّداء قد تحذف قصد الاختصار، والعرب بطبيعتها تميل إلى الإيجاز؛ خاصّة إذا ما وجد في القول قرائن تدلّ على المحذوف، وإيصال المعنى دون إخلال، يقول ابن جنيّ: «واعلم أنّ العرب إلى الإيجاز أميل، وعن الإكثار أبعد؛ ألاّ ترى أنّها في حال إطالتها وتكريرها مؤذنة باستكراه تلك الحال وملالها، ودالّة على أنّها إنّما تجشّمها لما عناها هناك وأهمّها؛ فجعلوا تحمّل ما في ذلك على العلم بقوّة الكلفة فيه؛ دليلا على إحكام الأمر فيما هم عليه، ووجه ما ذكرناه من ملالتها الإطالة؛ مع مجيئها الضّرورة الدّاعية إليها.»[4]

---

(1)- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(2)- الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج 01، ص: 373.

(3)- النّداء في اللّغة: الدّعاء بأيّ لفظ كان، أمّا في الاصطلاح فهو: طلب المتكلّم إقبال المخاطب بواسطة أحد حروف النّداء ملفوظا كان أو ملحوظا. ومن أمثلة النّداء الملفوظ قول الشّاعر ضرار بن الخطاب:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُحَوِّلُ رَحْلُهُ   هَلاَّ نَزَلْتَ بِآلِ عَبْدِ مَنَافٍ

ومن أمثلة النّداء الملحوظ الآية القرآنيّة: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ الممتحنة: ٤. هذان القسمان من النّداء يمثّلان نوعيه من حيث اللّفظ، ومن حيث المعنى فإنّه أيضا ينقسم إلى قسمين إلى حقيقيّ و مجازيّ، كقول الشّاعر عبد يغوث بن وقّاص الحارثيّ:

أَيَا رَاكِبًا أَمَا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ   نَدْمَايَ مِنْ نَجْرَانَ أَلاَّ تَلاَقِيَا

- ينظر: شرح المفصّل للزّمخشريّ، ابن يعيش النّحويّ، ج 02، ص: 3 0 – 04.

(4)- الخصائص، ابن جنيّ، ج 01، ص: 126.

وما الحذف في أسلوب النّداء إلاّ وجها من وجوه بلاغة العرب؛ حيث إنّه كثيرا ما تحذف حرف النّداء. قال تمّام حسّان: «لا ينبغي لنا أن نفهم أنّ الحذف على معنى أنّ عنصرا كان موجودا في الكلام ثمّ حذف بعد وجوده؛ ولكن المعنى الّذي يفهم من كلمة الحذف؛ ينبغي أن يكون الفارق بين مقرّرات النّظام اللّغويّ، وبين مطالب السّياق الاستعماليّ.»[1] فالحذف له شروطه وأحكامه قد بيّنها العلماء العرب القدماء في العديد من مصنّفاتهم[2]؛ حتّى يغلقوا أمام الكائدين باب التّلاعب باللّغة خاصّة اللّغة العربيّة الّتي تمثّل لغة القرآن الكريم، ولا يجب الظّنّ أنّ الحذف هو استغناء عن عنصر من عناصر اللّغة، وإنّما يستعمل حسب متطلّبات السّياق.

وإنّ من أغراض حذف حرف النّداء (يا)؛ التّخفيف لكثرة دورانه في الكلام[3]، أيّ: أنّ المتكلّمين يفعلون ذلك استخفافا لكثرة وروده في كلامهم، وما ذلك إلاّ تنغيم أثناء أداء الفعل الكلاميّ، وما يطرأ على صوت المتكلّم أثناء الكلام من تغييرات صوتيّة، وهو ما أورده الكثير من الباحثين المحدثين في تعريفاتهم للتّنغيم.

– معاني النّداء المحذوف الأداة ودور التّنغيم:

يعتبر عنصر التّنغيم ركنا أساسيّا في الأداء؛ بحيث يتحكّم –في أحيان كثيرة– في تحديد المعنى وتوجيهه، وذلك اعتمادا على كيفيّة نطق الجملة وتنغيمها؛ إذ يضفي على التّراكيب المنطوقة معاني إضافيّة لا يمكن الوصول إليها بمجرّد معرفة معاني مفردات التّركيب، ولا تفهم غالبا من تركيب الجملة المكتوبة؛ وإنّما تكون طريقة نطقها بصور تنغيميّة مختلفة؛ هي الوسيلة لفهم تلك المعاني الإضافيّة يقصدها المتكلّم، ويعيها السّامع[4]. من المعاني الّتي يحملها أسلوب النّداء في القرآن الكريم، وتستوجب على القارئ أداؤها بوجهها التّنغيميّ الملائم؛ هو ما أشار إليه الدّركزليّ بوجوب قراءة القرآن بالنّغمة المناسبة، ومنها «ما جاء من أسمائه تعالى وصفاته فبالتّعظيم والتّوقير...؛»[5] لأنّ وجوه الخطاب في القرآن الكريم تأتي على نحو من أربعين وجها[6]؛ حتّى يفهمها المستمع، نجد من ذلك في في تنغيم النّداء المحذوف الأداة:

---

(1)– اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص: 298.

(2)– ينظر مثلا: الخصائص، ابن جنيّ، ج 01، ص: 126. ومغني اللّبيب، ابن هشام الأنصاريّ، ج02، ص: 429.

(3)– ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزّركشيّ، ج 01، ص: 546.

(4)– ينظر: مناهج البحث في اللّغة، تمّام حسّان، ص: 198 وما بعدها.

(5)– خلاصة العجالة في بيان مراد الرّسالة، ص: 213.

(6)– ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السّيوطيّ، ص: 488.

الإقرار بوحدانيّة الله تعالى، والإيمان إيمانا يقينيّا، وأنّه وحده الحيّ له الملك والقدرة المطلقة، والهيمنة النّافذة: قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ آل عمران: ٢٦ الموجّه له الأمر بالقول هو الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدّين، وفيها «تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله -صلّى الله عليه وسلّم- وهذه الأمّة؛ لأنّ الله تعالى حوّل النّبوّة من بني إسرائيل إلى النّبيّ العربيّ القرشيّ المكيّ الأميّ خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثّقلين الإنس والجنّ؛ الّذي جمع فيه محاسن من كان قبله، وخصّه بخصائص لم يعطها نبيّا من الأنبياء، ولا رسولا من الرّسل في العلم بشريعته، ونشر أمّته في الآفاق، ولإظهار دينه.»[1] لهذا وجب أن تقرأ بتنغيم فيه تعظيم لما فيها من نداء من العبد لربّه؛ فيُظْهِرُ العبد في ندائه تقريرا لقدرة الله -عزّ وجلّ- في إيتاء من يشاء الخير والملك، وقدرته في تسيير شؤون الكون.

ويرى علماء النّحو أنّه في إعراب لفظة «ٱللَّهُمَّ»؛ نقول: لفظ الجلالة، منادى مفرد للتّعظيم، وفي « مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ»؛ نقول: منادى ثان بأداة نداء محذوفة إجلالا وتعظيما[2]، لهذا يستوجب في قراءة مثل هذه الآيات بتنغيم فيه تعظيم لله تعالى تذرّعا وخشوعا؛ لأنّ العبد دائما في حاجة ماسّة لله سبحانه فيما يرغب في أن يحقّقه له.

الدّعوة إلى الثّقة بالله، والاعتماد عليه، والتّوكّل عليه بعد الأخذ بالأسباب، قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾ آل عمران: ١٩١ - ١٩٤، ومعنى الآيات الكريمات أنّ الله تعالى «ما خلق الخلْق عبثا ضائعا من غير حكمة؛ بل خلقه لحكم عظيمة وجملتها فائدة للإنسان، وأنّه سبحانه المنزّه عن العبث؛ نستعيذ به من عذاب النّار؛ لأنّ من دخلها فهو في غاية الإخزاء، وما يدخلها إلاّ الظّالمون، واستجابة المؤمنين لنداء الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- وقيل لنداء القرآن، والنّداء والدّعاء جاء في الآية متعدّيا بـ (اللاّم)، وقد

[1]- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج 02، ص: 29.

[2]- ينظر: بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز، الشّيخليّ، ج 02، ص: 38.

يعدى بـ (إلى) لتضمّنها الانتهاء والاختصاص، وفي تنكير المنادي وإطلاقه ثمّ تقييده؛ تعظيم لشأن الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم-، وامتثال المخاطبين لنداء الإيمان؛ يرجون من الله غفران الذّنوب ومحو السّيّئات، وإنهاء النّداء بإظهار حبّهم للقاء الله تعالى؛ الّذي لا يخلف وعده مع رسله.»[1] في هذا النّداء تكرّرت لفظة «رَبَّنَا» وهي: منادى بأداة محذوفة، والتّقدير: يا ربّنا، أمّا قوله: «فَقِنَا»؛ فإنّه يحتوي على لفظة «قِ»: وهي فعل دعاء وتضرّع بصيغة طلب[2]؛ لهذا فإنّ النّداءات المتكرّرة في الآيات الكريمات تقرأ بتنغيم موائم للمعاني المتعدّدة؛ لأنّ الملاحظ هو أنّ الأنماط التّنغيميّة للنّداء فيها متنوّعة؛ تبدأ بالتّعظيم لله تعالى، ويتخلّلها الخوف من عذابه، والشّوق للقائه، وتنتهي بالرّجاء في الحصول على وعوده.

نداء المسلم بحسن الخاتمة، وجعله من الّذين أنعم الله تعالى عليهم. قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ يوسف: ١٠١، إنّه نداء يوسف -عليه السّلام- لربّه يشكره على ما آتاه من نعم، «ويتوجّه إلى مناجاته بالاعتراف بأعظم نعم الدّنيا، والنّعمة العظمى في الآخرة، نعمة الولاية، ونعمة العلن، والثّالثة أخرويّة، وهي نعمة الدّين الحقّ المعبّر عنه بالإسلام.»[3] ونداؤه لله بقوله: «فَاطِرَ» المحذوف الأداة، والفاطر: هو «الخالق، ويجوز أن يكون منادى ثانيا؛ أيّ: يا فاطر بحذف أداة النّداء (يا) أيضا.»[4] مثل هذا النّداء الممزوج بنغمة الشّكر لله تعالى؛ يتوجّب قراءته بصوت فيه وضوح ليدلّ على رضا النّفس بعطاء الله تعالى.

المناجاة؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ٥﴾ مريم: ٤ - ٥، وتتمثّل في مناجاة زكريا -عليه السّلام- ربّه؛ مبيّنا ضعفه، ورجاء عطف الله عليه، وتعجيل البشرى لأنّ سنّه المتقدّم، وجسده الضّعيف لا يحتملان الانتظار، «ووصف حاله ممّا تشتدّ معه الحاجة إلى الولد حالا ومثالا؛ فكان

---

(1)- أنوار التّنزيل، البيضاويّ، ج 02، ص: 54 – 55 (بتصرّف.)

(2)- ينظر: بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز، الشّيخليّ، ج 02، ص: 257 وما بعدها.

(3)- تفسير التّحرير والتّنوير، ابن عاشور، ج 13، ص: 59.

(4)- بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز، الشّيخليّ، ج 05، ص: 137.

وَهْنُ العظم، وعموم الشّيب حالا مقتضيا للاستغاثة بالولد؛ مع ما يقتضيه من اقتراب إبان الموت عادة؛ فذلك مقصود لنفسه ووسيلة لغيره، وهو الميراث بعد الموت، ومستعملا مجازا في لازم الإخبار، وهو الاسترحام لحاله؛ لأنّ المخبَرَ عالم بما تضمّنه الخبران.»[1] فنداؤه يتضمّن إقرارا بالضّعف والعجز؛ إنّها مناجاة زكريا –عليه السّلام– مناديا الله تعالى داعيا الإشفاق على حاله، ولكنّه أيضا نداء يفترض على كلّ مسلم؛ كان في ضيق أو في حرج أو به حاجة؛ أن ينادي به خالق الكون ليحقّق رغبته، ويكون هذا النّداء مكسوّا بتنغيم مليء بالتّضرّع والخشوع، وأن يكون نداءً بصوت منخفض؛ كما فعل نبيّ الله زكريا: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا٣﴾ مريم: ٣، ولعلّ مرجع ذلك إلى أن تكون المناجاة بينه وبين ربّه فقط، أو يرجع إلى استحيائه من طلب الذّريّة، وهو في عمر متأخّر[2].

قد تكون ظاهرة تنغيم أسلوب النّداء أبلغ من ذكر الأداة، من ذلك قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ٢٩﴾ يوسف: ٢٩؛ فالمحذوف حرف النّداء، وتقدير الكلام: «يا يوسف»، واستبدل حرف النّداء (يا) بالتّنغيم؛ قصد التّفخيم والتّعظيم والمبالغة[3]، وقد علمنا أنّ الحذف غرضه التّخفيف لكثرة وروده في الكلام، ولا يقتصر حذف أداة النّداء عندما ينادي النّاس بعضهم البعض؛ بل يشمل حذف الأداة –أيضا– نداء العبد لربّه؛ من ذلك نداء يوسف –عليه السّلام– في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ٣٣﴾ يوسف: ٣٣؛ مؤثِرا دخول السّجن للنّجاة من كيد النّساء، فقد فضّل «السّجن مع ما فيه من الألم والشّدّة وضيق النّفس؛ على ما يدعونه إليه من الاستمتاع بالمرأة الحسنة النّفيسة على ما فيه من اللّذّة، ولكن كُرْهَهُ لفعل الحرام فضّل عنده مقاساة السّجن.»[4] وبنفس راضية مطمئنة لحكم الله تعالى؛ ينادي ربّه من غير تذمّر ممّا قد يقاسيه في السّجن؛ مادام ذلك فيه مرضاة لله –عزّ وجلّ–، وابتعاد عن الحرام، قال الآلوسيّ: «إنّ صيغة التّفضيل ليست على بابها؛ إذ ليس له –عليه السّلام– شائبة محبّة لما يدعونه إليه، وإنّما هو والسّجن شرّان أهونهما وأقربهما إلى

[1]– المرجع نفسه، ج 16، ص: 63.
[2]– ينظر: تفسير البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسيّ، ج 07، ص: 239.
[3]– ينظر: مقدّمة في اللّسانيّات، عاطف فضل، ص: 188.
[4]– تفسير التّحرير والتّنوير، ج 12، ص: 265.

الإيثار: السّجن.»[1] وقد يتخيّل الواحد منّا كيف كان نداؤه -عليه السّلام- بنغمة تنمّ عن الهدوء والاطمئنان بنفس فيها عزّة؛ حتّى يصدّ كيد النّسوة، ويحجب عنهنّ الأمل في إطاعتهنّ.

ويستغاث بـ (يا)، و بـ (وا) في النّدبة؛ فلا يندب بغيرهما، «ولا بدّ في المندوب من أن تلحق قبله (يا) أو (وا).»[2] وقد يحصل أن تحذف (يا) النّداء كما يحذف المنادى بعدها؛ لكن لا يجوز حذفها من المنادى المندوب، والمستغاث، والمتعجّب منه، والمنادى البعيد[3]؛ لأنّ المقصود بها في هذه الحالات إطالة الصّوت وهذا ينافي الحذف، يقول الزّمخشريّ مفصّلا سبب عدم حذف أداة النّداء في المندوب: «اعلم أنّ المندوب مدعوّ، لذلك ذكر مع فصول النّداء... ولمّا كان مدعوّا بحيث لا يسمع أتوا في أوّله بـ (يا) أو (وا) لمدّ الصّوت، ولمّا كان يسلك في النّدبة والنّوح مذهب التّطريب؛ زادوا الألف آخرا للترّنّم، والمدّ في الألف أمكن من الواو والياء.»[4] وهو ما ذكره ابن مالك — أيضا – أنّ حذف أدوات النّداء؛ يمتنع في المندوب والمستغاث والمنادى البعيد؛ لأنّ المراد فيهنّ إطالة الصّوت، والحذف ينافيه[5]، وذلك لما لها من دور موسيقيّ وتلوين في الكلام تقوم به، يقول ابن يعيش في أداة النّدبة: «وأمّا (وا) فمختصّ به النّدبة؛ لأنّ النّدبة تفجّع وحزن، والمراد رفع الصّوت ومدّه لإسماع الحاضرين.»[6] ما نلاحظه على أسلوب النّداء أنّ فيه من التّلوين الكلاميّ والالتفات البليغ، والقدرة على تخيّل المعنى؛ خاصّة في القرآن الكريم عندما يؤدّى أداء صحيحا؛ فيدفع إلى انتباه السّامعين إلى المنادى، وتركيز الاهتمام حوله.

---

(1)- روح المعاني، ج 12، ص: 581.

(2)- شرح المفصّل للزّمخشريّ، ابن يعيش النّحويّ، ج 01، ص: 358.

(3)- ينظر: جامع الدّروس العربيّة، مصطفى الغلايينيّ، ج 03، ص: 148.

(4)- شرح المفصّل للزّمخشريّ، ابن يعيش النّحويّ، ج 01، ص: 358.

(5)- ينظر: أوضح المسالك، ابن مالك، ج 03، ص: 11.

(6)- شرح المفصّل للزّمخشريّ، ابن يعيش النّحويّ، ج 02، ص: 13.

ج – دلالة تنغيم أسلوب الأمر في الخطاب القرآنيّ[1]:

قد تتغيّر دلالة أسلوب الأمر من أمر على وجه الاستعلاء والطّلب إلى الالتماس أو الدّعاء أو الرّجاء، وذلك بحسب السّياق والمقام، وتتجلّى هذه الظّاهرة في القرآن الكريم؛ ممّا يستوجب أداء الآية الكريمة الحاملة لدلالة ما غير الأمر؛ أيّ: أن تؤدّى بنمط تنغيميّ يفيد تلك الدّلالة؛ حتّى لا يلتبس الأمر على السّامع لتلاوة القرآن الكريم. من ذلك قوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾ البقرة: ٢٠١، والمعنى: من النّاس فريق مؤمن يقول في دعائه: ربّنا آتنا في الدّنيا عافية ورزقًا، وعلمًا نافعًا، وعملا صالحًا، وغير ذلك من أمور الدّين والدّنيا، وفي الآخرة الجنّة، واصرف عنّا عذاب النّار، وهذا الدّعاء من أجمع الأدعية[2].

وعلى رغم ما تحمل الآية من أفعال للأمر؛ فهي ليست على وجه الاستعلاء؛ لأنّها أتت على لسان من هم أدنى إلى من هو أعلى تتمثّل في «الرّغبة إلى ربّ العالمين أن يأتيهم بإحسانه حالة وعيشة، وهي الكفاف من المطعم والمشرب والملبس والمأوى والزّوجة، ومن رحمته يدخلهم الجنّة، ولما كان الرّجاء لا يصلح إلاّ بالخوف، وإعطاء الحسنة لا ينفي المسّ بالسّيئة؛ طلبوا الوقاية من عذاب النّار بعفو الله ومغفرته... ولما كان هؤلاء على منهاج الرّسل؛ انكسرت نفوسهم، وذكروا الله تعالى على تلك المراتب الثّلاث؛ فاستنارت قلوبهم بنور جلاله؛ فتأهّلوا بذلك الدّعاء؛ فكان دعاؤهم كاملا.»[3] بهذا التّفسير يتبيّن لنا أنّ المعنى الّذي اتّسم به الخطاب القرآنيّ في الآية هو الدّعاء؛ الّذي يؤدّى بنمط تنغيميّ فيه تضرّع وخشوع وتذلّل لله جلّت قدرته، وأداؤه يكون منخفضا لأنّه خطاب الأدنى لمن هو أعلى.

---

[1]– الأمر لغة: هو نقيض النّهي، وأمره إياه يأمره أمرا فائتمر؛ أيّ قبل الأمر. والأمر اصطلاحا: هو اللّفظ الدّال على طلب الفعل على وجه اللّزوم والاستعلاء، ويقسّمه العلماء إلى نوعين: أمر صريح نحو قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ البقرة: ٤٣. وقوله أيضا: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ١٠٣﴾ التوبة: ١٠٣، وأمر غير صريح. – ينظر: لسان العرب، ابن منظور: ج 05، مادّة: أمر. والكافي في علوم اللّغة العربيّة: المعاني –البيان– البديع، د. عيسى عليّ العاكوب، أ. عليّ سعد الشّتيويّ، دار الكتب الوطنيّة، بنغازيّ، ط1، 1993م، الكتاب الأوّل، ص:252.

[2]– ينظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، المجلّد: 01، ص: 212.

[3]– نظم الدّرر، البقاعيّ، ج 03، ص: 158 – 159.

لا يقتصر خروج أسلوب الأمر في القرآن الكريم إلى الدّعاء فقط، وإنّما يخرج إلى معاني مختلفة تتوضّح من خلال سياق الآيات الكريمات؛ من ذلك خروج الأمر إلى معنى التّهديد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠﴾ فصلت: ٤٠، إنّ قوله تعالى: «ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ» معناه: اعملوا -أيّها الملحدون- ما شئتم؛ فإنّ الله تعالى بأعمالكم بصير؛ لا يخفى عليه شيء منها، وسيجازيكم على ذلك. قال أبو حيّان الأندلسيّ: «إنّ قوله: «ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ» وعيد وتهديد بصيغة الأمر.»[1] ولهذا تقرأ الآية بتنغيم صاعد؛ للدّلالة على معنى التّهديد الّذي يتوعّد به الله تعالى هؤلاء الّذين زاغوا عن دين الحقّ. والتّنغيم الصّاعد لا بدّ من إظهاره بقوّة لتبيان سخط الله وغضبه على الملحدين؛ فهو يمهلهم لكنّ لا يهملهم؛ ويومهم عصيب. «ولما كان هذا رادّا ولا بدّ للعاقل عن سوء أعماله إلى الإحسان رجاء إنعام الله وإفضاله؛ أنتج قوله مهدّدا ومخوّفا ومتوعّدا صارفا القول عن الغيبة إلى الخطاب؛ لأنّه أدلّ على الغضب على المتمادى بعد هذا البيان.»[2] وبهذا لا تبقى الآية في حدود أسلوب الأمر من الله على أن يعملوا ما يشاؤون، وإنّما تخرج إلى دلالة التّهديد الصّارم لهذا تقرأ بنمط تنغيميّ صاعد.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٤٨﴾ الإسراء: ٤٨، والمقصود هنا: تفكّر -أيّها الرّسول- متعجّبًا من قولهم: إنّ محمّدًا ساحر شاعر مجنون!! فجاروا وانحرفوا، ولم يهتدوا إلى طريق الحقّ والصّواب[3]. فعلى الرّغم من أنّ الله تعالى يأمر نبيّه الكريم بالنّظر؛ أيّ: التّفكّر فيما بدر منهم من ضلال؛ فإنّ الله يبيّن أنّهم «لا يستطيعون سبيلا إلى طعن يمكن أن يقبله أحد؛ بل يخبطون بما لا يرتاب في بطلانه أحد؛ كالمتحيّر في أمره لا يدري ماذا يصنع.»[4] لهذا تقرأ الآية بنمط تنغيميّ صاعد لتوضيح دلالة أسلوب الأمر؛ المتمثّل في التّعجّب فيما بدر منهم من أوصاف؛ لا تليق بنبيّ الله تعالى.

---

[1]- تفسير البحر المحيط، ج 07، ص: 478.

[2]- نظم الدّرر، البقاعيّ، ج 17، ص: 200.

[3]- ينظر: مفاتيح الغيب، الرّازيّ، ج 20، ص: 225.

[4]- التّفسير المأمون، مأمون حمّوش، ج 04، ص: 501.

لنلاحظ في آية أخرى كيف أنّه من الضّروريّ أداؤها بتنغيم منخفض؛ مع أنّها أسلوب أمر يحتاج إلى أدائه بتنغيم صاعد؛ ذلك لأنّ الخطاب القرآنيّ للآية فيه دعوة إلى خفض الصّوت؛ قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ الأعراف: ٢٠٥، يأمر الله تعالى الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم–، –– والخطاب موجّه أيضا لكلّ مسلم –؛ أن يذكره في نفسه؛ تخشّعًا وتواضعًا لله خائفًا وجل القلب منه، وأن يدعوه متوسّطًا بين الجهر والمخافتة في أوّل النّهار وآخره، وأن لا يكون من الّذين يَغْفُلون عن ذكر الله سبحانه، ويلهون عنه في سائر أوقاتهم[1].

إنّ الآية مع أنّها بدأت بفعل أمر صريح؛ إلاّ أنّها تتطلّب نمطا تنغيميّا هابطا؛ لما تحمله من أمر إلى وجوب ذكر الله تعالى بصوت منخفض غير مرتفع، وفي كلّ وقت دون إغفال عن الذّكر، «وليكن سرّا لأنّ ذلك أقرب إلى الإخلاص، وأعون على التّفكّر، وكونه سرّا دالّ على أشرف الأحوال، وهو المراقبة مع تحقّق القرب في تضرّع، وتدعو مخافة فيها تذلّل قلبك؛ لتجمع بين تضرّع السّرّ والعلن، وبهذا يكمل ذلّ العبوديّة لعزّ الرّبوبيّة، وقال مقابلا له: «وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ»؛ أيّ أنّ ذلك يشعر بالتّذلّل والخضوع من غير صياح.»[2] ما نستخلصه هو أنّ التّغيّرات الصّوتيّة المصاحبة للأساليب المختلفة؛ هي الّتي تجسّد الدّلالات، وتنقلها من معنى إلى معنى آخر؛ يتناسب مع الخطاب الّذي وردت فيه؛ ممّا يؤدّي إلى ارتفاع في الصّوت أو انخفاضه أو استوائه.

د – دلالة تنغيم أسلوب النّهي في الخطاب القرآنيّ[3]:

تعني صيغة النّهي أصلا طلب الإقلاع عن الفعل طلبا جازما ملزما، وتدلّ على الدّوام والاستمرار[4]، ولكن قد يخرج أسلوب النّهي عن دلالته الحقيقيّة إلى دلالات أخرى يحدّدها السّياق، وتدلّ عليها قرائن الأحوال؛ لهذا فلا يؤدّى بنمط تنغيميّ واحد فقط، وهو العلوّ والارتفاع، وإنّما قد يؤدّى بغير ذلك؛ من ذلك –مثلا– قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ

---

[1]– ينظر: جامع البيان، الطّبريّ، ج 04، ص: 547.

[2]– نظم الدّرر، البقاعيّ، ج 08، ص: 210.

[3]– النّهي: هو طلب الكفّ عن الفعل استعلاء، وصيغته واحدة؛ هي الفعل المضارع المقرون بـ «لا» النّاهية كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ ١٢﴾ الحجرات: ١٢. – الكافي في علوم اللّغة العربيّة، عيسى عليّ العاكوب، وعليّ سعد الشّتيوريّ، ص: 258.

[4]– ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴿٢٨٦﴾﴾ البقرة: ٢٨٦، ومعنى الآية: إنّ دين الله يسر لا مشقّة فيه؛ فلا يطلب الله مِن عباده ما لا يطيقونه؛ فمن فعل خيرًا نال خيرًا، ومن فعل شرّاً نال شرّاً: ربّنا لا تعاقبنا إن نسينا شيئًا ممّا افترضته علينا، أو أخطأنا في فِعْل شيء نهيتنا عن فعله، ربَّنا ولا تكلّفنا من الأعمال الشّاقة ما كلّفته مَن قبلنا من العصاة عقوبة لهم، ربّنا ولا تُحَمِّلْنَا ما لا نستطيعه من التّكاليف والمصائب، وامح ذنوبنا، واستر عيوبنا، وأحسن إلينا، أنت مالك أمرنا ومدبّره؛ فانصرنا على مَن جحدوا دينك وأنكروا وحدانيّتك، وكذَّبوا نبيّك محمّدًا –صلّى الله عليه وسلم–، واجعل العاقبة لنا عليهم في الدّنيا والآخرة[1].

إنّه لا يجوز اعتبار النّواهي الّتي تحتويها الآية الكريمة طلب الكفّ، وذلك أنّ الكلام صادر من ذات سفلى وهم المؤمنون الأبرار إلى ذات عليا وهو ربّ العزّة جلّت وعلت قدرته؛ لهذا لا تؤدّى الآية بقراءة تنغيميّة عالية، وإنّما يكون أداؤها بنمط تنغيميّ منخفض للدّلالة على الدّعاء الّذي ينمّ عن خضوع العبد لربّه خضوعا فيه طاعة لأوامره، وخوفا من عقابه، ورغبة في نيل مغفرته، «إذ الدّاعي يشاهد نفسه في مقام الحاجة والذّلّة والافتقار، ويشاهد ربّه بعين الاستغناء والإفضال؛ فلذلك ختمت هذه السّورة (أيّ البقرة) بالدّعاء والتّضرّع، وافتتحت كلّ جملة منها بقولهم: «رَبَّنَا» إيذانا منهم بأن يرغبوا من ربّهم الّذي هو مربيهم ومصلح أحوالهم، ولأنّهم مربوبون داخلون تحت رقّ العبوديّة والافتقار.»[2] وبذلك يخرج النّهي عن مدلوله الرّئيسيّ إلى صيغة الدّعاء الّذي يتطلّب قراءة بتنغيم هادئ منخفض.

لنلاحظ –أيضا– كيف تكون قراءة النّهي بتنغيم عال جدّا للدّلالة على الغرض الّذي تحمله الآية الكريمة، وذلك في قول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

[1]– ينظر: التّفسير المأمون، مأمون حمّوش، ج 01، ص: 685 – 686.

[2]– تفسير البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسيّ، ج 02، ص: 382.

﴿حَلِيمٌ﴾ المائدة: ١٠١، يتوجّه الله تعالى بالخطاب إلى الّذين آمنوا أنّ هناك من الأسئلة؛ قد سألها قومٌ مِن قبلهم رسلَهم؛ فلمّا أُمِروا بها؛ جحدوها ولم ينفّذوها، فاحذروا أن تكونوا مثلهم[1].

في الآية - إذن- نهيّ عن السّؤال الّذي قد يؤدّي إلى عدم الاستجابة؛ كما فعل أقوام سابقون «لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ»، وعلى الرّغم من أنّ أسلوب النّهيّ في هذه الآية يبدو الغرض منه الإرشاد إلى ما فيه خير لهم وتوجيه النّصيحة، وهو ما بيّنه رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- في قوله: «**إنّ الله تعالى فرض فرائض فلا تضيّعوها، وحرّم حرمات فلا تنتهكوها، وحدّ حدودا فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها؛ رحمة من ربّكم فاقبلوها.**»[2] إلاّ أنّه -أيّ النّهيّ في الآية- يحمل زجرا عنيفا قصد الانتهاء القطعيّ؛ عمّا يمكن أن تتبادر إلى أذهانهم من أسئلة؛ لأنّ «الإنسان قاصر عن علم ما غاب؛ فكان زجره عن الكشف عمّا يسوءه زجرا له عن كلّ ما يتوقّع أن يسوءه...، وأنّ هذا الزّجر إنّما هو لقصد راحة المسؤول عن السّؤال خوفا من عواقبه.»[3] وبهذا التّوضيح لمفهوم الآية فإنّه يتوجّب قراءة نهيّها بنمط تنغيميّ عال جدّا، وليس منخفض للدّلالة على الزّجر.

كما أنّ مقام الخطاب القرآنيّ يقتضي قراءة أسلوب النّهي بنمط تنغيميّ معيّن مثلما هو الحال في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ التّوبة: ٤٠، يتوجّه الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- إلى صاحبه أبي بكر الصّدّيق -رضي الله عنه- طالبا منه ألاّ يحزن فيما هما فيه من شدّة؛ ذلك أنّ الله تعالى معهما؛ ناصرهما ومنجّيهما من كيد الكافرين. وعن أبي عساكر عن أبي بكر قال: «ما داخلني إشفاق من شيء، ولا دخلني في الدّين وحشة إلى أحد بعد ليلة الغار؛ فإنّ رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- حين رأى إشفاقي عليه وعلى الدّين، قال لي: هوّن عليك؛ فإنّ الله قضى لهذا الأمر بالنّصر والتّمام.»[4] وإنّه من غير المنطقيّ أن يقرأ النّهيّ المتمثّل في قوله: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا» بصوت عال، وتنغيم مرتفع؛ بل لا بدّ من تخفيض الصّوت،

---

(1)- ينظر: تفسير جامع البيان، الطّبريّ، المجلّد: 03، ص: 184.

(2)- رواه أبو الدّرداء. - نظم الدّرر، البقاعيّ، ج 06، ص: 316.

(3)- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(4)- الدّر المنثور في التّفسير بالمأثور، السّيوطيّ، ج 07، ص: 371.

وقراءتها بنمط تنغيميّ دون المستوي؛ حتّى أنّ مقام النّهيّ وسياقه يتطلّب هذا الخفض؛ «فإنّه -عليه الصّلاة والسّلام- قال لصاحبه لا تحزن؛ ثمّ ذكر بفاء التّعقيب نزول السّكينة، وهو قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ التّوبة: ٤٠؛ علمنا أنّ نزول هذه السّكينة مسبوق بحصول السّكينة في قلب الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام-، ومتى كان الأمر كذلك؛ وجب أن تكون هذه السّكينة نازلة على قلب أبي بكر.»[1] والآية بذلك تحمل تصبيرا من الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- لصاحبه الوجل الخائف؛ ممّا قد يحدث لهما، ولأمر الدّين من الكافرين الرّاكضين وراءهما؛ طالبين دماءهما، ولكنّ الله تعالى حافظهما؛ وحافظ لدينه إلى يوم هو محدّده.

وقد تتعدّد أنماط التّنغيم للخطاب القرآنيّ في الآية الواحدة، وذلك حسب دلالة كلّ خطاب فيها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الحجر: ٨٨، تحمل الآية نهيّا عن النّظر إلى متاع الدّنيا وزينتها، وهذا المتاع الذّي يعيشه الكفّار ما هو إلاّ فتنة؛ فلا يجب على نبيّ الله تعالى أن تغبط نفسه إلى ما هم فيه، ولا أن تذهب نفسه حسرة وحزنا عليهم وعلى تكذيبهم للدّين، ومخالفتهم لأمر الله[2].

الغرض من النّهيّ في الآية الكريمة هو التّحقير؛ لهذا تقرأ بتنغيم عالٍ لبيان أنّه لا يجدر بالمؤمن أن ينظر إلى ما هو دنيويّ حقير بصيغة فيها تأكيد على النّهيّ، وإصرار على عدم الفعل؛ «ففي هذا النّهيّ كناية عن قلّة الاكتراث بهم وعن توعّدهم...، وكناية عن رحمة الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- بالنّاس، ولما كان هذا النّهيّ يتضمّن شدّة قلب وغلظة لا جرم اعترضه بالأمر بالرّفق للمؤمنين بقوله: «وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ»، وهو اعتراض مراد به الاحتراس.»[3] لذا نجد الآية تبدأ بتنغيم عال حتّى تصغر الدّنيا في أعين المؤمنين؛ كما طلب من الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- أن ينظر إليها نظرة تصغير، ولكن ينخفض الصّوت لأداء صيغة الأمر في الآية في قوله: «وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ» بنمط تنغيميّ منخفض؛ عندما تعلّق الأمر بخفض الجناح للمؤمنين.

وهكذا نرى أنّ التّنغيم في نطق الجملة ينقلها من أسلوب بلاغيّ إلى أسلوب آخر، ويظهر ذلك في الصّوت أثناء النّطق للتّعبير عن معاني مختلفة في نفس الإنسان، والجملة قد تعتمد على

(1)- مفاتيح الغيب، الرّازيّ، ج 16، ص: 68.

(2)- ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج 04، ص: 546.

(3)- تفسير التّحرير والتّنوير، ابن عاشور، ج 14، ص: 82 – 83.

التّنغيم المصاحب لنطقها لبيان معناها دون أن يكون في تركيبها ما يدلّ على هذا المعنى، كما أنّه يساعد على تجزيء الجملة الواحدة إلى عدّة أجزاء، ويختلف هذا التّجزيء بِاختلاف ما يراه الدّارسون من معنى تحمله، وهذا يُظْهِرُ لنا حقيقة؛ مفادها أنّ للتّنغيم دورا مهمّا في تحديد معنى الجملة العربيّة.

خـــاتمـــة

خــاتمــة:

تتمّ دراسة الأصوات اللّغويّة دراسة ماديّة من جميع جوانبها المختلفة بِاعتبارها مادّة الكلام؛ ثمّ تنحو الدّراسة إلى التّجريد، ومن الدّراسة الماديّة تُسْتَخْلَصُ القواعد الّتي تجعل الأصوات ذات معنى تؤدّي وظيفة أساسيّة في الكلام بالنّسبة للّغة معيّنة، ويحمل الجانب الوظيفيّ ظواهر تساعد على تفسير اللّغة وفهمها، منها الظّواهر فوق مقطعيّة الّتي لها فائدة في التّحليل اللّغويّ؛ فهي عامل جدّ مهمّ في توجيه الإعراب من جهة، وفي تنميط الجمل من جهة ثانية، وفي كشف دلالتها دون لبس أو غموض من جهة ثالثة، وفي تجزيء العبارة الواحدة إلى عدّة جمل من جهة رابعة؛ إنّها جوانب اِجتهدت أن أبيّنها في هذا البحث، وهو **– دلالة الظّواهر فوق مقطعيّة في توجيه الخطاب القرآنيّ –** وقد توصّلت في نهايته إلى النّتائج التّالية:

- من الضّروريّ الِاهتمام بالظّواهر اللّغويّة كالمقطع والنّبر والتّنغيم، وذلك بقصد معرفة خواصّها والوقوف على وظائفها اللّغويّة، ومدى إسهامها في توجيه الدّلالة، وما يطرأ عليها من تغييرات وتحويلات تستوجبها قواعد السّياق اللّغويّ.
- ربط تلقّي القرآن الكريم وتعليمه للأجيال بالمهارات اللّغويّة الأربعة: السّمع – التّحدّث – القراءة – الكتابة حتّى يكون تلقينه وتلقّيه جيّدا ومفيدا.
- يستوجب التّمكّن من النّطق السّليم للّغة العربيّة والقرآن الكريم عند النّاطقين باللّغة العربيّة، وغير النّاطقين بها؛ البدء بالرّسم الإملائيّ والكتابة المقطعيّة؛ ثمّ التّدرّج معهم في معرفة الكتابة العثمانيّة وقواعدها، ثمّ القراءات القرآنيّة وأصولها، وأحكام التّجويد، ويدخل في هذا الإطار كلّ من المتعلّمين المبتدئين، والمسجّلين في إطار محو الأمّيّة، والرّاغبين في إتقان قواعد القراءة القرآنيّة، والدّاخلين من الأجانب في الإسلام.
- يُعدّ التّداخل بين الظّواهر فوق مقطعيّة خاصّة من الجانب الوظيفيّ إحدى مشكلات دراستها في اللّغة العربيّة، والّذي يعين على بيان مفهومها؛ هو وضع حدود واضحة بين مختلف هذه الأنواع، ويمكن ذلك بوضع حدود في المستوى والدّلالة بين أنواع النّبر والتّنغيم والنّغم والنّغمة.
- صعوبة تحديد النّبر ومواضعه، ووضع قواعده لتحقيق النّطق العربيّ، وأثره في اللّغة العربيّة الفصيحة، وعلى متكلّميها أن يكونوا شديدي الحرص على بيان مقاصدهم الكلاميّة وأغراضهم النّطقيّة، وما يساعد على تحقيق ذلك وضع رمز للنّبر يمكّن من تمييزه.

- يجب أن تكون قراءتنا للقرآن الكريم بمعرفة متى نرْفَع الصّوت، ومتى نُخْفضه أثناء التّلاوة، ومتى يحتاج الصّوت إلى نبر، ومتى لا يحتاج، وكيف تكون قراءة القرآن ذات إيقاع مناسب، ومتى يجب الوقف أو عدمه، والقصد من هذه المعرفة الوقوف على دلالات الآيات الكريمات.
- نأمل أن تحمل الدّراسات المستقبليّة في القرآن الكريم الجمع بين مختلف الظواهر (المقطع والنّبر والتّنغيم والوقف والإيقاع) وتأثيرها على دلالته.
- يجب أن تتّحد الجهود العربيّة الإسلاميّة لوضع موسوعة شاملة لكلّ ما يعنى بالمحافظة على النّطق الصّحيح للعربيّة وكتابها المنزّل؛ تساعد كلّ من يرغب في تعلّم قواعد الأداء السّليم؛ خاصّة مع ما يمكن أن تقدّمه التّكنولوجيا الحديثة من تسهيلات لتطبيق هذه الفكرة، ونشرها عبر الأقطار العربيّة وغير العربيّة.
- يتوقّف فهم المعنى في حالات كثيرة على الطّريقة الصّوتيّة الأدائيّة، ومن هنا تبرز أهميّة دراسة اللّغة المنطوقة، للتّعبير عن معاني مختلفة في نفس الإنسان؛ غير أنّ الملاحظ هو الإهتمام البالغ باللّغة المكتوبة، وما تحتويه من علامات التّرقيم في جميع أطوار التّعليم أكثر من الاهتمام بالظّواهر فوق مقطعيّة؛ لذا نأمل أن تولي البرامج التّعليميّة مستقبلا اِهتماما باللّغة المنطوقة، وما تصطحبها من ظواهر لغويّة؛ حتّى يتمكّن المتعلّمون من لغتهم، وذلك كلّه من أجل فهم كتاب الله تعالى، ومعرفة أوجه الإعجاز القرآنيّ فيه، والملاحظ أيضا في كلّ مراحل التّعليم سواء في المراحل الأولى للتّربيّة، أو مرحلة التّعليم العالي هناك اِهتمام كبير في أداء اللّغات الأجنبيّة أداء سليما؛ أيّ الاهتمام باللّغة الأجنبيّة منطوقة كالفرنسيّة والانجليزيّة والإسبانيّة؛ لكن ينعدم هذا الاهتمام باللّغة العربيّة ونطقها السّليم؛ مع أنّها تمثّل إحدى مقوّمات الهويّة العربيّة والإسلاميّة، والخطوة الأساسيّة للوقوف على القراءة السّليمة للقرآن الكريم.

قائمة المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم برواية ورش عن نافع، تشرّفت بطباعته والعناية به: مؤسّسة الرّسالة ناشرون، بيروت، لبنان، ط5، 1432هـ – 2011م.

❖ مصحف المدينة النّبويّة للنّشر الحاسوبيّ، برواية ورش، مجمع الملك فهد للطّباعة والنّشر، الإصدار: 1 – 2.

❖ قائمة المصادر والمراجع

– باللّغة العربيّة:

1- أبحاث تجويديّة، د. أيمن رشديّ سويد، دار الغوثانيّ للدّراسات القرآنيّة، دمشق، د ط، 1427هـ – 2006م.

2- الأداء النّفسيّ واللّغة العربيّة، عبد الرّءوف أبو السّعود، دار النّمر للطّباعة، القاهرة، د ط، 1985م.

3- أدوات الوصف والتّفسير اللّسانيّة، عبد العزيز العماريّ، دار النّشر: المغرب، ط1، 2004م.

4- إحياء علوم الدّين، أبو حامد محمّد بن محمّد الغزاليّ، تخريج: زين الدّين أبو الفضل العراقيّ، دار ابن الحزم للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ – 2005م.

5- أحكام التّلاوة والتّجويد الميسّرة، د. عماد عليّ جمعة، دار النّفائس للنّشر والتّوزيع، الأردن، ط1، 1425هـ – 2004م.

6- الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاويّ، دار الشّهاب، الجزائر، د ط، 1987م.

7- الإيقاع في الشّعر العربيّ، محمود المسعديّ، مؤسّسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، د ط، 1986م.

8- أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل المعروف بتفسير البيضاويّ، ناصر الدّين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمّد الشّيرازيّ الشّافعيّ البيضاويّ، إعداد وتقديم: محمّد عبد الرّحمن المرعشليّ، دار إحياء التّراث العربيّ، مؤسّسة التّاريخ العربيّ للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط1، د ت.

9- أسباب حدوث الحرف، ابن سينا، تحقيق: طه عبد الرّزاق سعد، مكتبة الكلّيّات الأزهريّة، القاهرة، د ط، 1398هـ – 1978م.

10- الأسلوب والأداء في القراءات القرآنيّة دراسة صوتيّة تبانيّة، د. خير الدّين سيب، دار الكلم الطّيّب، ط1، دمشق، 1428هـ - 2007م.

11- أساليب تدريس اللّغة العربيّة بين المهارة والصّعوبة، د. فهد خليل زايد، دار اليازوريّ العلميّة للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، د ط، 2006م.
12- أساليب تدريس اللّغة العربيّة بين النّظرية والتّطبيق، د. راتب قاسم عاشور، ود. محمّد فؤاد الحوامدة، دار المسيرة للنّشر والتّوزيع والطّباعة، عمّان، ط2، 2007م.
13- أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزّمخشريّ، تحقيق: محمّد باسل عيون السّود، منشورات محمّد عليّ بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ - 1998م.
14- الأسس الجماليّة في النّقد العربيّ، د. عزّ الدّين إسماعيل، دار الفكر العربيّ، مصر، د ط، 1955م.
15- أسس علم اللّغة، ماريوباي، ترجمة: د. أحمد عمر مختار، عالم الكتب، القاهرة، ط8، 1998م.
16- الأصول النّيّرات في القراءات، أة. أماني بنت محمّد عاشور أمّ وليد، قدّم له: الشّيخ أحمد بن خليل شاهين، والشّيخ محمود عمر سكّر، والشّيخ السّالم محمّد محمود الجنكيّ الشّنقيطيّ، مدار الوطن للنّشر، الرّيّاض، ط 03، 1432هـ – 2011م.
17- الأصول في النّحو، أبو بكر محمّد بن سهل بن السّراج النّحويّ البغداديّ، تحقيق: الحسين الفتليّ، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط1، 1405هـ- 1985م.
18- إعجاز القرآن، عبد العزيز أمير، جامعة النّجاح الوطنيّة، نابلس، ط1، 2007م.
19- إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، مصطفى صادق الرّافعيّ، النّاشر: دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان، ط9، 1393هـ – 1973م.
20- الإعراب سمة العربيّة الفصحى، دراسة تتناول وظيفته، وتقويما لمنابع بيانه، وعلاقته بالأداء، د. محمّد إبراهيم البنا، دار الإصلاح للطّبع والنّشر والتّوزيع، مصر، د ط، د ت.
21- إعراب القرآن، أبو جعفر بن محمّد بن إسماعيل النّحّاس، تحقيق: د. زهير غازي زاهد، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1495هـ – 1985م.
22- إعراب القرآن وبيانه، أ. محيي الدّين الدّرويش، دار النّشر للشّؤون الجامعيّة، حمص، سوريا، اليمامة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، دار ابن كثير للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط3، 1412هـ – 1992م.

23- إعراب القرآن الكريم الميسّر، د. محمّد الطّيّب الإبراهيم، دار النّفائس للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط1، 1422هـ – 2001م.
24- إعراب القرآن المنسوب للزّجاج، تحقيق ودراسة: إبراهيم الأبياريّ، دار الكتاب المصريّ، القاهرة، دار الكتاب اللّبنانيّ، بيروت، ط4، 1420هـ- 1990م.
25- إعراب القراءات السّبع وعللها، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه الهمذانيّ النّحويّ الشّافعيّ، حقّقه وقدّم له: د. عبد الرّحمن بن سليمان العثيمين، النّاشر مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط1، 1413هـ – 1992م.
26- الإفصاح في فقه اللّغة، حسن يوسف موسى، وعبد الفتّاح الصّعيديّ، دار الفكر العربيّ، مصر، ط2، د ت.
27- إعجاز رسم القرآن وإعجاز التّلاوة، محمّد شملول، تقديم: د. عليّ جمعة محمّد، دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة، القاهرة، ط1، 1427هـ – 2006م.
28- الأصوات اللّغويّة، د. إبراهيم أنيس، مطبعة نهضة مصر، مصر، د ط، د ت.
29- الأصوات اللّغويّة، د. عبد القادر عبد الجليل، دار الصّفاء للنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 1998م.
30- الأصوات اللّغويّة رؤية عضويّة ونطقيّة وفيزيائيّة، د. سمير شريف إستيتيّة، دار وائل للنّشر، عمّان، ط1، 2003م.
31- أصوات اللّغة، د. عبد الرّحمن أيّوب، مطبعة دار التّأليف، القاهرة، ط1، 1963م.
32- أصوات اللّغة العربيّة، عبد الغفّار هلال، مكتبة وهبة، القاهرة، ط3، 1996م.
33- الأصول: دراسة إبستمولوجيّة للفكر اللّغويّ عند العرب (النّحو- فقه اللّغة – البلاغة)، د. تمّام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، د ط، 1420هـ – 2000م.
34- أصوات القرآن: كيف نتعلّمها ونعلّمها، يوسف الخليفة أبو بكر، مكتبة الفكر الإسلاميّ، الخرطوم، ط1، 1392هـ – 1973م.
35- الأشباه والنّظائر في النّحو، جلال الدّين السّيوطيّ، تحقيق: أحمد مختار الشّريف، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة، دمشق، 1407هـ – 1987م.
36- أشهر المصطلحات في فنّ الأداء وعلم القراءات، أحمد محمود عبد السّميع الحفيد، منشورات محمّد عليّ بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1422هـ – 2001م.

37- الإتقان في نطق بعض ألفاظ القرآن، توفيق إبراهيم ضمرة، المكتبة الوطنيّة للطّبع والنّشر، المملكة الهاشميّة الأردنيّة، د ط، 2006م.
38- الإتقان في علوم القرآن، أبو الفضل جلال الدّين عبد الرّحمن أبو بكر السّيوطيّ، تحقيق: الشّيخ شعيب الأرنؤوط، تعليق: مصطفى شيخ مصطفى، مؤسّسة الرّسالة ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1469هـ – 2008م.
39- أثر القوانين الصّوتيّة في بناء الكلمة العربيّة، د. فوزيّ الشّايب، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 1425هـ - 2004م.
40- أضواء البيّان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشّيخ العلامة محمّد الأمين بن محمّد المختار الجكنيّ الشّنقيطيّ، إشراف: بكر بن عبد الله بوزيد، دار عالم الفوائد للنّشر والتّوزيع، مجمع الفقه الإسلاميّ، جدّة، د ط، د ت.
41- بدائع التّفسير: الجامع لتفسير الإمام ابن القيّم الجوزيّة، جمع وتوثيق وتخريج: السّيّد محمّد يسريّ، دار ابن الجوزيّ، الدّمام، ط1، 1414هـ – 1993م.
-42
43- البديع في علم التّجويد، أحمد إسماعيل البيليّ، منشورات جامعة السّودان المفتوحة، الخرطوم، د ط، 2004م.
44- البيان والتّبيين، أبو عثمان بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السّلام محمّد هارون، النّاشر مكتبة الخانجيّ للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط7، 1418هـ – 1998م.
45- البيّان في روائع القرآن، دراسة لغويّة وأسلوبيّة للنّصّ القرآنيّ، د. تمّام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1413هـ – 1993م.
46- البيان في روائع القرآن، د. تمّام حسّان، عالم الكتب للنّشر للطّباعة والتّوزيع، القاهرة، ط2، 1420هـ - 2000م.
47- البلاغة العربيّة في ضوء منهج متكامل، محمّد بركات حمديّ أبو عليّ، دار البشير، عمّان، ط1، 1412هـ – 1996م.
48- بلاغة القرآن بين الفنّ والتّاريخ، فتحيّ أحمد عامر، دار المعارف، الإسكندريّة، د ط، 1980م.

49- البنيّة الإيقاعيّة في شعر البحتريّ، عمر خليفة بن إدريس، منشورات جامعة قار يونس، بنغازيّ، ط1، 2003م.
50- بنيّة اللّغة الشعريّة، جان كوهين، ترجمة : محمّد الوالي، ومحمّد العمريّ، المغرب، ط1، 1986م.
51- البرهان في تجويد القرآن ويليه رسالة في فضائل القرآن، أ. محمّد الصّادق قمحاويّ، المكتبة الثّقافيّة، بيروت، د ط، د ت.
52- البرهان في علوم القرآن، الإمام بدر الدّين محمّد بن عبد اللّه الزّركشيّ، تحقيق: د. يوسف عبد الرّحمن المرعشليّ، والشّيخ جمال حمديّ الذّهبيّ، والشّيخ إبراهيم عبد اللّه الكرديّ، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1410هـ – 1990م.
53- البلاغة الصّوتيّة في القرآن الكريم، د. محمّد إبراهيم شادي، الشّركة الإسلاميّة للإنتاج والتّوزيع والإعلان الرّسالة، مصر، ط1، 1409هـ - 1988م.
54- بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز إعرابا وتفسيرا بإيجاز، إعداد: بهجت عبد الواحد الشّيخليّ، مكتبة دنديس، الأردن، الخليل، ط1، 1422هـ – 2001م.
55- الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحويّة هامّة، تصنيف: محمود صافي، دار الرّشيد، دمشق، بيروت، مؤسّسة الإيمان، بيروت، لبنان، ط3، 1416هـ – 1995م.
56- جماليّة الخطاب في النّصّ القرآنيّ: قراءة تحليليّة في مظاهر الرّؤية وآليّات التّكوين، د. لطفيّ فكريّ محمّد الجودى، مؤسّسة المختار للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط1، 1435هـ – 2014م.
57- جامع الدّروس العربيّة، الشّيخ مصطفى الغلايينيّ، راجعه ونقّحه: د. عبد المنعم خفاجة، منشورات المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، ط30، 1414هـ – 1994م.
58- الجامع لشعب الإيمان، الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البهيقيّ، حقّقه وراجع نصوصه وخرّج أحاديثه: د. عبد العليّ عبد الحميد حامد، مكتبة الرّشيد للنّشر والتّوزيع، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط1، 1423هـ – 2003م.
59- الجامع الكبير سنن التّرمذيّ، الإمام الحافظ أبو عيسى محمّد بن عيسى بن سَوْرَةَ التّرمذيّ، حقّقه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: شعَيْب الأرنؤوط، وجمال عبد اللّطيف، دار الرّسالة العالميّة، دمشق، ط1، 1430هـ – 2009م.

60- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السّيّد أحمد الهاشميّ، ضبطه، د. يوسف الصّميليّ، بيروت، المكتبة العصريّة، د ط، 1422هـ- 2002م.
61- جوامع علم الموسيقى، الشّيخ الرّئيس أبو عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا، تحقيق: زكريا يوسف، نشرة وزارة التّربيّة، القاهرة، ط1، 1956م.
62- جماليّة التّلقّي في القرآن الكريم، أدبيّة الإيقاع الإعجازيّ نموذجا، شارف مزاريّ، اتّحاد كتّاب العرب، دمشق، د ط، 2009م.
63- جمال القرّاء وكمال الإقراء، علم الدّين أبو الحسن بن محمّد السّخاويّ، تحقيق: مروان المعطيّة، ومحسن حرابة، دار المأمون للتّراث، بيروت، ط1، 1997م.
64- الجملة العربيّة والمعنى، د. فاضل صالح السّامرائيّ، دار ابن حزم للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1431هـ – 2000م.
65- الجملة العربيّة تأليفها وأقسامها، د. فاضل صالح السّامرّائيّ، دار الفكر ناشرون وموزّعون، عمّان، الأردن، ط2، 1427هـ – 2007م.
66- ديوان حافظ إبراهيم، تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزّين، وإبراهيم الأبياريّ، دار الكتب المصريّة، مصر، ط2، 1939م.
67- ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه وقدّم له: عليّ فاعور، دار الكتب العلميّة، بيروت، د ط، د ت.
68- دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، النّاشر مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ط5، 1984م.
69- دلالات الظّاهرة الصّوتيّة في القرآن الكريم، د. خالد قاسم بن دوميّ، جدارا للكتاب العالميّ للنّشر والتّوزيع، عمّان، عالم الكتب الحديث للنّشر والتّوزيع، إربد، ط1، 2006م.
70- الدّلالة اللّغويّة عند العرب، عبد الكريم مجاهد، دار الضّياء، عمّان، الأردن، د ط، د ت.
71- الدّلالة الصّوتيّة في اللّغة العربيّة، د. صالح سليم عبد القادر الفاخريّ، النّاشر المكتب العربيّ الحديث، الاسكندريّة، د ط، د ت.
72- درج الدّرر في تفسير القرآن العظيم المنسوب إلى عبد القاهر الجرجانيّ، دراسة وتحقيق: د. طلعت صلاح الفرحان، د. محمّد أديب شكور، دار الفكر ناشرون وموزّعون، عمّان، الأردن، ط1، 1430هـ – 2009م.

73- الدّرّ المنثور في التّفسير بالمأثور، جلال الدّين السّيوطيّ، تحقيق: د. عبد اللّه بن عبد المحسن التّركيّ، بالتّعاون مع د. عبد الله حسن يمامة، مركز هجر للبحوث والدّراسات العربيّة والإسلاميّة، القاهرة، ط1، 1424هـ – 2003م.
74- دراسات في اللّسانيّات العربيّة: المشاكلة - التّنغيم- رؤى تحليليّة، د. عبد الحميد السّيّد، دار الحامد للنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 1465هـ- 2004م.
75- دراسات في علم اللّغة، د. كمال محمّد بشر، النّاشر: دار المعارف، القاهرة، مصر، ط9، 1986م.
76- دراسات في القرآن، د. أحمد خليل، دار المعارف، مصر، د ط، 1992م.
77- دراسات لغويّة في القرآن الكريم وقراءاته، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1421هـ – 2001م.
78- دراسة السّمع والكلام: صوتيّات اللّغة من الإنتاج إلى الإدراك، د. سعد مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، د ط، 1420هـ - 2000م.
79- الدّراسات الصّوتيّة عند علماء التّجويد، د. غانم قدوريّ الحمد، دار عمّار، عمّان، ط1، 1434هـ - 2003م.
80- دراسة الصّوت اللّغويّ، د. أحمد عمر مختار، عالم الكتب، القاهرة، د ط، 1974م.
81- دروس في علم الأصوات، جان كانتينو، ترجمة: د. صالح القرماديّ، مركز الدّراسات والبحوث الاقتصاديّة والاجتماعيّة، تونس، د ط، 1966م.
82- هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، عبد الفتّاح السّيّد عجميّ المرصفيّ، طبع على نفقة الشّيخ محمّد بن لادن في المملكة السّعوديّة، ط1، 1982م.
83- وقوف القرآن وأثرها في التّفسير: دراسة نظريّة مع تطبيق علميّ على الوقف اللاّزم والمتعانق والممنوع، د. مساعد ابن سليمان بن ناصر الطّيّار، مجمع مكتبة الملك فهد الوطنيّة للنّشر، المملكة السّعوديّة، د ط، د ت.
84- الوقف والاِبتداء وصلتهما بالمعنى في القرآن الكريم، د. عبد الكريم إبراهيم عوض صالح، دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة، القاهرة، ط1، 1427هـ- 2006م.
85- الوقف في العربيّة على ضوء اللّسانيّات، عبد البديع النّيربانيّ، دار الغوثانيّ للدّراسات القرآنيّة، دمشق، ط1، 1428هـ - 2008م.

86- الواضح في علوم القرآن، د. مصطفى ديب البغا، محيّ الدّين ديب مستور، دار الكلم الطّيّب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، دار العلوم الإنسانيّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق، ط3، 1418هـ – 1998م.
87- زاد المقرئين أثناء تلاوة الكتاب المبين، أبو عبد الرّحمن جمال بن إبراهيم القرش، قدّم له: محمّد بن عبد الحميد أبو روّاش وآخرون، النّاشر دار الضّياء، طنطا، ط2، 1423هـ.
88- زينة الأداء: شرح حليّة القراءة في أحكام التّلاوة والتّجويد على رواية حفص، فضيلة الشّيخ سعيد بن أحمد بن عليّ العنتباويّ، شرح: محمود أحمد مرّوخ مصطفى، دار الفرقان للنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 1420هـ – 1999م.
89- الحجّة في القراءات السّبع، الحسن بن أحمد بن خالويه، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، د ط، 1990م.
90- طرق تعليم الأطفال القراءة والكتابة، محمّد عطيّة، دار الفكر للنّشر، عمّان، ط2، 1996م.
91- الكامل في اللّغة والأدب، أبو العباس محمّد بن يزيد المبرّد، تحقيق، د. زكيّ مبارك، مطبعة الحلبيّ وشركاه، مصر، د ط، 1356هـ - 1987م.
92- كلام الله: الجانب الشّفاهيّ من الظّاهرة القرآنيّة، د. محمّد كريم الكوّاز، دار السّاقي، بيروت، ط1، 2002م.
93- الكلمة – دراسة لغويّة ومعجميّة– د. حلميّ خليل، دار المعرفة الجامعيّة، مصر، ط1، 1998م.
94- كتاب إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجلّ، أبو بكر بن القاسم بن بشّار الأنباريّ، تحقيق: محيّ الدّين عبد الرّحمن رمضان، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة، دمشق، د ط، 1391هـ – 1971م.
95- كتاب الزّينة في الكلمات الإسلاميّة العربيّة، الشّيخ أبو حاتم أحمد بن حمدان الرّازيّ، عارضه بأصوله وعلّق عليه: حسين بن فيض الله الهمدانيّ، مركز الدّراسات والبحوث اليمنيّ، صنعاء، ط1، 1415هـ – 1994م.
96- كتاب معاني القرآن، أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط، تحقيق: دة. هدى محمود قراعة، النّاشر: مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط1، 1411هـ – 1990م.

97- كتاب المفتاح في الصّرف، عبد القاهر الجرجانيّ، حقّقه وقدّم له: د. عليّ توفيق الحمد، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط1، 1407هـ – 1987م.
98- كتاب العين، أبو عبد الرّحمن الخليل بن أحمد الفراهيديّ، تحقيق: د. مهدي المخزوميّ، ود. إبراهيم السّامرائيّ، د ب، د ط، د ت.
99- الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، العلاّمة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزّمخشريّ، تحقيق وتعليق ودراسة: الشّيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشّيخ عليّ محمّد معوّض، بمشاركة: د. فتحيّ عبد الرّحمن أحمد حجازيّ، النّاشر: مكتبة العبيكان، الرّياض، ط1، 1417هـ – 1998م.
100- الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزّمخشريّ، اعتنى به وعلّق عليه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 1430هـ – 2009م.
101- كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، العلاّمة علاء الدّين عليّ المتقيّ بن حسام الدّين الهنديّ البرهان فوزيّ، ضبطه وفسّر غريبه: الشّيخ بكري حيانيّ، صحّحه ووضع فهارسه: الشّيخ صفوة السّقا، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط5، 1305هـ- 1985م.
102- – اللّحن في العربيّة، تاريخه وأثره، د. يوسف أحمد مطوّع، المطبعة العصريّة، الكويت، دط، دت.
103- – لطائف الإشارات لفنون القراءات، الإمام أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن أبي بكر القسطلانيّ، تحقيق: مركز الدّراسات القرآنيّة، نشر: مُجَمَّع الملك فهد، المملكة العربيّة السّعوديّة، د ط، د ت.
104- – لسان العرب، أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم بن منظور الأنصاريّ الخزرجيّ المصريّ، من إصدارات وزارة الشّؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، المملكة العربيّة السّعوديّة، د ط، د ت.
105- – اللّغة، جوزيف فندريس، ترجمة: عبد الحميد الدّواخليّ، ومحمّد القصّاص، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، د ط، 1950م.
106- اللّغة بين المعياريّة والوصفيّة، تمّام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 2000م.

107- اللّغة والمعنى والسّياق، جون لاينز، ترجمة: د. عبّاس صادق الوهاب، مراجعة: د. يوئيل عزيز، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة للطّباعة والنّشر، العراق، ط1، 1987م.
108- اللّغة واختلاف الجنسين، د. أحمد عمر مختار، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1416هـ - 1996م.
109- اللّغة العربيّة أداء ونطقا وإملاء وكتابة، فخريّ محمّد صالح، دار الوفاء للطّباعة والنّشر، القاهرة، ط2، 1994م.
110- اللّغة العربيّة معناها ومبناها، د. تمّام حسّان، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ط2، 1979م.
111- لغة القرآن الكريم، د. عبد الجليل عبد الرّحيم، عمّان، مكتبة الرّسالة الحديثة، ط1، 1401هـ -1981م.
112- مبادئ اللّسانيّات، د. أحمد محمّد قدور، دار الفكر، دمشق، ط2، 1419هـ – 1999م.
113- مباحث في علوم القرآن، د. صبحيّ الصّالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1988م.
114- مباحث في علم اللّغة ومناهج البحث اللّغويّ، دة. نور الهدى لوشن، المكتبة الجامعيّة الأزاريطة، الإسكندريّة، ط1، 2001م.
115- مجمل اللّغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللّغويّ، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط2، 1406هـ، 1986م.
116- مجمع البيان في تفسير القرآن، أمين الإسلام أبو عليّ الفضل بن الحسن الطبرسيّ، دار المرتضى، طباعة، نشر، توزيع، بيروت، ط1، 1427هـ – 2006م.
117- مدخل إلى اللّسانيّات، د. رضوان القضماويّ، منشورات جامعة البعث، سوريا، ط1، 1988م.
118- المدخل إلى علم أصوات العربيّة، د. غانم قدّوريّ الحمد، دار عمّار، عمّان، ط1، 1425هـ - 2004م.
119- المدخل إلى علم اللّغة، ومناهج البحث اللّغويّ، د. رمضان عبد التّواب، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط2، 1985م.

120- مدخل إلى علم اللّغة - المجالات والاتّجاهات- د. محمود فهميّ حجازيّ، القاهرة، الدّار المصريّة السّعوديّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، د ط، 2006م.
121- مدخل إلى الصّوتيّات، عبد الفتّاح إبراهيم، دار الجنوب للنّشر، تونس، د ط، د ت.
122- مدخل إلى علم اللّغة، د. محمّد حسن عبد العزيز، دار الفكر، بيروت، د ط، 1988م.
123- المهارات اللّغويّة – مدخل إلى خصائص اللّغة العربيّة وفنونها –، د. محمّد صالح الشّنطيّ، دار الأندلس للنّشر والتّوزيع، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط4، 1417هـ – 1996م.
124- مهارات اللّغة العربيّة، د. عبد الله عليّ مصطفى، دار الميسرة للنّشر والتّوزيع والطّباعة، عمّان، الأردن، ط2، 1427هـ - 2007م.
125- موجز تاريخ علم اللّغة في الغرب، روبرت روبنز، ترجمة: د. أحمد عوض، عالم المعرفة، الكويت، د ط، نوفمبر1997م.
126- موسوعة البيان لقرّاء القرآن، عبد العزيز الشّبراويّ، مطابع الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، د ط، 1994م.
127- الموسيقى الكبير، الفيلسوف أبو نصر محمّد بن محمّد بن طرحان الفارابيّ، تحقيق: غطّاس عبد الملك خشبة، القاهرة، دار الكتاب العربيّ للطّباعة والنّشر، د ط، د ت.
128- موسيقى الشّعر العربيّ، د. إبراهيم أنيس، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصريّة، ط4، 1976م.
129- الموضّح في وجوه القراءات وعللها، الإمام أبو عبد الله نصر بن عليّ بن محمّد الشّيرازيّ المعروف بابن أبي مريم، تحقيق: الشّيخ عبد الرّحيم الطّرهونيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 2009م.
130- الموضّح في التّجويد، عبد الوهاب بن محمّد القرطبيّ، تحقيق: د. غانم قدّوريّ الحمد، معهد المخطوطات العربيّة، الكويت، ط1، 1990م.
131- المحيط في أصوات العربيّة ونحوها وصرفها، محمّد الأنطاكيّ، دار الشّرق العربيّ، بيروت، ط3، دت.
132- المحيط في اللّغة، الصّاحب بن عبّاد، تحقيق: الشّيخ محمّد حسن آل ياسين، بيروت، د ط، 1982م.
133- المحتسب في تبيين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها، أبو الفتح عثمانِ بن جنيّ، تحقيق: عليّ النّجديّ ناصف، ود. عبد الفتّاح شلبيّ، وزارة الأوقاف، القاهرة، 1999م.

134- من أسرار اللّغة في الكتاب والسّنّة، معجم لغويّ ثقافيّ، د. محمود محمّد الطّناحيّ، دار الفتح للدّراسات والنّشر، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط1، 1428هـ – 2998م.

135- مناهج البحث في اللّغة، د. تمّام حسّان، دار الثّقافة للنّشر والتّوزيع، الدّار البيضاء، 1407هـ - 1986م.

136- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمّد عبد العظيم الزّرقانيّ، المطبعة الفنّيّة، القاهرة، د ط، دت.

137- المنهج الصّوتيّ للبنيّة العربيّة: رؤيّة جديدة في الصّرف العربيّ، د. عبد الصّبور شاهين، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، د ط، 1400هـ – 1980م.

138- من وظائف الصّوت اللّغويّ: محاولة لفهم صرفيّ ونحويّ ودلاليّ، د. أحمد كشك، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط1، 2006م.

139- المنصف: شرح كتاب التّصريف لأبي عثمان المازنيّ النّحويّ البصريّ، أبو الفتح عثمان بن جنيّ، تحقيق: إبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين، النّاشر: مصطفى البابيّ الحلبيّ، إدارة إحياء التّراث القديم، د ب، ط1، 1373هـ – 1954م.

140- منظومة المقدّمة فيما يجب على القارئ أن يعلمه، الإمام محمّد بن محمّد بن عليّ بن يوسف ابن الجزريّ، تحقيق: أيمن رشديّ سويد، دار نور المكتبات للنّشر والتّوزيع، جدّة، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط4، 1437هـ – 2006م.

141- معاني النّحو، د. فاضل صالح السّامرائيّ، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 1420هـ – 2000م.

142- معاني القرآن، الفرّاء أبو زكرياء يحي بن زياد، تحقيق: محمد عليّ النّجار وزميله، مصر، مطبعة دار الكتب المصريّة، ب ط، 1955م.

143- معاني القرآن الكريم وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السَّريّ الزّجّاج، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبيّ، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408هـ – 1988م.

144- المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطّبرانيّ، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمّد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسينيّ، دار الحرمين، القاهرة، د ط، 1415هـ.

145- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وزملاؤه، إشراف: د. عبد السّلام هارون، مجمع اللّغة العربيّة، دار إحياء التّراث العربيّ، مصر، د ط، د ت.

146- المعجم الكبير، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطّبرانيّ، حقّقه وخرّج أحاديثه: حمديّ عبد المجيد السّلفيّ، النّاشر: مكتبة ابن تيميّة، القاهرة، د ط، د ت.
147- معجم المصطلحات اللّسانيّة، د. سامي عيّاد حنّا، وكريم زكيّ حسام الدّين، ونجيب جريس، النّاشر: مكتبة لبنان، بيروت، د ط، 1997م.
148- المعجم المفصّل في اللّغة والأدب، د. إميل بديع يعقوب وزميله، بيروت، دار الملايين، ط1، 1987م.
149- المعجم المفصّل في علم اللّغة - الألسنيّات- د. محمّد التّونجيّ، أ. راجي الأحمر، مراجعة: د. إميل يعقوب، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1993م.
150- معجم المصطلحات العربيّة في اللّغة والأدب، مجديّ وهبة، وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1984م.
151- معجم مقاييس اللّغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط: عبد السّلام هارون، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، د ط، د ت.
152- معجم متن اللّغة، موسوعة لغويّة حديثة، العلاّمة الشّيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، د ط، 1378هـ – 1959م.
153- معجم علم الأصوات، د. محمّد عليّ الخوليّ، مطابع الفرزدق التّجاريّة، بيروت، ط1، 1406هـ – 1986م.
154- المعين على تدبّر الكتاب المبين، محمّد بن أحمد مكّيّ، مؤسّسة الرّيّان للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، دار نور المكتبات للنّشر والتّوزيع، ط2، 1431هـ – 2010م.
155- مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمّد بن عليّ السّكاكيّ، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، مطبعة دار الرّسالة، بغداد، ط1، 1403هـ – 1981م.
156- المصطلحات اللّغويّة الحديثة في اللّغة العربيّة، د. محمّد رشاد الحمزاويّ، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، ط1، 1987م.
157- المفصّل في علم العربيّة، أبو القاسم محمود بن عمر الزّمخشريّ، وبذيله المفضّل في شرح أبيات المفصّل، السّيّد محمّد بدر الدّين أبو فراس النّعسانيّ الحلبيّ، دار الجيل للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط2، د ت.

158- مقدّمة في اللّسانيّات، د. عاطف فضل، دار الرّازيّ للطّباعة والنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 1426هـ- 2005م.

159- المقطع الصّوتيّ في العربيّة، د. صباح عطيويّ عبّود، دار الرّضوان للنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 1435هـ – 2014م.

160- مقالات في اللّغة والأدب، د. تمّام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2006م.

161- المقتضب، أبو العباس محمّد بن يزيد المبرّد، تحقيق، د. محمّد عبد الخالق عضيمة، نشر المجلس الأعلى للشّؤون الإسلاميّة، القاهرة، ط1، 1388هـ - 1985م.

162- المرام في معاني الكلام القاموس الكامل، مؤنس رشاد الدّين، دار الرّاتب الجامعيّة، لبنان، ط1، 2000م.

163- مختار الصّحاح، الإمام محمّد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازيّ، تحقيق: محمود خاطر، إخراج دائرة المعاجم، مكتبة لبنان، بيروت، د ط، ، 1976م.

164- المختصر في أصوات اللّغة العربيّة، دراسة نظريّة وتطبيقيّة، د: محمّد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب، القاهرة، ط5، 1429هـ – 2008م.

165- مختصر صحيح مسلم، زكيّ الدّين عبد العظيم المنذريّ، تحقيق: محمّد ناصر الدّين الألبانيّ، دار ابن عنّان، السّعوديّة، ط1، 1411هـ.

166- المصطلح الصّوتيّ في الدّراسات العربيّة، د. عبد العزيز الصّيغ، دار الفكر، بيروت، ط1، 1401هـ – 2000م.

167- مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدّين ابن هشام الأنصاريّ، حقّقه وخرّج شواهده: د. مازن مبارك، ومحمّد عليّ حمد الله، راجعه: سعيد الأفغانيّ، دار الفكر، بيروت، ط1، 1384هـ - 1964م.

168- النّداء في اللّغة والقرآن، د. أحمد محمّد فارس، دار الفكر اللّبنانيّ للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، ط1، 1409هـ – 1989م.

169- نهاية القول المفيد في علم التّجويد، محمّد مكّيّ نصر الجريسيّ، ضبطه وراجعه: طه عبد الرّؤوف سعد، مكتبة الصّفا، القاهرة، ط1، 1420هـ - 1999م.

170- النّحو والدّلالة مدخل لدراسة المعنى النّحويّ – الدّلاليّ، د. محمّد حماسة عبد اللّطيف، دار الشّروق، القاهرة، ط1، 1420هـ – 2000م.

171- نحو وعي لغويّ، مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، د ط، 1983م.
172- النّحو التّطبيقيّ من القرآن والسّنّة، أبو عبد الرّحمن جمال بن إبراهيم القِرْش، قدّم له: د. إبراهيم جميل محمّد، ود. فاروق إبراهيم مغربيّ، النّاشر دار الضّياء، طنطا، ط3، 1423هـ – 2003م.
173- النّصّ القرآنيّ وآفاق الكتابة، عليّ أحمد سعيد "أدونيس"، دار الآداب، بيروت، د ط، 1993م.
174- النّشر في القراءات العشر، الحافظ أبو الخير محمّد بن محمّد الدّمشقيّ الشّهير بابن الجزريّ، إشراف وتصحيح ومراجعة: أ. عليّ محمّد الضّبّاع، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، د ط، د ت.
175- نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، الإمام برهان الدّين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعيّ، دار الكتاب الإسلاميّ، القاهرة، د ط، 1404هـ – 1984م.
176- نظريّة النّحو العربيّ في ضوء مناهج النّظر اللّغويّ الحديث، د. نهاد الموسى، دار البشير، عمّان، الأردن، ط2، 1987م.
177- نظريّة التّصوير الفنيّ عند سيّد قطب، د. صلاح عبد الفتّاح الخالديّ، شركة الشّهاب، الجزائر، د ط، 1982م.
178- نظريّة تشومسكيّ اللّغويّة، جون لاينز، ترجمة: د. حلميّ خليل، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، ط1، 1985م.
179- السّبعة في القراءات، أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد، تحقيق: شوقيّ ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1972م.
180- سيكولوجيّة المهارات، السّيّد محمّد أبو هاشم، مكتبة زهراء الشّرق للنّشر والتّوزيع، القاهرة، د ط، 2002م.
181- سلسلة الأحاديث الضّعيفة والموضوعة، محمّد ناصر الدّين الألبانيّ، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سَلْمَان، مكتبة المعارف للنّشر والتّوزيع، صاحبها: سعد بن عبد الرّحمن الرّاشد، الرّياض، ط1، 1430هـ - 2009م.
182- سرّ الفصاحة، أبو محمّد عبد الله بن محمّد بن سنان الخفاجيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1982م.

183- سرّ صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جنيّ، تحقيق: د. حسن الهنداويّ، دار القلم، دمشق، ط2، 1413هـ – 1993م.
184- ستّ محاضرات في الصّوت والمعنى، رومان جاكبسون، ترجمة: حسن ناظم، وعليّ حاكم صالح، المركز الثّقافيّ للنّشر، بيروت، ط1، 1994م.
185- علل النّحو، أبو الحسن محمّد بن عبد الله الورّاق، تحقيق: محمود محمّد محمود نصّار، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1422هـ - 2002م.
186- علم الأصوات، د. حسام البهنساويّ، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، القاهرة، ط1، 1425هـ – 2004م.
187- علم الأصوات، د. كمال محمّد بشر، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، د ط، 2000م.
188- علم الأصوات اللّغويّة، د. أحمد عزوز، ديوان المطبوعات الجامعيّة، وهران، د ط، د ت.
189- علم الأصوات العربيّة، د. محمّد جواد النّوريّ وآخرون، منشورات جامعة القدس المفتوحة، عمّان، ط1، 1996م.
190- علم الدّلالة التّطبيقيّ في التّراث العربيّ، د. هادي نهر، عالم الكتب الحديث، إربد، جدارا للكتاب العالميّ للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 1429هـ – 2008م.
191- علم وظائف الأصوات اللغوية، د. عصام نور الدين، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1996م.
192- علم اللّسانيّات الحديثة، د. عبد القادر عبد الجليل، درا صفاء للنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 1422هـ-2002م.
193- علم اللّغة العامّ: الأصوات، د. كمال محمّد بشر، دار المعارف، مصر، د ط، 1974م.
194- علم اللّغة بين التّراث والمعاصرة، د. عاطف مدكور، دار الثّقافة للنّشر والتّوزيع، القاهرة، د ط، 1987م.
195- علم اللّغة – مقدّمة للقارئ العربيّ–، د. محمود السّعران، دار الفكر العربيّ، القاهرة، ط2، 1994م.
196- علم الصّرف الصّوتيّ، د. عبد القادر عبد الجليل، أزمنة للنّشر والتّوزيع، الأردن، ط1، 1998م.

197- علم التّجويد- دراسة صوتيّة ميّسرة- د. غانم قدوريّ الحمد، عمّان، دار عمّار للنّشر والتّوزيع، ط1، 1426هـ - 2005م.
198- عناصر الإبداع الفنيّ في شعر أحمد مطر، كمال أحمد غنيم، مكتبة مدبوليّ، القاهرة، ط1، 1998م.
199- العربيّة في علم اللّغة الحديث، د. محمّد محمّد داود، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، د ط، 2001م.
200- في البحث الصّوتيّ عند العرب، د. خليل إبراهيم عطيّة، دار الجاحظ للنّشر، بغداد، د ط، 1983م.
201- في البنيّة الإيقاعيّة للشّعر العربيّ، نحو بديل جذريّ لعروض الخليل، ومقدّمة في علم – الإيقاع المقارن، د. كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1974م.
202- في نحو اللّغة وتراكيبها، خليل عمايرة، عالم المعرفة، جدّة، ط1، 1984م.
203- في اللّهجات العربيّة، د. إبراهيم أنيس، لجنة البيان العربيّ، القاهرة، ط2، 1952م.
204- في الميزان الجديد، د. محمّد مندور، مكتبة النّهضة، القاهرة، ط2، د ت.
205- فيزياء الصّوت والحركة الموجيّة، د. أمجد عبد الرّزاق، دار الكتب للطّباعة، الموصل، د ط، 1984م.
206- في علم الدّلالة، د. محمّد سعد محمّد، مكتبة زهراء الشّرق، مصر، ط1، 2002م.
207- في علم اللّغة، د. غازي مختار طليمات، مكتبة دار طلّاس للنّشر، دمشق، ط3، 2007م.
208- في التّنظيم الإيقاعيّ للّغة العربيّة – نموذج الوقف -، د. مبارك حنون، دار الأمان، الرّباط، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1431هـ – 2010م.
209- في الخطابة، الفيلسوف أبو نصر محمّد بن محمّد بن طرحان الفارابيّ، تحقيق، د. محمّد سليم سالم، الهيئة المصريّة للكتاب، مصر، د ط، 1976م.
210- في ظلال القرآن، سيّد قطب، دار العلم، القاهرة، ط25، 1417هـ.
211- فنّ الكلام، د. كمال محمّد بشر، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، د ط، 2002م.

212- فنّ التّرتيل وعلومه، الشّيخ أحمد بن أحمد بن محمّد عبد الله الطّويل، مجمع الملك فهد لطّباعة المصحف الشّريف، المدينة المنوّرة، بالتّعاون مع مجمع الملك فيصل للبحوث والدّراسات الإسلاميّة، الرّياض، ط1، 1420هـ – 1999م.

213- فصول في فقه اللّغة، د. رمضان عبد التّواب، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط3، 1408هـ – 1987م.

214- فقه اللّغات السّامية، كارل بروكلمان، ترجمة: د. رمضان عبد التّواب، مطبوعات جامعة الرّياض، د ط، د ت.

215- فقه اللّغة في الكتب العربيّة، د. عبده الرّاجحيّ، بيروت، دار النّهضة العربيّة، د ط، د ت.

216- فتح البيان في مقاصد القرآن، الإمام أبو الطّيّب صدّيق بن حسن بن عليّ الحسين القنوجيّ البخاريّ، قدّم له وراجعه: عبد الله بن إبراهيم الأنصاريّ، المكتبة العصريّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، صيدا، بيروت، د ط، 1412هـ – 1992م.

217- فتح الباريّ: شرح صحيح البخاريّ، شهاب الدّين أبو الفضل ابن حجر العسقلانيّ، النّاشر: مكتبة مصطفى البابيّ الحلبيّ، القاهرة، 1378هـ.

218- فتح القدير الجامع بين فنّي الرّواية والدّراية من علم التّفسير، الإمام الشّوكانيّ محمّد بن عليّ بن محمّد بن عبد الله الصّنعانيّ، دار النّوادر، الكويت، د ط، 1431هـ – 2010م.

219- الصّوت اللّغويّ في القرآن، د. محمّد حسين عليّ الصّغير، دار المؤرخ العربيّ، بيروت، ط1، 2000م.

220- الصّحاح في اللّغة والعلوم، إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ، تقديم العلّامة الشّيخ عبد الله العلايليّ، إعداد وتصنيف: نديم مرعشليّ، وأسامة مرعشليّ، دار الحضارة العربيّة، بيروت، د ط، د ت.

221- صحيح البخاريّ، الإمام أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاريّ الجعفيّ، ضبطه: د. مصطفى ديب البُغا، دار ابن كثير، دار اليمامة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، دمشق، ط5، 1414هـ – 1993م.

222- صحيح البخاريّ، (الجامع الصّحيح)، الإمام أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاريّ، مطبعة محمّد صبيح، القاهرة، د ط، د ت.

223- الصّوتيّات العربيّة، د. منصور بن محمّد الغامديّ، مكتبة التّوبة للنّشر، الرّياض، ط1، 1431هـ – 2001م.
224- صفوة التّفاسير، محمّد عليّ الصّابونيّ، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، د ط، 1421هـ - 2001م.
225- الصّرف التّعليميّ والتّطبيق في القرآن الكريم، د. محمود سليمان ياقوت، مكتبة المنار الإسلاميّة طباعة ونشرا وتوزيعا، الكويت، ط1، 1420هـ – 1999م.
226- القاموس المحيط، مجد الدّين بن يعقوب بن إبراهيم الفيروزباديّ الشّيرازيّ الشّافعيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1999م.
227- قصص الأنبياء، الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير، نشره، مكتبة الشّركة الجزائريّة، الجزائر، د ط، 1401هـ - 1981م.
228- القراءة السّريعة: كيف تمتلك مهارة القراءة السّريعة مع المحافظة على الاستيعاب الكامل؟ تأليف: بيتر شيفرد، وجريجوري ميتشل، ترجمة: أحمد هوشان، بدون دار الطّبع، دون بلد، ط1، 1427هـ – 2006م.
229- القراءات القرآنيّة بين العربيّة والأصوات اللّغويّة – منهج لسانيّ معاصر –، د. سمير شريف استيتيّة، عالم الكتب الحديث، إربد، د ط، 2005م.
230- القراءات القرآنيّة والأحاديث الشّريفة، عليّ حسين البوّاب، دار الفرقان للتّوزيع والنّشر، عمّان، الأردن، د ط، 1983م.
231- القراءات القرآنيّة في ضوء علم اللّغة الحديث، د. عبد الصّبور شاهين، دار القلم، القاهرة، 1996م.
232- قضايا النّقد الأدبيّ، د. بدويّ طبانة، دار المريخ، الرّياض، د ط، 1988م.
233- قضايا قرآنيّة في ضوء الدّراسات اللّغويّة، د. عبد العال سالم مكرم، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط1، 1401هـ - 1988م.
234- القضايا التّطريزيّة في القراءات القرآنيّة: دراسة لسانيّة في الصّواتة الإيقاعيّة، د. أحمد البايبيّ، عالم الكتب الحديث للنّشر والتّوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2012م.
235- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، العلامة أبو الفضل السّيّد محمّد الآلوسيّ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ط 4، د ت.

236- رياض الصّالحين من كلام سيّد المرسلين، الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النّوويّ، علّق عليه: رضوان محمّد رضوان، طبعة تحت إشراف لجنة من العلماء، د ط، د ت.
237- رسائل إخوان الصّفا وخلان الوفاء، إخوان الصّفا، الدّار الإسلاميّة، بيروت، د ط، 1305هـ - 1987م.
238- رسالة أسباب حدوث الحروف، الشّيخ الرّئيس أبو عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا، تحقيق: محمّد حسّان الطّيّان، ويحيى مير العلم، تقديم ومراجعة: د. شاكر الفحّام، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة، دمشق، ط1، 1403هـ - 1983م.
239- رسم المصحف: دراسة لغويّة تاريخيّة، د. غانم قدّوريّ الحمد، اللّجنة الوطنيّة للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر هجريّ، الجمهوريّة العراقيّة، ط1، 1403هـ – 1982م.
240- شواهد التّوضيح والتّصحيح لمشكلات الجامع الصّحيح، جمال الدّين بن مالك الأندلسيّ، تحقيق: د. طه محسن، مكتبة ابن تيميّة، بغداد، د ب، ط2، 1413هـ.
241- شرح أبيات مغني اللّبيب، عبد القادر البغداديّ، تحقيق: عبد العزيز رباح، مطبعة بولاق، مصر، د ط، 1983م.
242- شرح الآجُرُّومِيّة، العلّامة محمّد صالح العيثمين، مكتبة الرّشد ناشرون، الرّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط1، 1426هـ – 2005م.
243- شرح اِبن عقيل على ألفيّة اِبن مالك في النّحو والصّرف، إبراهيم قيلانيّ، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط1، 1423هـ-2008م.
244- شرح ديوان جرير، محمّد إسماعيل عبد الله الصّاويّ، دار الأندلس للطّباعة والنّشر، بيروت، د ط، د ت.
245- شرح طيبة النّشر في القراءات العشر، أبو القاسم محمّد بن محمّد بن محمّد بن عليّ النّويريّ، تقديم وتحقيق: د. مجديّ محمّد سرور سعد باسلوم، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ – 2003م.
246- شرح المفصّل، موفّق الدّين أبو البقاء يعيش بن عليّ بن يعيش الموصليّ النّحويّ، قدّم له ووضع هوامشه وفهرسه: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ – 2001م.

247- شرح المقدّمة الجزريّة، إشراف وزارة الشّؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، المملكة العربيّة السّعوديّة، طبعه مجمع الملك فهد لطّباعة المصحف الشّريف، المدينة المنوّرة، 1421هـ – 2001م.

248- شرح المقدّمة الجزريّة يجمع بين التّراث الصّوتيّ العربيّ القديم والدّرس الصّوتيّ الحديث، د. غانم قدوريّ الحمد، النّاشر: مركز الدّراسات والمعلومات القرآنيّة، معهد الإمام الشّاطبيّ، جدّة، ط1، 1429هـ – 2008م.

249- شرح ما يقع فيه التّصحيف والتّحريف، أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكريّ، تحقيق: عبد العزيز أحمد، مطبعة: مصطفى البابيّ الحلبيّ وأولاده، مصر، ط1، 1383هـ – 1963م.

250- شرح قطر النّدى وبل الصّدى، تصنيف أبي محمّد عبد الله جمال الدّين بن هشام الأنصاريّ، ومعه كتاب سبيل الهدى بتحقيق شرح قطر النّدى، تأليف: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريّة للطّباعة والنّشر، بيروت، ط1، 1414هـ – 1994م.

251- شرح الرّضيّ لكافية ابن الحاجب، دراسة وتحقيق: د. يحيى بشير مصريّ، طباعة ونشر الإدارة العامّة للثّقافة والنّشر بجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط1، 1417هـ – 1996م.

252- شرح شذور الذّهب في معرفة كلام العرب، الإمام جمال الدّين أبو محمّد عبد الله بن يوسف المعروف بابن هشام النّحويّ، اعتنى به: محمّد أبو الفضل عاشور، دار إحياء التّراث العربيّ للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ – 2001م.

253- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، شرحه ونشره: السّيّد أحمد صقر، دار التّراث، القاهرة، ط2، 1393هـ - 1973م.

254- تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرّافعيّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، د ط، د ت.

255- التّبيان في آداب حملة القرآن، أبو زكريا يحيى بن شرف النّوويّ، حقّقه وعلّق عليه: محمّد الحجّار، دار ابن الحزم للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط4، 1416هـ – 1996م.

256- التّبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبريّ، تحقيق: سعد كُرَيِّم الفقيّ، دار اليقين للنّشر والتّوزيع، ط1، 1422هـ – 2001م.

257- اتّجاهات حديثة في تدريس اللّغة العربيّة، د. طه عليّ حسين الدّليميّ، دة. سعاد عبد الكريم الوائليّ، عالم الكتب الحديث، جدار للكتاب العالميّ، الأردن، ط1، 2009م.

258- التّجريد الصّريح لأحاديث الجامع الصّحيح، أحمد بن محمّد عبد اللّطيف الشّرجيّ الزّبيديّ، تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمّد، دار ابن الجزريّ للنّشر والتّوزيع، الدّمام، المملكة السّعوديّة، ط1، 1434هـ.

259- التّوجيه البلاغيّ للقراءات القرآنيّة، د. أحمد سعد محمّد، مكتبة الآداب للنّشر، القاهرة، ط1، 1418هـ- 1998م.

260- التّحديد في الإتقان والتّجويد، أبو عمرو عثمان بن سعيد الدّانيّ، تحقيق: د. غانم قدّوريّ الحمد، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة، بيروت، د ط، د ت.

261- تحرير التّحبير في صناعة الشّعر والنّثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصريّ، تقديم وتحقيق: د. حفنيّ محمّد شرف، لجنة إحياء التّراث الإسلاميّ، الجمهوريّة العربيّة المتّحدة (مصر)، د ط، 1963م.

262- تيسير الرّحمن في تجويد القرآن، دة. سعاد عبد الحميد، دار التّقوى للطّبع والنّشر والتّوزيع، الاسكندريّة، ط1، 1430هـ – 2009م.

263- تحفة نجباء العصر، زين الدّين أبي زكريا بن محمّد الأنصاريّ الشّافعيّ، جامعة بغداد، بغداد، ط2، 1994م.

264- التّطوّر اللّغويّ - مظاهره وعلله وقوانينه – د. رمضان عبد التّواب، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط3، 1977م.

265- التّمهيد في علم التّجويد، شمس الدّين أبو الخير بن الجزريّ، تحقيق: د. غانم قدّوريّ الحمد، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط1، 1407هـ.

266- التّنوير شرح الجامع الصّغير، العلّامة محمّد بن إسماعيل الأمير الصّنعانيّ، قدّم له: صالح بن محمّد اللّحيدان، وعبد الله بن محمّد الغنيمان، دراسة وتحقيق: د. محمّد إسحاق محمّد إبراهيم، مكتبة دار السّلام، الرّياض، ط1، 1432هـ – 2011م.

267- تنميّة مهارات القراءة والكتابة: استيراتيجيّات متعدّدة للتّدريس والتّقويم، د. حاتم حسين البصيص، منشورات الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب، دمشق، د ط، 2011م.

268- التّناسب البيانيّ في القرآن، دراسة في النّظم المعنويّ والصّوتيّ، د. أحمد أبو زيد، الطّبع: مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، المغرب، د ط، 1992م.
269- تنقيح الوسيط في علم التّجويد، محمّد خالد منصور، دار المناهج للنّشر، عمّان، ط2، 2001م.
270- التّعبير القرآنيّ، د. فاضل صاح السّامرّائيّ، دار عمّار، عمّان، ط4، 1427هـ – 2006م.
271- التّعبير القرآنيّ والدّلالة النّفسيّة، د. محمّد عبد الله الجيوسيّ، دار الغوثانيّ للدّراسات القرآنيّة، دمشق، ط1، 1426هـ – 2006م.
272- تعليم اللّغة العربيّة بواسطة الحاسوب في الصّفوف الأربعة الأولى - الواقع والمأمول-، دة. خالدة عبد الرّحمن شتات، 2010م، وزارة التّربيّة والتّعليم، الأردن، 2010م.
273- التّفكير اللّسانيّ في الحضارة العربيّة، د. عبد السّلام المسديّ، الدّار العربيّة للكتاب، تونس، ليبيا، د ط، 1981م.
274- تفسير اِبن جزيّ، محمّد بن أحمد بن جزيّ الكلبيّ، أشرف عليه: لجنة تحقيق التّراث في دار الكتاب العربيّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، د ط، 1403هـ - 1983م.
275- تفسير البحر المحيط، محمّد بن يوسف الشّهير بأبي حيّان الأندلسيّ، دراسة وتحقيق وتعليق: الشّيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشّيخ عليّ محمّد معوّض، قرظه: د. عبد الحيّ القرماديّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ – 1993م.
276- تفسير الجلالين مذيّل بكتاب أسباب النّزول للسّيوطيّ، الإمامان: العلّامة جلال الدّين محمّد بن أحمد المحلّى، وجلال الدّين عبد الرّحمن بن أبي بكر السّيوطيّ، تعليق: الشّيخ خالد الحمصيّ الجوجا، مكتبة الملاّح للطّبع والنّشر، دمشق، د ط، 1389هـ - 1969م.
277- التّفسير الوسيط للقرآن الكريم، تأليف لجنة من العلماء، بإشراف: مجمع البحوث الإسلاميّة بالأزهر، مطبعة المصحف الشّريف، ط3، 1413هـ – 1992م.
278- تفسير الطّبريّ من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، هذّبه وحقّقه وضبط نصّه وعلّق عليه: د. بشّار عوّاد معروف، وعصام فارس الحرستانيّ، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط1، 1415هـ - 1994م.

279- التّفسير المأمون على منهج التّنزيل والصّحيح المسنون، تفسير القرآن الكريم على منهاج الأصلين العظيمين الوحيين: القرآن والسّنّة الصّحيحة على فهم الصّحابة والتّابعين، تفسير منهجيّ فقهيّ شامل معاصر، د. مأمون حمّوش، وزارة الإعلام، دمشق، ط1، 1428هـ – 2007م.

280- تفسير الفخر الرّازيّ المشتهر بالتّفسير الكبير ومفاتيح الغيب، الإمام محمّد الرّازيّ فخر الدّين ابن العلاّمة ضياء الدّين عمر، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1301هـ – 1981م.

281- تفسير القرآن، الإمام أبو المظفّر السّمعانيّ، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار الوطن، الرّياض، ط1، 1418هـ – 1997م.

282- تفسير القرآن العزيز، أبو عبد الله محمّد بن عبد الله ابن أبي زمنين، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، ومحمّد بن مصطفى الكنز، النّاشر: الفاروق الحديث للطّباعة والنّشر، القاهرة، ط1، 1423هـ- 2002م.

283- تفسير القرآن الكريم، ابن أبي الرّبيع عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله القرشيّ الإشبيليّ السّبتيّ، دراسة وتحقيق: دة. صالحة بنت راشد بن غنيم آل غنيم، طبعه وأخرجه: د. عبد العزيز سلطان آل سعود، د. تركيّ بن سهود العتيبيّ، الدّمام، سلسلة الرّسائل الجامعيّة، الرّياض، د ط، 1430هـ.

284- تفسير القرآن الكريم، جزء عمّ، الشّيخ محمّد عبده، الجمعيّة الخيريّة المصريّة، مطبعة مصر، شركة مساهمة مصريّة، ط3، 1341هـ.

285- تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشيّ الدّمشقيّ، تحقيق: سامي بن محمّد السّلامة، دار طيبة للنّشر والتّوزيع، الرّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط2، 1420هـ – 1999م.

286- تفسير التّحرير والتّنوير، الإمام محمّد الطّاهر بن عاشور، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، د ط، 1984م.

287- التّعبير الفنيّ في القرآن، د. بكريّ شيخ أمين، دار الشّروق، القاهرة، ط4، 1980م.

288- التّصوير الفنيّ في القرآن الكريم، سيّد قطب، دار الشّروق، القاهرة، ط16، 1433هـ - 2002م.

289- التّصريف العربيّ من خلال علم الأصوات الحديث، د. الطّيّب البكوش، نشر وتوزيع مؤسّسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ط2، 1887م.
290- التّربيّة وثقافة التّكنولوجيا، د. مدكور عليّ أحمد، دار الفكر العربيّ، القاهرة، د ط، 2003م.
291- ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، أ. الطّاهر أحمد الزّاويّ، دار الفكر، القاهرة، ط3، د ت.
292- ترتيل القرآن في ضوء الدّراسات اللّغويّة الحديثة، د. عبد الفتّاح عبد العليم البركاويّ، الجريسيّ JERAISY للكمبيوتر: الطّباعة والتّصوير، القاهرة، ط1، 1425هـ – 2004م.
293- التّشكيل الجماليّ في الشّعر الفلسطينيّ المعاصر، عبد الخالق العفّ، مطبوعات وزارة الثّقافة، غزّة، ط1، 2000م.
294- التّشكيل الصّوتيّ في اللّغة العربيّة – فونولوجيا العربيّة – د. سلمان العانيّ، ترجمة: د. ياسر الملاّح، مراجعة: محمّد محمود غالي، النّادي الأدبيّ الثّقافيّ، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط1، 1403هـ - 1983م.
295- تتمّة أضواء البيّان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمّد الأمين بن محمّد المختار الجنكيّ الشّنقيطيّ، طبع على نفقة الشّيخ محمّد بن عوض بن لادن، ط1، 1400هـ – 1980م.
296- الخطابة، الفنّ الثّامن، الشّفاء، أبو عليّ الحسن بن عبد الله ابن سينا، تصدير ومراجعة، د. إبراهيم مذكور، تحقيق: محمّد سليم سالم، المطبعة الأميريّة، القاهرة، د ط، 1954م.
297- الخواطر الحسان في المعاني والبيان، جبر ضومط، طبعة التّأليف (الهلال)، مصر، د ط، 1896م.
298- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنّيّ، تحقيق: محمّد عليّ النّجّار، عالم الكتب، بيروت، د ط، 1983م.
299- خصائص الإيقاع الشّعريّ، د. العربيّ عميش، دار الأديب للنّشر والتّوزيع، د ط، 2005م.
300- خصائص الحروف العربيّة ومعانيها، عبّاس حسن، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، د ط، 1998م.

301- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرّمّانيّ والخطّابيّ وعبد القاهر الجرجانيّ في الدّراسات القرآنيّة والنّقد الأدبيّ، حقّقها وعلّق عليها: محمّد خلف الله أحمد، د. محمّد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، د ت.
302- الظّاهرة القرآنيّة، مالك بن نبيّ، ترجمة: د. عبد الصّبور شاهين، بيروت، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، دمشق، ط4، 1407هـ - 1987م.
303- ظواهر قرآنيّة في ضوء الدّراسات اللّغويّة بين القدماء والمحدثين، د. البدراويّ زهران، دار المعارف للنّشر، القاهرة، ط2، 1993م.

– باللّغة الأجنبيّة:

304- Element of General Phonetics; David Abercrombie ; Puplished by : Cambridge University Press ; 1969.
305- Etudes de linguistique arabe; Mémorial Jean Cantineau; Published in 1960 in Paris; by Klincksieck.
306- La description phonologique – avec application au parler Franco-provençal d'Haute ville- Genève ; André Martinet ; Libraire ; Droz ; Paris ; 5éme ; M.J ; Minard.
307- L'accent en français: accent probaliture ; in L'accent en français contemporain ; Fonagy; Studia Phonetica; Montréal; Paris; 1980.
308- Longman Dictionary of Contemporary English; Della Summers; Firth Edition; Harlow; Essex; England; Longman; New ed; 1987.
309- Modes of meaning; J; R; Firth; Bobbs-Memil Reprint; Series in Language and Linguistics; Lead; 1951 ; P: 192
310- Phonetics (Penguin Language and Linguistics); J; D Oconnor; Perguin UK; June 1999.
311- Prosodic Features and Prosodic Structure; The Phonology of Suprasegmentals; Anthony Fox; (Oxford Linguistics) University Press; 2000.
312- Structure du language poétique ; Jean Cohen ; Paris ; Flammarion ; « Nouvelle Bibliothèque scientifique » 1966.
313- The Phoneme; its nature and use; Daniel Jones; Cambridges Heffer; First published; 1950.

- **رسائل الماجستير والدّكتوراه:**

314- الأثر الدّلاليّ لحذف الاسم في القرآن الكريم، الطّالب: محمّد جعفر العياضيّ، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة، 1998م.

315- أثر التّنغيم في توجيه دلالة القرآن الكريم، الطّالبة: رشيدة بودالية، رسالة ماجستير، إشراف: د. الجيلالي بن يشو، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، جوان 2009م.

316- بنيّة التّشكيل الصّوتيّ لأسلوب الاستفهام في القرآن الكريم، الطّالبة: تارا فائز سعيد، رسالة ماجستير، جامعة صلاح الدّين، العراق، ربيع الثّاني 1427هـ – آيار 2006م.

317- اللّحن الخفيّ عند القرّاء – دراسة صوتيّة –، الطّالب: رافع عبد الغنيّ يحيى، رسالة ماجستير، كليّة التّربيّة، جامعة الموصل، 2004م.

318- التّحليل الصّوتيّ للنّصّ - بعض قصار سور القرآن الكريم أنموذجا –، الطّالب: مهديّ عناد أحمد قبّها، أطروحة دكتوراه، إشراف: د. محمّد جواد النّوريّ، جامعة النّجاح الوطنيّة، نابلس، فلسطين، 2011م.

319- التّشكيل التّنغيميّ في المنظومة اللّغويّة العربيّة، الطّالب: طالب محمّد هايل، إشراف: د. رضوان القضماويّ، رسالة ماجستير، جامعة البعث، حمص، 2001م.

320- خلاصة العجالة في بيان مراد الرّسالة في علم التّجويد، حسن بن إسماعيل الدّركزليّ الحبّار الموصليّ – دراسة وتحقيق – رسالة دكتوراه، الطّالب: خلف حسين صالح الجبّوريّ، إشراف: د. غانم قدوريّ الحمد، جامعة تكريت، 1423هـ – 2002م.

- **الـدّوريّـات:**

321- الأداء الصّوتيّ في اللّغة، رشاد محمّد مسلم، مجلّة جامعة الشّارقة للعلوم الشّرعيّة والإنسانيّة، المجلّد: 02، العدد: 02، ربيع الثّاني 1436هـ – يونيو 2005م.

322- الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، د. حمدان رضوان أبو عاصي، مجلّة الجامعة الإسلاميّة –سلسلة الدّراسات الإنسانيّة–، فلسطين، المجلّد: 17، العدد: 02، يونيو 2009م.

323- الإيقاع في القصّة القرآنيّة، إبراهيم جنداويّ، مجلّة الموقف العربيّ، دمشق، العدد: 379، 2002م.

324- ألفاظ الألوان ودلالتها عند العرب، إبراهيم محمود خليل، مجلّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، عمادة البحث العلميّ، الجامعة الأردنيّة، المجلّد: 33، العدد: 03، 2006م.

325- الأنماط المقطعيّة في اللّغة العربيّة - دراسة كميّة-، عصام أبو سليم، المجلّة العربيّة للعلوم الإنسانيّة، الصّادرة عن مجلس النّشر العلميّ، الكويت، المجلّد: 09، العدد: 36، يناير 1989م.

326- أساسيّات الفكر الصّوتيّ عند البلاغيّين – قراءة في وظيفة التّداخل المعرفيّ –، د. مشتاق عبّاس معن، حوليّات الآداب والعلوم الاجتماعيّة، العراق، الحوليّة: 27، 1437هـ – 2006م.

327- أثر الصّوت في توجيه الدّلالة - دراسة أسلوبيّة صوتيّة-، دة. ساجدة عبد الكريم، مجلّة جامعة تكريت للعلوم الإنسانيّة، المجلّد: 17، العدد: 03، آذار 2010م.

328- أثر التّنغيم في توجيه الأغراض البلاغيّة لعلم المعاني، د. مزاحم مطر حسين، مجلّة القادسيّة في الآداب والعلوم التّربويّة، العددان: 03 – 04، المجلّد: 06، 2007م.

329- جماليّات الخروج والانقطاع، د. كمال أبو ديب، مجلّة دراسات لسانيّة وسيميائيّة، الدّار البيضاء، العدد:22، 1999م.

330- دور الفونيمات الثّانويّة في أسلوب النّداء، د. جمال دليع العرينيّ، مجلّة الجامعة الإسلاميّة للبحوث الإنسانيّة، المجلّد: 22، العدد 01، يناير 2014م.

331- دور التّنغيم في تحديد معنى الجملة العربيّة، د. سامي عوض، و أ. عادل عليّ نعامة، مجلّة جامعة تشرين للدّراسات والبحوث العلميّة، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانيّة، المجلّد: 28، العدد: 01، 2006م.

332- الدّلالة الصّوتيّة والدّلالة الصّرفيّة عند اِبن جنّيّ، أ. عبد الكريم مجاهد، مجلّة عالم الفكر، العدد:26، السّنة: 04، آذار 1982م.

333- اللّحن الخفيّ في الدّرس الصّوتيّ العربيّ، د. غانم قدّوريّ الحمد، المجلّة العلميّة لجامعة تكريت، مج: 01، العدد: 01، 1994م.

334- مواضع اللّبس وتحقيق أمنه في البناء الصّرفيّ والرّسم الإملائيّ، د. مالك يحيا، مجلّة دراسات في اللّغة العربيّة وآدابها، العدد: 11، خريف 1391هـ- 2012م.

335- منهج التّحليل اللّغويّ في النّقد الأدبيّ، د. سمير استيتيّة، مجلّة التّراث العربيّ، دمشق، العدد: 15، يناير 1985م.
336- الملامح التّطريزيّة في الدّراسات النّحويّة والصّرفيّة القديمة ونظريّة تكامل العلوم، د. أحمد البايبيّ، مجلّة آفاق الثّقافة والتّراث، مركز جمعة الماجد للثّقافة والتّراث، السّنة: 21، العدد: 81، جمادى الأولى 1434هـ- مارس 2012م.
337- مستقبل الثّقافة العربيّة، محمود الطّناحيّ، كتاب الهلال، القاهرة، العدد:581، 2001م.
338- مقالات في الأدب والمجتمع والحياة، نوافذ وشرفات، د. أحمد زياد محبك، دار الثّريا، حلب، السّنة: 25، العدد: 1266، الأسبوع الأدبيّ 08-10-2011م.
339- النّبر في القرآن الكريم، د. سيّد حسن أرباب، دراسات دعويّة، العدد: 17، يناير 2009م.
340- سيكولوجيّة اللّغة، جمعة سيّد يوسف، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد: 04، 1990م.
341- الاستفهام في البلاغة العربيّة – دراسة في البنيّة والدّلالة-، د. عبد الرّحيم محمّد الهبيل، مجلّة البحوث والدّراسات التّربويّة الفلسطينيّة، العدد: 19، يونيو 2012م.
342- عودة إلى موسيقى القرآن، د. نعيم اليافيّ، مجلّة التّراث العربيّ، تصدر عن اتّحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد: 25، السّنة: 04، 1984م.
343- الفونيمات فوق التّركيبيّة، د. عطيّة سليمان أحمد، مجلّة مركز الاستشارات البحثيّة، كليّة الآداب للنّشر، شعبة الخدمات المعلوماتيّة، السّويس، ماي 2009م.
344- القيم الصّوتيّة في الخطاب النّسائيّ في القرآن الكريم، عويض بن محمود العطويّ، مجلّة جامعة الملك سعود، السّعوديّة، المجلّد: 20، العدد: 02، 1429هـ – 2008م.
345- القراءة الجهريّة بين الواقع وما نتطلّع إليه، د. سليمان بن إبراهيم العايد، ندوة: ظاهرة الضّعف اللّغويّ في المرحلة الجامعيّة، الرّياض، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، المجلّد: 03، 1418هـ.
346- رحلة العلامة من الصّوت إلى الرّمز، د. محمّد ربيع، مؤسّسة اليمامة الصّحفيّة 2001م، جريدة الرّياض، العدد: 12050، السّنة: 37، 1422هـ - 2001م.

347- قضايا أساسيّة في ظاهرة التّنغيم في اللّغة العربيّة، د. محمّد صالح الضّالع، المجلّة العربيّة للعلوم للإنسانيّة، العدد: 67.

348- التّنغيم: صوت ودلالة، دة. سعاد بسناسيّ، مجلّة القلم، جامعة وهران، الجزائر، العدد: 03، مارس 2006م.

349- التّنغيم عند ابن جنيّ، أ. أحمد البايبيّ، مجلّة آفاق الثّقافة والتّراث، الإمارات العربيّة المتّحدة، السّنة: 11، العدد: 41، صفر 1434هـ – أبريل 2003م.

350- التّنغيم في إطار النّظام النّحويّ، د. أحمد أبو اليزيد عليّ الغريب، مجلّة جامعة أمّ القرى للبحوث العلميّة المحكّمة، مكّة المكرّمة، العدد: 14، السّنة: 10، 1417هـ – 1996م.

351- التّنغيم في التّراث العربيّ، د. عليان بن محمّد الحازميّ، مجلّة جامعة أمّ القرى للبحوث العلميّة المحكّمة، مكّة المكرّمة، العدد: 12، 1995م.

352- التّحليل الأكوستيكيّ لنبر الكلمة في اللّغة العربيّة، د. عبد الحميد زاهيد، مجلّة اللّسان العربيّ، المنظّمة العربيّة للتّربيّة والثّقافة، مكتب تنسيق التّعريب، الرّباط، العدد: 46، شعبان 1319هـ – ديسمبر 1998م.

353- ثلاث قضايا حول الموسيقى في القرآن، د. نعيم اليافيّ، التّراث العربيّ، مجلّة فصليّة تصدر عن اتّحادّ الكتّاب العرب، دمشق، العدد: 17، السّنة: 04، محرّم 1405هـ – أكتوبر 1984م.

– شبكة الأنترنيت:

354- إدراك علماء التّجويد للتّنغيم، طالب محمّد هايل،
http://montada.gawthany.com/VB/showthread.php?s=&threadid=817

355- أسباب تدنّي التّحصيل في اللّغة العربيّة، د. محمّد الحنّاش، الثّقافة المغربيّة، الدّار البيضاء، دط، 2003م،
www.pdffactory.com Factory PDF created with pdf
trial version

356- جماليّات الإيقاع في اللّغة العربيّة، د. أسامة عبد العزيز جاب الله، جامعة كفر الشّيخ،
www//Prosidic Features and Prosodic Structure; FOX; A; 2000.

357- دور التّنغيم في التّواصل اللّسانيّ، د. أحمد البايبيّ، مقال منشور على شبكة الأنترنيت
www.Google.comhttp: // www.shamela.ws.

358- التّنغيم ودلالته في اللّغة العربيّة، يوسف عبد الله الجوارنة، بحوث في اللّغة، المصدر: اتّحاد كتاب العرب، http: // www.shamela.ws.

359- خطّة مقترحة لتنميّة مهارة الاستماع في اللّغة العربيّة لدى تلاميذ المرحلة الابتدائيّة بدولة قطر، د. السّليطيّ حمزة.

www.moe.edu.qa/arabic/magazines/tarbawya/art2.shtml

فهرس الموضوعات

الصّفحة

البسملة.

شكر وتقدير.

إهداء.

مقدّمة.. أ – ط

المدخل: أهميّة المهارات اللّغويّة في تحسين القراءة القرآنيّة...............10

المبحث الأوّل: المهارات اللّغويّة وعلاقتها بالقراءة القرآنيّة الصّحيحة....... 11

المبحث الثّاني: تكامل المهارات اللّغويّة وتوظيفها في قراءة القرآن...........18

المبحث الثّالث: مفهوم التّرتيل.. 20

المبحث الرّابع: الفرق بين القراءة والتّلاوة.. 31

المبحث الخامس: مراتب التّلاوة...34

المبحث السّادس: الكتابة العثمانيّة في المصاحف وإيضاحها.............36

المبحث السّابع: أهميّة التّلقّي ومنهجه في تعلّم القرآن الكريم............... 39

الفصل الأوّل: النّظام المقطعيّ ودلالته في الخطاب القرآنيّ.............. 44

المبحث الأوّل:مصطلحات الفونيم والصّوت والحرف.........................46

1– مفهوم الفونيم.. 47

2– مفهوم الصّوت.. 50

أ– التّعريف اللّغويّ للصّوت...50

ب– التّعريف الاصطلاحيّ للصّوت.. 51

3– مفهوم الحرف.. 52

أ– التّعريف اللّغويّ للحرف.. 52

ب– التّعريف الاصطلاحيّ للحرف.. 53

المبحث الثّاني:الفرق بين المصطلحات الثّلاثة (الفونيم-الصّوت-الحرف)..53
المبحث الثّالث: بين الفونيم والألفـون..56
المبحث الرّابع: وظيفة الفونيم...58
المبحث الخامس: فائدة الفونيـم...59
المبحث السّادس: أنواع الفونيـم...61
1- الفونيم القطعيّ.. 61
2- الفونيم فوق القطعيّ.. 61
المبحث السّابع: السّمات الفونولوجيّة للأصوات العربيّة............... 63
المبحث الثّامن: الدّلالة الصّوتيّة.. 64
المبحث التاسع: الكتابة المقطعيّة 69
- مفهوم المقطع... 69
أ- التّعريف اللّغويّ للمقطع.. 69
ب- التّعريف الاصطلاحيّ للمقطع.. 71
- الاتّجاه الفونينيكيّ الفيزيائيّ أو الأكوستيكيّ.............................. 72
- الاتّجاه الفونولوجيّ (الوظيفيّ)... 74
المبحث العاشر: أشكال المقطع في اللّغة العربيّة......................... 76
المبحث الحادي عشر: أنواع المقطـع....................................... 77
1- المقطع المنبور.. 77
2- المقطع غيـر المنبـور... 77
المبحث الثّاني عشر: خصائـص المقاطع في اللّغة العربيّة والقرآن الكـريـم.77
المبحث الثّالث عشر: أهميّـة المقطع فـي تحليل النّصّ.................. 79
1- الاختيار الصّوتيّ والتّأليـف... 79
2- دلالة المقطـع في الخطاب القرآنيّ.. 82
أ – البنيّة المقطعيّة في القـرآن الكريم.......................................82

ب – مراعاة استخدام النّظام المقطعيّ في التّلاوة........................ 83
أ – ألف المدّ.. 83
ب – حذف حروف وزيادة حروف.. 84
ج – مواضع الوقف والوصل والفصل.. 85
د – الهمزة.. 85
3- الكتابة المقطعيّة.. 86
المبحث الرّابع عشر: تجلّيات المقطع ودلالته في الخطاب القرآنيّ....... 89

الفصل الثّاني: استقامة الأداء القرآنيّ والنّبر.. 106
المبحث الأوّل: النّبر ومظاهره في اللّغة العربيّة..................................... 108
1- مفهوم النّبـــر.. 108
أ- التّعريف اللّغويّ للنّبر... 108
ب-التّعريف الاصطلاحيّ للنّبر.. 109
2- النّبر ودلالته في علم الأصوات التّشكيليّ.................................... 110
3- أنـــواع النّبـر... 112
أ- نبر الكلمة (أو الصّرفيّ) (أو الصّيغة).. 112
ب- نبر الجملة (أو السّيّاق).. 115
ج- النّبر الانفعاليّ... 119
4- مظاهـر النّبر.. 119
أ- الهمز.. 119
ب- مدّ الحركات... 120
ج- دلالة صوت المـدّ.. 120
د- التّضعيف... 120
5- فوائد النّبر... 121
6- وظيفة النّبر.. 121
أ- الوظيفة الصّوتيّة.. 122
ب- الوظيفة الصّرفيّة... 122

ج- الوظيفة الدّلاليّة.. 123
د- الوظيفة التّعبيريّة.. 123
هـ- الوظيفة الإيقاعيّة.. 124
و- الوظيفة الجماليّة.. 124
المبحث الثّاني: النّبر بين العلماء القدماء والمحدثين........................ 125
1- النّبر في الدّراسات العربيّة القديمة.. 125
2- النّبر في الدّراسات العربيّة الحديثة.. 132
المبحث الثّالث: دلالة النّبر وتجلّياته في الخطاب القرآنيّ........................ 137
1- دور النّبر وأهميّته في تحديد المعنى.. 137
2- أهميّة النّبر في تلاوة القرآن الكريم.. 139
3- اللّغة العربيّة واللّحن وعلاقته بالنّبر.. 143
- علاقة النّبر باللّحن.. 146
- مفهوم اللّحن.. 147
أ- التّعريف اللّغويّ للّحن.. 147
ب- التّعريف الاصطلاحيّ للّحن.. 149
- نوعا اللّحن وصورهما.. 150
1- اللّحن الجلّيّ.. 150
2- اللّحن الخفيّ.. 151
- الفرق بين اللّحن الخفيّ واللّحن الجلّيّ.. 153
- حكم اللّحن.. 154
4- أسس القراءة السّليمة.. 156
- أركان القراءة السّليمة.. 157
- أمن اللّبس.. 158
أ- التّعريف اللّغويّ للّبس.. 158
ب- التّعريف الاصطلاحيّ للّبس.. 159
- مفهوم أمن اللّبس.. 159
- أنواع أمن اللّبس.. 162

1- أمن اللّبس في القرآن الكريم.. 162
2- أمن اللّبس في السّنّة النّبويّة.. 163
3- أمن اللّبس عند الصّحابة.. 164
4- أمن اللّبس في القراءات القرآنيّة.. 165
- العلاقة بين النّبر واللّحن والقراءة وأمن اللّبس..165
المبحث الرّابع: أمثلة من القرآن الكريم على الأخطاء في النّبر............. 168
المبحث الخامس: النّبر على العامل النّحويّ «ما»........................... 171
المبحث السّادس: تجلّيات النّبر في الخطاب القرآنيّ وأثره في المعنى.....174
المبحث السّابع: الآثار الصّوتيّة والصّرفيّة والنّحويّة والدّلاليّة للنّبر في الخطاب القرآنيّ.. 178

الفصل الثّالث: التّنغيم وتجلّيات دلالته في الخطاب القرآني............... 200
المبحث الأوّل: مفهوم التّنغيم.. 202
أ- التّعريف اللّغويّ للتّنغيم.. 202
ب-التّعريف الاصطلاحيّ للتّنغيم..202
المبحث الثّاني: التّنغيم وظواهره في الدّرس اللّغويّ العربيّ.................. 207
- التّنغيم في الدّراسات العربيّة القديمة..207
1- عند علماء اللّغة.. 209
2- عند علماء التّجويد.. 216
3- عند الفلاسفة.. 221
- التّنغيم في الدّراسات اللّغويّة الحديثة..225
المبحث الثّالث: الفرق بين التّنغيم والنّغمة والنّغم واللّحن والإيقاع......... 233
1- بين التّنغيم والنّغمة..**233**
2- النّغم.. 234
3- اللّحن.. 234

4- الإيقاع 235
المبحث الرّابع: مكوّنات التّنغيم.. 236
1- النّغميّة..236
2- الشّدّة... 237
3- النّبر... 237
4- سرعة النّطق (المكوّن الزّمنيّ).. 236
5- الحدّة.. 240
6- الوقف.. 241
المبحث الخامس: النّغمات ودلالتها في الخطاب القرآنيّ...................242
- أنواع النّغمات 244
1- النّغمة الهابطة.. 245
2- النّغمة الصّاعدة.. 246
3- النّغمة المستوية..248
- وظائف التّنغيم... 250
1- وظيفة التّنغيم الصّوتيّة.. 250
2- وظيفة التّنغيم الانفعاليّة.. 251
3- وظيفة التّنغيم التّركيبيّة... 254
4- وظيفة التّنغيم السّياقيّة.. 255
5- وظيفة التّنغيم الجماليّة...255
الفصل الرّابع: الجانب التّنغيميّ في قراءة القرآن الكريم............. .259
المبحث الأوّل: التّنغيم ودلالته في الخطاب القرآنيّ 260
المبحث الثّاني: علاقة الإيقاع بالتّنغيم 270
1- مفهوم الإيقاع.. 270
أ- التّعريف اللّغويّ للإيقاع..270
ب- التّعريف الاصطلاحيّ للإيقاع.. 271
2- دلالة الإيقاع وارتباطه بالتّنغيم في الخطاب القرآنيّ.......................... 274

المبحث الثّالث: علاقة الوقف بالتّنغيم 288
1- مفهوم الوقف 288
أ- التّعـريف اللّغويّ للوقف 288
ب- التّعريف الاصطلاحيّ للوقف 288
2- أحكام الوقف 289
3- علامات الوقف المثبتة في المصحف الشّريف 290
4- أهميّة الوقف في القرآن وأنواعه 291
5- أقسام الوقف 292
6- دلالة الـوقف وارتباطه بالتّنغيم في الخطاب القرآنيّ 295
المبحث الرّابع: دلالة تنغيم الجملة في الخطاب القرآنيّ 310
1- تجليّات التّنغيم ودلالته في الجملة الخبريّة في الخطاب القرآنيّ 311
2- تجليّات التّنغيم ودلالته في الجملة الإنشائيّة في الخطاب القرآنيّ 315
أ- دلالة تنغيم أسلوب الاستفهام في الخطاب القرآنيّ 315
ب- دلالة تنغيم أسلوب النّداء في الخطاب القرآنيّ 326
ج- دلالة تنغيم أسلوب الأمر في الخطاب القرآنيّ 332
د- دلالة تنغيم أسلوب النّهي في الخطاب القرآني 334
خاتمــة 340
قائمة المصادر والمراجـع 342
فهرس الموضوعات 374